بسم الله الرحمن الرحيم
(وقف لله تعالى)

يوزع مجانًا

موارد الظمآن لدروس الزمان

خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان

تأليف الفقير إلى عفو ربه
عبد العزيز المحمد السلمان
المدرس في معهد إمام الدعوة العلمي بالرياض
سابقًا

الجزء الثاني

الطبعة الثالثة عشر

١٤١٠ هـ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



مهداة من :

عبد العزيز المحمد السلمان

المملكة العربية السعودية

19

بسم الله الرحمن الرحيم
(وقف لله تعالى)

وَمَن أرادَ طِبَاعَتِهِ إبْتِغَـاءَ وَجْه الله تَعَالىٰ لا يُرِيْدُ به عرضـاً مِن الدنيا ، فقد أُذِنَ لَه في ذلك وَجَزَى اللَّهُ خيراً مَن طَبَعَهُ وَقْفاً لله ، أَوْ أعانَ على طبعِهِ ، أَوْ تَسَـبَّبَ لِطَبْعِهِ وتوزيعه على إخوانه المسلمين .

مَوارِدُ الظمآن لدُرُوسِ الزمَان

خطب وحكم واحكام وقواعد ومواعظ وآداب واخلاق حسان

تأليف الفقير إلى عفو ربه

عبد العزيز المحمد السلمان
المدرس في معهد إمام الدعوة بالرياض
سابقاً

الجزء الثاني

الطبعة التاسعة عشر

طُبِـعَ عَلَى نَفَقَـةِ من يَبْتَغِي بذلك وَجْـهَ اللهِ والدار الآخـرةَ فَجـزاه اللهُ عن الإسـلام والمسلمينَ خيراً وغَفَـر له ولوالديه ولمن يُعيـدُ طِبَـاعَتَه أو يُعيْنُ عليهـا أو يَتَسبَب لها أو يُشـيرُ على مَنْ يُؤمِـلُ فيـه الخـيرَ أن يَطبَعَـه وقفـاً لِلَّهِ تعـالى يُوزَّع على إخونِهِ المسـلمين

اللهم صلى على محمد وعلى آله وسلم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٤١٠هـ

(فَصْــلٌ)

في الوعظ والارشــاد

إعْلمْ وَفَّقَنا اللهُ وإيَّاكَ وَجَمِيْعَ المسلمينَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيرْضَاهُ أَنَّ الدعوةَ الى اللهِ عَمَلُ الأنبياءِ والمرسلينَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِم أجمعين ، وأن العُلَمَاءَ نُوَّابُ عن الأنبياءِ في هَذَا الأمْرِ الخَطِيْرِ فَهُم أُمَنَاءُ اللهِ عَلَى شَرْعِهِ والحَافِظُونَ لِدِيْنِهِ القَوِيْم والقائِمُونَ على حُدُوْدِ اللهِ والعَارِفُونَ بِمَا يَجِبُ لِلهِ مِن كَمَالٍ وَتَنْزِيْهٍ .

لِذَلِكَ كَانَ أَئِمَةُ المُسْلِمِيْنَ المُخْلِصُونَ في أَعْمَالِهِم الصَّادِقُونَ في أقوالِهِم البَعِيْدُونَ عَن الرِيَاءِ وحُبِّ الشُّهْرَةِ والمَدْحِ يَسِيْرُوْنَ بالخَلْقِ نَحوَ سَعَادَتِهم بِمَا يُعَلِّمُونَهُم مِن أُمُوْرِ دِيْنِهم وَبِمَا يُرْشِدُوْنَهُم إليهِ مِن التَّحَلِّي بِالفَضِيْلَةِ والتَّخَلِّي عِن الرَّذِيْلَةِ واعْتَقَدَ الناسُ فيهم ذَلِـكَ وأَمَّلُوهُم لَهُ فَأَحَلُّوهُمْ مِن أَنْفسِهِم مَحَلاً لَم يَبْلُغْهُ سِوَاهم مِن البَشَرِ حَتَّى اكْتَسَبُوا في قُلُوبِهم مَكانَةً يُغْبَطُونَ عَلَيْهَا وَرَبِحُوا مَنْزِلَةً تَصْبُوْا إلَيْهَا نُفُوسُ ذَوِيْ الهِمَّةِ العَالِيَةِ والفَضْلِ .

وَنَاهِيْكَ بِقَومٍ إذا فَعَلُوا لَحَظَتْهُم العُيُونُ وإذَا قَالُوا أَصْغَتْ الآذَانُ وَوَعَتِ القلوبُ وَحَكَتِ الأَلْسُنُ فَهم مَطْمَحُ الأَنْظَارِ وَمَوْضِعُ الثِّقَةِ والحُجَّةِ البَالِغَةِ والبُرْهَانِ القَاطِعِ والنُوْرِ السَّاطِعِ قال الله تعالى ﴿ وَمَن أَحْسَنُ قولاً مِمَّنْ دَعَا إلى اللهِ وَعَمِلَ صالحاً وقال إنَّنِي مِن المُسلِمِين ﴾ .

المَعْنى لَا أَحَدَ أَحْسَنَ كَلَاماً وَطَرِيْقَةً وَحَالَةً مِمَّنْ دَعَا النَاسَ إلى طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَة رُسُلِهِ وَذَلِكَ بِتَعْلِيم جَاهِلِهم وَوَعْظِ غَافِلِهم وَنُصْحِ مُعْرِضِهم وَمُجَادَلَةِ مُبْطِلِهم بِالأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللهِبِجَمِيْعِ أنواعِهَا والحَثِّ عليها وَتَحْسِيْنِهَا وَتَحْبِيْبِهَا مَهْمَا أَمْكَن والزَجْرِ عمَّا نَهَى اللَّهُ وَرَسُولُه عَنْهُ وَتَقْبِيحِهِ والتَحْذِيْرِ مِنْهُ بِكُلِّ وَسِيْلَةٍ وَطَرِيقةٍ تُوجِبُ تَرْكَهُ .

وَكَانَ الْحَسَنْ إِذَا تَلَا هَذِهِ الآيَةَ يَقُولُ هَذَا حَبِيبُ اللَّهِ ، هَذَا وَلِيُّ اللَّهِ ، هَذَا صَفْوَةُ اللَّهِ ، هَذَا خِيْرَةُ اللَّهِ ، هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الأَرْضِ إِلَى اللَّهِ ، أَجَابَ اللَّهُ في دَعْوَتِهِ ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى مَا أَجَابَ فِيهِ مِنْ دَعْوَتِهِ ، وَعَمِلَ صَالِحاً في إِجَابَتِهِ .

وَقَالَ في هِدَايَةِ الْمُرْشِدِينَ إِنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ عَلَى الدَّاعِي الْعِلْمُ بِالْقُرْآنِ وَالْمُرَادُ بِالنَّظرِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى كَوْنِهِ هُدىً وَمَوْعِظَةً وَعِبْرَةً .

وَكَذَلِكَ السُّنَّةُ وَمَا صَحَّ مِنْ أَقْوَالِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسِيرَتِهِ وَسِيَرَةِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِيْنَ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ وَبِالْقَدْرِ الكَافي مِنْ الأَحْكَامِ وَأَسْرَارِ التَّشْرِيعِ مَعَ الصِّدْقِ في نَشْرِهَا فَإِنَّ مَرْتَبَةَ التَّبْلِيغِ عَنِ اللَّهِ لَمْ تَكُنْ إِلاَّ لِمَنْ اتَصِفُ بِالْعِلْمِ مَعَ الصِّدْقِ .

وَالْمُرْشِدُ وَارِثٌ لِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ وَلْيَتَمَكَّنْ مِنْ تَعْلِيم ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ فَلَا يَزِيغُ في عَقِيدَتِهِ وَلَا يَعْجَزُ عَنْ اقْنَاعِ النُّفُوسِ الْمُتَطَلِعَةِ إلى مَعْرِفَةِ أَسْرَارِ الأَحْكَامِ الشَّرعِيَّةِ فَيَكُونُ الإِذْعَانُ لَهُ أَتَمّ والْقَبُولُ مِنْهُ أَكْمَلَ .

فَأَمَّا الْجَاهِلُ فَضَالٌ مُضِلٌ وَضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ، وَمَا يُفْسِدُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُهُ إِذْ لَا تَمْيِيزَ لِجَاهِلٍ بَيْنَ الْحَقِ والْبَاطِلِ وَلَا مَعْرِفَةَ عِنْدَهُ تُرْشِدُ

إلى إصْلَاحِ الْقُلُوبِ وَتَهْذِيبِ النُّفُوسِ .

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِي رَحِمَهُ اللَّه الْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ ، وَفِي الْحِكَمِ مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً بِغَيْرِ دَلِيلٍ ضَلَّ ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِغَيْرِ أَصْلٍ زَلَّ .

وأَمَّا الْكَاذِبُ فَلَا خَيْرَ فِيهِ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ، لِهَذَا حَرَّمَ اللَّهُ الْقَوْلَ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ ، وَجَعَلَهُ مِنْ أَفْحَشِ الْكَبَائِرِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، والإِثْمَ ، والْبَغْيَ بِغَيْرِ الحقِ ، وأَنْ تُشْرِكُوا باللَّهِ ما لَمْ يُنزِلْ بِهِ سُلْطَاناً ، وأَنْ تَقُولُوا على اللَّهِ ما لا تَعْلَمُون ﴾ .

وَهَذَا يَعُمُّ القولَ على اللَّهِ في أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَذَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَفي دِيْنِهِ وَشَرْعِه ، وَقَالَ تَعَالَى ﴿ ولا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُم الكَذِبَ هَذا حَلال وهَذَا حَرام لِتَفْتَروا عَلى اللَّهِ الكَذِبَ انَّ الذيْنَ يَفْتَرُون على اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفلِحُونْ ﴾ .

وَمِمَّا يَنْبَغِيَ أَنْ يَتَّصِفَ بِهِ الدَّاعِيْ الْعَمَلُ بِعِلْمِهِ فَلَا يُكَذِّبُ فِعْله قَوْلَهُ ، ولا يُخَالِفُ ظَاهِرُهُ باطِنَه ، فَلا يَأمُرُ بِشَيءٍ إِلَّا وَيَكُونُ أَوّلَ عَامِلٍ بِهْ ، وَلَا يَنْهَى عَنْ شَيءٍ إِلَّا وَيَكُونُ أَوّلَ تَارِكٍ لَهْ ، لِيُفِيْدَ وَعْظُهُ وارشَادُهْ . فَامَّا إِنْ كانَ يَأْمُرُ بالْخَيْرِ وَلَا يَفْعَلُهُ وَيَنْهَى عَنْ الشَّرِّ وَهُوَ وَاقِع فِيهِ ، فَهُوَ بِحَالِه عَقَبَةٌ في سَبِيلِ الإِصْلَاحْ ، وَهَيْهَاتَ أَنْ يُنْتَفِعَ بِهْ ، فإِنَّهُ فاقِد الرّشْدِ في نَفْسِهِ فَكَيْفَ يُرْشِدَ غَيْرَهُ .

اللّهُمّ اجْعَلْنَا من التَّالِيْنَ لِكِتابِك الْعَامِلينَ بِهِ الْمُحَلِّلِيْنَ حـلاَلَهُ

المُحرّمِين حَرَامَهُ المُمْتَثِلِينَ لِأوَامِرِهِ المُجْتَنِبِين نواهِيَهُ المُتَعظِين بِمواعِظِهِ المُنْزَجِرين بِزواجِرِهِ المُتفكِّرِيْنَ في مَعَانِيهِ المُتَدَبِّرِينَ لِألْفَاظِـهِ البَاكِينَ المقْشَعِرِّيْنَ عِنْدَ تِلاَوَتِه وَسَمَاعِهِ واغْفِر لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ المُسْلِمين الأحْياءِ مِنْهُمْ والمَيِّتِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَصَلَّى اللّهُ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِينْ .

(فَصْــلٌ)

قالَ مَالِكُ بْنُ دِيْنَارٍ إنَّ العَالِمَ اذا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ زَلَّتْ مَوْعِظَتُه عَن القلوبِ كَمَا يَزِلُّ القَطْرُ عن الصَّفا فانّ مَن حَثَّ على التَّحلي بِفَضِيْلةٍ ، وهو عَاطِلٌ مِنها ، لا يُقْبَلُ قَوْلُه ، كَمَنْ يَحُثَ النّاسَ على الحِلمِ والصّبْرِ والكَرَم وَهُوَ بِضِدِّ ذلكِ قالَ تَعَالى ﴿ أتأْمُرُونَ الناسَ بِالبِرّ وَتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ وأنْتُم تَتْلُونَ الكِتَابَ أفَلاَ تَعْقِلُون ﴾ .

وَمِثْلُ ذَلكَ مَن يَنْهى عن الأخْلاَقِ السَّاقِطَةِ والبِدَعِ والمَلاَهِي وَهُو مُتَلَوِّثٌ بِهَا كَمَنْ يَنْهي عن الدُّخانِ أبي الخبائِثِ والخَمْرِ أمِّ الخَبَائِثِ وَهُوَ يَشْرَبُهُمَا ، وَكَمَن يَأمُرُ بـالابتعَادِ عن التّلفـزيُون والمِـذياعِ والسِّيْنَمَـاءِ والبَكَماتِ ، وَهُو يَشْتَرِيْهَا أوْ يَحْظُرُهَا .

وَكَمَنْ يَنْهى عن حَلْقِ اللِّحْيَةِ والخَنَافِسِ والتَّشَبُّهِ بالنساءِ والمُردِ والكُفارِ وهو مُتَلَبِّسٌ بها وَكَمَنْ يَنْهَى عن الكُورَةِ وهو يَحْظُرُهَا ، أوْ يَنْهَى عن بَيْعِ هَذِهِ المَلاَهِي وشرائِهاوَتَصْلِيحِهاوهو يَفْعَلُ ذلِكَ ، فهذا يُقابَلَ قَولُهُ بالرَّدِ ، ولا يُعَامَلُ إلا بالإعْرَاضِ ، والإهْمَالِ ، بل مَحَلُّ سُخْرِيَّةٍ ، واسْتِهْزَاءٍ في نَظَرِ العُقَلاَءِ

شعــراً :

قَــوْلٌ جَمِيْــلٌ وأفعــالٌ مُقَبَحَــةٌ ... يَا بُعْدَ ما بَيْنَ ذاكَ القَولِ والعَمَلِ

فإنَّ مَنْ تَناوَلَ شَيْئاً فَأَكَلَهُ وَقَالَ لِلنَّاسِ لاَ تَتَنَاوَلُوهُ ، فإنَّهُ سُمٌّ مُهْلِكٌ سَخِرَ الناسُ مِنه ، واسْتَهْزَؤُا بِه واتَّهَمُوهُ في دِيْنِهِ وعِلمِهِ وَوَرَعِهِ ، وَكَأَنَّهُ بِزَجْرِهِ وَنَهْيِهِ حَرَّصَهُم عليه ، فيقولُونَ لَوْلا أَنَّهُ لَذِيْذ مَا كَانَ يَسْتَأْثِرُ بِهِ .

كذَلِكَ الدَّاعِي إذا خَالَفَ فِعْلُه قَوْلَهُ ، أَمَّا الإئْتِمَارُ بِمَا سَيَأْمُرُهُم بِهِ أَوَّلاً وَالتَّخَلُّقُ بِمَا يَدْعُوهُم إليهِ فَهُوَ وَاقِعٌ في نُفُوسِ السَّامِعِينَ ، وأَقْرَبُ إلى اذْعَانِ الرَّاغِبِيْنَ .

فَمَنْ لَمْ يُكَابِدْ قِيَامَ الَّليْلِ وَسَهرِهِ ، فَكَيْفَ يُسْمَعُ مِنه فَضْلُ قِيَامِ الليل ، وَكَمَنْ يَحُثُّ عَلى الصَدَقَةِ والمُشَارَكَةِ في الأَعْمَالِ الخَيْرِيَّةِ والمَشَارِيْعِ الدِّيْنِيَّةِ ، ولا يُسَاهِمْ فِيهَا أَبَدَا ، فَهَذَا لا يُقْبَلُ قَوْلُهُ ، وَيَكونُ مِمَّنْ يُعِيْنُ عَلى سَبِّهِ ، وَغِيْبَتِهِ ، لما عَرَفْتَ مِن أَنَّ الدَّعْوَةَ إلى صَالِحِ الأعمالِ وَمَكارِمِ الأَخْلاَقِ تربِيَة ، والتَّرْبِيَةُ النَّافِعَةُ إنَّما تَكُونُ بالعَمَلِ ، لأَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ على القدوَةِ الصَّالِحَةِ والأَسْوَةِ الحَسَنَةِ ، لا بِمُجَرَّدِ القَوْلِ .

يَدُلُّكَ على ذَلِكَ مَا في قِصَّةِ الحُدَيْبِيَةِ عن المِسْوَرِ بن مَخْرَمَةِ قال فَلَمَّا فَرَغَ مِن قَضِيَّةِ الكِتَابِ قال رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِأَصْحَابِهِ قُومُوا فانْحَرُوْا ثُمَّ احْلِقُوا ، فَوَاللهِ مَا قَامَ رَجُلٌ منهم حتَّى قال ذلكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنهم أَحَدٌ دَخَلَ على أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِن الناس .

فَقالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ يا نَبِيَّ اللهِ أَتحِبُّ ذلكَ ، أُخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَداً منهم بِكَلِمَةٍ حَتَّى تَنْحَرَ بُدَنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحداً مِنهمْ ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ ، نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ ، فَلَمَّا رَؤَا

ذلكَ قَامُوا فَنَحَرُوْا ، وَجَعَل بَعْضُهُم يَحْلِقُ بَعْضاً ، حَتَّى كادَ يَقْتُلُ بَعْضُهُم بعضًا أَيْ إِزْدِحَاماً وَغَمَّاً .

وفي حديث أبي سعيد قال أَتَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على نَهْرٍ مِن مَاءِ السماءِ والناسُ صِيامٌ في يَوْمٍ صَائِفٍ مُشَاةٌ وَنَبِيُّ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم على بَغْلَةٍ لَهُ فقال اشْرَبُوا أَيُّها الناسُ ، قال فأَبَوْا قال إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُم إِنِي أَيْسَرُكُمْ إِني رَاكِبٌ فأَبَوْا ، فَثَنَى رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَخِذَهُ فَنَزَلَ فَشَرِبَ وَشَرِبَ الناسُ ، وَمَا كانَ يُرِيْدُ أَنْ يَشْرَبَ رواه أحمد .

قال فإِذَا لَمْ يَكُنْ الدَّاعِيْ إلا ذَا قَوْلٍ مُجَرَّدٍ مِن العَمَلِ لَمْ يَكُنْ نَصِيْبُ المَدْعُو مِنه إلا القَولَ ، وأَيْضا فَمَثَلُ المُرْشِدِ مِن المُسْتَرْشِدِ مِثْلُ العُوْدِ مِن الظِلِ ، فَكَمَا أَنَّهُ مُحَالٌ أَنْ يَعْوَجَّ العُوْدُ وَيَسْتَقِيْمَ الظِلُّ كذلكَ مُحَالٌ أَن يَعْوَجَّ المُرْشِدُ وَيَسْتَقِيْمَ المُسْتَرْشِدِ .

قال الغَزَالِي فِيْمَا كَتَبه إلى أَبِيْ حَامِدٍ أَحْمَد بن سَلاَمَةَ بالمَوْصِلِ أَمَّا الوَعْظُ فَلَسْتُ أَرَى نَفْسِيْ أَهْلاً لَهُ لِأَنَّ الوَاعِظَ زَكاةُ نصابِهِ الاتِّعَاظُ فَمَنْ لاَ نِصَابَ لَهُ كَيْفَ يُخرِجُ الزكاةَ وَفَاقِدُ النُّورِ كَيْفَ يَسْتَنِيْرُ بِهِ غَيْرُهُ وَمَتى يَسْتَقِيْمُ الظِلُّ والعُوْدُ أَعْوَجُ ولهذا قيل :

يــا أَيُّهَــا الــرَّجُــلُ الـمُـعَـلِّمُ غَـيْــرَهُ
هَــلاَّ لِـنَـفْـسِــكَ كَــانَ ذَا الـتَّـعْـلِـيْـمُ
تَصِفُ الـدَّوَاءَ لِـذِي السِّقَــامِ مِن الضَّـنَـا
كَـيْـمَـا يَــصِــحُ بِــهِ وأَنْـتَ سَـقِـيْـمُ

مَـا زِلْتَ تُلْقِـحُ بـالـرَّشَـادِ عُقُـولَنَـا
عِـظْتَ وأَنْـتَ مِن الـرَّشَـادِ عَـدِيْـمُ
إِبْـدَأْ بِنَفْسِـكَ فـانْهَهَـا عن غَيِّـهـا
فـإذا انْـتَـهَـتْ عَـنْـهُ فَـأَنْتَ حَـكِـيْـمُ
فَهُنَـاكَ يُقْبَـلُ مـا تَـقُـولُ وَيُـقْـتَـدَى
بـالـرَّأْيِ مِـنْـكَ وَيَـنْـفَـعُ الـتَّـعْلِيْـمُ
لا تَـنْـهِ عَـن خُـلُقٍ وَتَـأْتـيَ مِـثْـلَهُ
عَـارٌ عَـلَيْـكَ إِذَافـعـلْتَ عَـظِيْـمُ

آخـر :

وكُـنْ ناصحـاً لِلْمُسلِمينَ جَميعِهِـم بارْشَـادِهِم لِلْحَـقِ عِنـدَ خَفَـائِـهِ
وَمُرْهُـمْ بِمَعْـرُوفِ الشَّرِيْعةِ وانْهَهُمْ عن السُوءِ وازجُرْ ذا الخَنَاعن خَنَائِهِ
وعِظْـهُمْ بآياتِ الإِلـهِ بِحِكْمَـةٍ لَعَـلَّكَ تُـبْرِي دَاءَهُـم بِـدَوائِـهِ
فـإنْ يَهْـد مَـولانـا بوعْـظِكَ وَاحِـداً تَنَـلْ مِنه يـوم الحَشـرِ خيرَ عَطائِـهِ
والا فَقَـدْ أَدَّيْـتَ مـا كـان واجِبـاً عَليكَ ، وما مُلِكْـتَ أَمْـرَ اهْتِـدائِـهِ

قال وقولُ اللهِ تعالى ﴿ أَتأْمرونَ الناسَ بِالبر وتَنْسَونَ أَنفسَكم وأَنتُم تتلونَ الكتابَ أفلا تعقلون ﴾ تَعْجِيْبٌ لِلْعُقَلاءِ مِن هَذَا المَسْلَكِ المَعِيْبِ ، وَلِلتَّعَجُّبِ وُجُوهٌ مِنْهَا أَنَّ المَقْصُوْدَ مِن الأَمْرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهْيَ عن المُنْكَرِ إرْشَادُ الغَيْرِ إلى الخَيْرِ وَتَحْذِيْرُهُ مِنَ الشَّرِ وارْشَادُ النَّفْسِ إِلَيْهِ وَتَحْذِيْرُهَا مِنْهُ مُقَدَّمٌ بِشَوَاهِدِ العَقْلِ والنقل .

أَمَّا العَقْلُ فَبَدِيْهِيٌ وأَمَّا النَّقْلُ فَكَثِيْرَةٌ مِنها قولُه تعالى حِكَايَةً عن نوح ﴿ ربِّ اغفر لِيْ وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ﴾ وعن خَلِيل اللهِ ابراهيمَ ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيْمَ الصلاةِ وَمِن ذُرِّيَتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ رَبَّنا اغْفِرْ

لِيْ وَلِوَالِدَيَّ ﴾ ، فَمَنْ وَعَظَ غَيْرَهُ ولم يَتَّعِظْ فكأنَّه أتى بِمَا لا يَقْبَلُه العَقْلُ السَّلِيْم .

شــعراً :

تَمَسَّـكْ بِتَقْـوَى اللهِ فـالمَـرءُ لَا يَبْقَى
وكـلُ امـرِىءٍ مـا قَدَّمَتْ يَـدُهُ يَلْقَـى

ولا تَظْلِمَـنَّ الـنـاسَ في أَمْـرِ دِيْـنِهِـم
ولا تَـذكُـرَنْ إفكـاً ولا تَحْسِـدَنْ خَلْقَـا

ولا تَـقْـرَبَـنْ فِـعْـلَ الـحَـرَامِ فـإِنَّـهُ
لَـذاذَتُـه تَـفْـنَـى وأَنـتَ بِـهِ تَـشْـقَـى

وعَـاشِـرْ إذا عَـاشَـرْتَ ذا الدِّيْنِ تَنْتَفِـعْ
بِعِشْـرَتِـهِ واحْـذَرْ مُعَـاشَـرَةَ الحَمْقَى

ودَارِ عَـلى الاطـلَاقِ كُـلًّا ولا تَـكُـنْ
أخَـا عَجَلٍ في الأَمْـرِ واسْتَعْمِلِ الـرِّفْقَا

وَخَـالِفْ حُظُوظَ النَّفْسِ فِيْمَـا تَـرُوْمُـهُ
إذا رُمْتَ لِلْعَلْيَـا أخَـا اللُّبِّ أَنْ تَـرْقَـى

تَـعَـوَّدْ فِعَـالَ الـخَيْـرِ جَـمْعـاً فَـكُلَّمَـا
تَـعَـوَّدَهُ الانسـانُ صَـارَ لَـهُ خُـلْقَـا

اللهمّ ثَبتنَا عَلى قَولِكَ الثابِت في الحَيَاة وفي الآخِرَة وآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنة وفي الآخِرَةِ حَسَنة وَقِنَا عَذَاب النَّار واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْن بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِينْ وصلَّى اللهُ على محمدٍ وعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِينْ .

(فَصْــلٌ)

ومنها أن الواعِظَ الفاعلَ لِلْمُحرماتِ المُحَذِرَ عنها يكونُ سَبَباً لِلْمَعْصِيَةِ لأَنَّ الناسَ يَقُولُونَ لولا أَنَّ هَذا الواعِظَ مُطَلِّعٌ على أنه لا أَصْل لِهَذِهِ التَّخْويفاتِ لَمَا أَقْدَمَ على المَنَاهِي والمُنْكَرَاتِ فَيَكُونُ دَاعِياً إِلى التَّهَاوُنِ بالدِّيْنِ والجَراءَةِ على المَعَاصِي ، وَهَذَا مُنَافٍ لِلْغَرَضِ مِن الوَعْظِ فَلَا يَلِيْقُ بِالعُقَلَاءِ .

وَمنها أَنَّ غَرَضَ الداعِي تَرْوِيْجُ كَلاَمِهِ وَتَنْفِيْذُ أَمْرِهِ ، فَلَو خَالَفَ إِلى مَا نَهى عَنْهُ صَارَ كَلاَمُهُ بِمَعْزِلٍ عن القَبُولِ وهَذَا تَنَاقُضٌ لَا يَلِيْقُ بِالعُقَلَاءِ .

وفي مِثْلِ هَذا يَقُولُ ابنُ القيم رحمَه اللهُ عُلَمَاءُ السُوءِ جَلَسُوا على بابِ الجَنَةِ يَدْعُونَ إليها الناسَ بِأَقْوَالِهم وَيَدْعُونَهُم إلى النارِ بِأَفعالِهِم ، فَكُلَّما قَالَتْ أَقوَالُهُم لِلنّاسِ هَلِمُّوا قَالَتْ أَفعَالُهم لا تَسْمَعُوا مِنهُم فَلَو كَانَ مَا دَعَوا إِلَيهِ حَقاً كَانُوا أَوَّلَ المُسْتَجِيْبِيْنَ لَهُ ، فَهُم في الصُوَرِ أَدِلاَّ وفي الحَقِيْقَةِ قُطَّاعُ طَرِيْقٍ ، قلت وما أكثر هؤلاء في زمننا .

وَذَكَرَ بَعضُ العُلماءِ عن ابن مسعودٍ رضي اللهُ عنه أنه قال سَيَأْتِي على الناسِ زمانٌ تَمْلُحُ فِيه عُذُوْبَةُ القلوبِ فلا يُنْتَفعُ بالعِلْمِ يَوْمئذٍ عالِمُهُ ولا مُتَعَلِّمُهُ فتكونُ قُلُوبُ عُلمَائِهم مِثْلَ السَّبَاخِ مِن ذواتِ المِلحِ يَنْزِلُ عَلَيهَا قَطْرُ السَّماءِ فلا يُوْجَدُ لَهَا عُذُوْبَة .

وذلكَ إذا مَالَت قُلُوبُ العُلَمَاءِ إِلى حُبِّ الدُنْيَا وإِيثارِهَا على الآخرةِ فعِندَ ذلكَ يَسْلُبُهَا اللهُ تعالى يَنَابِيْعَ الحِكْمةِ وَيُطْفِيءُ مَصَابِيحَ الهُدَى مِن قُلُوبِهم فَيُخْبِرُكَ عَالِمُهم حِيْنَ تَلْقَاهُ أَنَّهُ يَخْشَى اللهَ بِلِسَانِهِ والفُجُورُ ظاهِرٌ في عَمَلِهِ . قلتُ وَمَا أَكْثَرَ هَؤُلاَءِ في زَمَنِنَا فتأمل ودَقِّق النَّظَرَ تُصَدِّق . ومِن العَجِيْب ما حَدَثَ في زَمَنِنَا تجد بَعْضَهم يَحْمِل شَهادَةَ الدُكتوراه أو الماجستير

أو هما ويُعْطَى فيها شهادةً فِيَ الفقه الإسلامي .

وهو ما يُحْسِنُ إلا ما كَتَبَ فيه بَحْثاً إمَّا موضوع الربى أو السرقة أو الخمر مَثَلاً .

ولا يجيد غير هذا الموضوع الذي حَصَلَ على هذه الشهادة بسبَبه .

بَل الفرائض التي نصف العلم لا يجيدها فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فَمَا أَخْصَبَ الأَلْسُنَ يومَئِذٍ وَمَا أَجْدَبَ القُلُوبَ قَالَ فَوَاللهِ الذي لا إِلَه إلاَّ هُوَ ما ذلكَ إِلا واللهُ أعلم كما قال بعضهم لِأَنَّ المُعَلِّمِينَ عَلَّمُوا لِغَيْرِ اللَّهِ والمُتَعَلِّمِينَ تَعَلَّمُوا لِغَيْرِ اللَّه .

لَعَمْرُكَ ما الأبصَارُ تَنْفَعُ أَهْلَهَا إذا لم يَكُنْ لِلْمُبْصِرِين بَصَائِرُ

وبالحَقِيْقَةِ إذا نَظَرتَ إلى الأَكْثَرِيَّةِ السَّاحِقَةِ مِمَّنْ حَوْلَكَ مِن أَسَاتِذَةٍ وَمُدَرِى وَطُلَابٍ وَجَدْتَ هَيْبَةَ الإسلامِ والعِلْمِ والعَمَلِ والشَّهامةِ والرُّجُولَةِ الاسلاميةِ قَدْ نُزِعَتْ مِنهم يَحْلِقونَ لِحَاهُم كاليَهُودِ والنَّصَارَى والمَجُوسِ .

وَيُوفِرُوْنَ شَوارِبهم وَيَجْعَلُون تَوالَيْتَاتٍ وَرُبَّمَا خَنْفَسُوا وَتَجِدْهُم يُجَالِسُونَ الفَسَقَةَ وَيَنْدَمجُونَ مَعَهُم وَبَعْضُهم تَجِدْهُ يَشْرَبُ أبا الخَبَائِثِ الدُخَانَ وَرُبَّمَا فَعَلَه أَمَامَ الطُّلَابِ والعِيَاذُ باللهِ .

ولا تَجِدْهُ في الغَالِب يُصَلِي مَعَ الجَمَاعَةِ وَيُعَامِلُ المُعَامَلَة التي لا تَلِيْقُ بِمَنْصِبِه وَتَجِدْهُ يَجْلِس أمامَ التَّلفزيُون وعند المذْيَاعِ وأغانيهِ وعند السِّيْنماءِ والفِدْيُو وَنحو ذلك من المُحَرَّمَات الَّتِي قَتَلَتِ الأَخْلَاق.

وَيُحِبُ الشُّهْرَةَ والظُهُورَ رِياءً وَسُمْعَةً فَكَيْفَ يَخْطُر بالبالِ أَنَّ مِثْلَ هَؤُلآءِ يأمُرُوْنَ بِمَعْرُوفٍ أو يَنْهونَ عن مُنكرٍ كَلَّا واللهِ إِنَّهم لا يُزِيْلُونَ المُنْكَرَ عن أَنْفُسِهِم وَلَا عَن بُيُوتِهم . التي فيها من المنكرات ما يُدْهِشُ الأَسماعَ والأَبصَارَ والعُقُول .

فَعِلْمُ هَؤُلآءِ العِلْمُ الذِي يَضُرَ ولا يَنْفَعُ وهو الذِي اسْتَعَاذَ منه النبي صلى الله عليه وسلمبقولِهِ اللهُمَّ إني أعوذُ بِكَ مِن عِلْمٍ لا يَنْفعُ وقلبٍ لا يَخْشَعْ وَدُعَاءٍ لا يُسْمَعُ (فأبعِدْ عَنهُم وكُنْ على حَذَرٍ منهم أيُّهَا المُعَافَى).

شــعراً :

صَـارَ الأَسَـافِـلُ بَعـدَ الـذُلِّ أَسْنِمَـةً
وَصَـارَتِ الـرُؤسُ بَعـدَ العِـزِ أَذْنَـابَـا
لـم تَبْـقَ مَـأثَرَةٌ يَعْـتَـدُهَـا رَجُـلُ
إلا الـتَـكَـاثُـرُ أَوْرَاقـاً وَاذْهَـابَـا

آخــر :

ولَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إنْ كَـانَ كُـلَّمَـا
بَـدَا طَـمـعٌ صَـيَّـرْتُـهُ لِـيَ سُـلَّمَـا
ولم أَبْتَـذِلْ في خِـدْمَـةِ العِلْمِ مُهْجَتِي
لِأَخْـدِمَ مَـن لاقَـيْتُ لَـكِـنْ لِأُخْـدَمَـا
أَأَشْـقَـى بِـهِ غَـرْسـاً وأجْـنِيْـهِ ذِلَّـةً
إذاً فـاتِّبَـاعُ الجَهْـلِ قَـدْ كَـانَ أَحْـزَمَـا
فَـإنْ قُلْتَ زَنْـدَ العِـلْمِ كَـابٍ فـإنَّمـا
كَبَـا حِيْنَ لم تُحْمَـى حِمَـاهُ وأَظْـلَمَـا
وَلَـوْ أنَّ أهـلَ العِلمِ صَـانُـوهُ صَـانَهُم
وَلَـوْ عَـظَّمُـوهُ في النُّفُـوسِ لَعُـظِّمَـا
« وَلَـكِـنْ أَهَـانُـوهُ فَـهَـانُـوا وَدَنَّسُـوا
مُحيَـاهُ بـالأَطْمَـاعِ حَتَّى تَـجَـهَّـمَـا »

وَنَعُودُ إلى كَلاَمِنَا السَّابِقِ حَوْلَ الآيةِ الكَرِيْمَةِ :

فالآيةُ كَمَا ترى نَاعِيَةٌ على كُلِّ مَن يَعِظُ غَيْرَهُ ولاَ يَتَّعِظ بِسُوءِ صَنِيْعِهِ

وَعَدَم تَأَثُّرِهِ ، وانَّ فِعْلَهُ فِعْلَ الجَاهِلِ بالشَّرْعِ أو الأحْمَقِ الذي لا عَقْلَ لَهُ فإنَ الأمرَ بالخَيْرِ مَعَ حِرْمَانِ النفسِ مِنه مِمَّا لا يَتَّفِقُ وَقَضِيَّةَ العَقِلِ والمُرادُ بِهَا حَثُّه على تَزْكِيَةِ النفسِ والإقبالِ عليها بالتكميلِ لِتَقُومَ بالحقِ فَتُكَمِّلَ غَيرَهَا .

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُون كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أن تقولوا ما لاَ تَفْعَلون ﴾ فهذا وَعِيدٌ شَدِيدٌ مِن اللهِ لِمَنْ يَأْمُرُ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عن المنكرِ وهو في نَفْسِهِ مُقَصِّرٌ كَمَنْ يَكْذِبُ في قولِهِ أوْ يُخْلِفُ مَا وَعَدَ .

وَعَن أُسَامَةَ بن زَيدِ بنِ حارِثَةَ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهما قال سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ « يُؤْتَى بالرجلِ يومَ القِيامةِ فَيُلْقَى في النار فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ في الرَّحَى فَيَجْتَمِعُ إليهِ أَهْلُ النار فَيَقُولُونَ يا فُلانُ مالكَ أَلَمْ تَكُنْ تأمُرُ بالمَعْرُوْفِ وَتَنْهَى عن المُنْكَرِ فَيَقُولُ بَلَى كُنْتُ آمُرُ بالمَعْرُوفِ ولا آتِيْهِ وأنْهَى عن المنكرِ وآتِيْهِ متفق عليه .

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال :«قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رأيتُ ليلةً أُسْرِيَ بِي رِجَالاً تُقْرَضُ شِفَاهُهُم بِمَقارِيضَ مِن النارِ فَقُلْتُ مَن هَؤُلاَءِ يا جِبْرِيْلُ فَقَال الخُطَبَاءُ مِن أُمَّتِكَ الذينَ يَأْمُرُونَ الناسَ بِالبِرِ وَيَنْسَونَ أنفسَهُم وهُم يَتْلُونَ الكُتابَ أفلا يعقلون » رواه ابن حَبان في صحيحه .

وإنما يُضَاعَفُ عَذَابُ العَالِمِ في مَعْصِيَتِهِ لأنَّهُ عَصَى عَن عِلْمٍ قال اللهُ تعالى ﴿ قل هَلْ يَسْتَوِي الذينَ يَعْلَمُون والذينَ لاَ يَعْلَمُون ﴾ ولِأَنَّهُ قُدْوَةٌ فَيَزِلُ بِزَلَّتِهِ خَلْقٌ كَثِيْرُونَ ، وَلِذَلِكَ قِيلَ زِلةُ العَالِمِ زَلَّةُ العَالَمِ وقِيلَ هُوَ كالسَّفِيْنَةِ إذا غَرِقَتْ غَرِقَ مَعَهَا أُمَمٌ ما يُحْصِيْهِم إلا اللهُ .

وفي الخَبَرِ وَمَن سَنَّ سُنَّةً سَيئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِن بَعْدِهِ مِن غَيْرِ أنْ يَنْقُصَ مِن أَوْزَارِهِم شَيْئا ، وَذَلِكَ أَنَّ اتْبَاعَهُم اقْتَدَوا بِهِم

في السُّوْءِ فَيَنَالُهم مِثْلُ عِقَابِ أَتْبَاعِهم قَالَ تَعالَى ﴿ وَلَيَحْمِلُنَ أثقالَهم وأثقالاً مَعَ أثقَالِهم وَليسْئَلُنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُون ﴾ وقال ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُم كَامِلةً يومَ القِيَامَةِ وَمِن أَوْزَارِ الذينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيرِ عِلْم ﴾ قال : وَجُمْلَةُ الأمرِ أَنَّ مَن فَتَحَ بَابَ الشَّرِ لِغَيرِهِ وَسَهَّلَ لَهُ الدُّخُولَ فِيه فَقَدْ عَظُمَ عَذَابُهُ وكذلك مَن دَعَا إلى خَيْرٍ وَأَمَرَ بالمَعْرُوفِ وَسَهَّلَ لَه طَرِيْقَهُ فَقَدْ عَظُمَ قَدْرُهُ وَحَسُن جَزَاؤُهُ عِندَ اللهِ تَعَالَى أَخْرَجَهُ مُسلم والترمذي وقال صلواتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَثَلُ الَّذِيْ يُعَلِّمُ الخَيْرَ وَلاَ يَعْمَلُ بِهِ مِثْلُ الفَتِيْلَةِ تُضِيْءُ لِلنَّاسِ وَتُحْرِقُ نَفْسَهَا رواه الطبراني في الكبير عن أبي برزةَ بسندٍ حَسَنٍ م .

وقال أَبُو الدَّرْدَاء وَيْلٌ لِلْجَاهِلِ مَرَّةً وَيْلٌ لِلْعَالِمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ وقال عليٌّ رضي اللهُ عنه قَصَمَ ظَهْرِي رَجُلانَ عَالِمٌ مُتَهَتِّكٌ وَجَاهِلٌ مُتَنَسِّكٌ فالجاهِلُ يَغُرُّ الناسَ بِنُسُكِهِ والعَالِمُ يَغُرُّهُم بِتَهَتُّكِهِ وقال حَكِيْمٌ أَفْسَدَ الناسَ جَاهِلٌ نَاسِكٌ وعَالِمٌ فاجِرٌ هَذا يَدْعُو الناسَ إلى جَهْلِهِ بِنُسُكِهِ وهذا يُنَفِّرُ الناسَ عن عِلْمِهِ بِفِسْقِهِ .

ومنها التَّواضعُ ومُجَانَبَةُ العُجْبِ فَذَلِكَ بالدُّعَاةِ والمُرْشِدِيْنَ أَلْيَقُ وَلَهُم أَلْزَمُ لِأَنَّ التَّواضُعَ عَطُوفٌ وَالعُجْبَ مُنَفِّرٌ وَهُوَ بِكُلِ أَحَدٍ قَبِيْحٌ وبالمرشِدِيْنَ أَقْبَحُ لِأَنَّ الناسَ بِهِم يَقْتَدُونَ ، وكَثِيْراً ما يُدَاخِلُهم العُجْبُ لِتَوَحُّدِهِم بِفَضِيْلَةِ العِلْمِ وَلَوْ أَنَّهُم نَظَرُوا حَقَّ النَّظَرِ وَعَمِلُوا بِمُوجَبِ العِلْمِ لَكَانَ التَّواضُعُ بِهِم أَوْلَى وَمُجَانَبَةُ العُجْبِ بِهِم أَحْرَى وَأَنْسَبُ ، لِأَنَّ العُجْبَ نَقْصٌ يُنافِي الفَضْلَ ، فلا يَفِيْ ما أَدْرَكُوهُ مِن فَضِيْلَةِ العِلْمِ بِمَا لَحِقَهُم مِن نَقْصِ العُجْبِ .

شعر :

دَعِ الكِبْرَ واجْنَحْ لِلتَّواضعِ تَشْتَمِلْ   وِدَادَ مَنِيْعِ الوُدِّ صَعْبٌ مَرَاقُهُ
ودَاوِ بِلِيْنٍ مَا جَرَحْتَ بِغلظةٍ   فَطِيْبُ كَلامِ المَرْءِ طِبٌّ كَلاَمِهِ

وقد رَوَى ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما قال : قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَلِيْلُ الفِقْهِ خَيْرٌ مِن كَثِيْرِ العِبَادَةِ وَكَفَى بالمَرْءِ جَهْلاً إذَا أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ ، وإِنَّمَا الناسُ رَجُلانِ مُؤْمِنٌ وَجَاهِلٌ فَلا تُؤْذِ المُؤْمِنَ ، ولا تُحَاوِرِ الجَاهِلَ وقال صلى الله عليه وسلم لِأَبِي ثَعْلَبَةَ حِيْنَ ذَكَرَ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةَ ما تؤُلُ إليهِ مِن الحَوادِثِ ، إذا رَأَيْتَ شُحاً مُطَاعاً وَهَوىً مُتَّبَعاً ، واعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِه ، فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ ، رواه أبو داود .

وقال صلى الله عليه وسلم « ثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ ، شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوىً مُتَّبَعٌ ، واعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ » ، رواه الطبراني في الاوسط ويأتي إن شَاءَ اللهُ مَوْضُوعُ التَّواضِعُ ، وَافِياً بأَدِلَتِهِ وعِلَّةُ اعْجَابِ المُعْجَبِ بِعِلْمِهِ ، نَظَرُهُ إلى كَثْرَةِ مَنْ دُوْنَهُ مِن الجُهَالِ وانْصِرَافِ نَظَرِهِ عن مَن فَوقَهُ مِن العُلَمَاءِ ، فإِنَّهُ مَا حَوَى العِلْمَ كُلَّه أَحَدَ مِن الخَلْقِ ، فَمَا مِن عَالِمٍ إلا وَفَوْقَهُ مَن هُوَ أَعْلَمُ مِنه قال تعالى ﴿ وَفَوقَ كُلَّ ذِي عِلْمٍ عَلِيْم ﴾ فاللهُ جَلَّ وَعَلا هُوَ الذي يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ كما قال تعالى ﴿ وانَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكلِّ شَيءٍ عِلْمَا ﴾ وقالَ ﴿ واللهِ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيْم ﴾ وقال ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ ﴾ ، وقال ﴿ وعندهْ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا في البَرِّ والبَحْرِ وما تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلَّا يَعْلَمُهَا ولَا حَبَّةٍ في ظُلمَاتِ الأَرضِ ولا رَطْبٍ ولا يَابِسٍ إلَّا في كِتابٍ مُبِيْن ﴾ .

وَقَلَّمَا تَجِدُ مُعجَباً بِعِلْمِهِ شَامِخاً بأَنْفِهِ إلَّا وَهُوَ قَلِيْل العِلْمِ ضَعِيْف العَقْلِ لِأَنَّهُ يَجْهَلُ قَدْرَهُ وَيَحْسِبُ أَنه نَالَ مِنه أَكْثَرَهُ ، والله يَقُولَ ﴿ وَمَا أُوْتِيْتُم مِن العِلْم الَّا قَلِيْلاً ﴾ قال : ومنها أَنْ لَا يَبْخَلَ بِتَعْلِيْم مَا يَحْسُن ولا يَمْتَنِعُ مِن إفادَةِ مَا يَعْلَمُ فإن البُخْلَ بِهِ ظُلْمٌ وَلُؤمٌ والمَنْعَ منه إثْمٌ .

قال تَعالَى﴿وإذ أخَذَ اللهُ مِيْثَاقَ الذِيْنَ أُوْتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلناسِ ولا تكتمونه﴾ ورُوِيَ عن النبي صلّى الله عليه وسلم أنه قال : لا تَمْنَعُوا العِلْمَ أَهْلَهُ ، فإنَّ في ذلكَ فَسَاد دِيْنِكُم والْتِبَاسُ بَصَائِرِكُم ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ إنَّ الذِيْنَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِن البَيِّنَاتِ والهُدَى مِن بَعْدِ مَا بيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ في الكِتَابِ أُولئكَ يَلْعَنُهُم اللهُ وَيَلْعَنُهم اللاَّعِنُون إلا الذينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا وبَيَّنُوا فأُولَئك أتوبُ عليهم وأنا التَّوابُ الرحيم﴾ .

قال ابنُ كَثِيرٍ على هَذِهِ الآيةِ هَذا وعِيْدٌ شَدِيْدٌ لِمَنْ كَتَم مَا جَاءَتْ بِهِ الرُسُلُ مِن الدَّلالاتِ الْبَيِّنَةِ عَلَى المَقَاصِدِ الصَّحِيْحَةِ والهُدَى النَّافِعُ لِلْقُلُوبِ مِمَّا بَيَّنَهُ اللهُ تعالى لِعِبَادِهِ في كُتُبِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا على رُسُلِهِ أ هـ .

وَقَد وَرَدَ في الحديث عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال مَن سُئِلَ عن عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يومَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِن نار .

وفي الصحيح عن أبي هريرةَ أَنَّهُ قالَ لَولاَ آيَةٌ في كِتَابِ الله ما حَدَّثْتُ أحداً شَيْئاً ﴿ إنَّ الذين يَكْتُمونَ ما أَنْزَلنا مِن البيناتِ والهُدَى﴾ الآيةَ وَمِمَّا يَحْسُنُ بالدَّاعِي والمُرْشِدِ ، أَنْ يَتَحَلَّى بالوَرَعِ باتقاءِ الشُّبُهَاتِ ، والبُعْدِ مِن مَوَاضِعِ الرِّيْبَةِ ، وَمَسَالِكِ التُّهْمَةِ .

فإنَّ ذَلِكَ أَبْرَأُ لِدِيْنِهِ ، وأَسْلَمُ لِعِرْضِهِ ، وأَدْعَى إلى الإنْقِيَادِ لَهُ لأَنَّ حَالَ الدَّاعِي يُؤَثِرُ في القُلُوبِ أَكْثَرَ مِن مَقَالِهِ ، فاذا كَانَ وَرِعاً تَقِياً مُتَجنِّباً مَا فِيهِ شُبهَةٌ اقْتَدَى بِه الناسُ ، وأَحَبُّوْهُ وَقَبِلُوا وَعْظَهُ ، وإِرْشَادَهُ ، وَهَكَذا كانَتْ صِفَةُ النبي صلى اللهُ عليه وسلم ، وأَصحابِهِ ، والتابعينَ لَهُم

واحْذَر يَا أخي كل الحذر من احْتِكارِ الكُتُبِ الدِّيْنِيَّةِ المُحتَوِيَةِ عَلَى قال اللهُ قال رسولُه وأخذ شيءٍ مِن الدنيا بها باسْمِ تَحقيق أو نَشر كَمَا يفعلهُ بعضُ الناس نَسأل الله العَافِية .

ففي صحيح البُخاري مِن حَدِيثِ أَنس قال مَرَّ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم بِتَمْرَةٍ سَاقِطةٍ فقالَ « لو لا أنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لأَكَلْتُهَا » ، وَقَدِمَ عَلَى عُمَرَ مِسْكٌ وَعَنْبَرٌ مِن البَحْرَيْنِ فقالَ ، واللهِ لَوِدِدْتُ أَنّي وَجَدْتُ امْرَأَةً حَسْنَةَ الوَزْنِ تَزِنُ لِي هَذَا الطِّيْبَ حَتَّى أَقْسِمَه بَينَ المُسْلِمِينَ فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ عَاتِكَةُ أَنَا جَيِّدَةُ الوَزْنِ فأنا أَزِنُ لَكَ قال لا ، فَقَالَتْ لِمَ ، قَالَ لِأَنِّيْ أَخْشَى أَنْ تَأخُذِيْهِ ، فَتَجْعَلِيْهِ هَكَذَا ، وأَدْخَلَ أَصَابِعَهُ في صُدْغَيْهِ وَتَمْسَحِي بِهِ في عُنُقِكِ فأُصِيْبُ فَضْلاً مِن المُسْلمين .

وكانَ يُوْزَنُ بينَ يَدَي عُمَرَ بِن عَبْدِ العَزِيْزِ مِسْكٌ لِلْمُسْلِمِينَ فَسَدَّ أَنْفَهُ بِيَدِهِ ، حَتَّى لا تُصِيْبُهُ الرَّائِحةُ ، وقال وَهَلْ يُنْتَفَعُ مِنه إلا بِرِيْحِهِ ، قال ذلكَ لَمَّا اسْتُبْعِدَ ذَلِكَ مِنه ، وهذا مِن وَرَعِ المُتَّقِين .

قُلْتُ وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَتَصِفَ به أيضا قَطْعُ العَلائِقِ حَتَّى لا يَكْثُرَ خَوفُهُ ، وَيَقْطَعَ الطَمَعَ عن الخلائِقِ فلا يَكُونُ لَهُ عندَهُم حَاجَةٌ تُذِلُّهُ لَهُم ، وَتَدْعُوهُ إلى المُدَاهَنَةِ ، والاغْضَاءِ عن أَعْمَالِهِم القَبِيْحَةِ ، وَهَذِه طَرِيْقَةُ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ ، قال الله تعالى ﴿ قُل لَا أَسأَلُكُم عَلَيْهِ أجراً إن أَجْرِيَ إلَّا عَلَى رَبِّ العالمين ﴾ .

وَرُوِيَ عن بَعْضِ الحُذَّاقِ أَنَّهُ كَانَ لَهُ كَلْبٌ وَلَهُ صَدِيْقٌ قَصَّاب يأْخُذُ مِنه لِكَلْبِهِ بَعْضَ السَّواقِطِ ، فَرَأى على القَصَّابِ مُنْكَراً يَتَعَاطَاهُ ، وقال لَا بُدَّ أَنْ أُبرِيَ ذِمَّتِي وَأَنْصَحُهُ ، ولكنْ أَبْدَأُ أَوَّلاً بِقَطْعِ الطَّمَعِ فَدَخَلَ البُسْتَانَ وأَخْرَجَ الكَلْبَ وَطَرَدَهُ ثُمَّ جَاءَ واحْتَسَبَ على القَصَّابِ وَنَصَحَهُ وأَغْلَظَ عَلَيهِ فَقَالَ لَهُ القَصَّابُ سَوْفَ لَا أُعطِيْكَ لِكَلْبِكَ شَيْئاً أَبَدَا فَقَالَ أنا حَاسِبٌ لِهَذَا الكَلامِ ما أَتَيْتُكَ إلا بَعْدَ أَنْ طَرَدْتَ الكَلْبَ عن بُسْتَانِي .

فَمَنْ لَم يَقْطَع الطَّمَعَ ، وَيَسُدُ بابَهُ لم يَقْدِرْ عَلَى الحِسْبَةِ ، قُلْتُ وَمِثْلُه عِندي في الغَالِبِ مَن يُوَالِي العَطَاء على انسانٍ فَيَبْعُدُ إذا رآهُ صَدَرَ مِنه مَعْصِيَةٌ أو مَعَاصِيْ أَنَّه يَنْصَحُهُ أَوْ يُنْكِرْ عَلَيهِ لِأَنَّهُ يَرْجُوهُ وَيَخَافُهُ يَرْجُو الصِّلَةَ وَيَخَافُ قَطْعُهَا وَلَو فَرَضْنَا أَنَّهُ أَقْدَمَ على ذلكَ وأَنكَرَ عليه فَيَبْعُدُ أَيْضاً قَبُوْلُ صَاحِبِ الفَضْلِ لِلنَّصِيْحَةِ مِن ذلكَ الشَّخْصِ المُنْتَظِرْ لِمَا في يَدِهِ نَسْأَل اللهَ العصمة .

وكَمْ ضلَّ عن الطريقِ السَّوِي أُنَاسٌ مِن أَهلِ الإِيْمَانِ بِسَبَبِ مُدَاهَنَةِ المُدَاهِنِ وَتَغْرِيْرِهِ لَهُم ، هَذِهِ قِيْمَةُ النَّاصِحِ ، والمُدَاهِنِ عِنْدَ المُؤْمِنِ الصادقِ الإيمانِ ولكن نَرَى الناسَ اليومَ عَكَسُوا الأَمرَ في هَذِهِ الأزمانِ ، لا مُنْتَهَى لِحُبِّهِم مَن وَافَقَهُم على مَا هُمْ عليه ، ولو كانَ ذَنْباً عَظِيْماً ، ولا غَايَةَ لِبُغْضِهِم مَن أَرْشَدَهُم إلى الحَقِّ والصَّوابِ وَرُبَّمَا هَجَرُوْهُ جَزَاءَ نُصْحِهِ وأَما المُدَاهِنُ والمُتَمَلِّقُ المُنَافِقُ ذُو الوَجْهَينِ فَبِكَلِمَةٍ مِن مُدَاهَنَاتِه ، أَوْ وَشَايَاتِهِ أَوْ تَمَلُّقَاتِهِ أَوْ كَذَابَاتِه يَمْلِكُ قُلُوبَ الكَثِيْرِ مِن أَهْلِ هذا الزمانِ وَقَدْ يُرَفَّعُ وَيُقَدَّرْ مَن اتَّصَفَ بالصِّفاتِ الذَمِيْمَةِ كَما قيل :

(مَتَى مَا تُدَاهِنْ أَوْ تَكُنْ ذَا تَمَلُّقٍ
وَنَمٍّ وَبَهْتٍ تَحْتَطِبْكَ المَرَاتِبُ)
(وانْ تَجْمَعِ الاخلاصَ والصِّدْقَ والوَفَا
وَعِلْماً وَحِلْمَاً تَجْتَنِبْكَ المَنَاصِبُ)

آخر :

لا تُنكري يَا عَزُّ إنْ ذَلَّ الفَتَى ذُو الاصْلِ واسْتَولَى لئيمُ المحْتَدِ
إِنَّ البُزَاةَ رُؤُسُهُنَّ عَوَاطِلٌ والتاجُ مَعْقُودٌ برأسِ الهُدْهُدِ

اللهم هَبْ لنا مِن جَزِيل عطائِكَ وَوَفِقْنَا لِلسَّعَادَةِ بِلِقَائِكْ وَتَفَضَّلْ علينا بالزِيادةِ مِن نعْمَائِكَ وَآلائِكَ وَاجْعَلْ لَنا نوراً في حياتِنا وَنُوراً في مَمَاتِنَا ونوراً في قُبُورِنَا ونوراً في حَشْرِنَا واغفر لنا وَلِوَالِدَيْنَـا وَلِجميع المسلمين بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْن وصلَّى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعين .

مـــوعظة

عِبَادَ اللهِ إنَّ مِن أَخصِّ صِفَاةِ المُؤْمِن عَمَلُهُ بِقَولِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم الدِّيْنُ النَّصِيْحَةِ ومَحَبَّتُهُ لِلنَّاصِحِيْن ، وُكُلَّمَا اجْتَهَدَ المُسْلِمُ وبَالَغَ في النّصِيحة لإِخْوَانِهِ المسلمين قَوِيتَ مَحَبَّتُهُ في قُلُوب إخوانِهِ المؤْمنين .

وأما المُدَاهِنُ والمُتَمَلِّقُ الذي يُحَسِّنُ لِكُلِّ إنسانٍ حَالَهُ ، ولو كانَتْ حَالَةَ اجْرَامٍ وَفَسَادٍ ، فَهَذا يَنْفُرُ منه المؤمنونَ ، ولا يُحبُّونَهُ وَيَرَوْنَ صَداقَتَهُ مُصِيْبَةً ، وَبَلِيَّةً ، فَلِذَا يَبْتَعِدُونَ عنه كُلَّ البُعْدِ .

لِأَنَّهُ إن صَحِبَ مُسْتَقِيماً أَدْخَلَ عليه العُجْبَ في عَمَلِهِ ، وَخَيَّلَ إليهِ أَنَّه مِن صَفْوَةِ عِبَادِ اللهِ المتقين ، فَيَغُرُّهُ بِنَفْسِهِ والمَرْءُ إذا اغْتَرَّ هَوِيَ في هُوَّةِ الأَشْقِيَاءِ وإذا صَحِبَ المُدَاهِنُ المُتَمَلِّقُ مُعَوَّجاً زَادَ اعْوِجَاجَهُ حَيْثُ أَنَّهُ يُفْهِمُهُ بِمُدَاهَنَتِهِ أَنَّه مِن خِيَارِ الفُضَلاءِ ومِن الأَجلاءِ النُبَلَاءِ .

وَمَتى فَهِم ذَلِكَ عن نَفْسِهِ اسْتَمَرَّ وتَمَادَى في اعْوِجَاجِهِ ، وَقَوِيَتْ وَتَمَكَنَتْ مِنه الأَخْلَاقُ الفَاسِدَةُ ، وَمَاتَ وَهُوَ على تِلْكَ الحَال الشَّنِيْعَةِ ، وأما المؤمنُ الناصِحُ المُحِبُّ لِأَخِيْهِ ما يُحِبُ لِنَفْسِهِ فَيُفْهِمُ المُهَذَبَ المُتَنَوِّرَ أنه مَهْمَا كَانَ كَمَالُهُ أَنَهُ مُقصِّرٌ في شُكْرِ مَوْلَاهُ الذي جَعَله مِن بَنِي آدَمَ ولم

يَجْعَلْه مِن سَائِرِ الحَيَواناتِ ، وَوفَّقَهُ لِلإِيْمَانِ ، وَتَفضّل عَليه بالحَوَاسِ الخَمْسِ وَغَيْرِهَا وَوهَبَهُ العَقْلَ ، وَسَائِرَ النِّعَم التي لا تُعَدُّ ، ولا تُحْصَى .

وَمَتى فَهِمَ أَنَّهُ مُقصّرٌ ، حَمِدَ مَوْلاَهُ وَشَكَرَهُ على مَا أَوْلاَهُ ، وَجَدَّ واجْتَهَدَ فِيْمَا بِه رُقِيُّهُ في دُنْيَاهُ وأُخْرَاهُ وإن رَأى مُعْوَجاً أَفْهَمَهُ مَا هُو عَلَيْهِ مِن نَقْصٍ وَوَضَّحَ لَهُ عُيُوبَهُ ، وَما عِندَهُ مِن تَقْصِيْرٍ في دِيْنِهِ وَدُنْيَاهُ وَحَثَّهُ على الجِدِّ والاجْتِهَادِ والسَّعْي إلى مَعَالِي الاخلاقِ .

وَمَتى عَرَفَ العَاقِلُ نَقْصَهُ ، وأَنَّ الضَّرَرَ عَائِدٌ إليْهِ ، أَقْلَعَ عنه ، وأصْبَحَ مِن المُهَذَّبِيْنَ المُتَنَوِّرِيْنَ ، الصَّاعِدِينَ إلى أَوْجِ الكَمَالِ ، فَكَم اهْتَدَى بإِذْنِ اللهِ بِسَبَبِ المُؤْمِنِ الناصِحِ مِن أُناسٍ قد تَاهُوا وَتمادَوْا في الضَّلاَلِ .

واسْمَعْ إلى قَوْلِ الإمَامِ ابنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ لَمَّا ذَكَرَ نُفَاةَ الصفاتِ أهلَ البِدَعِ وَحَيْرَتَهُم وَشُبُهَاتِهِم وَشُكُوْكَهُم وأنه جَرَّبَ ذَلِكَ وأنه وَقَعَ في بَعْضِ تِلكَ الشِّبَاكِ والمصَايِد حَتَّى أَتَاحَ لَهُ المَولَى بِفَضْلِهِ مَن نَشَلَهُ وأَوضَحَ له تِلْكَ الشُّبَهِ وازاحَ عنه تِلْكَ الشُّكُوكَ وهُوَ شَيْخُ الإسْلامِ بنِ تَيْمِيَّةَ رحمهُ اللهُ فقال في النونِيَة :

يَـا قَـوْمُ بـاللهِ العـظيمِ نَـصِيْـحَـةٌ
مِـن مُـشْـفِـقٍ وأَخٍ لَـكُـمْ مِـعْـوانِ
جَـرَّبْـتُ هَـذا كُـلَّهُ وَوَقَـعْـتُ فـي
تِـلكَ الشِـبَـاكِ وكُـنْـتُ ذَا طَـيْـرانِ
حَـتَّـى أَتَـاحَ لِـيَ الإلَـهُ بِـفَـضْـلِهِ
مَـنْ لَـيْسَ تَـجـزِيْـه يَـدِيْ وَلِسَـانِـي

حَـبْـراً أَتَـى مِـن أَرْض حَـرَّانٍ فَـيـا
أَهْـلاً بِـمَـن قَـدْ جَـاءَ مِـن حَـرَّانِ
فَـالـلهُ يَـجْـزِيْـهِ بِـمَـا هُـوَ أَهْـلُهُ
مِـن جَـنَّـةِ الـمَـأْوَى مَـعَ الـرِّضْـوانِ
أَخَـذَتْ يَدَاهُ يَـدِيْ وَسَـارَ فَلَمْ يَرِمْ
حـتَّـى أَرَانِـي مَـطْلَعِ الإِيْـمَـانِ
وَرَأَيْتُ أَعْـلاَمَ المَـدِيْنـةِ حَـوْلَهـا
نَـزَلَ الهُـدى وعَسَـاكِـرَ القُـرْآنِ
وَرَأَيْـتُ آثـاراً عَـظِيْـمـاً شَـأْنُهَـا
مَـحَجُـوُبَـةً عن زُمْـرَةِ العُـمْيَـانِ
وَوَرِدْتُ رَأْسَ الـمـاءِ أَبْيَضَ افِـيـاً
حَصْـبَـاؤهُ كَـلآلِـيءِ التِّـيْـجَـانِ
وَرَأَيْـتُ أَكْـوَابـاً هُـنَـاكَ كَـثِـيْـرَةً
مِـثْـلَ الـنُّـجُـومِ لِـوَارِدٍ ظَـمْـآنِ
وَرَأَيْتُ حَـوْضَ الكَـوثَـرِ الصَّـافِي الـذِي
لاَ زَالَ يَـشْـخَـبُ فـيـه مِـيْـزَابـانِ
مِـيْـزَابُ سِـنَّـتِـهِ وَقَـوْلُ إِلٰـهِـهِ
وَهُـمَـا مَـدَى الأَزْمَـانِ لا يَـنِـيَـانِ
والـنـاسُ لا يَـرِدُوْنَـه إلا مِـن الْـ
آلافِ أَفْـرَادُ ذَوُوْا إِيْـمَـانِ

اللهمّ أَرْزقنا حُبَّكَ وَحُبَّ مَن يُحِبُّكَ وَحُبَّ العَملِ الذي يُقَرِّبُنَا إلى

حُبّكَ اللهم أَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَوَفِقْنَا لإمْتِثَالِ أمْرِكَ واجتنابِ نَهْيِكَ واغفرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنِ وصلَّى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

(فَصْــلٌ)

في ذِكْرِ نَمَاذِجِ مِن صَبْرِ النبيِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَم على الشدائِدِ والأَذى في الدعوةِ إلى اللهِ

ومِن تَحَمُّلِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم للشَّدَائِدِ والأَذَى في الدعوة إلى الله مَا وَرَدَ عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال : قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَليهِ وسلم لَقَدْ أوْذِيْتُ في اللهِ وما يُؤْذَى أَحَدٌ ، وأخِفْتُ في اللهِ وما يُخَافَ أَحَدٌ ، وَلَقد أَتتْ عَلَيَّ ثَلاَثُونَ مِن بَيْنِ يَومٍ وَلَيلةٍ ، وَمَالِي ولِبِلالٍ ما يَأْكُلُه ذُو كَبِدٍ إلا ما يُوَارِي إِبْطُ بلالٍ خرجه أحمد .

وعند البيهقي أَنَّ أبا طالبٍ قالَ لَهُ صلَّى اللهُ عليه وسلم : يا ابنَ أخِي إنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَاؤُنِي وقالُوا كَذَا وَكَذَا فأبْقِ عَليَّ وَعَلى نَفْسِكَ ، وَلاَ تُحَمِّلْنِي مِن الأَمْرِ ما لا أطِيْقُ أَنَا وَلاَ أَنْتَ ، فاكْفُفْ عن قَومِكَ مَا يَكْرهُونَ مِن قَولِكَ ، فَظَنَّ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم أَنْ قَدْ بَدَا لِعَمِّهِ فيهِ ، وأنهُ خَاذِلُهُ ، وَمُسَلِّمُهُ ، وَضَعُفَ عن القِيَامِ مَعَهُ .

فقال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم يا عَمُّ لَو وُضِعَتِ الشمسُ في يَمِيْنِي والقَمَرُ في يَسَارِي ، ما تَرَكْتُ هَذا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ ، أَوْ أَهْلِكَ في طَلَبِهِ ، ثم اسْتَعْبَرَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم فَبَكَى ، فَلَمَّا وَلَّى قال لَهُ حِيْنَ رَأى مَا بَلَغَ الأمرُ برسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم

يا ابْنَ أَخِيْ فَأقبل عليهِ فقال امْضِ لِأَمْرِكَ وافْعَلْ ما أَحْبَبْتَ فواللهِ لا أسَلِّمُكَ لِشَيءٍ أبَدَا .

وأَخْرَجَ البيهقيُ عن عبدِ الله بن جَعْفَر ، قال لَمَّا مَاتَ أَبُو طالبٍ عَرَضَ لِرَسُولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم سَفِيْهٌ مِن سُفَهَاءِ قُرِيشٍ فألْقَى عَلَيهِ تُرَاباً ، فَرَجَعَ إلى بَيْتِهِ فأَتَتْهُ امْرَأةٌ مِن بَنَاتِهِ تَمْسَحُ عن وَجْهِهِ التُرابَ وَتَبْكِيْ ، فَجَعَل يَقُولُ أيْ بُنَيَّةْ لا تَبْكِيْنَ فإن اللهَ مانِعٌ أَبَاكِ ، ويقولُ مَا بَيْنَ ذلكَ مَا نَالتْ قُرِيشٌ شيئاً أكْرَهُهُ حَتَّى ماتَ أبو طَالبٍ ثُمَّ شَرَعُوا .

وأخرج أبُو نعيمٍ في الحِلْيَةِ عن أَبِي هريرة قال لَمَّا مَاتَ أَبُو طالبٍ تَجَهَّمُوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقالَ يا عَمُّ مَا أَسْرَعَ ما وَجَدْتُ فَقْدَكَ ، وأخرجَ الطبرانيُ عن الحارثِ بنِ الحارثِ قُلْتُ لِأَبِي ما هَذِهِ الجَمَاعَةُ قال هَؤُلاءِ قومٌ اجْتَمَعُوا على صَابِىءٍ لَهُم فَنَزلْنا فإذا رَسولُ اللّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم يَدْعُو الناسَ إلى تَوْحِيْدِ اللهِ عزَّ وَجَلَّ والإيمانِ بِهِ وَهُم يَرُدُّونَ عليهِ وَيُؤْذُوْنَهُ حَتَّى إذا انْتَصَفَ النهارُ ، وانْصَدَعَ الناسُ عنه أقْبَلَتْ امْرَأةٌ قد بَدَا نَحْرُهَا تَحْمِلُ قَدَحاً وَمِنْدِيْلاً فتَنَاوَلَه مِنْهَا .فَشَرِبَ ، وَتَوَضَأَ ، ثُمَ رَفَعَ رَأْسَه فقال يا بُنَيَّةَ خَمِّرِيْ عَلَيكِ نَحْرَكِ ولا تَخافِيْنَ على أبِيْكِ ، قُلْنَا مَنْ هَذِهِ قالوا هَذِهِ زَيْنَبُ بِنْتُهُ رَضِيَ اللهُ عنها قال الهيثمي رِجاله ثقات .

وأخرج البخاريُ عن عروة بنِ الزبير عن عبد اللهِ بنِ عَمْرو رضي اللهُ عنه قال قلْتُ لَهُ مَا أكْثَرَ مَا رأَيتَ قريشاً أصابَتْ مِن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فِيْمَا كانَتْ تُظْهِرُ مِن عَدَواتِهِ قال حَضرْتُهم وقد اجْتَمَعَ أَشْرَافُهم في الحِجْرِ .

فقالُوا ما رَأَيْنا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عليه مِن هَذَا الرَّجُلِ قطُّ ، سَفَّهَ أَحْلامَنا ، وَشَتَم آبَائَنَا ، وعَابَ دِيْنَنَا ، وَفَرَّق جَمَاعَاتِنا ، وَسَبَّ آلِهَتنَا ، لَقَدْ صَبَرْنا مِنه على أمرٍ عَظِيْمٍ ، أَوْ كَمَا قالُوا .

قال فَبَيْنَمَا هُم في ذلكَ إذ طَلِعَ عليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم فأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى اسْتَقْبَلَ الرُّكْنَ ثم مَرَّ بِهِم طائفاً بالبَيتِ ، فَلَمَّا مَرَّ بهِم غَمَزُوْهُ : - أي أشَارُوْا إِلَيْهِ - بِبَعْضِ مَا يَقولُ قَالَ فَعَرَفْتُ ذَلِكَ في وَجْهِهِ .

ثم مَضَى فَلَمَّا مَرَّ بهم الثَّانِيَةَ بِمِثْلِهَا فَعَرَفْتُ ذَلِكَ في وَجْهِهِ ثم مَضَى فَلَمَّا مَرَّ بِهِم الثالثة فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا فقالَ أَتَسْمَعُونَ يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ ، أَمَا وَالَّذِيْ نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُم بالذَّبْحِ ، فأخَذَتِ القَوْمَ كَلِمَتُه ، حَتَّى مَا مِنهم رَجُل إلَّا كَأَنَّ على رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ حَتَّى إنَّ أَشَدَّهُم فِيهِ وَصَاءَةً قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرْفَؤُهُ بأحْسَنِ مَا يَجِدُ مِن القَولِ حَتَّى لَيَقُولُ انْصَرِفْ يا أَبَا القَاسِمِ ، انْصَرِفْ رَاشِدًا فَوَاللهِ مَا كُنْتَ جَهُوْلاً .

فَانْصَرَفَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم حَتَّى إذا كَانَ الغَدُ اجْتَمَعُوا في الحِجْرِ وأنا مَعَهُم فقال بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ذَكَرْتُم ما بَلَغَ منكم ومَا بَلَغكُم عَنْهُ حَتَّى إذا بَادَاكُم بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ ، فَبَيْنَمَا هُم في ذلك إذا طَلَعَ عَلَيهِم رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَوَثَبُوا عَلَيْهِ وَثْبَةَ رَجُلٍ واحدٍ فَأَطافُوا بِهِ يقولُون أَنْتَ الذي تَقُولُ كذا وكَذا لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُم مِن عَيْبِ آلِهَتِهِمْ ودِيْنِهِمْ .

قال فيقولُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم نَعَمْ أَنَا الذِيْ أَقُولُ

ذلِكَ ، قال فلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً مِنهم أَخَذَ بمَجْمَعِ رِدَائِهِ ، وقَامَ أبوُ بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ دونَهُ يَقُولُ وهو يَبكيْ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أن يقولَ ربيِ اللّهُ ، ثم انْصَرَفُوا عنه فإنَّ ذلكَ لأشدُّ مَا رَأيْتُ قُرَيْشاً بَلَغَتْ مِنه قَطُّ .

وأخرجَ أبَوُ يَعْلَى عن أنسِ ابنِ مالكٍ رضي اللهُ عنه قال لَقَدْ ضَرَبُوا رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَرةً حَتَّى غُشِيَ عَلَيهِ ، فقامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِي اللهُ عنه فَجَعَلَ يُنَادِي وَيْلَكُم أَتَقتُلونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَّ اللهُ ، فَقَالُوا مَنْ هَذا فقالُوا أَبُو بَكْرٍ المَجْنُون .

وفي الحديث الذي أخرجه أَبُو يعلى عن أسماءَ بنتِ أبيِ بكرٍ أَنَّ المُشرِكِينَ لَهَوا بأَبي بَكْرٍ عن رَسُوْل اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم وأَقْبَلُوا عليهِ قَالَتْ فَرَجَعَ إلينَا أَبُو بَكْرٍ فَجَعَل لا يَمَسُّ شَيْئاً مِن غَدَائِرِهِ ـ أي جَدائِلِه إلاَّ جَآءَ مَعَهُ ، وهُو يَقولُ تَبَارَكْتَ يا ذا الجلالِ والاكرام .

وأَخْرَجَ البَزَارُ في مسندهِ عن محمد بِن عَقِيْلٍ عنِ علي رضي اللهُ عنه أنه خَطَبَهُم فقال يا أَيُّهَا الناسُ مَنَ أشَجَعُ الناسِ ، فَقَالُوا أَنْتَ يَا أَمْيرَ المُؤْمِنينَ فقال أَمَّا أَنَا مَا بارَزَني أحَدَ إلاَّ انْتَصَفْتُ منه ، ولكِن هُوَ أَبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ إنا جَعَلْنَا لِرَسُوْلِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم عَرِيْشاً فَقُلْنَا مَن يَكُونُ مَعَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِئلاّ يَهْوِي إليه أَحَدٌ مِن المُشْرِكين فَوَاللهِ مَا دَنَا مِنَّا أَحَدٌ إلاَ أَبُو بَكْرٍ رضِيَ اللهُ عنه شَاهِرَاً بالسَّيْفِ على رَأْسِ رَسُولَ اللهُ صلى الله عليهِ وسلم لا يَهْوِ إليه أَحَدٌ إلا أهْوَى إليهِ فَهَذا أَشْجَعُ الناسِ .

قالَ ولَقَدْ رأيتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأَخَذَتْهُ قُرَيْشُ

فهذا يُحَادُّهُ وهَذَا يُتَلْتِلُه ويَقُولُونَ أَنْتَ جَعَلْتَ الآلهةَ إلهاً وَاحِداً فَوَاللهِ مَا دَنَا مِنَّا أَحَدٌ إلا أَبُو بَكْرٍ يَضْرِبُ هَذَا ويُجَاهِدُ هَذا ويُتَلْتِلُ هذا ، وهُوَ يقولُ وَيْلَكُمْ أتقتُلونَ رجُلاً يقولُ ربِي الله .

ثم رَفَعَ على بُرْدَةٍ كَانَتْ عَلَيهِ فَبَكَى حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ ، ثم قَال أنشُدُكُم اللهَ أَمُؤْمِنُ آلِ فِرعَونَ خَيرٌ أَمْ هُو ، فَسكَتِ القومُ ، فقالَ عليٌ رضيَ اللهُ عنه ، فوَاللهِ لَسَاعَةٌ مِن أبي بَكْرٍ خَيْرٌ مِن مِلْءِ الأَرْضِ مِن مُؤْمِن آلِ فِرْعونَ ، ذَاكَ رَجُلٌ يَكْتُمُ إيْمَانَهُ ، وهَذا رَجُلٌ أعْلَنَ إيمانَهِ الحديث ، وفيه يقول أَبُو مِحْجَنِ الثقفي :

وسُمِّيْتَ صِدِّيْقاً وكُنْتَ مُهَاجِراً سِوَاكَ يُسَمَّى باسْمِهِ غَيْرُ مُنْكَرِ
وبالغارِ إذْ سُمِّيْتَ بالغَارِ صَاحِباً وكُنْتَ رَفيقاً لِلنَّبِي المُطَهَّرِ
سَبَقْتَ إلى الإِسْلامِ واللهُ شاهِدٌ وَكُنْتَ جَلِيْساً بالعَرِيْشِ المُشَهَّرِ

اللهم يسر لَنَا سَبيلَ الأَعْمَالِ الصالحاتِ وَهَيِّيءْ لَنَا مِن أَمْرِنا رَشَدَا واجْعَلْ مَعُونَتَكَ العُظْمَى لَنَا سَنَدَاً واحْشُرْنَا إذا تَوَفَّيْتَنَا مَعَ عِبَادِكَ الصالحينَ الذينَ لا خوفٌ عَلَيهم ولاَ هم يَحْزَنُونَ ، واغفَر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فَصْلٌ) أَخْرَجَ البُخَارِيُ عن عُرْوَةَ رَضي اللهُ عنه قال سَأَلْتُ ابنَ أَبِي العاصِ رضيَ اللهُ عنه فقُلْتُ أخبِرْنِي بأشَدِّ شَيءٍ صَنَعَهُ المُشْرِكُونَ بِرَسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلمْ ، قَالَ بَيْنَما النبيُّ صلى الله عليه وسلم يُصَلِّي في حِجْر الكعْبَةِ إذْ أقْبَل عليه عُقْبَةُ ابنُ أبي مُعَيْطٍ فَوَضَعَ ثَوْبَه على عُنقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقاً شَدِيْداً .

فأقْبَلَ أبو بَكرٍ رَضْيَ اللهُ عنه حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكبِهِ ، ودَفَعهُ عَن النبي

صلى اللهُ عليهِ وسلمْ ، وَقال أَتَقْتُلُون رَجُلاً أنْ يَقُولَ رَبِّي الله وقدْ جَاءكم بالبيْناتِ مِنْ رَبِكُمْ الآية .

وَعنْد ابْن أبي شَيَبة عَنْ عُرْوَةَ بنِ العاصِ رضيَ الله عنه قالْ : ما رأيتُ قُرَيْشاً أرَادُوا قَتْلَ النبيَّ صَلّى الله عليه وسلم إلاَّ يوماً اِئْتَمَرُوا بهِ وَهُمْ جلوسٌ في ظِلِ الكَعبةِ وَرَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يُصَليَّ عِنْدَ المقامْ ، فَقَامَ إليهِ عُقْبَة بنُ أَبِي مُعَيطٍ فَجَعَل رِداءَهُ في عنُقِهِ ثُمَّ جَذَبَهُ حَتَّى وَجَبَ لِرُكبَتَّيْهِ سَاقِطاً ، وتَصَايَح الناسُ فَظَنُّوا أنه مَقتُول .

فأقْبَل أبوُ بَكْرِ رَضْي اللهُ عَنْهُ يَشْتَدْ حَتَّى أَخَذَ بضَبُعَيْ رَسول الله صلى الله عليه وسلم مِن وَرَائِه وَهوَ يقول « أَتُقْتُلونَ رجلاً أن يقولَ ربي اللهُ » الحديث .

وأخْرَجَ البَزَّاز والطَّبَراني عن عبدِ الله بنَ مَسْعودٍ رَضْيَ اللهُ عنهُ قالْ بَيْنَما رَسُولُ اللهِ صَلى اللهَ عليهِ وسلَّمَ في المسجد وأبُو جَهْل وشَيْبَةُ وعُتْبَةُ أَبْنَاءُ رَبْيعَةَ وعُقْبَةُ بنُ أبي مُعْيطِ وأمَيَّةُ ابنُ خَلفَ ورَجُلانِ آخرَانِ كانُوا سَبْعةً ، وَهُمْ في الحِجْر ورَسُولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم يُصَليٍّ فلمَّا سَجَد أطالَ السُّجودَ .

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ أَيُّكُمْ يَأْتِي جَزورَ بني فُلان فَيَأتِيْنا بِفَرْثها فَنَكْفَئَهُ على مُحَمدٍ صلى الله عليه وسلمْ ، فانْطَلَق أشْقَاهُمْ عُقْبَةُ ابنُ أبِي مُعْيطِ فأتى بهِ فألقاهُ على كَتِفَيْهِ صلى الله عليه وسلم وهُوَ ساجد قالَ ابنُ مَسْعودٍ وَأَنَا قَائِمٌ لا أسْتَطِيعُ أنْ أتكلَّمْ ، لَيْسَ عِنْدي مَنَعَةٌ تَمْنَعُني ، إذْ سَمِعَتْ فاطمةُ بنتُ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلمْ فأقْبَلتْ حَتى ألقَتْ ذلِكَ عَن

عَاتِقِه .

ثم اسْتَقْبَلتْ قُرَيْشاً تَسُبُّهمْ فَلَمْ يَرْجِعُوا إليها شَيْئا ، ورَفَعَ رسولُ الله صلى اللهُ عليهِ وسلم رَأسَه كَما كانَ يَرْفَعُ عِنْدَ تَمامِ السُّجود ، فَلَمَّا قَضَى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صلاَتَهُ ، قالْ اللَّهمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ ثَلاَثاً ، عَلَيكَ بِعُتْبَةَ ، وعُقْبَةَ ، وأبيَ جَهْلٍ وشَيْبَةَ .

ثُمَّ خَرَجَ مِن المسجدِ فَلَقِيَهُ أَبُو البَخْتَرِيُ بِسَوط يَتَخَصَّرُ بِهِ ، فَلَمَّا رأىَ النبيَّ صلى الله عليه وسلمْ أنكَرَ وَجْهه فقالَ مَالَكَ ، فقالَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمْ خَلِّ عَنِّي قالَ عَلِمَ اللهُ لا أُخَلِّى عَنْكَ ، أوْ تُخْبِرْني مَا شَأْنُكَ ، فَلَقَدْ أصَابَكَ شَيْءٌ فَلَّما عَلِمَ النَّبيُ صلى الله عليه وسلم أنهُ غيرُ حَمْلٍ عَنْهُ أخْبَرَه .

فقالْ انَّ أبا جَهْلٍ أَمَرَ فَطرِحَ عَليَّ الفَرْث، فقالَ أَبُو البُخْتِرى هَلُمَّ إلى المسْجِد فأتى النبيَّ صَلى اللهُ عليهِ وسلم وأَبُو البُخْتِري فَدَخلا المسجدَ .

ثُمَّ أقْبَلَ أبوُ البَخْتَري إلى أَبي جَهْلٍ فَقَالَ يا أبا الْحَكَمْ أَنْتَ الذي أمَرْتَ بِمُحمدٍ فَطُرِحَ عليه الفَرْثَ ، قَالَ نَعمْ قَال فَرَفَع السَّوطُ فَضَرَبَ بِه رأسَه قال فَثَارَ الرِّجالُ بَعْضُهم إلى بَعْضٍ قَالَ وصَاحَ أبو جَهْلٍ وَيْحَكُمْ هِيَ لَهْ إنَّما أرادَ مُحمدٌ صلى الله عليه وسلم أن يُلْقِي بَيْنَنا العَدَاوةَ ، ويَنْجُو هَوَ وأصْحَابُه الحديث .

وأخْرَجَ الطَّبَراني عَنْ يَعْقُوبَ بنْ عُتْبَة بنِ الْمُغيرَة بنِ الأخْنَسِ بن شَريق حليفِ بَني زُهْرة مُرْسَلا ، أَنَّ أبَا جَهْلٍ اعْتَرَضَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى

اللهُ عليهِ وَسَلمْ بالصَّفَا فآذاهُ .

وَكَانَ حَمْزَةُ رَضْي اللهُ عَنْه صَاحِبَ قَنْصٍ ، وَصيْدٍ ، وَكَانَ يَومَئِذٍ في قَنْصِهِ ، فَلَّما رَجَعَ قالت لهُ امْرَأَتْهُ وَكَانَتْ قد رأَتْ ما صَنَعَ أبُو جَهْل بِرَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، يا أبَا عِمَارَةَ لو رَأْيتَ مَا صَنَعَ تَعْني أبَا جَهْلٍ بابنِ أخِيكَ ، فَغضِبَ حَمْزَةُ رَضْيَ اللهُ عنهُ وَمَضى كمَا هُو قَبْلَ أنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ .

وَهو مُعَلِّقٌ قَوْسَهُ في عُنُقِه حَتَّى دَخَلَ المسجدَ فَوَجَد أبا جَهْلٍ في مَجْلسِ مِن مَجَالِسِ قُريشٍ فَلَمْ يُكَلِّمَهُ حَتَّى عَلاَ رأسَهُ بِقَوْسِهِ ، فَشَجَّهُ فقامَ رِجُال مِنْ قُرَيشٍ إلى حَمْزَةَ يُمْسِكُونَهُ عَنْهُ ، فقالَ حَمْزَةُ دِيني دِينُ مُحمدِ صلى اللهُ عيهِ وسلم أشْهَد أنَّهُ رَسُولَ الله ، فَواللهِ لا أنْثَنِي عَنْ ذَلك ، فامْنَعُوْنِي مِن ذلِك إنْ كُنْتُم صَادِقِينْ .

فَلمَّا أسْلَمَ حَمْزَةُ رضي الله عنهُ ، عَزَّ بِهِ رسَولُ اللَّه صَلى الله عليه وسلمَ والمُسْلِمون ، وثَبتَ لَهُمْ بَعضُ أمْرهِمْ ، وهَابَتْ قُرَيْشٌ وَعلِمُوا أنَّ حَمْزَةَ رضِيَ اللهُ عنه سَيَمْنَعُهُ ، قال الْهَيْثَمِي وَرِجَاله ثِقَاتْ .

وأخْرَجَ أبو نُعيم في دَلائِلِ النُّبوةَ عَنْ عُرْوَةَ بنُ الزُّبَيْرِ رَضَي اللهُ عَنْهُمَا قالْ ومَات أَبُو طَالب وازْدادَ مِنْ الْبَلا عَلى رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِشِدَّةٍ ، فَعَمِدَ إلى ثِقيْفٍ يَرْجُو أنْ يُؤْوُوهُ ويَنْصُرُوه ، فَوَجَدَ ثلاثةَ نَفرٍ مِنْهمْ ، سَادَةُ ثِقيْف ، وهَمْ أخْوَةُ عَبْدُ يَاليلْ بنِ عَمْرو ، وَحَبيْبُ ابْنُ عَمْروٍ ، وَمَسْعُودُ بنُ عَمْرو ، فَعَرضَ عليْهِم نَفْسَهُ ، وشكا إلَيْهم البلاءَ ، وَمَا انْتَهكَ قَوْمُهُ مِنه .

فَقَال أَحدُهُمْ أنَا أَسْرقُ ثِيابَ الكَعْبَةِ إن كَانَ اللهُ بَعَثَكَ بشَيءٍ قَطْ ، وقالَ آخرُ واللهِ لا أكَلِّمكَ بَعْدَ مَجْلِسِكَ هذا كِلْمَةً واحِدةً أَبَدًا لِإنْ كُنْتَ رَسُولا لأنْتَ أعْظَمُ شَرَفاً وَحَقاً مِن أَنْ أكلِمَكَ . وقالَ الآخَرُ أعَجِزَ اللهُ أَنْ يُرسِلَ غَيْرَكَ .

وَأَفْشَوا ذَلِكَ في ثَقِيفٍ الذينَ قَالَ لَهُمْ ، واجْتَمَعُوا يَسْتَهزِؤُنَ برسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ ، وَقَعَدُوا لَهُ صَفَّينَ على طَريقةٍ ، فأخَذُوْا بِأيْدِيهم الحِجَارَة فَجَعَلَ لا يَرْفَعُ رِجْلَهُ وَلَا يَضَعُهَا إلَّا رَضَخُوهَا بالحِجَارَةِ ، وَهُمْ في ذِلِكَ يَسْتَهزِؤُنَ وَيسْخَرُونَ .

فَلَمَّا خَلصَ مِن صَفَّيْهِم وَقَدَمَاهُ تَسِيْلَانِ بالدماء ، عَمِدَ إلَى حَائِطٍ مِنْ كُرُومِهِمْ فأتَى حَبَلَةً مِن الكَرْمِ فَجَلَسَ في أصْلِها مَكْرُوباً مُوْجَعاً تَسِيْلُ قَدَماهُ الدِّمَاء فإذَا في الْكَرْمِ عُتْبَةُ بنُ ربيعةَ وشَيْبَةُ ابنُ ربِيْعَةَ فَلمَّا أبصَرَهُمَا كَرِهَ أنْ يَأْتِيَهُمَا لِمَا عَلِمَ مِن عَدَاوَتِهِمَا لِله ولِرَسُولِهِ وَبِهِ الذي بِه فأرْسَلَا إليهِ غُلَامَهُمَا عَدَّاساً بِعِنَبٍ وَهُوَ نَصْرَانِي مِن أهْلِ نِيْنَوىَ ، فَلَّما أتاهُ وَضَعَ العِنَبَ بين يَدَيهِ .

فقالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم بِسْمِ اللهِ فَعَجِبَ عَدَّاسُ ، فَقَالَ لَهُ رسولُ الله صَلى اللهُ عليهِ وسلم مِنْ أيْ أرْضٍ أَنْتَ يا عَدَّاسُ قَالَ أنَا مِنْ أهْلِ نِيْنَوَى .

فقَالَ النبيُّ صلى الله عليهِ وسلمَ مِن أهْلِ مَدِيْنَةِ الرَّجُلِ الصَّالحِ يُونُسَ بنُ مَتَّى ، فَقَالَ لَهُ عدَّاسُ وَمَا يُدْرِيْكَ مَنْ يُونُسَ بنُ مَتَّى ، فأخبرَهُ رسولُ اللهِ صلى اللهَ عليهِ وسلم مِن شأنِ يُوُنَسَ ما عَرَفَ .

وَكَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم لَا يَحْقِرُ أَحَداً يُبَلِّغهُ رِسَالاتِ اللهِ تَعالى ، قَالَ يَا رَسولَ اللهِ أخْبرْنِي خَبرَ يُونُسَ بنِ مَتَّى ، فَلمَّا أخبرَهُ رسولُ اللهِ صلى الله علَيه وسلم مِن شأنِ يُونُس بنِ مَتى مَا أُوْحِيَ إليهِ مِن شأنِهِ خَرَّ ساجداً لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم ، ثمَ جَعَل يُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ وَهُمَا تَسِيْلَانِ الدِّماءَ . فَلمَّا أبْصَر عُتْبَةُ وأخوهُ شَيْبَةُ ما فَعَلَ غُلَامُهُمَا سَكَتَا ، فلمَّا أتَاهُما قالَا لهُ ما شَأْنُكَ سَجَدَتْ لِمُحُمَّدِ وقَبَّلْتَ قَدميْهِ ، ولَمْ نَرَكَ فَعَلْتَ هذَا بِأَحَدِنَا .

قالَ هذَا رجلٌ صَالِحٌ حَدَّثَنِي عَنْ أشْيَاءَ عَرَفْتُهَا مِن شَأْنِ رَسُولِ بَعَثَهُ اللهُ تعالى إلَيْنَا يُدْعَى يُونُسُ بنُ مَتَى فَأَخْبَرنِي أنهُ رسولُ اللهُ فَضَحِكَا وقالَا لا يَفْتِنُكَ عَنْ نَصْرَانِيَّتِكْ إنّه رَجُلٌ يَخْدَعْ ، ثمَّ رَجَعَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَّ إلى مَكَّة انتهى .

اللهم نَوِّرْ قُلُوبَنَا بنُورِ الايمانْ واجْعَلْنَا هُداةً مُهْتَدِيْنَ وألْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ واغفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنا وَجَميعِ المُسلِمِينْ بِرَحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلَى آلِه وصحبه أجمعين .

(فَصْلٌ)

أخرَجَ ابنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ عَائِشَةَ رضيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ أبو بَكْرٍ لَوْ رَأيْتُنِي وَرَسُول اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمْ اذْ صَعَدَ الغَارْ فَأمَّا قَدَمَا رَسولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ فتَقَطَّرَتا ، وأمَّا قَدَمَاي فَعَادَتْ كأنَّهُمَا صَفْوَانٌ ، قالَتْ عَائِشَةُ رضي اللهُ عَنْهَا إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ لَمْ يَتَعَوَّدْ الْحُفْيَةْ .

وأخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أنسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ كُسِرَتْ رَبَاعَيَّتِهِ يَوْمَ أحُدٍ وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ فَجَعَلَ يَسْلِتُ الدَّمِ عَنْ وَجْهِهِ ، وَيَقُول كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ ، وَهْوَ يَدْعُوهُمْ إلى اللهِ ، فَنَزَلْ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِن الأمرِ شيءٌ ﴾ الآية .

وَعِنْدَ الطَّبَرَانِي فِي الْكَبِيرِ عَنْ أبِي سَعِيْدٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالْ أُصِيْبَ وَجْهُ النبيّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يَوْمَ أحُدٍ ، فاسْتَقْبَلَهُ مَالِكُ بنُ سِنَانٍ فَمَصَّ جُرْحَهُ ثُمَّ ازْدَرَدَهُ - أيْ ابْتَلَعَهُ ! قَالَ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ مَنْ أحَبَّ أنْ يَنْظُرَ إلَى مَنْ خَالَطَ دَمُهُ دَمِي فَلْيَنْظُرْ إلى مَالِكِ بن سِنَانْ .

وأَخْرَجَ الطَّيالِسِي عَنْ عَائِشَةَ رضيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ كانَ أبُو بكر رضْيَ اللهُ عَنه إذا ذَكَرَ يَوْمَ أُحُدٍ قالْ ذَاكَ يومٌ كُلُّهُ لِطَلْحَةَ ثمَّ أنْشَأَ يُحَدِّث قَالَ كُنتُ أوَّلَ مَنْ فَأَ يَوْمَ أحدٍ فَرَأيْتُ رَجُلاً يُقَاتِلُ في سَبِيْلِ اللهِ دُونَهُ ، وأرَاهُ قال حَمِيَّةً ، قَالَ فَقُلْتُ كُنْ طَلْحَةَ حَيْثُ فَاتَنِي مَا فاتَنِي فقلتُ يكونُ رَجُلاً مِنْ قَوْمِي أحَبُّ إليَّ . وبَيْنِي وبَيْنَ المُشْرِكِيْنَ رَجُلاً لا أعْرِفُهْ وأنَا أقْرَبُ إلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم مِنْهُ وَهْوَ يَخطِفُ الْمَشيَ خَطْفاً لاَ أخْطِفُهْ .

فإذَا هُوَ أبُو عُبَيْدَة بنُ الجرَّاحِ رَضْيَ اللهُ عَنهُ فانْتَهَيْنَا إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمْ ، وَقَدْ كُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ ، وَشُجَّ فِي وَجْهِهْ ، وَقَدْ دَخَلَ في وَجْنَتِهِ حَلْقَتَا مِنْ حَلقِ الْمِغْفَرِ . قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَمْ عَلَيْكُمَا صَاحِبَكُمَا يُرِيدُ طَلْحَة ، وقدْ نَزَفَ فَلَمْ نَلْتَفِتْ إلى قَوْلِهِ ، قَالَ وَذَهَبْتُ لِأُنْزِعَ ذَلِكَ مِنْ وَجْهِهِ فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ أُقْسِمُ عَلَيْكَ بِحَقِّي لَمَا تَرَكْتِنِي فَتَرَكْتُهُ . فَكَرِهَ تَنَاوُلَهَا بِيَدِهِ فَيُؤْذِي رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمْ فَأَزَمَّ عَلَيْهَا

بفيه أي عَضَّ عليها ، فاسْتَخرجَ احدى الحَلْقَتين وَوَقَعتْ ثَنِيَّتُه مَعَ الحَلْقَة وَذَهَبْتُ لأَصْنَعَ ما صَنَعَ فَقالْ أقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِحَقِّي لِمَا تَرَكْتَنِي قَالَ فَفَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَ في المَرَّةِ الأُوْلَى فَوَقَعَتْ ثَنِيَّتُه الأُخْرَى مَعَ الْحَلْقَةِ .

فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ مِن أحْسَنِ النَّاسِ هَتْماً فأصْلَحْنَا مِن شَأْنِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسلَّمْ ، ثُمَّ أَتَيْنَا طَلْحَةَ في بَعْضِ الجِفَارِ ، فإذَا بِهِ بِضْعُ وَسَبْعُوْنَ طَعْنَةً وَرَمْيَةً وَضَرْبَةً وإذَا قَدْ قُطِعَتْ أُصْبُعِهِ فأصْلَحْنَا مِن شَأْنِهِ .

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا ، وارْزُقْنَا مَحَبَّةُ أَوْلِيَائِكَ وأصْفِيَائِكَ واجْمَعْنَا وَإيَّاهُمْ في دَارِ كَرَامَتِكَ ، يَا أكْرَمَ الأكْرَمِيْنَ وأرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلى اللهُ علَى محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجميعنَ .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ الله انَّ اللهَ اخْتَارَ نَبِيَّهُ مُحَمَّداً صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمْ وَخَصَّهُ بِمَزَايَا لَمْ تَكُنْ لأحَدٍ مِنَ الْعَالَمِيْنَ وَاخْتَارَ لَهُ أَصْحَاباً خِيْرَةَ النَاسِ مِنْ خَلْقِه ، وَخَصَّهُمْ بِمَزَايَا لَمْ تكنْ لِسُوَاهُمْ مِنْ النَّاسِ أجمَعِين ، حَاشَا الأنبياءَ والمرسَلِيْن ، وأَثْنَى عليهم ، سُبْحَانَهُ في غَيْرِمَوْضِعٍ مِن القرآنِ الكَرِيْمِ تَنْبِيْهَاً عَلَى جَلاَلَةِ قَدْرِهِمْ ، وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهم ، وَعِظَمِ فَضْلِهِمْ ، وَشَرَفِهِمْ . قَالَ تَعَالَى ﴿ والسَّابقونَ الأولَونَ مِن المهاجِرين ، والأَنْصَارِ والذين اتبعوهم بإِحْسَانٍ رضي اللهُ عنهُمْ وَرَضُوا عنه ﴾ .

وقَالَ تَعَالَى يَصِفُهُمْ بِشِدَّةِ الرَّحْمَةِ ولِيْنِ الْجَانِبَ لِبَعْضِهِمْ بَعْضَا وَشِدَّتِهِمْ عَلَى الكُفَّارِ المُعَانِدِيْنَ ،«مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ وَرُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ

ورِضْوَاناً سِيْمَاهُمْ في وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» .

وَقَالَ تَعَالَى يَصِفُ الْمُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ بأَفْضَلِ مَا يَصِف به إنْسَانَاً «لِلْفُقَرَاءِ المهَاجِرِيْنَ الذينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وأَموالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً من اللهِ وَرِضْوَانا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أولئك هُمُ الصَّادِقُون . والَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّار والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَـرَ إِلَيْهِمْ ، وَلاَ يَجِدُوْنَ في صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أوتُوا ، وَيُؤْثِرُون عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِم خَصَاصَةٌ ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُوْنَ » .

وَقَالَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خَيْرُ القُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ ، وَلَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ أَصْبَرُ النَّاسِ بعد الرُّسُلِ عَلَى الأذى في اللهِ فَلَقَدْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍ إلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللهُ وَصُبَّ عَلَيْهِمُ الأذى مِن كُلِّ صَوْب ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذلِكَ إلا إيْمَاناً قالَ تَعَالى : ﴿ الذينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُم ايْمَاناً ﴾ .

﴿وَقَالُواحَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيلِ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِن اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوء ﴾ ا الآية .

وإذا كانَ الصَّحَابَـةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أَرْفَعَ النَّـاسِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِيْنَ دَرَجَةً وأعْلاَهُمْ مَكَانَاً بِشَهَادَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ فَلاَ عَجَبَ أنْ يُعْلِنَ المُصْطَفَى صَلى اللهُ عليهِ وسَلَّمْ بِفَضْلِهِمْ وَيُحَذِّرُ مِنْ سَبِّهِمْ وَمَقْتِهِمْ ، وَيَقُولُ فِيمَا رَوَى التِرْمِذِي « اللَّهَ اللَّهَ في أَصْحَابِي لاَ تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضَاً بَعْدِي ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغِضَهُمْ ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهُ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ » .

ويقولُ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تَسُبُّوا أصْحَابِي فَو الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ

لَوْ أنَّ أحَدُكُمْ أنْفَقَ مِثْلَ آحَدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أحَدِهِمْ وَلاَ نَصْيْفَهُ ، فَأَصْحَابُ النَّبيِّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاَ يَشُكُّ عاقِلٌ أَنَّهُمْ هُمْ الّذي حَازُوا قَصَبَاتِ السَّبْقِ ، واسْتَوْلَوْا عَلَى مَعَالِي الأمور مِنَ الفَضْلِ والمعرُوفِ والصِدقِ والعِفَةِ ، والكَرَمِ والإِحْسَانِ ، والقناعةِ ، وعُلُوِّ الهِمَّةِ ، والنَّزاهةِ ، والشَجاعَةِ ، والتُّقى والتَّواضُعِ ، ونَحْوِ ذَلِكَ .

فَالسَّعِيْدُ مَنِ اتَّبَعَ طَرِيقَهُمْ ، واقْتَفَى مِنْهَجَهُمْ القويم ، والشَّقِيُ مَنْ عَدَلَ عَنْ طَرِيْقِهِمْ ، وَلَمْ يَتَحَقَّقْ بِتَحْقِيقِهِمْ ، فأيُ خِطَّةِ رُشْدِهِمْ لَمْ يَسْتَوْلُوا عَلَيْهَا ، وأيُ خَصْلَةِ خَيْرٍ لَمْ يَسْبِقُوا إليها ، لَقَدْ وَرَدُوا يَنْبوعَ الحَيَاةِ عَذْبَاً صَافِياً زُلاَلاً . وَوَطَّدُوا قواعِدَ الدّيْنِ ، والمَعْرُوْفِ فَلَمْ يَدَعُوا لأَحَدٍ بَعْدَهُمْ مَقَالاً .

فَتَحُوا القلُوبَ بالقُرْآنْ ، والذِّكْرِ والإيمان، والْقُرَى بالسَّيْفِ والسِّنَانْ . وَبَذَلُوا النُّفُوسَ النَّفِيْسَةِ في مَرْضَاةِ رَبهِم ، فَلاَ مَعْرُوْفَ إلاَّ مَا عُرِفَ عَنْهُم ، وَلاَ بُرْهَانَ إلاَّ مَا بِعُلُومِهِمْ كُشِفَ ، وَلاَ سَبِيْلَ نَجَاةٍ إلاَّ مَا سَلَكُوهُ وَلاَ خَيْرَ سَعَادَةٍ إلاَّ مَا حَقَّقُوهُ وحَلُّوهُ فرِضْوَانُ اللهِ عليهم ، مَا تَحَلَّتْ المَجَالِسُ بِنَشْرِ ذِكْرِهِمْ ، وَمَا تَنَمَّقَةِ الطُرُوسُ بِعَرْفِ مَدحِهِمْ وَشُكْرِهِمْ :

وَلَيْسَ فِي الأُمَّةِ كالصَّحابَةْ　　بالْفَضْلَ والمَعْرُوفِ والإِصَابَةْ
فإنَّهُمْ قَدْ شَاهَدُوا المُخْتَارَ　　وَعَايَنوا الأسْرَارَ والأَنْوَارَا
وَجَاهَدُوا في اللَّهِ حَتَى بَانَا　　دينُ الهُدَى وَقَدْ سَمَا الأَدْيَانَا
وَقَدْ تُلِيْ في مُحْكَمَ التَّنْزِيْلِ　　مِنْ فَضْلِهِمْ مَا يَشْفِي مِنْ غَلِيْلِ
وفَي الأحَادِيثِ وفي الأَخْبَارِ　　وَفِي كلامِ القَوْمِ والأشْعَارِ
مَا قَدْرَ رَبا مِنْ أن يُحِيطَ نَظْمِي　　بِبَعْضِهِ فاسْمَعْ وَخُذْ مِنْ عَلْمي

آخـــر :

قَومٌ لَهم عند رَبِّ العَرش مَنْزِلَةٌ ... وحُـرْمَـةٌ وبَشَـارَاتٌ وَإِكْـرَامُ
فازُوْا بِصُحْبَةِ خَيْرِ الخَلْقِ واتَّصَفُوا ... بوَصْـفِهِ فَهُـمُ للنَّـاسِ أَعْـلَامُ
فَفِي أَبِي بَكرٍ الصِّدِيْق قَدْ وردَتْ ... آثارُ فَضْلٍ لَهَا في الذِّكر أحْكَامُ
وبَعْـدَهُ عُـمرٌ الفـارُوْقُ صـاحِبُهُ ... بـهِ تَكَـمَّلَ بالفـارُوْق إِسْـلَامُ
وهَكذا الـبَر عُـثمانُ الشّـهيْدُ لَـهُ ... في اللَّيــلِ وِرْدٌ وبالقُـرآن قَـوَّامُ
وللإمـام علـيٌّ المُرْتَضـي مِنَـحٌ ... لَـهُ احْـتِرَامٌ وَإِعْـزَازٌ وإِكْـرَامُ
هُمُ الصحابَةُ لِلمُخْتَارِ قد وضَحُوا ... طُرْقَ الهُدى وعلى الطاعاتِ قَدْ دَامُوا

(فصل)

ذِكْرُ نَمَاذِجَ مِن صَبْرِ الصحابةِ على الأَذى والشدائدِ في الدعوةِ إلى اللهِ فأولُ ذلكَ في تَحَمُّلِ أبِي بكرٍ

أخرج الحافظُ أبُو الحَسَنِ الأطرابُلسي عن عائشة رضي اللهُ عنها قالت لما اجْتَمَعَ أصحابُ النبي صلى اللهُ عليه وسلمْ ـ وكانوا ثَمَانِيَةً وَثَلاثِينَ رَجُلاً أَلَحَّ أَبُو بكرٍ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ في الظُّهُورِ فقال يا أبا بكرٍ إنَّا قَلِيْلٌ فلَمْ يَزَلْ أبو بكرٍ يُلِحُ حَتَّى ظَهَرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ وَتَفَرَّقَ المسلمونَ في نَواحِي المسجدِ كُلُّ رَجُلٍ في عَشِيْرَتِهِ .

وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ في الناسِ خَطِيْبَاً ورسولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم جالسٌ فكانَ أولَّ خَطِيْبٍ دَعَا إلى اللهِ وَإلَى رَسُولِهِ صلى اللهُ عليه وسلم وثارَ المُشْرِكُونَ على أَبِي بَكْرٍ وعلى المسلمين فَضُرِبُوا في نَواحِي المسجِدِ ضَرْباً شَدِيْدَاً ، وَوُطِىءَ أبو بكرٍ وَضُربَ ضَرْبَاً شَدِيْدَاً وَدَنا مِنْهُ الفَاسِقُ عُتْبَةُ

بنُ رَبيْعَةَ فَجَعَلَ يَضرِبُهُ بِنَعْلَيْنِ مَخْصُوفتَيْنِ ، ويُحَرِّفُهُمَا لِوَجهِهِ وَنَزا عَلَى بَطْنِ أبِي بَكْرٍ حَتَّى مَا يُعْرَفُ وَجْهُهُ مِن أَنْفِهِ .

وجَاءَ بَنُو تَمِيْمٍ يَتَعَادَوْنَ فَأَجْلَتِ المُشْرِكِيْنَ عَن أَبِي بَكْرٍ وَحَمَلَتْ بَنُو تَمِيْمٍ أَبَا بَكْرٍ في ثَوْب حَتَّى أدخلُوهُ مَنْزِلَهُ ولا يَشُكُّونَ في مَوْتِهِ ، ثم رَجَعَتْ بَنُو تَمِيْمٍ فَدَخَلُوا المسجِدِ وَقَالُوا واللهِ لَئِنْ مَاتَ أَبو بَكْرٍ لَنَقْتُلَنَّ عُتْبَةَ بنَ رَبِيْعَةَ فَرَجِعُوا إلى أبِي بكرٍ فَجعَلَ أَبُو قُحَافَةَ وَبَنُوا تَمِيمٍ يُكَلِمُونَ أَبا بَكْرٍ حَتَّى أجَابَ فَتَكَلَّمَ آخِرَ النهارِ فقَالَ مَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَم فَمَسُّوا مِنه بِألْسِنَتِهِم وَعَذَلُوهُ ثم قامُوا وقالوا لأمِّهِ أُمّ الخَيْرِ انْظُرِي أنْ تُطْعِمِيْهِ شَيْئاً أو تَسْقِيْهِ إياه .

فَلَمَا خَلَتْ بِهِ ألَحتْ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ يَقولُ ما فَعَلَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقالت مَالِي عِلْمٌ بِصَاحِبِكِ فقال إذْهَبِي إلى أُمّ جَمِيْل بِنْتِ الخَطّابِ ، فاسألِيْهَا فخَرَجَتْ حتى جاءتْ أمَّ جَمِيْلٍ فَقالَتْ إنَّ أبا بَكْرٍ يَسْألُكِ عن مُحَمّدِ بنِ عبدِ اللهِ .

فقالَتْ مَا أعْرِفُ أَبَا بَكْرٍ ولا مُحَمَّدَ بنَ عبدِ اللهِ ، وإنْ كُنْتِ تُحِبينَ أنْ أذْهَبَ مَعَكِ إلى ابنكِ قالَتْ نَعَمْ فَمَضَتْ مَعَهَا حتى وَجَدَتْ أبا بَكر صَرِيْعاً دَنِفاً ، فَدَنَتِ أُمُّ جَمِيْلٍ وَأعْلَنَتْ بالصِياحِ ، وقالَتْ واللهِ إنَّ قَوماً نَالُوا هَذَا مِنْكَ لأهْلُ فِسْقٍ وكُفْرٍ ، وإنِّي لأَرْجُو أنْ يَنْتَقِمَ اللهُ لَكَ مِنهم .

قَالَ فَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم قالَتْ هذِهِ أُمُّكَ تَسْمَعُ قال فلا شيءَ عليكِ منها قالَتْ سَالِمٌ صالِحٌ .

قال أينَ هُوَ قَالَتْ في دَارِ ابن الأرقمِ قال فإن لِلهِ عَلَيَّ أنْ لا أذُوْقَ

طَعَاماً ولا أشْرَبَ شَراباً أوْ آتِيَ بِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم فأمْهِلْنَا حَتَّى إذا هَدَأَتِ الرِّجْلُ وَسَكَنَ الناسُ خَرجَتَا بِهِ يَتَكِىءُ عَلَيْهِمَا حَتَّى أدْخَلَتَاهُ عَلَى رَسُولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم قالَ فأكَبَّ عليهِ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم فَقَبَلَهُ وأكَبَّ عليه المسلمونَ وَرَقَّ لَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم رِقَّةً شَدِيْدَةً .

فقال أبو بَكْرٍ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِي يَا رَسولَ اللهِ ، لَيْسَ بِي بَأْسٌ إنَّ مَا نَالَ الفَاسِقُ مِن وَجْهِي ، وَهَذِهِ أمِّي بَرَّةٌ بِوَالِدِهَا وأنْتَ مُبارَكٌ فَادْعُهَا إلى اللهِ ، وَادعُ الـلهَ لَهَا عَسَى اللهُ أنْ يَسْتَنْقِذَهَا بِكَ مِن النارِ ، قالَ فَدَعَا لَهَا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم ، وَدَعَاهَا إلى اللهِ فأسْلَمَتْ وأقامُوا مَعَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في الدار شَهْرَاً وهُمْ تِسْعَةٌ وثلاثون رَجُلاً وقَدْ كَانَ حَمْزَةُ رَضْيَ عنه أسْلَمَ يَوْمَ ضُرِبَ أبو بَكْرٍ رضي اللهُ عنه .

ودَعَا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ أو لأبِي جَهْلِ بنِ هِشامِ فأصبحَ عُمَرُ وكانَتْ الدَّعْوَةُ يَومَ الاربعاءِ فأسْلَمَ عُمَرُ يومَ الخمِيْسِ فكَبَّرَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأهلُ البيتِ تكبيرةً سُمِعَتْ بِأعْلاَ مَكَّةَ .

وَخَرَجَ أبُو الأرْقَمِ وهُوَ أعْمَى كَافِرٌ وَهُو يَقُولُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِبَنِي عُبَيْدِ الأرقمِ فإنه كَفَرَ فَقَامَ عُمَرُ فقال يا رَسولَ الله عَلاَمَ نُخْفِي دِيْنَنَا وَنَحن على الحَقِّ ويُظْهِرُوا دِيْنَهُم وهُم على البَاطِلِ قال يَا عُمَرُ إنَا قَلِيْلٌ قد رَأَيْنَا مَا لَقِيْنَا .

فقال عُمَرُ فَوَالذِي بَعَثَكَ بالحَقِ لا يَبْقَى مَجْلِسٌ جَلَسْتُ فيه بالكُفرِ

إلَّا أَظْهَرْتُ فِيه الإيمانَ ثُم خَرَجَ وطافَ بالبَيْتِ .

ثم مَرَّ بِقُرَيْش وهِيَ تَنْتَظِرُهُ فقال أَبُو جَهْلٍ بنُ هِشَامٍ يَزْعُمُ فلانٌ أنكَ صَبَوْتَ .

فقال عُمَرَ أشهدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ وأنَّ محمداً عَبدُهُ ورَسُولُهُ فَوَثَبَ المشركُونَ إليهِ وَوَثبَ عَلَى عُتْبَةَ وبَرَكَ عَلَيهِ وَجَعَلَ يَضْرِبُهُ فَجعَلَ عُتْبَةُ يَصِيْحُ فَتَنَحى الناسُ ، فقامَ عُمَرُ حَتَّى أعْجَزَ الناسَ واتَّبَعَ المَجَالِسَ التي كان يُجَالِسُ فِيها فيُظْهِرُ الايمان .

ثم انْصَرفَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهُوَ ظَاهِرٌ عليهم ، قال مَا عليكَ بأبِي وأمِّي واللهِ ما بَقِي مَجْلِسٌ كُنْتُ أَجْلِسُ فيه بالكفرِ إلا أظهرتُ فيه الايمانَ غيرَ هَيَّابٍ ولا خَائِفٍ .

فَخَرَجَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وخَرجَ عُمَرُ أَمَامَهُ وحَمْزَةُ ابْنُ عبدِ المطلبِ حَتَّى طافَ بالبيتِ ، وصَلَّى الظُهْرَ مُؤَمِّناً ، ثم انْصَرفَ إلى دَارِ الأرقمِ ومَعَهُ عُمَرُ ، ثم انْصَرفَ عُمَرُ وَحْدَهُ، ثم انْصَرَفَ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم .

وأَخْرَجَ البُخارِيُ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قَالَتَ لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إلَّا وَهُمَا يَدِيْنَانِ الدِّيْنَ ولَمَ يَمُرُّ عَلَيَنا يَوْمٌ إلا يَأْتِيْنا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم طَرَفَي النهارِ بكرةً وعَشِيَّةً ، فلما ابْتُلِيَ المسلمونَ خَرَجَ أَبُو بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه مُهَاجِراً نَحْوَ أَرْضِ الحَبَشَةِ حَتَّى إذا بَلغَ بَرْكَ الغمَادِ لَقِيَهُ ابنُ الدَّغِنَةِ وهُوَ سَيِّدُ القَارَةِ فقالَ أَيْنَ تُرِيْدَ يَا أبا بَكْرٍ فقال أَبُو بَكْرٍ أخرَجَنِي قَوْمِي فأُرِيْدُ أن أَسِيْحَ في الأَرْضِ وأعبُدَ رَبي قال ابنُ الدَّغِنَةِ

فانَّ مِثْلَكَ يا أَبا بَكْرٍ لا يُخْرَجُ ولا يَخْرُجُ إنكَ تَكْسِبُ المَعْدُوْمَ ، وتَصِلُ الرَّحِمَ وتَحْمِلُ الكَلَّ وتَقْرِيْ الضَّيْفِ وتُعْيِنُ عَلَى نَوائِبِ الحَقِ فأنَا لكَ جار ، إرْجِعْ واعْبُدْ رَبَّكَ في بَلَدِكَ .

فَرَجَعَ وارْتَحلَ مَعَهُ ابنُ الدَّغِنَةِ فَطَافَ بنُ الدَّغِنَةِ عَشِيَّةً في أشْرَافِ قُرَيْشٍ فَقَال لَهُم إن أبا بَكرٍ لا يُخرَجُ مِثْلُهُ ، ولا يَخْرُجُ أتخْرِجُوْنَ رَجُلاً يَكْسِبُ المَعْدُوْمَ ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ ، وَيَحِمِلُ الكلَّ ، وَيَقْرِيْ الضَّيْفَ ويُعْينُ على نَوَائِبِ الحَقِّ ، فَلَم تَكْذِبْ قُرَيْشٌ بِجِوارِ ابنِ الدَّغِنَةِ .

وقالُوا لِابْن الدَّغِنَةِ مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ في دَارِهِ فَلْيُصَلِ فِيهَا واليَقْرَأ مَا شَاءَ ولا يُؤْذِيْنَا بِذَلِكَ ، ولا يَسْتَعْلِنْ بِهِ فإنَّا نَخْشَى أنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا فقالَ ذَلكَ ابنُ الدَغِنةِ لِأَبي بَكْرٍ .

فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ في دَارِهِ ولا يَسْتَعْلنُ بِصَلَاتِهِ ولا يَقْرَأُ في غَيرِ دَارِهِ ، ثُمَّ بَدا لِأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَا مَسْجِداً بِفِنَاءِ دَارِهِ ، وكَان يُصَلِي فِيهِ وَيقْرَأُ القُرآنَ فَيَتَقَذَّفُ عَلَيهِ نِسَاءُ المشركينَ - أيْ يَزدَحِمُونَ عليه - وأبْنَاؤُهم وهُم يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرونَ إلَيْهِ .

وكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلاً بَكَاءً لا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ القُرآنَ ، وأَفْزَعَ ذلكَ أشرافَ قُرَيشٍ مِن المشركينَ ، فَأَرْسَلُوا إلى ابْنِ الدَغِنَةِ ، فَقَدَم عَلَيهِم فقالُوا إنا كُنَّا أَجَرْنَا أبا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ على أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ في دَارِهِ فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ فابْتَنى مَسْجِداً بِفِنَاءِ دَارِهِ فأَعْلَنَ بالصلاةِ والقِراءة فيه ، وإنا قَدْ خَشِيْنَا أنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنا وأَبْنَاءَنَا ، فانهَهُ فإن أحبَّ أنْ يَقْتَصِرَ عَلى أن يَعْبُدَ رَبَّهُ في دَارِهِ فَعَل ، وإن أَبيَ إلا أنْ يُعْلِنَ ذَلِكَ فَسَلْهُ أنْ يَرُدَّ إليكَ ذِمَّتَكَ ، فانا قَدْ

كَرِهْنَا أنْ نَخْفِرَكَ ، ولَسْنَا مُقِرِّيْنَ لِأبي بَكْرٍ الاسْتِعْلانَ .

قالتَ عائِشَةُ رضيَ اللهُ عنها فأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ إلى أَبِي بَكرٍ فقال قَدْ عَلِمْتَ الذي عاقَدْتُكَ عليه ، فإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ على ذلكَ وإما أَنْ تُرَجِّعَ إليَّ ذِمَّتي .

فإني لا أحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ العَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ في رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ فَقَالَ أبُو بَكْرٍ : فإنِّيْ أَرُدُّ إليْكَ جِوَارَكَ وأَرْضَى بِجِوارِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، هذا قليلٌ مِن كَثيرٍ مِن تَحَمَّلُ أَبِي بَكْرٍ رَضِي اللهُ عنه وأَرْضَاه وجَعَلَ جَنَّةَ الفَرْدَوْسِ مَثْوَانا ومَثْوَاهُ فَلَهُ مِن الفَضْلِ والسَّابِقَةِ ما لَيْسَ لِغَيرِهِ ولقد قَدَّمَهُ المُصْطَفى صلى اللهُ عليه وسلم على جَمِيْعِ الصَّحابَةِ قال في النُونِيَّةِ ما قال الرسول صلى الله عليه وسَلم لِأَبي بكر :

ويَقُولُ في مَرَضِ الوَفَاةِ يَؤُمُكُمْ
عَنِيْ أبُو بَكْرٍ بِلا رَوَغَانِ
ويَظَلُّ يَمْنَعُ مِن إمَامَةِ غَيْرِهِ
حَتَّى يُرَى في صُوْرَةِ مَيَلَانِ
ويَقولُ لَو كُنْتُ الخليلَ لِوَاجِدٍ
في الناسِ كانَ هُوَ الخَلِيْلُ الدَّانِ
لَكِنَّهُ الأَخُ والرَّفِيْقُ وصَاحِبي
ولَهُ علَيْنَا مِنَّةُ الإحْسَانِ
ويَقُولُ لِلصِّدِّيْقِ يَومَ الغَارِ لا
تَحْزَنْ فَنَحْنُ ثَلاثَةٌ لا اثْنَانِ

أَلـلَّهُ ثـالِـثُـنَـا وتِـلْكَ فَـضِيْـلَةٌ
مَــا حَـــازَهَـــا إلا فَتَـى عُـثْـمَــانِ

اللهم سلمنا مِن شُرُوْرِ أنْفُسِنا الَّتي هِي أَقْرَبُ أعْدَائِنا وأَعِذْنَا مِن عَدُوكَ واعْصِمْنا مِن الهَوى ومِن فِتنةِ الدنيا وَمَكِّنْ مَحبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وقوِّهَا وأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ وفَرِّحْ قُلُوبَنَا بالنَّظَرِ إلى وَجْهِكَ الكَرِيم في جَنَّاتِ النعيم واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصـل)

أَخْرَجَ ابنُ اسحاقَ عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال لَمَّا أَسْلَمَ عُمَرُ رَضيَ اللهُ عنه ، قال : أَيُّ قُرَيْشٍ أَنْقَلُ لِلْحَدِيْثِ فَقِيلَ لَهُ جَمِيْلُ بنُ مَعْمَرٍ فَغَدا عَلَيهِ قال عبدُ الله وغَدَوْتُ أَتْبَعُ أَثَرَهُ وأَنْظُرُ ما يَفْعَلُ وأنا غُلامٌ أَعْقِلُ كُلَّمَا رَأَيْتُ حَتَّى جَاءَهُ فقال أَعَلِمْتَ يا جَمِيْلُ أَنِّي أَسْلَمْتُ وَدَخَلْتُ في دِيْنِ مُحَمدٍ صَلى اللهُ عليه وسلم قال فوَ اللهِ مَا رَاجَعَهُ حتَّى قَامَ يَجُرُّ رِدَاءَهُ واتَبعهُ عُمَرُ واتَّبَعْتُهُ أنا حتى قامَ على بابِ المسجدِ وصَرَخَ بأَعْلَى صَوْتِهِ يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ وهمُ أَنْدِيَتُهم حَوْلَ الكَعبةِ ألا إنَّ ابنَ الخَطَّابَ قَدْ صَبَأ .

قال يقولُ عُمَرُ مِن خَلْفِهِ : كَذَبَ ولكِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وشَهِدتُ أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ ، وأن مُحَمداً رسولُ اللهِ ، وثَارُوْا إليهِ ، فَمَا بَرِحَ يُقَاتِلُوْنَهُ حَتَّى قامَتِ الشَّمْسُ عَلى رُؤُسِهِم ، قَال وَطَلَحَ : ـ أيْ أَعْيَا ـ فَقَعَد وقَامُوا على رَأْسِهِ ، وهُوَ يَقولُ افْعَلُوا مَا بَدَا لَكُم فأَحْلِفُ باللهِ أنْ لَو قَدْ كنَّا ثَلاثَمائَةِ

رَجُلٍ لقد تَرَكْنَاهَا لكُم أَوْ تَرَكْتُمُوهَا لَنا .

قال فَبَيْنَما عَلَىَ ذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ شَيْخٌ مِن قُرَيْشٍ عَلَيهِ حُلَّةٌ حَبِرَةٌ وَقَمِيصٌ مُوَشًى حَتَّى وَقفَ عَليهم ، فقال مَا شَأنُكم فقالوا صَبَأَ عُمَرُ ، قَالَ فَمَهْ ، رَجُلٌ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَمْراً ، فَمَاذا تُرِيْدُوْنَ أَتَروْنَ بَنِي عَدِي يُسْلِمُونَ لكُم صَاحِبَهُم هكذا ، خَلُوا عن الرَّجُلِ .

قال فوَ اللهِ لكانَّمَا كَانُوا ثَوْباً كُشِطَ ـ أَيْ كُشِفَ عنه ، قال فَقُلْتُ لأبي ـ بَعْدَ أَنْ هَاجَرُوا إلى المدينةِ ، يَا أبتِ مَن الرَّجُلُ الذي زَجَرَ القومَ عَنكَ بمَكَّةَ يومَ أَسْلَمْتَ وهمْ يُقاتِلُونكَ ، قال وذَاكَ أَيْ بُنَيَ العَاصُ بنُ وَائِلٍ السَّهْمِي وهَذا اسِنادُهُ جَيدٌ قَوِيٌ .

أخرج ابنُ سَعْيدٍ عن محمدِ بنِ ابراهيمَ التَّيْمِي ، قال لَمَّا أَسْلَمَ عُثمانُ بِن عَفانٍ رضي اللهُ عنه أخذَهُ عَمُّهُ الحكمُ بنُ أبي العاصِ بنُ أمَّيَة فأوثَقَهُ رِبَاطاً ، قال أتَرْغَبُ عن مِلَّةِ آبائِكَ إلى دِيْنٍ مُحْدَثٍ ، واللهِ لا أحُلُّكَ أبَدَاً حَتى تَدَعَ مَا أنتَ عَليه مِن هذا الدِينِ ، فقال عُثْمَانُ واللهِ لا أدَعُهُ أبَدَاً وَلا أُفارِقُهُ ، فلَمَّا رَآى الحَكَمُ صَلابَتَهُ في دِيْنِهِ تَرَكَهُ .

وأخرج البُخاري في التاريخ عن مَسْعُودِ بنِ خِرَاشٍ رضي اللهُ عنه قال بَيْنَما نَحْنُ نَطُوفُ بينَ الصَّفَا والمروةِ إذا أُناسٌ كَثِيْرٌ يَتْبَعُونَ شَاباً مُوْثقاً بِيَدِهِ في عُنُقِهِ ، قُلْتُ مَا شَأْنُهُ قالوا هذا طَلَحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ صَبَأَ وَامْرَأَةٌ وَرَاءَهُ تُدَمْدِمُ وتَسُبُّهُ قُلْتُ مَن هَذِهِ قالوا الصِّمَّةُ بِنْتُ الحَضْرَمِي أمُّهُ .

وأخرج الحاكم في المستدرك عن ابراهيمَ بنِ محمدٍ بن طلحة

قال : قال لِيْ طَلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنه حَضَرْتُ سُوْقَ بُصْرَى فإذا رَاهِبٌ في صَوْمَعَتِهِ يَقولُ سَلُوا أَهْلَ هَذا المَوْسِمِ أَفيهِم وَاحِدٌ مِن أَهْلِ الحَرَمِ .

قال طلحةُ رضِي اللهُ عنه قُلْتُ نَعَمْ أَنَا فَقال هَلْ ظَهَر أَحْمَدُ بَعْدُ قال قُلْتُ ومَن أَحْمَدُ قال ابنُ عَبدِ اللهِ بنُ عبدِ المُطَّلِب هَذا شَهْرُهُ الذي يَخْرُجُ فيه وهُو آخِرُ الأَنْبِياءِ مَخْرَجُهُ مِن الحَرَمِ ، ومُهَاجَرُهُ إلى نَخْلٍ وحَرَّةٍ وسِبَاخٍ ، فإِيَّاكَ أَنْ تُسْبَقَ إليه .

قال طلحةُ فَوَقَع في قَلْبِي مَا قَالَ ، فَخَرَجْتُ سَرِيْعاً حَتَّى قَدِمْتُ مَكَّةَ فَقُلْتُ هَلْ كَانَ مِن حَدَثٍ قَالُوا نَعَمْ ، مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم الأَمينُ تَنَبَأَ ، وقَدْ تَبِعَهُ بنُ أبي قُحَافَةَ قال فَخَرجْتُ حَتى دَخَلْتُ عَلَى أبِي بَكْرٍ رَضيَ الله عنهُ فَقُلْتُ اتَّبعْتَ هَذَا الرَّجُلَ قال نَعَمْ فانطَلِقْ فادَخُلْ عَلِيهِ فاتَّبعْهُ فإنَّهُ يَدْعُو إلى الحَقِّ فأخْبَرَهُ طَلْحَةُ بمَا قَال الرَّاهِبُ فَخَرجَ أَبو بَكْرٍ بِطَلْحَةَ فَدَخَلَ بِهِ على رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فأسْلَمَ طَلْحَةُ وأَخْبَر رَسُول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بما قَالَ الرَّاهِبُ فَسُرَّ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فلَمَّا أَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ وطَلْحَةُ أَخَذَهُمَا نَوْفَلُ بنُ خُوَيْلِدِ بنِ العَدَوِيَةِ ، فَشَدَّهُمَا في حَبْلٍ وَاحِدٍ ولم يَمْنَعْهُمَا بَنُو تَمِيْمٍ وكانَ نَوْفَلُ بنُ خُويلِدٍ يُدْعَى « أَسَدَ قُرَيشٍ » فَلِذَلِكَ سُمِيَ أَبُو بَكْرٍ وَطَلْحَةُ القَرِيْنَيْنِ فذَكَرَ الحديثَ وأخرجه البيهقي وفي حديثه ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اكْفِنَا شَرَّ بنِ العَدَوِيَّةِ .

وأَخْرَجَ أَبُو نُعَيمٍ في الحِليةِ عن أبي الاسودِ قال أسلم الزُبَيْرُ بنُ العَوَّامِ رَضِيَ اللهُ عنه وهو ابنُ ثمانِ سِنينٍ ، وهاجَرَ وهو ابنُ ثمانِ عشرةَ

سَنَةً وكانَ عَمُّ الزُّبَيْرِ يُعَلِّقُ الزُّبَيْرَ في حَصيْرٍ ويُدَخِّنُ عَليهِ بالنارِ وهو يَقُولُ ارْجِعْ إلى الكُفْرِ فيقولُ الزُّبَيْرِ لا أكْفُرُ أبَدًا .

وأخْرَجَ أبُو نُعَيْمٍ أيضاً عن حَفْصِ بنِ خَالِد قالَ حدثني شيخٌ قَدِمَ علينًا مِن الموصِلِ قالَ صَحِبْتُ الزُّبَيْرَ بنَ العَوامِ رضي اللهُ عنه في بَعْضِ أسْفارِهِ فأصَابتْهُ جَنَابَةٌ بأرْضٍ قَفْرٍ فقالَ اسْتُرْني فِسَتَرْتُهُ فحانَتْ مِني التِفاتَةٌ فَرَأَيْتُهُ مُجَدَّعاً بالسُيُوفِ قُلْتُ واللهِ لَقَدْ رَأيتُ بِكَ آثاراً ما رَأيتُها بأحَدٍ قَطُّ .

قَالَ وقَدْ رَأَيْتَ ذلكَ قُلْتُ نَعَمْ قال أما واللهِ مَا مِنها جِرَاحَةٌ إلا مَعَ رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وفي سبيلِ اللهِ ، وعِندَ أبي نَعَيْمٍ عن علي بن زَيْدٍ قال أخْبَرَني مَن رَأى الزُّبَيْرَ وإنَّ في صَدْرَهُ لأمْثَالُ العُيُونِ مِن الطَّعْنِ والرَّمْيِ .

أخْرَجَ الإمامُ أحْمَدُ وابنُ ماجَةَ عن ابنِ مَسعودٍ رضيَ اللهُ عنه قال أولُ مَن أظْهَرَ الاسلامَ سَبْعَةٌ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأبو بَكرٍ وعَمَّارٌ وأُمُّهُ سُمَيَّةُ وصُهَيْبٌ وبِلاَلٌ والمِقْدَادُ رضي الله عنهم .

فأما رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم فَمَنَعَهُ اللهُ بَعمِّه ، وأما أبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللهُ بقومِهِ ، وأما سَائِرُهُمُ فأخَذَهُم المشرِكُونَ فَألْبَسَوهُمْ أدْرُعَ الحديدِ وصَهَرُوْهُمْ في الشَّمسِ فَمَا مِنْهُمْ أحدٌ إلاَّ وَقَدْ آتاهُمْ على مَا أرَادُوا إلاَّ بِلالٌ فانهُ هَانَتْ عليهِ نَفْسُهُ في الله ، وهَانَ على قومِهِ فأخَذُوهُ فَأعْطَوهُ الوِلْدَان فَجعلوا يَطُوفُونَ بهِ في شِعَابِ مَكة وهو يَقُول أحَدٌ أحَدٌ .

وأخْرَجَ أبو نُعَيْمُ في الْحِلْيَةَ عَنْ هِشَامُ بنُ عُرْوَةَ عَنْ أبيهِ قَالْ كَانَ

وَرَقَةُ بنُ نوفلَ يَمُرُّ بِبِلَالٍ وَهو يُعَذَّبُ وَهْوَ يَقولُ أَحَدٌ أَحَدٌ فَيَقُولُ أَحَدٌ أَحَدٌ ، اللّهُ يا بِلالُ ثُمَّ يُقبِلُ وَرَقَة بنُ نَوْفَلٍ عَلى أُمَيَّةَ ابنْ خَلَفٍ وَهْوَ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِبَلال فيقولُ أَحْلِفُ باللهِ عزَّ وَجلَّ لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُ على هذِهِ لَاتَّخِذَنَّهُ حَنَاناً .

حَتَّى مَرَّ بِهِ أَبوُ بَكْرٍ الصِّديقِ يَوْماً وَهُمْ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ فَقالَ لِأُمَيَّةَ الا تَتَّقِي اللهَ في هَذا المِسكينَ حَتَّى مَتَى قالَ أَنْتَ أَفْسَدْتَهُ فَانْقِذْهُ مِمَّا تَرَى فَقالَ أبو بَكْرٍ افْعَلْ عِنْدي غُلَامٌ أسود أَجْلَدُ مِنْهُ وأَقوَى عَلى دِيْنِكَ أُعطِيْكَهُ بِهِ قالَ قَدْ قَبِلْتُ قال هُو لَكَ فأعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ غُلَامَهُ ذَلِكَ وأَخَذَ بِلَالاً فأَعْتَقَهُ .

ثُمَّ أَعْتَقَ مَعَهُ على الاسْلَام قَبْل أن يُهاجِرَ مِنْ مُكَةَ سِتَ رَقابْ بِلَالٌ سَابِعُهُم . وَذَكَرَ أبوُ نُعَيْمٍ في الحِلْيَةِ عَنْ ابنِ اسْحَاقٍ كَانَ أُمَيَّةُ يُخْرِجُهُ إذا حَمِيَتِ الشَّمْسُ فَيَطْرَحُهُ على ظَهْرِهِ في بَطْحَاءِ مَكَّةَ ثُمَّ يَأْمُرُ بالصَّخْرَةِ العظِيمَةِ فَتُوضَعُ عَلى صَدْرِهِ ثُمَّ يَقُولُ لا تَزَالُ هَكَذا حَتَّى تَمُوتَ أو تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ وتَعْبُدَ اللَّاتَ والعُزَّى .

وَهْوَ يَقُولُ في ذَلِكَ الْبَلا أَحَدٌ أَحَدٌ قالَ عَمَّارُ بنُ يَاسِرَ وهُوَ يَذْكُرُ بِلَالاً وأصْحَابَه وَمَا كانُوا فيهِ مِن البلاءِ واعْتَاقِ أبا بَكْرٍ إيَّاهُ وكانَ اسمُ أَبِي بَكْرٍ عَتِيْقاً رضي اللهُ عَنْه .

جَزَى اللّهُ خَيْراً عَنْ بِـلَالٍ وَصَحبِهِ
عَتِيْقـاً وأَخـزَى فـاكِهـاً وأَبَـا جَهْـلِ

عَشِيَّـةَ هَمَّـا في بِـلالٍ بِسَـوءةٍ
ولم يَحذَرا ما يَحْذَرُ المرءُ ذُو عَقْلِ

بِتَـوْحِيـدِهِ رَبَّ الأنَـامِ وَقَـوْلِـهِ
وَلَمْ يَحْذَرَا مَا يَحْذُر المرءُ ذُو عَقْلِ
فَـانّ يَقْتُلونِي يَقتـلوُنِي فَـلَمْ أكُـنْ
لِأُشْرِكَ بالرَّحْمَن مِنْ خِيفَةِ القَتْـلِ
فَيَـارَبُّ ابْـراهِيمَ والعبْـدِ يُـونُسٍ
ومُـوسَى وعِيْسى نَجِّنِي ثُمَّ لَا تُبْـلِ
لِمَنْ ظَلَّ يَهْوَى الغَيَّ مِنْ آلِ غَالِبِ
على غيـرِ بِـرُّكـانَ مِنْـهُ وَلَا عَـدْلِ

اللهمَّ نوِّرْ قُلوبَنا واجْعَلِ الايمانَ لَنا سِراجاً ولا تَجْعَلَه لَنَا اسْتِدْرَاجـاً واجْعَلْهُ لنا سُلَّماً إلى جَنَّتِكَ ولا تَجعلهُ لنا مَكْراً مِنْ مَشِيْئَتِكَ إِنَّكَ أنْتَ الحليمُ الغفورُ الشُّكُورُ بِرَحْمَتِك يا أرحَمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبِهِ أجمعين .

(فَصْلٌ)

أَخْرَجَ الطَّبَرانِي والْحَاكِم والبيهقي وابنُ عَسَاكِرُ عَنْ جَابِرٍ رضِي اللهُ عَنْهُ أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَرَّ بِعَمَّارٍ وأهلِهِ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فَقَالَ : أَبْشِرُوا آلَ عَمَّارٍ وآلَ يَاسِر فإنَّ مَوْعِدَكُمْ الجنة قال الْهَيْثَمي رجالُ الطَّبَراني رِجالُ الصَّحيح غَيْرَ ابراهيم بن عبد العزيزِ المقوم وَهْوَ ثِقَة .

وأَخْرَجَ أبو أحْمَدُ الحاكِمُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنُ جَعفرِ رَضْي اللهُ عَنْهُمَا قالَ مَرَّ رسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَليهِ وسَلمّ بِيَاسِرٍ وَعَمَّارٍ وأُمِّ عَمَّارٍ وَهُمْ يُؤْذَوْنَ في اللهِ تَعالى فَقالَ لَهُمْ صَبْراً آلَ يَاسِر صَبْراً آلَ ياسِرْ فإنَّ مَوْعِدَكُمْ

الجنة رواهُ ابنُ الكَلْبي عَنْ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عَنْهُما نَحوهُ وَزادَ وَعَبْدُ اللهِ بنُ يَاسِرٍ وزادَ وَطَعَنَ أبو جَهْل سُمَيَّةَ في قَبلِهَا فَمَاتَتْ ومَاتَ ياسِر في العذابِ ورُمِي عبدُ اللهِ فَسَقط .

وَعِنْدَ أحْمَد عَنْ مُجَاهِدٌ قَالْ أولُ شَهِيْدٍ كَانَ في أوَّلِ الاسْلاَمِ اسْتُشْهِد أمُّ عَمَّارٍ سُمَيَّةَ طَعَنَها أبو جَهْلٍ بِحَرْبَةٍ في قُبُلِهَا وَعَنْ عَمْرِو بنِ مَيْمُونٍ قالْ : أحْرَقَ المشْرِكُونَ عَمَّارَ بنَ ياسِرٍ بالنَّارِ قَالْ فَكَانَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم يَمُرُّ بِهِ وَيُمِرُّ يَدَهُ عَلى رَأْسِهِ فَيَقُولْ : يا نَارُ كُونِي بَرْداً وسَلاَماً على عَمَّار كَما كُنْتِ عَلى ابْرَاهِيم عليهِ السَّلام تَقْتُلُكَ الفِئَةُ البَاغِيَةْ . فَقَتَلَهُ أحدُ المُقَاتِلِيْنَ مَعَ مُعَاوِيَة .

شعــر :

ولا غرْوَ بالأشْرافِ إنْ ظَفِرتْ بِهِم كِلابُ الأعادِي مِن فَصِيْحٍ وَأَعْجَمِي
فَحَرْبَهُ وحْشِيٍ سَقَتْ حَمْزَةَ الرَّدَى وَمَوْتُ عَلِّي مِنْ حُسَامِ ابنِ مُلْجِمِ

وَعِنْدَ الْحَاكِمُ في الْكُنَى وابنِ عَسَاكِرٍ عَنْ عُثْمانَ رَضْي اللهُ عنهُ قَالْ بَيْنَما أنَا أمْشِي مَعَ رَسُولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلم بالبَطْحَاءِ إذْ بِعَمَّارٍ وأبِيهِ وأمِهِ يُعَذَّبُونَ في الشَّمْسِ لِيَرْتَدُوا عَنِ الاسلامْ، فَقَالَ أبُو عمَّارٍ يا رَسُولَ اللهِ الدَّهْرُ هَكَذا فقالَ صَبْراً يا آلَ يَاسِرْ ، اللهمَّ اغْفِر لآلِ يَاسِرٍ وَقَدْ فَعَلْتَ .

وأخْرَجَ أبو نُعَيمٍ في الْحِلْيَةِ ج (١) ص (١٤٠) عَنْ أبي عُبَيْدَةَ بنِ مُحَمَّدٍ بن عَمَّارٍ قال أخَذَ المشْرِكُونَ عَمَاراً رضْيَ اللهُ عَنْهُ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمْ ، وَذكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ، فلمَّا أتىَ رسَولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ مَا وَرَاءَكَ قَالَ شَرٌّ يا رَسُولَ اللهِ

ما تُرِكْتَ حَتّى نِلْتُ مِنْكَ ، وذَكَرْتُ آلِهَتَهم بِخَيْرٍ فَقَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَكَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ قال أجِدُ قَلْبي مُطْمَئِنٌ بالايْمانِ ، قالَ فإنْ عَادُوا فَعُدْ ، وأخرَجَ ابنُ سَعْدٍ عن أبي عُبَيْدَة نَحْوَهُ .

أخْرَجَ ابنُ سَعْدٍ عَنْ الشَّعْبِي قَالَ دَخَلَ خَبَّابُ بنُ الأرَتِّ رضيَ اللهُ عنه على عُمَرَ بنُ الخطاب رَضي اللهُ عنه فأجْلَسَه على مُتَّكَئِهِ فَقَالَ : مَا عَلى الارْضِ أحَدٌ أحَقُّ بِهَذَا المجْلِسِ مِنْ هَذَا إلاّ رَجُلٍ وَاحِدٍ قالَ لَه خَبَّابُ مَنْ هُو يا أميرَ المؤمنينَ قالْ : بِلالٌ : فَقَالَ خَبَّابُ ما هُو أحَقُّ مِنّي إنَّ بِلالاً كانَ لَهُ في المشْرِكِينَ مَنْ يَمْنَعُه اللهُ بِهْ ، ولَم يكُنْ لِي أحَدٌ يَمْنَعُنِي فَلَقَدْ رَأيْتني يَوْماً أخَذُوني فأوْقَدُوا لِيْ ناراً ، ثُمَّ سَلَقُوني فِيْها ثُمَّ وَضَع رَجُلٌ رِجلَهُ عَلى صَدْرِي فَمَا اتَّقَيْتُ الأرضَ أوْ قَالْ بَرْدَ الأرْضِ إلا بِظَهْرِي ، ثُمَّ كَشَفَ عن ظَهْرِهِ فاذا هُو قَدْ بَرِصَ ، أيْ مِنْ أثرِ التَّعْذِيبِ بالنَّارْ .

وأخْرَجَ أحْمَدُ عن خَبَّاب رضيَ اللهُ عَنْهُ قَالْ كُنْتُ رَجُلاً قَيْناً وكَانَ لِي على العاص بْنُ وائِلٍ دَيْنٌ فَأتَيْتُه أتَقَاضَاهُ فَقالْ لا وَاللهِ لا أقْضِينكَ حَتّى تَكْفُرَ بِمُحَمدٍ ـ صلى الله عليهِ وسلمْ ـ فَقُلْتُ لاَ واللهِ لا أكْفُرُ بمحمدٍ صلى الله عليهِ وسلم حَتّى تَمُوتُ ثم تُبْعَثُ قال فانيٌ إذَا مِتُّ ثُمَّ جِئْتَنِي وَلِي ثَمَّ مَالٌ وَوَلَدٌ فأُعْطِيْكَ .

فأنْزَلَ(اللهُ أفَرأيْتَ الذي كَفَر بآياتِنَا وقال لا أوتَيَنَّ مالاً وولدًا) إلى قوله ويأتينا فَرْدا ، وَعِنْدَ أبي نُعَيْمٍ في الْحِلْيَة عَنْ الشَّعْبِي قالَ سَألَ عُمَر رَضْيَ اللهُ عنهُ بلالاً عَمَّا لَقِي مِن الْمُشْرِكِينَ فقال خَبَّابُ يا أميرَ المؤمنينَ انْظِرْ إلى ظَهْرِي فَقَالَ عُمَرُ ما رأيت كاليومِ قالَ أوْقَدُوا إلي ناراً فما أطْفَاءَها إلاَّ وَدَكُ ظَهْرِي .

إنَّ الشَّدَائِدَ قَدْ تَغْشَى الكَرِيْمَ لِأنْ ... تُبـيِّنُ فَضْـلَ سَـجَيَاهُ وتُوضِحُـهُ
كَمُبْرَدِ القَـيْنِ إذْ يَعْلُوْ الحَـدِيْدَ بِهِ ... ولَيْـسَ يـأكُـلُهُ إلاَّ لِيُصْـلِحَـهُ

قالَ عِيْسى بنُ مَريمَ عليهِ السَّلام ألاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِكُم مُجالَسَةً قالُوا بلى يا رُوح اللهْ قال مَن تُذَكِّرُكُمْ بالله رُؤْيَتُهُ وَيَزِيْدُكُمْ في عَمَلِكم مَنْطِقُه ويُشَوِّقُكُمْ الى الجنةِ عَمَلُه ، وقالَ عِيْسَى عليهِ السلامُ لِلْحَوارِّيينَ وَيْلَكُمْ ، يا عَبِيدَ الدُّنيَا كَيْفَ تُخالِفُ فُرُوعكُمْ اصُولَكُمْ وَأَهْوَاؤُكُمْ عُقُولَكُمْ قَوْلُكُمْ شِفَاءٌ يُبْرِؤُ الدَّاءَ وَفِعْلِكُمْ داءٌ لا يَقْبَلُ الدَّوَاءَ لَسْتُمْ كَالْكَرْمَةِ التي حَسُنَ وَرَقُهَا وطَابَ ثَمَرُهَا وسَهُلَ مُرْتَقاهَا ولكِنَّكُمْ كالسَّمُرَةَ التي قَلَّ وَرَقُها وكَثُرَ شَوْكُها وَصَعُبَ مُرْتَقاهَا .

وَيْلَكُمْ يَا عَبِيدَ الدُّنْيا جَعَلْتُم الْعَمَلَ تَحْتَ أقْدامِكُمْ مَنْ شَاءَ أَخَذَهُ وجَعَلْتُمُ الدُّنْيا فَوْقَ رُؤُسِكُمْ لا يُمْكِنُ تَنَاوُلِها فَلاَ أَنْتُم عبِيْدٌ نُصَحَا ولا احْرَارٌ كِرامٌ وَيْلَكُمْ يا أُجَرَاءَ السوءِ الأجْرُ تَأْخُذونَ والعَمَلَ تُفْسِدُونَ سَوْفَ تَلْقَوْنَ مَا تَحْذُرُونَ إذَا نَظَر رَبُّ الْعَمَلِ في عَمَلِه الذي أفْسَدتُمْ وأجْرُهُ الذي أَخَذْتُمْ .

وقَالَ عليهِ السَّلامُ إتَّخِذُوا المساجِدَ بيوتًا والْبُيُوتَ مَنازِلَ وَكُلُوا بَقْلَ الْبَرِّيَّةِ واشْرَبُوا الماءَ الْقُرَاحَ وانْجُوا مِنَ الدُّنْيا سَالِمين وقالَ عليه السَّلامُ لِلْحَوارِيِّينَ لاَ تَنْظُروا في أعْمَالِ النَّاسِ كأَنَّكُمْ أرْبَابٌ وانْظُروا في أعْمالِكُمُ كأنَّكُمْ عَبِيْدٌ فإنَّمَا النَّاسُ رَجُلانِ مُبْتَلىً وَمَعَافَي فارْحَمُوا أَهْلَ الْبَلا واحْمَدُوا اللَّهَ على الْعَافِيَةِ وقَالْ : عَجَباً لِكُمْ تَعْمَلُونَ لِلدُّنيا وأنْتُم تُرْزَقون فِيها بِلا عَمَلٍ ولَا تَعْلَمُونَ للآخِرَةِ وأنْتُم لا تُرْزَقُونَ فِيها بِلا عَمَلْ .

اللهم سَلِّمْنا مَنْ جَمِيعِ الآفاتْ وعَافِنَا مَنْ أَسْبَابِ المِحَنِ والْبَلِيَّاتْ ووفِقْنَا لِلْعَمَلِ بالبَاقِياتِ الصَّالِحاتْ وارْفَعْ لَنَا في مَرْضَاتِكَ الدَّرَجَاتْ وَمَتِّعْنا بالنَّظَرِ إلى وَجْهِكَ الكريمِ في فَسِيحِ الجَنَّاتْ واغْفِر لَنا ولِوَالِدينا وجَمِيع المُسْلِمين بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمين وصلى اللهَ على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين .

(فصل)

أخْرَجَ الْبُخَارِي عَنِ عَبَّاسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا قالْ لَمَّا بَلَغ أبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال لأخِيهِ ارْكَبْ إلى هذا الوادِي فاعْلَمْ عِلْمَ هذا الرَّجُل الذي يَزْعُمُ أنه نَبيٌّ يَأتِيهِ الخَبَرُ مِنَ السَّماءِ واسْمع قَوْلَهُ ، ثُمَّ إئْتِنِي ، فانْطَلَق الأخُ حَتَّى قَدِمَهُ وسَمِعَ من قَوْلِهِ ، ثمّ رجع إلى أبي ذَرّ فقالَ لَهُ رَأيْتُهُ ، يأمُرُ بِمَكارِمِ الأخلاقِ وكَلاماً ما هو بالشعرِ فقالَ شَفَيْتِنِي مِمَّا أرَدْتُ .

فَتَزَوَّدَ حِمْلُ شَنَّةٍ فيْهَا مَاءُ حَتَّى قَدِمَ مَكَّة فأتَى المَسْجِدِ فالْتَمَسَ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم ولا يَعْرِفُهُ وَكِرِهَ أنْ يَسْألَ عَنْهُ حَتَّى أدْرَكَهُ بَعْضُ اللَّيل اضْطَجَع فَرَآهُ علي رضي اللهُ عنْهُ فَعَرَف أنَّهُ غَرِيْبُ فَلمَّا رَآهُ تَبِعَهُ فَلمْ يَسْألُ واحِدٌ مِنْهُمَا صَاحبَهُ عنْ شَيءٍ حَتَّى أصْبَحْ .

ثُمَّ احْتَمَلَ قِرْبَتَهُ وزادَهُ إلى المَسْجِدِ وَظَلَّ ذَلِكَ اليومُ وَلاَ يَراهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلّم حَتّى أمسيَ ، فَعادَ إلى مَضْجَعِهْ ، فَمَرَّ بِهِ عَلِيٌّ فقَالْ أمَا آنَ لِلرَّجُلِ أنْ يعْلَمَ مَنْزِلَهْ ، فأقَامَهْ ،فَذَهَبَ بهِ مَعَهُ ، لا يَسْألُ واحدُ مِنْهُمَا صَاحِبَه عَن شَيْءٍ ، حَتَّى إذا كَانَ يومُ الثالثْ ، فَعادَ عَليٌّ مِثْلَ ذلِكَ فأقَامَ مَعْهُ .

ثُمَّ قالَ الاَ تُحَدِّثِني ما الذي أقدَمَكَ قَالْ إنْ أعْطيْتَنِي عَهْداً وَمِيثاقاً لَتُرْشِدَنِي فَعَلْتُ ففَعَلَ ، فأخَبَرَهُ قال فإنَّه حقٌ وهُوَ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم فَإذَا أصْبَحْتَ فاتْبَعْنِي فَإنّـي إنْ رَأيْتُ شَيْئا أخافُ عليكَ قُمْتُ كأنّي أُرِيقُ الماءَ فإنْ مَضَيْتُ فاتَّبِعْنِي حَتَّى تَدْخُلَ مَدْخَلِي فَفَعَلْ ، فانْطَلَق

يَقْفُوهُ ، حتَّى دَخَلَ على النبي صلى الله عليهِ وسلّمَ وَدخَلَ مَعَهُ فَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ وأسْلَمَ مَكانَهُ فقالَ لَهُ النبيُّ صلى الله عليهِ وسلمَ ارْجِعْ إلى قومِكَ فاخْبِرْهُمْ حَتَّى يأتِيكَ أمْرِي .

قَال والذي نَفْسِي بِيدِهِ لأصْرَخَنَّ بِها بَيْنَ ظَهْرانَيهِم ، فَخَرَجَ حَتَّى أتى المسجدَ فنادَى بأعلى صَوْتِه : أشْهَدُ أنَّ لا إلهَ الاّ الله وأنّ محمدٍ رسولُ الله ، ثم قامَ القومُ فَضربُوه حَتَّى أضْجَعُوهُ ، وأتى العَبّاسَ فأكَبَّ عليهِ فقال : وَيْلَكُم ألسْتُم تَعْلَمون أنه مِنْ غِفَار وأنّ طَرِيقَ تِجارَتِكُم إلى الشَّام فأنقذَهُ مِنْهُم .

ثُمَّ عادَ مِن الغد بِمِثْلِهَا ، فَضَربُوهُ وثارُوا إليه فاكَبَّ العَبّاسُ عليه وعِنْدَ البُخاري أيْضا مِنْ حديثِ ابْنِ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فقالَ يَا مَعْشَر قُرَيْش ، إنّي أشْهَد أن لا إلهَ إلا الله وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُه ورسُولُه فقالوا قُومُوا إلى هذا الصَّابِيءِ فَقامُوا فَضُرِبْتُ لأَمُوتَ .

فَادْرَكَنِي العَبّاسُ فاكَبَّ عَليَّ ثُمَّ أقْبَل عَليهِمْ فَقالَ وَيْلَكُمْ تَقْتُلونَ رَجُلاً مِنْ غِفَار وَمَتْجَرُكم وممرُّكم على غِفَار فاقْلَعُوا عَنّي .

فَلَمَّا أنْ أصْبَحْتُ الْغَدَ رَجَعْتُ فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قلْتُ بالأمْسَ ، فَقالُوا قُومُوا إلى هَذَا الصَّابِيء فَصَنَعَ بيَ مِثْلَ ما صَنَعَ بالأمسِ فأدْرَكَنِي العَبَّاسُ فأكَبَّ عَلَيَّ وقالَ مِثْلَ مقالَتَهُ بالأمس .

طَالِع تَوارِيْخ مَن فِي الدهرِ قد وُجِدُوا ... تَجِدْ خُطُوبًا تُسَلِّيْ عَنْكَ مَا تَجِدُ
تَجِدْ أكَابِرَهُمْ قَدْ جُرِّعُوا غُصَصًا ... مِنَ الرَّزَايا بِهَا قَدْ فُتِّتَتْ كُبُدُ
عَزْلٌ ونَهْبٌ وضَرْبٌ بالسِّياط يَلِيْ ... حَبْسٌ وَقَتْلٌ وَتَشْرِيْدُ لِمَنْ زَهِدُوا
وإنْ وُقِيْتَ بحَمْدِ اللّهِ شَرَّهُمْ ... فَلْتَحْمَدِ اللّهَ فِي العُقْبَى كَمَنْ حَمِدُوا

وفي الحديثِ الذي أخرجه مسلِم يقول ابو ذر فرماني الناسَ حَتى كأنّي نَصَبُ أحْمَر فاخْتبَأْتُ بينَ الكعبةِ واسْتَارِهَا ولَبِثْتُ فيها خَمْسَ عَشْرَةَ مِن يَوْمٍ ولَيْلَةٍ ما لي طَعامٌ ولا شَرابٌ إلا مَاءُ زَمْزَمَ .

قالَ ولقينَا رسَولُ الله صلّى اللهُ عليهِ وسَلّم ، وأبُو بَكْر رضي اللهُ عَنْهُ ، وقَدْ دَخَلا المسجد فوالله إنِّي لأوَّلُ النّاسِ حَيّاهُ بِتَحِيَّةِ الاسْلامِ فَقُلْتَ السَّلامُ عَلَيْكَ يا رَسُولَ الله فَقَال وَعَلَيْكَ السَّلامُ ورَحْمَةُ اللهِ ، مَنْ أنْتَ فَقُلْتُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي غِفَار فَقالَ صَاحِبُه إئْذَنْ لِي يا رَسُولَ الله في ضِيَافةِ الليلة ، فانْطَلَق بِي إلى دَارٍ في أسْفل مكة فَقَبَض لِي قَبْضَاتٍ مِنْ زَبِيْبْ ، قَالْ فَقَدِمْتُ عَلى أخي فأخْبَرْتَهُ أنّي أسْلَمْتُ قال فانّي على دِيْنِكْ ، فانْطَلَقْنَا إلى أُمّنا فقَالَتْ إنّي عَلى دِيْنِكُمَا ، قَالْ وأتيتُ قومِي فَدَعوتُهم فَتبِعَنِي بَعْضُهمْ .

وأخْرَجَهَ الطَّبرَاني وأبُو نُعْيم في الْحِلْيَة مِنْ طَرِيقِ ابنِ عبّاس رَضْي اللهُ عَنْهما عن أبي ذَرٍ رضْي اللهُ عنه قالْ أقَمْتُ مَعَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم بِمَكّة فَعَلَّمني الاسْلامَ وقَرأْتُ مِنَ القُرآنِ شَيْئًا فَقُلْتُ يا رسولَ اللهِ إنّي ارُيدُ أنْ أظْهَرَ دِيْنِي فَقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إنّي اخافُ عليك أنْ تُقْتَل قُلْتُ لا بُدّ منه وان قُتِلْتُ قال فَسَكَتَ عني فَجِئْتُ وقُرَيشُ حِلقاً يَتَحدثُونَ في المسجدِ فَقُلْتُ : أشْهدُ أن لا إلـهَ الا اللهُ وأن محمداً رسولُ الله .

فانْتَفَضَبتِ الْحِلَقُ فقَامُوافَضربـوني حَتّى تَركُوني كَأنّي نُصُبُ أحْمَرْ ، وكانُوا يَرَوْنَ أنّهم قَدْ قَتَلُوني ، فأفَقْتُ فَجِئْتُ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلمْ ، فرَأى ما بِي مِنَ الحالْ ، فقالَ ألَمْ أنْهَكْ ، فَقُلتُ يا رسولَ الله كانَتْ حَاجَة في نَفْسِي فَقَضَيْتُها ، فأقَمْتُ مَعَ رسولَ الله صلى اللهُ عليهِ وسلَم ، فقالَ الْحَقْ بِقَوْمِكَ فَاذِا بَلَغَكَ ظُهُورِي فأْتِني .

وعَنْ أبي ذرٍ رضيَ اللهُ عَنْهُ قال أَتَيْتُ مَكَّةَ فَمَالَ عَليَّ أهْلُ الوادي بكُلِ مَدَرَةٍ ، وعَظْمٍ فَخَرَرْتُ مَغْشياً عَليَّ ، فارْتَفَعْتُ حِينَ ارْتَفَعْتُ كأنِّي نُصُبٌ أحْمَرُ .

تَسْطُوا الكِلاَبُ على أُسْدِ الشَّرَا سَفَهاً والبازُ الأشْهَبُ يَخْشَى صَوْلَةَ الحَجَلِ
والقِـرْدُ يَضْحَـكُ مِن نِمْـرٍ عَلَى هُـزْءٍ والكَلْبُ يُوعِـدُ لَيْـثَ الغِيْـلِ بالغِيَلِ

موعظة

عِبَادَ اللهِ تَزَوَّدُوا لِلرَّحِيْلِ فَقَدْ دَنَتْ الآجَالُ واجْتَهِدُوا واسْتَعِدّوا لِلرَّحِيْل فَقَدْ قَرُبَ الارْتِحَالُ وَمَهِّدُوا لأنفُسِكُمْ صَالِحَ الأعْمَالِ فإن الدُّنيا قد آذَنَتْ بالفِرَاقِ وإنّ الآخِرَةَ قَدْ أشْرَفَتْ لِلتَّلاَقِ فَتَزَوَّدُوا مَنَ دَارِ الانْتِقَالُ إلى دَارِ القَرَار .

واسْتَشْعِرُوا التَّقْوَى في الأَقْوالِ والأَفْعَالِ وأحْذَرُوا التَّفَاخُرَ والتكَاثُرَ في الدنيا بِجَمْعِ الحُطَامِ واكْتِسَابِ الآثامِ وإيَّاكُمْ والاغْتِرارَ بالآمَالِ فورَاءكُم المَقَابِرُ ذَاتُ الوَحْشَةِ والهُمُوْمِ والغُمُـومِ والكُرُبَـاتُ وتَضَايقُ الأنْفَاسِ والأهوالِ المُفْضِعَاتِ .

فَسَوْفَ تَرَوْنَ مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ في حِسَابٍ إذَا نُودِيْتُم مِنْ الأَجْدَاثِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً مُهْطِعِيْنَ إلى الدَّاعي وَتَعَلَّقَ المَظْلُومُون بالظَّالِمْينَ ووَقَفْتُمَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ العالَمِينَ وَحَلَّ بِكُمْ كَرْب المقَامِ واشْتَدَّ بالْخَلْقِ في ذَلِكَ الموقِفُ الزِّحَامُ وأُخِذَ المجرِمُوْن بالنَّواصِي والأقْدامِ وبَرَزَتْ جَهَنَّم تُقادُ بِسَبْعِيْنَ ألْفِ زِمَام مَعَ كُلِّ زمامٍ سَبْعُونَ ألفَ مَلَكٍ يَجُـرونَها والخَزَنَةُ حَوْلَهَا غِلاَظٌ شِدَادٌ .

وَيُنَادِي عِنْدَ ذَلِكَ العزيزُ الحَمِيدُ الجَبَّارُ فَيَقُولُ هَلْ امْتَلأتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَزِيد هُنَالِكَ يَنْخَلِعُ قَلْبُكَ وتَتَذَكَّرُ مَا فَرَّطْتَ فِيْهِ مِن الأَوْقَات وتَنَدَّمْ ولاتَ ساعةَ مَنْدمٍ وَتَتَمَنَّى أنْ لو زِيدَ في الحَسَنَاتِ وخُفِّفَ مِن السَّيِئَاتِ ولكن أنَّى لَكَ بِهَذَا وَهَيْهَات ﴿هُنالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ ما أسْلَفَتْ وَرُدُّوا إلى اللهِ مَوْلَاهُمْ الحَقُّ وَضَلَّ عَنْهم ما كانُوا يَفْتَرُون﴾ .

اللَّهُم وفَّقْنا للاسْتِعْـدَادِ لِمَا أَمَـامَنَا ، اللَّهُمْ وَقَـوِّي إيْمَانَنَـا بِكَ وَبِمَلَائِكَتِكَ وَبِكُتُبِكَ وبِرُسُلِكَ وباليومِ الآخر وبالقدر خَيرِهِ وشَرِهْ ، اللَّهُمَّ نوِّر قُلُوبَنَا واشْرَحْ صُدُورَنَا وَوَفِّقْنَا لِمَا تُحِبُّهُ وَتَرْضَاهُ وأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ وأَعِذْنَا مِن عَدُوِّكَ واغْفِر لَنَا ولِوَالِدَيْنا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

مَا أصَابَ سَعِيْدَ بنَ زَيدٍ وَزَوْجَتَهُ فَاطِمَةَ أُخْتَ عُمَرَ أَخْرَجَ ابنُ سَعْدٍ عَن أنسٍ رَضيَ اللهُ عنه قالَ خَرَجَ عُمَرُ مُتَقَلِّداً السَّيْفَ فَلَقِيَهُ رَجُلٌ من بَنِي زُهْرَةَ قال أَيْنَ تَعْمِدُ يا عُمَرُ فقالَ إرِيْدُ أنْ أقْتُلَ مُحَمَّداً قالَ وكَيْفَ تَأْمَنُ مِن بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي زُهْرَةَ إذا قَتَلْتَ مُحَمَّداً قالَ فقال لَهُ عُمَرُ ما أراكَ إلا قَدْ صَبَأتَ وَتَرَكْتَ دِيْنَكَ الذي كُنْتَ عليه فَقَالَ أفلا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ أَعْجَبُ مِن ذَلِكَ قَالَ وَمَا هُو قَالَ أُخْتُكَ وَخَتَنُكَ قَدْ صَبَوا وتَرَكَا دِيْنَكَ الذي أَنْتَ عليه .

قال فَمَشِيَ عُمَرُ ذَامِراً حَتَّى أَتَاهُمَا وعِنْدَهُمَا رَجُلٌ مِن المُهَاجِرِيْنَ يُقَالُ خَبَّابُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال فَسَمِعَ خَبابُ حِسَّ عُمَرفَتوارَى فَدَخَلَ عَلَيْهِمَا فقال ما هَذِهِ الهَيْمَنَةُ التي سَمِعْتُهَا عِنْدَكُم قال وكانُوا يَقْرؤ نَ (طه)

فقالا ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا قال فلعلكما قد صبوتما .

قال فقال له ختنه أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك فوثب عمر على ختنه فوطأه وطأً شديداً فجاءت أخته فدفعته عن زوجها فنفحها بيده ـ أي لطمها ـ فدمى وجهها فقالت وهي غضبى يا عمر إن كان الحق في غير دينك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

فلما يئس عمر قال أعطوني الكتاب هذا الذي عندكم فاقرأه قال وكان عمر يقرأ الكتب فقالت أخته: إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون فاغتسل وتوضأ قال فقام وتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ طه حتى انتهى الى قوله «إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري» قال فقال عمر دلوني على محمد فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت فقال أبشر يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ليلة الخميس .

اللهم أعز الأسلام بعمر بن الخطاب أو بعمر بن هشام قال ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الدار التي في أصل الصفا فانطلق عمر حتى أتى الدار .

قال وعلى باب الدار حمزة وطلحة رضي الله عنهما وأناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى حمزة وجل القوم من عمر قال حمزة . نعم فهذا عمر فإن يرد الله بعمر خيراً يسلم ويتبع النبي صلى الله عليه وسلم وإن يرد الله غير ذلك يكن قتله علينا هيناً .

قال ورسول الله صلى الله عليه وسلم داخل يوحي إليه قال فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه

وَحَمَائِلِ السَّيْفِ وقال مَا أنْتَ بِمُنْتَهٍ يَا عُمَرُ حَتَّى يُنزِلَ اللهُ بِكَ مِن الخِزْي والنُكَالِ مَا أنْزَلَ بالوَلِيْدِ بنِ المُغِيْرَةِ اللهم هَذَا عُمَرُ بنُ الخطابِ اللَّهُم أعِزّ الدِيْنَ بِعُمَرَ بنِ الخطابِ قال فقالَ عُمَرُ أشْهَدُ أنكَ رَسُولُ اللهِ فأسْلَمَ وقَالَ أخْرُجْ يا رسولَ اللهِ .

أخرج أبو نُعَيْمٍ في الحِلْيَةِ عن عُثْمَانَ قال لَمَّا رَأى ابنُ مُظْعُونٍ رَضي اللهُ عَنْهُ ما فيهِ أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم مِن البلاء وهُو يَغْدُوْ ويَرُوحُ في أمَانٍ من الوَلِيدِ بنِ المغيرةِ ، قال واللهِ إنَّ غُدُوِّي وَرَوَاحي آمِناً بِجِوَارِ رَجُلٍ مِن أهْلِ الشِرْكِ وأصْحَابِي وأهْلُ دِيْنِي يَلْقَوْنَ مِن الأذَى والبَلَاءِ ما لا يُصِيبُنِي لَنَقْصٌ كَبِيْرٌ في نَفْسِي .

فَمَشِيَ إلى الوَلِيدِ بنِ المغِيرَةِ فقال له يَا أبَا عَبْدِ شَمْسٍ وَفَتْ ذِمَّتُكَ قَدْ رَدَدْتُ إليكَ جِوَارَكَ قالَ لِمَ يَا ابْنَ أخِي لَعَلَّهُ آذَاكَ أحَد مِن قَوْمِي قَالَ لَا ولكِنِّي أرْضَى بِجِوَارِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولا أرِيْدُ أنْ أسْتَجِيْرَ بِغَيْرِهِ قال فانطلقْ إلى المَسجِدِ فارْدُدْ عَلَيَّ جِوَارِي عَلَانِيَةً كَمَا أجَرْتُكَ عَلَانِيَةً .

قال فانْطَلَقَا ثم خَرَجَا حَتى أتَيَا المسجِدَ فقال لَهُم الوَلِيْدُ هذا عُثْمانُ رَضْي اللهُ عَنْهُ قَدْ جَاءَ يَرُدُ عَلَيَّ جِوارِي قَالَ لهُم قَدْ صَدَقَ قَدْ وَجَدْتُهُ وَفِياً كَرِيْمَ الجِوَارِ ولكِنِّيْ أحبَبْتُ أنْ لا أسْتَجِيْرَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ رَدَدْتُ عليهِ جِوَارَهُ .

ثم انْصَرَفَ عُثْمَانُ وَلَبِيْدُ بنُ رَبِيْعَةَ بنُ مَالِكِ بنُ كِلَابِ القَيْسِي في المَجْلِسِ مِن قُرَيْش يُنْشِدُهُم فَجَلَسَ مَعَهُم عُثْمَانُ فَقَالَ لَبِيدُ وَهُوَ يُنْشِدُهُم : الَا كُلُّ شَيءٍ مَاخَلَا اللهَ بَاطِلُ .

فقال عُثْمَانُ صَدَقْتَ فَقَالَ : وكُلُ نَعِيْمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ ، فقال عثمانُ كَذَبْتَ نَعِيْمُ الجَنَّةِ لا يَزُوْلُ قال لَبِيْدُ بنُ رَبِيعَةَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ وَاللهِ ما كَانَ يُؤْذى جَلِيْسُكم فَمَتى حَدَثَ فِيْكُم هَذَا فَقَالَ رَجُلٌ مِن القَوْمِ إنَّ هَذَا سفِيْهٌ في سُفَهَاءِ مَعَهُ قَدْ فَارَقُوا دِيْنَنَا فَلاَ تَجِدَنَّ في نَفْسِكَ مِن قَوْلِهِ فَرَدَّ عَليهِ عُثْمَانُ حَتَّى سَرَى - أيْ عَظُمَ أمْرُهُمَا فقَامَ إليه ذَلِكَ الرَّجُلُ فَلَطَمَ عَيْنَهُ فَخَظَّرَهَا والْوَلِيْدُ ابنُ المُغِيْرَة قَرِيْبٌ يَرَى مَا بَلَغَ مِن عُثْمَانَ .

فَقَالَ أَمَا وَاللهِ يَا ابْنَ أَخِي إنْ كَانَتْ عَيْنُكَ عَمَّا أَصَابَهَا لَغِنِيَّةٌ لَقَدْ كُنْتَ في ذِمَّةٍ مَنِيْعَةٍ فَقَالَ عُثمانُ بَلَى واللهِ إن عَيْنِيْ الصَحِيْحَةُ لَفَقِيْرَةٌ إلى مَا أَصَابَ أُخْتَهَا في اللهِ وإني لَفِيْ جِوَارِ مَنْ هُوَ أعزُّ مِنْكَ وأقدَرُ يَا أبَا عَبْدِ شَمْسٍ وَقَالَ عُثمانُ بنُ مظعون فِيْمَا أصِيْبَ مِن عَيْنِهِ :

فإنْ تَكُ عَيْنِي في رِضَى اللهِ نَالَهَا
يَدَا مُلْحِدٍ في الدِّيْنِ لَيْسَ بِمُهْتَدِ
فَقَدْ عَوَّضَ الرَّحْمَنُ مِنْهَا ثَوَابَهُ
وَمَن يُرْضِهِ الرحمنُ يا قَوْمُ يَسْعَدِ
فإنّي وَقَدْ قُلْتُمْ غَوِيٌ مُضَلَّلٌ
سَفِيْهٌ على دِيْنِ الرَّسُولِ مُحَمَّدِ
أُرِيْدُ بِذَاكَ الحَقَ والحَقُ دِيْنُنَا
على رَغْمِ مَن يَبْغِي عَلَيْنَا وَيَعْتَدِي

اللهم إنَّك تَعْلَمُ سِرَّنَا وَعَلاَنِيَتَنا وتَسْمَعُ كَلاَمَنَا وتَرى مَكَانَنَا لاَ يخْفَى عَليكَ شيْءٌ مِن أَمْرِنَا نَحْنُ البُؤَسَاءُ الفُقَراءُ إليكَ المستغيثون المستجيرونَ بكَ نَسْأَلُكَ أَنْ تُقيِّظَ لِدِيْنِك مَنْ يَنْصُرُهُ ويُزِيلُ مَا حَدَثَ مِن البِدَعِ والْمُنْكَراتِ ويُقِيْمُ عَلَمَ الجِهَادِ ويَقْمَعُ أَهْلَ الزَّيْغِ والكُفْرِ والعِنَادِ ونَسْأَلُكَ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا ولِوَالِدِيْنَا وجميعِ المسلمين برحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فصل)

أَخْرَجَ ابنُ سَعْدٍ عَن مُحَمَّدٍ العَبْدَرِي عن أَبِيْهِ قَالَ كَانَ مُصْعَبُ بـنُ عُمَيْرٍ فتى مَكَّةَ شَبَاباً وجَمَالاً وكانَ أَبَوَاهُ يُحِبَانِهِ وكانَتْ أُمُّهُ مَلِيْئَةً - أَيْ غَنِيَّةً كَثِيْرَةَ المالِ - تَكْسُوهُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِن الثِّيَابِ ، وأَرَقَهُ ، وكَانَ أَعْطَرَ أَهْلِ مَكَّةَ ، يَلْبَسُ الحَضْرَمِيَّ مِن النِعَالِ ، فَكَانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُهُ ويَقُولُ ، ما رَأَيْتُ بِمَكَّةَ أَحْسَنَ لِمَّةً ، ولاَ أَرَقَّ حُلَّةً ، ولا أنعَمَ نِعْمَةً مِن مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ .

فَبَلَغَهُ أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم يَدْعُو إِلَى الإِسلامِ في دَارِ أَرْقَمَ ، فَدَخَلَ عليه فأَسْلَمَ ، وصَدَّقَ بِهِ ، وَخَرَجَ فكَتَمَ اسْلاَمَهُ ، خَوْفاً مِن أُمِّهِ وَقَوْمِهِ ، فَكَانَ يَخْتَلِفُ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم سِراً ، فَبَصَرَ به عُثْمَانُ بنُ طَلْحَةَ يُصَلِّي فأَخْبَرَ أمَّهُ وقَوْمَهُ ، فَأَخَذُوْهُ فَحَبَسُوهُ فَلَمْ يَزَلْ مَحْبُوْساً ، حتى خَرَجَ إلى أَرْضِ الحَبَشَةِ في الهِجْرَةِ الأُوْلَى ، ثم رَجَعَ مَعَ المسلمين حِيْنَ رَجَعُوا ، فَرَجَعَ مُتَغَيِّرَ الحالِ قَدْ حَرِجَ فَكَفَتْ أُمُّهُ عَنْهُ مِن العَذْلِ .

وأخرَجَ الطَّبراني والبَيْهَقِي عن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه قال نَظَرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إلى مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُقْبِلاً عَلَيْهِ إهابُ كَبْشٍ - أَيْ جِلْدِ كَبْشٍ - (قد تَنَطَّقَ به)- أَيْ شَدَّهُ في وَسَطِهِ، فقال « أنْظُرُوا إلى هذا الذي نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ ولَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْنِ يَغْذُوَانِهِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ والشَّرابِ ، ولَقَدْ رَأَيْتُ عليه حُلَّةً شَرَاهَا - أَوْ شُرِيَتْ - بِمَائَةِ دِرْهَمٍ فَدَعَاهُ حُبُّ اللهِ ورسولِهِ إلى مَا تَرَوْنَ .

وأخرج الترمذيُ وحَسَّنَهُ أَبو يَعْلى وابنُ رَاهُوَيهْ عن علي رضي الله عنه ، قال خَرَجْتُ في غَداةٍ شاتِيَةٍ مِن بَيْتِي جَائِعاً حرصاً قَدْ أَذْلَقَنِي البَرْدُ ، فأخذْتُ إهَاباً مَعْطُوناً كانَ عِندَنا فَجَبَبْتُهُ .

تم أَدْخَلْتُهُ في عُنُقِي ثم حَزَمْتُه عَلى صَدْرِي أَسْتَدْفِيء بِهِ ، فَوَاللهِ مَا في بَيْتِي شَيء آكلُ منه ، ولَو كانَ في بَيْتِ النبي صلى الله عليه وسلم لَبَلَغَنِي ، فَخَرجْتُ في بَعْضِ نَواحِيَ المدِينَةِ ، فاطَّلَعْتُ إلى يَهُودِي في حَائِطٍ مِن ثَغْرَةِ جِدَارِهِ ، فقالَ مَالَكَ يا أَعْرَابِي هَلْ لَكَ في كُلِّ دَلْوٍ بِتَمْرَةٍ ، فَقُلْتُ نَعَمْ فافْتَحْ الحَائِطَ فَفَتَحَ لِي فَدَخَلْتُ فَجَعَلْتُ أَنْزِعُ دَلْواً وَيُعْطِينِي تَمْرَةً حَتَّى امْتَلاءَتْ كَفِيْ ، قلْتُ حَسْبِي مِنْكَ الآنَ .

ثم جِئْتُ إلى النبي صلى اللهُ عليه وسلم فَجَلَسْتُ إليه في المَسْجِدِ ، وهو في عِصَابَةٍ مِن أَصْحَابِه فاطَّلَعَ عَلَيْنا مِصْعَبُ ابنُ عُمَيْرٍ رَضي اللهُ عنه في بُرْدَةٍ لهُ مَرْقُوعَةٍ ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذَكَرَ مَا كَانَ فيهِ مِن النَّعِيْمِ ورأى حَالَهُ الذي هوُ عَليها فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَبَكَى ثم قالَ كيفَ أَنْتُمْ إذا غَدَا أَحَدُكُمْ في حُلَّةٍ ورَاحَ في أُخْرَى ، وسُتِرَتْ بُيوتِكم كَمَا تُسْتَرُ الكَعْبَةُ قلنا نَحْنُ يومَئِذٍ خَيْرٌ نُكْفَى المؤْنَةَ ، ونَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ ، قال بل أَنْتُمُ اليَوْمَ خَيرٌ مِنكم يَوْمَئِذٍ والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(فصل)

قِصَّةُ عَبدِ اللهِ بنِ حُذَافَةَ السَّهْمِي قِصَّتُهُ مَعَ مَلِكِ الفُرْسِ مَشْهُورَةُ وذَلكَ أنَّهُ في السنةِ السادسةِ مِن الهِجرةِ ، حِيْنَ عَزَمَ النبي صلى

اللهُ عليه وسلم أن يَبْعَثَ بَعْضَ أصحابِهِ بكُتُبٍ إلى مُلُوكِ الأعَاجِمِ ، يَدْعُوهُم إلى الاسلام .

ولقد كانَ صلى اللهُ عليه وسلمَ يُقَدِّرُ خُطُورَةَ هَذِهِ المُهِمَّةِ فَهَؤُلاَءِ الرُسُلُ سَيَذهَبُونَ إلى بِلادٍ نائِيَةٍ لاَ عَهْدَ لَهُمْ بِهَا مِن قَبْلُ ، يَجْهَلون لُغَاتِهِم ولا يَعْرِفُونَ شَيْئاً عَن أخْلاَقِ مُلُوكِهِم ، ثم إنَّهُمْ سَيَدْعُونَ هَؤُلاَءِ إلى تَرْكِ مَا عَلَيه آبَاؤُهُمْ والدُخُولِ في دِينِ الإسلامِ الذي هوضِدُ مَا هُمْ عليه مِن الإلْحَادِ والكُفْرِ .

إنَّها رِحْلَةٌ خَطِيْرَةٌ الذاهِبُ إلَيْهَا مَفْقُودٌ ، والعَائِدُ مِنْهَا مَوْلُودٌ ، لِذَلِكَ جَمَعَ المصطفى صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ أصْحَابَهُ وقَامَ فِيْهِم خَطِيْباً ، فَحَمَدَ اللهَ وأثْنىَ عليه ، وتَشَهَّدَ ثم قَالَ أمَّا بَعْدُ فإني أرِيْدُ أنْ أبْعَثَ بَعْضَكُم إلى مُلُوكِ الأعَاجِم ، فلا تَخْتَلِفُوا عَليَّ ، كَما اخْتَلَفَتْ بَنُوا اسْرائِيلَ عَلى عِيْسَى بنِ مَرْيَمَ .

فقالَ أصْحَابُ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم نَحْنُ يا رَسُولَ اللهِ نُؤَدِيْ عَنْكَ مَا تُرِيْدُ ، فأبْعِثْنَا حَيْثُ شِئْتَ ، انْتَدَبَ صلى الله عليه وسلم سِتَّةً مِن الصَّحَابَةِ لِيَحْمِلُوا كُتُبَهُ إلى مُلُوكِ العَرَبِ والعَجَمِ ، وكان أحَدُ هَؤُلاَء السِتةِ ، عَبدُ اللهِ ابنُ حَذافةَ السُهْمِي ، اختارَهُ لِحَمْلِ رِسَالَتِه إلى كِسْرَى مَلِكِ الفُرْسِ .

فَجَهَّزَ عَبدُ اللهِ رَاحِلَتَهُ وَوَدَّعَ أهْلَهُ وَوَلَدَهُ ، ومَضَى إلى غَايَتِهُ تَرْفَعه النِّجادُ وتَحُطُهُ الوِهَادِ ، حَتى بَلَغَ دِيَارَ فَارِسَ ، فاسْتَأذَنَ بالدُخُولِ عَلى مَلِكَهَا ، وأخْطَرَ أعْوَانَ الملكِ بالرِّسَالَةِ التي يَحْمِلُهَا بأنَّها ذاتُ اهْتِمَامٍ .

عِندَ ذَلِكَ أَمَرَ كِسْرَى بإيْوَانِهِ فَزُيِّنَ ، ودَعَا عُظَمَاءَ فَارِسَ لِحُضُورِ مَجْلِسِه ، فَحَضَرُوا ، ثم أذنَ لِعَبْدِ اللهِ بن حُذَافَةَ بالدُّخولِ ، فَدَخَلَ عَبدُ اللهِ بنُ حُذَافَةَ على سَيِّدِ فَارِسَ ، مُشْتَمِلاً شَمْلَتَـهُ ، مُرْتَـدِياً عبـاءَتَهُ الصَّفِيْقَةَ ، عَليه بَساطَةُ الأعْرَابِ .

لَكِنَّه عَالِي الهَامَةِ ، مَشْدُوْدَ القَامَـةِ ، تَأَجَّـجُ بَيْنَ جَوَانِحِـه عِزَّةُ الإسلامِ فَلَمَّا رَآهُ كِسْرَى مُقْبِلاً أشَارَ إلى أحدِ رِجَالِه بأنْ يأخُـذَ منه الكتابَ .

فقال لاَ : إنَّما أَمَرَنِي رَسُولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم أنْ أدْفَعَهُ لكَ يَداً بِيَدٍ ، لا أخالفُ أَمْرَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ كِسْرَى لِرجَالِهِ اتْرُكُوهُ يَدْنُو مِنِّي ، فَدَنَا مِن كِسْرَى ، فَنَاوَلَهُ كِتَابَ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِيَدِهِ .

ثم دَعَا كِسْرَى كَاتِباً عَرَبياً مِن أَهْلِ الحِيْرَة وأَمَرَهُ أَنْ يَفُضَّ الكتابَ بَينَ يَدَيْهِ ، وأنْ يَقرَأ عَلَيه ، فاذا فيه « بِسْمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم مِن مِحَمَّدٍ رسولِ الله إلى كِسْرَى عَظِيْمِ فَارِسَ ، سَلاَمٌ ، على مَن اتبعَ الهُدَى » .

ولما سَمِعَ كِسْرَى هَذَا المِقْدَارَ مِن الرِّسَالَةِ اشْتَعَلَ غَضَبُهُ في صَدْرِهِ فاحْمَرَّ وَجهُهُ ، وانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ ، لِأَنَّ النبيَ صَلى اللهُ عليه وسلم بَدَأَ بِنَفْسِهِ ، فَجَذَبَ الرِّسالَة من يَدِ كاتِبِهِ ، وجَعَل يُمَزِّقُها ، دُوْنَ أَنْ يَعْلَمَ ما فِيها ، ويَقُولُ أيَكْتُبُ لِي بهذا وهُوَ عَبْدِي .

ثم أَمَرَ بعَبْدِ اللهِ بنِ حُذَافَةَ أَنْ يُخْرَجَ مِن مَجْلِسِه ، فأُخرِجَ مِن

المَجْلِسِ ، وهُوَ لا يَدْرِي مَاذَا يَكُونُ بعدَ ذلكَ ، لكنَّهُ مَا لَبِثَ أنْ قالَ والله مَا أُبَالِي عَلى أيِّ حَالٍ أكُون بَعْدَ أنْ أدَيْتُ كِتَابَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، ورَكِبَ رَاحِلَتَهُ وانْطَلَق .

ولما سَكَتَ غَضَبُ كِسْرَى، أمَرَ أنْ يَرُدُوْهُ إليه ، فالتَمَسُوْهُ فلم يَجِدُوهُ ، فارْسَلُوا في أثرِهِ ، وطَلَبُوهُ في الطَّرِيقِ ، فَلَمْ يَجدُوْهُ ، فَلمَّا قَدِمَ عَلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أخْبَرَهُ بمَا كَانَ مِن أمْرِ كِسْرَى ، وتَمْزِيْقِهِ الكتابَ ، فمَا زَادَ عليه الصلاةُ والسلامُ على أنْ قال « مَزَّقَ اللهُ مُلْكَهُ » .

أمَّا كِسْرَى فَكَتَبَ إلى باذَانَ نَائِبَهُ على اليمنِ ، أنْ ابْعَثْ إلَى هَذَا الرجُلِ الذي ظَهَرَ بالحِجَازِ رَجُلَينِ جَلْدَيْنِ مِن عِنْدَكَ . ومُرْهُمَا أنْ يَأتِيَانِ بِهِ ، فَبَعَثَ باذانُ رَجُلَينِ مِن خِيْرَةِ رِجَالِهِ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وحَمَّلَهُمَا رِسَالَةً لَهُ يَأمُرُهُمَا بأدَائِها لَهُ ، ويأمُرهُ فِيها بأنْ يَنْصَرِفَ مَعَهُمَا إلى لِقَاءِ كِسْرَى دُوْنَ إبْطَاءٍ .

وطَلَبَ إلى الرَّجُلَين أنْ يَقِفَانِ على خَبَرِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم انْ يَسْتَقْصِيَا أمْرَهُ ، وأنْ يَأتِيَاهُ بمَا يَقِفانِ عليه مِن أمْرِهِ مِنْ مَعْلُوماتٍ .

فَخَرَجَ الرَّجُلانِ حَتَّى بَلَغَا الطَّائِفَ ، فَوَجَدَا رِجَالاً تُجَّاراً مِن قُرَيْشٍ فَسَألاَهُم عنِ مُحمد عليه السلامُ ، فقالُوا هُوَ في يَثْرِبَ ، ثم مَضى التُجَارُ إلى مَكةَ فَرِحِيْنَ مُسْتَبْشِرِيْنَ ، وجَعَلُوا يُهَنُونَ قُرَيْشاً ، ويَقُولُونَ قَرُّوْا عَيْناً فإنَّ كِسْرَى تَصَدَّى لِمُحَمَّدٍ وَكَفَاكُمْ شَرَّهُ .

أمَّا الرَّجُلانِ فَيَمَّمَا وَجْهَيهِمَا شَطْرَ المَـدِيْنَةِ ، حَتَّى إذا وَصِلاَ إلَيْهَا ،

لَقِيا النَّبيَ صلى اللهُ عليه وسلم ودَفَعَا إليه رِسَالَةَ بَاذَانَ ، وقالاَ لَهُ إن مَلِكَ المُلُوكِ كِسْرَى كَتَبَ إلى مَلِكِنَا بَاذَانَ أنْ يَبْعَثَ إليكَ مَن يَأتِيْهِ بِكَ .

وقَدْ أتَيْنَاكَ لِتَنْطَلِقَ مَعَنَا فإنْ أَجَبْتَنَا كَلَّمْنَا كِسْرَى بِمَا يَنْفَعُكَ ، ويَكُفَ أذاهُ عَنَكَ ، وإنْ أبَيْتَ فَهُو مَن قَدْ عَلِمْتَ سَطْوَتَهُ ، وبَطْشَهُ ، وقُدْرَتَهُ عَلى إهلاكِكَ ، واهْلاكِ قَوْمِكَ .

فَتَبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم ، وقال لَهُمَا إرْجِعَا إلى رِحَالِكُمَا اليَوْمَ ، وأتِيَا غداً ، فَلَمَّا غَدَوَا عَلَى النبي صلى اللهُ عليه وسلم في اليَوْمِ التَالِي ، أخْبَرَهُمَا بأنَّ اللهَ قَتَلَ كِسْرَى حَيْثُ سَلَطَ عليه ابنَهُ « شِيْرويْهِ » في لَيلَةِ كَذا مِن شَهرِ كَذَا .

فَحَدَّقَا في وَجْهِه وبَدَتْ الدَّهْشَةُ على وَجْهَيْهِمَا ، وقَالاَ أتَدْرِيْ ما تَقُولُ أنَكْتُبُ بذَلَكَ لِبَاذَانَ ، قال نَعَمْ وقُولاَ لَهُ إنَّ دِيْنِي سَيَبْلُغُ ما وَصِلَ إليه مُلْكُ كِسْرَى ، وإنَّكَ إنْ أسْلَمْتَ ، أعْطَيْتُكَ ما تَحتَ يَدَيْكَ ، وَمَلَّكْتُكَ عَلى قَوْمِكَ وخَرَجَ الرَّجُلانِ مِن عندِ الرسولِ صَلواتُ اللهِ وسلامه عَليهِ وقَدِمَا عَلى بَاذانَ وأخْبَرَاهُ الخَبَرَ .

فقال لِئِنْ كَانَ مَا قَالَهُ مُحَمدٌ حَقاً فَهُو نَبِيٌ وإنْ لَم يَكُنْ كَذلِكَ فَسَنَرَى فِيه رَأياً فلَمْ يَلْبَثْ أنْ قَدِمَ عَلى بَاذانَ كِتَابُ شِيْروِيْهِ .

وفيه يَقُولُ أمَّا بَعْدُ فَقَد قَتَلْتُ كِسْرَى ولَمْ أقْتُلْهُ إلا انْتِقَاماً لِقَومِنَا فَقَدْ اسْتَحَلَّ قَتْلَ أشْرَافِهم وسَبَي نِسَائِهَمْ وانْتَهَبَ أمْوَالَهَمْ فاذَا جَاءَكَ كِتابِي هَذا فخذْ لِيْ الطاعةَ مِمَّنْ عِندَكَ .

فلمّا قرَأَ باذانُ الْكِتابَ كِتابَ شَيْروِيْهِ طَرَحَهُ جانِباً وأعْلَنَ دُخُوْلَهُ في الاسْلامِ وَأَسْلَمَ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الفُرْسِ باليَمَنِ انْتَهى .

اللهُمَّ هَبْ لَنَا ما وَهَبْتَهُ لِعِبادِكَ الاخْيارِ وَانْظُمْنا في سِلْكِ المُقَرَّبِيْنَ والابْرَارِ وآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا ولِجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلى اللهُ على مُحمدٍ وعَلَى آلهِ وَصَحْبِه أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ حُذافَةَ وَقِصَّتُهُ مَعَ مَلِكِ الرُّوْمِ

أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ وَابْنُ عَساكِرَ عنْ أبيْ رَافِعٍ قَال وَجَّهَ عُمَرُ ابْنُ الْخطَّابِ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ جَيْشاً إلى الرُّوْمِ وَفِيْهِمْ رَجُلٌ يُقالُ لَهُ عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ حُذَافَةَ مِنْ أَصْحابِ النَّبيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، فَأَسَرَهُ الرُّوْمُ فَذَهَبُوا بِهِ إلى مَلِكِهِمْ فَقَالُوْا لَهُ إنَّ هَذَا مِنْ أصْحابِ مُحمَّدٍ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ الطَّاغِيَةُ هَلْ لَكَ أَنْ تَنَصَّرَ وأشْرِكَكَ في مُلْكِيْ وَسُلْطَانِيْ .

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللّٰهِ لَوْ أَعْطَيْتَنِيْ مَا تَمْلِكُ وَجَمِيْعَ مَا مَلَكَتْهُ الْعَرَبُ عَلَى أَنْ أرْجِعَ عَنْ دِيْنِ مُحمَّدٍ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ مَا فَعَلْتُ ، قَالَ إذاً أقْتُلُكَ قَال أَنْتَ وَذاكَ ، فَأَمَرَ بِهِ فَصُلِبَ ، وَقَالَ لِلرُّمَاةِ ارمُوهُ قَرِيْباً مِنْ بَدَنِهِ قرِيْباً ، مِن رِجْلَيْهِ ، وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ وَهُوَ يَأْبى .

ثُمَّ امَرَ بِهِ فَأُنْزِلَ ثُمَّ دَعَا بِقِدْرٍ فَصُبَّ فِيْهِ حَتَّى احْتَرَقَ ، ثُمَّ دَعَا بِأَسِيْرَين مِنْ الْمُسْلِمِينْ فَأَمَرَ بِأَحَدِهِمَا فَأُلْقِيَ فِيْهَا ،وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّصْرَانِيَّةَ ، وَهُوَ يَأْبى ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُلْقِيِ فِيْهَا ، فَلَمَّا ذُهِبَ بِه بَكَى ،

فَقِيْلَ لَهُ إِنَّهُ قَدْ بَكى فَظَنَّ أَنَّهُ جَزِعَ ، فَقَالَ رُدُّوْهُ فَعَرَضَ عَلَيْهِ النَّصْرَانِيَّةَ فَأَبى فَقَالَ مَا أَبْكَاكَ إِذاً .

قَالَ أَبْكَانِي أَنِّيْ قُلْتُ في نَفْسِيْ تُلْقَى السَّاعَةَ فِي هَذَا الْقِدْرِ فَتَذْهَبَ فكُنْتُ أَشْتَهِي أَنْ يَكُونَ بِعَدَدِ كُلِّ شَعْرَةٍ فِي جَسدِيْ نَفْسٌ تُلْقَى فِي اللَّهِ قَالَ لَهُ الطَّاغِيَةُ هَلْ لَكَ أَنْ تُقَبِّلَ رَأْسِيْ وَأُخَلِّيْ مِنْكَ ، قَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ وَعَنْ جَمِيْعِ أُسَارَى المُسْلِمِيْنَ ، قَالَ وعَنْ جَمِيْعِ أُسارَى الْمُسْلِمِيْنَ .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَقُلْتُ فِيْ نَفْسِي عَدُوٌّ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ ، أُقَبِّلُ رَأْسَهُ يُخَلِّي عَنِّي وَعَنْ أُسَارَى الْمُسْلِمِيْنَ ، لاَ أُبَالِيْ فَدَنَا مِنْهُ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ الأُسَارَى ، فَقَدِمَ بِهِمْ عَلَى عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ عُمَرُ حَقٌّ عَلى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُقَبِّلَ رَأْسَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ ، وأَنَا أَبْدَأُ فَقَامَ عُمَرُ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ .

شعرا :

أَسِيْـرُ الْخَـطَايَا عِنْـدَ بَـابِكَ يَقْـرَعُ
يَخَافُ وَيَرْجُو الفَضْلَ فَالْفَضْلُ أَوْسَعُ
مُقِـرٌّ بِـأَثْقَـالِ الـذُّنُـوْبِ وَمُكْثِـرُ
وَيَـرْجُوكَ فِي غُفْـرانِهَا فَهْـوَ يَـطْمَـعُ
فَـإِنَّكَ ذُوْ الإِحْسَـانِ وَالْجُوْدِ وَالْعَـطَا
لَكَ الْمَجْدُ وَالإِفْضَـالُ وَالْمَنُّ أَجْمَعُ
فَكَمْ مِنْ قَبِيْـحٍ قَدْ سَتَرْتَ عَنِ الْوَرَى
وَكَـمْ نِعَـمٌ تَتْـرَى عَـلَيْنَـا وَتَـتْبَـعُ

وَمَنْ ذَا الـذِّيْ يُرْجَىٰ سِواكَ وَيُتَّقَى
وَأَنْتَ إِلَـهُ الْخَلْقِ مَـا شِئْتَ تَصْنَـعُ
فَيَا مَنْ هُوَ الْقُـدُّوسُ لاَ رَبَّ غَيْـرَهُ
تَبَـارَكْتَ أَنْتَ اللَّهُ لِلْخَلْقِ مَـرْجِـعُ
وَيَا مَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَـوى فَوْقَ خَلْقِهِ
تَبَـارَكْتَ تُعْـطِى مَنْ تَشَـاءُ وتَمْنَعُ
بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى وَأَوْصَافِكَ الْعُلَى
تَـوَسَّـلَ عَـبْـدٌ بَـائِسٌ يَـتَـضَـرَّعُ
أَعِنِّيْ على المَـوْتِ الْمَرِيْرَةِ كـأْسُهُ
إذَا الـرُّوْحُ مِنْ بَيْنِ الْجَوانِـحِ تُنْزَعُ
وَكُنْ مُؤْنِسِي في ظُلْمَةِ الْقَبْرِ عِنْدَمَا
يُـرَكِّمُ مَنْ فَـوْقِـيْ التُّـرَابُ وَأُوْدَعُ
وَثَـبِّتْ جَنَـانِـيْ لِسُّـؤَالِ وَحُجَّـتِيْ
إذَا قِيْـلَ مَنْ رَبٌّ وَمَنْ كُنْتَ تَتْبَـعُ
وَمِنْ هَوْلِ يَوْمِ الحَشْرِ وَالْكَرْبِ نَجِّنِيْ
إذَا الرُّسْلُ وَالأَمْـلاَكُ وَالنَّاسُ خُشَّعُ
وَيَا سَيِّدِيْ لاَ تُحـزِنِيْ فِي صَحِيْفَتِيْ
إذَا الصُّحْفُ بَيْنَ الْعَـالَمِينَ تُـوَزَّعُ
وَهَبْ لِيْ كِتَـابِي بِـالْيَمِـيْنِ وَثَـقِّلَنْ
لِمِيْـزَانِ عَبْـدٍ فِي رَجَـائِـكَ يَـطْمَعُ
وَيَـارَبِّ خَلِّصْنِيْ مِنَ النَّـارِ إِنَّهَـا
لَـبِئْسَ مَـقَـرٌّ لِـلْغُـوَاةِ وَمَـرْجِـعُ

أَجِرْنِيْ أَجِرْنِيْ يَا إِلَهِيْ فَلَيْسَ لِيْ
سِوَاكَ مَفَرٌّ أَوْ مَلَاذٌ وَمَفْزَعُ

وَهَبْ لِيْ شِفَاءً مِنْكَ رَبِّي وَسَيِّدِيْ
فَمَنْ ذَا الذِيْ لِلضُّرِّ غَيْرُكَ يَدْفَعُ

فَأَنْتَ الَّذِيْ تُرْجَى لِكَشْفِ مُلِمَّةٍ
وَتَسْمَعُ مُضْطَرًا لِبَابِكَ يَقْرَعُ

فَقَدْ أَعْيَتِ الأَسْبَابُ وَانْقَطَعَ الرَّجَا
سِوَى مِنْكَ يَا مَنْ لِلْخَلَائِقِ مَفْزَعُ

إِلَيْكَ إِلَهِي قَدْ رَفَعْتُ شِكَايَتِيْ
وَأَنْتَ بِمَا أَلْقَاهُ تَدْرِي وَتَسْمَعُ

فَفَرِّجْ لَنَا خَطْباً عَظِيْماً وَمُعْضِلًا
وَكَرْباً يَكَادُ الْقَلْبُ مِنْهُ يُصَدَّعُ

وَمَاذَا عَلَى رَبِّي عَزِيْزٌ وَفَضْلُهُ
عَلَيْنَا مَدَى الأَنْفَاسِ يَهْمِي وَيَهْمَعُ

فَكَمْ مِنَحٍ أَعْطَى وَكَمْ مِحَنٍ كَفَى
لَهُ الْحَمْدُ والشُّكْرَانُ وَالْمَنُّ أَجْمَعُ

وَأَزْكَى صَلَاةِ اللهِ ثُمَّ سَلَامُهُ
عَلَى الْمُصْطَفَى مَنْ فِي الْقِيَامَةِ يَشْفَعُ

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِصَالِحِ الأَعْمَال وآتِنا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وفِيْ الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا ولِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

« سَعِيْدُ بْنُ عَامِرٍ الْجُمَحِيُّ وخُبَيْبُ »

خُبَيْبُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ أَحَدُ الْمُعَذَّبِيْنَ فِي اللهِ الثَّابِتِيْنَ عَلَى الأَيْمَانِ بِاللهِ ثُبُوتَ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَمِمَّنْ حَضَرَهُ يَوْمَ قَتْلِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سَعِيْدُ بنُ عَامِرٍ الجُمَحِيُّ خَرَجَ إِلَى التَّنْعِيْمِ فِيْ ظَاهِرَةِ مَكَّة بِدَعْوَةٍ مِنْ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ لِيَشْهَدَ مَعَهُمْ مَصْرَعَ خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ أَحَدِ صَحَابَةِ مُحَمَّدٍ بَعْدَ أَنْ ظَفِرَ بِهِ الأَعْدَاءُ الْمُشْرِكُونَ غَدْراً .

وَقَدْ أَقْدَرَهُ اللهُ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ رُؤْيَةِ أَسِيْرِ قُرَيْشٍ مُكَبَّلاً بِقُيُودِهِ يُسَاقُ إِلَى الْمَوْتِ ، فَوَقَفَ سَعِيْدُ يُطِلُّ عَلَى خُبَيْبٍ وَهُوَ يُقَدَّمُ إِلَى خَشَبَةِ الصَّلْبِ وَسَمِعَ صَوْتَ خُبَيْبٍ الثَّابِتُ الهَادِىءْ يَقُولُ إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَتْرُكُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ مَصْرَعِيْ فَافْعَلُوا .

ثُمَّ نَظَرَ سَعِيْدُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْن يَا لِحُسْنِهِمَا وَيَا لِتَمَامِهِمَا وَسَمِعَهُ وَهُوَ يَقُولُ لَوْلاَ أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي أَطَلْتُ الصَّلاَةَ جَزَعَاً مِنَ الْمَوْتِ لاَ اسْتَكْثَرْتُ مِنَ الصَّلاَةِ .

ثُمَّ رَأَى الْمُشْرِكِيْنَ وَهُمْ يُمَثِّلُوْنَ بِخُبَيْبٍ حَيّاً وَيُقْطَعُوْنَ مِنْهُ الْقِطْعَةَ تِلْوَ الْقِطْعَةِ وَيَقُولُوْنَ لَهُ أَتُحِبَّ أَنْ يَكُوْنَ مُحَمَّدٌ مَكَانَكَ وَأَنْتَ نَاجٍ ، فَيَقُوْلُ وَالدِّمَاءُ تَنْزِفُ مِنْهُ والرُّوْحُ تَتَسَلَّلُ مِنْ بَدَنِهِ ، وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ أَكُوْنَ آمِناً وَادِعًا فِي أَهْلِي وَوَلَدِيْ وَأَنَّ مُحَمَّداً يُوخَزُ بِشَوْكَةٍ .

ولا غُرْو بالأشراف إن ظَفِرَتْ بهمْ كِلَابُ الأعادِي مِن فَصِيْحٍ وأَعْجَمِ
فَحَرْبَةُ وحْشِي سَقَتْ حَمْزَةَ الرَّدَى وَمَوْتُ عَلِي مِن حُسَامِ ابن مُلْجِمِ

ثُمَّ أَبْصَرَ سَعِيْدُ بْنُ عَامِرٍ خُبَيْبَاً وَهُوَ يَرْفَعُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ فَوْقِ خَشَبَةِ الصَّلْبِ وَهُوَ يَقُوْلُ اللَّهُمَّ احْصِهِمْ عَدَداً وَاقْتُلْهُمْ بَدَداً وَلاَ تُبْقِي مِنْهُمْ أَحَداً ثُمَّ خَرَجَ رُوْحُهُ الطَّيِّبَةُ وَبِهِ الشَّيْءُ الْكَثِيْرُ مِنْ ضَرَبَاتِ السُّيُوفِ وَطَعَنَاتِ الرِّمَاحِ .

ثُمَّ إِنَّ سَعِيْدَاً أَخَذَ دَرْسَا ، فَعَلِمَ إِنَّ الْحَيَاةَ الْحَقَّةَ عَقِيْدَةٌ ، وَجِهَادٌ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ حَتَّى الْمَوْتِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الأَيْمَانَ الثَّابِتَ لاَ يُزَلْزِلُهُ شَيْءٌ الْبَتَّةَ .

وَعَلِمَ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِيْ تَبْلُغُ مَحَبَّتُهُ وَالذَّبُّ عَنْهُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ إِنَّمَا هُوَ رَسُولٌ مُؤَيَّدٌ مِنَ السَّمَاءِ ، عِنْدَ ذَلِكَ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ سَعِيْدِ بْنِ عَامِرٍ لِلْإِسْلَامِ ، فَقَامَ فِي مَجْمَعٍ مِنَ النَّاسِ وَأَعْلَنَ بَرَاءَتَهُ مِمَّا عَلَيْهِ الْمُشْرِكُوْنَ مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ ، وَهَاجَرَ سَعِيْدُ ابْنُ عَامِرٍ إِلَى الْمَدِيْنَةِ ، وَلَزِمَ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَشَهِدَ مَعَهُ خَيْبَرَ ، وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْغَزَوَاتِ .

وَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَلَّ سَيْفاً ، مَسْلُوْلاً فِيْ يَدَيْ خَلِيْفَتَيْ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبِيْ بَكْرٍ وَعُمَرَ وَكَانَا يَعْرِفَانِ لَهُ صِدْقَهُ وَتَقْوَاهُ .

وَلَمَّا آلَتِ الْخِلاَفَةُ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَتَاهُ سَعِيْدُ فَقَالَ لَهُ ، يَا عُمَرُ أُوْصِيْكَ أَنْ تَخْشَى اللهَ فِي النَّاسِ ، وَلاَ تَخْشَى النَّاسِ فِيْ اللَّهِ ، وَأَنْ لاَ يُخَالِفَ قَوْلُكَ فِعْلَكَ ، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا صَدَّقَهُ الْفِعْلُ .

يَا عُمَرُ أَقِمْ وَجْهَكَ لِمَنْ وَلاَّكَ اللَّهُ أَمْرَهُ مِنْ بَعِيْدِ الْمُسْلِمِيْنَ وَقَرِيْبِهِمْ وَاحَبَّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ ، وأَكْرَهْ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ ، وَخُضْ الْغَمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ وَلاَ تَخَفْ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ .

فقالَ عمرُ ، وَمَنْ يَسْتَطِيْعُ ذلكَ يا سَعِيْدُ ، فقالَ يَسْتَطِيْعُهُ مِثْلُكَ مِمْنِ وَلَّاهُم اللهُ أمْرَ أمةِ محمَّدٍ ، ولَيْسَ بينَهُ وبينَ اللهِ أحَدُ ، عِندَ ذلِكَ دَعَا عُمَرُ سَعِيداً إلى مُسَاعَدَتِهِ فقالَ له إنا مُوَلُوكَ حِمْصَ .

فقالَ يا عُمَرُ نَشَـدْتُكَ اللهَ أنْ لَا تَفْتِنِيْ فَغَضِبَ عُمَرُ وقالَ وَيْحَكُمْ وَضَعتُمْ هذا الأمْرَ في عُنُقِي ثم تَخَلَّيْتُمْ عَنِي ، واللهِ لا أدَعُكَ ثم ألزَمَهُ بِحِمْص وقالَ ألاَنفرِضُ لَكَ رِزقا قالَ وما أفْعَلُ بهِ يا أميرَ المؤمنينَ فإن عَطائِي مِنْ بَيْتِ المالِ يَزِيْدُ عنْ حَاجَتِي .

ثم مَضَى وَالِياً على حِمْص وما مَضَى إلا زَمَن يَسِيرُ حَتَى جاءَ بعضُ أهلِ حِمْص إلى عُمَرُ فقال اكتُبُوا أسْماءَ الفُقَراءِ عِنْدَكُم بحِمْص حتى أسُدَّ حاجَتَهم ، فَرَفعوا لهُ كِتَابا فيه بعضُ الفقراءِ الموجودِين بِحِمْص ومن جملةِ الفقراءِ المكتُوبِين ، سَعِيْدُ بنُ عامِرٍ الجُمَحِي .

فقالَ عُمَرُ مَنْ سَعِيْدُ بنُ عامِرٍ ، فقالُوا أمِيْرُنَا قالَ أميرُكُم فَقِيرُ ، قالوا نَعَمَ ، واللهِ إنه لَيَمُرُ عَلَيْهِ الأيَّامُ الطِّوَالُ ، ولا يوقد في بيته نارُ ، فبكى عمر رضي الله عنه بكاءً شديداً ، حتى بَلَّتْ دُمُوْعُهُ لِحْيَتَهُ .

ثمَّ عَمَدَ إلى ألِفِ دِينارٍ فَجَعَلَهَا في صُرَّةٍ وقالَ اقرؤا عليـهِ السَّلام وقُولُوا لهُ يَسْتَعِيْنُ بِهَذَا عَلَى قَضَاءِ حَوائِجِهِ فَجَاؤُهُ بِهَا فلما نَظَرَ إلَيْهَا واخْبَرُوْهُ ، جَعَلَ يُبْعِدُهَا عَنْهُ ، وَيَسْتَرْجِعُ .

فَجَاءَتِ زَوْجَتُهُ وقالَتْ لَهُ ما شأنَك ، أمَاتَ أميرُ المُؤمنينَ ، قَالَ بلْ اعظَمَ مِنْ ذَلِكَ ، قالتْ وما ذَاكَ ، قَالَ دَخَلتْ عليَّ الدنيا لِتُفْسِدَ آخِرَتِي وَحلَّتِ الفِتْنَةُ في بَيْتِي ، قَالَتْ تَخَلَّصْ مِنها ، قالِ هَلْ تُعَـيْنِيْني على

ذَلِكَ ، قَالَتْ نَعَمْ فَوَزَّعَهَا على فُقَرَاءِ المسلمينَ .

ثم لَمْ يَمْضِ إلا مُدَّةٌ يَسِيْرَةٌ حَتَّى اتى عُمُرُ الى حِمْص يَتَفَقَّدُهَا وَيَسْأَلُ عن أميرِهِمْ وسِيرَتِهِ مَعَهُم ، وهَلْ نَقِمُوْا عليه بِشَيءٍ ، فَذَكَرُوا أَرْبَعَ مَسَائِلَ .

أَحَدُها قالوا إنَّهُ لا يَخْرجُ إلينا حَتَّى يَتَعَالَى النهارُ ؛ فسأل عُمَرُ سعيداً لِمَاذا فَقَالَ إني أكرَهُ أن أقولَ ذلكَ ، ولكن حَيْثُ أَنَّهُ لا بُدَّ مِن تَوْضِيحِهِ ، فإنَّهُ ليسَ لأهْلِي خادِمٌ فأَقُومُ الصبحَ فأَعْجِنُ لَهُم عَجِيْنَهُم ، ثُمَّ أنتظِرُهُ يَخْتَمِرُ ، ثمَّ أَقُومُ فأَخْبِزُهُ لهم ، ثم أتَوَضَّأ وأخرُجُ إليهم .

وأما الثانيةُ فقالوا إنه لا يُجِيْبُ أَحداً بالليل ، فَسَأَلَهُ عُمُرُ عن ذلك فقال إني أَكْرَهُ أنْ أذكرَهُ ، ولكن لِمَا أَنَّهُ لا بُدَّ مِن ذلكَ فإني قد جَعَلْتُ النهارَ لهم ، ولِرَبِّي عَزَّ وجَلَّ الليلَ .

قال عمرُ وما هي الثالثةُ قالوا إنه لا يَخْرُجُ يوماً مِن كُلِ شَهْرٍ ، فسأله فقال إنهُ لَيْسَ لِي خادِمٌ ، وليس عِندي ثِيَابٌ غَيْرَ التي عليَّ فَأنا أَغْسِلُهَا في الشهر مَرَّةً ، وأنتظِرُهَا حتى تَجِفُّ ، ثم أخرجُ إليهم آخِرَ النهار .

وأما الرابعةُ فقالوا إنه تُصِيْبُهُ غَشْيَةٌ في بَعْضِ الأَوْقَاتِ فَيَغِيْبُ عَمَّنْ في المجلِسِ ، فَسَأَلَهُ عمرُ عَنْهَا فقال إني حَضَرْتُ مَصْرَعَ خُبَيْبِ بن عَدِيِّ ، وأنا مُشْرِكٌ وَرَأَيْتُ قُرِيشاً تُقَطِعُ جَسَدَهُ وهِيَ تَقُولُ أَتُحِبُ أن يكونَ مكانَكَ مُحَمَّداً ، فقال واللهُ ما أُحِبُ ان أكونَ آمِناً وأهلي وَوَلَدِي وأَنَّ مُحَمَّداً تَشُوْكُهُ شَوْكَةٌ .

فإذا ذَكرتُ ذلكَ المَشْهَدَ وأني لَم أَنْصُرْهُ ظَنَنْتُ أنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ لِي فَتُصِيبُنِيْ تِلْكَ الغَشْيَةُ ، ثم بَعَثَ لَهُ عُمَرُ بألفِ دِينارٍ يَسْتَعِينُ بها على حَوَائِجِه ، فَلَمَّا عَلِمَتْ زَوْجَتُهُ قالَتْ الحمدُ للهِ الذي أغنانا عَن خِدْمَتِك اَشْتَرْ لنا مَؤُنَةً واستأجِرْ لنا خَادِماً فقالَ لَهَا وَهَلْ لكَ فِيْمَا هُوَ خَيْرٌ مِن ذَلِكَ قَالَتْ وَمَا ذَاكَ قال نَدْفَعُهَا إلى مَنْ يَأْتِيْنَا بِهَا وَنَحْنُ أَحوجَ مَا نَكُونُ إليهَا قالَتْ وَمَا ذَاكَ قال نُقْرِضُهَا اللهَ قَرْضاً حَسَناً قالَتْ نَعَمْ وَجُزِيْتَ خَيْراً فَمَا قَامَ مِن مَجْلِسِهِ حَتَّى وَزَّعَهَا عَلَى الأَيْتَامِ والأَرَامِلِ والمَسَاكِين فَرَضِيَ اللهُ عنه وأرضَاهُ لَقَدْ كَانَ مِن الذِينَ يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أ هـ باختصار .

شعرا :

ومـا الـنـاسُ إلاَّ رَاحِلُونَ وَبَـيْـنَـهُـمْ
رِجَـالٌ ثَـوَتْ آثـارُهُم كـالمَعَـالِمِ

بِـعِـزَّةِ بَـأْسٍ واطِّـلاَعِ بَـصِـيْـرَةٍ
وَهَـزَّةِ نَـفْسٍ واتِّـسَـاعِ مَـرَاجِـمِ

حُظُوظُ كَمَالٍ أَظْهَرَتْ مِن عَجَائِبِ
بِمِرْآتِ شَخْصٍ مَا اخْتَفَى في العَوَالِمِ

ومـا يَسْتَطِيْعُ المَـرءُ يَخْتَصُّ نَفْسَهُ
أَلاَ إنَّمـا التَّخْصِيْصُ قِسْمَـةُ رَاحِمِ

وَمَنْ عَـرَفَ الـدُّنْيَـا تَيَقَّنَ أَنَّهَـا
مَـطِيَّـةُ يَقْـظَانٍ وَطَيْـفَـةُ حَـالِمِ

فللهِ سَـاعٍ في مَنَاهِـجِ طَـاعَـةٍ
لإِيـلاَفِ عَـدْلٍ أو لإِتْـلاَفِ ظَـالِمِ

اللهم طَهِّرْ قُلُوبَنَا مِن النِّفَاقِ وأخلصْ عَمَلَنَا مِن الرياءومَكْسَبَنَا مِنَ الرِبَا ونَوِّرْ قلُوبَنَا بِنُورِ الإيمانِ وَثَبِّتْهَا على طَاعَتِكَ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين يا أرحم الراحمين وصلى اللهُ على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

قصة

لِلْبراءِ بْنِ مَالِكٍ الأَنْصَارِي

للبَرَاءُ بنُ مالك الأنصاري أَخُو أنَس ِ بنِ مالكٍ خادِمِ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم كان البَراءُ شِجَاعَاً قَتَلَ مَائةً مِنَ المشركينَ مَبَارَزَةً وهو وَحْدَهُ غَيْرَ الذين قَتَلَهُمْ في غِمَارِ المَعَارِكِ مَعَ المحاربين .

وَبَعْدَ أن التَحَقَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلام بالرَّفِيقِ الأَعْلَى إرْتَدَّ قَبَائلُ مِن العربِ وخَرَجُوا مِن الاسلامِ ، ولم يَبْقَ الاَّ أهْلُ مكةَ والمدينةَ ، وجماعاتٍ مُتَفَرِّقَة هُنا وهُناكَ ، مِمَّنْ ثَبَّتَ اللهُ قُلُوبَهُم على الإيمان .

وَصَمَدَ الصِّدِيْقُ رضيَ اللهُ عنهُ لِهَذِهِ الفِتْنَةِ المُدَمِّرَةِ العَمْيَاءِ صُمُودَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ ، وَجَهَّزَ مِنَ المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ أَحَدَ عَشَرَ جَيْشاً .

وَعَقَدَ لِقَادَةِ هذِهِ الجُيُوشِ أحدَ عَشَرَ لِوَاءَ ، وَدَفَعَ بِهِمْ في أَرْجَاءِ جَزِيْرَةِ العَرَبِ لِيُعِيـدُوا المُرْتَدِيْنَ إلى سَبِيْلِ الهُدَى والحَقِ .

وكانَ أَقوَى المُرْتَدين بأْساً وأَكْثَرُهُم عَدَداً بَنُوا حَنِيفَةَ ، أَصحابُ مُسَيْلَمَـةِ الكذَّابِ فقد اجتَمَعَ مَعَ مُسَيْلَمَةَ مِن قَومِهِ وحُلَفَائِهِ أربَعُونَ ألفاً

وكانَ أكثرُهُم قَدْ اتَّبَعُوا مُسيلمَةَ عَصَبِيَّةً لا إيماناً بِهِ .

فَلِذَلِكَ صَرَّحَ بَعْضُهُمْ وقالَ اشْهَدُ أنَّ مُسَيْلَمَةَ كَذَّابٌ وَمُحَمَّداً صادِقٌ لكنْ كَذَّابَ رَبيعَة أحَبُّ إلينا مِنَ صَادِقِ مُضَرَ : قَدَّرَ اللهُ أنَّ جَيْشَ مُسَيْلَمَةَ يَهْزِمُ أَوَلَّ جَيْشٍ خَرَجَ إِلَيْهِ مِنْ جُيُوشِ المسلمين بِقِيادَةِ عِكرِمَةَ بنِ أبي جَهْل .

فَأَرْسَلَ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ جَيْشاً ثانياً بِقِيَادَةِ خالِدِ ابنِ الوَلِيدِ حَشَدَ فيهِ وُجُوهَ الصَّحَابَةِ مِن المهاجِرينَ والأنصار .

وكانَ في طَلِيْعَةِ هَؤُلاَءِ وهَؤُلاَءِ البَرَاءُ بن مَالِكِ الأَنْصَارِي وَنَفَرٌ مِن كُمَاةِ المسلمين ، والتَقَا الجَيْشَانِ في أَرْضِ اليَمَامَةِ ، فَما هُوَ إلاّ أَنْ رَجَحَتْ كِفَةُ مُسَيْلَمَةَ وأَصْحَابِهِ وَزُلْزِلَتِ الأَرْضُ تَحتَ أقْدام المُسْلِمِيْنَ وَطَفِقُوا يَتَرَاجَعُونَ عن مَوَاقِفِهِمْ حَتَّى اقْتَحَمَ قَوْمُ مُسَيلَمَةَ وَمَنْ مَعَهُمْ فُسْطَاطَ خالدِ بنِ الوليدِ واقْتَلَعُوهُ مِنْ أُصُولِهِ .

عِندَ ذلِكَ شَعُرَ المُسْلِمُونَ بالخَطَرِ الدَّاهِم وأَدْرَكُوا أَنَّهُمْ إنْ يُهْزَمُوْا أَمامَ مُسَيْلَمَةَ فَلَنْ تَقُومَ للإسلامِ قائِمَةٌ ، وهَبَّ خالِدٌ إلى جَيْشِهِ فَأعَادَ تَنْظيْمَهُ فَميَّزَ المهاجِرِيْنَ عن الأنصارِ ، وَمَيَّزَ أَبْنَاءِ البَوَادِي عَنْ هَؤُلَآءِ وهؤُلآءِ ، وَجَمَعَ أَبْنَاءَ كُلِّ أبٍ تَحْتَ رَايَةٍ وَاحِدَةٍ لِيَعْرِفَ بَلاَءَ كُلِّ فَرِيْقٍ مِنْهُمْ ، وَلْيَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ أُتِيَ المُسْلِمُوْنَ .

ثُمَّ دَارَتْ رَحَى الحَرْبِ مَعْرَكَةً ضَرُوسٌ لَمْ يُعْرَفْ لَهَا نَظِيْرٌ ، وَثَبَتَ قَوْمُ مُسَيْلَمَةِ في سَاحَاتِ الوَغى ثُبُوتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَلَمْ يُبَالُوا بِكَثْرَةِ مَا قُتِلَ مِنْهُمْ ، وَأَبْدَى المُسْلِمُوْنَ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالبُطُولَةِ مَا لَوْ جُمِعَ لَكَانَ

مَلْحَمَةً مِنْ رَوَائِعِ المَلاَحِمْ .

فَهَذَا ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ حَامِلُ لِوَاءِ الأَنْصَارِ يَتَحَنَّطُ وَيَتَكَفَّنُ وَيَحْفِرُ لِنَفْسِهِ حُفْرَةً فِي الأرضِ فَيَنْزِلُ فِيْهَا إلى نِصْفِ سَاقِهِ وَيَبْقَى ثَابِتاً يُجَالِدُ عَنْ رَايَةِ قَوْمِهِ حَتَّى خَرَّ صَرِيْعاً شَهِيْداً .

وَهَذَا زَيْدُ بنُ الخَطَّابِ أَخُو عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يُنَادِي في المُسْلِمِيْنَ أيُها النَّاسُ عُضُّوا عَلَى أَضْرَاسِكُمْ واضْرِبُوْا في عَدُوِّكُمْ وَامْضُوا قُدُمَاً أيُها النَّاسُ وَاللهِ لاَ أتَكَلَّم بَعْدَ هَذِهِ الكَلِمَةِ أَبَداً حَتَّى يُهْزَمَ مُسَيْلَمَةُ أَوْ أَلْقَى اللَّهَ ، فَأُدْلِيَ إِلَيْهِ بِحُجَّتِي ، ثُمَّ كَرَّ عَلَى قَوْمِهِ فَمَا زَالَ يُقَاتِلُ حَتَّى قُتِلَ .

وَهَذَا سَالِمُ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ يَحْمِلُ رايَةَ المُهَاجِرِيْنَ فَيَخْشَى عَلَيْهِ قَوْمُه أَنْ يَضْعُفَ أَوْ يَتَزَعْزَعَ فقَالُوا لَهُ إِنَّا لَنَخْشَى أَنْ نُؤتَى مِنْ قِبَلِكَ فَقَالَ إنْ أُتِيْتُمْ مِنْ قِبلِي فَبِئْسَ حَامِلُ القُرآنِ أكُوْنُ ، ثمَّ كَرَّ عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ كَرَّةً بَاسِلَةً حَتَّى أُصِيْبَ .

فَلَمَّا رَأَى خَالِدُ أَنَّ الوَطِيْسَ حَمِيَ وَاشْتَدَّ التَفَتَ إلى البَرَاءِ بنِ مَالِكٍ وَقَالَ إِلَيْهِمْ يَا فَتَى الأَنْصَارِ ، فالْتَفَتَ البَرَاءُ إلى قَوْمِهِ وَقَالَ يَا أَهْلَ المدِيْنَةِ لا يُفَكِّرَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِالرُّجُوْعِ إلى يَثْرِبَ ، فَلا مَدِيْنَةَ لَكُم بَعْدَ اليَوْمِ ، وَإِنَّمَا هُوَ اللهُ وَحْدَهُ ، ثمَّ الجَنَّةُ .

ثُمَّ حَمَلَ عَلَى الأعْدَاءِ وَحَمَلُوا مَعَهُ وَانْبَرَى يَشُقُّ الصُّفُوْفَ ، وَيُعْمِلُ السَّيْفَ في رِقَابِ أَعْدَاءِ اللهِ حَتَّى زُلْزِلَتْ أَقْدَامُ مُسَيْلَمَةَ وَأَصْحَابِهِ ، فَلَجَؤوا إلى الحَدِيْقَةِ المَعْرُوْفَةِ بِحَدِيْقَةِ المَوْتِ لِكَثْرَةِ مَنْ قُتِلَ فِيْهَا في ذَلِكَ

الْيَوْمِ فَأَغْلَقَ مُسَيْلَمَةُ وَالآفُ مَعَهُ مِنْ جُنْدِهِ الأَبْوابَ وَتَحَصَّنُوا بِعَالِي جُدْرَانِهَا وَجَعَلُوا يُمْطِرُوْنَ المُسْلِمِيْنَ بِنَبَالِهِمْ مِنْ دَاخِلِهَا فَتَتَساقَطُ عَلَيْهِمْ تَسَاقُطَ المَطَرِ .

عِنْدَ ذَلِكَ تَقَدَّمَ البَرَاءُ بنُ مَالِكٍ وقَالَ يا قَوْمُ ضَعُوني عَلَى تُرْسٍ وارْفَعُوا التُرْسَ عَلَى الرِمَاحِ ثمَّ اقْذِفُوْني بالحَدِيقَةِ قريباً مِنْ بَابِهَا فإمَّا أَنْ أَسْتَشْهِدَ وإمَّا أَنْ أَفْتَحَ لَكُمْ البابَ وفي زَمَنٍ يَسِيْرٍ جَلَسَ البَرَاءُ عَلَى التُرْسِ وَرَفَعَتْهُ الرِّمَاحُ وألقَتْهُ في حَدِيقَةِ الموتِ قُرْبَ البابِ بَيْنَ الآلافِ المُؤلفةِ مِن جُنْدِ مُسَيْلَمَةَ .

فَنَزَلَ عليهم نُزُوْلَ الصَّاعِقَةِ فجالَدهُمْ أَمَامَ بَابِ الحَدِيقَةِ حتّى قَتَلَ عَشَرَةً مِنْهُمْ وَفَتَحَ البابَ لِلْمُسْلِمِيْنَ وبهِ بِضْعٌ وثَمَانُونَ جِراحةً فَتَدَفَّقَ المُسلِمُوْنَ على الحَدِيقَةِ مِن حِيطانِهَا وَأَبْوَابِها وَاعْمَلُوا السُيُوفَ في رِقَابِ المُرتدِينَ حتّى قَتَلُوا مِنهم قَرِيْباً مِن عِشْرِيْنَ ألفاً وَوَصَلُوا إلى مُسَيْلَمَةَ الكذابَ فَقَتَلُوه .

ثُمَّ حَمَلُوا البَرَاءَ بنَ مالِكٍ الى رَحْلِهِ لِيُدَاوَى فيهِ وأقامَ عليهِ خالدُ ابنُ الوَلِيْدِ شَهْراً يُعَالِجهُ حَتَّى اذِنَ اللهُ لهُ بالشِفَاءِ وَظَلَّ البَرَاءُ بعدَ ذَلِكَ يَتَمَنّى الشهادَةَ التي فاتَتْهُ يومَ الحَدِيْقَةِ حتّى كان فَتْحُ تَسْتَرَ مِن بلادِ الفُرْسِ في إحْدَى القِلَاعِ المُمَرَّدَةِ .

فَحَاصَرَهُمْ المُسْلِمُوْنَ وأحاطُوا بِهِمْ فَلَمَّا طَالَ الحِصَار واشْتَدَّ البَلاءُ على الفُرْسِ جَعَلُوا يُدْلُوْنَ مِن فَوْقِ أَسْوَارِ القَلْعَةِ سَلَاسِلَ مِن حَدِيْدٍ عُلِقَتْ بها كَلَالِيبُ مِن فُولَاذٍ حُمِّيَت بِالنار فَكَانَتْ تَنْشَبُ في أَجْسَادَ المُسْلِمِيْنَ

وَتَعْلَقُ بِهِمْ فَيَرْفَعُونَهُمْ إِلَيْهِمْ إِمَّا مَوْتَى وإلا عَلَى وشَك المَوتِ فَعَلِقَ كَلُّوب منها بِأَنَسِ بن مالِكٍ أخِي البَرَاءِ بنِ مالك .

فَوَثَبَ البَرَاءُ على جِدَارِ الحِصْن وأَمْسَكَ السِّلْسِلَةَ التِي مَسَكَتْ أخَاهُ وَجَعَلَ يُعَالِجُ الكُلَّابَ لِيُخْرِجَه مِن جَسَدِ أخِيْهِ وأَخَذَتِ يَدَاهُ تَحْتَرِقُ فَلَمْ يُبالِ إلى أنْ خَلَّصَ أخَاهُ وَهَبَطَ إلى الأرض بَعْدَ أنْ صَارَتْ يَدُه عِظَاماً لَيْسَ عَلَيْهَا لَحْمٌ ثُمَّ دَعَا البَرَاءُ رَبَّهُ أنْ يَرْزُقَه الشهادَةَ فَأَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ واسْتَشْهَدَ رضيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاهُ أ هـ باختصار مِنْ صُوَر مِنْ حَيَاة الصحابَةِ رضيَ اللهَ عنهم .

شعرا :

لَهَفِيْ عَلَى سُرُجِ الدُّنْيَا الَّتِي طَفِئَتْ
وَلَا يَـزَالُ لَهَـا فِي النـاسِ أنـوَارُ

لَهَفِيْ عليهم رِجالاً طَـالَمَا صَبَـرُوْا
وَهَـكَـذَا طَـالِبُ الـعَلْيَـاءِ صَبَّـارُ

لَهَفِيْ عَلَيْهِم رَجَالاً طَالَمَا عَـدَلُـوا
بينَ الأنَـامِ ومـا حَـابَـوْا ولا مَـارُوا

مـالُـوا يَمِيْنَـاً عن الـدنيـا وَزَهْـرَتِهَـا
لِأَنهـا في عُيُـونِ القَـوْمِ أقْـذَارُ

وَصَـاحَبُـوْهـا بـأجْسَـادٍ قُـلُوبُهُـم
طَيْرٌ لَهَا فِي ظِـلَالِ العَرْشِ أوْكَـارُ

اللهم قَوِّ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وثَبِّتْنَا عَلَى قَولِكَ الثابِتِ فِي الحياةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ واجعلنا هداةً مُهْتَدِيْن سِلْمَاً لأوليائِكَ حرباً لأعدائِكَ واغفر لنا

ولوالدينا وجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين بِرَحْمَتِكَ يا أرحَمَ الراحمين وصَلّى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

قصة

لِأُم سَلَمَةَ وما حَصَلَ لَهَا مِنْ الأذى

اسْمُهَا هِنْدُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ سَيِّدٌ مِن ساداتِ مَخْزُومِ المَرْمُوقِيْنَ وجَواداً يُقَالُ له زَادُ الراكِبِ لأنه إذا سَافَرَ لا يَتْرك أحداً يُرَافِقُهُ ومَعَهُ زادٌ بل يَقُومُ بِرِفْقَتِهِ مِن الزَّادِ ، وَزَوْجُ أمّ سَلَمَةَ عبدُ اللهِ بنُ عَبْدِ الأسَدِ أحَدِ العشرةِ السابقينَ إلى الاسلامِ لم يُسْلم قَبْلَهُ إلا أبُو بَكْرِ وَنَفرٌ قليلٌ .

أَسْلَمَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مَعَ زَوْجِهَا فَكَانَتْ هِيَ الأُخْرَى مِن السابِقاتِ إلى الإسلاَمِ ، ولَمَّا شَاعَ خَبَرُ اسْلاَمِهَا هَاجَتْ قُرَيْشٌ وَجَعَلَتْ تَصُبُّ عَلَيْهِمَا الأَذى الشَّدِيْدُ ، فلَمْ يُؤثِّرْ بِهِمَا ولم يُزَلْزِلْهُمَا ولَمْ يَترَدَّدَا .

وَلَما اشْتَدَّ عَلَيْهِمَا الأَذى وأذِنَ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم لِأصْحَابِهِ بالهِجْرَةِ إلى الحَبَشَةِ كَانَا فِي طَلِيعَةِ المُهَاجِرِيْنَ وَمَضَتْ أُمُّ سَلَمَةَ وَزَوْجُهَا إلى دِيَارِ الغُرْبَةِ وَخَلَّفَتْ وَرَاءَهَا في مَكَةَ بَيْتَها الفَسِيْحَ العَالي ، وَعِزَّها الشَّامِخَ ، وأقْرِبَائَهَا ومالَها ، مُحْتَسِبَةً الأَجْرَ مِن العَلِيِّ العَظِيم مُحْتَقِرَةً ما تَرَكَتَ في جَانِبِ مَرْضَاةِ اللهِ .

وبِالرُّغْمِ مِمَّا حَصَلَ لأمّ سَلَمَةَ وَمَن هَاجَرَ مَعَهَا مِن الحَفَاوَةِ والاكْرَامِ والتَقْدِيْرِ ، فَقَدْ كانَ الشَّوْقُ يَحْدُوْهَا إلى مَهْبَطِ الوَحْيِ وإلى النبِي الكريم .

ثم تَتَـابَعَتِ الأَخْبَارُ عَلَى المُهَـاجِرِيْنَ إلى أَرْضِ الحَبَشَـةِ بِأَنَّ المُسْلِمِيْنَ في مَكَّةَ قَدْ كَثُرُوْا وَاقْتَوَوْا وَعَزّوا ، وأَنَّ إِسْلاَمَ حَمْزَةَ وعُمَرَ بن الخطَّابِ قَدْ شَدَّ إِزْرَهُمْ وَكَفْكَفَ شَيئاً مِن أَذَى قُرَيْشٍ عن المسلمين .

فَعزَمَ فَرِيْقٌ مِن المُهَاجِرِيْنَ عَلَى العَوْدَةِ إلى مَكَّةَ يَحْدُوْهُمْ الشَّوْقُ ويَدْعُوْهُم الحَنِيْنُ ، فَكَانَتْ أمُ سَلَمَةُ وَزَوْجُها مَعَ العَازِمِيْنَ على العودَةِ .

لَكِنْ سَرْعَانَ ما تَبَيَّنَ لِلْعَائِدِيْنَ أَنَّ مَا نُقِلَ لَهُمْ مِن الأَخْبَارِ أَنَّهُ كَانَ مُبَالَغاً فِيهِ ، وأَنَّ المُشْرِكِيْنَ قَدْ قَابَلُوا زِيَادَةَ القُوَّةِ والعِزَّةِ بِالتَّهَوُرِ والتَّفَنُنِ في التَّعْذِيْبِ وَتَرْوِيْعِهِمْ وَازْعَاجِهِمْ وَأَذَاقُوْهُمْ العَذَابَ الأَلِيْمَ .

عِندَ ذَلِكَ أَذِنَ رَسُوْلُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لأَصْحَابِهِ بالهِجْرَةِ إلى المَدِيْنَةِ ، فَعَزَمَت أُمُ سَلِمَةَ ، وَزَوْجُهَا على الهِجْرَةِ إلى المَدِيْنَةِ لَكِنْ هِجْرَتُهُمَا لم تَكُنْ كَمَا ظَنَّا أَنَّهَا سَهْلَةٌ بَلْ كَانَتْ صَعْبَةً عَسْرَةً خَلَّفَتْ وَرَاءَها مأسَاةً تَهُوْنُ دُوْنَهَا كُلُ مَأْسَاةٍ .

قَالَتْ أمُ سَلَمَةُ وَلَمَّا عَزَمَ أَبُو سَلَمَة على الخُرُوجِ إلى المَدينَةِ أَعَدَّ لِي بَعِيراً ، ثم حَمَلَنِي عليهِ وجعلَ طِفْلَنَا سَلمَةَ في حَجْرِي ، وَمَضَى يقودُ بِنَا البعِيرَ ، وهو لا يلْوِيْ على شَيْءٍ ، وقبلَ أن نَفْصِلُ عن مَكَةَ رآنَا رِجَال مِن قَوْمِي مِنْ بَنِي مخْزُوم فَتَصَدُوا لنا .

وقالوا لأبي سَلَمَة إنْ كنتَ قَدْ غَلَبْتَنَا على نَفْسِكَ فَمَا بالُ امرأتِكَ وَهِيَ بِنْتُنا ، فَعَلاَم نَتْرُكُكَ تأخذها مِنّا وتَسِيْرُ بها ثُمَّ وَثَبُوا عليهِوانْتَزعُونِي ، ومَا إن رَآهُمْ قَوْمُ زَوْجِي بَنُو عَبْدِ الأَسَدِ يأخذونَني أنَا وطفلي حَتى غَضِبُوا غَضَباً شَدِيدًا .

وقالُوا لا واللهِ لا نَتْركُ الوَلَدَ عِنْدَ صَاحِبتكُمْ بَعْدَ أنْ انتَزَعْتُمُوهَا مِن صَاحِبِنَا انْتِزَاعاً فهو ابْنُنا ونَحْنُ أَوْلَى بِهِ ، قالَتْ ثم طَفِقُوا يَتجاذَبُونَ الطِّفْلَ بَيْنَهُمْ حتَّى ضَرُّوا يَدَهُ وأخذُوهُ .

وَبَعْدَ لَحظَاتٍ وَجَدْتُ نَفْسِي مُمَزَّقَةَ الشَّمْلِ وحِيْدَةً فَرِيْدَةً فَزَوْجِي اتَّجَهَ إلى المَدِيْنَةِ فَرَاراً بِدِيْنِهِ وَنفْسِهِ وَوَلَدِيَ اخْتَطَفَهُ بَنُو عَبْدِ الأَسَدِ مِن بَيْنِ يَدَيَّ خَطْفاً مُحطَّماً مُهَيَّضا .

أَمَّا أَنَا فَقَدْ اسْتَوْلَى عَلَيَّ بَنُو مَخْزُوْمٍ قَوْمِي وَجَعَلُونِي عِنْدَهُمْ فَفُرِّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ إبْنِيْ في ساعةٍ قَالَتْ ، وَمِنْ ذَلِكَ جَعَلْتُ أَخْرُجُ كُلَّ غَدَاةٍ إلى الأَبْطَحِ فأَجْلِسُ في المَكَانِ الذي شَهِدَ مَأَسَاتِي ، وأَسْتَعِيْدُ فيها صُوْرَةَ اللَّحَظَاتِ الَّتِي حِيْلَ بَيْنِيْ وَبَيْنَ زَوْجِي وَوَلَدَيَ فيها .

وَأَظَلُّ أَبْكِي حَتَّى يُخَيِّمُ عَلَيَّ اللَّيْلُ وَبَقِيْتُ عَلَى ذَلِكَ قَرِيْباً مِن سَنَةٍ ، قَالَتْ إلَى أَنْ مَرَّ بِيَ رَجُلٌ مِن بَنِي عَمِّيْ فَرَقَّ لِحَالِي وَرَحِمَنِيْ ، قال لِبَنِيْ قَوْمِي الاَ تُطْلِقُونَ هَذِهِ المِسْكِيْنَةَ فَرَّقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِها وَوَلَدِهَا وَمَا زَالَ بِهِم حَتَّى قَالُوا لِيْ الْحَقِيْ بِزَوْجِكِ إنْ شِئْتِ .

قَالَتْ أُمُ سَلَمَةَ ، وَلَكِنْ كَيْفَ لِي أَنْ الْحَقَ بِزَوْجِي في المدِيْنَةِ وأَتْرُكُ فَلْذَةَ كَبِدِيْ وَلَدِي في مكةَ عِنْدَ بَنِيْ عَبْدِ الأَسَدَ ، قَالَتْ وَرَأى بعضُ الناسِ ما أُعَالِجُ مِن أَحْزَانٍ وأَشْجَانٍ فَرَقَّتْ قُلُوبُهُم لِحَالِي وكلمُوا بَنِي عَبِدِ الأَسَدِ في شأْنِي وَاسْتَعْطَفُوهُم عليَّ فَرَدُوا لِيْ وَلدِيْ سَلمَةَ قَالَتْ أمُ سلمَةَ فَأعددتُ بَعِيْرِي وَوَضَعْت ولدِي في حَجْرِي وخَرَجْتُ مُتَوجِهَةً إلى المدينَةِ أُرِيْدُ زَوْجِي وَمَا مَعِي أَحَدٌ مِن خلقِ اللهِ .

قالَت وما وَصِلْتَ التَنْعِيم حَتَّى لَقِيتُ عُثْمَانَ بنَ طلحةَ فقال إلى أينَ يا بِنتَ زادِ الراكبِ فقلتُ أريدُ زَوجي في الْمدِيْنَةِ قالَ أمَا مَعَكَ أحدٌ قُلْتُ لا واللهِ إلا الله ثم إبني هَذَا قالْ عثمانُ واللهِ لا أتركُكِ أبدَاً حتَى تَبْلِغَي المدينةَ قالتْ أمْ سَلَمَة ثُمَّ أخذَ بِخِطَامِ بَعِيْري وانطلق يَهْوِي بِي قالتْ فواللهِ مَا رَأيتَ أكرمَ مِنْهُ ولاَ أشْرَفَ وسارَ مَعِي حَتى بَلَغْنَا المدِيْنَةَ .

فلمَّا نَظَرَ إلى قَرْيَةِ بِقُبَاءِ لِبني عَمْرِو بن عَوْفِ قالَ زَوْجُكِ فِي هَذِه القَرْيَةِ فادْخُلِيها عَلَى بَرَكةِ الله ، ثم انصرفَ راجِعاً إلى مَكَةَ ونَزَلَتْ على زَوجها وقَرَّتْ عَيْنُهَا بِهِ وبوَلَدِهَا .

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ شَهِدَ أبُو سَلَمةَ بَدْراً وعَادَ مِنْهَا مَعَ المسلمِينَ ، وقد انْتَصَروا نصْراً مُؤَزَّرَا ، وشَهِد أُحداً وأبْلَى بلاءً حَسَنا ، لكِنَه خَرجَ منها وقَدْ جُرِحَ جُرْحا بَلِيْغاً ، فَمَا زَال يُعَالِجُه حَتى توارَى له أنَّه قَد إنْدَمَل والْتأمَ .

لكِن الجُرْحِ كانَ بِنَاؤُهُ عَلى فَسَادِ ، فَمَا لَبِثِ أنْ نَفَرَ وأَلْزَمَ أبَا سَلَمة الفِرَاشَ .

وبَيْنَما أبو سَلَمَة يُعالجُ جَرْحَهُ قَالَ لِزَوجَتِهِ يا أمُّ سَلِمَةَ سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقول لا يُصِيبُ أَحَدَاً مُصِيبةُ فَيَسْتَرْجِعُ عِندَ ذَلك وَيَقُولَ اللَّهمَّ عندَكَ أحْتَسِبُ مُصِيْبَتِي هَذهِ ، اللهمَ أخلُفِنِي خيراً منها إلا أعطاهَ الله عَزَّ وجل .

وظلَ أبُو سَلَمة على فِرَاشِ مَرَضِهِ أيَّاماً وفي ذَاتِ صَبَاحِ أقْبَلَ رسولُ اللهِ صلى اللهِ عليه وسلم على بَيْتِهِ لِيَعُودَهُ ، فلمْ يَكَدْ يُجَاوِزُ بابَ

الدارِ حتّى فارَق أبُو سَلَمة الحَيَاةَ .

فأغْمَضَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أباَ سلمةِ وقالَ إن الرُّوْحَ إذا قُبِضَ اتَبعَهُ البصرُ ورَفَع صلى الله عليه وسلم طَرْفَهُ إلى السماءِ وقالَ اللهم اغْفر لِأبي سَلَمَةَ وارْفَعْ دَرَجَتَه في المهدِيِّين واخْلُفْهُ في عُقِبِه وافسَحْ لهُ قَبْره ونَوِّرْ لَه فيه ، ثُمَّ ما كادَتْ تَخْرُجُ مِنْ حِدادٍ حتّى تَتابع عَلَيها الخُطَّابُ فتَقَدَّمَ أبو بَكْرٍ إليها يَخْطُبُها فأبَتْ أنْ تَسْتَجِيبَ له ثم تَقَدَّمَ عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ فَرَدَّتْهُ كَمَا رَدَتْ صَاحِبَهُ .

ثم تَقَدَّمَ النبيُّ صلى اله عليه وسلم فقالتَ لهُ يا رسولَ الله إن فيَّ خِلالاً ثلاثاً فأنا امْرَأَةٌ شَدِيْدَةُ الغَيْرةِ فأَخَافُ أن تَرى شيئاً مِني يُغْضِبُكَ فَيُعَذِبُنِيْ اللهُ .

وأنا امرأةٌ قَدْ دَخَلْتُ في السِنّ وأنَا امْرَأَةٌ ذاتُ عِيالٍ .

فقال صلى الله عليه وسلم أما مَا ذَكَرْتِ مِنْ غَيْرتِكَ فإنِيْ أَدْعَو اللهَ عزّ وجل أنْ يُذْهِبَهَا عَنْكِ .

وأمَّا مَا ذَكَرْتِ في السِّن فقدَ أَصَابَنِي مِثْلُ الذِيْ أصَابَكِ وأمَّا مَا ذَكَرْتِ مِن العِيال فإنَّما عِيَالُكِ عِيالِي .

ثم تَزَوَّجَها رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فاسْتَجَابَ اللهُ دَعاءَها وأخلَفَها خَيْراً مِن أَبِي سَلَمَةَ .

ومُنْذُ ذَلِكَ اليومِ لمْ تَكُنْ امُّ سَلَمَةَ فَقَطْ بَلْ كانَتْ امًّا للمُؤْمنينَ رضيَ اللهُ عنها وأرضَاها وجَعَل جَنَّةَ الفِرْدَوْسِ مَثْوانا ومَثْوَاهاً أ هـ .

باختصارٍ بسيطٍ من صورٍ مِن حياةِ الصحابةِ .

شعرا :

فَياوَيْحَ مَن شَبَّتْ على الزَّيْغِ نَفْسُهُ
إلى أن دَهَاهَا الشَيْبُ وهو نَذِيْرُ
وماتَ ومَا لاقَى سِوَى الخِزْيِ والشَّقَا
وَوَبخَهُ بَيْنَ القُبُورِ نكِيرُ
ولاَقَى إلَه العَرْشِ فِي ثَوْبِ حَسْرةٍ
وقد كانَ في ثَوْبِ الغُرُورِ يَدُوْرُ
فقَال خُذُوهُ لِلْجَحِيْم مُكَبَّلاً
وصَلُّوهُ ناراً إنَّهُ لَكَفُوْرُ
ويا فَوْزَ مَن أدَّى مَنَاسِكَ دِيْنِه
وعَاشَ سَلِيْمَ القلْبِ وهْوَ طَهُوْرُ
وتَابَعَ دِينَ الحَقِ فِقْهاً وحِكمَةً
ولبىَ نِدَاءَ اللهِ وهْوَ شَكُوْرُ
فَهَذا الذِي في الخُلْدِ يَنْعَمُ بالُه
وَتَحْظَوْا بِهِ بَيْنَ الأرَائِكِ حُوْرُ
فَلاَ تُهمِلُوا يا قَوْمُ آدابَ دِينِكِمْ
فَهَجْرُ طَرِيقِ الأنبِيَاءِ فُجُوْرُ
وما العَيْشُ إلا غَمْضَةٌ والتِفَاتَةٌ
وحُلْوُ أمانِي فَوْتهُنَّ مَرِيْرُ

ومـا المَـرْءُ إلاَّ طـائِرٌ وجَنَـاحُـهُ
مُـرُورُ لَيَالِي العُمْـرِ وهْـوَ قَصِيْـرُ
ومَـا المـوْتَ إلاَّ جَـارِحٌ لا يَعـوُقُـهُ
إذا انـقضَّ بُنْيَـانٌ عَـلاَ وقُـصُـوْرُ
ورَامِيْ المَنَـايَـا لا تُـرَدُّ سِهـامُـه
سَـواءٌ لـدَيْهَـا حَـاكِمٌ وحَـقِيْـرُ
وإنّـا وإنْ عِـشْنَـا زَمَـانـا مُـطوَّلاً
وطـابَ لـدَيْنَـا العَيْشُ وهْـوَ نَـظِيْـرُ
فَبَطْنُ الثَرَى حَتْماً مَحطُّ رِحَالِنَـا
وهَـلْ ثَمَّ حَيٌّ مَـا حَـوَتْـهُ قُبُـوْرُ
ويَـا لَيْتَهـا كَـانَتْ نِهَـايَـةُ ظَعْنِنَـا
ولٰـكِنَّ عُـقْبَى الـظَّاعِنِيـنَ نُـشُـوْرُ
وحَشْـرٌ مَهُـوْلٌ وازْدِحَـامٌ بمَـوْقِفٍ
علىَ كُـلِّ إخْـوانِ الضَيَـاعِ عَسِيْـرُ
ومَصْـرَفُـهُ سِجْنٌ لِمنْ عـاشَ لاهِيـاً
بـهِ لهَبٌ يَشْـوِي الحَشـا وسَعِيْـرُ
وخُضْـرُ جِنَـانٍ لِلَّذِي مـاتَ تَـائِبـاً
وكَـانَ لـهُ في الـدَّاجِيَـاتِ زَفِيْـرُ
فـلا تُسْلِمُـوْا لِلنَّـارِ حَـرَّ وُجُـوهِكُمْ
ولا تُغْضِبُـوا الرَّحْمان فَهْـوَ غَيُـوْرُ
وتُـوبُـوا إلَيْـهِ واسـألُـوه حَنَـانَـهُ
فَـوالـلهِ ربـي إنَّـهُ لـغَـفُـوْرُ

وَلاَ يَغْتَـرِرْ ذُو الجَـاهِ مِنْكُمْ بجـاهِـهِ
فَـأكْبَـرُ عَـاتٍ فِي المَعَـادِ حَقِيْـرُ
وعَن جاهِهِ والمالِ مَنْ مَاتَ خَارِجٌ
وأغْـنَـى غَـنِـيٍّ إذ يـمَـوُتُ فَـقِـيْـرُ
وَلاَ تُلْهِكُم دُنْيـاً أبَـادَتْ واهْـلَكَتْ
مُـلُوكَ قُـرُونٍ عَـدُّهُـنَّ كَـثِـيْـرُ
وإنّـا وإنْ كَـانَتْ أسـافِـلُ قَـوْمِنـا
تَـسَـاوَى لَـدَيهِـم مُؤْمِـنٌ وكَـفُـوْرُ
وبَـاعُـوا بِـدُنْيَـاهُم فَضَـائلَ دِينِهم
وفَـاسِقُهُـمْ لِلْمَـاكِـرِيـنَ نَـصِـيْـرُ
فَقَدْ أسْخُطُوا الرَّحْمان حَتَى أهَانَهُمْ
ولَـيْسَ لَـهُـمْ لِـلإنْـتِـقَـامِ شُـعُـوْرُ
فَمِنّـا أُنَـاسَ فِي الـدَّيَـاجي نَـواحُهُـمْ
تَبِين لَهُـمْ عِـنْـدَ الـبُكَـاءِ صُـخُـوْرُ
يُنَـادُونَ يَـا رَحْمَنُ لُـطْفـاً فَـإنّنـا
عَهِـدْنَـاكَ عَـطْفـاً لِلْهُـوفِ تَجِيْـرُ
فَيَـا مَصْلِحَ الأحْوَالِ جَمِّـلْ شُؤُونَنَا
فَـأنْتَ لإصْـلاَحِ الشُؤُونِ جَـدِيْـرُ
وأنْـتَ إلـهُ العَـالِمِـينَ بِـأسْـرِهِمْ
وأنْـتَ سَـمِـيْـعٌ عَـالِـمٌ وبَـصِـيْـرُ
فَلاَ يَأْسَ إذْ أنْتَ القَـدِيْرُ وكُـلُ مَنْ
تَـوَلاَّهُ يَـاسٌ مِنْـكَ فَهْـو كَـفُـورُ

وصَـلِّ وسَـلِّم يـا إلٰهي تَفَـضُـلاً
عَلَى مَنْ بِـذِكْـرَاهُ الـقُلُوبُ تُـنِيْـرُ
مَحَمَّـدُ قُطْبُ المُـرْسَلِينَ ومَنْ رَحَى
رِسَـالـتِهِـمْ جَمْـعـاً عـليـهِ تَـدُورُ

اللهم يا حيُ يا قَيُومُ طَهِّر قُلُوبَنا من النِّفَاقِ وعَمَلنا مِن الرِّيَاء وألْسُنَنا مِن الكَذِبِ وأعْيُنَنا مِن الخِيانة إنَّكَ تعلمُ خائِنَةَ الأعيُن وما تُخْفِي الصُّدُورَ واغْفِرْ لنَا ولِوالدِينا ولِجَميع المسلِمِينَ برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

نَمَاذِجُ مِنْ سِيْرَةِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ الْمُخْلِصِيْنَ وَنُصْحِهِمْ لِوُلَاةِ الْأُمُوْرِ وَبُعْدِهِمْ عَنْ الطَّمَعِ وَالْجَشِع عَكْسُ مَا عَلَيْهِ أَكْثَرُ عُلَمَاءِ هَذا الزَّمَانِ

عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُمَرَ قَالَ بَعَثَ إليَّ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ أَمْيْرُ الْمؤمِنِيْنَ وَأَنَا بالسَاحَلِ فَأَتَيْتُهُ ، فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَيْهِ وسَلَّمْتُ عَلَيْهِ بالْخِلَافَةِ ، رَدَّ عَلَيَّ وَاسْتَجْلَسَنِيْ ، ثُمَّ قَالَ لِيْ مَا الَّذِي أَبْطَأَ بِكَ عَنَّا يَا أَوْزَاعِيُّ .

قَالَ قُلْتُ ومَا الَّذِي تُرِيْدُ يَا أمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ ، قَالَ أُرِيْدُ الْأَخذَ عَنْكُمْ وَالإِقْتِبَاسَ مِنْكُمْ ، قَالَ فَقُلْتُ فانْظُرْ يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنْ لَا تَجْهَلَ شَيْئاً مِمَّا أقُولُ لَكَ ، قَالَ كَيْفَ أَجْهَلُهُ وأَنَا أسْأَلُكَ عَنْهُ وَفِيْهِ وَجَّهْتُ إِلَيْكَ وَاقْدَمْتُكَ لَهُ .

قَالَ قُلْتُ اخَافُ انْ تَسْمَعَهُ ، ثُمَّ لَا تَعْمَلُ بِه ، قَالَ فَصَاحَ بِيَ الرَّبِيْعُ

وَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى السَّيْفِ ، فَانْتَهَرَهُ الْمَنْصُورُ وقَالَ هَذَا مَجْلِسُ مَثُوبَةٍ لاَ مَجْلِسُ عُقُوبَةٍ فَطَابَتْ نَفْسِي ، وَانْبَسَطْتُ فِيْ الْكَلَامِ .

فَقُلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ حَدَّثَنِي مَكْحُوْلُ عَنْ عَطِيَّةَ عَنْ بِشْرٍ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَيُّمَا عَبْدٍ جَاءَتْهُ مَوْعِظَةٌ من اللَّهِ فِي دِيْنِهِ ، فإِنَّهَا نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ سِيْقَتْ إِلَيْهِ ، فَإِنْ قَبِلَهَا بِشُكْرٍ وإلا كَانَتْ حُجَّةً مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، لِيَزْدَادَ بِهَا إِثْماً وَيَزْدَادَ اللَّهُ بِهَا سُخْطاً عَلَيْهِ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ حَدَّثَنِي مَكْحُوْلُ عَنْ عَطِيَّةَ ابْنِ يَاسِر قَال قَال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ «أيّمَا والٍ مَاتَ غَاشاً لِرَعِيَّتِهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ مِنْ كَرِهَ الْحَقَّ فَقَدْ كَرِهَ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِيْنُ ، إِنَّ الذِّي لَيَّنَ قُلُوبَ أُمَّتِكِمْ لَكُمْ حِيْنَ وَلاَّكُمْ امُورَهُمْ لِقَرَابَتِكُم مِنْ رَسُوْلِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ وقَدْ كَانَ بِهِمْ رَؤُوفاً رَحِيْماً مُوَاسِياً لَهُمْ بِنَفْسِهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ مَحْمُوداً عِنْدَ اللَّهِ وعِنْدَ النَّاسِ ، فَحَقِيْقٌ بِكَ أَنْ تَقُومَ لَهُ فِيهِمْ بِالْحَقِّ ، وَأَنْ تَكُوْنَ بِالْقِسْطِ لَهُ فِيْهِمْ قَائِماً ، وَلِعَوْرَاتِهِمْ سَاتِراً لا تُغْلَقْ عَلَيْكَ دُوْنَهُمْ الْحِجَابَ ، تَبْتَهِجُ بِالنِّعْمَةِ عِنْدَهُمْ وتَبْتَئِسُ بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ سُوءٍ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ قَدْ كُنْتَ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ مِنْ خَاصَّةِ نَفْسِكَ عَنْ عَـامَّةِ النَّـاسِ الَّذِيْنَ أَصْبَحْتَ تَمْلِكُهُمْ أَحْمَرِهِمْ وَاسْوَدِهِمْ مُسْلِمِهِم وَكَافِرِهِمْ وَكُلٌّ لَهُ عَلَيْكَ نَصِيْبٌ مِنَ الْعَدْلِ ، فَكَيْفَ بِكَ إِذَا انْبَعَثَ مِنْهُمْ فِئَامٌ ، ولَيْسَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ وَهُوَ يَشْكُو بَلِيَّةً أَدْخَلْتَها عَلَيْهِ أَوْ ظَلاَمَةً سُقْتَهَا إِلَيْهِ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ حَدَّثَنِي مَكْحُولُ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ رُوَيْمٍ قَالَ كَانَ بِيَدِ رَسُوْلِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ جَرِيْدَةٌ يَسْتَاكُ بِهَا وَيُرَوِّعُ بِهَا الْمُنَافِقِينَ فَأَتَاهُ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَالَ لَهُ يَا مُحَمَّدُ مَا هَذِهِ الْجَرِيدَةُ الَّتِيْ كَسَرْتَ بِهَا قُلُوْبَ أُمتِّكَ وَمَلأْتَ قُلُوبَهُمْ رُعْباً ، فَكَيْفَ بِمَنْ شَقَّقَ أَسْتَارَهُمْ وَسَفَكَ دِمَاءَهُمْ وَخَرَّبَ دِيَارَهُمْ ، وَأَجْلاَهُمْ عَنْ بِلاَدِهُمْ وَغيَّبهُمْ الْخَوْفُ مِنْهُ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنينَ حَدَّثِنِيْ مَكْحُولُ عَنْ زِيَادَةَ عَنْ حَارِثَةَ عَنْ حَبِيْبِ ابْنِ مَسْلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا إِلىَ الْقِصَاصِ مِنْ نَفْسِهِ فِي خَدْشٍ خَدَشه أَعْرَابيٌّ لمْ يَتَعَمَّدْهُ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْكَ جَبَّاراً وَلاَ مُتَكَبِّراً ، فَدَعا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ الأَعْرَابِيُّ فَقَالَ « اقْتَصَّ مِنِّي » فَقَالَ الاعْرَابِيُّ قَدْ أَحْلَلْتُكَ بِأَبِيْ أَنْتَ وأُمِيْ ، وَمَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ أبداً ، ولَوْ أَتَيْتَ عَلى نَفْسِيْ فَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ رَضِّ نَفْسَكَ لِنَفْسِك ، وَخُذْ لَهَا الاَمَانِ مِنْ رَبِّكَ ، وَارْغَبْ في جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمواتُ والأَرْضُ ، الَّتِيِ يَقُوْلُ فِيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ لَقَيْدُ قَوْسٍ أَحدِكُمْ فِيْ الْجَنَّةِ خَيرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا .

يَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِيْـنَ إِنَّ الْمُلْكَ لَوْ بَقِيَ لِمَنْ قَبْلَكَ لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ ، وَكَذا لا يَبْقَى لَكَ كَمَا لَمْ يَبْقَ لِغَيْرِكَ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَدْرِيْ مَا جَاءَ فِي تَأْوِيْلِ هَذِهِ الآيَةِ عَنْ جَدِّكَ ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيْرَةً ولاَ كَبِيْرَةِ إلاَّ أَحْصَاهَا﴾ قَالَ الصَّغِيْرَةُ التَّبَسُّمُ

وَالْكَبِيْرَةُ الضَّحِكُ ، فَكَيْفَ بِمَا عَمِلَته الايْدِيْ وحَصَدَتْهُ الأَلْسُنُ .

يا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنْينَ بَلَغنِيْ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ.اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَوْ مَاتَتْ سَخْلَةٌ عَلَى شَاطِىءِ الفُرَاتِ ضُيِّعَتْ لَخشَيْتُ اَنْ أُسْأَلَ عَنْهَا ، فَكَيْفَ مِمَّنْ حُرِمَ عَدْلَكَ وهُوَ عَلى بِسَاطِكَ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنْينَ أَتَدْرِيْ مَا جَاءَ فِيْ تَأْوِيْلِ هَذِهَ الآيَةِ عَنْ جَدِّكَ ﴿يَا دَاوُدُ انَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيْفَةً في الارْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بالْحَقِّ ولاَ تَتَّبعِ الْهَوَى فَيضِلُّكَ عَنْ سَبِيْلِ اللَّهِ﴾ قَالَ اللَّهِ تَعَالى في الزَّبُورِ يَا دَاوُدُ إذَا قَعَدَ الخَصْمَانُ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَكَانَ لَكَ فِي أَحَدِهِمَا هَوَى ، فَلاَ تَتَمنَّيَنَّ فِيْ نَفْسِكَ أَنْ يَكُوْنَ الْحَقُّ لَهُ فَيُفْلِحَ عَلَى صَاحِبِه ، فَأَمْحُوكَ عَنْ نُبُوَّتِي ثُمَّ لاَ تَكُونُ خَلِيْفَتِيْ ، وَلاَكَرَامَةَ ، يَا دَاوُدُ إنَّما جَعَلْتُ رُسُلِيْ الى عِبَادِي رُعَاةً كَرُعَاةِ الإِبِلِ ، لِعِلْمِهِمْ بالرِّعَايَةِ وَرِفْقِهِمْ بالسِّيَاسَةِ لِيَجْبُرُوا الْكَسِيْرَ وَيُدَلِّهُوا الْهَزِيْلَ عَلى الْكَلاَءِ وَالْمَاءِ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤمِنْينَ إنَّكَ قَدْ بُلَيْتَ بِأَمْرٍ لَوْ عُرِضَ عَلى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ لأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهُ وَاشْفَقْنَ مِنْهُ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنْينَ حَدَّثِني يَزِيْدُ بْنُ جَابِرٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرَةَ الانْصَارِي اَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب رَضِي اللَّهُ عَنْهُ اسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنَ الانْصَارِ عَلى الصَّدَقَةِ ، فَرَآه بَعْدَ أَيَّام مُقِيْماً فَقَالَ لَهُ مَا مَنَعَكَ مِنَ الْخُرُوْجِ إلى عَمَلِكَ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ لَكَ مِثْلَ أَجْرَ الْمُجَاهِدِ في سَبِيْلِ اللَّهِ ، قَالَ لاَ ثُمَّ قَالَ وَكَيْفَ ذَلِكَ قَالَ إنَّهُ بَلَغنِي أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وسَلَّمَ قَالَ مَا مِنَ وَالٍ يَلِيْ شَيْئاً مِنْ أُمورِ النَّاسِ إلاّ أُتِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدُهُ إلى

عُنُقِهِ ، لاَ يَفُكُّهَا إلاَّ عَدْلُهُ ، فَيُوقَفُ عَلَى جِسْرٍ مِنَ النَّارِ يَنْتَفِضُ بِهِ ذَلِكَ الْجِسْرُ انْتِفَاضَةً تُزِيْلُ كُلَّ عُضْوٍ مِنْهُ عَنْ مَوْضِعِهِ ، ثُمَّ يُعَادُ فَيُحَاسَبُ ، فَانْ كَانَ مُحْسِناً نَجَا بِإِحْسَانِهِ ، وَإِنْ كَانَ مُسِيْئاً انْحَرَفَ بِهِ ذَلِكَ الْجسرُ ، فَيَهْوَى بِهِ فِي النَّارِ سَبْعَيْنَ خرِيْفاً ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِمَّنْ سَمِعْتَ قَالَ مِن أَبِيْ ذَرٍّ وَسَلْمَانَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمَا عُمَرُ فَسَأَلَهُمَا فقـالا نَعَمْ سَمِعْنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ فَقَالَ عُمَرُ واعُمَرَاهُ مَنْ يَتَوَلاَّهَا بِمَا فِيْهَا فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ سَلَتَ اللَّهُ انْفَهُ ، وَأَلْصَقَ خَدَّهُ بالأَرْضِ قَالَ فَأَخَذَ الْمِنْدِيْلَ فَوَضَعَهُ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ بَكَى وَانْتَحَبَ حَتَّى أَبْكَانِي .

ثُمَّ قُلْتُ يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ قَدْ سَأَلَ الْعَبَّاسُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِمَارَةَ مَكَّةَ أَوْ الطَّائِفَ أَوْ اليَمَنَ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ النَّبِيِّ نَفْسٌ تُحْيِيهَا خَيْرٌ مِنْ امَارَةٍ لاَ تُحْصِيهَا ، نَصِيحَةٌ مِنْهُ لِعَمِّهِ وَشَفَقَةٌ عَلَيْهِ ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لاَ يُغْنِيْ عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ ، فَقَالَ يَا عَبَّاسُ ويَا صَفِيَّةُ ويَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ إِنِّي لَسْتُ أُغْنِي عَنْكُمْ مِن اللَّهِ شَيْئاً انَّ لِيْ عَمَلِيْ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لاَ يَقْسِمُ أَمْرَ النَّاسِ إِلاَّ حَصِيْفُ الْعَقْلِ أَرِيْبُ الْعَقدْ ، لاَ يُطَّلَعُ مِنْهُ عَلَى عَوْرَةٍ ، لاَ يُخَافُ مِنْهُ عَلى حُرَّةٍ ، وَلاَ تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ ، وَقَالَ الاُمَرَاءُ أَرْبَعَةٌ فَأَمِيْرٌ قَوِيٌّ ظَلِفَ نَفْسَهُ وَعُمَّالَهُ ، فَذَلِكَ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ يَدُ اللَّهِ بَاسِطَةٌ عَلَيْهِ الرَّحْمَةِ ، وَأَمِيْرٌ فِيْهِ ضَعْفٌ ظَلَفَ نَفْسَهُ وَأَرْتَع عُمَّالَهُ لِضَعْفِهِ ، فَهُوَ على شَفَاءِ هُلاَكٍ إِلاَّ انْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ ، وَأَمِيْرٌ ظَلَفَ عُمَّالَه لِضَعْفِهِ ، فَهُوَ عَلى

شفاءِ هلاكٍ إلاّ أنْ يَرْحَمَهُ اللّٰهُ ، وَأَمِيْرٌ ظَلَفَ عُمَّالَهُ وَارْتَعَ نَفْسَهُ فَذَلِكَ الْحُطَمَةُ ، الذِّي قَالَ فِيْهِ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم شَرُ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ فَهُوَ الْهَالِكُ وَحْدَهُ ، وأمِيْرٌ أرْتَعَ نَفْسَهُ وعُمَّالَهُ فَهَلَكُوا جَمِيْعاً .

وَقَدْ بَلَغَنِي يَا امِيْرَ المُؤْمِنِينَ أَنَّ جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَتَى النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَتَيْتُكَ حِيْنَ أَمَرَ اللّهُ بِمَنافِخِ النَّارِ فَوُضِعَتْ عَلَى النَّارِ تُسَعَّرُ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فقَالَ لَهُ يا جَبْرِيْلُ صِفْ لِيْ النَّارَ فَقَالَ إنَّ اللهَ تَعَالي أمَرَ بِهَا فأوقدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أَوْقَد عَلَيْهَا ألف عَامٍ حَتَّى اصْفَرتْ ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا ألفَ عامٍ حَتَّى اسْودَتْ ، فهي سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ ، لا يُضْيءُ جَمْرُهَا ، وَلاَ يَطْفَأُ لَهَبُهَا ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لو أنَّ ثَوباً مِنْ ثِيَابِ أَهْلِ النَّارِ أُظْهِرَ لِأَهْلِ الاَرْضِ لَمَاتُوا جَمِيعاً وَلَوْ أنَّ ذَنُوباً مَنْ شَرابِها صُبَّ في مِيَاهِ الأَرْضِ جَمِيْعاً قَتَلَ مَنْ ذَاقَهُ ، وَلَوْ أنَّ ذِرَاعاً مِنَ السِّلْسِلَةِ التِّيْ ذَكَرَ اللّهُ وُضِعَ عَلَى جِبَالِ الأَرْضِ جَمِيْعاً لَذَابَتْ وَمَا اسْتَقَلَّتْ ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً أُدْخِلَ النَّارَ ثُمَّ أُخرِجَ مِنْها لمَاتَ أهْلُ الاَرْضِ مِن نَتَنِ رِيْحِهِ وَتَشْويْهِ خَلْقِهِ وَعِظامِهِ .

فَبَكَى النَّبيُّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبكَىَ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِبُكَائِهِ فقَالَ أَتَبْكِي يَا مُحَمَّدُ وَقَدْ غَفَرَ اللّهُ لَكَ مَا تَقَدَمَّ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَقَالَ أفَلاَ أَكُوْنُ عَبْداً شَكُوْراً ، وَلِمَ بَكَيْتَ يَا جِبْرِيْلُ وأنْتَ الرُّوْحُ الأَمِيْنُ أَمِيْنُ اللّهِ عَلى وَحْيِهِ .

قَالَ أخَافُ أَنْ أُبْتَلى بِمَا ابْتُلِيَ بِهِ هَارُوْتُ وَمَارُوْتُ ، فَهُوَ الَّذِيْ مَنَعَني مِنَ اتِّكَـالِي عَلَى مَنْزِلَتِي عِنْدَ رَبِّي ، فَأَكُوْنُ قَدْ أَمِنْتُ مَكْرَهُ ، فَلَمْ يَزَالاَ يَبْكِيَانِ حَتَّى نُودِيَا مِنَ السَّمَاءِ ، يَا جِبْرِيْل ، وَيَا مُحَمَّدُ إنَّ اللّهَ قَدْ

أَمْنكُمَا أَنْ تَعْصِيَاهُ ، فَيُعَذِّبكُمَا ، وَفَضْلُ مُحَمَّدٍ على سَائِرَ الأَنْبِيَاءِ كَفَضْلِ جِبْرِيل عَلَى سَائِرِ الملاَئِكَةِ .

وَقَدْ بَلَغَنِي يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ اللهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أُبَالي إِذَا قَعَدَ الْخَصْمَانِ بَيْنَ يَدَيَّ عَلَى مَنْ مَالَ الْحَقُّ مِنْ قَرِيْبٍ أَوْ بَعِيْدٍ ، فَلاَ تُمْهِلْنِيْ طَرْفَةَ عَيْنٍ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ انَّ أَشَدَّ الشِّدَّةِ الْقِيَامُ لِلَّهِ بِحَقِّهِ ، وَانَّ أَكْرَمَ الْكَرَمِ عند الله التَّقْوَى ، وإِنَّهُ من طَلَبَ العِزَّ بطاعةِ اللَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ وَأَعَزَّهُ .

وَمَنْ طَلَبَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ أَذَلَّهُ اللَّهُ ، وَوَضَعَهُ ، فَهَذِهِ نَصِيْحَتِيْ الَيْكَ والسَّلاَمُ عَلَيْكَ ، ثُمَّ نَهَضْتُ فَقَالَ لِي إِلَى أَيْنَ فَقُلْتُ إِلى الْوَلَد وَالْوَطَن ، بِإِذْنِ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَقَالَ قَدْ أَذِنْتُ لَكَ ، وَشَكَرْتُ لَكَ نَصِيْحَتِكَ ، وَقَبِلْتُهَا ، وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِلْخَيْرِ وَالْمُعِيْنُ عَلَيْهِ ، وَبِهِ أَسْتَعِيْنُ ، وَعَلَيْهِ أَتَوَكَّلُ ، وَهُوَ حَسْبِيْ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ فَلاَ تُخْلِنِيْ بِمُطَالَعَتِكَ ايَايَ ، بِمِثْلِ هَذَا فَإِنَّكَ الْمَقْبُولُ الْقَوْلَ غَيْرَ الْمُتَّهَم في النَّصِيْحَةِ ، قُلْتُ أَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ واللَّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّم .

(فَصْــلٌ)

وَلَمَّا اسْتَوْلَى الْمَلِكُ الصَّالِحُ عَلَى دِمَشْقَ اسْتَعَـانَ بِالإِنفـرَنج ، وَاصْطَلَحَ مَعَهُمْ عَلَى أَنْ يُسْعِفُوهُ ضِدَّ أَخِيْهِ ، مَلِك مِصْرَ ، وَيُعْطِيْهِم مُقَابِلَ مَعُوْنَتِهِمْ صَيْدَا وَقَلْعَةَ الشَّقِيْفِ ، وَغَيْرَهَا مِنْ حُصُوْنِ الْمُسْلِمِيْنَ .

وَدَخَلَ الصَّلِيْبِيُّونَ دِمَشْقِ ، لِشِرَاء السِّلاَحِ فَاسْتَفْظَعَ الشَّيْخُ الْعِزُّ بْنُ

عَبْدِ السَّلَامِ ذَلِكَ ، وَغُمَّ غَمًّا شَدِيْداً ، فَأَفْتَى بِتَحْرِيْمِ بَيْعِ السِّلَاحِ لِلإِفْرَنْجِ ، وَتَرَكَ الدُّعَاءَ لِلسُّلْطَانِ فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ .

وَنَدَّدَ بِخِيَانَةِ السُّلْطَانِ لِلْمُسْلِمِيْنَ ، وَكَانَ مِمَّا دَعَا بِهِ فِي خُطبَةٍ : « اللَّهُمَّ أَبْرِمْ لِهَذِهِ الأُمَّةِ أَمْرَ رُشْدٍ تُعِزُّ فِيْهِ وَلِيَّكَ ، وَتُذِلُّ بِهِ عَدُوَّكَ ، وَيُعْمَلُ فِيْهِ بِطَاعَتِكَ ، وَيُنْهَى فِيْهِ عَنْ مَعْصِيَتِكَ ، وَالنَّاسُ يُؤَمِّنُوْنَ عَلَى دُعَائِهِ ، فَبِمِثْلِ لَمْحِ الْبَرْقِ بَلَّغَ الجَوَاسِيْسُ الْمَلِكَ مَا فَعَلَهُ قَاضِي الْقُضَاةِ .

وَمَا أَكْثَرَ الْمُبَلِّغِيْنَ وَالْمُتَوَدِّدِيْنَ وَالنَّمَّامِيْنَ فِيْ كُلِّ زَمَانٍ ، وَمَكَانٍ ، فَغَضِبَ السُّلْطَانُ ، وَعَزَلَ الشَّيْخَ عَنِ الْقَضَاءِ فَرَحَلَ الشَّيْخُ عَنْ دِمَشْقَ إِلَى مِصْرَ ، وَبَيْنَمَا هُوَ فِي الطَّرِيْقِ أَرْسَلَ السُّلْطَانُ فِي أَثَرِهِ ، فَأَدْرَكَتْهُ رُسُلُ الْمَلِكِ الصَّالِحِ . وَطَلَبُوا مِنْهُ الرُّجُوْعَ ، وَقَالُوْا لَهُ إِنَّ السُّلْطَانَ عَفَا عَنْكَ وَسَيَرُدُّكَ إِلَى مَنْصِبِكَ عَلَى أَنْ تَنْكَسِرَ لَهُ وَتَعْتَذِرَ ، وَتُقَبِّلَ يَدَهُ .

فَقَالَ لَهُمُ الشَّيْخُ أَنَا مَا أَرْضَى أَنْ يُقَبِّلَ يَدِيْ ، فَضْلاً عَنْ أَنْ أُقَبِّلَ يَدَهُ ، يَا قَوْمُ أَنْتُمْ فِي وَادِي ، وَأَنَا فِي وادِي ، ثُمَّ مَضَى فِي طَرِيْقِهِ حَتَّى وَصَلَ مِصْرَ . هكذا العلماء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم.

(فَصْــلٌ)

وَلَمَّا عَلِمَ مُنْذِرُ بْنُ سَعِيْدٍ قَاضِي الْجَمَاعَةِ بِقُرْطُبَةَ ، أَنَّ أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ النَّاصِرُ بَنَى مَدِيْنَةَ الزَّهْرَاءِ وَوَضَعَ فِيْهَا الصَّرْحَ الْمُمَرَّدَ ، وَاتَّخَذَ لِقُبَّتِهِ قَرَامِيدَ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ .

فَغَضِبَ الشَّيْخُ لِذَلِكَ ، وَتَأَلَّمَ لِهَذَا الْبَذْخِ فِي مَالِ الدَّوْلَةِ وَعَلِمَ أَنَّهُ الْمَسْؤُولُ الأَوَّلُ أَمَامَ بَدِيْعِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ ، وَأَنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْهَى

عَنْ هَذَا السَّرَفِ الْمُضِرِّ بِصَالِحِ الْمُسْلِمِيْنَ .

فَجَاءَ إلى النَّاصِرِ وَقَبَّحَ عَمَلَهُ هَذَا وَأَنَّبَهُ بِقَوْلِهِ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَخْزَاهُ اللَّهُ بَلَغَ بِكَ هَذَا الْمَبْلَغَ ، وَلاَ أَنْ تُمَكِّنَهُ مِنْ قِيَادِكَ هَذَا التَّمْكِيْنَ حَتَّى أَنْزَلَكَ اللَّهُ مَنَازِلَ الْكَافِرِيْنَ مَعَ مَا آتاكَ اللَّهُ وَفَضَّلَكَ عَلى الْعَالَمِيْنَ .

فاقشَعَرَّ عَبْدُ الرَّحْمَن النَاصِرِ مِنْ قَوْلِ الشَّيْخِ وَقالَ لَهُ أُنْظُرْ مَاذَا تَقُولَ كيفَ أَنْزَلَنِي مَنَازِلَهُمْ قَالَ نَعَمْ أَلَيْسَ اللهُ تَعَالى يَقُول ﴿ وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَاسُ أُمَّةً واحِدةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمنِ لِبُيوتِهِم سُقُفاً مِن فِضةٍ وَمَعَارِجَ عَليْهَا يَظْهَرُونَ ، وَلِبُيُوتِهِمْ أبواباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَكِئُوْنَ وَزُخْرفاً ، وإنْ كُلَ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنيا والآخِرَةُ عِنْدَ رَبِكَ لِلْمُتَقِينَ ﴾

فَسَكَتَ الناصِرُ وَنَكَّسَ رَأْسَه سَاعةً ، واغْرَورَقَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْبُكاءِ وصارَتْ دُمُوعُهُ تَجْرِي عَلَى خَدَّيْهِ وَلِحْيَتِهِ ، خَوْفاً مِنَ اللهِ حيثُ وَصَلَتِ المَوعِظَةُ الخالِصةُ إلَى قَلْبِهِ ، وَتَأثَّرَ تَأثُراً عَظِيْماً لِأَنَّهَا مِن قَلْبٍ إلى قَلْب .

ثم قالَ لِلشَّيخِ جَزَاكَ اللهُ عَنَّا وَعَنِ المُسْلِمِيْنَ خَيْراً ، وأَكْثَرَ فِيْنَا مِن أَمْثَالِكَ ، فالذي نَطَقَت بِهِ حَقٌ واللهِ وقامَ مِنْ مَجْلِسهِ يَلْهَجُ بالاستغفارِ ثم أَمَرَ بِنَقْصِ سَقْفِ القُبَةِ ، وأَعَادَ قَرَامِيدَهَا تُرابا .

فَتَأَمّل يا أخِي كَيْفَ أَنَّ سُلْطَانُ الدُّنْيَا والمَادَّةِ وَقَفَ خَاشِعاً أَمامَ هَذا العَالِم الذي لا تَأْخُذُهُ في اللهِ لَومةُ لائِمٍ الذي أَدَّى وَاجِبَه على الوَجْهِ الأكمل مُعْتَمِداً على فاطِرِ السمواتِ والأَرْضِ الذي ما مِن دَابَةٍ الا هُو آخِذُ بِنَاصِيَتِها وَلَو كَانَ مِن عُلَمَاءِ هذا العَصْرِ المُظْلِم لَسَمِعْتَ غَيْرَ هَذَا فَلاَ حَولَ وَلاَ قُوَةَ إلاّ باللهِ العلي العَظِيم وهو حَسْبُنَا ونِعمَ الوكيل .

وَذُكِرَ أنَّه قَدِمَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ المَنْصُورُ مَكَّةَ شَرَّفَهَا اللَّهُ حَاجاً فكانَ يَخْرُجُ مِن دارِ النَّدْوَةِ إلى الطوافِ في آخِرِ الليلِ ، يَطُوفُ وَيُصَلِّي وَلَا يُعْلَمُ بِهِ ، فإذا طَلَعَ الفَجْرُ ، رَجَعَ إلى دَارِ النَّدْوَةِ ، وَجاءَ المؤذِّنونَ فَسَلَّمُوا عَلَيه وأقِيمَتِ الصلاةُ فيصَلِي بالناسِ .

فَخَرَجَ ذاتَ لَيْلَةٍ حِيْنَ أَسْحَرَ فَبَيْنَمَا هُو يَطُوفُ إذْ سَمِعَ رَجُلاً عِنْدَ المُلْتَزَمِ وَهُوَ يقولُ ، اللهم إني أشكُو إليكَ ظُهورَ البَغْيِ والفَسَادِ في الأَرضِ ، وما يَحُولُ بَيْنَ الحَقِ وَأَهْلِهِ مِن الظُلمِ ، والطَّمَعِ ، فأسْرَعَ المَنْصُورُ في مَشْيِهِ ، حَتَّى مَلأَ مَسَامِعَهُ مِن قولِهِ وَفَهِمَ قَولَهُ كُلَّهُ .

ثم خَرَجَ فَجَلَسَ نَاحِيَةً مِنَ المسجِدِ ، وأَرْسَلَ إليهِ فَدَعَاهُ ، فأتَاهُ الرسولُ ، وقال له أجِبْ أميرَ المؤمنينَ ، فَصَلَّى ركعتينِ واسْتَلَمَ الرُكْنَ وأقْبَل مَعَ الرسولِ فَسَلَّمَ عليهِ فقال لهُ المنصورُ : مَا هَذَا الذي سَمِعْتُكَ تقولُ مِنْ ظُهورِ البَغْيِ والفَسادِ في الأَرضِ وما يَحُولُ بَيْنَ الحق وأهلِهِ مِنْ الطَّمَعِ والظُلمِ ، فواللهِ لَقَدْ حَشَوْتَ مَسَامِعِي ما أمْرَضَنِي وأقْلَقَنِي .

فقالَ يَا أَمِيْرَ المُؤمنينَ إن أَمَّنْتَنِي على نَفْسِي أنبأتُكَ بالأُمُورِ مِن أُصولِها وإلا اقْتَصَرْتُ على نَفْسِي فَفِيهَا لي شُغْلٌ شَاغِلٌ ،فقال له أَنْتَ آمِنٌ عَلَى نَفْسِكَ فقال الذي دَخَلَهُ الطمعُ حَتَّى حَالَ بَينَهُ وَبَيْنَ الحَقِ واصْلاحِ ما ظَهرَ مِن البَغْيِ والفَسادِ في الأَرضِ أَنْتَ.

فَقَال وَيْحَكَ يَدْخُلنِي الطمَعُ والصَّفْرَاءُ والبَيْضَاءُ في يَدِي والحُلْوُ والحَامِضُ في قَبْضَتِي قالَ وَهَلْ دَخَلَ أَحَداً مِنَ الطَّمَعِ مَا دَخَلَكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ إن اللهَ تعالى اسْتَرعَـاكَ أُمُورَ المُسْلمينَ وأَمْـوَالَهُم فأغْفَلْتَ أُمُورَهُم واهْتَمَمْتَ بِجَمعِ أَمْوَالِهِم .

وَجَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُم حِجَاباً مِن الجصّ ، والآجُرِ وَأَبْوَاباً مِن الحَدِيْدِ وحَجَبَةً مَعَهم السِّلاحُ ثم سَجَنتَ نَفْسَكَ فِيها عَنْهُم وَبَعَثْتَ عُمّالَكَ في جَمْعِ الأموالِ وَجِبَايَتِها .

واتَّخَذْتَ وُزَرَاءَ وأعْواناً ظَلَمَةً.إن نَسِيْتَ لم يُذَكِّرُوكَ وإنْ ذَكَرْتَ لم يُعِينُوكَ وَقَوَّيتَهُم على ظُلْمِ الناسِ بالأَمْوَالِ والكُراعِ ، والسِّلَاحِ وأَمَرْتَ بِأَنْ لَا يَدْخُلَ عليكَ مِن النَاسِ إلاَّ فُلَانٌ وفلانٌ نَفَرٌ سَمَّيتَهُم ولم تَأْمُر بإيصالِ المَظْلُومِ والمَلْهُوْفِ ولا الجَائِعِ ولا العارِي ولا الضَّعِيْفِ ولا الفقيرِ ولا أحدٌ إلا ولَهُ في هذا المالِ حَقٌّ .

فَلمَّا رَآكَ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ الذين اسْتَخْلَصْتَهُم لِنَفْسِكَ وآثَرْتَهُم عَلى رَعِيْتِكَ وأَمَرْتَهُم أنْ لَا يُحْجَبُوا عَنكَ تَجْبِي الأَمْوَال ولا تَقْسِمُهَا قالُوا هَذَا قَدْ خَانَ اللهَ فما لَنَا لا نَخُونُهُ وقد سُخِرَ لَنَا .

فائتَمرُوا على أنْ لَا يَصِلَ إليكَ مِن عِلْمِ أَخْبَار الناسِ إلاَّ ما أرادُوا وانْ لَا يَخْرُجَ لكَ عَامِلٌ فَيُخَالِفَ لَهُم أمراً إلاَّ أَقْصَوهُ حَتَّى تَسْقطَ مَنْزِلَتَه وَيَصْغُرَ قَدْرُه .

فلمَّا انْتَشَرَ ذَلِكَ عَنْكَ وَعَنهُم ، أَعْظَمَهُم الناسُ - وَهَابُوهُم وكانَ أَوَّلُ مَن صَانَعهُم عُمَّالُكَ بِالهَدَايَا والأموالِ لِيَتَقَوَّوْا بِهِم على ظُلْمِ رَعِيَّتِك .

ثم فَعَلَ ذلِكَ ذَوُوْ القُدْرَةِ والثَّرْوَةِ مِن رَعِيَّتِكَ لِيَنَالُوْا ظُلْمَ مَن دُوْنَهُم مِن الرعيةِ فامْتَلأَتْ بلادُ اللهِ بالطمعِ بَغْياً وَفَساداً وَصارَ هَؤُلَاءِ القومُ شُرَكَاءَكَ في سُلْطَانِكَ وأَنْتَ غافلٌ .

فإن جَاء مُتَظَلِّمٌ حِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدُخولِ إِلَيْكَ وإِنْ أَرَادَ رَفْعَ صَوْتِهِ أَوْ

قِصَّتِهِ إليكَ عندَ ظُهُورِكَ وَجدَكَ قد نَهَيْتَ عن ذَلِكَ ، وَقَفْتَ لِلنّاسِ رجلاً يَنْظُرُ في مَظَالِمهم ، فإن جاءَ ذَلِكَ الرجُلُ وبَلَّغَ بِطَانَتَكَ سَأَلُوا صَاحِبَ المَظَالِمِ أنْ لاَ يَرْفَعَ مَظْلَمَتَهُ وان كانَتْ لِلْمُتَظَلِّمِ بِهِ حُرْمَةٌ وإجَابَةٌ لم يُمَكِنْهُ مِمَّا يُرِيْدُ خَوْفاً مِنهم .

فَلاَ يَزَالُ المظلومُ يَخْتَلِفُ إليهِ وَيَلُوْذُ بِهِ وَيَشْكُو ، وَيَسْتَغِيْثُ وهو يدْفَعهُ وَيَعْتَلِي عليه ، فإذا جُهِدَ ، وأُخرِجَ وَظَهَرْتَ صَرَخَ بَينَ يَـدَيْكَ فَيُضْرَبُ ضَرباً مُبرِحاً ، لِيَكُونَ نَكَالاً لِغَيْرِهِ ، وأنْتَ تَنْظُرُ ، وَلاَ تُنْكِرُ وَلاَ تُغْنِي ، فما بقاءُ الإسلامِ وأهلِهِ على هذا .

وَلَقَدْ كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ وكانَتِ العَرَبُ لا يَنْتَهِيَ إليهم المَظْلُومُ إلا رُفِعَتْ ظلامَتُه إليهم ، فَيُنْصَفُ ولَقَد كان الرَّجلُ يأتِيْ مِن أقْصَى البِلادِ حَتّى يَبْلُغَ بَابَ سُلْطَانِهم ، فَيُنَادِي يا أَهْلَ الإسلامِ فَيَبْتَدِرونَهُ مَالَكَ فَيرفَعُونَ مَظْلَمَتَهُ إلى سُلْطَانِهم فَيَنْتَصِفُ .

وَلَقد كُنْتُ أُسَافِرُ إلى أَرْضِ الصِيْنِ وبها مَلِكٌ فَقَدِمْتُها مَرَّةً وَقَدْ ذَهَبَ سَمْعُ مَلِكِهِم ، فَجَعَلَ يَبْكِي فقال وُزَرَاؤُهُ مَا لَكَ تَبكِي لاَ بَكَتْ عَيْنَاكَ .

فقال أَما إني لَسْتُ أَبْكِي على المُصِيْبَةِ التي نَزَلَتْ بِي ، ولكن ابْكِيْ لِمَظْلُومٍ يَصْرَخُ بالبابِ فلا أَسْمَعُ صَوْتَهُ .

ثم قال أمَا إنْ كَانَ ذَهَبَ سَمْعِي فإنَّ بَصَرِيْ لَمْ يَذْهَبْ ، نَادُوا في الناسِ ألاَ لاَ يَلْبَسُ ثَوْباً أَحْمَرَ إلا مَظْلُوماً ، فكان يَرْكَبُ الفِيْلَ وَيَطُوفُ طَرَفي النَّهَارِ هَلْ يَرَى مَظْلُوماً فَيُنْصِفَهُ .

هذا يَا أمِيْرَ المُؤْمِنينَ مُشْرِكٌ باللهِ ، قَدْ غَلَبَتْ رَأْفَتُهُ بالمُشْرِكِينَ ، وَرِقَّتُهُ ، على شُحِّ نَفْسِهِ في مُلْكِهِ وأنْتَ مُؤْمِنٌ باللهِ ، وابنُ عَمِّ نَبِي اللهِ لا تَغْلِبُكَ رَأفتُكَ بالمُسْلمين ، ورِقَّتُكَ على شُحِّ نَفْسِكَ ، فَانكَ لَا تَجْمَعُ الأَمْوَالَ إلاّ لِوَاحِدٍ مِن ثَلاَثَةٍ .

إن قُلْتَ أَجْمَعُهَا لِوَلَدِي فَقَدْ أرَاكَ اللهُ عِبَراً في الطِّفْلِ الصَّغِيرِ يَسْقُطُ مِن بَطْنِ أُمِّهِ وَمَالَهُ على الأَرْضِ مَالٌ ، وما مِن مالٍ إلا وَدُوْنَهُ يَدٌ شَحِيْحَةٌ تَحْوِيهِ ، فَمَا يَزالُ اللهُ تعالى يَلْطُفُ بِذَلِكَ الطِفْلِ حَتّى تَعْظُمَ رغبَةَ النَاسِ إليهِ ، وَلَسْتَ الذي تُعْطِي بَلِ اللهُ يُعْطِي مَن يَشَاء .

وان قُلْتَ أَجْمَعُ لأُشَيِّدَ سُلْطَانِي فَقَدْ أَرَاكَ اللهُ عِبَراً فِيمَنْ كان قبلكَ مَا أغنَى عَنْهُم ما جَمعُوهُ مِنَ الذهَب والفضةِ ، وما أعدُّوا مِنَ الرجالِ والسلاحِ والكُراعِ وَمَا ضرُّكَ وَوَلَدَ أبيكَ ما كنتُم فيهِ مِن قِلةِ الجِدَةِ والضَّعْفِ حينَ أرادَ الله بِكمْ ما أراد .

وان قُلْتَ أَجْمَعُ لِطَلَبِ غَايَةٍ هِيَ أَجْسَم مِن الغَايَةِ التي أنتَ فِيها فَواللهِ ما فَوقَ مَا أَنْتَ فِيه إلا مَنْزِلَةٌ لا تُدْرَك إلا بالعمَلِ الصالحِ - يُرِيدُ الجَنَّةَ وَصَدَقَ رَحِمَهُ اللهُ - .

يا أميرَ المؤمنين هَلْ تُعاقِبَ مَن عَصَاكَ مِن رَعِيَتِكَ بأشَدَ مِنْ القَتْلِ قَالَ لَا قَالَ فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِالمَلِكِ الذي خوَّلَكَ ، وَمَا أنْتَ عليهِ مِن مُلْكِ الدُنيا .

وهو تعالى لَا يُعاقِبُ مَنْ عَصَاهُ بالقَتْل ، ولكنْ يُعَاقِبَ مَن عَصَاهُ بالخُلُودِ في العَذابِ الأليمِ ، وهو الذي يَرَى مِنكَ مَا عَقَدَ عليهِ قَلْبُكَ

وَأَضْمَرَتْهُ جَوارِحُكَ فَمَاذَا تَقُولُ إِذا انْتَزَعَ الْمَلِكُ الحقُ المُبين مُلْكَ الدنيا مِن يَدِكَ وَدَعَاكَ إلى الحِسَابِ هَلْ يُغْنِي عَنْكَ عندَهُ شَيءٌ مِمَّا كُنْتَ فيه مِمَّا شَحَحْتَ عليهِ مِن مُلْكِ الدنيا .

فَبَكَى المَنْصُورُ بُكَاءً شَدِيْدَاً حَتَّى نَحَبَ وارْتَفَعَ صَوْتُهُ ثُم قَالَ كَيْفَ احْتيالِي فِيْمَا خُوِّلْتُ فِيهِ ولم أَرَ مِنَ الناسِ إلاَّ خَائِناً قال يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنين عَلَيْكَ بالأئمةِ الأَعْلاَمِ المُرشَدِين قال وَمَن هُم ، قال العُلَمَاءُ قال قَدْ فَرُّوا مِنِّيْ ، قَالَ هَرَبُوا مِنْكَ مَخَافَةَ أن تَحْمِلَهُم على مَا ظَهَرَ مِن طَرِيْقَتِكَ مِن قِبَلِ عُمَّالِكَ .

ولكن افْتَحْ الأَبْوَابَ وَسَهِّل الحِجَابَ ، وانْتَصِرْ لِلْمَظْلُومِ مِن الظَّالِمِ ، وامْنَعِ المَظَالِمَ وَخُذْ الشَّيءَ مِمَّا حَلَّ وَطَابَ واقْسِمْهُ بالحَقِ والعَدلِ ، وانا ضَامِنٌ عَلَى أنَّ مَن هَرَبَ مِنْكَ أنْ يَأتِيْكَ ، فَيُعَاوِنَكَ على صَلاحِ أمْرِكَ ، وَرَعِيَّتِكَ فقالَ المَنْصُورُ اللَّهُمَّ وَفِّقْنِي أنْ أعْمَلَ بما قالَ هذا الرجلُ واقِيْمَتِ الصلاةُ فَخَرَجَ فَصَلَّى بِهِم الخ .

شعــــرا :

مــا ضَــرَّ مَــنْ رَهِــبَ المـلوكَ لَو انَّه ... رَهِــبَ الذي جَعَــلَ المُـلُوكَ مُــلُوكا

وإذا رَجَــوْتَ لِنَعْمَــةٍ أو نِقْمَــةٍ ... فــارجُ المـليكَ وحَــاذِرِ المَمْــلُوكا

وإذا دَعَــوتَ سِـوَى الإلــهِ فــإنَّمـا ... صَــيَّرتَ للــرَّحــمٰن فِيــكَ شَــريكا

آخــــر :

واللّهُ بالغَــيبِ ، والتَّقــديرِ مُنْفَــرِدٌ ... ومــا سِــوَىٰ حُكْمِــهِ غَــيٌّ وتَضْــلِيلُ

فَــلا مُعَجَّــلَ لِلْمَقْضِــيِّ آجَــلُهُ ... ولَيْــسَ لِلعــاجل المَقْضِــيِّ تَأْجِيــلُ

ثِقْ بالعَليمِ الذي يَقْضِي الأمورَ، ولا ... يَغْــرُرْكَ مــا دونَــهُ ؛ فالكُــلُّ تَعْــلِيلُ

اللهمّ توفنَا مُسلمين وألحقنَا بالصالحِينْ غَير خَزايا ولا مَفتونينَ واغفر لنَـا وَلِوالدَيْنَا ولِجميعِ المسلمينَ برحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينْ وصلّى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينْ .

شـــعراً :

زِيادةُ المرءِ في دُنياهُ نقصانُ ... ورِبحُهُ غيرَ مَحْضِ الخيرِ خُسرانُ
وكُلُ وجْدَانِ حَظٍ لا ثباتَ لَهُ ... فإن مَعْناهُ في التَّحْقِيقِ فِقْدَانُ
يـا عـامـراً لِخـرابِ الـدهـرِ مُجْتَهِـداً ... باللهِ هَـلْ لِخَـراب الـدهـرِ عُمْـرانُ
ويـا حَـريصاً على الأمـوالِ تَجْمَعُهَـا ... أَنَسَيْتَ أَنَّ سُـرورَ المـالِ أحـزانُ
رَاعِـي الفـؤادَ عن الدنيـا وزُخـرُفِهـا ... فَصَفْـوُهَـا كَـدَرٌ والوصـلُ هُجْـرانُ
وأَرْعِ سَمْعَكَ أمثالًا أفصِلُها ... كما يُفَصَّلُ ياقوتٌ ومَرْجَانُ
أَحْسِنْ إلى الناسِ تَسْتَعْبِدْ قُلوبَهُمْ ... فطال مَا إستَعْبَدَ الإنسانَ إحسانُ
يا خادمَ الجسمِ كم تَسْعَى لِخِدْمَتِهِ ... أَتَطْلُبُ الربحَ مما فيه خُسرانُ
أقبل على النفسِ وإستكْمِلْ فَضَائِلَهاَ ... فأَنْتَ بالنفسِ لا بالجسمِ إنسانُ
وإن أَسَاءَ مُسِيىء فَلْيَكُنْ لَكَ في ... عُروضِ زَلَّتِهِ عَفْوٌ وغُفرانُ
وكن على الدهرِ مِعواناً لِذِي أملٍ ... يَرجُوا نَدَاكَ فإن الحرَ مِعوانُ
وإشْدُدْ يَدَيْكَ بحبلِ اللهِ مُعْتَصِماً ... فانهُ الركنُ إن خَانَتْكَ أركَانُ
مَن يَتقِ اللهَ يُحمَد في عَواقِبِهِ ... ويَكْفِهِ شَرَّ مَن عَزُوا ومَن هَانُوا
مَن إستعَانَ بغيرِ اللهِ في طلبٍ ... فان ناصِرَهُ عَجْزٌ وخُـذْلانُ
مَن كان لِلْخَيرِ مَنَّاعاً فليسَ لَهُ ... على الحقيقةِ إخوانٌ وأَخْدَانُ
مَن جَادَ بالمالِ مَالَ الناسُ قَاطِبةً ... إليهِ والمالُ لِلإنسانِ فَتَّـــانُ
مَن سَالَم الناسَ يَسْلَم مِن غَوَائِلِهِمْ ... وعاشَ وهو قَرِيرُ العينِ جَذْلانَ
مَن كان لِلعقلِ سُلطانٌ عليه غَداَ ... وما على نفسِهِ لِلْحِرْصِ سُلْطَانُ
مَن مَدَّ طَرفاً بفَرطِ الجَهْلِ نَحْوَ هَوَى ... أَغْضَى على الحقِ يوماً وهو خَزْيَانُ
مَن إستشارَ صُروفَ الدهرِ قَامَ لَهُ ... على حقيقةِ طبعِ الدهرِ بُرْهَانُ
مَن يزرعِ الشرَ يَحصُد في عواقِبِهِ ... نَـدَامـةً ولِحَصْدِ الزَّرْعِ إِبَّـانُ
مَن إستنام إلى الأشرارِ نَامَ وفي ... قَميصِهِ مِنهُمُوا صِلٌ وثُعْبَانُ
كُنْ رَيِّـقَ البِشرِ إنَّ الحرَّ هِمَّتُهُ ... صَحِيفَةٌ وعليها البِشرُ عُنوانُ

ورافقِ الرفقَ في كُلِّ الأمورِ فَلَمْ يَنْدَمْ رفيقٌ ولم يَذْمُمْهُ إنسانُ
ولا يَغُرَّنْكَ حَظٌّ جَرَّهُ خَرَقٌ فالخُرْقُ هَدْمٌ ورِفْقُ المراءِ بُنْيَانُ
أَحْسِنْ إذا كَانَ إمكانٌ وَمَقْدِرَةٌ فلن يَدُوْمَ علَى الإحسانِ إمكانُ
فالروضُ يزْدانُ بالأنوارِ فَاغِمُهُ والحُرُّ بالعدلِ والإحسانِ يَزْدَانُ
صُنْ حُرَّ وَجْهِكَ لا تَهْتِكْ غَلَالَتَهُ فَكُلُّ حُرٍ لِحُرِّ الوَجْهِ صَوَّانُ
دَعِ التكاسُلَ في الخيراتِ تَطْلُبُهَا فَليسَ يَسْعَدُ بالخيراتِ كَسْلَانُ
لا ظِلَّ لِلمَرْءِ يَعْرَى مِن نُهىً وَتُقى وإن أَظَلَّتْهُ أوراقٌ وأفنانُ
والناسُ أعوانُ مَن وَالَتْهُ دَوْلَتُهُ وهُمْ عَليهِ إذا عَادَتْهُ أَعْوَانُ
سَحْبَانُ مِن غيرِ مالٍ بأقِلٌ حَصِرٌ وبأقِلٌ في ثَرَاءِ المالِ سَحْبانُ
لا تُوْدِعِ السِّرَّ وَشَّاءً بِهِ مَذِلًا فَمَا رَعَى غَنَماً في الدَّوِّ سِرْحَانُ
لا تَحسَبِ الناسَ طبعاً واحداً فَلَهُمْ غَرَائِزٌ لستَ تُحصِيهِنَّ أَلْوَانُ
ما كُلُّ مَاءٍ كَصَدَّاءٍ لِوارِدِهِ نَعَمْ ولا كُلُّ نَبْتٍ فهو سَعْدَانُ
لا تَخْدِشَنَّ بِمطلٍ وَجْهَ عَارِفَةٍ فالبِرُّ يَخْدِشُهُ مَطْلٌ ولَيَّانُ
لا تَسْتَشِرْ غَيْرَ نَدْبٍ حَازِمٍ يَقِظٍ قد إستَوَى عِندَهُ سِرٌّ وإعلَانُ
فَلِتَدابِيرِ فُرسانٌ إذا رَكَضُوا فيها أَبَرُّوا كما لِلْحَرْبِ فُرْسَانُ
ولِلأُمُورِ مَوَاقِيْتٌ مُقَدَّرةٌ وكُلُّ أمرٍ لهُ حَدٌّ وَمِيْزَانُ
فلا تكُنْ عَجِلًا في الأمرِ تَطْلُبُهُ فليسَ يُحْمَدُ قَبْلَ النُّضْجِ بُحْرانُ
كَفَى مِن العيشِ ما قَدْ سَدَّ مِن عَوَزٍ فَفِيْهِ لِلْحُرِ قُنْيَانٌ وغُنْيَانُ
وذُوا القَنَاعةِ راضٍ مِن مَعِيْشَتِهِ وصَاحِبُ الحِرْصِ إن أَثْرَى فَغَضْبَانُ
حَسْبُ الفَتَى عَقْلُهُ خِلًا يُعَاشِرُهُ إذا تَحَامَاهُ إخوانٌ وخِلَّانُ
هُمَا رَضِيْعَا لِبانٍ حَكْمَةٌ وتُقَى وسَاكِنَا وَطَنٍ مَالٌ وطُغْيَانُ
إذا نَبَا بِكَرِيمٍ مَوْطِنٌ فَلَهُ وَرَاءَهُ في بَسِيْطِ الأرضِ أَوْطَانُ
يا ظالماً فَرِحَاً بالعزِ سَاعَدَهُ إنْ كُنْتَ في سِنَةٍ الدهرُ يَقْظَانُ

ما إستِمْرأ الظُلْمَ لو أنصفتَ آكَلَهُ وَهَلْ يَلَذُّ مَذاقَ المرءِ خُطْبَانُ
يا أيُها العالِمُ المرضِيّ سِيرَتُهُ أبْشِرْ فأنتَ بِغيرِ الماءِ رَيّانُ
ويا أخا الجهلِ لو أصبحتِ في لُجَجٍ فأنْتَ ما بَيْنَها لا شَكَّ ضَمْآنُ
لا تَحسَبِنَّ سُرُوراً دائماً أبَداً مَن سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتهُ أزْمَانُ
يا رافلاً في الشبابِ الوَحْفِ مُنْتَشياً مِن كأسِهِ هَلْ أصابَ الرُشْدَ نُشْوَانُ
لا تَغْتَرِرْ بِشَبابٍ زَائِلٍ خَضِلٍ فَكَمْ تقَدّمْ قِبْلَ الشَيْبَ شُبَّانُ
ويأاخا الشيبِ لو ناصَحْتَ نفسَكَ لمْ يَكُنْ لِمثْلِكِ في الإسْرافِ إمْعانُ
هَبِ الشيبةَ تُبْلي عُذْرَ صَاحِبها ما عُذْرُ أشْيَبَ يَستَهْوِيهِ شَيطانُ
كُلُ الذُنُوبِ فإنَّ اللهَ يَغْفُرهَا إن شَيَّعَ المرءَ إخلاصٌ وإيمانُ
وكُلُ كَسْرٍ فإنَّ اللهُ يَجْبُرُهُ وما لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِينِ جُبْرانُ

نصيحة أبي حازم التابعي لسليمان بن عبدالملك

رُوِيَ أنه لما حَجَّ سليمانُ بنُ عبدِالملكِ ودخل المدينةَ زائراً لِقبرِ رسولِ ﷺ : ومعه إبنُ شِهاب الزُهري وَرجاءُ بنُ حَيْوة ، فأقامَ بها ثلاثةَ أيام ، فَقال : أمَا هَاهُنا رجلٌ ممَّن أدركَ أصحابَ رسولِ الله ﷺ ؟ فَقِيلَ له : بَلىَ . هَاهُنَا رَجُلٌ يُقالُ له أبو حازمٍ .

فبعثَ إليه فجاءه وهو أقورُ أعرجُ ، فوقفَ مُنْتَظِراً للإذن ، فَلَمَّا طَالَ عليه الإذنُ وَضَعَ عُصَيَّتَهُ ثم جَلَسَ فَلَمَّا نَظَرَ إليه سُليمانُ إزْدَرَتْهُ عَيْنُهُ ، فقال له : يا أبَا حَازمٍ : ما هذا الجَفاءُ الذي ظَهَرَ مِنكَ وأنتَ تُوصفُ بِرُؤْيةِ أصحاب رسول الله ﷺ مع فَضْلٍ ودِيْنٍ تُذْكَرُ به .

فقال أبو حازم : وأيُّ جَفَاءٍ رَأَيتَ مِنِّي يا أمِيرَ المؤمنين ؟ فقال سُليمانُ : إنه أتاني وُجُوهُ أهلِ المدينةِ وعُلَماؤُها وخِيارُها ، وأنتَ مَعْدُودٌ فيهم ولم تأتِني . فقال أبو حازمٍ : أُعِيذُكَ بالله أن تَقُولَ ما لم يَكُنْ ما جَرى بَيني وبَينكَ مَعْرِفَةٌ آتِيكَ عليها .

قال سُليمانَ : صَدَقَ الشيخُ فقال : يا أبا حازمٍ ما لنَا نَكْرَهُ الموتَ ؟ فقال أبو حازم : لِأنكُمُ أخْرَبْتُمُ آخَرتكمُ ، وعَمَرْتُم دُنياكُم ، فأنتُم تَكْرَهُونَ النّقْلَةَ مِن العُمران إلى الخَراب !

قال سُليمانُ : صَدَقْتَ يا أبا حازم ؛ فكيفَ القُدُوْمُ على الآخِرةِ ؟ قال : نَعَمْ : أما المحسنُ فإنهُ يَقْدمُ على الآخرة كالغائبَ يَقْدمُ على أهلِهِ مِن سَفَرٍ بَعِيد .

وأما قُدُومُ المسيىءِ فكالعبدِ الآبقِ يؤخذُ فَيُشَدُّ كِتَافُهُ ، فَيُؤتَى بِهِ إلى سَيِّد فَظِ غَلِيظٍ ، فإن شَاءَ عَفَـا وإن شاءَ عَذّبَ ! فَبكَى سُليمانُ بكـاءً شديداً ، وبكَى مَن حَولَه .

ثم قال : ليتَ شِعْري ما لنا عندَ الله ياأبا حازمٍ ؟ فقال : إعرضْ نفسَكَ على كتابِ الله ، فإنكَ تَعْلَمُ ما لكَ عندَ الله . قال سليمانُ : يا أبا حازمٍ وأَيْنَ أُصيبُ تِلْكَ المعرفَة في كِتابِ الله ؟ قال عندَ قوله تعالى ؛ ﴿ إنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ .

قال سليمانُ : يا أبا حازمٍ : فأينَ رَحْمَةُ الله ؟ قال « إن رحمَةَ الله قَريبٌ مِن المحسنين » قال سليمانُ : يا أبا حازمٍ : مَن أعقلُ الناسِ ؟ قال أبو حازمٍ : أعقلُ الناسِ مَن تَعَلَّمَ العِلمَ والحكمةَ وعَلَّمَهَا الناسِ .

قال سليمانُ : فَمَن أحْمَقُ الناسِ ؟ فقال : مَنْ حَطّ في هَوَى رَجُلٍ وهو ظَالمٌ فباعَ آخرتَه بدُنيَا غَيْرِهُ ! قال سُلَيمانُ : فما أسْمَعَ الدُّعاء ؟ قال أبوُ حازمٍ : دُعَاءَ الْمُخْبِتِين الخائفِين .

فقال سليمانُ : فما أَزْكَى الصدقة عند الله ؟ قال : جُهْدُ الْمُقِل . قال : فما تقولُ فيما إبتُلِينا به ؟ قال : قال : إعْفِنا عَن هذا وعن الكلامِ فيه أصْلحَكَ الله . قال سليمانُ . نصيحةٍ تُلْقِيْهَا .

فقال : ما أقولُ في سُلْطانٍ إسْتَوْلىَ عَنْوةً بلا مَشُوْرَةٍ مِن المُؤمنين ولا إجتماعٍ مِن المسلمين ، فَسُفَكَتِ فيه الدِماءُ الحرامُ ، وقُطِعَتْ به الأرحامُ ، وعُطِّلتْ به الحدود ، ونُكِثَتْ به العُهود ، وكُلُ ذلكَ على تَنفيذِ الطِّينة ، والجمعِ وماذا يقالُ لَكُم ! .

فقال بعضُ جُلَسائِهِ : بِئْسَ ما قُلْتَ يا أَقْوَرُ ! ! أميرُ المؤمنين يُسْتَقْبلُ بهذا ؟ فقال أبو حازمٍ : أَسْكُتْ يا كاذِبُ ، فإنما أهلكَ فِرعونَ هامانُ . وهامانُ فرعونَ ! إن الله قد أخذَ على العلماء لَيُبَيِّنُنَّه للناسِ ولا يكتمونه ، أي لا يَنْبذُونَهُ وراءَ ظهورهم .

قال سليمانُ : يا أبـا حازمٍ : كَيْفَ لَنـاَ أن نُصْلحَ مَا فَسَدَ مِنَّا ؟ فقال : المأخذُ في ذلكَ قريبُ يَسِيْرٍ يا أميرَ المؤمنين . فاستوى سليمانُ جالساً من إتكائه فقال : كَيفَ ذلَكَ ؟ فقال : تَأخذْ المالَ مِن حِلِّهِ ، وتَضَعُهُ في أَهِلِهِ ، وتَكُفَ الأَكُفَّ عَمَّا نُهيَتْ عنه وتُمْضِيْهَا فيما أُمِرْتَ به .

قال سليمانُ : ومَن يطيقُ ذلك ، فقال أبو حازم : مَن هَرَبَ مِن النارِ إلى الجنة ، ونَبَذَ سُوءَ العادةِ إلى خَيْرَ العبادةِ ، فقال سليمانُ : إصْحَبْنا يا أبا حازمٍ ، وتَوَجَّهْ مَعَنا تُصِبْ مِنا ونُصِبْ منكَ . قال أبو حازمٍ : أعوذُ بالله مِن ذلكَ ! .

قال سليمانُ : ولِمَ يا أبا حازمٍ ؟ قال : أخافُ أن أَرْكَنَ إلى الذينَ ظَلَمُوا فَيُذْيِقَنِي الله ضِعْفَ الحياةِ وضِعْفَ المماتِ . فقال سُليمانُ : فَتَزُوْرنَا ؟

قال أبو حازمٍ : إنا عَهِدْنا الملوكَ يأتون إلى العلماءِ ، ولم يَكُن العلماءُ يأتونَ الملوكَ ، فصارَ في ذلكَ صلاحُ الفريقَين ، ثم صِرْنا الآنَ في زَمَانٍ العلماءُ يأتونَ الملوكَ ، والملوكُ تَقْعُدُ عنِ العلماءِ ، فصارَ ذلكَ فَسَادُ الفريقين جميعاً .

قال سليمانُ : فأوْصنا يا أبا حازمٍ وَأَوْجِزْ . قال إتَّقِ الله أن لا يَراكَ حَيْثُ نَهاكَ ، ولا يَفْقِدكَ حَيْثُ أَمَرَكَ . قال سليمانُ : إدْعُ لنا بخير . فقال أبو حازم : اللهُمَّ ان كَانَ سُلَيمانُ وَلِيَّلَا لك فَبَشّرْهُ بِخَيرِ الدنيا والآخرةِ ، وإن كان عَدُوَّكَ فَخُذْ إلى الخيرِ بناصيتِه .

قال سليمانُ : زِدْنَي . قال : قَدْ أوجَزْتُ ، فإن كُنْتَ وَلِيَّه فَاغْتَبطْ ، وإن كُنْتَ عَدُوَّهُ فإتَّعِظْ ، فَإن رَحْمَته في الدنيا مُباحَةٌ ولا يكْتُبُهاَ في الآخرة إلا لِمَنَ إتقّىَ في الدنيا ؛ فلا نَفْعَ في قَوْسٍ يُرْمَى بِلا وَتَرٍ .

فقال سليمانُ : هاتِ يا غلامُ ألفَ دِينارٍ . فأتاه بها ، فقال خُذْهَا يا أبا حازمٍ . فقال : لا حَاجَةَ لي بها ، لأني وغَيْرَي في هذا المالِ سَوَاء ، فإنْ سَوَّيْتَ بيننا وعَدلْتَ ، أَخَذْتُ ، وإلا فَلا .

لِأني أَخافَ أن يَكُونَ ثمناً لِما سَمِعْتَ مِن كَلَامِي ، وإن مُوسىَ بنَ عمران عليه السلامِ لما هَرَبَ مِن فرعونَ وَرَدَ ماءَ مدْينَ وَجَدَ عليه الجاريتين تَذُودانِ ، فقال : ما لَكُما مُعْينَ ؟ قَالَتاَ : لاَ ، فَسَقىَ لَهُماَ ثم تَوَلّى إلى الظّلِ فقال : « ربِّ إني لِمَاَ أنزلتَ إَلَيَّ مِن خَيرٍ فَقِير» ولم يَسأَلَ أجراً .

فلما أعْجَل بالجاريتين الانْصِراف أنكَرَ ذلكَ أبوهماَ ، فقال لهُما : ما أَعْجَلكُما اليومَ ؟ قالتا : وجَدْنَا رَجُلاً صَالحِاً قَوياً سَقى لَنَا . قال : ما سِمْعُتمَاهُ يقولُ ؟ قالتا : تولّى إلى الظّلِ وهو يقولُ : « ربِّ إني لما أنزلتَ إليَّ مِن خيرٍ فقير» .

فقال : يَنْبَغِي لِهذَا أن يكونَ جَائِعاً . تَنْطلِقْ إحْدَاكما له ، فتقول له : إن أبي يدعوكَ لِيَجزيكَ أجْرَ ما سقيتَ لنا ، فأتَتْهُ إحداهما تمشي على إستحياءٍ قَالَتْ : إن أبي يدعوكَ ليجزيكَ أَجْرَ مَا سقيتَ لنا .

فَجَزِعَ مُوسى مِن ذلك وكان طريداً في الفَيافي والصَّحارِي ، فقال

لها : قُوْلي لِأبيكِ إن الذي سَقىَ يقولُ لا أُقْبَلُ أجْراً على مَعْرُوفٍ إصِطَنَعْتُهُ .

فانْصَرَفَتْ إلى أبيها فأخْبَرَتْهُ ، فقال إذهَبي فَقُولي له : أنْتَ بالخيارَ بين قَبُولِ ما يَعْرِضُ عليكَ أبي وبَينَ تَرْكِهِ ، فأقْبلْ فإنه يحُبُ أن يَراكَ ويَسْمَعَ مِنكَ . فأقبلَ والجاريةُ بينَ يَدَيْهِ ، فَهَبّتِ الرِّيْحُ ، فوصفَتْهاَ لهُ وكَانتْ ذات خلْقٍ كاملٍ : فقال لها كُوْني وَرائي وأرْيني سَمْتَ الطريق .

فلما بَلَغَ البابَ قال : إسْتَاذني لنا . فَدَخَلَتْ على أبيها ، فقالَتْ : إنه مَعَ قُوَّتِهِ لَأمِينَ ، فقال شُعَيْبُ : وبِمَ عَرَفْت ذَلِكَ ؟ فأخْبرَتْهُ ما كانَ مِن قَولهِ عِندَ هُبوُبِ الريحِ عليها .

فقـال أدْخِليهِ ، فدَخَل فإذا شُعَيْبُ قد وضعَ الطعَام ، فلما سَلَّمَ رَحّبَ به وقال : أصِبْ مِن طَعَامِنا يا فَتَى . فقال مُوسىَ : أعوذُ باللهِ . قال شُعَيبُ : لِمَ ؟ قال : لِأني مِن بيتٍ لا نَبيْعُ دِيننا بملءِ الأرِضِ ذَهَبا .

قال شُعَيْبُ : لا واللهِ ما طَعَـامِي كما تَظُنُّ ولكنـه عَادَتي وعـادة آبائي : نَقْري الضيفَ ، ونُطْعِمُ الطعام ؛ فَجَلَس موسى فأكَلَ . وهَذِهِ الدنانيرُ يا أميرَ المؤمنينَ إن كانتْ ثمناً لِما سِمعْتَ مِن كلامي فَلَئِنْ أكْلَ الميتةِ والدمِ في حالِ الضرورةِ أحَبُّ أليَّ مِن أنْ آخُذَهَا .

فأُعْجبَ سليمانُ بأمْرِه عُجْباً شَدِيْداً . فقال بعض جَلسائِهِ : يا أميرَ المؤمنين . إن الناسَ كُلّهُم مِثْلَهُ ، قال : لا . قال الزهري : إنه لَجَارِي مُنْذُ ثلاثِينَ سَنَةَ ما كَلّمْتُه قطُ .

فقال أبوُ حازم : صَدَقْتَ لأنكَ نِسيْتَ الله فَنَسِيْتَنِي ولو ذَكَرْتَ الله لَذَكَـرْتَني . قال الزهريُ : أَتَشْتُمني ؟ قال له سليمانُ : بَل أنْتَ شَتَمْت نَفْسَكَ ، أو ما عَلِمْتَ أن لِلجار على الجار حقاً ؟

قال أبو حازمٍ إنَّ بَني إسرائيلَ لَما كَانُوا على الصواب كانت الأمراءُ تحتاجُ إلى العلماء ، وكانتِ العلماءُ تفرُّ بِدينها مِن الأمَراء .

فلمّا رَئَى قَوم من أراذل النـاس تعلمـوا العلم وَأَتَـوا به الأمـراءَ ، إسْتَغْنَت الأُمراءُ عن العلماءِ وإجتمعَ القومُ على المعصيةِ ، فَسَقَطُوا وهَلَكُوا .

ولـو كان علماؤنـا هؤلآءِ يَصُـونُـونَ عِلْمَهُم لكَـانَتِ الأمراءُ تَهَابُهم وتُعَظِّمُهُم . فقال الزهري : كَأَنَّك إِيَّايَ تُرْيدُ وبِيْ تُعَرِّضُ ؟ قال : هو ما تَسْمعُ .

قال سليمانُ : يا أبا حازمٍ ، عِظْني وَأَوْجزْ : قَال : الدنيا حَلاَلُها حِسابٌ ، وحرامُها عَذَابٌ ، وإلى الله المَآبُ ؛ عَذَابَكَ أَوْ دَعْ .

قال : لَقد أَوْجَزْتَ فأخبرني مَا مَالُكَ ؟ قال الثقةُ بعَدْلِهِ ، والتوكلُ على كَرَمِهِ وحسْنُ الظَّنّ بِهِ ، والصبرُ إلى أَجَلِهِ ، واليأسُ مما في أيدي الناس .

قال : يا أبا حازمٍ : إرفعْ إلينا حَوائجَكَ . قال : رَفَعْتُهَا إلى مَن لا تُخذل دُوْنَهُ ، فَمَا أعطاني منها قَبْلتُ ، وما أَمْسك عني رضيْتُ .

مَعَ أني قد نظرتُ فَوَجَدْتُ أَمْرَ الدنيا يؤولُ إلى شَيْئَينِ ، أَحَدِهما لي والآخر لِغيري ؛ فأمَّا ما كَانَ لِي فَلَو إحْتَلْتُ عليه بِكُلّ حِيْلَةٍ ما وصَلْتُ إليهِ قَبلَ أوانِهِ وحِيْنهِ الذي قُدِّر لِي .

وأما الذي لِغيري فذَلكَ لا أطْمَعُ فيه ، فكما مَنَعَني رزْقَ غيري ، كذلكَ مَنَعَ غيري رِزْقي ، فعلامَ أَقْتُلُ نَفْسِي في الإقبال وَالإدبار !

قال سليمانُ : لابُـدَّ أن تَرْفَـع إلينـا حَاجَةَ نأمرُ بقَضَائِها . قال : فَتَقْضِيْهَا ؟ قال : نَعَمْ . قال : فلا تُعْطِني شيئاً حَتَّى أَسْأَلُكه ، ولا ترسلْ

إليَّ حتى أتِيكَ ، وإن مرضتُ فلا تَعُدْني ، وإن مِتّ فلا تَشْهَدْني . قال سليمانُ : أبَيْتَ يا أبا حازمٍ . قال : أتأذنُ لي أصْلَحَكَ الله في القِيام ، فإني شيخٌ قد زَمِنْتُ .

قال سليمانُ : يا أبا حازمٍ : مَسْألَة ما تَقُولُ فيها ؟ قال : إن كان عِندي عِلْمُ أَخْبرتُكَ به ، وإلا فهذا الذي عن يَسارِكَ يزعُمُ أنه لَيسَ شيءٌ يُسْألُ عنه إلا وعندهُ عِلْمٌ (يريد الزهري) فقال له الزهريعَائِذاًبالله من شَرّكَ أيّها المرء ! قال : أما مِن شَري فقد عُفيْتَ ، وأما مِن لِساني فلا .

قال سليمانُ : ما تقولُ في سلامِ الأئمةِ مِن صلاتِهم : أواحدةٌ أَمِ إثنتانِ ؟ فإن العلماءَ لَدَينا قد إختلَفواَ علينا في ذلك أَشَدَّ الاختلافِ . قال : على الخبيرِ سَقَطْتَ ؛ أُرسيْكَ في هذا بخَبرٍ شَافٍ .

حَدَّثَني عامرُ بنُ سَعْدِ بن أبي وقاص عن أبيه سعدٍ أنه شَهدَ رسولَ الله ﷺ يسلَم في الصلاة عن يمينِهِ حَتَّى يُرَى بَياضُ خدِهِ الأيمن ثم يسلم عن يساره حتى يُرَى بياضُ خدِه الأيسر ، سلاما يجهِر به . قال عامر : وكان أبي يَفْعَلُ ذلكَ .

وأخْبرني سهلُ بنُ سعدٍ الساعِدي أنه رَأى عُمَرَ ابنَ الخطاب وإبنَ عُمَرَ يُسَلّمَان من الصلاةِ كذلك . فقال الزهري : إعْلَمْ ما تُحَدّثُ به أيّها الرَّجُلُ ، فإنَ الحَديث عنَ رسولِ الله صَعْبٌ شديدٌ إلا بالتثبيتِ واليقينِ .

قال أبو حازمٍ : قد عَلِمْتُه ورَوَيْتُه قبلَ أن تَطْلعَ أضْراسُكَ في رَإسِكَ . فالتَفَتَ الزُّهْرِيُ إلى سليمانُ ، قال : أصلحك الله ، إن هذا الحديثَ ما سمِعْتُ به مِن حديثِ رسولِ الله ﷺ قَطُّ ، فَضَحَكَ أبوُ حَازمٍ .

ثم قال : يا زُهْري أَحَطْتَ بحَدِيثِ رسولَ الله كُلِّهِ ؟ قال لا . قال :

فَثَلاَثَةُ أرباعِهِ ؟ قال : لا . قالَ فَثُلُثُهُ ؟ فقال أراني ذَلكَ ، قَدْ رَوَيْتُ وَبَلَغَنِي .

فقال أبو حازمٍ : فهذا مِن الثُلُثِ الذي لم يَبْلُغُكَ وبقى عليك إسماعُهُ . فقال سليمانُ : ما ظَلَمَكَ مَن حاجَّكَ . ثم قامَ مأذوناً لَهُ . فأتْبَعَهُ سليمانُ بَصرَهُ ، ينْظُر إليهِ وَيُعْجَبُ به .

ثم إلتفتَ إلىَ جُلَسَائِهِ فقال : ما كُنْتُ أظنُّ أنه بَقِي في الدنيا مِثْلَ هذا . والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم . .

نَصِيْحَةُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيْ لِهَرُوْنَ الرَّشِيْد

مِن عَبْدِاللَّهِ هَارُوْنَ أَمِيرِ المُؤمِنِينَ ، إلى أخيهِ في اللَّهِ سُفيانَ ابنِ سعيدٍ الثَّورِي .

أما بَعدُ يا أخي ، فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ آخَى بَيْنَ المُؤْمنِينَ ، وَقَد آخَيْتُكَ في اللَّهِ مُؤآخاةً لم أصرِمْ فِيهَا حَبْلَكَ ، ولم أَقْطَعْ منها وِدَّكَ ، وإني مُنْطَوٍ لَكَ على أَفْضَلِ المَحَبَّةِ ، وأَتَمِّ الإرَادَةِ .

ولولاَ هَذهِ القِلاَدَةِ الَّتِي قَلَّدنيْهَا اللَّهُ تعالى لأَتَيْتُكَ ولو حَبْواً ، لما أجدُ لَكَ في قَلْبِي مِن المَحَبَّةِ ، وَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ أحدٌ مِن إخواني إلاَّ زَارَنِي وهَنأَنِي بِما صِرْتُ إليهِ .

وقد فَتَحْتُ بُيُوْتَ الأَمْوَالِ ، وأَعْطَيْتُهُم مِن المَوَاهِبِ السَّنِيةِ ، ما فَرِحَتْ بِهِ نَفْسِي وَقَرَّتْ بِهِ عَيْنِي وَقَدْ اسْتَبْطَأتُكَ ، وقد كَتَبْتُ كِتَاباً مِني إليكَ أُعْلِمُكَ بالشوقِ الشَّدِيْدِ إليكَ .

وقد عَلِمْتَ يا أَبا عَبدِ اللَّهِ ما جَاءَ في فَضْل زيارَةِ المؤمنِ وَمُواصَلَتِهِ فَاذا وَرَدَ عَلَيْكَ كِتابي هذا فالعَجَل العَجَلَ .

ثم أَعْطَى الكِتَابَ لِعَبَّادِ الطالقاني وأَمَرَه بايْصَالِهِ إلَيْهِ . وأَنْ يُحْصِى عليهِ بِسَمْعِهِ وَقَلْبِهِ دَقِيْقَ أَمْرِهِ وَجَلِيْلَهُ لِيُخْبِرَهُ بِهِ . قال عَبّادُ : فانطلَقْتُ إلى الكُوفَةِ فَوَجَدْتُ سُفيانَ في مَسْجِدِهِ ، فلما رآني على بُعْدٍ قَامَ وقالَ : أعُوذُ باللَّهِ السَّمِيْعِ العَلِيمِ مِن الشيطَانِ الرجيم ، وأعوذُ بكَ اللَّهُم مِن طارِقٍ يَطْرُقُ إلا بخيرٍ .

قال : فَنَزَلتُ عن فَرَسِي بباب المسجدِ ، فقامَ يُصَلي وَلَمْ يَكُن وَقتَ صَلاة : فَدَخَلْتُ وَسَلَّمْتُ فَمَا رَفَع أَحَدٌ مِن جُلَسَائِهِ رأسَه إليَّ ، قالَ : فَبَقِيْتُ وَاقِفاً وَمَا مِنْهم أَحَدٌ يَعْرِضُ عَلَيَّ الجُلُوسَ ، وَقَدْ عَلَتْني مِن هَيْبَتِهم الرِّعْدَةُ ، فَرَمَيتُ بالكِتَابِ إليهِ .

فلمَّا رأَى الكِتَابَ إرتَعَدَ وَتَبَاعَدَ مِنْه كأنَّه حَيَّةٌ عَرَضَتْ لَهُ في مِحْرَابِهِ فَرَكَعَ وَسَجَدَ وَسَلَّمَ وأدْخَلَ يَدَهُ في كُمِّهِ وأخَذَهُ وَقَلَبَهُ بيدِه ، ورماهُ إلى مَنْ كان خَلفَهُ ، وقال : لِيَقْرَأْهُ بَعْضُكُم فإني أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ أَنْ أَمس شَيْئاً مَسَّهُ ظَالِمٌ بيَدِهِ .

قال عَبادُ : فَمَدّ بَعْضهم يَدَهُ إليهِ وَهُوَ يَرْتَعِدُ كَأَنَّهُ حَيَّةٌ تَنْهَشُهُ ثم قَرأَهُ فَجَعَل سُفْيَانُ يَبْتَسِمُ تَبَسُّمَ المُتَعجب ، فَلَمَّا فَرَغَ مِن قِرَاءَتِهِ ، قال أقْلِبُوهُ وأكْتبُوا لِلظَّالِمِ على ظَهْرِهِ ، فَقِيلَ له يا أَبا عَبْدِ اللَّهِ إِنَّهُ خَلِيفَةٌ فَلَو كَتَبْتَ إليهِ في بَياضٍ نَقي لَكَانَ أَحْسَنَ .

فقال : اكتبوا لِلظَّالِمِ في ظَهْرِ كِتَابِهِ ، فإنْ كَانَ اكْتَسبَه مِن حَلَالٍ فَسَوْفَ يُجْزَى بِهِ وإن كانَ اكتسَبَهُ مِن حَرَامٍ فَسَوْفَ يُصْلَى بهِ ولا يَبْقَى شَيْءٌ مَسَّهُ ظَالمٌ بِيَدِهِ عِنْدَنا ، فَيُفْسِدُ عَلَيْنا دِيْنَنا ، فَقِيل له ما نَكْتُبُ إليهِ ، قال : اكْتُبُوا لَهُ :

بسم الله الرحمن الرحيم

مِنَ العَبْدِ المَيِّتِ سُفْيَانُ إلى العبدِ المَغْرُوْرِ بالآمالِ هارونِ الذي سلِبَ حلاوةَ الايمانِ ، وَلذّةِ قِراءةِ القرآن .

أمـا بعـدُ . . فإني كَتَبْتُ إليكَ أُعْلِمُـكَ أني قَدْ صَرَمْتُ حَبْلَكَ ، وَقَطَعْتَ وُدَّكَ ، وأنكَ قَدْ جَعَلْتَنيْ شَاهداً بإقرَارِكَ عَلى نَفْسِكَ في كتابكَ بما هَجَمْتَ عَلَى بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِـينَ فَأَنْفَقْتَـهُ في غَيرِ حَقِّـهِ ، وأنْفَـذْتَهُ بِغَيْرِ حُكْمِهِ ، وَلَمْ تَرْضَ بِمَا فَعَلْتَ وَأَنْتَ نَاءٍ عِني حَتى كَتَبْتَ إليَّ تُشهِدُني على نَفْسِكَ .

فَأَمَّـا أنا فإني قد شَهِدْتُ عَلَيْكَ أنا وَإِخْوَانُكَ الذينَ حَضَرَوْا قِرَاءَةَ كِتَـابك ، وَسَنُؤَدي الشهادَةَ غَداً بَيْنَ يَدَي اللَّهِ الحَكَمِ العدلِ يا هارُوْنُ هَجَمْتَ على بَيْتِ مالِ المُسْلِمينْ بغيرِ رِضاهُم .

هَلْ رَضِيَ بِفِعْلِكَ المُؤَلَّفةُ قُلوبُهم ، والعَامِلُونَ عَلَيْهَا في أَرضِ اللَّهُ ، والمُجَاهِدُوْنَ في سَبْيلِ الله وابنُ السبيلِ ، أمْ رَضِيَ بِذَلِكَ حَمَلَةُ القُرْآنِ وأَهْلُ العِلْمِ يَعْني العَامِلِينْ ، أمْ رِضِيَ بِفِعْلِكَ الأَيْتَام والآرامِلُ ، أم رَضِيَ بِذَلِكَ خَلْقٌ مِن رَعيّتِكَ .

فَشُدَّ يَا هَارُوْنُ مِئْزَرَكَ ، وأَعِدَّ لِلْمَسْأَلَةِ جَواباً وَلِلْبَلاَءِ جِلْبَاباً ، واعْلمْ أنّكَ سَتَقِفُ بَيْنَ يَدَيِ الحَكم العدلِ فاتقّ اللَّهَ في نَفْسِكَ اذْ سُلِبْتَ حَلاَوَةَ العِلْمَ والزُهْدِ وَلَذَّةِ قِراءةِ القُرْآنِ ، وَمُجَالَسَةَ الأَخْيَارِ ، وَرَضِيْتَ لِنَفْسِكَ أن تكونَ ظالماً وَلِلْظَّالِمينَ إماماً .

يا هَارُوْنُ . . قَعَدْتَ على السَّرِيْرِ ، وَلَبِسْتَ الحَرِيْرَ ، وأَسْبَلْتَ سُتُوراً دُونَ بَابِـك ، وَتَشَبَّهتَ بالحَجَبَـةِ بِرَبِّ العـالمينَ ثم أَقْعَدْتَ أَجْنَادَكَ دُوْنَ بَابِـكَ ، وَسِـتْرَكَ يَظْلِمُـونَ الناسَ ولا يُنْصِفونَ ، وَيَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَحُدُّونَ

الشَّارِبَ ، وَيَزْنُونَ وَيَحُدُّونَ الزانِيَ ، وَيَسْرِقُونَ وَيَقْطَعُون السَّارِقَ ، وَيَقْتُلُوْنَ وَيَحُدُّون القاتل .

أفلاَ كَانَتْ هَذِهِ الأَحْكَامُ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِم قَبْلَ أَن يَحْكمُوا بها على الناسِ .

فكيفَ بكَ يا هَارُوْنُ غَدَا إذا نَادَى الْمُنَـادِي مِن قِبَلِ اللَّهِ أُحْشَرُوْا الظَّلَمَةَ وَأَعْوانَهُم ، فَتَقَدّمتَ بَيْنَ يَدَى اللَّهِ ويَداكَ مَغْلُولَتَانِ إِلَى عُنُقِكَ لاَ يَفُكَهُمَا إلا عَدْلُكُ وإنصَافُكَ ، والظالِمُونَ حَوْلَكَ وأَنْتَ لَهُمْ إمَامٌ أو سَائِقٌ إلى النارِ .

وكَأَني بكَ يَا هَارُوْنَ وَقَدْ أُخِذتَ بضيق الخِنَاقِ ، وَوَرَدْتَ الْمَسَاقَ وَأَنتَ تَرَى حَسَناتَكَ في مِيزَانِ غيرِكَ ، وَسَيّئاتِ غيرِكَ في مِيْزَانِكَ على سَيئآتِك ، بلاءٌ على بَلاَءٍ ، وَظُلْمَةٌ فوقَ ظُلْمَةٍ .

فاتّقِ اللَّهَ يا هارُوْنُ في رَعِيَّتِكَ ، واحْفَظْ مُحَمَّداً ﷺ في أمتِّه ، واعْلَمْ أنَّ هَذَا الأَمر لم يَصِرْ إِلَيْكَ إِلَّا وَهُوَ صَائِرٌ إلى غَيرِكَ ، وَكَذَلِكَ الدُنْيَا تَفْعَلُ بأَهْلِهَا وَاحِداً بَعْدَ واحِدٍ ، فَمِنْهم مَن تَزَوَّدَ زَاداً نَفَعَهُ ، وَمِنْهُم مَن خَسِرَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَه ، وإيَّاكَ ثمَّ إِيَّاكَ أنْ تَكْتُبَ إِليَّ بَعْدَ هَذا ، فَإِنّي لا أُجِيْبُكَ والسَّلام .

وَلما وَلِيَ ابْنُ هُبَيْرَةَ حُكْمَ الْعِراق جَمَعَ فُقَهَاءَهَا وَاسْتَشَارَهُمْ فِيمَا يَفْعَلُ إِذَا أَمَرَهُ أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ بِالاَمْرِ وَهُوَ يَعْتَقِدُ أنَّ فِيْهِ ظُلْماً فَالآنَ لَهُ بَعْضُ العُلَمَاءِ الْقَوْلَ .

وأبى الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَّا أَن يَصْدَعَ بالْحَقِّ وَيُنْقِذَ الشَّعْبَ مِنْ ظُلْم ابن هُبَيْرَةَ وَيُنْقِذَ ابْنَ هُبَيْرَةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ انْ أَطَاعَهُ فَقَالَ لَهُ إِنَّ حَقَّ الرَّعِيَّةِ لاَزِمٌ لَكَ وَحَقُّ عَلَيْكَ أَنْ تَحُوطَهُمْ بِالنَّصِيْحَةِ وَقَدْ قَالَ رَسُوْلُ اللَّه

ﷺ مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيْهُ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوْتُ يَوْمَ يَمُوْتُ وَهُوَ غَاشٌ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهَ عَلَيْهِ الجَنَةَ .

اعْلَمْ أَنَّ حَقَّ اللَّهِ أَلْزَم مِنْ حَقِّ أَمِيْرِ الْمُؤمِنِيْنَ واللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُطَاعَ وَلاَ طَاعَةَ لَمخلوقٍ في مَعْصِيَةِ الخَالِقِ يَا ابْنَ هُبَيْرَةَ اتَّقِ اللَّهَ فإِنَّهُ يُوْشِكُ أَنْ يَأْتِيْكَ رَسُولٌ من رَبِّ الْعَالَمِيْنَ يُزِيْلُكَ عَنْ سَرِيْرِكَ وَيُخْرِجُكَ مِنْ سِعَةِ قَصْرِكَ إِلى ضِيْقِ قَبْرِكَ فَتَدَعُ سُلْطَانَكَ وَدُنْيَاكَ خَلْفَ ظَهْرِكَ وَتَقْدَم عَلى رَبِّكَ وَتَنزلُ على عَمَلِكَ .

يَا ابْنَ هُبَيْرَةَ إِنَّ اللَّهَ لَيَمْنَعُكَ مِنْ أَمِيْرِ الْمُؤمِنِيْنَ وَلاَ يَمْنَعُكَ أَمِيْرُ الْمُؤمِنِيْنَ مِنَ اللَّهِ وَإِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَوْقَ كلِّ أَمْرٍ وإِنِّي أُحَذِّرُكَ بَأسَهُ الَّذِيْ لا يُرَدُّ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِيْنَ .

فَقَالَ لَهُ ابْنُ هُبَيْرَةَ إِرْبَعْ عَلَى ظَلْعِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ وَأَعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ أَمِيْرِ الْمُؤمِنِيْنَ فانَّ أَمِيْرَ الْمُؤمِنِيْنَ صَاحِبُ الْعِلْمِ وَصَاحِبُ الحُكْمِ وَصَاحِبُ الفَضْلِ وَإِنَّمَا وَلاَّهُ الله تَعَالَى مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ لِعِلْمِهِ بِهِ وَمَا يَعْلَمُهُ مِنْ فَضْلِهِ وَنِيَّتِهِ فَقَالَ لَهُ الحَسَنُ يَا ابْنَ هُبَيْرَةَ الْحِسَابُ وَرَائَكَ سَوْط بِسَوْط وَغَضَبٌ بِغَضَبٍ وَاللَّهُ بِالْمِرْصَادِ إِنَّكَ إِنْ تَلْقَ مَنْ يَنْصَحُ لَكَ في دِيْنِكَ وَيَحْمِلُكَ عَلَى أَمْرِ آخِرَتِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَلْقى رَجُلاً يَغُرُّكَ وَيمنِّيك فَقَامَ ابْنُ هُبَيْرَةَ مِن المَجْلِسِ وَقَد اصْفَرَّ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَعَلَيْهِ الْكَآبَه وَقَامَ الحَسَنُ وَقَدْ أَدَّى مَا عَلَيْهِ وَأَرْضَى رَبَّهُ وَأَخْلَصَ لَهُ وَنَصَحَ لأُمَّتِهِ وَهكَذَا العُلَمَاءُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنُوا .

شعــــرا :

لا شـــيءَ أبْـلغُ مِـن ذُلٍ يُجَرعُـهُ ... أَهْلَ الخَسِيْسَةِ أَهْلَ الدين والحَسَب

القَـائِمِـيْنَ بمـا جـاء الرسُولُ بِـهِ ... والمُبْغِضِينَ لأَهلِ الزَّيْغِ والرِيَـبِ

حج أبو جعفر فَدَعَا ابنَ أبِي ذِئْب فقال : نَشَدْتُكَ بالله ألَسْتُ أعْمَلُ بالحق ألَسْتَ تَراني أعْدِلُ .

فقال ابنُ أبي ذئب أما إذا نَشَدْتَني بالله ، فأقول : اللهم لا أرَاكَ تَعْدل ، وإنكَ لَجَائِر ، وإنكَ لَتَستَعْمِلُ الظَّلَمةَ وتَدَعُ أهْلَ الخير .

قال محمد بن عمر فحدثني محمد بن إبراهيم بن يحيى وأُخْبِرْتُ عن عيسى بن علي قالوا فظننا أن أبا جعفرٍ سَيُعَاجله بالعُقوبة فَجَعَلْنَا نَلُفُ إلينا ثيابنا مَخَافَةَ أن يُصِيبَنَا مِن دَمِه .

فجزع أبُو جعفر واغتم وقال له : قُمْ فاخْرُجْ .

تأمل يا أخي هَلْ يُوجَد هذا الطِّرَاز مِمَّنْ لا تأخذهم في الله لومة لائم أظنه مَعْدُومٌ في هذا الوقت ما فيه اليوم مَن يَصْدَعُ بالحق فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

دَخَلَ عمرو بن عُبيد على المنصور فقال : إن الله أعطاكَ الدُّنْيا بأسرَها فاشتَرْ منه نَفْسَكَ بِبَعْضِهَا وإني لأُحَذِّرُكَ لَيلَةً تَتَمَحَّضُ صَبِيحَتَهَا عن يوم القِيامة .

ثم قال له عن حاشيته : إن هؤلاء اتخذوكَ سُلَّماً لِشَهَواتِهم .

فأنْتَ الآخِذُ بالقَرْنَين وهم يَحْلِبُون .

فاتقِ الله فإنكَ مَيِّتٌ وحْدَكَ ومُحَاسَبٌ وحْدَكَ وَمَبْعُوثٌ وحْدَكَ ولن يُغْنُوا عَنكَ هؤلاء مِن رَبكَ شيئا .

فقال له : أعِنِّيْ بأصحَابِكَ فأسْتَعِينُ بهم دُوْنَ هؤلاء فَرَدَّ عليه أظْهِر الحَقَ يَتْبَعُكَ أهلُه .

فقال لَهُ : ألَكَ حاجةٌ قال : نعم قال . ما هي قال : ألا تَبْعَثَ إليَّ حتى آتِيْكَ قال : إذاً لا نَلْتَقِي قال : عن حَاجَتِي سَألْتَ ثم ذَهَبَ .

قال الحجاج لِيَحْيىَ بْنِ يَعْمُر : ما تقول في واسط (مدينة بناها الحجاج) فقال له : ما أقول فيها وقد بَنَيْتَهَا مِن غير مَالكِ وسَيَسْكُنُها غَيْرُ أهْلِكَ .

فقال له الحجاجُ في غَيظٍ وغَضَب : ما حَمَلكَ على ما قُلْتَ قال : ما أخذ الله تعالى على العلماء مِن العَهْدِ ألا يَكْتُموا الناسَ حَدِيْثا .

فقال له : ألمْ تَخْشَ سَيْفَ الحجاج ؟

فقال : لَقَدْ مَلأتْنِي خَشْيةُ اللهِ جل وعلا فلم تَدَعْ مَكاناً لخَشْيةٍ سِواه .

وقيل إن الحجاج خَطَبَ يوماً فقال : أيها الناس الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله فقام إليه رجل فقال له : ويْحَكَ يا حَجَّاجُ ما أصْفَقَ وجْهَكَ وأقل حَياءَكَ تَفْعَلُ ما تَفْعَلُ وتقولُ مثلَ هذا الكلام خِبْثَتَ وضل سَعْيُكَ .

فقال للحرس ؛ خُذُوه ، فلما فَرَغَ مِن خُطْبتِهِ قال له : ما الذي جَرَّأَكَ عَليَّ ؟ فقال : ويْحَكَ يا حجاج أنْتَ تَجْتَرِىءُ على الله ولا أجْتَرِىءُ عَلَيْكَ ومَنْ أنْتَ حتى لا أجْتَرِىءُ عَليك وأنْتَ تَجْتَرِءُ على رب العالمين ؟ فقال : خلوا سَبِيْلهُ فَأطْلِقَ .

ودخل العِزُ بنُ عبدالسلام على السلطان فَوَعَظَهُ وشَدَّدَ في الموعظة فعَاتَبَهُ وَلَدُه في ذلك فقال له : هذا إجتماع لله فلا أُكَدِّرُهُ بشيءٍ مِن عَرَضِ الدنيا .

يا بُنَيَّ لَقَدَ رأيتُ السلطانَ في تِلْكَ العَظَمَة ، فأرَدْتُ أن أهِيْنَهُ لِئَلا تَكْبُر نفسُه عليه فَتُؤذِيه .

ولَقَد اسْتَحْضَرتُ هَيْبَةَ الله تعالى إذْ أخاطِبُه .

فصَارَ السلطانُ أقَلَّ من القِط عندي .

ولو كانَتْ بنَفْسِي لَدَيه حاجة مِن حَاجَاتِ الدنيا لرَأيْتُه الدُنيا كلَّها .

وأجْـبر أحَدُ العُلماء على أن يَدخُلَ على مَلِكِ مِصْرَ وطَلبَ منه أن يَلْبَسَ مَلابِسَ خاصة فأبى .

وقال : كيف أتَجَمَّلُ لَهُ بلباسٍ لا أتَجملُ به لرَبي في الصلاة .

دَخلَ عَبَّادُ الخَواصُ على إبراهيم بن صالح وهو أمير فَلَسْطِين فقال له : ياشيخُ عِظْني فقال : بمَ أعَظُكَ أصْلَحَكَ الله بَلَغَني أن أعمالَ الأحْيَاءَ تُعْرضُ على أقاربهم مِن الموتى فانظر ما يُعْرضُ على رسوله ﷺ مِن عَمَلِكَ فبَكَى حتى سَالَتْ دُمُوعُه على لحيته .

وقال مالك : وجَّهَ إليَّ الرشيدُ أنْ أحَدِّثَه فقُلْتُ يا أمير المؤمنين إن العِلْم يُؤتَى ولا يأتِي فصَار إلى مَنْزِلي فاسْتَند إلى الجدار مَعِي .

فقُلْتُ له : يا أمـير المؤمنين إنَّ مِن إجلال الله إجْلالَ ذي الشيْبَةِ المسلم فقـام فجلسَ بينَ يَدِيَّ قال فقال بَعْدَ مُدةٍ يا أبا عبدالله تَواضَعْنَا لِعِلْمِكَ فانتفَعْنَا به ، وتواضعَ لنا عِلمُ سُفيان بنُ عُيَيْنة فلم نَنْتَفع به .

ورَوَى البَيْهَقي وغـيره أنَّ المهدي لما قَدِمَ المدِيْنَةَ حَاجاً جاءه مَالِكُ فسلم عليه ، فأمـر المهـدي ابنيه الهادِي وهارون الرشيد أنْ يَسْمَعَا منه فَطَلبَاهُ إليْهما فامْتَنَع .

فعَاتَبه المهدي في ذلك فقال : يا أمير المؤمنين إن لِلْعِلم نضارة ، يُؤتَى أهْلُه .

وفي رواية العلم أهل أن يُوَقَّرَ ويُوَقَّرَ أهلُه فأمَرَهُما والدُهُما بالمَصِير إليه

فسـأله مؤدبُهُمَا أنْ يقْرأ عليهما ، فقال : إنَّ أهلَ هَذهِ البلدة يَقرءون على العالم كما يَقرأ الصِبْيَانُ عَلى المُعِلّمِ فإذا أخْطَوا أفتَاهُم فرجَعُوا إلى الخَلِيفة فَعَـاتَبَهُ المهدي في ذلك فقال : يا أمير المؤمنين سَمْعتُ ابنَ شِهاب يقولُ سَمِعْنَا هَذا العِلْم مِن رِجال في الروضة سَعيد بن المسيب وأبو سلمة وعروة والقاسم بن محمد وسَالم بن عبدالله وعد آخرين كُلُ هؤلآء يُقْرأ عليهم ولا يقرؤون فقال المهدي في هؤلاء قدوة صِيْرُوا إليه فأقرؤا عليه .

أراد الوليد أن يولي يزيد بن مرثد القضاء فبلغ ذلك يزيد فَلَبسَ فَرْوَةً وقلبهـا فجعل الجلد على ظهره والصوف خارجاً وأخذ بيده رغيف (أي خُبْزَة) وعَرَقاً (أي عَظم عليه لحم) وخرج بلا رداء ولا قَلَنْسُوة (أي أصْلع الرأس) ولا نعل ولا خُفٍ ويمشيْ في الأسْوَاق وَيَأكل .

فَقِيلَ لِلْوَليد إنَّ يَزيْدَ قَدِ اخْتَلطَ (أي خَرَّفَ) وأخبر بما فعل فتركه الوَليد .

قُلْتُ : وفِعْـلُ يَزيْدَ يَدُلُّ على وَرَعِـهِ وخَوفِهِ مِن تَبُعَةِ القضاء لأن القضاء فيه خطر عظيم ولهذا قال العلماء يَحَرمُ على مَن لا يُحْسِنُه ولم تَجْتَمع فيه شروطُه الدخول فيه .

وقال ﷺ « القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنان في النار » وقال ﷺ « مَن وُلي القضاء فقد ذبح بغير سكين » وقال ﷺ « لَيأتين على القاضي العدل يوم القيامة سَاعة يَتَمَنّىٰ أنه لم يقض بين اثنين في تمرة قط » .

وفي لفظ يُدعى القاضي العدل يوم القيامة فَيَلْقَى من شِدة الحِساب ما يتمنى أنه لم يَقْضِ بَيْنَ اثنين في عُمُره قط .

تَرَكَ خَلفُ البَزَّازُ الرواية عن الكِسائي فلم يَروى عنه مَعَ أنَّهُ كانَ أسْتَاذه وهو بحاجة إليه في تَصنِيفه كِتاب القِراءات ولما أنْ ضَايَقُوه لِمَ لَمْ يَرو عنه .

قال : لقد سَمعْتُه يقول ، قال لِيْ سَيِّدِي الرشيد فَقُلْتُ : إن إنسانا مِقْدَارُ الدنيا عنده أنَ يُجِلَّ أهْلَها هذا الإجلال لَحَرِيٌ أن لا يُؤخذ عنه شيءٌ من العِلم .

قُلْتُ : لله دَرُّهُ حَيْثُ لم يَطْمَئِنَّ قلْبُهَ لِمَنْ يُعَظِّمُ الدنيا .

فانظر رحمك الله إلى شدة ورَعهم وتَرفُّعِهم وتَنَزُّهِهم عن مُخَالَطَةِ الملوك وأهل الدنيا .

وصِيانـة العلم وإعـزازه وبمثـل هذه الأخـلاق العَطِرَة والصفات الفاضلة عَظمَ الإسلامُ وأهله .

دخـل رجـل على المأمون كان يمشي في الناس فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر دُونَ أن يكونَ مأموراً مِن قبل الخليفة .

فاسْتَدعَاه المأمونُ وقال له لِمَ تَأمُرْ وتَنْهى وقَدْ جَعَل الله ذلك إلينا ونحنُ الذين قال الله فيهم ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ .

فقـال الرجلُ صَدقْتَ يا أمير المؤمنين أنْتَ كَما وَصَفْتَ نفسَكَ مِن السُّلْطانِ والتَّمكنِ غَيْرَ أنَّا أوْلِيَاؤُكَ وأعْوَانُكَ فيه .

ولا يُنْكِرُ ذلك إلا مَن جَهِلَ كتابَ الله وسنة رسوله ﷺ قال الله جل وعلا وتقدس ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضُهم أولياءُ بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ وقال رسول الله ﷺ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضُـه بَعْضَا » فأعْجِبَ المأمونُ بكَلامِهِ وسُرَّ بِهِ وقالَ مِثْلكَ يَجُوزُ أنْ يأمرُ بالمعروف فإمْض على مَا كُنْتَ عليه بأمرنا وعن رَأينا وهكذا حِيْنَ أحْسَنَ الرجل الاحْتِجَاجَ بالقُرآن والسنة انْقَطَعَتْ حُجَّةُ المأمون .

ولم يَجَدْ بُداً مِن إقرار الرجل على طريقته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وعكس هذا الرجل دخل واعظ على المأمون فوعظه وأغلظ عليه في القول .

فقال له المأمون : يارجُل ارْفُقْ فإنَّ الله بَعَثَ مَن هُوَ خَيرٌ منْكَ إلى مَن هو شرٌ مِنّي ، وأمره بالرِّفْقِ .

بَعَثَ مُوْسَى وهارُونَ إلى فرعون ، فأوْصَاهُما بقوله : « فَقُوْلا له قَولاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذكَّرُ أو يَخْشى .

وهُنَا كانَ مَوْقِفُ المأمونُ هو الأقْوَى لأنَّ الدَّلِيْلَ مَعَه .

بعث الأمير طاهر بن عبدالله إلى محمد بن رافع بخمسة آلاف درهم على يد رسوله ، فدخل عليه بعد صلاة العصر وهو يأكل الخبز مع الفجل ، فوضع كيسَ الدراهم بينَ يَديه .

فقال : بَعَثَ الأميرُ طاهر بهذا المال إليكَ لِتُنْفِقَه على أهْلِكَ فقال خُذْهُ خُذْهُ لا أحْتَاجُ إليه فإنَّ الشمسَ قَدَ بَلَغَتْ رُؤوسَ الحِيْطَان وإنما تَغْربُ بَعدَ سَاعَة وأنا قَدْ جَاوَزْتُ الثمانينَ سَنَة إلى مَتَى أعِيْشُ .

فَرَدَّ المالَ ولم يَقْبَل فأخَذَ الرسولُ المالَ وَذهَبَ ودخل على الشيخ ابنه وقال : يا أبَتِ ليس لنا الليلة خبز . قال فذهب بعضُ أصحابه خَلْفَ الرسول لِيرَدَّ المال إلى صاحبه خَوْفاً مِن أن يَذهَبَ ابنُه خلفَ الرسول فيأخذ المال . هذا من رقم واحد في الزهد .

وقال أحَدُ الزُّهادِ لِلْمَنْصُور : أذكُرْ ليلةً تَبيْتُ في القبر لم تَبِتْ لَيْلَةً مثلَها ، واذكر لَيلةً تَمَخَّضُ عن يوم القيامة لا ليلةَ بَعدَها .

فأفْحَم المنصورَ قَولُه فأمَرَ لَهُ بِمَالٍ فَردَّهُ وقال : لو احْتَجْتُ إلى مالكَ ما وَعَظْتُكَ . (لِلّهِ دَرُّهُ ما أزْهَدَهُ بالحُطَامِ الفاني) .

وقال لابنه لما وَلاَّه العَهْدَ : إسْتَدِم النعمةَ بالشكر ، والقدرةَ بالعفو ،

والنصر وبالتواضع ، والتألف بالطَاعة ، ولا تَنْسَ نصيبك من الدنيا ، ونصيبك من رحمة الله ، وقال للربيع ويْحَكَ لقد رأيتُ مَناماً هالني رَأيتُ قائلا وقَفَ في باب هذا القصر يقول :

كأني بهذا القصْرِ قد بَادَ أهلُه وأوحَشَ منه أهلُه ومَنازِلُه
وصَارَ رَئِيسُ القصرِ من بَعْدِ بَهْجَةٍ إلى جَدَثٍ يُبْنَي عليه جَنَادِلُهْ

وكان ابن أبي ذِئْبَ جالساً في المسجد النبوي الشريف في المدينة فدخل أمير المؤمنين المهدي فلم يَبْقَ أَحَدٌ إلا قام .

فلما وَصِلَ إلى ابن أبي ذِئب لم يَقُمْ .

قال المسيبُ بن زهير : قُمْ هذا أمير المؤمنين فقال : إنما يقوم الناس لِرَبِ العَالمين .

فقال المهدي دَعْهُ فلقَدَ قامَتْ كُلُ شَعْرةٍ في رَاسِي

فهكذا العُلماء المخلصون الذينَ يحفظ الله بهم الإسلام ويَرفع الله بهم المسلمين

تأمَّل يا أخي هَلْ يُوجَدْ في زَمَنِنَا مِثلَ هَؤلاء ما أظنُّ يُوجَد ولا رقم ثلاثة لا حول ولا قوة إلا بالله .

فإنْ قُلْتُ زَنْدَ العِلم كَابٍ فإنما كَبَى حَيْثُ لم تُحمى حِمَاهُ وأظلما
ولَو أنَّ أهلَ العلم صَانُوهُ صَانَهُم ولو عَظَمُوهُ في النفوسِ لَعُظِّمَا
ولكن أهانُوه فهانُوا ودَنَّسُوا مُحَيَّاه بالأطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

عن جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي قال ما رأينا في القراء أحدا مثل عيسى بن يونس أرسلنا إليه فأتانا بالرقة فاعتل قبل أن يرجع فقلت

يا أبا عمرو وقد أمر لك بعشرة آلاف فقال هي فقلت خمسون ألفا ، قال لا حاجة لي فيها فقلت لِمَ والله لأهَنِئَنكَهَا هِي والله مائة ألف .

قال لا والله لا يَتَحَدَّث أهل العلم أني أكَلْتُ لِلسُّنَّةِ ثَمَنًا ، ألا كَانَ هَذا قبل أن تُرسِلُوا إليَّ ، فأمَّا على الحديث فلا والله ولا شرْابَةَ مَاء ولا هليلجة .

وقال أبو بكر المرزوي سَمِعْتُ أحْمَدَ بنَ حَنبل وذَكَرَ ورع عيسى بن يونس ، قال قدم فأُمِرَ له بمائة ألف أو قال بمال فلم يقبل ، وتدري ابن كم كان عيسى أراد أنه كان حَدَثَ السِن .

وقال محمدُ بنُ المنكَدِر حج الرشيد فدخل الكوفةِ فركب الأمين والمأمون إلى عيسى بن يونس فحدثهما فأمر له المأمون بعشرة آلاف درهم .

فأبى أن يقبلها فظَنَّ أنه اسْتَقَلَّهَا ، فأمر له بعشرين ألفا ، فقال عيسى لا والله ولا إهليلجة ولا شربة ماء على حديث رسول الله ﷺ ، ولو ملأت لي هذا المسجد ذهباً إلى السقف . لله دَرُّه هذا من رقم (١) في الزهد .

طلب الخليفةُ هِشَامُ بنُ عبدالملك ذاتَ يوم أحَدَ العُلماء ، فلما دَخَل عليه قال السلام عليك يَا هِشَامُ ثم خَلَعَ نَعْلَيْهِ وجَلَسَ بِجَانِبِهِ .

فغَضِبَ هِشَامُ وَهَمّ بقَتْلِهِ ولَمَّا تحَدَّثَ مَعَهُ وجَدَهُ عَالماً كَبيْراً .

فلما انتهى الحديثُ عَاتَبَهُ بقولِهِ لَهُ لَقَدْ سَمَّيْتَني باسْمِي ولم تُكَنِّنِي أوْ تَدْعُنِي بالخِلافَةِ وخلَعْتَ نَعْلَيْكَ وجَلَسْتَ بِجَانِبِي فِلَمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ .

فقال لَهُ : لمْ أدْعُكَ بالخِلافَةِ لأن الناسَ لم يَنْتَخِبُوكَ كُلُّهم .

وسَمَّيْتُك ولم أكِنَّكَ .

لأن الله جَلَّ وعَلا وتَقَدس نادَى الأنبياءَ بأسمائهم ، فقال ياعيسى ، يا إبْراهِيْمُ ، يا مُوسى ، يا نُوح ، يا دَاوُود .

وكَنَّى عَدُوَّهُ فقال ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَب ﴾ .
وخَلعْتُ نَعْلي بجَانِبِكَ وأنا أخلَعُهُمَا لَمَّا أدْخُلُ بَيْتَ رَبِّي .
وجَلَسْتُ بجَانِبِكَ لأني سَمِعْتُ أن رسول الله ﷺ قالَ « مَن سَرَّهُ أن يُمَثّلَ له الرجالُ قِياماً فَلْيَتَبَوَّءْ مَقْعَدَهُ من النار » .

فكَرِهْتُ لَكَ النار فأمر له هشام بمال فلم يَقْبَلْهُ وانْصَرفَ .

تأمل يا أخي هذا الورع عن أخذ شيء من حطام الدنيا على ما حَدَثَهُمَا به وقال لا يتحدث أهل العلم أني أكلتُ للسنة ثمنا .

فما ظَنُّكَ بِمَنْ يَأكُلُ بالكُتب التي تحتوي على الآيات والأحاديث باسم تَحْقِيْق أو نشر ويَحتكرها نسأل الله العفو والعافيةَ في الدنيا والآخرة . نعوذ بالله من عَمى البصيرة قال الله تعالى ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حَسَنا ﴾ وقال تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ وأكثر يأخِي من قول الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم الله إيعافيهم ولا يبلانا .

ويروى عن أبي عمرو الزاهد صاحب أبي العباس أن بعض الوزراء أرْسَلَ إليه يَسْأَلُهُ مَبْلغَ ما يَحْتَاجُ إليهِ لِقُوْتِهِ وقُوْتِ عِيالِهِ في كُلِّ سَنَةٍ لِيُجْرِي عليه كِفَايَتَهُ فقال للرسول الذي أرسله أحَدُ الوُزَراء : قُلْ لِصَاحِبِكَ أنا في جِرَايَةِ الذي مَا مِن دَابَّةٍ إلاَّ عليه رزقُها وإذا غَضِبَ عَليَّ لَمْ يَقْطَع عَنّي مَا يُجْريْهِ عَلَي « لله دَرُّه هذا من رقم (١) في العفاف والزهد » .

(قصائد تَحْتَوِي على مواعظ ونصائح وعِبَر)

آخــر :

قَلَّ الْحُمَاةُ وَمَا فِي الْحَيِّ أنْصَارُ وَدَبَّرَ الامْـرَ أحْدَاثٌ وأغْمَــارُ

وَأَصْبَحَتْ دَارُنَا تَبْكِي لِفُرقَتِهَا كُلَّ الْكِرَامِ الَّذِي بِالْجِدِّ قَدْ سَارُوا
سَارُوا جمِيعاً فصاروا لِلْوَرَى سَمَراً يَتْلُوا لِذِكْرَاهُمُ فِي الْحَي سُمَّارُ
لَهْفِيْ عَلَيْهِمْ لَوْ أَنَّ اللَّهفَ يَنفَعُنِي جَدَّدْتُ لَهْفي وَدَمْعُ العَيْنِ مِدْرَارُ
ما فِي الزَّمَانِ فتًى نَرْجُوهُ فِي حَدَثٍ وَلا رِجَالاً لَهُمْ في المجْدِ إِخْطَارُ
وَلَا مُعيناً عَلَى بَلْوَى يُدَافِعُهَا إِذَا الْغَرِيبُ جَفَاهُ الصَّحْبُ وَالْجَارُ
سِوَى لِئَامٍ لَهُمْ بالْغِشِّ سَرْبَلَةٌ وفي الْقُلُوبِ لَهُمْ بالضِّغْنِ إِعْصَارُ
والْحِقْدُ وَالغِلُّ والْبَغْضَاءُ بَيْنَهُمْ لا يُفْلِحُوا أبداً وَالْخَيْرُ يَنْهَارُ
وَيَحْسدُونَ عَلَى النَّعْمَاءِ صَاحِبَهَا وَيَشْمَتُونَ إِذَا مَاحَلَّ إِعْسَارُ
وَاللَّمْزُ فِيهِمْ وَكُلَّ الْقُبْحِ قَدْ جَمَعُوا وفي الْقُلُوبِ مِنَ الأَحْقَادِ أَوْغَارُ
لا خَيْرَ فِيهِمْ وَلَا نُصْحا نُؤَمِّلُهُ قَدْ فَارَقُوا الرُّشْدَ إِنْ حَلُّوا وَإِنْ سَارُوا
وَإِنْ بَدَا لَكَ أَمْرٌ بالْمُنَى خَلِعٌ أَوْلَوْكَ غَدْراً وَفي أَفْعَالِهِم جَارُوا
لا تَقْرَبَنَّ لَهُمْ لا زِلْت مُدَّرِعاً ثَوْبَ العفَافِ وَحُطَّتْ عَنْكَ آصَارُ
وَأَطْلُبْ جَلِيسًا كَرِيمَ النَّفْسِ مُلْتَمِساً حُسْنَ الطِّباعِ وَلَا تَعْرُوهُ أَغْيَارُ
إِنْ غِبْتَ حَاطَ وَلاَ تُلْفِيهِ مُنْتَقِصًا لِلعِرْضِ مِنْكَ وللِزَّلَّاتِ غَفَّارُ
هذَا هُوَ الخِلُّ فَأَلْزَمْ إِنْ ظَفِرْتَ بِهِ وَمِثْلُ هَـذَا لأَهْلِ اللُّبِّ مُخْتَارُ
وَقَلَّ مِثْلَا وما ظَنِّي تُحَصِّـلُهُ قَدْقَلَّ فِي النَّاسِ هَذَا الْيَوْمَ أَحْرَارُ
فَأْنَسْ بِرَبِّكَ قَعْرَ الْبَيْتِ مُلْتَزِماً إِلَى الْمَمَاتِ فَهَـذَا الْيَوْمَ إِبْرَارُ
وَلِلصَّـلَاةِ فَلَا تُهْمِلْ جَمَاعَتَهَا مَعْ جُمْعَةٍ فَرْضُهَا ما فِيـهِ إِنْكَارُ
وَالصِّـدْقَ وَالْبِرَّ لاتَعْدُوهُمَا أَبَدَا مَنْ نَالَ ذَا فَلَهُ فِى الْحَمْدِ أَذْكَارُ
وَأَلْزَمْ عفَافًا ولاتَتْبَعْ طرِيقَ هَوَى إِنَّ الْهَوَى لِلْوَرَى يَاصَاحِ غَرَّارُ
وَأذْكُرْ إِلهًا لهُ فى خَلْقِهِ مِنَنٌ تَجْرِى عَلَى النَّاسِ مِن جَدْوَاهُ أَنْهَارُ

وَاْحفَظْ لِسَانَكَ عن لَغْوٍ وعن رَفَثٍ ... مانالَ فَضْلًا مدى الأيَّام مِهْذَارُ
وَارْحَمْ يَتِيماً غَدَا باليُتْمِ مُتَّصِفًا ... وَامْنَحْهُ لُطفًا تُنحَّى عَنْكَ أَوْزَارُ
وَصِلْ قَرِيبًا ولا تَقْطَعْ لَهُ رَحِمًا ... إنَّ الْقَرِيبَ لَهُ بالحَقِّ إيثَارُ
وَبِرَّ جَارًا ولا تَهْتِكْ مَحارِمَهُ ... قَدْ جَاءَ فِيهِ مِنَ الآثَارِ إِخْبَارُ
وَكُنْ حَلِيمًا ولا تَغْضَبْ عَلَى أَحَدٍ ... فالحِلْمُ فِيهِ لأَهْلِ الحِلْمِ إِسْرَارُ
وَتَمَّ نَظْمِي وَصَلَّى خَالِقِي أَبَدًا ... عَلَى الْمُشَفَّعِ مَنْ بالرُّشْدِ أَمَّارُ
وَآلِهِ الْغُرِّ مَعْ صَحْبٍ أُولِي كَرَمٍ ... ما هَبَّتِ الرِّيحُ أَوْ مَاسَارَ سَيَّارُ

انْتَهَى



اللَّهمَّ قَنِّعْنَا مِنَ الدُّنْيَا باليَسِيْرِ وَسَهِّلْ عَلَيْنَا كُلَّ أَمْرٍ عَسِيْرٍ وَوَفِّقْنَا لِمَا تُحِبُّهُ وَتَرْضَاهُ إِنَّكَ عَلى كلِّ شَيءٍ قَدِيْرٍ وَأَسْكِنَّا دَار كَرَامَتِكَ يَا مَنْ هُوَ مَلْجَؤُنَا وَمَلاذُنَا وإِلَيْهِ المصِيْرُ وَاجْعَلْ لَنا مِن كُلِّ هَمٍّ فَرَجا وَمِن كُلِّ ضِيْقٍ مَخْرَجًا وَاغْفِرْ لنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ اخْوَانِنَا المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ على محمدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِه أَجْمَعِيْنَ .

(فصـــــل)

وعن أبي قُدامة السرخسي قال : قام العمري للخليفة على الطريق فقـال له : فَعْلتَ وفَعَلْتَ . فقـال له : ماذا تريد ؟ قال : تَعْمَلُ بكذا وتعمل بكذا . فقال له هارون : نَعَمْ ياعَمّ ، نَعَمْ ياعَمّ .

وعن سعيد بن سليمان قال : كنت بمكـة في زقاق الشطوى وإلى جنبي عبدالله بن عبدالعزيز العمري وقد حج هارون الرشيد .

فقال له إنسان : يا أبا عبدالرحمن هو ذا أمير المؤمنين يسعى قد أخلى

له المسعى . قال العمري للرجل : لا جزاك الله عني خيراً ، كلفتني أمراً كنتُ عنه غنياً . ثم تعلَّقَ نعليه (أي لبسهما) .

وقام فتبعتُه وأقْبَلَ هارون الرشيد مِن المروة يريد الصفا فصاح به : يا هارون ! فلما نظر إليه قال : لَبَيّكَ ياعَمّ . قال : ارْقَ الصّفا . فلما رَقِيَه .

قال : ارْم بطَرْفِكَ إلى البيت . قال : قد فَعَلْتُ . قال : كم هُم ؟ قال : ومَن يُحصِيهم ؟ قال : فكم في النـاس مِثْلُهُم ؟ قال : خَلْقٌ لا يُحصيهم إلا الله .

قال : اعْلَمَ أيها الرجلُ أنَّ كُلَّ واحدٍ منهم يُسْأَلُ عن خاصَّةِ نفسِهِ وأنْتَ وَحْدَكَ تُسأَلُ عنهم كلِّهم فانظر كيفَ تكون ؟ قال : فبكى هارون وجَلَسَ وجَعَلُوا يُعطُونَه مِنديلاً مِنديلاً للدموع .

قال العُمري : وأخرى أقولها . قال : قُلْ يَاعَم . قال : والله إن الرجل لَيُسْرفُ في مالِهِ فيستحقُّ الحَجْرَ عليه ، فكيفَ بمن يُسْرِفُ في مال المسلمين ؟ ثم مَضَى وهارون يبكي » .

قال محمد بن خلف : سمعت محمد بن عبدالرحمن يقول : بلغني أن هارون الرشيد قال : إني لأحبّ أن أحجّ كل سنة ما يمنعني إلا رجل من ولَدِ عمر ثم يُسمعني ما أكره .

وقد روى لنا من طريق آخر أنه لَقِيهُ في المسعى فأخذ بلجام دابتّه فأهْوت إليه الأجناد فكفّهم عنه الرشيد فكلمه فإذا دموع الرشيد تسيل على مَعَرفة دابتّه .

ثم انصرف . وأنـه لقيه مرّةً فقـال : يا هارون فَعَلْتَ وفَعلْتَ .

فَجعَلَ يَسمعُ منه ويقول : مَقْبُولٌ منكَ ياعَمّ ، على الرأس والعين .

فقال : يا أمير المؤمنين مِن حال الناس كيتَ وكيتَ . فقال : عن غير علمي وأمري وخرج العمري إلى الرشيد مرّة ليعظَه فلما نزل الكوفة زحف العسكر حتى لو كان نزل بهم مائة ألف من العدوّ ما زادوا على هيبته . ثم رجع ولم يصِلْ إليه .

وعن أبي يحيى الزهري قال : قال عبدالله بن عبدالعزيز العُمري عند موته : بنعمة ربي أحدّث أني لم أصبح أملك إلا سبعةَ دراهم من لحِاءِ شجر فتلْتُه بيدي ، وبنعمة ربي أحدّث : لو أن الدنيا أصبحت تحت قدمي ما يمنعني أخذها إلا أن أزيل قدمي عنها ؛ ما أزلتها .

اسْتَسْقى مُوسى بنُ نُصَير في الناس في سنة ٩٣ حينَ أقْحَطُوا بإفريقية فأمرهم بصيام ثلاثة أيام ثم خرج بهم ومَيَّز أهلِ الذمة عن المسلمين وفَرَّقَ بين البهَائِم وأولادها ثم أمَرَ بالبُكاء وارْتِفَاعِ الضَّجِيْجِ وهو يَدْعُو الله تعالى حتَّى انتَصفَ النهار ثم نَزَل فقِيْل لَهُ ألا دَعَوت لأمير المؤمنين ؟ فقال : هذا مَوْطِنٌ لا يُذْكَر فيه إلا الله عَزَّ وجَل فسَقَاهُم الله عَزَّ وجَل لما قال ذلك .

كتب زر بن حُبَيْش إلى عبدالملك بن مروان كتاباً يَعِظُهُ فيه فكان في آخر : ولا يُطْمِعَكَ يا أمير المؤمنين في طُول الحياةِ ما يَظْهَرُ مِن صحة بدنك فأنتَ أعلم بنفسكَ واذكُرْ مَا تَكلَّم به الأولون .

إذَا الرجَـالُ وَلَـدَتْ أوْلادُهَـا وبليـت مِـن كِـبَرٍ أجْسَـادُهَا
وجَعَلَـتْ أسْقَـامُهَـا تَعْتَـادُهَـا فذِي زُرُوعٌ قَدْ دَنَا حَصَـادُهَا

فلما قرأ عبدالملك الكتَاب بَكَى حتى بَلَّ طرفَ ثَوْبِه بدُمُوعِهِ ثم قال : صَدَقَ زِرٌ ولو كَتَبَ إلينا بغير هذا كان أرْفَق بنا .

شِعْـرَا :

يَا بَانِيَ القَصْـرِ الكَبِيْر بَيْنَ الدَّسَاكِرِ والقُصُوْرْ
وَمُجَـرِّر الجَيْشِ الذي مَلأَ البَسِيِّطَةَ والصُدُوْرْ
ومُـدَوِّخ الأَرْضِ الَّتِي أَعْيَتْ عَلى مَرِّ الدُهُوْرْ
أَمَا فَرَغْتَ فلا تَـدَعْ بُنْيَانَ قَبْرِكَ في القُبُورْ
وانْظُرْ إليهِ تَراهُ كَيْـ ـفَ إلَيْكَ مُعْتَرِضاً يُشِيْرْ
وَاذْكُرْ رُ قَادَكَ وَسْطَـهُ تَحْتَ الجَنَادِلِ والصُخُورْ
قَدْ بُدِّدَتْ تِلْكَ الجُيُوْ شُ وغُيِّرتْ تِلْكَ الأمُورْ
واعْتَضْتَ مِن لَيْنِ الحَرِيـ رِخُشُوْنَةَ الحَجَرِ الكَبَيْرْ
وتُرِكْتَ مُرْتَهنـاً بِـهِ لَا مَالَ وَيْكَ ولا عَشِيْرْ
حَيْرَانَ تُعْلِنُ بالأَسَـى لَهْفَانَ تَدْعُوْ بِالثُبُـوْرْ
ودُعِيتَ باسْمِكَ بَعْـدَمَا قَدْ كُنْتَ تُـدْعى بالأَمِيْر
ولأَنْتَ أَهْـوَنُ فيهِ مِنْ جُعْلٍ عَلَى نَتْنٍ يَدُوْرْ
إنْ لَمْ يَجُدْ بالعَفْوِ مَنْ يَعْفُوْ عن الذّنْبِ الكبيْرْ
هذا هُوَ الحَقُ اليَقيْـ ـنُ وكُلُ ذَاكَ هُوَ الغُرُوْرْ

اللَّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُورِ الايْمَانِ وَثَبِّتْهَا عَلى قَوْلِكَ الثَّابِتْ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفي الآخِرَةِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ وَتوفَّنَا مُسْلِمِيْنَ وَالْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ يَا أَكْرَمَ الأكْرَمِيْنَ وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فصـــــل)

وعن الفضـل بن الـربيع قال : حج أمـير المؤمنـين الرشيد فأتاني فخرجت مسرعاً فقلت : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك . فقال :

ويحك قدْ حَاكَ في نفسي شيء فانظر لي رجلاً أسأله . فقلت : هاهنا سفيان بن عيينة .

فقال : امض بنا إليه . فأتيناه فقرعت الباب فقال من ذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين . فخرج مسرعاً فقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أتيتك . فقال له : خذ لما جئناك له رحمك الله .

فحـدثه ساعة ثم قال له : عليك دين ؟ قال : نعم . فقال : أبا عباس اقض دينه فلما خرجنا قال : ما أغنى عني صاحبك شيئا ، انظر لي رجلا أسأله .

فقلت له : هاهنا عبدالرزاق بن همام . قال : امض بنا إليه فأتيناه فقرعت الباب فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين .

فخرج مسرعاً فقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أتيتك . قال : خذ لما جئناك له .

فحادثه ساعة ثم قال له : عليك دين ؟ قال : نعم . قال : أبا عباس اقض دينه . فلما خرجنا قال : ما أغنى صاحبك شيئاً انظر لي رجلاً أسأله » .

قلت : هاهنا الفُضَيْلُ بن عياض . قال : امض بنا إليه . فأتيناه فإذا هو قائم يصـلي يتلو آية من القرآن يرددها . فقال : اقرع الباب . فقرعت الباب فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين . فقال : مالي ولأمير المؤمنين ؟ فقلت : سبحان الله أما عليك طاعة ؟

أليس قد روى عن النبي ﷺ أنـه قال «ليس للمؤمن أن يُذل نفسه» فنزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ المصباح ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت .

فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كفٌّ هارون قبلي إليه .

فقال : يالها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله عز وجل .

فقلت في نفسي : ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي . فقال له : خذ لما جئناك له رحمك الله .

فقال : إن عمر بن عبدالعزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبدالله ، ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم : إني قد ابتُليت بهذا البلاء فأشيروا عليَّ . فعدَّ الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة .

فقال له سالم بن عبدالله : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فَصُم عن الدنيا وليكن إفطارك من الموت .

وقال له محمد بن كعب القرظي : إن أردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير المسلمين عندك أباً وأوسطهم أخاً وأصغرهم عندك ولداً فوقر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك .

وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله عز وجل فأحِبَّ للمسلمين ما تُحبّ لنفسك واكَره لهم ما تكرَهُ لنفسك ثم مُت إذا شئت .

وإني أقول لك إني أخافه عليك أشدّ الخوف يوم تزل فيه الأقدام فهل معك رحِمك الله مَن يشير عليك بمثل هذا ؟

فَبَكَى هارون بكاء شديداً حتى غُشى عليه فقلت له : ارفق بأمير المؤمنين . فقال : يابنْ أم الربيع تقتله أنت وأصحابك وأرفُق به أنا ثم أفاق فقال له : زدْني رحمك الله .

فقال : يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبدالعزيز شكا إليه . فكتب إليه عمر : ياأخي أذكّرك طول سهر أهل النار في النار مع

خلود الأبد وإياك أن يُنصَرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء .

قال : فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبدالعزيز فقال له : ما أقدمك ؟ قال : خلعتَ قلبي بكتابك لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله عز وجل .

قال : فبكى هارون بكاءً شديداً ثم قال له : زدني رحمك الله . فقال : يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي فقال : يا رسول الله أمّرني على إمارة فقال له النبي ﷺ « إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل » .

فبكى هارون بكاء شديداً وقال له : زدني رحمك الله فقال : يا حَسن الوجه أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعلْ ، وإياك أن تصبح وتُمسى وفي قلبك غشٌ لأحد من رعيتك فإن النبي ﷺ قال : « من أصبح لهم غاشاً لم يرحْ رائحة الجنة » .

فبكى هارون وقال له : عليك دَيْن ؟ قال : نعم دَين لربي يحاسبني عليه ، فالويل لي إن سألني ، والويل لي إن ناقشنْي ، والويل لي إن لم أُلْهَمَ حجّتي قال : إنما أعني دَيْن العباد .

قال : إن ربي لم يأمرني بهذا ، أمر ربي أنْ أوحّده وأطيع أمره ، فقال عزّ وجل ﴿ وما خلقت الجنِ والأَنس إلا ليعبدُون، ماأوريدُ منهم من رزْق وما أريد أن يُطعمونِ أن الله هو الرزّاق ذو القُوّة المَتينُ ﴾ .

فقال له : هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتَقَوّى بها على عبادتك . فقال : سبحان الله أنا أَدُلُّكَ على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا ؟ سلمك الله ووفقك

ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فلما صرنا على الباب قال هارون : أبا عباس إذا دَلَلْتَنِي على رجل فدُلَّني على مثل هذا ، هذا سيد المسلمين .

فدخلت عليه إمـرأة من نسـائه فقالَتْ : ياهذا قد ترى مانحن فيه من ضيق الحال فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به . فقال لها : مثَلي ومثَلكم كمثَل قَوْمٍ كان لهم بعير يأكلون من كسْبه فلما كبر نْحَروه فأكلُوا لحمه .

فلمّا سمع هارون هذا الكلام قال : ندخل فعسى أن يقبل المال فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة ، فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل يكلمه فلا يجيبه فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت يا هذا قد أتعبت الشيخَ منذ الليلة فانصرف رحمكَ الله فانصرف . تأمل يا أخي هل يُوجَد في زَمَنِنا مَن يَردُ حُطَامَ الدنيا إذا عُرِضَ عليه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . هذا الله أعلم أنه من رقم (١) في الزهد .

بَلِّغْ يا أخي مَن يَأكِلونَ بالكتُب الدِيْنِيَّة باسْم تحيقٍ ونشرٍ وقُلْ لهم قال الله تعـالى ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدنيا قِلَيل ﴾ واذكر لهم طريقة الرسل وأنهم لاَيسألون الناس أجْرَا .

إعْـلَمْ بـأنَّ طَـريْقَ الحَق مُنْفَـردٌ والسَّـالِكُونَ طَـريْقَ الحَـق أفْـرَادُ
لا يَطلبُـونَ ولا تُطلَـبْ مَسَـاعِيهُم فَهُـم على مَهَـل يَمشـوُنَ قُصَّـاد
والنـاسُ في غَفْـلَةٍ عَمَّا لَهُ قَصَـدُوْا فجُلُّهُـمْ عـن طَـرِيْقِ الحَقِّ رُقَّـادُ

قيل إن هارون الرشيد خرج في نُزْهَةٍ ومعَه سُليمانُ بنُ جَعْفَر فقال له هارون قد كانَتْ لَكَ جَارية تُغَنِّي فتُحْسِنُ الغِنَا فأتِ بها فجاءَتْ فَغَنَّتْ فلم تُحْسِنْ الغِنَا فقال لَهَا مَا شَأنكِ قالَتْ لَيْسَ هَذا عُوْدِي .

فَقَـالَ لِلْخَـادِمِ جِئْهَا بعُوْدِهَا قال فجَاءَ بالعُود فَوافَقَ شَيْخا يَلْقُطُ

النَّوى فقال إبعِدْ عن الطريق يا شيخ فرفع الشيخُ رَأسَهُ فرأى العُودَ فأخَذَهَ فَضَرَبَ بِه الأرض .

فأخَذَهُ الخادِمُ وذهب به إلى صاحب الربع فقال احْتَفِظْ بهذا فإنه سَيَطلبـه أمير المؤمنين فقال له صاحب الربع ليس بِبَغْدَاد أعْبَدُ مِن هَذا فكَيْفَ يَطْلُبُهُ أمِيْرُ المُؤمِنِيْنَ .

فقال لَهُ اسْمَعْ مَا أقولُ لَكَ ثم دَخَل على هارونَ الرشيد فقال له إنّي مَرَرْتُ على شيخ يَلْقُطُ النَّوىَ فَقُلْتُ تَنَحَّ عن الطَّرِيْق يَا شَيْخُ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فرآى العُوْدَ « أيْ عُودَ الغِنَا » فأخَذه وضَرَبَ بهِ الأرضَ .

فَغَضب هارونُ واسْتَشَاطَ واحْمَرَّتْ عَيْنَاه فقال سُليمانُ بنُ جَعْفَر ما هذا الغَضَبُ يا أمِيْرَ المؤمنين إبْعَثْ إلى صَاحِبِ الرَّبْعِ يَضْرِبُ عُنَقَهُ ويَرْمي به في دِجْلَةَ فقال لاَ وَلَكنْ نَبْعَثُ إليه فَنُنَاظِرُهُ أوْلاً .

قال فَبَعَثَ إليه فَجَاءَهُ الرسولُ فقال أجِبْ أمِيْرَ المؤمِنين قال نَعَمْ قال ارْكَبْ قَالَ لاَ فَجَاءَ يَمْشِي حَتَّى أُوقِفَ على باب القَصْرِ فقيل لِهَارُوْنَ قَدْ جَاءَ الشَّيْخُ .

فقـال لِنَـدَامَاهُ أيُّ شيءٍ ترون نرفع مِن مَا قُدَّامنَا مِن المنكر حتى يدخل الشيخ أو نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر فقالوا نَقُومُ إلى مَجْلِسٍ آخَرَ لَيْسَ فيه مُنكر فقامُوْا صَغِرَةً إلى مجلسٍ لَيْسَ فِيه منكر .

ثم طلب الشيخ فأدْخِـلَ وفي كمه الكيس الذي فيْه النَّوى (أي الفصم) فقال له الخادم أخْرِجْ هذا وادْخُلْ عَلى أمير المؤمنين فقال مِن هَذَا عَشَائِي الليلة قال نَحْنُ نُعَشِّيْكَ قال لا حَاجَةَ لِي في عَشَاكم .

فقال له هارون أيُّ شيء تريد منه فقال في كمه نوى فقلتُ له اطرحه وادخل على أمير المؤمنين فقال دَعْهُ لا تطرحه فدخل على هارون وجلس .

فقال هارون يا شيخ ما حملك على ما صَنَعْتَ قال وأيُّ شيءٍ صَنَعْتُه وجعل هارون يَسْتَحِي أنْ يَقُول كَسَرْتَ عُودَنَا .

فلما أكثر عليه فقال الشيخ لِهَارون إني سَمِعْتُ آبآءَكَ وأجْدَادَكَ يقرؤن هذه الآية على المنبر ﴿ إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاءِ ذي القربى ويَنْهَي عن الفَحْشَآء والمنكر والبغي ﴾ ورأَيْتُ منكرا فَغَيَّرْتُهُ .

قال فَغَيِّرْهُ قال الراوى فوالله ما قال إلَّا هَذا فلما خَرَج أعْطَي هَارُوْنُ رَجُلًا بَدْرَةً يعنى عشرة آلاف درهم فقال له اتبع الشيخ فإن رأيتَهُ يقول قُلْتُ لأمير المؤمنين وقال لي فلا تُعْطِهِ شيئا وأتِني به وإن رَأيتَهُ لا يكلم أحَدًا فاعْطِه البدرة .

فلما خَرَج من القَصْرِ تَبِعَهُ ولم يَرَهُ يُكلِّمُ أحَدًا فقال له يقول لك أمير المؤمنين خذ هٰذِهِ البدرة فقال قل لأميرِ المؤمنين يَرُدَّهَا مِن حَيْث أخَذَهَا .

فانظر رحمك الله كيف حفظه الله جل وعلا من سطوتهم ورد عنه كيدهم ببركة الاخلاص والتقوى لرب العالمين وقال النبي ﷺ لابن عباس « يا غلام احفظ الله يحفظك » .

ولو كان هذا من الجهلة المرائين لخَرَجَ وهو يقول اتفق لي مع أمير المؤمنين كذا وكذا وقال لي وقُلْتُ له يَتَبَجَّحُ بذلك ولا يقنعُ بعِلْم الله جل وعلا واطلاعِهِ . هذا الله أعلم أنه من رقم (١) في الزهد .

فينبغي التفطن لمثل هذا فإنَّهُ دَلِيل على ما في القلب مِن الدَّاءِ الدَّفِينْ مِن الرِياء وطلبِ الجَاهِ والمنزلةِ في قلوب الخلق .

وقد روى النسائي وأبو داود أن النبي ﷺ قال « إنَّ اللَّهَ لا يَقْبَلُ مِن

العَمل الا ما كان خالصا ويبْتَغِي به وجْهَهُ » .

فإنْ قلتَ فما الذي يُمَيِّزُ لنا النيةَ الصالحةَ الخالصةَ من النية الفاسدة وما العلامةُ في ذلك والمعيار في صحته .

قُلْتُ مَحَلُ الاعتبار في ذلك أن يرى المُنْكِرُ نَفْسَهُ كالمكْرَهِ على هذا الفعل وكالمتكلف له والمتجشم المشقة فيه .

ويَوَدُّ لو تَصَدى لهذا الفعل غيره وكفاه الله به ويُحِبُ أنْ لا يَعْلَمَ بِهِ أَحَدٌ مِن الناسِ اكْتِفَاءً بعلم الله جل وعلا وتقدس واطلاعه عليه .

ويختار الكلام مع ولي الأمر من سلطان أو غيره في الخلوة على الكلام معه على رؤوس الاشهاد .

بل يَوَدُّ لو كَلَّمه سِرًا وحْدَهُ ونَصَحَهُ خُفيةً من غير حضور ثالث لهما ويكره أن يقال عنه أوْ يُحْكَى ما اتفق له .

ويكره أن يشتهر بذلك بين العامة بل لَو أثِرَ كلامُهُ وغير المنكر بقوله ثم اشتهر عند الناس نِسْبَةُ ذَلكَ إلى غيرِهِ لما شَقَّ عليه .

ذلك إذ في علم الله بحقيقة الحال كفاية وهو المجازى كل أحد بعمله .

ويكون قَصْدُهُ زَوَالُ المنكر على أَيِّ وَجْهٍ كان ولو حصل له مع زواله ازْدِرَاءٌ وَتَنَقُّصٌ وسَبٌ وتَغْلِيْظُ كَلامٍ وذَمٌّ بَيْنَ الناس أو إعْراضٌ وهَجْرٌ مِمَّنْ عادَتُه المَوَدَّةُ له والاقبال عليه ونحو ذلك من الأحوال التي تكْرَهُهَا النُفُوسُ وتَنْفُرُ منها الطباعُ .

فهذه كُلُّها مِن عَلامَاتِ الإخلاصِ وحُسْنِ القَصْدِ وابتغَاءِ وجْهِ اللّهِ تعالى والدارِ الآخرة .

وأما غَيْرُ الْمُخْلِص فبضد ذلك فير عند نفسه نشاطا إلى هذا الفِعل وإقبالاً عليه وسُرُوْرًا به ويُحِبُّ أن يكُونَ جَهْرًا في مَلاءٍ مِن الناسِ لَا سِرًّا ويُحِبُّ أنْ يُحْكَى عنه ذَلِكَ وَأَنْ يَشْتَهِر به وأن يُحْمَدَ عليه .

حتى إِنَّهُ لَو نُسِبَ إِزَالَةُ المنكرِ إلى غَيرِه لَقَامَتْ قِيامَتُهُ بَل تَجِدُهُ يَنْقَضى عُمُرهُ وهو يَحْكِي ما اتَّفَقَ لَهُ وَمَا قَال وَمَا قِيلَ لَهُ مُتَبَجِّحًا بذلك بينَ أقْرانه وزُمَلائِهِ وأبْناء جِنْسِهِ ورُبَّمَا زَادَ فِي القِصَّةِ ونَقَص .

ولو سَبَقَه غَيْرُهُ إلى ما كان هو قَدْ عَزَمَ عليه مِن ذلك ورجَعَ السلطانُ إلى قوله لَثَقُلَ ذَلك وشَقَّ عليه .

ورُبَّما يَقُولُ لِمَنْ يُطْلِعُهُ على نِيَّتِهِ كُنْتُ عَزَمْتُ على أنْ أَدْخُلَ على السُلطان فأقولُ لَهُ كذا وكذا ولكن سَبَقِني فلانٌ ولِكِنَّهُ لم يَتَكَلَّم كَمَا يَنْبَغِي ولو دَخَلْتُ علي لَقُلْتُ كذَا وفَعَلْتُ كذَا فهذه علامات على فساد النية وسُوْء القصد وعدم الاخلاص .

هَذِهِ نَمَاذِجُ وَأَمْثِلَةٌ سُقْنَاهَا مِنْ سِيْرَةِ العُلَمَاءِ الْمُخْلِصِيْنَ الْعَامِلِيْنَ بعِلْمِهِمْ الَّذِيْنَ لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِم واللَّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمْدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

سَأَل المَهْدِيُ الإمَامَ مالِكاً وقال له هَلْ لَكَ دَار ؟ فقال : لا . فأعْطَاهُ ثَلاثَةَ الآف دَيْنار وقال له : اشتر لَكَ بها دَار ، فأَخَذَ وأبْقَاهَا عِنْدَهُ .

فلما أرادَ الرشِيْدُ الرحِيْلَ إلى بغداد قال لِمالِك : يَنْبَغِي لَكَ أن تَخْرُجَ مَعَنا فإني عَزَمْتُ أنْ أحْمِلَ النَّاسَ على المُوَطَّأ ، كَمَا حَمَلَ عُثمَانُ رضي الله عنه الناسَ على القرآن . فقال لَهُ مَالِكُ : أَمَّا حَمْلُ الناسِ عَلى المُوَطَأ فَلَيْسَ إلى ذلك سَبِيْل لِأَنَّ أصْحَابَ رسول الله ﷺ افْترقُوا بَعْدَهُ في الأَمْصَار فَحَدَّثوا فعِنْدَ كُلِّ أهْلِ مِصْرٍ عِلْمٌ .

وقَدْ قَال رَسُولُ الله ﷺ اخْتِلافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ ، وأما الخُرُوْجُ مَعَكَ فلا سَبِيْل إليه ، قال رسول الله ﷺ المدينة خيرُ لَهُم لو كانوا يَعْلَمُون ، وقال المدينةُ تَنْفِي خَبَثَهَا كَمَا يَنْفِي الكِيْرُ خَبثَ الحَديْد .

وهذه دَنانِيْركُمُ كَمَا هِيْ إنْ شِئْتُم فَخُذُوْهَا وإنْ شئتُم فَدَعُوهَا يَعْنِي أنكَ إنَّما كَلَفْتَنِي مُفَارَقَةَ المدِيْنَةِ بما اسْطَعْتَهُ لَدَيَّ مِن أخْذِ هَذِهِ الدنانير ، فالآنَ خُذْهَا فإني لاَ أُوْثِرُ الدنيا وما فيها على مُفَارَقِةِ المَدِيْنةِ .

هذا مِن رَقِم واحِد في العَفَافِ والزُهْدِ ، لِلهِ دَرُّه هكذا العلماء العَامِلُون المخلصُون البعيدون عن الشهرة والظهور والرياء .

شِعْــرا :

إذا رُمْتَ أن تَنْجُو مَن النارِ سَالِماً ... وتَنْجُوَ مِن يَوْمٍ مَهُوْلٍ عَصَبْصَبِ
وتُحْظَى بِجَنَّاتٍ وحُوْرٍ خَرَائِدِ ... وتَرْفُل في ثَوبٍ مَن المَجْدِ مُعْجِبِ
وفي هَذِهِ الدنيا تَعِيْــشُ مُنَعَّماً ... عَزْيزاً حَمِيْداً نَائِلاً كُلَّ مَطْلَبِ
فَمِلَّةَ إبْرَاهِيْمَ فاسْلُكْ سَبِيْــلَهَا ... هِي العُرْوَةُ الوُثْقى لأهْلِ التَّقَرُّبِ
فَعادِ الذي عَادَى وَوَال الذي لَهُ ... يُوَالِيْ وأبْغِضْ في الإلِه وأحْبِبِ
فَمَنْ لَمْ يُعَادِي المُشْرِكِيْنَ ومَنْ لَهُمْ ... يُوَالِي ولم يُبْغِضْ وَلَم يتَجَنَّبِ
فَلَيْسَ على مِنْهَاجِ سُنَّةِ أحْمَــدٍ ... ولَيْسَ على نَهْج قَوِيْمٍ مُقَرِّب
وأخْلِصْ لِمَوْلاَكَ العِبَادَةَ رَاغِباً ... إليه مُنِيْباً في العِبَــادَةِ مُذْنِبِ
مُحَباً لأهْلِ الخَيْرِ لا مُتَكَرِّهاً ... ولا مُبْغِضاً أوْ سَالِكاً مَنْهَجاً وَبِ
وكُنْ سَلِساً سَهْلاً لَبِيْبــاً مُهَذَّباً ... كَرِيْماً طَلِيْقَ الوَجْهِ سَامِي التَّطَلُّبِ
إلى كُلِّ مَن يَدْنُو إلى مَنهَجِ التُّقى ... فَخَيرِ الوَرَى أهْلُ التُّقى والتَّقَــرُّبِ
ومَنْهَجُهُمْ خَيْرُ المَنَاهِجِ كُلِّهَــا ... ومَوْكَبُهُمْ يَوْمَ اللِّقَا خَيْرُ مَوْكَبِ
فَهَذا الذي يُرْضَى لِكلِ مُوحِــدِ ... وهذا الذي يُنْجِي بِيَوْمٍ عَصَبْصَبِ

وذلِكَ يَومٌ لَوْ عَلِمْتَ بِهَوْلِهِ لَبِتَّ لَعَمْرِي سَاهداً ذَا تَقَلُّبِ
وَلَمْ تَتَلَذَّذْ بالحَيَاةِ وَطِيْبِهَـا وَأصْبَحْتَ فيها خَائِفاً ذَا تَرَقُّبِ

اللَّهمَّ بارِكْ في أَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَنَوِّرِ قُلُوبِنَا وَأَصْلِح ذَاتَ بَيْنِنَا وَأَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِنَا واهدِنَا سُبُلَ السَّلامِ وَنَجِّنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النور وَجَنِّبْنَا الفواحشَ ما ظهرَ مِنْها وَمَا بَطنَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرحَمَ الراحمينَ وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصْــــــلٌ)

في الأَمْر بالمَعْرُوْفِ والنَّهْي عَن الْمُنْكَر

اعْلَم وَفَّقَكَ اللَّهَ أَنَّ الآمْر بالْمَعْرُوْف والنَّهْيَ عَن الْمُنْكر يجبَانِ وُجُوبَ كَفائِيٍّ يُخَاطَبُ بِهِ الْجَمِيْعُ ، وَيَسْقُطُ بِمَنْ يَقُوْمُ بِه ، وَانْ كَانَ الْعَالِمُ بِه وَاحِداً تَعَيَّنَ عَلَيْهِ ، وَانْ كانُوا جَمَاعَةً لَكِنْ لَا يَحْصُلُ الْمَقْصُودُ الاّ بِهِمْ جَمِيْعاً تَعَيَّنَ عَلَيْهِمْ .

وَأَمَّا تَعْرِيْفِهُمَا ، فالمَعْرُوْفُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا عُرِفَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَالتَّقَرُّبِ إليْهِ وَالاحْسَانِ إلى النَّاسِ ، والْمُنْكَرُ ضِدُّهُ وَعَرَّفَهُ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ الْمُنْكَرُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَيَنْهَى عَنْهُ وَالمَعْرُوْفُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ مِنَ الإِيْمَانِ والْعَمَلِ الصَّالِحِ .

وَقَدْ حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْنَا الْخَيْرَ وَأَمَرَنَا أَنْ نَدْعُوَ إِلَيْه ، وَكَرَّهَ إِلَيْنَا الْمُنْكَرَ وَنَهَانَا عَنْهُ ، وَأَمَرَنَا بِمَنْعِ غَيْرِنَا مِنْهُ ، كَمَا أَمَرَنَا بِـالتَّعَاوُن عَلَى البِرِّ

وَالتَّقْوَى . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَعَاوَنُوْا عَلى البِرِّ والتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلى الإِثْمِ والْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوْا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيْدُ العِقَابِ ﴾ .

وَالأَصْلُ فِي وجُوْبِهما : الْكِتَابُ وَالسُّنَّةَ وَالإِجْمَاع قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُوْنَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُوْنَ ﴾ .

وَأَبَانَ جَلَّ وَعَلَا أَنَّنَا بِهِمَا خَيْرُ الأُمَمِ فَقَالَ : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَـأْمُرُوْنَ بِـالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَـوْنَ عَنْ الْمُنْكَر ، وَتُؤْمِنُـوْنَ بِاللَّهِ ﴾ .

وَفِيْ الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ مِنْ حَدِيْثِ عَمْرو بْنِ مُرَّةَ عَنْ سَالِم بْنِ أَبِيْ الْجَعْدِ عَنْ أَبِيْ عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدَ اللَّهِ بِنْ مَسْعُوْدٍ عَنْ أَبِيْهِ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَان إِذا عَمِلَ الْعَامِلُ الْخَطِيئَةَ جَاءَهُ النَّاهِيْ تَعْذِيْراً فإِذَا كَانَ الْغَدُ جَالَسَهُ وَوَاكَلَهُ وَشَارَبَهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَرَهُ عَلَى خَطِيْئَةٍ بِالأَمْسِ فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ مِنْهُمْ ضَرَب بِقُلُوْبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْض ثُمَّ لَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ وَعِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوْا يَعْتَدُوْنَ .

وَالَّذِيْ نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوْفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ السَّفِيْهِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْراً أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوْبِ

بَعْضِكُم عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لِيَلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ .

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِيْ الدُّنْيَا عَنْ ابْرَاهِيْمَ بْنِ عَمْرو الصَّنْعَانِيِّ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى يُوشَعَ بْنِ نُونٍ إِنِّي مُهْلِكٌ مِنْ قَوْمِكَ أَرْبَعِيْنَ أَلْفاً مِنْ خِيَارِهِمْ وَسِتِيْنَ أَلْفاً مِنْ شِرَارِهِمْ قَالَ يَا رَبِّ هَؤُلَاءِ الاشْرَارُ فَمَا بَالُ الأَخْيَارِ قَالَ إِنَّهُمْ لَمْ يَغْضَبُوا لِغَضَبِيْ وَكَانُوا يُواكِلُونَهُمْ وَيُشَارِبُونَهُم .

وَذكَرَ أَبُوْ عُمَرَ بْن عَبْدِاللَّهِ عَنْ أَبِيْ عِمْرَانَ قَالَ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكَيْنِ إِلى قَرْيَةٍ أَنْ دَمِّرَاهَا بِمَنْ فِيْهَا فَوَجَدُوا فِيْهَا رَجُلاً قَائِماً يُصَلِّي فِي مَسْجِدٍ فَقَالاَ يَا رَب إِنَّ فِيْهَا عَبْدَكَ فُلَاناً يُصَلِّيْ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دَمِّرَاهَا وَدَمِّرَاهُ مَعَهُمْ فَإِنَّهُ مَا تَمَعَّرَ وَجْهُهُ فِيَّ قَطُّ .

وَذَكَرَ الْحُمَيْدِيُّ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ قَالَ حَدَّثَنِيْ سُفْيَانُ ابْنُ سَعِيْدٍ عَنْ مِسْعَرٍ أَنَّ مَلَكاً أُمِرَ أَنْ يَخْسِفَ بِقَرْيَةٍ فَقَالَ يَا رَبِّ إِنَّ فِيْهَا فُلَاناً الْعابِدَ .

فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ أَنْ بِهِ فَابْدَأْ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ وَجْهُهُ فِيَّ سَاعَةً قَط .

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِيْ الدُّنْيَا عَنْ وَهَبْ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ لَمَّا أَصَابَ دَاوُدُ الخَطِيْئَةَ قَالَ يَا رَبِّ اغْفِرْ لِيْ قَالَ قَدْ غَفَرْتُ لَكَ وَأَلْزَمْتُ عَارَهَا بَنِيْ اسْرَائِيْلَ قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ وَأَنْتَ الحَكَمُ الْعَدْلُ لَا تَظْلِمُ أَحَداً أَنَا أَعْمَلُ الْخَطِيْئَةَ وَتُلْزِمُ عَارَهَا غَيْرِيْ .

فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنَّكَ لَمَّا عَمِلْتَ الْخَطِيْئَةَ لَمْ يَعْجُلُوا عَلَيْكَ بِالإِنْكَارِ .

وَأَوْضَحَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الأَجْرَ بِهِمَا عَظِيْمٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لاَ خَيْرَ فِيْ كَثِيْرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ، أَوْ مَعْرُوْفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ

النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيْهِ أَجْراً عَظِيْماً ﴾

وَوَصَفَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِأَنَّ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيَقِيْمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ وَيُطِيْعُونَ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ .

وَشَهِدَ اللَّهُ بِالصَّلاَحِ لِلْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ أَضَافُوْا إِلىٰ ايْمَانِهِمْ الْقِيَامَ بِهِمَا فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُسارِعُونَ فِيْ الخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِيْنَ ﴾ .

وَبَيَّنَ جَلَّ شَأْنُهُ أَنَّ قَوْماً مِنْ بَنِيْ اسْرَائِيْلَ اسْتَحَقُّوْا اللَّعْنَ بِتَرْكِهِمَا فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لُعِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ بَنِيْ اسْرَائِيْلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوْا يَعْتَدُوْنَ ، كَانُوْا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوْهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُوْنَ ﴾ .

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ وَبَّخَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عُلَمَاءَهُمْ فِيْ تَرْكِهِمْ نَهْيَهُمْ فَقَالَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

قَالَ وَدَلَّتْ الآيَةُ عَلَى أَنَّ تَارِكَ الْمُنْكَرِ الَّذِيْ لاَ يَنْهَى عَنْهُ كَمُرْتَكِبِهِ .

وَذَلِكَ أَنَّ الأُمَّةَ فِي عَهْدِ اسْتِقَامَتِهَا وَتَمَسُّكِهَا بِالسُّنَنِ لاَ تَتْرُكُ بَيْنَ أَظْهُرِهَا عَاصِياً وَلاَ مَعْصِيَةً فَإِذَا رَأَتْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ ثَارَتْ ثَوْرَةَ الأُسُوْدِ وَلَمْ تَسْكُنْ حَتَّى تُذِيْقَهُ مَا يَسْتَحِقّ عَلَى مَعْصِيَتِهِ .

كُلُّ ذَلِكَ غَيْرَةً عَلَى دِيْنِهَا وَطَلَباً لِمَرْضَاةِ رَبِّهَا . وَالْعُصَاةُ وَالْفَسَقَةُ يَرْتَدِعُونَ عِنْدَمَا يَرَوْنَ رَدْعَ اخْوَانِهِمْ . انْتَهَى كَلاَمُهُ .

وَفي سُوْرَةِ الاعْرَافِ يُخْبِرُنَا جَلَّ وَعَلا عَمَّا كَانَ مِنْ بَنِيْ اسْرَائِيْلَ وَمَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ العَذَابِ فَيَقُوْلُ : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُوْنَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيْداً قَالُوْا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . فَلَمَّا نَسُوْا مَا ذُكِّرُوْا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِيْنَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوْا يَفْسُقُوْنَ فَلَمَّا عَتَوا عمَّا نُهُوْا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُوْنُوْا قِرَدَةً خَاسِئِيْنَ﴾. فأفادَتْ هَذِهِ الآيَاتُ أَنَّ بَنِيْ اسْرَائِيْلَ صَارُوْا إِلَى ثَلاثِ فِرَقٍ .

فِرْقَةٌ ارْتَكَبَتْ الْمَحْذُوْرَ وَاحْتَالُوْا عَلَى اصْطِيَادِ الأَسْمَاكِ يَوْمَ السَّبْتِ الْمُحَرَّمِ فِيْهِ الصَّيْدُ ، وَفِرْقَةٌ نَهَتْ عَنْ ذَلِكَ واعْتَزَلَتْهُمْ ، وَفِرْقَةٌ سَكَتَتْ فَلَمْ تَفْعَلْ وَلَمْ تَنْه وَلَكِنَّهَا قَالَتْ لِلْمُنْكِرَةِ لِمَ تَعِظُوْنَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيْداً ، أَيْ لِمَ تَنْهَوْنَ هَؤُلاءِ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوْا وَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوْبَةَ مِنَ اللَّهِ فَلاَ فَائِدَةَ في نَهْيِكُمْ إِيَّاهُمْ .

قَالَتْ لَهُمْ الْمُنْكِرَةُ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ أَيْ فِيْمَا أُخِذَ عَلَيْنَا مِنَ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُوْنَ أَيْ وَلَعَلَّ لِهَذَا الإِنْكَارِ يَتَّقُوْنَ مَا هُمْ فِيْهِ وَيَتْرُكُوْنَهُ وَيَرْجِعُوْنَ إِلَى اللَّهِ تَائِبِيْنَ فَإِذَا تَابُوا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ .

فَلَمَّا نَسُوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ (أَيْ فَلَمَّا أَبَى الْفَاعِلُوْنَ قَبُوْلَ النَّصِيْحَةِ) أَنْجَيْنَا الَّذِيْنَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوْءِ وَأَخَذْنَا الَّذِيْنَ ظَلَمُوا (أَيْ اللَّذِيْنَ ارْتَكَبُوا الْمَعْصِيَةِ) بِعَذَابٍ بَئِيْسٍ ، فَنَصَّتْ الآيَاتُ عَلَى نَجَاةِ النَّاهِيْنَ وَهَلاكِ الظَّالِمِيْنَ وَسَكَتَتْ عَنْ السَّاكِتِيْنَ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانُوا ثَلاثَةً ثُلُثٌ نَهَوْا وَثُلثٌ قَالُوا

لِمَ تَعِظُوْنَ قَوماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيْداً وَثُلُثُ أَصْحَابُ الْخَطِيْئَةِ فَمَا نَجَا إِلاَّ الَّذِيْنَ نَهَوْا وَهَلَكَ سَائِرُهُمْ وَهَذَا اسْنَادُهُ جَيِّدٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .

وَفِيْ الحَدِيْثِ الثَّابِتِ عَنْ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ أَبِيْ بَكْرٍ الصِّدِيْق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .أَنَّهُ خَطَبَ النَّاسَ عَلَى مِنْبَرِ رَسُوْل اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنكُمْ تَقْرَءوُنَ هَذِهِ الآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ .

وَإِنِّي سَمِعْتَ رَسُوْلَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوْهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ منه » وَفِيْ لَفْظٍ (مِنْ عِنْدِهِ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ والتِّرْمِذِيْ وَقَالَ حَدِيْثٌ حَسَنٌ صَحِيْحٌ وابْنُ مَاجَةَ والنَّسَائِيُّ وَلَفْظُهُ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ : « إِنَّ الْقَوْمَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيروْهُ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ » .

وَفِيْ رِوَايَةٍ لِأَبِيْ دَاوُدَ سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ : « مَا مِنْ قَومٍ يُعْمَلُ فِيْهِمْ بِالْمَعَاصِيْ ثُمَّ يَقْدِرُوْنَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوْا ثُمَّ لاَ يُغَيِّرُوْا إِلاَّ يُوشِكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ » وَفِيْ رِوَايَةٍ : « إِنَّ النَّاسَ إذا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُم اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ » .

وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُاللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حُمَيْدٍ وَلَقَدْ وَصَلْنَا إِلى حَدٍ مَاتَتْ فِيْهِ الْغَيْرَةُ الدِّيْنِيَّةُ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ مِمَّنْ يُرْجَى وَيُظَنُّ أَنَّهُمْ حُمَاةِ الإِسْلاَمِ وَأَبْطَالَ الدِّيْنِ مِمَّا جَعَلَ العُصَاةَ يَمْرَحُونَ فِي مَيَادِيْنِ شَهَواتِهِمْ وَيَفْتَخِرُوْنَ بِعِصْيَانِهِم بِدُوْنِ حَسِيْبٍ وَلاَ رَقِيْبٍ .

وَلَوْ شِئْتُ لَقُلْتُ وَلاَ أَخْشَىٰ لاَئِماً نَحْنُ فِيْ زَمَنٍ عَلاَ فِيْهِ وَاعْتَزَّ أَرْبَابُ الرَّذائِلِ وَأَصْبَحَتْ الدَّوْلَةُ لَهُمْ وَأَهْلُ الْفَضِيْلَةِ الْمُتَمَسِّكُوْنَ بِأَهْدَابِ دِيْنِهِمْ عِنْدَمَا يُنْكِرُوْنَ عَلَى الْمُجْرِمِيْنَ إِجْرَامهُمْ يَكُوْنُوْنَ كَالْمضغَةِ في الأفْوَاهِالْبَذِيْئَةِ تَرْمِيْهِمْ بِكُلِّ نَقِيْصَةٍ وَأَقَلُّ مَا يَقُوْلُوْنَ إِنَّهُمْ مُتَأَخِّرُوْنَ جامِدُوْنَ في بَقَايَا قُرُوْنِ الْهَمَجِيَّةِ يَسْتَهْزِؤُنَ وَيُقَهْقِهُوْنَ وَيَغْمِزُونَ بالحَواجِبِ وَالعُيونِ وَيُخرِجُون أَلسِنَتَهم سُخْرِيَة واسْتِهْزاءً بهم وَيَضْحَكُون مِن عُقولِهم لَمَّا راجَتْ الرَّذِيْلة هَذا الرَّوَاجُ وما دَرَى هَؤلاَءِ أَنَّهم في غَايَةٍ مِن السُّقُوطِ والهَمَجِيَّةِ لِفَسَادِ عُقولِهم وَبُعْدِهم عن مَعْرِفَةِ أَوَامِرِ دِيْنِهِم .

وَنَاهِيْكَ لَوْ قَامَ كُلّ مِنّا بما عَلَيهِ مِن الدَّعْوَةِ لـلإِسْلاَمِ والأَمْرِ بالمَعْرُوفِ والنهي عن المنكر وارشَادِ النَّاسِ وَعِظَتِهم وَتَذْكِيْرِهم بما فِيْهِ صَلاَحُهم واسْتِقَامَتُهم لا اسْتَقَرَّ الخَيْرُ والمَعْرُوفِ فِيْنَا وَامْتَنَعَ فُشُوُّ الشَّرِّ والْمُنْكَرِ بَيْنَنَا أ هـ واللهُ أعلَمُ وصلَّى اللهُ على مُحَمَّد .

قال بعضهـم :

قُمْ يا مُحَمَّدُ واسْتَمِعْ لي يَا عُمَرْ ... واسْتَيقِظاً فالدينُ يَدْعُو لِلنَّصرْ
وغَداً بنوُ الإسلامِ في زَيغٍ فمَا ... يَسْعَـونَ إلا لِلْملاهِـي والبَطَـرْ
تَرَكُوا هُدى الدِينِ الحَنيفِ المُعْتَبَرْ ... واسْتبدلُوا العَيْنَ الصحيحةَ بالعَوَرْ
ونَسوُا أُصُولَ الدِينِ مِنَ دهَشٍ وقَدْ ... أضْحَى نَصِيْرُ الشَّرْعِ فيهم مُحْتَقَرْ
والدِينُ يَدْعُوهُم وهـمُ فيْ غَفْلَةٍ ... وقُلُوبُهم ضَلَّتْ وَقَدْ عَمِيَ البَصَرْ
حَتَّى تَشَتَّتْ شَمْلُـهُ واصْدَّعَتْ ... أَرْكَانُـهُ وأساءَ مَثْـواهُ الضَّرَرْ
فإلَىٰ مَتَى هَذَا السُكوُتُ وقَدْ دَنَا ... وَقْتُ الجِهَادِ وَمالَنا عَنهُ مَفَـرْ
عَارٌ وَأيْمُ اللهِ أَنْ نَلْهُـو وَقَـدْ ... كَادَتْ مَعَالِمُ دِيْنِنا أَنْ تَنْدَثِـرْ
فَكَفَاكُمـوا زيغاً وهَجْراً فامْدُدُوْا ... أَيْدِي الخلاصِ وأيّدُوا الدِينَ الأَغَرْ
وذَرُوا جدالَ الملحديـن فانهم ... فَقَدُوا الرشادَ وكَانَ مَأواهـمُ سَقَرْ

وتكاتَفوُا في السّعْـي حَوْلَ نَجاتِـهِ   لَا يَثْنِ هِمَّتكمُ خُمُوْلٌ أوْ ضَجَرْ
فاللهُ في عَونِ العِبـادِ إذَا هُمُــوا   نَصَرُوْا الحنيفَ وحَصّنُوهُ مِنَ الغِيرْ

واللّهُ أَعْلَم وَصَلّى اللّهُ على نَبِيِّنَا مُحَمَّد وَعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْــلٌ)

وَعَن أبي سَعِيْد الخُدْري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهُ صَلّى الله عَلَيهِ وسَلَّمَ يَقولُ : « مَنْ رَأى مِنْكُم مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فإنْ لَمْ يَسْتَطع فَبِلِسَانِهِ فإنْ لَم يَسْتَطع فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإيْمَانِ » رَوَاهُ مُسْلِم .

وَعَنْ ابن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم قالَ : « مَا مِن نبي بَعَثَه اللهُ في أمّةٍ قَبْلِي إلا كانَ لَه مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وأصْحَابٌ يأخذُونَ بِسُنّتِهِ ، وَيَقْتَدُوْنَ بِأَمْرِهِ » .

ثُمَّ تَخَلَّفَ مِن بَعْدِهم خُلوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لا يُؤمَرُونَ ، فَمَن جَاهَدَهُم بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَن جَاهَدَهُم بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُم بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، ليس وَرَاءَ ذَلِكَ مِن الإِيْمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ ، رَوَاهُ مُسْلم .

وَعَنْ حُذَيفة رَضِيَ اللهُ عنهُ عن النَّبي صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم قال : « والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرونَّ بالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عن المُنْكَرِ أَوْ لَيُوْشِكَنَّ اللهُ أنْ يَبْعَثَ عليكُم عِقَاباً مِنهُ ثم تَدْعُوْنَهُ فَلاَ يُسْتَجابُ لَكُمْ » رَوَاهُ التّرْمِذِيّ ، وَقَالَ حَدِيْث حَسَنٌ .

وَرَوى الترمذيّ عن أبي هريرة أنّ رسولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَرَّ على صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَل يَدَه فيها فَنَالَتْ أَصَابِعُه بَللاً فقالَ : « مَا هَذا يَا صَاحِبَ الطَّعَام ؟ فقال : أَصَابَتْهُ السَّماءُ يَا رَسولَ اللهِ قال : أفَلاَ جَعَلْتَه فَوْقَ الطَّعَامِ حَتى يَرَاهُ النَّاسُ مَن غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » .

فَهَذَا نَهْيٌ منهُ صَلَّى الله عليه وسلم عَن مُنْكَرٍ ، هُوَ غِشُّ الناسِ في طَعَامهم وأَجْمَعَتْ الأمَّةُ على وُجُوبِ الأَمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهيِ عن المُنْكَر .

وَأَخرَج الامَامُ أَحْمَد في المَسْندِ أنَّ الوَلِيدَ بن عُقْبَةَ أَخَّرَ الصلاةَ مرّةً فقامَ عبْدُ اللهِ بن مسْعُودٍ فَثَوَّبَ بالصَّلاَةِ فَصَلَّى بالنَّاسِ فأَرْسَلَ إليهِ الوَلِيْدُ : مَا حَمَلكَ على مَا صَنَعْتَ أَجاءَك مِن أميرِ المؤمنينَ أمْرٌ فِيْمَا فَعلْتَ أَمِ ابْتَدَعْتَ قالَ لَمْ يَأْتِنِي أَمْرٌ مِن أَمِيْرِ المؤمنِينَ وَلِم ابْتَدَعْ وَلَكِنْ أبَى اللهُ وَرَسُولَهُ عَلَيْنَا أَنْ نَنْتَظِرَكَ بِصَلاتِنا وَأَنْتَ في حَاجَتِكَ .

قَالَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ رَحِمَهُ اللهُ : لاَ بُدَّ مِن العِلْمِ بالمَعْرُوْفِ والمُنْكَرِ والتَّمْيِيْزِ بَيْنَهُمَا . الثَّاني أنه لا بُدَّ مِن العِلْمِ بِحَالِ المَأْمُورِ والنَّهْيِ ، وَمِنَ الصَّلاَحِ أَنْ يَأتِيَ بالأَمْرِ والنَّهي بالصِّرَاطِ المُستقيمِ وهو أَقْرَبُ الطّرقِ إلى حُصُولِ المَقْصُودِ ولا بدَّ في ذلكَ مِن الرِّفقِ وَلا بُدَّ أنْ يَكونَ حَلِيْماً صَبُوراً على الأذى فانَّهُ لا بُدَّ أن يَحصُل له أذىً فإنْ لَم يَحْلَمْ وَيَصْبِرَ كانَ ما يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ فَلاَ بُدَّ مِنَ العِلْمِ والرِّفْقِ والصَّبْرِ ، والعِلْم قَبْلَ الأمْرِ والنَّهي والرِّفْقِ مَعَهُ والصَّبْرُ بَعْدَهُ .

وَقال سُفيانُ لا يَأْمُرُ بالمَعْرُوفِ ولا يَنْهَى عن المُنْكَر إلَّا مَنْ كَان فِيهِ خِصَالٌ ثلاثٌ رَفِيقٌ بِمَا يَأْمُرُ رَفِيقٌ بما يَنْهَى عَدْلٌ بما يأمُر عَدلٌ بما يَنْهَى عالِمٌ بما يَأْمُرُ عالِمٌ بما يَنْهَى .

وَقال عبدُ الملكِ بنِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ لأبيهِ يَا أَبَتِ ما يَمْنَعُكَ أن تَمْضِي لِمَا تُرِيْدُ مِن العَدْلِ فواللهِ مَا كُنْتُ أُبَالِيْ لو غَلَتْ بي وبكَ القدورُ في ذلكَ قال يَا بُنَيَّ إنِّي إنَّما أُرَوِّضُ الناسَ رِياضَةَ الصَّعْبِ إني أُرِيْدُ أَنْ أُجِيءَ الأَمْرَ مِن العَدْلِ فأؤَخِرُ ذَلِكَ حَتَّى أُخرِجَ مَعَهُ طَمعاً مِن طَمَعِ الدنيا

فَيَنْفِرُوْا مِن هَذَا وَيَسْكُنُوا لِهَذِهِ .

وَيُشْتَرَطُ في وُجُوبِ الانكارِ أَنْ يَأْمَنَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ ، فانْ خَافَ السَّبَ أَوْ سَمَاعَ الكلامِ السَّيءِ لـم يَسْـقطْ عنه والحَزْمُ أَنْ لاَ يُبَالِي لِمَا وَرَدَ « أَفْضَلُ الجهادِ كَلِمَةُ حَقٍ عِنْدَ سُلْطانٍ جَائِرٍ » وَقَولُه « لا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُم هَيْبَةُ النَاسِ أن يَقُولَ بِحَقٍ إِذا عَلِمَهُ » .

وقال ابنُ القيم رحمه اللهُ : انكارُ المنكرِ له أربعُ درجاتٍ :

(الأُولَى) أَنْ يَزولَ وَيَخلُفَهُ ضِدُّهُ .

(الثانيةُ) أن يَقِلَّ وانْ لَم يَزلْ مِن جُمْلَتِهِ .

(الثالثة) أن يَخْلُفَهُ ما هُو مِثلُهُ .

(الرابعة) أن يَخْلُفَهُ ما هُوَ شَر منه .

فالدرجتان الأُولَيَانِ مَشْرُوْعَتَانِ ، والثالثةُ مَوْضِعُ اجتهادٍ والرابعـةُ مُحَرَّمَةٌ ، وَلْيَحْذَرِ الآمرُ والناهِيُ مِن أنْ يُخَالِفَ قولَهُ أو أنْ يَأمُرَ بِمَالا يَأْتَمِرُ بِهِ .

فَقَدْ وَرَدَ عن أَنسٍ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال : قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم : « مَرَرْتُ ليلةَ أُسْرِيَ بِي على قومٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُم بِمَقَارِيْضَ مِن نَارٍ : قال قُلْتُ مَنْ هَؤُلاَءِ قَال خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ مِن أهلِ الدنيا مِمَّنْ كانُوا يأمُرُوْنَ الناسَ بالبرِ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُم وَهُمْ يَتْلُونَ الكتابَ أَفَلا يَعْقِلون » . وَحَتَّى لاَ يَتَعَرَّضَ لِسُخْرِيَّةِ الناسِ بِهِ واسْتِهْزَائِهِم به وحتى تكونَ دعوتُه مَقْبُولَةً .

فَراكَ مِن الأيامِ نَابٌ ومِخْلَبُ ... وخانَكَ لَونُ الرأسِ والرأسُ أشْيَبُ
فَحتَّامَ لا تَنْفكُّ جامِحَ هِمَّةٍ ... بَعيدَ مَرامِي النفسِ والموتُ أقْرَبُ
تُسَرُّ بعَيشٍ أنْتَ فيهِ مُنغَّصٌ ... وتَسْتَعْذِبُ الدنيا وأنتَ مُعذَّبُ
تُعذِّبك والأوقاتُ جِسْمَك تَغْتَذي ... وتَسْقيك والساعاتُ رُوحَكَ تَشْرَبُ
وتَعْجَبُ مِن آفاتِها مُتَلَفِّتاً ... إليها ، لَعَمْرُ الله فِعلُك أعْجَبُ
وتحْسَبُها بالبِشْرِ تُبطِنُ خُلَّةً ... فيَظْهرْ منها غيْرُ ما تَتَحَسَّبُ
إذا رَضِيَتْ أعمتْكَ عن طُرق الهدى ... فما ظَنُّ ذِي لُبٍ بها حِينَ تَغْضَبُ
وفي سَلْبِها ثَوبَ الشبابِ دَلَالَةٌ ... على أنها تُعطِي خِدَاعاً وتَسْلبُ
أتَرضَى بأنْ يَنهاكَ شيْبكَ والحِجَا ... وأنتَ مَعَ الأيامِ تَلْهُوْ وتَلْعَبُ

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

(فصـــــــل)

قال شَيخُ الإسلامِ رحمه الله : مَن لَمْ يَكنْ في قَلْبِهِ بُغْضُ ما يُبْغِضُه اللَّهُ وَرَسولُه مِن المنكرِ الذي حَرَّمَهُ مِن الكفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ ، لم يَكُنْ في قَلْبِـهِ الإيمانُ الذي أَوْجَبَهُ اللَّهُ عليه فانَّ مَن لم يَكنْ مُبْغِضاً لِشَيءٍ مِن المُحَرَّمَاتِ أَصْلاً لَمْ يَكُنْ مَعَهُ إيمان أَصْلاَ .

والحَاصلُ أنَّ الإنسانَ يَأْتِيْ مِن ذَلِك بِمَا يَسْتَطِيعُ ولا يُقَصِّرُ في نُصْرَةِ دِين اللَّهِ ولا يَعْتَذِرْ في إسْقاطِ ذَلِك بَالاعْذَارِ التي لا تَصِحُ وَلاَ يَسْقُطُ بها ما أَوْجَبَ اللَّهُ عليه مِن أَمْرِ اللَّهِ ، وَعَليهِ بالأخذِ بالرفقِ واللُّطفِ واظهارِ الشَّفَقَةِ والرحمةِ فانَّ ذلكَ عليهِ مَدَارٌ كَبيْرٌ عندَ الأمْرِ بالمعروفِ والنهي عن المُنْكَرِ .

قال الله تعالى : ﴿ أدعُ إلى سَبيل رَبك بالحِكمةِ والموعظَةِ الحسنةِ وَجَادلهم بالتِّي هي أَحسن ﴾ وَمِن الحكمةِ أَنْ يَدْعُوَ كُلَّ أحدٍ على حَسَبِ حالهِ وَفَهمهِ وَقَبُولِه وانقيادِهِ .

وَمِن الحِكْمَةِ الدَّعْوَةُ بالعلمِ والبَدَاءَةُ بالأَهَم فالأَهَم ، وبالأقرب إلى الأذهَانِ والفَهْمِ وَبِما يكونُ قَبُولُه أتَمَّ ، وبالرِّفْقِ واللّين ، فإِنْ انْقَادَ بالحِكْمَةِ والا فَيَنْتَقِلُ مَعَه إلى الدَّعْوَةِ بالموعِظَةِ الحَسَنَةِ ، وَهُوَ الأَمْرُ وَالنَّهيُ المَقْرُوْنُ بالترغيب والترهيب .

وَلْيَحْـذَرْ مِن المُـدَاهَنَةِ في الدِيْن ، وَمَعْنَاهُ أن يَسْكُتَ الإنسانُ عن الأَمِرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهي عن المنكرِ وعن قولِ الحقِ وكلمةِ العدلِ : طَمِعاً في الناس وتوَقُّعاً لِمَا يَحْصُلُ منهم مِن جاهٍ أو مالٍ أو حُظُوظِ الدنيا .

وقال أَبُو عَبْدِ اللَّهِ لِعُمَرَ بنِ صَالح يا أَبا حَفْصٍ يَأتِيْ على الناسِ زمانٌ يكونُ المؤمنُ فيه بَينَهُمْ مِثل الجِيْفَةِ ويكونُ المُنافِقُ يُشَارَ إليهِ بالاصَابع فَقُلْتُ يا أَبَا عبدالله وَكَيْفَ يُشَارَ إلى المُنَافِقُ بالاصَابعِ فقال يا أبا حَفْص صَيروا أمر الله فُضُولا .

وَقَال المؤمِنُ إذا رَأَى أمْراً بالمعروف أو نَهْياً عن المُنكر لم يَصْبِرْ حتى يَأمُرَ وَيَنْهَى قالوا يعنى هَذا فُضُولٌ قال والمنافقُ كُلُّ شيءٍ يَرَاهُ قال بيَدِهِ على فَمِهِ « أَيْ صَمَتَ فلم يَنْـهَ ولم يَأْمُـرْ فقالوا : نِعْمَ الرَّجُلُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الفُضُولِ عَمَلٌ » .

وَقَد رُوِيَ أن الجَارَ يومَ القيامةِ يَتَعَلَّقُ بجارِهِ وَيَقولُ ظَلَمني فَيَرُدُّ عَلَيهِ بأَنُهُ ما ظلَمَهُ وَلاَ خَانَهُ في أهلٍ ولا مَالٍ فَيَقُولُ الجَارُ صَدَقَ إنَّهُ لم يَخُنِّي في أهْلٍ وَلاَ مَالٍ وَلَكِنَّهُ وَجَدَني أَعْصِي اللَّهَ فلم يَنْهَني هَذا الأثَرُ بالمعنى وَرُوِيَ حَدِيْثٌ آخَر وَيْلٌ للعَالِمِ مِنْ الجَاهِلِ حَيْثُ لاَ يُعَلِّمُهُ .

وَقَعْنَا في الخَطَايَا والبَلاَيَا ... وفي زَمَن انْتِقَاصٍ واشْتِبَاهِ
تَفَانَى الخَيْرُ والصُّلَحَاءُ ذَلُّوْا ... وَعَزَّ بِذُلِّهِمْ أَهْلُ السَّفَاهِ
وبَاءَ الآمِرُوْنَ بِكُلِّ عُرْفٍ ... فَمَا عَنْ مُنْكَرٍ في الناسِ نَاهِ
فَصَارَ الحُرُّ لِلْمَمْلُوكِ عَبْداً ... فَمَا لِلْحُرِّ مِنْ قَدْرٍ وجَاهِ
فَهَذا شُغْلُهُ طَمَـعٌ وجَمْعٌ ... وَهَـذا غَافِلٌ سَكْرانٌ لاهِ

اللهُمَّ أَحْيِنَا مسلمين وتوَفَّنا مسلمين غَيْرَ خزايًا ولا مَفْتُونِينَ واغفِرْ لَنا ولوالِدِينا ولجميعِ المسلمين برحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمين وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحْبِهِ اجمعين

(**فَصْــلٌ**) عن عُبادة بن الصَّامِتْ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ بَايَعْنَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم على السَّمْعِ والطَّاعَةِ في العُسْرِ واليُسْرِ والمَنْشَطِ والمَكْرَه وعلى أَثَرَةٍ عَلَيْنا وَعلى أَنْ لاَ نُنَازِعَ الأمْرَ أَهْلَهُ إلا أَنْ تَرَوا كُفْراً بُوَاحاً عِنْدَكُم مِنْ اللهِ تَعَالَى فِيه بُرْهَانٌ وَعَلى أَنْ نَقُولَ بالحَقِّ أَيْنما كُنَّا لاَ نَخَافُ فى اللهِ لومَةَ لاَئِمٍ رَوَاهُ البُخَارِيْ وَغَيْرُهُ .

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وغيرُه مِن حَدِيثِ عَبْدِاللهِ بن عَمْرُو بن العَاصِ إذَا رَأَيْتَ أمَّتِي تهَابُ الظالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ : إنَّكَ ظَالِمٌ فَقَدْ تُوَدِّع مَنْهُم وَلَقَدْ كَان سَلفُنا الصَّالِحُ الكرامُ لَهُم مَوَاقِفُ عَظِيْمَةٌ شَرِيْفَةٌ وَنَوادِرُ طَرِيفَةٌ وَقِصَصٌ غَرِيْبَةٌ وحِكَايَاتٌ عَجِيْبَةٌ دَالَّةٌ على صِدْقِ إيْمَانِهِم وَقُوَّةِ يَقِيْنِهِمْ وَشِدَّةِ وَرَعِهِم فكانُوا لا يَخشونَ في اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ أَوْ كَلِمَةَ مُدَاهِنْ أو فِرْيَةَ مُفْتَرٍ أو قُوَّةَ ظَالِمٍ بَلْ يُجَاهِرُونَ بالحَقِّ بِكُلِّ صَرَاحَةٍ وَيَنْطِقُوا بالصدْقِ وإنْ غَضِبَ الخَلقُ وَيـأْمُرُونَ بـالمَعْرُوْفِ وَيَنْهَـونَ عن المُنْكَرِ في أشَـدِّ المـوَاقِفِ وأَحْرَجِهَا .

وَإليكَ ما كانَ مِن مَوْقِفِ الصَّحَابِّي الجَريْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِي رَضِيَ اللهُ عنه مَعَ مَرْوَانِ بنِ الحكمِ أمير مِن قِبلِ معاوية بن أبِي سُفيان فَمِن السنة المأثُورةِ والطريقةِ المعروفةِ مِن فِعْلِهِ صَلَّى الله عليه وسلم إذا خَرَجَ يَومَ الفِطرِ والأَضْحَى إلى المُصَلى فَأَوَّلُ شيءٍ يَبْدَأَ بِهِ الصلاةَ .

ثُمَّ يَنْصرِفُ فَيَقُوْمُ مُقابلَ الناسِ والناسُ جُلُوسٌ على صُفُوفِهِم فَيَعَظُهُم وَيُوْصِيْهِم بتقوى الله وَيَأْمُرَهُم بحَلالِ اللهِ وَيَنْهَاهُم عن حَرَامِهِ ،

ثُمَّ يَنْصَرِفُ ، قال أبُو سَعِيْدٍ فَلَمْ يَزَلِ الناسُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى خَرَجْتُ مَعَ مَرْوَانَ وَهُوَ أمير المدينةِ في عيْدِ الأَضْحَى أو الفِطرِ فلمَّا أَتَيْنَا المُصَلَّى إذَا مِنْبَرٌ بَنَاهُ كَثيرُ بنُ الصَّلْتِ التابِعي الكَبِيرِ والمَولُود في الزَّمَن النَّبَوي .

فإذا مَرْوَانُ يُرِيْدُ أنْ يَرْتَقِيَهِ قَبْلَ أنْ يُصَلِي وفيه مُخَالَفَةٌ لِلسُّنَّةِ الصَّحِيْحَةِ والعَملِ المأثورِ عن النبي صلَّى الله عليه وسلم فَجَذَبْتُ بِثَوْبِهِ لِيَبْدَأَ بِالصلاةِ قَبْلَ الخُطْبَةِ فَجَذَبَنِي فارْتَفَعَ على المِنْبَرِ فَخَطَب قَبْلَ الصلاةِ .

فَقُلْتُ لَهُ ولِأَصْحَابِهِ غَيَّرتُمْ واللهِ سُنةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وخلفائِهِ مِن بَعْدِهِ فإِنَّهُم كانُوا يُقَدِمُون الصلاةَ على الخُطْبَةِ في العِيْدَين فقال مَرْوَانُ يا أبا سَعيدٍ قَدْ ذَهَبَ مَا تَعْلَمُ مِن تَقْدِيم الصلاةِ على الخُطْبةِ في العِيْدَيْنِ فَقُلتُ مَا أعلَمُ واللهِ خيرٌ مِمَّا لَا أعلمُ .

لِأَنَّ الذِي أَعْلمُ طَرِيْقُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم الذي أُمِرْنا باتِّباعِهِ والتأسِي بهِ ﴿لقد كَان لَكمْ في رَسول الله أُسوةٌ حَسَنةٌ﴾ فقالَ مَرْوَانُ مُعْتَذِراً عن تَرْكِ السُنةِ إن الناسَ لم يَكُونوا يَجْلِسُونَ لَنَا بَعْدَ الصلاة فَجَعَلْتُهَا قَبْلَ الصلاةِ » .

فَتَأَمَلْ هَذَا المَوقِفَ المشرِفَ الذي وَقَفَه أبو سعيدِ الخدري رَضِيَ اللهُ عنه وكَيْفَ جَذبَ مَرْوَانَ بِثَوْبِهِ وقال لَهُ غيرتُم واللهِ وَلم يَخَفْ صولةَ الإمارَةِ وجاهَ الحُكم وَجاهَرَ بالحقِّ وأنكَرَ البدعةَ وأمرَ بالسنةِ على رُؤُسِ الأشهادِ مِنَ الناسِ فَحَفِظَهُ اللهُ ونصَرَه وأيده وَأعزه وصدَق الله حيثُ قال ﴿ وَلَيَنْصُرَّن اللهُ مَن يَنْصُرُه ﴾ .

وَرُوِيَ أَنَّ ضَبَّةَ بنَ مِحْصَنٍ العَنَزي قال كَانَ عَلَيْنَا أبُو مُوسَى

الأَشْعَري أميراً بالبصرةِ فكان إذا خَطَبنَا حَمِدَ الله وأَثْنى عليهِ وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشأ يَدْعُو لِعُمَر رَضِي اللهُ عنه قال فَغاضَنِي ذَلِكَ فَقُمْتُ إليهِ فقلتُ له أَيْنَ أنْتَ مِن صَاحِبِهِ تُفَضِّلُهُ عليه فَصَنَعَ ذَلِكَ جُمَعاً .

ثم كَتَبَ إلى عُمَرَ يَشْكُونِي يَقولُ إنَّ ضَبَّةَ بنَ مِحْصَنٍ العَنَزِي يَتَعَرَّضُ لِيْ في خُطْبَتِي فَكَتَبَ إليهِ عُمَرُ : أَنْ أَشْخِصْهُ إليَّ فأشخصَنِي إليهِ فَقَدمتُ فضَرَبْتُ عليهِ البابَ ، فقال مَن أَنْتَ فَقُلتُ أنا ضَبَّةُ فقال لا مَرْحَباً ولا أَهْلاً قُلْتُ أمَّا المَرْحَبُ فَمِنَ اللهِ ، وَأَمَّا الأهلُ فلا أَهْلَ لِي ، ولا مَالَ فَبِمَا اسْتَحْلَلْتَ يا عُمَرُ إِشْخاصِي مِنْ مِصْرِي بِلا ذَنْبٍ أَذْنَبْتُهُ ، ولا شيءٍ أَتَيْتُه ، فقال مَا الذي شَجَرَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَامِلِي ، قال قُلْتُ الآنَ أُخبِرُكَ بِهِ ، إنه كانَ اذا خطبنا حَمِدَ اللهَ وأثنى عليهِ وَصَلَّى على النبي صلَّى الله عليه وسلم ، ثم أنشأ يَدْعُوْ لكَ فَغاظَني ذَلِك مِنه ، فَقُمْتُ إليهِ فقلتُ لَهُ أينَ أنتَ مِن صَاحِبِه ، تُفضِّلُهُ عليه ، فَصَنَعَ ذَلِكَ جُمعاً .

ثُمَّ كَتَبَ إليكَ يَشْكُوني ، قال فانْدَفَعَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَاكِياً ، وهُوَ يَقولُ أَنْتَ واللهِ أَوْفَقُ مِنه وأَرْشَدُ فَهَلْ أَنْتَ غَافِرٌ لِيْ ذَنْبِي يَغْفِرَ الله لَك .

قال فَقُلْتُ غَفَرَ اللهُ لكَ قال ثُمَّ انْدَفَعَ بَاكِياً ، وهو يَقُوْلُ واللهِ لليلةٌ مِن أَبِي بَكرٍ ، وَيَوْمٌ خيرٌ مِن عُمَرَ وآلِ عُمَرَ ، وَبعثَ الحَجَّاجُ الظالمِ المَشهورُ إلى الحَسَن فَلَما دَخَلَ عليهِ قالَ أَنْتَ الذي تقولُ قاتَلَهم اللهُ قَتلوا عِبَادَ اللهِ عَلى الدِرْهَمِ والدِّيْنَارِ . قال نَعَمْ قال ما حَمَلَكَ على هَذَا قَالَ ما أَخذ اللهُ على العُلَمَاءِ مِنَ المواثيقِ ﴿ لَيُبَيِّنُنَّهُ للناسِ ولا يَكْتُمُونَه ﴾ قال يا حَسَنُ أَمْسِكْ عَليكَ لِسَانَك وإيَّاكَ أن يَبْلَغَنِي عنكَ ما أَكْرَه فَأَفَرِّقَ بَينَ رأسِكَ وَجَسَدِكَ نَعُوذُ باللهِ مِن الظلمةِ وأعوانِ الظلمةِ من أمثالِ الحَجَّاجِ .

الظُلْـمُ نارٌ فلا تَحْقِـرْ صَغِيْرَتَــهُ   لَعَـلَّ حَذْوَةَ نارٍ أحْـرَقَتْ بَلَـدَا

ثُم تَطَاوَل الزمنُ وَمَضَتْ فَتْرَةٌ مِنْهُ فاندَرَس هَذَا الوَاجِبُ وَعفَتْ أثارُهُ وامحَتْ مَعَالِمُهُ وانْطَوَتْ أَخْبَارُهُ وَداهَن النَاسُ بَعْضُهم بَعْضاً وَجُبْنَ الناسُ عن المُصَارَحِة لِلْوُلَاتِ في المُخَالَفات إلا نَوادِرُ مَرُّوْا خِلالَ القُرُوْنِ الأَوْلَى أمَّا نحنُ فَصَارَتْ شَجَاعَتُنَا وَصَلاَبَتُنَا وإنكَارَاتُنا حَوْلَ ما يَتَعلَّقُ بالدنيا أمَّا مَا يَتَعَلَقُ بالدينِ فَلَيْسَ عِنْدَنَا مِن الإِنكارِ إلا التَلاَوُم فِيمَا بَيْنَنَا إذا أَمِنَ بَعْضُنا مِن بَعْضٍ فلا حَوْلَ ولا قُوَةَ إلاَّ باللهِ العليِ العليم العظيم .

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ الله :

قُـلْ لِيْ مَتَى سَلِمَ الـرسـولُ وَصَحْبُـهُ
والـتـابِعُـونُ لـهـم عـلَى الإِحْسَـانِ
مِــن جَـاهِـلٍ وَمُـعَـانِـدٍ وَمُـنَـافِـقٍ
وَمُـحَـارِبٍ بَـالـبَـغْـيِ والـطُغْـيَـانِ
وَتَـظُنُّأنَّـكَ وارِثـاً لَـهُـمُ ومَـا
نـلْتَ الأذَى في نُـصْـرَةِ الرَّحْمَـانِ
كَـلاَّ ولا جَـاهَـدْتَ حَـقَّ جِـهَـادِهِ
فـي الـلهِ لا بِـيَـدٍ ولا بِـلِسَـانِ
مَـنتـكَ والـلهِ المُـحَـالَ الـنفس فَـاسْـ
تحْـدِثْ سِـوَى ذا الـرأيِ والحُسْبَـانِ
لَـوْ كُـنْـتَ وارِثَـهُ لآذاكَ الأُولَـى
وَرِثُـوا عـدَاهُ بِـسَـائِـرِ الأَلْـوَانِ

وقد قِيْلَ : إن المُنْكَرَاتِ أشْبَه بِجَراثِيْم الأَمْرَاضِ في تَنَقُلِهـا

وانتِشَارِهَا ، والتأثرِ بها بإذْنِ اللهِ . فــان وَجَدَتْ كِفاحاً يَحْجُرُ عليها في مَكَانِهَا حَتَّى يَقْتُلَها وَيُبيْدَهَا سَلِمَ منها مَوْضِعُهَا ، وَسَلم منها ما وَرَاءَهُ ، وإذا لَم تَجِدْ كِفاحاً وَتُرِكَتْ وَشَأنَهَا اتَّسَعَتْ دائرتها ، وَتَفَشَّتْ في جَمِيْعِ الأَرْجَاءِ وَقَضَتْ عَلَى عَنَاصِرِ الحَيَاةِ وَعَرَّضَتْهَا للفَنَاءِ والدَّمَارِ .

وَمِنْ هُنَا كَانَ أَثَرُ المنْكَرَاتِ غَيْرَ خَاصٍ بِمُرْتَكِبِيْهَا ، وَكَانَ السَّاكتونَ عَلَيها عامِلِين على نَشْرِها وإذاعَتِهَا ، وَبِهَذا الموقِفِ السَّلْبِي يَكُونُون أَهْلاً لِحُلُولِ العِقَابِ بِهم وإصَابَتِهِمْ بِمَا يُصَابُ بِهِ المباشِرُونَ لهَا .

وَمِمَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوله تَعَالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيْبَنَّ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْد اللهِ بنُ مُحَّمدِ بنِ حُمَيدٍ في آخِرِ رِسَالةٍ له تَتَضَمَّنُ الحَثَّ عَلَى الأَمْرِ بالمَعْرُوفِ والنهي عن المنكـرِ : قِفانَبْكِ عَلَى رُسُومِ عُلومِ الدّينِ والاسلامِ الذي بَدَأَ يَرْتَحِلُ مِن بِلَادِهِ وَلَكنْ يا للأَسَفِ عَلَى مَنَامِ القلوبِ وَقِيَامِ الأَلْسُنَةِ بالتَّقَوُّلِ والتأويلِ عَلى الإسلامِ بِمَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ .

لَقَدْ انْطَمَسَ المَعْنَى وَذَهَبَ اللبُ وما بَقِيَ إلا قُشُورٌ وَرُسُومٌ اكْتَفَى الكَثِيْرُونَ مِن الإسلامِ بِمُجَرَّدِ الانْتِسَابِ إِلَيْهِ بدون أَنْ يَعْمَلُوا بِهِ وَيَقُومُوا بالدَّعْوةِ إليهِ تَحْذيراً وإنْذَاراً وَأَمْرَاً وَنَهْيَاً وَتَبْصِيْراً لِلنَّاسِ بِدِيْنِهِمْ بِذِكْرِ فَضْلِهِ وَعَظَمَتِهِ وإيْضَاحِ أَسْرَارِهِ وَحِكَمِهِ وَغَرْسِ العَقِيْدَةِ الحَقّةِ في قُلوبِهِمْ فَهَذَا وَاجِبُ المسلمينَ بَعْضِهِم لِبَعْضٍ كُلٌّ عَلَى قَدْرِ استِطَاعَتِهِ وَمَقْدِرَتِهِ أ هـ .

وَقولُهُ صَلَّى اللهُ عليه وسَلم في حَدِيثِ جابر « أَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلامُ انْ أقلبْ مدِينةَ كَذَا وكَذا بِأَهْلِهَا ، قَالَ يَا رب إنَّ فِيْهِمْ فلاناً لَمْ يَعْصِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ قَالَ : فَقَال : اقْلِبْها عليهِ وَعَلَيْهِمْ ، فانَّ

وَجْهَهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ فِيَّ سَاعَةً قَط .

وَذَكَرُ الامـامُ أَحْمَدَ عَنْ مالِكِ بنِ دينار قَالَ كَانَ حَبْرٌ مِن أَحْبَارِ بَنِي إسرائِيلَ يَغْشَى مَنْزِلَهُ الرِّجالُ والنِّسَاءُ فَيَعِظُهُمْ وَيُذَكِّرُهُمْ بأيام اللهِ فَرَأَى بَعْضَ بَنِيْهِ يَغْمِزُ النِّسَاءَ في يَوْمٍ فَقالَ مَهْلاً يا بُنَيَّ فَسَقَطَ مِنْ سَرِيْرِه فَانْقَطَعَ نُخَاعُهُ واسْقَطَتْ امرأَتُه وَقُتِلَ بَنُوه .

فَأَوْحَى اللهُ الى نَبِيِّهِمْ أَنْ أَخْبِر فلاناً الحَبْرَ أنّي لا أُخْرِجُ مِنْ صُلْبِكَ صِدِّيقاً أَبداً مَا كانَ غَضَبُكَ إلاَّ أَنْ قُلْتَ مَهْلاً يَا بُنَيَّ .

إذا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الانْتِقَامَ إذا وَقَعَ ليسَ هو أخذاً للبريء بِجَرِيْمَةِ المُذْنِبِ كَمَا يَظُنُّ البَعْضُ ، وإنمَا هُوَ أخـذاً للمذنب بجريمةِ ذَنْبِهِ ، فالذَّنْبُ ذَنْبانِ : ذَنبٌ يَصْدُرُ عَنْ شَخْصٍ ، وَهُوَ الفِعْلُ نَفْسُهُ ، وَذَنْبٌ يَصْدرُ عَن مَنْ يَعْلَمُ هَذَا الذنبَ ، وَهُو يَقْدِرُ عَلَى مُكَافَحَتِهِ .

ثُمَّ هُو يُبْعِدُ نَفْسَهُ عَنْ مكافَحَةِ هَذَا الذَّنْبِ طَمَعاً في مَالٍ أَوْ مَكانَةٍ وَبِذلكَ يَكُونُ شريكاً في العَملِ على نَشْرِهِ أ هـ .

وفي السُّننِ أَنْ عَبْدَ اللهِ بنَ مَسْعودٍ رضِيَ اللهُ عَنْهُ حَكَمَ بِكُفْرِ أَهْلِ مَسْجدٍ بالكوفةِ قَالَ وَاحدُ إِنَّمَا مُسَيْلَمَةُ عَلَى حَقٍّ فِيْمَا قَالَ وَسَكَتَ البَاقُونَ فَأَفْتَى بِكُفْرِهِمْ جَمِيعاً أ هـ من الدرر السنيةِ .

قُلْتُ لأَنَّ الواجِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُكَذِّبُوهُ وَيَقُولوا لَهُ كَذَبْتَ بَلْ هُوَ عَلَى بَاطِلٍ فَالسَّاكِتُ شَرِيْكُ الفاعِلِ لقدرَتِهِ عَلَى الإِنْكارِ باللِّسَانِ .

وقَالَ سُفْيَانُ إِذَا أَمَرْتَ بالمَعْرُوفِ شَدَدْتَ ظَهْرَ المُؤْمِنِ وإذَا نَهَيْتَ عنِ المُنْكَرِ أَرْغَمْتَ أَنْفَ المُنَافِقِ .

اللهُمَّ اجْعَلنَا مِنْ حِزْبِكَ المُفْلِحينَ ، وَعِبَادِكَ الصَّالِحينَ الذينَ أَهَّلْتَهُم لِخِدمَتِكَ وَجَعَلْتَهُمْ آمِرِيْنَ بالمَعْرُوفِ فَاعِلِينَ لَهُ ، وَنَاهِيْنَ عَنِ المُنْكَرِ ، وَمُجْتَنِبِيْنَ لَهُ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المسلمينَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ والمَيتِينَ بِرَحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ ، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحمدٍ وعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعينَ .

(فَصْــلٌ)

وَكَتَبَ عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيز الى بعضِ عُمَّالِهِ ، أَمَّا بَعْدُ فإِنَّهُ لَمْ يظهَرْ المنكرُ في قومٍ قطّ ثم لَمْ يَنْهَهمْ أَهْلُ الصَّلاحِ مِنْهُمْ إلَّا أَصَابَهُمْ اللهُ بعذابٍ من عندهِ أو بأيدِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَا يَزَالُ الناسُ مَعْصُومِينَ مِن العُقُوباتِ والنَّقَمَاتِ ما قُمِعَ أهلُ الباطل واسْتُخْفِي فِيهم بالمَحَارِمِ .

فَلا يَظْهرُ مِن أَحدٍ مُحَرَّمٌ إلا انْتَقمُوا مِمنْ فَعَلَه فإذَا ظَهَرتْ فيهم المَحَارمُ فَلَمْ يَنْهَهَم أَهْلُ الصَّلاحِ أُنْزِلَتِ العُقُوباتُ مِن السماءِ إلى الأرضِ ولعلَّ أهلَ الإدْهَانِ أَنْ يَهْلِكوا مَعَهم وإنْ كَانُوا مُخَالفينَ لَهُمْ ، فانّي لم أسمعْ اللهَ تباركَ وتَعالى فِيْمَا نَزَّل مِن كِتابهِ عند مُثْلَةٍ أَهْلَكَ بها أحداً نَجَّى أَحَداً مِن أولئِكَ ، إلا أَنْ يَكونَ الناهِين عن المنكرِ .

وَيُسَلِّطُ اللهُ عَلى أَهْلِ تِلْكَ المحارمِ إنْ هُوَ لم يُصِبْهُمْ بِعذابٍ مِن عندِهِ أَوْ بِأَيْدِي مَنْ يَشاءُ مِن عِبَادِهِ مِن الخوفِ والذُّلِّ والنِّقَمِ فإنه رُبَّمَا انْتَقَمَ بالفاجرِ مِن الفاجرِ وبالظَّالمِ مِنَ الظَّالمِ ثُم صارَ كِلا الفريقَينِ بِأَعْمَالِهِمَا إلى النارِ ، فَنَعُوذُ باللهِ أن يَجْعلنا ظالمينَ ، أَوْ يَجعَلنَا مُدَاهِنِين لِلظَّالمين .

وانَّهُ قَدْ بَلَغَني أَنّه قَد كَثُرَ الفُجورُ فِيكُم وأَمن الفُسَّاقُ في مدائِنِكُمْ

وَجَاهَرُوا بالمَحَارِمِ بِأَمْرٍ لا يُحِبُّ اللهُ من فَعَلَهُ ولا يَرْضَى المُدَاهَنَةَ عليه ، كانَ لا يَظْهَر مِثْلُه في عَلانيةٍ قومٍ يَرْجُونَ للهِ وقاراً وَ يَخافُونَ منه غِيَراً وَهُمْ الأَعزُّونَ الأَكْثَرون مِن أَهْلِ الفجورِ . أي أكثرُ مِنْ أَهْلِ الفُجُورِ وَأعزُّ منهم .

وَلَيْسَ بِذَلِك مَضَى أَمْرَ سَلَفِكُم ولا بِذَلِك تَمَّتْ نِعمةُ اللهِ عليهِمْ بل كانُوا ﴿أَشِدَّاءُ عَلى الكُفَّارِ رحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾﴿أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِيْنَ يُجَاهِدُونَ في سَبِيْلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ .

وَلَعَمْرِي إنَّ مِنَ الجِهَادِ الغِلظةُ على مَحارِمِ اللهِ بالأَيْدِي والأَلْسُنِ والمُجاهَدِةِ لهم فيهِ .

وإنْ كانُوا الآباءَ والأَبْنَاءَ والعَشَائِرَ ، وإنمَا سبيلُ اللهِ طاعَتُهُ .

وَقَدْ بَلَغني أَنَّهُ بَطَّأَ بِكَثِيرٍ مِنَ الناسِ عَنْ الأَمْرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر ، إتِّقَاءُ التلاوُمِ أَنْ يُقَالَ فلانٌ حَسَنُ الخُلْق ، قليلُ التكلفِ ، مُقبلٌ على نَفْسِهِ ، وَمَا جَعَل اللهُ أُوْلئِكَ أحاسِنَكُمْ أَخْلاقاً بَلْ أولَئكَ أَسْؤُكم أَخْلاقاً .

وَمَا أَقْبَلَ عَلى نَفْسِهِ مَنْ كَانَ كَذلكَ ، بلْ أَدْبَرَ عَنْهَا ، وَلَا سَلِمَ مِن الكُلفةِ لها ، بَلْ وَقَعَ فِيْهَا ، إِذْ رَضِيَ لِنَفْسِهِ مِن الحالِ غيرَ ما أَمَرَهُ اللهُ بِهِ أَنْ يكونَ عليهِ ، مِن الأمرِ بالمعروفِ ، والنهي عن المنكرِ .

وَقَدْ ذَلَّتْ أَلْسِنَةُ كَثِيْرٍ مِن الناسِ بآيةٍ وَضَعُوهَا غَيْرَ مَوْضِعِهَا ، وَتَأَوَّلوا فِيْهَا قول اللهِ عَزَّ وَجَل ﴿ يَا أَيُّها الذِيْنَ آمَنُوا علَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وَصَدقَ اللهُ تباركَ وَتَعَالى ، ولا يَضُرنا ضلالةُ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْنَا ، وَلَا يَنْفَعُنا هَدْي مَنْ اهتَدى إذا ضَلَلْنَا ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرةٌ وِزْرَ

أُخْرَى ﴾ وإنَّ مِمَّا عَلَى أَنْفُسِنا وَأَنْفُسِ أُوْلئك ممَّا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِن الأمْرِ بالمَعرُوفِ والنهي عن المنكرِ ، فلا يُظهِرُوَا للّهِ مُحَرَّماً إلا انتقَمُوا مِمَنْ فَعَلَه مِنْهم ، مَنْ كُنْتُم ، وَمَنْ كانُوا ، وَقَولُ مَنْ قالَ إنَّ لنا في أَنْفُسِنَا شُغْلاً ، وَلَسْنَا مِن الناسِ في شيءٍ .

وَلَو أَنَّ أهلَ طاعةِ اللهِ رجعَ رأيهُم إلى ذلك ، ما عُمِلَ لِلهِ بِطاعةٍ ، ولا تَنَاهَوا له عن معصيةٍ ، ولقَهر المُبْطِلونَ المُحِقينَ ، فصَارَ الناسُ كالأَنْعَامِ ، أَوْ أَضلَّ سَبيلاً ، فتسلَّطُوْا عَلى الفُسَّاقِ مَن كُنْتُمْ وَمَنْ كانُوا فادْفَعُوْا بحَقِكمْ باطِلَهُم ، وَبِبَصَرِكُمْ عَمَاهُمْ ، فإن اللهَ جَعَل لِلأَبْرارِ على الفُجَارِ سُلْطاناً مُبِيْناً ، وإنْ لَمْ يَكُونُوا وُلاَةً ولا أَئِمَّةً .

مَن ضَعُفَ عَن ذَلِكَ فليرْفَعْهُ إلى إمَامِهِ ، فإنَّ ذَلِكَ مِن التعاونِ على البِرِّ والتَّقْوَى ، قَالَ الله لِأهلِ المعاصِي : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِيْنَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمْ الأَرْضَ أو يَأْتِيهُمْ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ في تَقَلُّبِهِمْ فَمَاهم بِمُعْجِزِيْنَ ﴾ .

وَلَيَنتَهِيَنَّ الفُجارُ أَوْ لَيُهِيْنَنَّهم اللهُ بما قَالَ ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ الآية .

وَذَكَرَ ابنُ أَبِي الدُّنيا عَن أَنس بنِ مالكٍ أَنَّهُ دَخَلَ على عَائِشَةَ هُوَ وَرَجُلٌ آخرُ فَقالَ لهَا الرَّجُل: يا أمّ المؤمنينَ حَدِّثينا عن الزَّلْزِلةِ، فقالتْ إذَا اسْتَبَاحُوا الزِّنَا ، وَشَرِبُوا الخُمُورِ ، وَضَرَبُوا بالمَعازِفِ ، غَارَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سَمَائِهِ ، فَقَالَ لِلأَرْضِ تَزَلْزَلِي بِهِمْ ، فَإِنْ تَابُوا وَنَزَعُوْا وإلا هَدَمَهَا عَلَيْهِم .

قَالَ يَا أُمَّ المؤمنينَ أَعذاباً لَهُمْ ؟ قَالتْ بلْ مَوْعِظَةً وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمنينَ

وَنَكَالاً وَعَذَاباً وَسُخْطاً على الكافِرِينَ فقال أَنَسُ مَا سَمِعْتُ حديثاً بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلَّم أنَا أَشَدُّ فَرَحاً بِهِ مِني بِهَذَا الحَديثِ .

وَذَكَرَ ابنُ أَبي الدُّنيا حديثاً مرسلاً أَنَّ الأَرضَ تَزَلْزلتْ عَلَى عَهْدِ رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ، فوضَعَ يَدَهُ عَلَيهَا ثمَّ قَالَ اسْكُني فَانَّه لم يأنِ لكِ بَعْدُ .

ثُمَّ التَفَتَ إلى أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ إنَّ رَبَّكم لَيَسْتَعْتِبكُمْ فَأَعِتِبُوهُ ، ثُمَّ تَزَلْزلَتْ بالنّاسِ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بنِ الخطابِ ، فَقَالَ أَيّها الناسُ مَا كانَتْ هَذِهِ الزَّلزَلَةُ إلاَّ عَلَى شَيءٍ أَحَدَثْتُمُوهُ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِئِنْ عَادَتْ لا أُسَاكِنُكُمْ فِيهَا أَبَداً .

وفي مَنَاقِبِ عُمَر لاِبْنِ أَبِي الدُّنَيا أَنَّ الأَرضَ عَلَى عَهْد عُمَرَ تَزَلْزَلَتْ فَضَربَ يَدَهُ عَلَيْهَا ، وَقَالَ مالَكِ ؟ أَمَا إنها لَوْ كَانَتْ القِيَامَةُ حَدَّثَتِ أَخْبَارَكِ ، سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يَقولُ إذا كانَ يَومُ القيامةِ فَلَيْسَ فِيها ذِرَاعٌ ولا شِبْرٌ إلا وهو يَنطقُ .

وَكَتَبَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيز إلى الأَمْصار أَمَّا بعدُ فإنَّ هَذَا الرَّجْفَ شَيءُ يُعاقِبُ اللهُ عَزَّ وَجلَ بِهِ العبادَ ، وقدْ كَتَبْتُ إلى الأَمْصار أَنْ يَخْرُجُوا في يوم كذَا وكذَا في شَهْر كَذَا وَكَذَا فَمَنْ كَانَ عِندَهُ شيءُ فَلْيَتَصَدَّق بِهِ ، فإنَّ اللهَ عَزَّ وجلَ يقولُ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ وَقُولوْا كَمَا قَالَ آدمُ ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفسنا وَإنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ ﴾ وَقُولوا كما قَالَ يُونسُ ﴿ لاَ إلَهَ إلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّي كُنْتُ مِن الظَّالِمين ﴾ .

اللهُم يا عالمَ الخَفياتِ وَيَا سَامِعَ الأَصْواتِ ويَابَاعِثَ الأَمْواتِ وَيَا مُجِيْبَ الدَعَوَاتِ وَيَا قَاضِيَ الحَاجَاتِ يَاخَالِقَ الارضِ والسَّمواتِ أَنْتَ اللهُ الاحدُ الصمدُ الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يولَدْ ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَد الوَهَّابُ الذي لا يَبْخَلُ والحَليمُ الذي لا يَعْجَلُ لا رادَّ لامْرِكَ ولا مُعَقِّبَ لِحُكَمِكَ نَسْأَلكَ أَنْ تغفرَ ذنوبَنَا وَتُنورَ قلوبنا وَتُثَبِّتَ مَحَبَّتَكَ في قُلوبِنَا وَتُسْكِنَنَا دَارَ كَرَامَتِكَ إنك عَلَى كُلِ شَيْءٍ قَدِير وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وَصَحْبِه أَجْمَعِيْنَ .

مـوعظة

قَالَ اللهُ تَعالى ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِيْنَ ﴾ وَقَالَ ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَىٰ﴾ وَقَالَ تَعَالى ﴿ فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيْدِ ﴾ فيَا عِبَاد اللهِ لَقَدْ خَاطَبَ اللَّهُ المؤمنينَ بقولِهِ ﴿ كُنْتُمْ خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ تَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ خَاطَبَهُمْ بِهَذَا الخِطَابِ الرّائعِ وَوَصَفَهُمْ بِهَذَا الوَصْفِ العَظِيْمِ ، بِأَنَّهُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاس ، وأنَّ مجتَمَعَهُمْ أَعْلا وَأَعَزُّ مُجتمعٍ في العالم حاضِره وَمَاضِيهِ لِمَا اتَّصفُوا بِهِ مِن الصِفاتِ الفاضِلةِ ، والأَخَلاقِ العالِيَةِ ، والغَيْرةِ الصَّادِقَةِ ، على حُدُودِهِ .

وَهَذا الوَصْفُ وَقْتَ إنْ كـانُوا مُتَمَسّكِينَ بِتَعَـالِيم دِيْنِهِمْ ، وَكَانَ الاسْلامُ وَبَهَاؤُهُ يَلُوحُ في أَعْمَالِهِمْ ، وَمُعَامَلاَتِهِمْ ، وَأَخْلاَقِهِمْ فَلاَ غِشَّ وَلاَ خِدَاعَ ولا كَذِبَ ، ولا خِيَانَةَ وَلاَ غَدْراً ، ولا نَمِيمَةَ ، ولا غِيْبَة ، وَلاَ ظُلْمَ وَلاَ نِفَاق وَلاَ رُشَا ولا مَلْق ولا رِيَاءَ ولا بَهْتَ ولا سُخْرِيَّةَ ولا عُقُوقَ ولا قَطِيْعَة

هَدَفَهُم القَضَاءُ عَلى المُنكَراتِ وإماتتها ، وإعْزَازُ المَعْروفِ وَنَشْره

بَيْنَ المسلمين ، وَهذا يَدُلُّ على قوةِ إيمانِهم ، وَشِدَّةِ تَمَسُّكِهِمْ بِهِ وَرَغبةٍ في النَّجَاةِ التي وَعَدَ اللهُ بِهَا النَّاهِي عَنْ السُّوءِ ، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوْا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِيْنَ يَنْهَوْنَ عَنَ السُّوْءِ وَأَخَذْنَا الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا بِعَذابٍ بَئِيْسٍ بِمَا كَانُوْا يَفْسُقُوْنَ ﴾ .

فَيَا عِبَادَ اللهِ تَأَملوا حَالَتَنَا الحَاضِرَةِ ، وَحَالَةَ سلفنا الكِرام الذينَ كانوا كلُّ مِنْهم يحبُ لأَخِيهِ ما يُحبُّ لِنَفْسِهِ ، وَيَرْحَمُ كبيرُهم الصغيرَ ويوقرُ الصغيرُ الكبيرَ ، يَتَآمَرونَ بالمَعروفِ ، وَيَتناهَونَ عن المنكرِ ، يُنْصِفُونَ حَتَّى الأَعْداءِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وأولادِهِمْ .

فَالقَويُّ عِنْدَهُمْ ضَعِيْفٌ ، حَتَّى يُسْتَوْفَى مِنه الحقُّ ، والضَعِيْفُ عِنْدَهم قَويٌ حَتَّى يَؤْخَذَ حَقُّهُ ، إذا فَقَدُوا أَخَاهُم بَحَثُوا عنه فإِنْ كانَ مَرِيضاً عادُوه وساوَوْهُ واذا مَاتَ شَيَّعُوهُ ، وانْ احتاجَ أَقْرَضُوهُ ، وَوَاسَوْه وإنْ نَزَلَ عليهم أَكْرَمُوه .

عامِلِيْنَ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم « مَثَلُ المؤْمِنِيْنَ في تَوادِّهِم وتراحُمِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ إذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعى له سَائِرُ الجَسَدِ بالسهرِ والحمى » ، وحديثِ « المؤمنُ للمؤمِن كالبنيـانِ يشد بعضـه بعضاً » .

أما نَحْنُ فحالتُنا حالةٌ مُخِيْفَةٌ جِداً لأَننَّا على ضِدِ ما ذَكَرْنَا مِن حالةِ سَلَفِنَا ولا حَاجَةَ إلى تَكْرارٍ ، أَلْقِ سَمْعَكَ وَقَلِّبْ نَظَرَكَ ، وأحضرْ قَلْبَكَ تَـرَى ذَلِك بِعَيْنِ بَصيـرتِكَ وَتَـرى مَا يُخِيْفُـكَ وَيُقْلِقُ رَاحَتَكَ وَيُقْضُّ مَضْجَعَكَ من المنكرات في البيوتِ والأسواقِ والبر والبحر.

وإن شَكَكْتَ فَفَتِشْ على نَفْسِكَ تَجِدْ ذلك ، فالمُنْكَرُ نَرَاهُ بِأَعْيُنِنَا وَنَسْمَعُه بِآذَانِنَا بَلْ وفي بُيوتِنَا فهَلْ بيتكَ خالٍ من صِوَرِ ذواتِ الأرواح هَلْ هُوَ خالٍ مِن المِذْيَاعِ ، هل هُوَ خالٍ من التِّلفزيون ، والسِّيْنَمَاء والبَكَمَاتِ وَمُسَجِّلاتِ الاَغَاني ، هَلْ هو خالٍ مِنْ شَرابِ المُسْكراتِ ، هَلْ مَا يَأْتي لِبَيتكَ إلا أُنَاسٌ طيبينَ طاهِري الأَخْلاقِ ، هَلْ هُوَ خالٍ من حَالقي اللِّحى هَلْ هُوَ خالٍ من المخَنْفِسِيْنَ ومطِيْلي أظفارهِمْ تَشَبُّهاً باليَهُود ، وهَل هُو خالٍ من المتشبهينَ بالمَجُوسِ والمتشَبِهِيْنَ بالإِفْرَنجِ ، هل هو خالٍ مِمَّن لا يَشْهُدونَ صَلاةَ الجَمَاعةِ أو لا يَصلونَ أَبَداً ، هَلْ هُو خَالٍ مِن النساء القاصَّاتِ لِرُؤ سِهِنَّ المُطِيْلاتِ لأَظْفَارِهِنّ ، هَلْ هو خالٍ من شَرَّابِ أَبِ الخَبَائِث الدُّخَانِ ، ونحوهِ مِن المنكرات وأمَا في الاسْواقِ فحدِثْ عَن كثرةِ المنكَرَاتِوَلَا حَرَجَ على حدِّ قولِ المتنبي :

وَقَـدْ وَجَـدْتُ مكـانَ القـولِ ذا سَعـةٍ

فـإن وجَـدتَ لِسَـانـاً قـائـلاً فَقُـلِ

وَمَعَ ذَلِكَ فَلا أَلْسِنَةٌ تَنْطِقُ ولا قُلُوبٌ تَتَمَعَّرُ إلا النَّوادِرَ ، الموجودُ هو التلاومُ والقيلُ والقالُ ، والمداهَنَةُ ، والجُلوسُ مَعَ أَهْلِ المَعَاصِي ، وَمُحَادَثَتُهْم وَمُبَاشَرَتُهم وإظْهَارُ البِشْرِ لَهُمْ وَتَعْظِيْمُهمْ وَتَقْلِيدُهُمْ في الأقوالِ والأَفْعَالِ .

فَيَا عِبَادَ اللهِ اتقُوا اللهَ واسْلُكوا طريقَ سَلفِكُمْ واصْدعُوا بالحقِ وَأمُرُوا بالمَعْرُوفِ وانْهَوْا عن المُنْكَرِ ، واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيْعاً ولا تَفرَّقُوا ، وَكونوا عِبادَ اللهِ إخواناً ، قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ بِكُمْ مَا حَلَّ بِمَنْ قَبْلَكُمْ ، وَتُضْـرَبَ قُلوبُ بَعْضِكم عَلَى بَعْضٍ ، قَبْـلَ فِتْنَـةٍ لاَ تُصِيْبَنَّ الـذين

ظَلَمُوْا مِنْكُم خاصَّةً ، قَبْلَ أنْ تُلْعَنوا كَمَا لُعِنَ الذينَ مِنْ قَبْلِكُم ، بِسَبَبِ عَدَمِ تَنَاهِيْهِمْ عَنْ المُنْكَر .

قَالَ اللهُ تَعَالى ﴿ لُعِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ على لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوْا لَا يَتَنَاهُوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوْا يَفْعَلُوْنَ ﴾ .

فَيَا عبادَ اللهِ إنَّ الأمْرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عَنْ المنكرِ لَمِنْ أَعْظَم الشعَائِرِ الاسْلامِيَّةِ ، وأقوَى الأُسُس التي يقومُ عليهَا بناءُ المجتمعاتِ النزيهةِ الراقيةِ ، فَاذا لَمْ يَكنْ أمرٌ ولا نهيٌ أو كانَ ولكنْ كالمَعدومِ ، فعلى الأَخلاقِ والمُثُلِ العُلْيَا السَّلامُ ، وَيَلٌ يومئذٍ لِلْفَضِيْلةِ مِن الرذِيلةِ ، ولِلْمُتَدَيِّنِين مِن الفَاسِقِيْنَ والمنافقين .

فَيا عبادَ اللهِ تَدَارَكُوا الأَمْرَ قَبْلَ أنْ يَفوتَ الأَوَانُ وَتَعضُّوا على البَنَانِ فقدْ قَالَ لَكُم سيدُ ولدِ عَدْنان مَنْ رَأى منكَم منكراً فليغيْرِه بيدِهِ ، فانْ لَمْ يَسْتَطِعْ فبِلِسَانِه ، فان لَمْ يَسْتَطِعْ فبقلبِهِ وذلكَ أَضْعَفُ الايْمَانِ .

عبادَ اللهِ بالأمْرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنْكَرِ نأمَنُ بإذنِ اللهِ على الدِّينِ من الاضْمحلالِ والتَلاشيَ ، ونَأْمَنُ بإذنِ اللهِ عَلى الأخلاقِ الفاضلةِ مِن الذهابِ والانْحِلاَلِ ، والحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ مُخَالَفَةِ القَولِ لِلفْعِلِ ، فتأثيرُ الدَّعْوةِ بالفِعلِ أَقْوَى بكثيرٍ منْ الأقوالِ المجَّردَةِ مِن الأفْعَالِ .

وفي المُسْنَدِ وغيرِه منْ حَديثِ عروةَ عن عَائِشَةَ قالتْ دَخَلَ عَلَيَّ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلمَ ، وقدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ فعَرَفْتُ في وجْهِهِ أنْ قَدْ حَفَزَهُ شَيءٌ ، فمَا تَكَلَّمَ حتى تَوَضَّأ وَخَرَجَ فلصِقْتُ بالحُجْرةِ ، فصَعِدَ

المِنْبَر فحَمَدَ اللهَ وأثْنَى عَلَيهِ ، ثم قالَ أَيُّهَا الناسُ إنَّ اللهَ عَز وجَلَّ يقولُ لَكُمْ مُرُوا بالمَعْرُوفِ وانْهَوْا عَن المنكَرِ ، قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي فَلا أُجيْبكم ، وتَسْتَنْصُرونِي فَلاَ أَنْصُركُم ، وتَسألونِي فَلا أُعْطِيكُمْ .

وقال العُمَري الزَّاهدُ إنَّ مِنْ غَفْلَتِكَ عنْ نَفْسِكَ وإعرَاضِكَ عن اللهِ أنْ تَرَى مَا يُسْخِطُ اللهَ فَتَجاوَزَهُ ، ولا تَنْهَى عَنه ، خَوفاً مِمَنْ لا يَمْلكُ لنفْسِهِ ضَراً ولا نَفْعاً ، قُلْتُ ومَا أكثرَ المدلْسِين السَّاكِتينَ الذينَ يَمرّونَ بالجَالِسين أَمَامَ التلفِزيُونْ وعندَ المذيَاع والكورةِ بلْ ولا يأمرُونَهم بالتّي هِيَ أحْسَن ويَمُرّونَ بأولادِهِمْ في فُرُشِهِم ولا يُوْقِضونَهم للصَّلاةِ وكَأَنَّ أمْرَهُمْ أمرٌ مُبَاحٌ إن شاءَ أنْكَرَ وإن شَاءَ تَرَكَ ، وَقَالَ مَن تَـرَكَ الأَمْرَ بالمَعْرُوف والنهيَ عن المنكر مَخَافَةً مِن المَخْلوقِينَ نُزِعَتْ منهُ الطَّاعةُ ، ولو أَمَرَ وَلَدَهُ أو بَعْضَ مَواليهِ لا اسْتَخَفَّ بِحَقِهِ .

وَذَكَرَ الامامُ أحمدُ عن عمرَ بن الخطابِ تُوشِكُ القُرَى أنْ تَخْرُبَ وهي عامرةٌ قيلَ وكَيْفَ تَخْربُ وهِي عامِرةٌ ، قَالَ إذا عَلاَ فُجّارُها أبْرَارَها وَسَادَ القبيلةَ مُنافِقُوها قلتُ ومِمَّا يُؤيِّدُ ذَلِكَ قوله تَعالَى ﴿ وذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهلِكَ قَرْيَةً أَمرْنَا مُتْرَفِيْهَا فَفسقُوا فِيْهَا ﴾ الآية وإليك هذا نَظْم للأَسْبَابِ التي بِهَا حياةُ القلبِ فَأَلْقِ لَهَا سَمْعَكَ وَأَحْضِرْ قَلْبَكَ .

حَمِـدْتُ الّـذي أَغْنَى وَأَقْنَى وَعَلَّمَـا
وَصَيَّـرَ شُكْـرَ العَبْـدِ لِلخَيْـرِ سُلَّمَـا
وأُهـدِي صَـلاَةً تَسْتَمِـرَّ عَلَى الـرِّضَـا
وَأَصْحـابِـهِ والآل جَمْـعـاً مُسَلَّمَـا

أَعَـادَ لَنَـا في الْـوَحْيِ والسُّنَنِ الَّتِي
أَتَـانَا بِهَـا نَحْـوَ الـرَّشَـادِ وعَلَّمَـا
أَزَالَ بِهَـا الأَغْـلَافَ عَنْ قَلْبِ حَـائِرٍ
وَفَـتَّـحَ آذانـاً أُصِـمَّـتْ وَأَحْـكَـمَـا
فـيـا أَيُّهَـا البَـاغِي استِنَـارَةَ عَـقْلِهِ
تَـدَبَّـرْ كِـلاَ الـوَحْيَيْنِ وانْقَـدْ وَسَلِّمَـا
فَعُنْـوانُ اسْعَـادِ الفَتَى فـي حَيَـاتِـهِ
مَـعَ اللـهِ إقبـالاً عـليـهِ مُـعَـظِّمَـا
وَفَـاقِـدُ ذَا لا شَـكَّ قَـدْ مَـاتَ قَلْبُـهُ
أَو اعْتَـلَّ بالأَمْـراضِ كـالـرَّينِ والعَمَـا
وآيــةُ سُقْمٍ فـي الجَـوَارِحِ مَنْعُـهَـا
مَـنَـافِعَـهَـا أو نَقْصُ ذَلـكَ مِـثْـلَمَـا
وَصِحَّتُهـا تَـدرِي بِـاتْيَـان نَـفْعِـهَـا
كَنُـطْقٍ وَبَـطْشٍ وَالتَّصَـرُّفِ والنَّمَـا
وَعَيْنُ امْتِـراضِ القَلْبِ فقدُ الـذي لَـهُ
أُرِيْـدَ مِن الأَخْلاصِ والحُبِّ فـاعْلَمَـا
وَمَـعْـرِفَـةُ والـشَّـوْقُ إلـيـه انـابَـةً
بِـايْثَـارِه دُونَ المَحبَّـاتِ فَـاحْكمَـا
وَمُـوثِـرُ مَحْبُـوبٍ سِـوَى اللهِ قَلْبُـهُ
مَرِيْضٌ على جُرْفٍ مِنَ المَوْتِ والعَمَا
وَأَعْـظَمُ مَحْـذُورٍ خَفَى مَـوْتُ قَلْبِـهِ
عَـلَيْـهِ لِشُـغْـلٍ عَنْ دَوَاهُ بِـصَـدِمَـا

وآيَــةُ ذَا هُــوْنُ الـقَـبَـائـحِ عِـنْـدَهُ
وَلَــوْلاَهُ أَضْـحـى نَــادِمــاً مُـتَــأَلِّـمَـا
فَجَــامِـعَ أمْــراضٍ القلوبِ اتِّبــاعُهَــا
هَــواهَــا فخَــالِفهَــا تَصِــحَّ وَتَسْلَمَــا
وَمِن شُؤْمِــهِ تَـرْكُ اغتِــذَاءٍ بِنَــافِـعٍ
وَتَـرْكُ الدَّوا الشَّـافِي وَعَجْـزٌ كِـلاَهُمَـا
إذا صَـحّ قَلبُ العَبْـدِ بَـانَ ارتِحَـالُــهُ
إلى دَارِهِ الأُخْــرَى فَــرَاحَ مُسَـلِّمــــا
وَمِنْ ذاكَ إحْسَـاسُ الـمُحِـبّ لِقَـلْبِــهِ
بِضَـرْبٍ وَتَحْــرِيـكٍ إلى اللهِ دَائِمَــا
إلـى أَنْ يُهَـنَّــا بِــالإِنَــابَـةِ مُخْـبِـتــاً
فَـيَسْـكُنُ فـي ذَا مُـطْمَئِنــاً مُـنَـعَّـمَــا
وَمِنْهــا دَوَامُ الـذِكْـر في كُـلِّ حَـالَـةٍ
يَـرى الأُنسَ بـالـطَّاعَـات لِلهِ مَغْنَمَــا
وَيَـصْحَـبُ حُــرَّادَلَّــهُ فـي طَــرِيْـقِــهِ
وكــان مُـعِيْـنَــا نــاصحــاً مُـتَيَـمِّـمَــا
وَمـنهــا إذَا مَــا فَــاتَــه الـوِرْدُ مَــرَّةً
تَــرَاهُ كَئِـيْــبــاً نَــادِمــاً مُـتَــأَلِّــمَــا
وَمِنْهَــا اشْتِياقُ القَلْبِ في وَقْت خِـدْمَةٍ
إلَيْهَــا كَمُشْتَـدٍّ بِــه الجُـوعُ والـظَّمَـا
وَمِنْهَــا ذَهَــابُ الهَمِّ وَقْتَ صَـلاَتِــهِ
بِــدُنْـيَــاهُ مُـرتَـاحَــا بِهــا مُـتَـنَـعِّـمَــا

وَيَشْتَدُّ عَنْهَا بَعدَهُ لِخُرُوجِهِ
وَقَدْ زَالَ عنهُ الهَمُّ والغَمُّ فاسْتَمَا

فَأكْرِمْ بِهِ قَلْباً سَلِيْماً مُقَرَّباً
إلى اللَّهِ قَدْ أَضْحَى مُحِبّاً مُتَيَّمَا

وَمِنْهَا اجْتِمَاعُ الهَمِّ منهُ بِرَبِّهِ
بِمَرضَاتِهِ يَسْعَى سَرِيعاً مُعَظِّمَا

وَمِنْهَا اهْتِمَامُ يُثْمِرُ الحِرْصَ رَغْبَةً
بِتَصْحِيْحِ أَعْمَالٍ يَكُونُ مُتَمِّمَا

بِإِخْلَاصِ قَصْدٍ وَالنَّصِيْحَةِ مُحْسِناً
وَتَقْيِيْدِهِ بِالاتِّبَاعِ مُلازِمَا

وَيَشْهَدُ مَعْ ذا مِنَّةَ اللهِ عِنْدَهُ
وَتَقْصِيْرَهُ في حَقِّ مَوْلَاهُ دَائِمَا

فستٌ بهَا القَلْبُ السَليمُ ارْتِدَاءهُ
وَيَنْجُو بِهَا مِنْ آفَةِ الموتِ والعَمَا

فَيَارَبِّ وَفِّقْنَا إلى مَا نَقُولُهُ
فَمَازِلْتَ يَاذَ الطَّوْلِ بَرّاً ومُنْعِمَا

فَإِنِي وَإنْ بَلَغْتُ قَولَ مُحَقِّقٍ
أُقِرُّ بِتَقْصِيرِيْ وَجَهْلِي لَعَلَّمَا

وَلَما أَتَى مِثْلِي إلى الجَوِّ خَالِياً
مِنَ العِلمِ أَضْحَى مُعْلِناً مُتَكَلِّمَا

كَغَابٍ خَلا مِنْ أُسْدِهِ فَتَواثَبَتْ
ثَعالِبُ مَا كَانَتْ تَطَافِي فِنَا الحِمَا

فَيَا سَامِعَ النَّجْوَى وَيَا عَالِمَ الخَفَا
سَأَلْتُكَ غُفْرَانَاً يكونُ مَعَمَّمَا

فَأَجْرَأَنِي إِلَّا اضْطِرَارٌ رَأَيْتُهُ
تَخَوُّفْتُ كَوْنِي إِنْ تَوقَّفْتُ كَاتِمَا

فَأَبْدَيْتُ مِن جُرَّاهُ مُزْجَي بِضَاعَتِي
وَأَمَّلْتُ عَفْواً مِن إلهي وَمَرْحَمَا

فَمَا خَابَ عَبْدٌ يَسْتَجِيرُ بِرَبِّهِ
أَلَحَّ وَأَمْسَى طَاهِرَ القَلْبِ مُسْلِمَا

وَصَلُّوا عَلَى خَيْرِ الآنَامِ محمدٍ
كَذا الآلِ والأصحابِ مَا دَامَتْ السَّمَا

(فَصْلٌ)

اعلَمْ وفقنَا اللهُ وإيَّاكَ وجميعَ المسلمينَ لما يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَجَعَلَنَا وإياكَ وإِيَّاهُمْ مِن الْمُصَدِّقِينَ لِلهِ ولِرُسُلِهِ فِيْمَا أَخْبَرُوْا بِهِ وَحَيْثُ أَنَّهُ قَدْ كَثُرَ في زَمَنِنَا الْمُنْكِرونَ لِلْجِنِّ وَغَالِبُهُمْ يَسْتَنِدُونَ في إنكارِهم بِأَنَّ طَرِيْقَ مَعْرِفَةِ وُجُودِهِم هِيَ النَّظَرُ أَوْ السَّمْعُ أو اللَّمْسُ وَأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا جِنّاً وَلَمْ يَسْمَعُوهُم وَلَم يَمَسُّوْهُمْ .

وَلَكِنْ عَدَمُ النَّظَرِ أو السَّمعِ أو اللَّمْسِ أَوْ عَدَمِ وُصُولِ أَحَدِ الحَوَاسِّ الخمسِ إلى وُجُودِ الجِنِّ لا يَقُومُ دليلاً عَلَى عَدَمِ وُجُودِهم لا نَقْلاً ولا عَقْلاً أَمَا العقلُ فانه يُجَوِّزُ وُجُودَ كائِنٍ حَيٍ غَيْرِ مَرْئِي بالْعَينِ بِدُوْنِ واسِطَةِ الْمَجْهَرِ المكتَشَفِ أَخِيراً فانَّ المكروبَ كائنٌ حَيٌ خلَقَهُ اللهُ وَهُوَ كَثِيرٌ في طَبَقَاتِ الجَوِ ولا يُمكن رُؤْيَتُه بالعيْنِ .

وَمَنْ لم يُقِرَّ وَيَعْتَقِدَ ما غَابَ عَنْ سَمْعِهِ وَلَمْسِهِ لَزِمَهُ إنكارُ الرُوْحِ والآلامِ والعَقْلِ والجُوْعِ والظَّمَاء لأنهَا لَيْسَتْ مَرئِيَةً ولا مَسْمُوعَةً ولا مَلْمُوْسَةً وَلاَ مَذُوْقَةً وَأَمَّا النَّقْلُ فَكَثِيْرٌ فَمِنَ الأدِلَةِ قولُه تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ وَقَالَ اللهُ تَعَالَى آمراً رسولَه صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ أَنْ يُخْبِرَ قَوْمَهُ أَنَّ الجِنَّ اسْتَمَعُوا لِقِراءَةِ القُرْآن فَآمَنُوا بِهِ وَصَدّقُوا لِمَا قَالَ وَتَلاَ وانْقَادُوا لهُ كَمَا في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ قُلْ أُوْحِيَ اليَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ من الجِنّ فَقَالُوا إنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَبًا يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ الآيات . وقال تعالى ﴿ وإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِن الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِي وَلوا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِيْنَ ﴾ .

وقال تعالى ﴿ إنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقبيْلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ . وَهَذَا من حِكمَةِ اللهِ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ البَشَرِ فَلَوْ كَشَفَ لَنَا عنْ حَقِيْقَتِهِمْ وَسَلَّطَ نَظَرَنَا المَحْدُودَ على ذَوَاتِهم لمَا أَمْكَنَ واللهُ أَعْلَمُ أَنْ يَعِيشَ الإِنْسَانُ مَعَهُمْ وقال تعالى ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِن الجِنّ والإِنْسِ ﴾ .

وَقَال ﴿ قُلْ لَئِن اجْتَمَعَتْ الإنس والجِنُّ عَلَى أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ . وقال في مَنْ سخَّرَ لِسُلَيْمَانَ ﴿ وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ الآيات ، وقالَ تعالى ﴿ الَّذِيْنَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُوْمُونَ إلا كَمَا يَقُومُ الذي يَتَخَبَّطَهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمِسّ ﴾ . قَالَ ابنُ عَبَّاس آكلُ الرِّبَا يُبْعَثُ يومَ القِيَامَةِ مَجْنوناً يُخْنَقُ رواهُ ابنُ أَبِي حَاتِم قالَ وَرُوِيَ عَن عَوفِ بن مَالِكٍ وَسَعِيدِ ابنِ جُبَير والسُّدّى والرَّبِيعِ بن أَنَسٍ وَقَتَادَةَ وَمقَاتِلِ بنِ حَيانَ نَحوُ ذلكَ إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ .

وَأَمَّا السُّنةُ فورَدَ عَن النبيّ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ « ان عفريتاً مِن الجنّ تَفلَّت عَليَّ البَارِحَةِ لِيَقْطَعَ عَليَّ الصَّلاَةِ فأمكَنَنِي اللهُ مِنهُ فَأَرَدتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إلى سَارية مِن سَوَارِي المَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُروا إِلَيْهِ فَذَكرْتُ قَولَ أخِي سُلَيْمَانَ ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحدٍ مِنْ بَعدِي ﴾ .

وَوَرَدَ أنَّ صفية زوجَ النبي صلى اللهُ عليهِ وسلمَ جَاءَتْ تَزُورُهُ وَهُوَ معتكفٌ فقام مَعَهَا مودّعاً حَتَّى بَلَغَتْ بَابَ المَسْجِدِ فرآهُ رَجُلانِ مِن الانْصَارِ فَسَلْمَا عَليهِ فقالَ عَلى رِسْلِكُمَا إنمَا هِي صَفِيَّةُ بنتُ حُيَي فقالاَ سُبحانَ اللهِ يَا رَسُولُ اللهِ وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا فَقَالَ النبيُ صَلَّى اللهُ علىهِ وَسَلَّمَ إنَّ الشَّيطانَ يَبْلغُ مِن الانسانِ مَبْلَغَ الدم وإني خَشِيْتَ أن يَقْذِفَ في قُلوبِكُمَا شَيْئاً .

وَهَذَا صَرِيحٌ واضحٌ في أَنَّ الشَيْطَان يَخْتَرِقُ الجِسْمَ البَشَرِي وَيَسْرِي فيهِ كَمَا يَسْرِي الدَّمُ وَمَعَ خَفَائِهِ فَقَدْ التَزَمَ الشَيطَانُ لعنهُ اللهُ في عَدَاوَته سَبْعَةَ أمُور : أَرْبعَةٌ في قَولـه تَعَالى﴿ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنّ آذانَ الأنعامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَليغيُرُنَّ خَلْقَ اللّهِ ﴾ وثَلاَثةٌ منهَا في قَوْلِهِ تَعالَى ﴿ لأقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيْمَ ثُم لآتِيَنَّهُم مِنْ بينِ أَيْدِيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِيْنَ ﴾ .

وَهَذَا الإلتِزَامُ يُبينُ أَنَّهُ عَدوٌ مُتَظَاهِرٌ بالعَدَاوَةِ وَلِذَلِكَ فَصَّلَ اللهُ عَداوتَهُ باشْتِمَالِهـا عَلى ثَلاَثـةِ أَشْيَاءَ : (السُّـوءُ) وَهُو مُتَنَـاوِلٌ جَمِيْعَ المَعَاصِي مِنَ القَلْبِ والجَوارِح (والفَحْشَاء) وهِيَ ما عظمَ جُرْمُهُ وَذَنْبُهُ كالكَبَائِرِ التي بَلَغَت الغَايَةَ في الفُحْشِ وذلك كالزنَا واللِّوَاطِ . والقولِ

عَلى اللهِ بِلا عِلْمٍ في أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَشَرْعِهِ .

وَرَوَى مُسلم أَنَّ فَتىً مِن الأَنْصَارِ قَتَل حَيَّةً في بَيْتِهِ فَمَاتَ في الحَال فَقَالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّم : إِنَّ في المَدِيْنَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا فإِذَا رَأَيْتُم مِنهُم شيئاً فآذِنُوهُ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فانْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذلك فَاقْتُلوهُ فانما هُوَ شَيْطَانٌ .

وَهَكَذا تَكَرَّرُ الرِّوَايَاتُ الصحيحةُ أَنَّ الجِنَّ كانُوا بالمَدِيْنَةِ وقد أَسْلَم بَعضُهُمْ وَرَوَى مسلمٌ في صحيحهِ عنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ قالَ (مَا مِنْ مَولَودٍ يُولَدُ إلا نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ إلا ابنَ مَرْيمَ وَأُمَّهُ ﴾ .

وَروى مُسْلم قَوْلَ النبي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ : مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلَّا وَقَدْ وُكِّلَ اللهُ به قَرِيْنَهُ مِنَ الجِنِّ ، فَرَأَى الصحابَةُ أَنَّ قَوْلَهُ صلى اللهُ عليه وسلمَ عامٌ فقالُوا يا رسول اللّه وإِيَّاكَ ، أَيْ حَتَّى أَنْتَ فقالَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (وإِيَّايَ لكنَّ اللهَ قَدْ أَعانَنَي عَلَيهِ فَأَسْلَم فَلاَ يَأْمُرُني إلا بِالخَيرِ) .

وَرَوَى البُخاريُ في صحيحهِ عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بِحِفْظ زَكاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم قال دَعْنِي فإِنِّي مُحْتَاجٌ وَلِي عِيَالٌ وَبِي حَاجَةٌ شَدِيْدَةٌ .

قالَ فَخَلَّيتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم (يا أَبَا هُريرةَ ما فَعَلَ أَسِيْرُك البَارِحة) قال قُلْتُ يا رسولَ الله شَكَا حَاجةً شديدةً وعيالاً فَرحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيْلَهُ قَالَ أَمَا إنهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيعودُ فَرَصَدْتُه

فَجَاءَ يَحْثُو مِن الطعامِ فَعَلَ ذَلِكَ ثلاث لَيَالٍ كلُّ ذَلِك والرَّسولُ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وسَيَعُودُ .

فَلَمَا كان في الثالثةِ قُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إلى رَسُولِ الله صلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ ، وَهَذا آخرُ ثَلاث مَرَّاتٍ تَزْعُمُ أَنَّكَ لاَ تَعُودُ فَقَالَ دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كلمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا فقلتُ وَمَا هِـي قَالَ اذَا أَوَيْتَ إِلى فِرَاشِكَ فاقْرأْ آيَةَ الكُرْسي ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إلا هُوَ الحَيُ القيوم ﴾ حتى خَتَمَ الآيةَ فإنه لَنْ يَزَالَ عليكَ مِن اللهِ حَافِظٌ ولا يَقْرَبُكَ شَيْطانٌ حتى تُصْبِحَ فقال النبي صلى الله عليه وسلم أَمَا إِنَّهُ صَدَقَكَ وهو كَذُوبٌ تَعْلَمُ مَن تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاَثِ لَيالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ قُلْتُ لا قال ذَلِكَ شَيْطَانٌ .

عن أَبِي السَّائِبِ أَنَّه دَخَلَ على أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِي في بَيْتِهِ قال فَوَجَدْتُهُ يُصَلي فَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُهُ حَتَّى يَقْضِي صَلاتَهُ فَسَمِعْتُ تَحْرِيْكاً في عَرَاجِيْنٍ في نَاحِيَةِ البَيْتِ فالتَفَتُّ فاذا حَيَّةٌ فَوَثَبْتُ لِأَقْتُلَهَا فَأَشَارَ إِليَّ أَنْ أَجْلِسْ فَجَلَسْتُ فَلَمَّا انْصرفَ أَشَارَ إِلى بَيْتٍ في الدَّارِ فقال أَترى هَذَا البَيْتَ فَقُلْتُ نَعَمْ فَقَالَ كَانَ فِيه فَتىً مِنَّا حَدِيثُ عَهْدٍ بِعُرْسٍ قَالَ فَخَرجْنَا مَعَ رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم إلى الخَنْدَقِ فَكَانَ ذَلِكَ الفَتَى يَسْتَأْذِنُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم بأَنْصَافِ النَّهَارِ فَيرجِعَ إِلى أَهْلِهِ .

فاسْتَأْذَنَه يَوماً فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم خُذْ عَلَيْكَ سِلاَحَكَ فإِني أَخْشَى عَلَيْكَ قُرَيْظَةَ فَأَخَذَ الرجلُ سِلاَحَهُ ثم رَجَعَ فإِذَا امْرَأَتُه بَيْنَ البَابَينِ قَائِمةً فَأَهْوَى إِلَيْهَا بالرُّمْحِ لِيَطْعُنَهَا بِهِ فَأَصَابَتْهُ ، فَقَالَتْ اكْفُفْ عَلَيْكَ رُمْحَكَ وادْخُل البَيْتَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الذِيْ أَخْرَجَنِي فإذا بِحَيَّةٍ عَظِيْمَةٍ مُنْطَوِيَةٍ على الفِرَاشِ فَأَهْوَى إِلَيْهَا بالرُمْحِ فَانْتَظَمَهَا بِهِ ثُمَّ خَرَجَ فَرَكَزَهُ في الدارِ فاضْطَرَبَتْ عَلَيْهِ فَمَا يُدْرَى أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتاً الحَيَّةُ أمِ

الفَتَى قَال فَجِئْنَا إلى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ وَقُلْنَا ادْعُ اللهَ يُحْيِيْهِ لَنَا فقالَ اسْتَغْفِرُوا لِصَاحِبِكُمْ .

ثُمَّ قَال إنَّ بالمَدِيْنَةِ جِنّاً قَدْ أَسْلَمُوا فإِذَا رَأَيْتُم مِنْهُمْ شَيْئاً فَآذِنُوهُ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ فإنْ بَدَا لَكُم بَعْدَ ذَلِكَ فَاقْتُلُوهُ فإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ وفي روايةٍ عنه فقال رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم إن لِهَذِهِ البُيُوتِ عَوَامِرَ فإذا رَأَيْتُمْ شَيْئاً مِنْهَا فَحَرِّجُوْا عَلَيْهَا ثَلاَثَةً فإنْ ذَهَبَ وإلا فاقْتُلُوهُ فإنَّهُ كَافِرٌ وقال لَهُم اذْهَبُوا فادْفُنُوا صَاحِبَكُم .

وعن أبي هريرةَ رَضِي اللهُ عنه قال قال رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم « إذا نُودِيَ بالصلاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حتى لا يَسْمَعَ التَّأْذِيْنَ فإذا قُضِيَ النِّدَاءُ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا ثوبَ بالصلاةِ أَدْبَرَ حتى اذا قُضِيَ التَّثْوِيْبُ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ المَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ اذْكُرْ كَذَا واذْكُرْ كَذَا ـ لِمَا لَمْ يَذْكُرْ مِن قَبْلُ ـ حَتى يَظَلَّ الرَجُلُ ما يَدْرِيْ كَمْ صَلَّى » متفق عليه « التثويب » : الإقامة يَخْطُر : يُوَسْوِسْ .

وعن ابن مسعودٍ رضِي اللهُ عنه قال ذُكِرَ عِنْدَ النبي صلَّى الله عليه وسلم رَجُلٌ نامَ لَيْلَةً حَتَى أَصْبَحَ قال : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أَوْ قال في أُذُنِهِ / متفق عليه ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَعْقِدُ الشيطانُ على قَافِيَةِ رَأْسِ أحِدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ على كُلِّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيْلٌ فَرْقُدْ فإن اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهُ تعالى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فإنْ تَوضأَ انحلَتْ عُقْدَة فإن صَلَّى انْحَلَّتِ عُقَدُهُ كُلُّهَا فأَصْبَحَ نَشِيْطاً طَيِّبَ النَّفْسِ وإلا أصْبَحَ خَبِيْثَ النَّفْسِ كَسْلَانٌ متفق عليه .

وروى مسلمٌ عن ابنِ مَسْعُودٍ قَالَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم لا تَسْتَنْجَوا بالرَّوْثِ ، ولا بالعِظَامِ ، فإنه زَادُ اخْوانِكُم مِن الجِن

وَوَرَدَ في السنةِ الصَّحِيْحَةِ باللَّفْظِ الصَّرِيْحِ أَكْلُ الشَّيْطَانِ ، وَشُرْبُهُ فَقَدْ وَرَدَ إذا أَكَلَ أَحَدُكُم فَلْيَأكُلْ بِيَمِيْنِهِ وَلْيَشْرَبْ بِيَمِيْنِهِ ، فإِنَّ الشيطَانَ يَأْكُل بِشِمَاله ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ ، وَيَأْخُذُ بِشِمَالِهِ وَهَذَا لا يَحْتَاجُ إِلى شَرْحٍ ، ولا تَأْوِيلٍ لوضوحه .

وَحَدِيْثِ الوَادِي الذي نَامَ فِيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، عن زَيْدِ بن أسلمَ قال عَرَّسَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لَيْلَةً بِطَرِيْقِ مَكَّةَ، وَوَكَّلَ بِلالاً يُوْقِظُهُم لِلصَّلاةِ ، فَرَقَدَ بِلَالُ وَرَقَدُوا ، حَتَى اسْتَيْقَظُوا وَقَدْ طَلَعَتْ عَلَيْهِم الشَّمْسُ ، فاسْتَيْقَضَ القَومُ قَدْ فَزِعُوا ، فَأَمَرَهُم رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم أنْ يَرْكَبُوا ، حَتَّى يَخْرُجُوا مِن ذلك الوادِي .

وَقال هَذَا وَادٍ فِيْهِ الشيطانُ ، فَرَكِبُوا حَتَّى خَرَجُوا مِن ذَلِكَ الوَادِي ثُمَّ أَمَرهم النبيُ صَلَّى اللهُ عليه وسلم أنْ يَنْزِلُوا ، وأَنْ يَتَوَضَؤُا ، وَأَمَرَ بلالاً أنْ يُنَادِي بالصَّلاةِ ، فصَلى رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم بالناسِ ثُمَّ انْصَرَفَ ، وَقَدْ رَأَى مِن فَزَعِهِم ، فقال أَيُّها الناسُ إِنَّ اللهَ قَبَضَ أَرْوَاحَنَا وَلَو شَاءَ لَرَدَّهَا إِلَيْنَا في حِيْنٍ غَير هذا ، فإذا رَقَدَ أَحَدُكُم عن الصلاةِ أَوْ نَسِيَهَا ، ثم فَزِعَ إِلَيْهَا فَلْيُصَلِهَا كما كان يُصَلِيْهَا في وَقْتِهَا .

ثم التَفَتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم إلى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِيْقِ فقال إِنَّ الشيطانَ أَتَى بلالاً وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِي فَأَجْمَعَهُ ، ثم لم يَزَلْ يُهدِيْهِ كَمَا يُهَدَى الصَّبِيُ حَتَّى نَامَ ، ثم دَعَا رَسُوْلُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بلالاً فَأَخْبَرَ بلالُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مِثْلَ الذي أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَبَا بَكْرٍ ، فقال لَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنه أَشْهَدُ

أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ رواه مالك في الموطاء مرسلاً .

وعن ابن مَسْعُودٍ قال خَرَجَ رَجُلٌ مِن الإِنْسِ فَلَقِيَهُ رَجُلٌ مِن الجِنّ فقال هَلْ لَكَ أَنْ تُصارِعَنِيْ ، فإِنْ صَرَعْتَنِيْ عَلَّمْتُكَ آيَةً إذا قَرَأْتَهَا حِيْنَ تَدْخُلُ بَيْتَكَ لم يَدْخُلْهُ شَيْطَانٌ ، فَصَارَعَهُ فَصَرَعَهُ ، فقال إِنّي أَرَاكَ ضَئِيْلاً ، كأَنَّ ذِرَاعَيْكَ ذِرَعَا كَلْبٍ ، أَهَكَذَا أَنْتُمْ أَيُّها الجِنُ ، أَمْ أَنْتَ مِن بَيْنِهِم ، قال إِنّي فِيْهِم لَضَلِيْعٌ فَعَاوِدْنِي فَعَاوَدَهُ فَصَرَعه الانْسِيُ قَالَ تَقرأُ آية الكُرْسِي ، فإنه لَا يَقْرَؤُهَا أَحَدٌ إِذا دَخَلَ بَيْتَهُ إلا خَرَجَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ خِجِيْجٌ كَخَجِيْجِ الحِمَارِ فَقِيْلَ لابنِ مسعودٍ أَهُوَ عُمَرُ قال مَن عَسَى أَنْ يَكُونَ إِلَّا عُمرٌ رضِي اللهُ عنه .

وَمِن ذلكَ مَا فِي مَجِيءِ الشَّيْطَانِ في صُوْرَةِ شَيْخٍ نَجْدِي في دَارِ النَّدْوَةِ .

ومِن قِصَّتِهَا أَنَّهُ لَمَّا اجْتَمَعَ قُرَيْشٌ لِلتَّشَاوُر في أَمْرِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، قال أهْل العلمِ بالأخْبَارِ هَاجَرَ أَصْحَابُ النبي صلى اللهُ عليه وسلم مِثْلُ عُمَرَ بن الخَطَّابِ ، وابنِهِ عبدِاللّهِ وأَخِيهِ زَيْدِ بْنِ الخطاب ، وعثمانَ بْنِ عَفَّان ، وطَلْحةِ بنِ عُبَيْدِ اللهِ ، وحمزةِ بنِ عبدِ المطلبِ ، عَمِّ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وزيدِ بنِ حَارِثَة وَغَيرِهِمْ .

وأَقَامَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بَعْدَ أَصْحَابِهِ يَنْتَظِرُ الإِذْنَ في الهِجْرَةِ ، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ مَعَه بمَكَّةَ أَحَدٌ مِن المُهَاجِرِيْنَ ، إلا مَنْ حُبِسَ ، أَوْ فُتِنَ ، إلا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ ، وَعَلي بنُ أَبِي طَالِبٍ وكانَ أَبُو بَكْرٍ كَثِيراً ما يَسْتَأْذِنُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فيقولُ لَهُ لا تَعْجَلْ لَعَلَ اللهَ أَنْ

يَجْعَلَ لَكَ صَاحِباً ، فَيَطْمَعُ أَبُو بَكْرٍ إِنْ يَكُونَ هُوَ .

وَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ لِرَسُولِ الله صلى اللَّهُ عليه وسلم شِيْعَةً ، وَأَصْحاباً مِن غَيرِ بَلَدِهِم ، وَرَاوْا خُرُوْجَ المُهَاجِرِيْنَ إِلَيْهِم ، حَذِرُوْا خُرُوْجَ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، وَعَلِمُوْا أَنَّهُ قَدْ أَجْمَعَ لِحَرْبِهِم فاجْتَمَعُوا في دَارِ النَّدْوَةِ ، وهِيَ دَارُ قُصَيٍّ ابنِ كِلابٍ ، وكانَتْ قُرَيْشٌ لا تِقْضِيّ أَمْراً إِلَّا فِيْهَا يَتَشَاوَرُوْنَ فِيْمَا يَصْنَعُوْنَ ، بِرَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم حِيْنَ خَافُوْهُ .

قال ابنُ عَبَاسٍ لَمَّا خَرَجُوا في اليومِ الذي اتَّعَدُوْا لَهُ ، كان ذَلِكَ اليَوْمُ يُسَمَّى يَوْمَ الرَّحْمَةِ ، فاعْتَرَضَ إِبْلِيْسُ في هَيْئَةِ شَيْخٍ جَلِيْلٍ ، عَلَيْهِ بَتْلَةٌ أَيْ كِسَاءٌ غَلِيْظٌ ، فَوَقَفَ على بَابِ الدَّارِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا من الشَّيْخُ ، قال شَيْخٌ مِن أَهْلِ نَجْدٍ ، سَمِعَ بالذي اتَّعَدْتُمْ لَهُ ، فَجَاءَ لِيَسْمَعَ ما تَقُولُونَ ، وعَسَى أَنْ لا يَعْدِكَمُ مِنه رَأْياً ، وَنُصْحاً ، قالُوا فأَدْخُلْ .

وقد اجْتَمَعَ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ ، فَقَالَ بَعْضُهم لِبَعْضٍ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قد كَانَ مِن أَمْرِهِ مَا قَدْ رَأَيْتُم ، وإِنا وَاللَّهِ مَا نَأْمَنُهُ عن الوُثُوبُ عَلَيْنَا ، فَأَجْمِعُوا فِيه رَأْياً ، فَقَالَ قَائِلٌ احْبِسُوهُ في الحَدِيدِ وَأَغْلِقُوا عليه بَاباً ، ثُمَّ تَرَبَصُوا بِهِ مَا أَصَابَ أَمْثَالَهُ مِن الشُعَراءِ مِن الموتِ ، فقال الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ لا واللَّهِ مَا هَذَا لَكُم بِرَأْيٍ ، واللَّهِ لَئِنْ حَبَسْتُمُوْهُ كَمَا تَقُوْلُونَ لَيَخْرُجُنَّ أَمْرُهُ إلى أَصْحَابِهِ فَيَثِبُوْا عَلَيْكُم فَيَنْزِعُوهُ مِنكم ، ما هَذَا لَكُم بِرَأْيٍ فانْظُرُوْا في غَيْرِهِ .

فَتَشَاوَرُوْا ، ثُمَّ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُم نُخْرِجُهُ عن بِلَادِنَا ، ثُمَّ إذا خَرَجَ فَواللَّهِ لا نُبَالِي أَيْنَ ذَهَبَ ، فقال الشيخُ النَجْدِي لَا واللَّهِ مَا هَذَا لَكُم

بِرأْيٍ أَلَمْ تَرَوْا حُسْنَ حَدِيْثِهِ ، وَحَلاَوَةَ مَنْطِقِهِ ، وَغَلَبَتَهُ على قلوبِ الرجالِ بِمَا يَأتِي بِهِ ، واللهِ مَا هُوَ رَأْيٌ .

فَقَالَ : أَبُو جَهْلٍ واللهِ إِنَّ لِيَ رَأْياً ، قَالُوا وَمَا هُوَ يَا أَبَا الحَكَمِ قَالَ أَرَى أَنْ نَأْخُذَ مِن كُلِّ قَبِيْلَةٍ شَاباً ، ثُمَّ نُعْطِي كُلَّ فتىً سَيْفاً ، ثُمَّ يَعْمِدُوْا إِلَيهِ فَيَضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، فَيَقْتُلُوْهُ فَتَسْتَرِيْحُوا مِنْه فإِنَّهم إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ تَفرَقَ دَمُهُ في القَبَائِلِ جَمِيْعاً ، فَلَمْ يَقْدِرْ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ عَلى حَرْبِ قَوْمِهِم جَمِيْعاً ، فَرَضُوا بالعَقْلِ فَعَقَلْنَا لَهُمْ .

فقال الشَّيْخُ النَّجْدِيْ هَذَا هُوَ الرَّأْيُ الذِي لا أَرَى غَيْرَهُ ، فَتَفَرَّقَ القومُ على ذَلِكَ ، فَأَتَى جِبْرِيْلُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم ، فقال لا تَبِيْتَ اللَّيْلَةَ عَلَى فِرَاشِكَ ، فَلَمَّا كَانَ عَتَمَةٌ مِن اللَّيلِ ، اجْتَمَعُوا على بَابِهِ يَرْقُبُونَهُ حَتَّى يَنَامَ فَيَثِبُوْنَ عَلَيهِ .

فَلَمَّا رَأى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَكَانَهُم قال لِعَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ نَمْ عَلى فِرَاشِيْ وَتَسَجَّ بِرِدَائِي الأَخْضَرَ ، فإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِليكَ شَيءٌ تَكْرَهُهُ مِنهم ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا على بَابِهِ قال أَبُو جَهْلٍ إِن مُحَمَّداً يَزْعُمُ أنكُم إِنْ تَابَعْتُوهُ عَلَى أَمْرِهِ كُنْتُمْ مُلُوكَ العَرَبِ ، والعَجَمِ ثم بُعِثْتُم مِن بَعْدِ مَوْتِكُم وَجُعِلَتْ لَكُم جَنَّاتٌ كَجَنَّاتِ الأُرْدُنِ ، وإِنْ لَم تَفْعَلُوا كَانَ فِيكم ذَبْحٌ ، ثم بُعِثْتُمْ مِن بَعْدِ مَوْتِكُم ، ثم جُعِلَتْ لكمُ نَارٌ تُحْرَقُونَ فِيها .

قال وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَأَخَذَ حَفْنَةً مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ نَعَمْ أَنَا أَقُولُ ذلكَ أَنْتَ أَحَدُهُمْ فَأَخَذَ اللهُ على أَبْصَارِهِم عَنْهُ فَلاَ يَرَوْنَهُ وَجَعَلَ يَنْثُرُ ذَلِكَ التُرابَ على رُؤُوْسِهِم ، وَهُوَ يَتْلُو عَلَيْهِم يس والقرآنِ الحَكِيْم إِلى قَولِهِ فأَغْشَيْنَاهُم فَهُم لاَ يُبْصِرُون ، ولم يُبْقِ مِنهم

رَجُلاً إلَّا وَقَدْ وَضَعَ عَلى رَأْسِهِ تُرَاباً .

ثم انْصَرَفَ فَأَتَاهُم آتٍ فَقَالَ ما تَنْتَظِرُوْنَ هَهُنَا ، قالُوا مُحَمَّداً قال خَيَّبَكُم اللهُ ، واللهِ خَرَجَ عَلَيكُم مُحَمَّدُ ثُمَّ مَا تَرَكَ مِنكم رَجُلاً إلَّا وَقَدْ وَضَعَ عَلى رَأْسِهِ تُرَاباً ، وانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ .

قال فَوَضَعَ كُلُ وَاحِدٍ مِنهم يَدَهُ عَلى رَأْسِهِ فاذَا عَلَيْهِ تُرَابٌ ، ثُم جَعَلَوا يَتَطَلَّعُونَ ، فَيَروْنَ عَلياً عَلى الفِرَاشِ مُسَجًى بِبُرْد رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم ، فَيَقُولُونَ واللهِ إنَّ هَذَا لَمُحَمَّدٌ نَائِماً في بُرْدِهِ ، فلم يَبْرَحُوا كَذَالكَ حَتَّى أَصْبَحُوا .

فَقَامَ عَليٌّ عَن الفِرَاشِ فَقَالُوا وَاللهِ لَقَدْ صَدَقَنَا الذي كَانَ حَدَّثَنَا وَأَنْزَلَ اللهُ في ذلكَ ﴿ وإذ يَمْكُر بِكَ الذينَ كَفَروا لِيُثبتُوكَ أَوْ يَقْتُلوكَ أَوْ يُخْرِجوكَ وَيَمْكُرُوْنَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكِرين ﴾ والشاهدُ هُوَ مَجِيءُ الشيطانِ وَرُؤْيَتُهُ وَكَلَامُهُ وهو أَبُو الجِنِ لَعَنَهُ اللهُ .

ومِن ذَلِكَ صِيَاحُ ابْلِيْسَ يَوْمَ أُحُدٍ أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم قُتِلَ ، فَلَمْ يُشَكَّ في ذَلِك ، حَتَّى طَلَعَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بَيْنَ السَّعْدَيْنِ ، قال الرَّاوِيْ نَعْرِفُهُ بِكَتِفَيْهِ إذا مَشَى قال فَفَرِحْنَا حَتَّى كَأَنَّهُ لم يُصِبْنَا مَا أَصَابَنَا ، فاؤمَّا نَحونَا الحَدِيْثَ .

وَمن ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَن أَبي هُريرةَ رضي اللهُ عنه قال قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إذا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُم مِن مَنَامِهِ فَلْيَتَوَضَأ وَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فإن الشَّيْطَانَ يَبِيْتُ على خَيَاشِيْمِهِ متفق عليه .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ عن أبي شعيدٍ الخُدري أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ

عليه وسلم قامَ فَصَلى صَلاةَ الصُّبْحِ وهو خَلْفَهُ فَقَرأَ فالتَبسَتْ عَلَيْهِ القِرَاءةُ فَلَمَّا فَرغَ مِن صَلاتِهِ قَالَ لَوْ رَأَيْتُموني وابْلِيْسَ فَأَهْوَيْتُ بيَدِي فَما زِلْتُ أَخْنقُهُ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ لُعابِهِ بَيْنَ أَصْبُعَيَّ هَاتَيْنِ الإِبْهَامِ وَالتي تَلِيْهَا وَلولا دَعْوَةُ أَخِيْ سُلَيْمان أَصبَح مَرْبُوطاً بِسَارِيَةٍ مِن سَوَارِي المَسْجِدِ يَتَلاعَبُ بِهِ صِبْيَانُ المَدِيْنَة وصلى اللَّهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحْبِهِ أجمعين .

فَصْلٌ : وقال شَيْخُ الإِسلامِ والجِنُّ يَتَصَوَرُّوْنَ في صُوَرِ الإِنْسِ ، والبَهَـائِمِ فَيَتَصَوَّرُوْنَ في صُوَرِ الحيَّاتِ ، والعَقَارِبِ ، وَغَيْرِهَا ، وفي صُوَرِ الإبِـلِ ، والبَقَـرِ والغَنَمِ ، والخَيْلِ ، والبِغَـالِ ، والحَمِـيْرِ، وَفي صُوَرِ الطَّيْرِ ، وفي صُوَرِ بَنِيْ آدَمَ ، كَمَا أَتَى الشَّيْطَانُ قُرَيْشاً في صُوْرَةِ سُرَاقَة بْن مالِـكٍ بن قَشم ، لَمَّا أَرادُوْا الخُـرُوْجَ إلى بَدْرٍ ، قال تعالى ﴿ وإذْ زَيَّنَ لَهُمَ الشيطانُ أَعْمَالَهُم وقال لا غَالِبَ لَكُم اليَوْمَ مِن النَّاسِ وإِني جَارٌ لكُم ﴾ إلى قَوْلِهِ ﴿ واللَّهُ شَدِيْدُ العِقَابِ ﴾ .

وَذَكَر ابنُ أَبي الدُنْيَا في كِتَابِهِ مَكَائِدِ الشَّيْطانِ أَنَّ رَجُلاً مِن أَهْلِ الشام مِن أمَرَاءِ مُعَاوِيَةَ غَضَبَ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَلى ابْنِهِ ، فأَخْرَجَهُ مِن مَنْزِلِهِ فَخَرَجَ الغُلاَمُ لا يَدْرِيْ أَيْنَ يَذْهَبُ ، فَجَلَسَ وَرَاءَ البَابِ مِن خَارِجٍ ، فَنَام سَـاعةٍ ثُمَّ اسْتَيْقَضَ ،وَبَابُهُ يَخْمِشُهُ هِرٌ أَسْوَدُ بَرِيّ ، فَخَرَجَ إِليهِ الهِرُ الذِيْ في مَنْزِلِهِمْ .

فقال لَهُ البريُ وَيْحكَ افْتَحْ ، فَقَالَ لا أَسْتَطِيْعُ فَقَالَ وَيْحَكَ ائْتِنِيْ بِشَيءٍ أَتَبَلَغُ بِهِ ، فإِني جَائِعٌ وَأَنَا تَعْبَانٌ ، هَذَا أَوَانُ مَجِيْءِ مِن الكُوفَةِ وَقَدْ حَدَثَ اللَّيْلَةَ حَدَثٌ عَظِيْمٌ ، قُتِلَ عَلِيُ بِنُ أَبِي طالبٍ ، قَالَ فَقَالَ لَهُ الهِرُ الأَهْلِي واللهِ إنه لَيْسَ شيءٌ هَاهُنَا ، إِلاَّ وَقَدْ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ، غَيْرَ سَفُّوْدٍ

كَانُوا يَشْوُوْنَ عَلَيهِ اللَّحْم .

فقال ائْتِنِي بِهِ فَجَاءَهُ بِهِ فَجَعَل يَلْحَسُهُ حَتَّى أَخَذَ حَاجَتَهُ وانْصَرَفَ وذَلِكَ بِمَرْأى مِن الغُلَامِ ،وَسَمِعٍ ،فقامَ إلى البَابِ فَطَرَقَهُ،فَخَـرَج إليهِ أَبُوهُ ، فَقَالَ مَنْ فَقَالَ افْتَحْ ، فَقالَ وَيْحكَ مَالَكَ ، فَقَالَ افْتَحْ فَفَتَحَ فقصَّ عَلَيهِ خَبَرَ مَا رَأى .

فَقَالَ وَيْحكَ أَمَنَامٌ هَذَا ، قال لَا وَاللهِ قَالَ وَيْحَكَ ، فَأَصَابَكَ جُنُونٌ بَعْدِي ، قال لَا وَاللهِ ، وَلَكِنْ الأَمْرُ كَمَا وَصَفْتُ لَكَ .

فاذْهَبْ إلى مُعَاوِيَةَ الآنَ فِاتَّخِذْ عِنْدَهُ بِمَا قُلْتُ لَكَ ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ فاسْتأذَنَ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَأَخْبَرَهُ خَبَرَ مَا ذَكَرَ لَهُ ، وَلَدُهُ ، فَأَرَّخُوا ذَلِكَ عِنْدَهُم قَبْلَ مَجِيْءِ البُرُدِ ، وَلَمَّا جَاءَتْ البُرُدُ وَجَدُوْا مَا أَخْبَرهُم قَبْلَ مَجِيْءِ البُرُدِ ، وَلَمَّا جَاءَتْ البُرُدُ وَجدُوْا مَا أَخْبَرُوْهُم بِهِ مُطَابقاً لِما كَان خَبَّرَ بِهِ الغُلامُ .

وَرُوِيَ أَنَّ سَعْدَ بنِ عُبَادَةَ بَالَ بِجُحْرٍ بالشام ثُمَّ اسْتَلْقَى مَيِّتاً فَسُمِعَ مِن بِئْرٍ بالمَدِيْنَةِ قَائلاً يَقُولُ نَحنُ قَتَلْنَا سَيِّدَ الخَزْجِ سَعْدَ بنَ عُبَادَة ، رَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْنِ فَلَمْ نُخْطِي فُؤَادَهُ ، فَحَفِظُوا ذَلِكَ اليومَ الذي ماتَ فيه سَعْدٌ فَوَجَدُوْه اليومَ الذي سُمِعَ فيه الخَبَرُ ، والله أعلم .

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِتَدبُر كِتَابك وإِطَالةِ التأمُلِ فيه وَجَمْعِ الفِكْرِ على مَعَانِي آياتِه . اللهم ثَبِّت قَوَاعِدَ الإيمانِ في قُلُوبِنا وَشَيِّدْ فيها بُنْيَانَهُ وَوَطِّدْ فِيها أَرْكَانَهُ وَأَلْهِمنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرةِ حَسَنةً وَقِنَا عَذَابَ النار واغْفِرْ لَنَا ولِوَالدينا وجميع المسلمين بِرحمتك يا أَرْحم الراحِمين وصلَى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

(فَصْــلٌ)

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمه اللهُ ، ولا رَيْبَ أَنَّ الأوثانَ يَحْصُلُ عِندَهَا مِن الشياطينِ ، وَخِطَابِهِم ، وَتَصَرُّفِهِم ما هُوَ مِن أَسْبَابِ ضَلالِ بَنِيْ آدَمَ ، وَجَعْلُ القُبُورِ أَوْثاناً ، هُو أَوَّلُ الشِّرْكِ ، وَلِهَذَا يَحْصُلُ عِنْدَ القْبورِ لِبَعْضِ الناسِ مِن خِطابٍ يَسْمَعُهُ ، وَشَخْصٍ يَراهُ ، وَتَصَرُّفٍ عَجِيْبٍ ، مَا يَظُنُّ أَنَّهُ مِن المَيْتِ .

وَقد يَكُونُ مِن الجِنِّ والشَّيَاطِيْنِ ، مِثْلُ أَنْ يَرَى القَبْرَ قَدْ انْشَقَ ، وَخَرَجَ مِنه المَيِّتُ ، وَكَلَّمَهُ وَعَانَقَهُ وَهَذَا يُرَى عِنْدَ قُبُورِ الأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِم وإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ فإِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَصَوَّرُ بِصُوَرِ الإِنْسِ ، وَيَدَّعِي أَحَدُهُمْ أَنَّهُ النَّبِيُ فُلَانٌ أَوِ الشَّيْخُ فُلانٌ وَيَكُونُ كاذِباً في ذَلِكَ .

وفي هَذَا البَابِ مِن الوَقَائِعِ مَا يَضِيْقُ هَذَا المَوْضِعُ عَنْ ذِكْرِهِ وهِيَ كَثِيْرَةٌ جِدّاً، والجَاهِلُ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ الذي رَآهُ قَدْ خَرَجَ مِن القَبْرِ وَعَانَقَهُ أَوْ كَلَّمَهُ هُوَ المَقْبُوْرُ أَوِ النَّبِيُ ، أو الصَّالِحُ ،أَوَغَيْرُهُمَا ، والمُؤْمِنُ العَظِيْمُ يَعْلَمُ أَنَّهُ شَيْطَانٌ ، وَيَتَبَيَّنُ ذلك بأمُورٍ .

أَحَدَها أَنْ يَقْرَأَ آيَةَ الكُـرْسِيْ بِصِدْقٍ ، فـإِذَا قَرَأَهَـا تَغَيَّبَ ذَلِكَ الشَّخْصُ ، أَوْ ساخَ فِي الأَرْضِ ، أو احْتَجَبَ. وَلَوْ كَان رَجُلاً صَالِحاً أَوْ مَلَكا أَوْ جِنِيّاً مُؤْمِناً لَمْ تَضُرَّهُ آيةُ الكُرْسِيْ ، وإِنَّمَا تَضُرُ الشَّيَاطِيْنَ كَمَا ثَبَتَ في الصَّحِيْحِ مِن حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ إِقْرَأَ آيَةَ الكُرْسِيْ إِذَا أَوَيْتَ فِرَاشَكَ ، فإِنَّهُ لَا يَزالُ عَلَيْكَ مِن اللهِ حَافِظٌ ولا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبَح، فقال النَّبِيُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوْبٌ .

وَمِنْهَا أَنْ يَسْتَعِيْذَ باللهِ مِن الشَّيَاطِيْنِ .

وَمِنْهَا أَنْ يَسْتَعِيْذَ بالعُوْذَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، فانَّ الشَّيَاطِيْنَ كَانَتْ تَعْرِضُ لِلأَنْبِيَاءِ في حَيَاتِهِم ، وَتُرِيْدُ أَنْ تُؤْذِيْهِمْ ،وَتُفْسِدُ عِبَادَتَهُم كَمَا جَاءَتِ الجِنُّ إلى النَّبي صَلَّى اللهُ عليه وسلم بِشُعْلَةٍ مِن نَارٍ تُرِيْدُ أَنْ تَحْرِقَهُ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيْلُ بالعُوْذَةِ المَعْرُوفَةِ ، الَّتِي تَضَمَّنَهَا الحَدِيثُ المَرْوِيُ عَن أَبِي التَّيَّاحِ أَنَّهُ قال سَأَلَ رَجُلٌ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ حُبَيْشٍ ، وكان شَيْخاً كَبِيراً قَدْ أَدْرَكَ النَّبِيَ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم كيفَ صَنَعَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم حِيْنَ كادَتْهُ الشَّيَاطِيْنُ ، قال تَحَدَرَتْ عَلَيْهِ مِن الشِّعَابِ ، والأَوْدِيَةِ ، وفِيْهِم شَيْطَانٌ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِن نَارٍ ، يُرِيْدُ أَنْ يُحْرِقَ بها رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

قَالَ فَرُعِبَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فَأَتَاهُ جِبْرِيْلُ عليه السلام ، فقال يا مُحَمَّدُ قُلْ قَالَ مَا أَقولُ قَالَ قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَاتِ ، الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌ وَلَا فَاجِرٌ ، مِن شَرِّ ما خَلَقَ ، وَذَرَأَ وَبَرَأَ وَمِن شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِن السَّمَاءِ ، وَمِن شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيها ، ومِن شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِن الأَرْضِ ، ومِن شَرِّ مَا يَنْزِلُ فِيها، ومِن شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ ، وَمِن شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ يَطْرُقُ إِلَّا طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَن .

قال فَطَفِئَتْ نَارُهُم ، وَهَزَمَهُم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وفي صحيح مسلم عن أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وسلم يُصَلِّي ، فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ أَعُوْذُ باللهِ مِنْكَ ، ثم قَالَ أَلْعَنُكَ بلَعْنَةِ اللهِ ثلاثاً ، وَبَسَطَ

يَدَهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئاً ، فَلَمَّا فَرَغَ مِن صَلاتِهِ ، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ شَيْئاً في الصلاةِ لم نَسْمَعْكَ تَقُولُ قَبْلَ ذلك ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ .

قَالَ إِنَّ عَدُوَ اللهِ إِبْلِيْسُ جَاءَ بِشِهَابٍ مِن نَارٍ ، لِيَجْعَلَهُ في وَجْهِي ، فَقُلْتُ أَعُوْذُ باللهِ مِنكَ ثلاثَ مَرَّاتٍ ، ثم قُلْتُ أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ فاسْتَأْخَرَ ، ثم أَرَدْتُ أَنْ آخُذَهُ ، وَلَولاَ دَعْوَةُ أَخِيْنَا سُلَيْمَانَ لأَصْبَحَ مُوْثَقاً يَلْعَبُ بِهِ وِلدَانُ المَدِيْنَةِ .

وَكَثِيْراً مِن العُبَّادِ يَرَى الكَعْبَةِ تَطُوفُ بِهِ وَيَرَى عَرْشاً عَظِيماً ، وَعَليهِ صُوْرَةٌ عَظِيْمَةٌ ، وَيَرَى أَشْخَاصاً تَصْعَدُ ، وَتَنْزِلُ فَيَظُنُّهَا المَلائِكَةَ وَيَظُنُ أَنَّ تِلْكَ الصُوْرَةَ هِيَ اللهُ ، تَعَالَى ، وَتَقَدَّسَ ، وَيَكُونُ ذَلِك شَيْطَاناً .

وَقَدْ جَرَت هَذِهِ القِصَّةُ لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِن النَّاسِ ، فَمِنْهُم مَن عَصَمَهُ اللهُ وَعَرَفَ أَنَّه الشَّيْطَانُ ، كالشَّيْخِ عبدِ القَادِرِ في حِكَايَتِهِ المَشْهُوْرَةِ ، حَيْثُ قَالَ كُنْتُ مَرَّةً في العِبَادَةِ فَرَأَيْتُ عَرْشاً عَظِيْماً ، وَعَلَيهِ نُورٌ ، فقال لِيْ يَا عَبْدَ القادِرِ ، أَنَا رَبُّكَ ، وَقَدْ حَلَّلْتُ لَكَ مَا حَرَّمْتُ على غَيرِكَ ، قال فَقُلْتُ لَهُ أَنْتَ اللّهُ الذي لا إِله ألا هُوَ ، إخْسَأْ يَا عَدُوَ اللهِ ، قال فَتَمَزَّقَ ذَلِكَ النُوْرُ ، وَصَارَ ظُلْمَةً ، وقال يا عَبْدَ القَادِرِ نَجَوْتَ مِنِّيْ بِفِقْهِكَ في دِيْنِكَ ، وَعِلْمِكَ وَمُنَازَلَتِكَ ، في أَحْوَالِكَ ، لَقَدْ فَتَنْتُ بِهَذِهِ القِصَّةِ سَبْعِيْنَ رَجُلاً .

فَقِيْلَ لَهُ كَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّهُ الشَّيْطَانُ قَالَ بِقَوْلِهِ لِيْ حَلَّلْتُ لَكَ مَا حَرَّمْتُ عَلَى غَيرِكَ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ شَرِيْعَةَ مُحَمَّدٍ لاَ تُنْسَخُ وَلاَ تُبَدَّلُ ، وَلأَنَّهُ قَالَ أَنَا رَبُّكَ ، ولم يَقْدِرْ أَنْ يَقُولَ أَنا اللهُ الذي لا إِلهَ إِلاَّ أَنا ، ومِن

هَؤُلآء مَن اعْتَقَدَ أنَّ المَرْئِي هُوَ اللَّهُ وصَارَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُم يَرَوْنَ اللهَ تَعالى ، في اليَقَظَةِ ، وَمُسْتَنَدُهُم ما شَاهَدُوْهُ ، وَهُمْ صَادِقُونَ فِيْمَا يُخْبِرُوْنَ بِهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الشَّيْطَانُ .

وَهَذَا قَدْ وَقَعَ كَثِيْراً لِطَوائِفَ مِن جُهَالِ العُبَّادِ يَظُنُّ أَحَدُهُم أَنَّهُ يَرى اللهَ تَعالى بِعَيْنِهِ في الدُّنْيَا لأَنَ كَثِيْراً مِنهم رَأى مَا ظَنَّ أَنَّهُ اللهُ وإِنمَا هُوَ شَيْطَانٌ .

وَكَثِيْرٌ مِنْهُم مَن رَأى مَن ظَنَّ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ صَالِحٌ أَوْ الخَضِرْ وَكَانَ شَيْطَاناً قَالَ وَمِنْهُم مَن يَظُنُّ أَنَّهُ مَلَكٌ والمَلَكُ يَتَمَيَّزُ عن الجِنِّي بِأُمُوْرٍ كَثِيْرَةٍ والجِنُ فِيْهِم الكُفَّارُ والفُسَّاقُ والجُهَالُ وفيهم المُؤْمِنُونَ المُتبِعُونَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فَكَثِيْراً مِمَّنْ لَم يَعْرِف أنَّ هَؤلآء جِنّ وَشَيَاطِيْنُ يَعْتَقِدُهُمُ مَلاَئِكَة وإِنَّمَا هُمْ مِن الْجِنِّ والشَّيَاطِين .

قَال والشَّيَاطِينُ يُوَالُونَ مَن يَفْعَلُ مَا يُحِبُوْنَهُ مِن الشِرْكِ والفُسُوقِ والعِصْيَانِ فَتَارَةً يُخْبِرُوْنَهُ بِبَعْضِ الأُمُورِ الغَائِبَةِ ، لِيُكَاشِفَ بِهَا ، وَتَارَةً يُؤْذُوْنَ مَنْ يُرِيْدُ أَذَاهُ ، بِقَتْلٍ ، وَتَمْرِيْضٍ ، وَنَحْوِ ذلك .

وَتَارَةً يَجْلِبُونَ لَهُ مَايُرِيْدُ ، مِنَ الانْسِ وَتَارَةً يَسْرِقُونَ لَهُ مَا يَسْرِقُونَهُ مِن أَمْوَالِ الناسِ مِن نَقْدٍ وَطَعَامٍ ، وَثِيَابٍ وَغيرِ ذَلِكَ ، فَيَعْتَقِدُ أنهُ مِن كَرَامَاتِ الأَوْلياءِ ، وإِنَّمَا يَكُونُ مَسْرُوْقاً .

وَتَارَةً يَحْمِلُونَهُ في الهَوَاءِ فَيَذْهَبُوْنَ بِهِ إلى مَكَانٍ بَعِيْدٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَذْهَبُونَ بِهِ إلى مَكةَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ ، وَيَعُودُوْنَ بِهِ فَيَعْتَقِدُ هَذَا كَرَامَةً، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَحُجَّ حَجَّ المُسْلِمِينَ لا أَحْرَمَ ولا لَبى وَلاَ طَافَ بِالبَيْتِ ولا بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَةِ وَمَع أَنَّ هَذَا مِن أَعْظَم الضَّلاَل انتهى باختصار .

وصلَّى اللَّهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

« مَوْعِظَةٌ فِي التَّحْذِيْر عَن الانْهِمَاكِ »
« فِي الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا »

عِبَادَ اللهِ إِن مَن نَظَر إِلى الدُنيَا بِعَيْنِ البَصِيْرةِ أَيْقَنَ أَنَّ نَعِيْمَهَا ابْتِلاءٌ ، وَحَيَاتَهَا عَنَاءٌ وَعَيْشَهَا نكدٌ ، وَصَفوهَا كدَرٌ وَأَهلَهَا مِنْهَا عَلَى وَجَلٍ إما بِنِعْمَةٍ زائِلَةٍ ، أَوْ بَلِيَّةٍ نَازِلَةٍ أَوْ مَنِيَّةٍ قَاضِيَةٍ .

مِسْكِيْنٌ مَن اطْمَأَنَّ وَرَضِيَ بِدَارٍ حَلاَلُهَا حِسابٌ ، وَحَرامُهَا عِقَابٌ ، إن أَخَذَهُ مِن حَلَالٍ حُوْسِبَ عَلَيْهِ ، وإِنْ أَخَذَهُ مِن حَرَامٍ عُذِّبَ بِهِ ، مَنْ اسْتَغْنَى في الدُّنيا فُتِنَ ، وَمَن افْتَقَرَ فِيها حَزِنَ ، مَن أَحَبهَا أَذَلَّتْهُ ، وَمَن التَفَتَ إِليها وَنَظَرَهَا أَعْمَتْهُ .

« لـوْ كُنْتَ رَائِـدَ قَـوْمٍ ظَـاعِـنِيْـنَ إِلى
دُنْـيَـاكَ هَـذِي لَمَـا أُلْـفِيْـتَ كَـذَّابَـا »
« لَقُـلْـتَ تِـلْكَ بَـلاَءٌ نَبْـتُـهَـا سَـقَـمٌ
ومَـاؤُهَـا الـعَـذْبُ سُمٌ لِـلْفَتـى ذَابَـا »

وَكَمْ كُشِفَ لِلسَّامِعِينَ عَن حَقِيْقَةِ الدُنْيَا وَبَيَنَ لَهُمْ قِصَرَ مُدَّتِهَـا وانْقِضَاءَ لَذَتِهَا بِمَا يُضْرَبُ مِن الأَمْثَالِ الحِسِّيَةِ قال اللهُ تَعالى ﴿ اعْلَمُوا أَنَّما الحياةُ الدنيا لعبٌ وَلَهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بَيْنَكُم وتكاثرٌ في الأَموالِ والأولادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَارَ نَبَاتُهُ ثم يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثم يَكُونُ حُطَاماً وفي الآخِرةِ عَذابٌ شَدِيْدٌ وَمَغفرةٌ مِن اللهِ وَرِضْوانٌ وما الحَيَاةُ الدنيا الا متاعُ الغُرُور ﴾ .

شَرَحَ لنا العَلِيمُ الحَكِيمُ في هذهِ الآيةِ حَالَ الدُنْيَا التي افْتَتَنَ الناسُ

بِها الذينَ قَصُرَ نَظَرُهم وَبَيَّنَ أَنَّهَا مِن مُحَقَّرَاتِ الأمُوْرِ التي لا يَرْكَنُ إِلَيْهَا العُقَلاء فَضْلاً عن الافْتِتَانِ بِهَا والانْهِمَاكِ في طَلَبِها وَقَتْلِ الوَقْتِ في تَحْصِيْلِهَا بأَنَّهَا لَعِبٌ لا ثَمَرَةَ فِيه سِوَى التَّعَبِ ، وَلَهْوٌ تَشْغَلُ صَاحِبَهَا وَتُلْهِيْهِ عَمَّا يَنْفَعُهُ في آخِرَتِهِ ، وَزِيْنَةٌ لا تُفِيْدُ المَفْتُونَ بِهَا شَرَفاً ذَاتِياً كَالمَلاَبِسِ الجَمِيْلَةِ والمَرَاكِبِ البَهِيَّةِ والمَنَازِلِ الرَّفِيعَةِ الواسِعَةِ ، وَتَفَاخُرٌ بالأَنْسَابِ والعِظَامِ البَالِيَةِ وَمُبَاهَاتٌ بِكَثْرَةِ الأَمْوَالِ والأَوْلاَدِ وعِظَمِ الجَاهِ .

ثم أَشَارَ جَلَّ شَأْنُهُ إلى أَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ سَرِيْعَةُ الزَّوَالِ ، قَرِيْبَةُ الاضْمِحْلالِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ رَاقَ الزُّرَّاعَ نَبَاتُهُ الناشِيءُ بِهِ ، ثم يَهِيْجُ وَيَتَحَرَكُ وَيَنْمُو إلى أَقْصَى ما قَدَّرَهُ اللهُ لَهُ فَسَرَعَانَ مَا تَرَاهُ مُصْفَرّاً مُتَغَيِّراً ذَابِلاً بَعدَمَا رَأَيْتَهُ أَخْضَرَ نَاضِراً ، ثم يَصِيْرُ مِن اليُبْسِ هَشِيْماً مُتَكَسِّراً ، فَفِيْهِ تَشْبِيْهُ جَمِيْعِ مَا في الدُّنْيَا مِن السِنِينِ الكَثِيْرَةِ بِمُدَّةِ نَبَاتِ غَيثٍ وَاحِدٍ يَفْنَى وَيَضْمَحِلُ وَيَتَلاَشَى في أَقَلَّ مِن سَنَةٍ .

إِشَارَةٍ إلى سُرْعَةِ زَوَالِهَا وَقُرْبِ فَنَائِهَاوبَعْدَ ، مَا بَيَّنَ جَلَّ وَعَلا حَقَارَةَ الدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهَا تَزْهِيْداً فِيْهَا ، وَتَنْفِيْراً وَتَحْذِيْراً مِن الانْهِمَاكِ في طَلَبِهَا أَشَارَ إلى فَخَامَةِ شَأنِ الآخِرَةِ وَفَظَاعَةَ مَا فِيْهَا مِن الآلام وَعِظَمِ مَا فِيْهَا مِن اللَّذَاتِ تَرْهِيْباً مِن عَذَابِهَا الأليم ، وَتَرْغيْباً في تَحْصِيْل النَّعِيْم المُقِيْم والعَيْشِ السَّلِيْمِ مِمَّا لاَ عَيْنَ رَأَتْ وَلاَ أُذنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ .

والناسُ فِيْهَا قِسْمَانِ فُطَنَاءُ قَدْ وَفَّقَهُم اللهُ فَعَلِمُوا أَنَّهَا ظِلٌّ زَائِلٌ وَنَعِيْمٌ حَائِلٌ وَأَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ ، بَلْ فَهِمُوا أَنَّها نِعَمَ في طَيِّهَا نِقَمُ ، وَعَرَفُوا أَنَّها حَيَاةٌ فَانِيَةٌ ، وَأَنَّهَا مَعْبَرٌ وَطَرِيْقٌ إلى الحَيَاةِ البَاقِيَةِ ، فَرَضُوا مِنهَا باليَسِيْرِ ،

وَقَنِعُوا مِنها بالقَلِيْلِ ، فاسْتَرَاحَتْ قُلُوبُهم مِن هَمِّهَا وَأَحْزَانِهَا واسْتَرَاحَتْ أَبْدَانُهُم مِن نَصَبِهَا ، وَعَنَائِهَا ، وَسَلِمَ لَهُم دِيْنُهُم ، وَكَانُوا عِندَ اللهِ هُم المَحْمُوْدِين ، فلم تَشْغَلْهُم دُنْيَاهُمْ عن طاعَةِ مَوْلاهُم .

جَعَلُوا النَّفسَ الأَخيْرَ وَمَا وَرَاءَهُ نَصْبَ أَعْيُنِهِم ، وَتَدَبَّرُوْا مَاذَا يَكُونُ مَصِيْرهُم ، وَفَكَّرُوا كَيْفَ يَخْرُجُونَ مِن الدُّنْيَا ، وإِيْمَانُهُم سَالِمٌ لَهُم وَما الذي يَبْقَى مَعَهُم مِنْهَا في قُبُورِهِم ، وَمَا الذي يَتْرُكُونَهُ لِأَعْدَائِهِم في الدنيا ، وَمَن لا يُغْنِيْهِم مِن اللهِ شَيْئاً ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ ﴾ ، ﴿ يومَ لا يُغْنِي مَوْلاً عَن مَوْلاً شَيْئاً ﴾ ، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِن أَخِيْهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيْهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيْه ﴾ وَيَبْقَى عليهم وبَالَ مَا جَمَعُوا وَمَا عَمَرُوا في غَيرِ طَاعةِ اللهِ .

أَدْرَكُوْا كُلَّ هَذَا فَتَأَهَّبُوا لِلسَّفَرِ الطَّوِيْلِ وَأَعَدُّوا الجَوَابَ لِلْحِسَابِ ، وَقَدَّمُوا الزَّادَ لِلْمَعَادِ وَخَيْرُ الزادِ التَّقْوَى ، فَطُوبَى لَهُم خَافُوا فَآمِنُوا وَأَحْسَنُوا فَفَازُوا وأَفْلَحُوا وقال بَعْضُ العُلما يَذُمُّ الدُنيَا ويُحَذِّرُ عَنْهَا .

شـعرا :

وَلَم يَطْلُبْ عُلُوَّ القَدْرِ فِيْهَا — وعِزَّ النَّفْسِ إلاَّ كُلُّ طَاغِ
وإِنْ نَالَ النُفُوسَ مِن المَعَالِي — فَلَيْسَ لِنَيْلِهَا طِيبُ المَسَاغِ
إذا بَلَغَ المُرَادَ عُلاً وعِزّاً — تَوَلَّى واضْمَحَلَّ مَعَ البَلاغِ
كَقَصْرٍ قَدْ تَهَدَّمَ حَافَتَاهُ — إذا صَارَ البِنَاءُ إِلَى الفَـرَاغِ
أَقُولُ وَقَدْ رأَيْتُ مُلُوكَ عَصْرِي — ألا لَا يَبْغِيَنَّ المُلْكَ بَاغِ

آخـــر :

إنَّ لله عِبَاداً فُطَنَــا طَلَّقُوا الدنْيا وخَافُوا الفِتَنَا
نَظَرُوْا فيها فَلمَّا عَلمُوا أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيّ سَــكَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً واتَّخذُوا صَالِحَ الأعْمَالِ فيها سُفُنَا

آخـــر :

دَعِ الحِـرْصَ على الدنيـا وفي العَيْشِ فلا تَطْـمَعْ
ولا تَجْمَــعْ مِــن المَـالِ فـلا تَدْرِي لِمَـنْ تَجْمَـعْ
فـإنَّ الــرزقَ مَقْسُــومٌ وسُــوءُ الظَّــنِ لا يَنْفَـعْ
فَقِـيْرٌ كُلُ ذِي حِرْصٍ غَنــيٌ كُـلُ مَـنْ يَقْنَـعْ

اللهمَ نَوّرْ قُلُوبَنَا بنُوْرِ الإيمانِ وَأَعِنَّا على أَنْفُسِنَا والشَّيْطَان وَأَيِّسْهُ مِنَّا كَمَا أَيَّسْتَهُ مِن رَحْمَتِكَ يا رَحْمَان وآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلَّى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

والقِسْمُ الثاني مِن الناسِ جُهَّالٌ عُمْيُ البَصَائِرِ لَمْ يَنْظُرُوْا في أَمْرِهَا وَلَمْ يَكْشِفُوا سُوءَ حَالِهَا وَمَآلِهَا ، بَرَزَتْ لَهُم بِزِيْنَتِهَا فَفَتَنَتْهُمْ ، فإِلَيهَـا أَخْلَدُوْا ، وَبِهَا رَضُوا ، وَلَهَا اطْمَأَنُوا ، حتى أَلْهَتْهُم عن اللهِ تعالى ، وَشَغَلَتْهُم عن ذِكْرِ اللهِ ، وَطَاعَتِهِ ، نَسُوا اللهَ فأَنْسَاهُم أَنْفسَهم أولَئِكَ هُمُ الفَاسِقون » .

قال تعالى ﴿ إِنَّ الذِيْنَ لا يَرْجُونَا لِقَاءَنَا وَرَضُوا بالحَيَاةِ واطمأنُوا بِهَا والذِيْنَ هُمْ عَن آيَاتِنَا غَافِلُون ، أولَئِكَ مَأوَاهُم النارُ بما كانوا يكْسِبُوْن﴾ .

نَعَمْ إِنَّهُمَ نَسُوا اللهَ وَأَهْمَلُوا حُقُوْقَهُ وَمَا قَدَرُوْهُ حَقَّ قَدْرِهِ ، ولم يُرَاعُوا لانْهِمَاكِهِم في الدُنْيَا وَتَهَالُكِهِم عَلَيْهَا مَوَاجِبَ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيْهِ حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فـأَنْسَاهُم أَنْفُسَهُم أَنْسَـاهُم مَصَالِحَهُمْ وَأَغْفَلَهُم عَن مَنَـافِعِهَا

وَفَوَائِدِهَا فَصَارَ أَمْرُهُمْ فُرُطًا فَرَجَعُوا بِخَسَارَةِ الدَّارَيْنِ ، وَغُبِنُوا غَبْناً لا يُمْكِنُ تَدَارُكُهُ ولا يُجْبَرُ كَسْرُهُ ، وَسَيَرَوْنَ يومَ القِيَامَةِ مِن الأَهْوَالِ ما يُنْسِيْهِم أَرْوَاحَهُمْ ، وَيَجْعَلُهُم حَيَارَى ذَاهِلِيْنَ يَوْمَ تَذْهَلُ كُلُ مُرْضِعَةٍ عن ما أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وتَرَى الناسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ولكن عَذَابَ اللهِ شَدِيْد .

وفي مِثْلِ هَذَا يَقُولُ أَحَدُ العُلَمَاءِ اجْتِهَادُكَ فِيْمَا ضُمِنَ لَكَ مَعَ تَقْصِيْرِكَ فِيمَا طُلِبَ مِنْكَ دَلِيْلُ انطِمَاسِ بَصِيْرَتِكَ ، أَقَامُوْا الدُنْيَا فَهَدَمَتْهُم ، واعْتَزُوْا بِهَا مِن دُوْنِ اللهِ فَأَذَلَّتْهُم ، أَكْثَرُوْا فِيها مِن الآمَالِ وَأَحَبُوْا طُوْلَ الآجَالِ وَنَسُوا الموتَ وَمَا بَعْدَهُ مِن الشَّدَائِدِ الدُنْيَا وَالآخِرَةَ قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ الخَاسِرِيْنَ الذين خَسِرُوا أَنْفُسَهُم وأهلِيْهِم يَومَ القِيَامَةِ أَلا ذلكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِين ﴾ .

وَرَوَى الترمِذِي مِن حَدِيْثِ أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « مَنْ كانتِ الآخرةُ هَمَّهُ جَعَل اللهُ غِنَاهُ في قَلْبِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَأَتتِ الدُنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ .

وَمَنْ كَانَتِ الدُنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ولم يَأْتِهِ مِن الدُنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ ، فلا يُمْسِي إلا فَقِيْراً ولا يُصْبِحُ إِلاَّ فَقِيْراً .

وما أَقْبَلَ عَبْدٌ على اللهِ بِقَلْبِهِ إلا جَعَلَ اللهُ قُلُوبَ المُؤْمِنِيْنَ تَنْقَادُ إِليهِ بالوِدِ والرَّحْمَةِ ، وكان اللهُ بِكُلِ خَيْرٍ إليه أَسْرَع أ هـ .

وقال في عِدَةِ الصَّابِرِيْن ، وقد أَخْبَرَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم أَنَّها لَو سَاوَتْ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنها شَرْبَةَ مَاءٍ ، وأَنَّهَا أَهْوَنُ على اللهِ مِن السَّخْلَةِ المَيتَةِ عَلَى أَهْلِهَا .

وَأَنَّ مَثَلَهَا في الآخِرَة كَمَثَلِ مَا يَعْلَقُ بِأَصْبُعِ مَن أَدْخَلَ أَصْبُعَهُ في البَحْرِ وَأَنَّها مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ ما فِيها إِلَّا ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَلَاهُ ، وعَالِمٌ وَمُتَعلِّمٌ وَأَنَّها سِجْنُ المؤمِنِ وَجَنَّةُ الكافرين .

وأَمَرَ العَبْدَ أَنْ يَكُونَ فِيها كَأَنَّه غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْل وَيَعُدُّ نَفْسَهُ مِن أَهْلِ القُبُورِ وإذا أَصْبَحَ فَلَا يَنْتَظِرِ المَسَاءَ وإذا أَمْسَى فلا يَنْتَظِر الصَّبَاحَ .

وَنَهَى عَن اتِّخَاذِ مَا يُرَغِبُ فِيْهَا ، وَلَعَنَ عَبْدَ الدِيْنَارِ وَعَبْدَ الدِرْهَمِ وَدَعَا عَلَيْهِ بالتَّعَس والانْتِكَاسِ وَعَدَمِ إِقَالَةِ العَثْرَةِ بالانتقاشِ

وَأَخْبَرَ أَنَّها خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ أي تَأْخُذُ العُيُونَ بِخُضْرَتِهَا والقُلُوبَ بِحَلَاوَتِهَا ، وأَمَرَ باتِّقَائِهَا والحَذَرِ مِنها كما يُتَّقَى النِسَاءُ وَيُحْذَرُ مِنْهُنَّ وأَخْبَرَ أَنَّ الحِرْصَ عَلَيْهَا ، وعلى الرِّيَاسَةِ والشَّرَفِ يُفْسِدُ الدِّيْنَ .

وَأَخْبَرَ أنّه في الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تحتَ شَجَرَةٍ في يوم صَائِفٍ ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا ، وَهَذَا في الحَقِيقَةِ حَالُ سُكانِ الدنيا كُلِّهِمْ ، وَلَكِنْ هُوَ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ شَهِدَ هَذِهِ الحَالَ ، وَعُمِيَ عنها بنو الدُّنيا .

وَمَرَّ بِهِمْ وَهُمْ يُعَالِجُونَ خُصَّالَهُمْ قَدْ وَهِيَ ، فقالَ ما أَرَى الأَمْرَ إلا أَعْجَلَ من ذَلِك ، وأمر بِسترٍ على بابِهِ فَنُزِعَ وقالَ إِنَّه يُذَكِّرني الدُّنيا ، وأَعْلَمَ النَّاسَ أَنَّهُ لَيْسَ لِأَحدٍ مِنْهم حقٌّ في سِوى بيتٍ يَسكنُه ، وَثَوْبٍ يُوارِي عَوْرَتَه وَقوتٍ يُقِيمُ صلبَهُ .

وَأَخْبَرَ أَنَّ الميتَ يتبعُهُ أهلُهُ ، ومالُهُ ، وعَمَلُهُ فيرجِعُ أَهْلُهُ ومالُهُ ويبقَى عَمَلُه ، وكانَ يقولُ : الزُّهْدُ في الدُّنْيَا يُرِيحُ القلبَ والبَدَنَ ، والرغبةُ في الدنيا تُطِيْلُ الهُمُومَ ، والحزَنَ، وكانَ يقولُ مَنْ جَعَلَ الهُمُومَ

كُلَّهَا هَمَّاً واحداً ، كفاهُ اللهُ سَائِرَ هُمومِهِ ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الهُمُومُ في أَحْوالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبالِ اللهُ في أَيِ أَودِيَتِها هَلَكَ .

وَأَخبَرَ أَنَّ بَذْلَ العَبدِ ما فَضَلَ عن حاجَتِهِ خيرٌ له ، وامسَاكُهُ شَرٌّ لهُ وأَنهُ لا يُلاَمُ على الكَفَافِ ، وأَخْبَرَ أَنَّ عِبَادَ اللهِ لَيْسُوا بالمتنَعِمِّيْنَ فِيْهَا فإِنَّ أَمَامَهُمْ دَارَ النعيم فهمْ لا يَرْضَونَ بِنَعِيْمِهم في الدّنَيا عِوَضاً مِنْ ذَلِكَ النَعِيم .

وفي حَدِيْثِ مناجاةِ مُوسَى : ولا تُعجِبَنَّكُمَا زَينته ولا مَا مُتّعَ به ولا تَمُدَّانِ إلى ذَلِكَ أَعْيُنَكُمَا ، فإِنَّهَا زهرةُ الدّنيا ، وزينةُ المترَفِيْنَ وإنّي لو شِئْتُ أَنْ أُزَيّنَكُمَا من الدّنيا بزينةٍ يَعْلَمُ فرعونُ حِيْنَ يَنظُر إليهَا أَنَّ مَقْدِرَتَهُ تَعْجَزُ عن مِثْلِ ما أوتِيْتُمَا فَعَلْتُ .

ولكنْ أَرْغَبُ بِكُمَا عن نَعِيْمِها ذَلِكَ ، وَأَزْوِيهِ عَنْكُمَا ، وَكَذَلِكَ أَفْعَل بِأَوْلِيَائِي ، وقديماً ما أَخَّرتُ لَهُم في ذَلِكَ فإِنِّي لأَذُودُهُمْ عَنْ نَعِيْمِهَا وَرَخَائِهَا كَمَا يَذُودُ الرّاعِي الشَّفِيْقُ غَنَمَهُ عن مَرَاعِي الهَلَكَةِ وإنّي لأُجَنّبُهُمْ سَلوَتَها ، وَعَيْشَها كما يَذُودُ الراعي الشفيق إبله عن مَبَارِكِ الغِرَّةِ .

وَمَا ذلِكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيَّ ، وَلَكِنْ لِيَسْتَكْمِلُوا نصيْبَهُمْ مِن كَرَامَتِي سَالماً مُوَفَّراً لم تَكلِمْهُ الدُّنيا وَلَمْ يُطْغِهِ الهَوَى .

واعْلَمْ أَنَّه لَمْ يَتَزَيَّنْ لِيَ العِبَادُ بِزِيْنَةٍ هِيَ أَبْلَغُ مِن الزُّهدِ في الدُّنْيَا فانَّهَا زِيْنَةُ المُتَّقينَ عَلَيْهِم مِنْهَا لِباسٌ يُعْرَفُونَ بِهِ مِن السَّكينةِ ، والخُشُوع سِيْمَاهم في وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السَّجودِ .

أُولَئِكَ أَوْلِيَائِي حَقاً فَإِذَا لَقِيْتُهمْ فاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ، وَذَلِّلْ لَهُم قَلبُكَ ، وَلِسَانَكَ ، وَقَالَ الحَوارِيُّونَ يا عِيْسَى مَنْ أَوْلِيَاءُ اللهِ الذينَ لا

خَوْفٌ عليْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنونَ ؟ .

قالَ الذينَ نَظَروا إلى بَاطِنِ الدُّنْيا ، حينَ نَظَرَ الناسُ إلى عَاجِلِهَا فَأَمَاتُوا مِنْهَا ما يَخْشَونَ أَنْ يُمِيْتَهُمْ ، وَتَرَكُوا ما عَلِمُوا أَنْ سَيَتْرُكَهُمْ ، فَصَارَ اسْتِكْثَارُهُمْ مِنْهَا استِقْلالاً ، وَذِكْرُهم إيّاهَا فَوَاتاً ، وَفَرَحُهُمْ بِمَا أَصَابُوا مِنْهَا حَزَناً ، فَمَا عَارَضَهُمْ مِن نائِلِها رَفَضُوهُ ، وما عَارَضَهم مِن رِفْعَتِها بغَيرِ الحقِ وَضَعُوْهُ .

خَلُقَتْ الدُّنْيَا عندَهُم فَلَيْسُوا يُجَدِّدُونَهَا ، وَخَرِبَتْ بَيْنَهُمْ فَلَيْسُوا يَعْمِرُونَهَا ، وماتَتْ في صُدُوْرِهم ، فَلَيْسُوا يُحْيُونَها ، يَهْدِمُونَها فَيَبْنُونَ بهَا آخِرَتَهُم ، وَيَبِيْعُونَها، فَيَشْتَرُونَ بِهَا ما يَبْقَى لَهُمْ .

رَفَضُوهَا فكانُوا بِهَا هُمْ الفَرِحِينَ ، وَنَظَرُوا إلى أَهْلِهَا صَرْعَى قَدْ حَلَّتْ بِهِمْ المَثُلاتُ، فَأَحْيَوا ذِكرَ الموتِ وأَمَاتُوْا ذِكْرَ الحياةِ .

يُحِبّونَ لله ، وَيُحِبّونَ ذِكْرَهُ ، وَيَسْتَضِيْئُونَ بِنُوْرِهِ ، وَيُضِيْئُونَ بَهِ لَهُمْ خَبَرٌ عَجِيْبٌ وَعِنْدَهُم الخَبَرُ العَجِيْبُ ، بِهِمْ قَامَ الكتابُ ، وَبِهِ قامُوا وَبِهِمْ نَطَقَ الكتابُ ، وَبِهِ نَطَقُوا ، وَبِهِمْ عُلِمَ الكتابُ ، وبِهِ عَمِلُوا لَيْسُوا يَرَونَ نائلاً مع ما نَالُوا ، ولا أَمَاناً دُونَ ما يَرْجُونَ ، ولا خَوْفاً دُونَ ما يَحْذَرُونَ .

وَقَالَ يَا بَني إِسْرَائِيلَ ، اجْعَلُوا بُيُوتَكُم كَمَنَازِلِ الأَضْيَافِ فَمَا لَكُمْ في العَالَمِ مِنْ مَنْزِلٍ إِنْ أَنْتُمْ إلا عَابِري سَبِيْلٍ .

وَقَالَ يَا مَعْشَر الحَوَارِيينَ أَيُّكُمْ يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَبْنِي فَوقَ مَوجِ البحر دَاراً ، قَالوا يَا رُوحَ اللهِ مَنْ يَـقدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، قَالَ إياكُمْ والدُّنْيَا فَلا تَتَّخِذوهَا قَرَاراً .

وَقَال حلاوةُ الدُّنْيَا مَرارةُ الآخِرَةِ ، وَمَرارةُ الدُّنْيَا ، حَلاوةُ الآخِرَةِ .

وَقَالَ يَا بَني اسْرَائِيلَ تَهَاوَنُوا بالدُّنْيَا ، تَهُنْ عَلَيْكُمْ ، وَأَهِيْنُوا الدُّنْيَا تَكْرُم عَلَيكُمْ الآخِرَة ، ولا تُكْرِمُوا الدُّنْيَا ، تَهُنْ عَلَيْكُمْ الآخِرَة ، فانَّ الدُّنيَا لَيْسَتْ بأهْلٍ لِلْكَرَامَةِ ، وَكُلُ يَوْمٍ تَدْعُوا إلى الفِتْنَةِ والخَسَارَةِ .

قَالُوا وَقَدْ تَوَاتَرَ عَنْ السَّلَفِ أَنَّ حُبَّ الدُّنْيَا رَأْسُ الخَطَايَا ، وَأَصْلُهَا وَقِيْلَ انَّ عِيْسَى بْنَ مَرْيَمَ عَليهِ السَّلامُ قَالَ رَأْسُ الخَطِيئةِ حُبُّ الدُّنْيَا ، والنِّسَاء حُبَالَةُ الشَّيْطَانِ ، والخَمْرُ جِمَاعُ كُلِ شَرٍّ .

شعراً : قال الإمام الشافعي رحمه الله :

خَبَتْ نَــارُ نَفْسِي بـاشْتِعَــالِ مَفَــارِقِي
وَأَظْـلَمَ لَـيْـلِي إِذْ أَضَــاءَ شِـهَــابُـهَــا
أَيَـا بُـوْمَـةً قَـدْ عَشَّشَتْ فَـوْقَ هَـامَتي
عَلَى الـرَّغْمِ مِنِّي حِيْنَ طَـارَ غُـرَابُهَـا
رَأَيْتِ خَــرَابَ العُمْــرِ مِنّي فَـزُرْتِنِـي
وَمَــأْوَاكِ مِنْ كـلِ الــدِّيَـارِ خَــرَابُهَــا
أَأَنْعَم عَيْشـاً بَعْـدَ مَـا حَـلَّ عَــارِضِيْ
طَــلاَئِعُ شَيْبٍ لَيْسَ يُغْنِي خِضَــابُهَــا
إِذَا اصْفَـرَ لَـوْنُ المَـرْءِ وابْيَضَّ شَعْـرُهُ
تَـنَـغَّصَ مِـنْ أَيَــامِــهِ مُـسْـتَـطَابُـهَــا
وَعِــزَّةُ عُمْــرِ المَــرْءِ قَـبْـلَ مَشِـيْبِـهِ
وَقَــدْ فَنِيَــتْ نَفسٌ تَـوَلّـى شَبَــابُـهَــا
فَـدَعْ عَنْـكَ سَـوْآتِ الأُمـورِ فَــإِنَّهَــا
حَــرَامٌ على نَفْسِ التَّقِي ارْتِكَــابُهَــا

وَأَدِّ زَكَـاةَ الـجَـاهِ واعْـلَمْ بِـأَنَّـهَـا
كَمِثْـلِ زَكَـاةِ المَـالِ تَمَّ نِصَـابُهَـا
وَأَحْسِنْ إلى الأَحْـرارِ تَمْلِكْ رِقَـابَهُمْ
فَخَيْـرُ تِجَـارَاتِ الـرِّجَـالِ اكْتِسَـابُها
وَلاَ تَمْشِيَن في مَنْكِبِ الأَرْضِ فَـاخِراً
فَعَمَّـا قَـليـلٍ يَحْتَـوِيْـكَ تُـرَابُهَـا
وَمَنْ يَـذُقِ الـدُّنْيَـا فـاني طَعِمتُهَـا
وَسِيْقَ إِلَيْنَـا عَـذْبُهَـا وَعَـذَابُـهَـا
فَـلم أَرَهَـا إِلَّا غُـرُوراً وَبَـاطِـلاً
كَمَـا لاَحَ في ظَهْـرِ الفَـلاةِ سَـرَابُهَـا
ومَـا هِـيَ إِلَّا جِيْـفَـةٌ مُـسْـتَـحِـيْـلَةٌ
عَـلَيْهَـا كِـلاَبٌ هَـمُّهُـنَّ اجْتِـذَابُـهَـا
فَـإِنْ تَجْتَنِبْهَـا كُنْتَ سِلْمـاً لأَهْـلِهَـا
وإِنْ تَجْتَـذِبْهَـا نَـازَعَتْـكَ كِـلاَبُهَـا
إذا انْسَـدَ بابٌ عَنْـكَ مِنْ دُونِ حَاجَـةٍ
فَـدَعْهَـا لأُخْـرَى يَنْفَتِـحْ لَـكَ بَـابُهَـا
فَـإِنَّ قُـرَابَ البَـطْنِ يَكْفِيْـكَ مِـلؤُهُ
وَيَكْفِيـكَ سَـوآتِ الأُمُـورِ اجْتِنَـابُهـا
فَـطُوبى لِنَفسٍ أَوْطَنَتْ قَعْـرَ بَيْتِـهـا
مُغلَقَـةَ الأَبـوابِ مُـرْخَىً حِجَـابُهَـا
فَيَـارَبِّ هَبْ لِي تَـوْبَـةً قَبْـلَ مَهْلَكٍ
أُبَـادِرُهَـا مِنْ قَبْـلِ إِغْـلاقِ بَـابِهَـا

فَمَا تَخْـرَبُ الـدُّنْيَـا بِمَـوتِ شِـرَارِهَـا
وَلَكِنْ بِـمَـوْتِ الأكْـرَمِيْـنَ خَـرَابُهَـا

اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلَى قَوْلِكَ الثَّابِتِ في الحياةِ الدُنيا وَفي الآخِرَةِ اللهم وَأَيِّدْنَا بِنَصْرِكَ وَأَرْزِقْنَا مِن فَضلِكَ وَنَجِّنَا مِنْ عَذَابِكَ يومَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الراحِمينَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وسَلَّمَ .

(فَصْــلٌ)

وَعَنْ سُفْيانَ قَالَ كَانَ عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ يقولُ حُبُّ الدُّنْيَا أَصْلُ كُلِّ خَطيئةٍ والمالُ فيهِ داءٌ كثيرٌ ، قَالُوا وَمَا دَاؤُهُ قَالَ لا يَسْلَمُ مِن الفَخْرِ والخُيَلاءِ ، قالوا فَإِنْ سَلِمَ ، قالَ يَشْغَلُه إصْلاحُهُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

قَالُوا وَذَلِكَ مَعْلُومٌ بالتَّجْرِبَةِ والمُشَاهَدَةِ ، فانَّ حُبَّهَا يَدْعُوا إلى خَطِيئَةٍ ظَاهِرةٍ وبَاطِنَةٍ ،ولا سِيَّمَا خَطيئةٌ يَتوقَّفُ تَحْصِيْلُهَا عَلَيْها،فَيُسْكِرُ عَاشِقَهَا حُبُّهَا عَن عِلْمِهِ بِتِلْكَ الخَطِيئةِ ، وَقُبْحِهَا وعن كَرَاهَتِهَا واجْتِنَابِها .

وَحُبُّهَـا يُوْقِـعُ في الشُّبُهَـاتِ ، ثُمَّ في المَكْـرُوهَـاتِ ، ثمَّ في المُحَرَّمَاتِ ، وَطَالَمَا أَوْقَعَ في الكُفْرِ ، بَلْ جَمِيْعُ الأمَمِ المُكَذِّبَةِ لأنْبيائِهِمْ إنما حَمَلَهُمْ على كُفْرِهِمْ وَهَلاكِهِمْ حُبُ الدُّنيا ، فإِنَّ الرسل لما نَهَوْهُمْ عَنْ الشِّرْكِ والمَعَاصِي التي كَانُوا يَكْتَسِبُونَ بِهَا الدُّنيا ، حَمَلَهُمْ حُبُّهَا عَلَى مُخَالَفَتِهِم وَتَكْذِيبِهِمْ .

فكلُّ خَطِيئَةٍ في العَالَمِ أَصْلُها حُبُّ الدُّنْيَا ، ولا تَنْسَ خَطِيْئَةَ الأَبَوَيْنِ قَدِيْماً ، فانَّمَا كَانَ سَبَبُهَا حُبُّ الخُلُودِ في الدُّنْيَا ، وَلَا تَنْسَ ذَنْبَ ابْلِيْسَ

وَسَبَبُهُ حُبُّ الرِّيَاسَةِ ، التي مَحَبَّتُهَا شَرٌّ مِنْ مَحَبَّةِ الدُّنيَا .

وَبِسَببهَا كَفَرَ فِرْعَونُ وَهَامانُ وَجنودُهُمَا ، وَأَبو جَهْلٍ وَقَومُهُ ، واليَهُودُ ، فَحُبُّ الدُّنْيَا والرِّيَاسَةُ هو الذي عَمَرَ النَّارَ بِأَهْلِهَا .

والزُّهْدُ في الدُّنْيَا والزُّهْدُ في الرِّيَاسَةِ هُوَ الَّذِي عَمر الجَنَّةَ بِأَهْلِهَا .

والسُّكُرُ بِحُبِّ الدُّنْيَا أَعْظَمُ مِن السُّكْرِ بِشُرْبِ الخَمْرِ بِكَثِيرٍ ، وَصَاحِبُ هَذَا السُّكْرِ لاَ يُفيقُ مِنْهُ ، إلا في ظُلْمَةِ اللَّحْدِ ، وَلَوْ انكشَفَ عَنْهُ غِطاؤُهُ في الدُّنْيَا لَعَلِمَ مَا كَانَ فيهِ مِنَ السُّكْرِ ، وأَنَّهُ أَشَدُّ مِن سُكْرِ الخَمْرِ والدُّنْيَا تَسْحَرُ العُقُولَ أَعْظَم سِحْرٍ .

قَالَ الامامُ أَحْمَدُ حدثنا سَيَّارُ حَدثَنَا جَعْفَرٌ قالَ سَمِعْتُ مالَك ابنَ دِينارٍ يقولُ اتقُوا السَّحَارَةَ ، اتَّقُوا السَّحَارَةَ ، فإنَّهَا تَسْحَرُ قلوبَ العُلَمَاءِ . والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فَصْـــلٌ)

وَأَقَـلُّ مَا فِي حُبِّهَـا أَنَّـهُ يُلْهِى عن حُبِّ الله ، وَذكره ، وَمَنْ أَلْهَاهُ مَالُهُ عَنْ ذكر الله فَهُوَ من الخَاسِرِيْنَ ، قَالوا وإنَّما كَانَ حُبُّ الدُّنْيَا رأْسُ الخَطَايَا وَمُفسِداً لِلدِّين مِن وُجوهٍ ، أَحَدُهَا أَنَّه يَقْتَضِي تَعظِيْمَهَا وهِيَ حَقِيرةٌ عندَ الله .

ومِن أَكْبَرِ الذُّنُوبِ تَعْظِيمُ ما حَقَّرُهُ اللهُ ، وَثَانِيْهَا أَنَّ اللهَ لَعَنَهَا ، وَمَقَتَهَا ، وأَبْغَضَهَا إلا مَا كَانَ لَهُ فِيْهَا ، وَمَنْ أَحَبَّ ما لَعَنَهُ اللهُ ، وَمَقَتَهُ وَأَبْغَضَهُ ، فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْفِتْنَةِ ، وَمَقْتِه وَغضَبِهِ .

وثالِثُهَا أَنَّهُ إذا أَحَبَّهَا صَيَّرهَا غَايَتَهُ ، وَتَوَسَّلَ إليهَا بالأَعْمَالِ التي

جَعلَهَا اللهُ وَسَائِلَ إِلَيْهِ ، وإلى الدَّارِ الآخِرَةِ ، فَعَكَس الأَمْرَ وَقَلَبَ الحِكْمَةَ فانتَكَسَ قَلْبُهُ ، وانْعَكَسَ سَيْرُهُ إلى وَرَاءَ .

فَهَاهُنا أَمْرانِ : أَحَدُهُمَا جَعْلُ الوَسِيلةِ غَايَةً ، والثَّانِي التَّـوَسُّل بأعْمَالِ الآخرةِ إلى الدُّنْيَا ، وهذا شرٌّ مَعْكوسٌ مِن كلِّ وجهٍ ، وقلبٌ منكوسٌ غاية الانتِكاسِ .

وَهَذَا هُوَ الذِي يَنْطَبِقُ عليه حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ قولُهُ تَعَالَى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيْدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِيْنَتِهَا نُوَفِّ إِلَيْهِم أَعْمَالَهُمْ فِيْهَا وَهُمْ فِيْهَا لاَ يُبْخَسُونَ أوْلَئِكَ الذِيْنَ لَيْسَ لَهُمْ في الآخِرَةِ إِلاَّ النارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فيْهَا وَبَاطِلٌ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وَقولُه ﴿ مَنْ كانَ يُرِيْدُ العَاجِلةَ عَجَّلْنَا لهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُريدُ ثُمَّ جَعَلْنَا له جهَنَّمَ يَصْلاَها مَذْمُوْماً مَدْحوراً ﴾ وقوله ﴿ مَنْ كانَ يُرِيْدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيْدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ نَصِيْبٍ ﴾ .

فهذه ثلاثُ آياتٍ يُشبِهُ بعضُها بَعْضاً ، وَتَدُلُّ عَلَى معنىً واحِدٍ ، وَهُوَ أَنَّ مَن أَرَادَ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا وَزِيْنَتَهَا دُونَ اللهِ والدّارِ الآخرةِ ، فَحظُّهُ مَا أَرَادَ ، وَهُوَ نَصِيْبُهُ ، لَيسَ لَهُ نَصِيْبٌ غَيْرُهُ .

وَالأَحَادِيْثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسلَّمَ مُطابِقَةٌ لِذَلِكَ مُفَسِّرَةٌ لَهُ ، كَحَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الثَّلاَثَةِ الذينَ هُمْ أَوَّلُ مَن تُسَعرُ بِهِمْ النارُ ، الغازِي والمتصَدِّقُ ، والقارِىءُ الذينَ أَرَادُوا بِذَلِكَ الدُّنْيَا والنَّصِيْبَ وَهُوَ في صَحِيْحِ مُسْلِمٍ .

وَمَا تَحْسُنُ الدُنْيا إذَا هِيَ لَمْ تُعِنْ   بآخِرَةٍ حَسْنَاءَ يَبْقَى نَعِيْمُهَا

وفي سُنَنِ النَّسَائِي عن أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إلى النّبِي صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،فَقَالَ يَا رَسُوْلَ اللهِ: رجلٌ غزا يلتمس الأجر والذكر ، ماله فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاَ شَيْءَ لَهُ ، فَأَعَادَهَا ثَلاَثَ مَراتٍ يَقُوْلُ لَهُ رَسُوْلُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لاَ شَيْءَ لَهُ ثُمَّ قَالَ إنَّ الله تَعَالَىٰ لاَ يَقْبَلُ إلاَّ مَا كَانَ خَالِصَاً وابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ .

فَهَذَا قَدْ بَطَلَ أَجْرُه وَحَبِطَ عَمَلُه مَعَ أَنَّه قَصَدَ حُصُولَ الأَجْرِ لَمَّا ضَمَّ الَيْهِ قَصْدَ الذِكرِ بَيْنَ الناسِ فَلَمْ يُخْلِصَ عَمَلَهُ للهِ فَبَطَلَ كُلُّهُ ، قَالَ وَرَابِعُهَا أَنَّ مَحَبَّتَهَا تَعْتَرِضُ بَيْنَ العَبْدِ ، وَبَيْنَ فِعْلِ مَا يَعُودُ عَلَيْهِ نَفْعُهُ في الآخِرَةِ ، لاشْتِغَالِهِ عَنْهُ بِمَحْبُوبِهِ والنَّاسُ هَاهُنَا مَرَاتِبُ .

فمنهُمْ مَنْ يَشْغَلُهُ مَحْبُوبُه عن الإيمانِ ، وَشَرَائِعِهِ .

ومِنْهُمْ مَن يَشغَلُه عن الوَاجِبَاتِ التي تَجِبُ عَلَيهِ لِلهِ وَلِخَلْقِهِ فلا يَقُومُ بِهَا ظاهِراً ولا بَاطِناً .

ومِنْهُمْ مَن يَشْغَلُهُ حُبُهَا عَنْ كَثيرٍ مِن الوَاجِبَاتِ .

وَمِنْهُمْ مَن يَشْغَلُه عن وَاجِبٍ يُعَارِضُ تَحْصِيلَهَا وإِن قَامَ بِغَيْرِهِ .

وَمِنْهُمْ مَن يَشْغَلُهُ عن القيامِ بالواجِبِ في الوَقْتِ الذي يَنْبَغِي عَلَى الوَجْهِ الذي يَنْبَغي فَيُفَرِّطُ في وَقْتِهِ ، وفي حُقُوقِهِ .

وَمِنْهُمْ مَن يَشْغَلُهُ عن عُبُودِيَّةِ قَلْبِهِ في الوَاجب ، وَتَفْرِيْغِهِ لِلَّهِ عِنْدَ أَدَائِهِ ، فَيُؤَدِّيْهِ ظَاهِراً لاَ بَاطِناً ، وَأَيْنَ هَذَا مِن عُشَّاقِ الدُّنْيَا وَمُحِبِّيْهَا هَذَا مِنْ أَنْدَرِهِمْ ، وَأَقَلُّ دَرَجاتِ حُبِّهَا أَنْ يُشْغِلَ عن سَعَادَةِ العبْدِ وَهُوَ تفريغُ

خُلُودٍ دائِمٍ ثم بَيْنَ هَاتَيْنِ الحَالَتَيْنِ وَهِيَ مَا بَعْدَ وجُودِهِ وَمَا قَبْلَ مَوْتِهِ حَالَةٌ مُتَوسِّطَةٌ ، وَهِيَ أَيَّامُ حَيَاتِـهِ فَلْيَنْظُرْ إلى مِقْـدَارِ زَمَانِهَـا ، وَيَنْسِبه إلى الحَالَتَين ، يَعْلَمُ أنه أقَلُّ مِن طَرْفَةِ عَيْنٍ في مِقْدَارِ عُمُرِ الدُّنْيَا .

وَمَنْ رَأى الدُّنْيَا بِهَذِهِ العَيْنِ لم يَرْكَنْ إِلَيْهَا ، وَلَمْ يُبَالِ كَيْفَ تَقَضَّتْ أَيَّامُهُ فِيْهَا في ضُرٍّ وَضِيْق أَوْ فِي سَعَةٍ وَرَفَاهِيَّةٍ وَلَهَذَا لَمْ يَضَعْ النبيُ صَلَّى الله عليهِ وسلم لَبنَةً على لَبِنَةٍ ولا قَصَبَةً على قَصَبَةٍ ، وقال مَالِي وَلِلْدُّنْيَا ، إِنَمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ قَالَ في ظِلِّ شَجَرَةٍ ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا .

وإلى هَذَا أَشَارَ المسيحُ بِقَوْلِهِ عليهِ السلامُ « الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ فاعْبُرُوهَا ولا تَعْمِرُوهَا » ، وَهَذَا مَثَلٌ صَحِيْحٌ فإنَّ الحَيَاة مَعْبَرٌ إلى الآخِرَةِ ، والمَهْدُ هُوَ الرُّكْنُ الأَوَّلُ ، عَلَى أَوَّلِ القَنْطَرةِ ، واللَّحْدُ هو الرُّكْنُ الثاني عَلَى آخِرِهَا .

وَمِنَ الناسِ من قَطَعَ نِصفَ القَنْطَرَةِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَطعَ ثُلُثَيها ،وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَبْقَ لَهُ إلَّا خُطْوَةٌ واحدة،وهو غافلٌ عنهَا وكيْفَمَا كانَ فلا بُدَّ مِن العُبُورِ ، فَمَنْ وَقَفَ يَبْنِي على القَنْطَرةِ ، وَيُزَيِّنُهَا بأَصْنافِ الزِيْنَةِ ، وَهُوَ يُسْتَحَثُّ على العُبُورِ فَهُوَ في غَايَةِ الجَهْلِ والحُمْقِ . المِثَالُ الثاني شَهَوَاتُ الدُّنْيَا في القَلْبِ كَشَهَوَاتِ الأَطْعِمَةِ في المَعِدَةِ ، وسوفَ يَجِدُ العبدُ عندَ الموتِ لِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا في قَلْبِهِ مِن الكَرَاهَةِ والنَّتنِ والقُبحِ ما يَجِدُه لِلأَطْعِمَةِ اللَّذِيْذَةِ إذا انْتَهَتْ في المَعِدَةِ ، غَايَتُها،وكمَا أَنَّ الأَطْعِمَةِ كُلَّمَا كانَتْ أَلَذَّ طَعْمَاً وأَكْثَرَ دَسَماً وأَكْثَر حلاوةً كانَ رجيْعُهَا أَقْذَرُ ، فكذلِكَ كُلُّ شهوةٍ كانَتْ في النَّفْسِ أَلَذُّ وَأَقْوَى فالتَّأذِي بِهَا عندَ المَوْتِ أَشَدُّ ، كَمَا أَنَّ تَفَجُّعَ الانسانِ بِمَحْبُوبِهِ إذَا فَقَدَهُ يَقْوَى بِقَدْرِ مَحَبَّةِ المَحْبُوبِ .

القَلْبِ لِحُبِّ اللهِ ، وَلِسَانِهِ لِذِكْرِهِ وَجَمْعِ قَلْبِهِ على لِسَانِهِ وَجَمْعِ لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ عَلى رَبِّهِ ، فَعِشْقُهَا وَمَحَبَّتُهَا تُضِرُّ بِالآخِرَةِ ، وَلاَ بُدَّ ، كَمَا أَنَ مَحَبَّةَ الآخِرَةِ تُضِرُّ بالدُّنْيَا .

وَخَامِسُهَا أَنَّ مَحَبَّتَهَا تَجْعَلُهَا أَكْثَرَ هَمِّ العَبْدِ .

وَسَادِسُهَا أَنَّ مُحِبَّها أَشَدُّ الناسِ عذاباً بِهَا ، وَهُوَ مُعَذَّبٌ في دُوْرِهِ الثلاثِ ، يُعَذَّبُ في الدُّنيا بِتَحْصِيْلِهَا ، وفي السَّعِيْ فِيْهَا وَمُنَازَعَةِ أَهْلِهَا وفي دَارِ البَرْزَخِ أي في القَبْرِ بِفَوَاتِهَا ، والحَسْرَةِ عَلَيْهَا ، وَكَوْنِهِ قَدْ حِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَحْبُوْبِهِ على وَجْهٍ لاَ يَرْجُو اجتماعَهُ بِهِ أَبداً وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ هُنَاكَ محبوبٌ يُعَوِّضُهُ عَنْهُ .

فَهَذَا أَشَدُّ الناسِ عَذَاباً في قَبْرِهِ ، يَعْمَلُ الهمُّ ، والغَمُّ ، والحَزَنُ والحَسْرَةُ ، في رُوْحِهِ ما تَعْمَلُ الدِيْدَانُ وَهَوَامُّ الأَرضِ في جِسْمِهِ .

وَسَابِعُهَا أَنَّ عَاشِقَهَا وَمُحِبَّهَا الَّذِي يُؤْثِرُهَا عَلى الآخِرَةِ مِن أَسْفَهِ الخلقِ وَأَقَلِّهِمْ عَقْلاً ، إِذْ آثَرَ الخَيَالَ عَلَى الحَقِيْقَةِ ، والمَنَامَ على اليَقَظَةِ والظِلَّ الزائِلَ على النَّعِيْمِ الدَّائِمِ والدَّارَ الفانِيَة على الدارِ الباقِيَةِ إِنَّ اللَّبِيْبَ بِمِثْلِهَا لاَ يُخْدَعُ .

ثم عقَدَ فَصْلاً وَذَكَرَ فِيْهِ أَمْثِلَةً تُبَيِّنُ حقيقةَ الدُّنْيَا : المثالُ الأَولُ : للعبدِ ثَلاَثَةُ أَحْوالٍ ، حَالَةٌ لَمْ يَكُنْ فِيْهَا شَيئاً ، وَهِيَ مَا قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ ، وحالةٌ أُخْرَى وهِيَ مِن سَاعة موتِهِ ، إِلى مَالاَ نِهَايَة له في البَقَاءِ السَّرْمَدِي فَلِنَفْسِهِ وجودٌ بَعدَ خُرُوجِهَا مِنَ البَدَنِ ، إِمَّا في الجَنَّةِ وإِمَّا في النَّارِ .

ثُمَّ تُعَاد الى بَدَنِهِ ، فَيُجَازَى بِعَمَلِهِ ، وَيَسْكُنُ إِحْدَى الدَّارَيْن في

شعراً قال بعضُهُمْ يُخَاطِبُ نَفْسَهُ :

إلى مَ أرَى يا قَلْبُ مِنْكَ التَّراخِيَا
وَقَدْ حَلَّ وَخْطُ الشَّيْبِ بالرَّأسِ ثَاوِيَا

وأخْبَرَ عن قُرْبِ الرَّحِيلِ نَصِيْحَةً
فَدونَكَ طَاعَاتٍ وَخَلِّ المَسَاوِيَا

وَعُضَّ عَلَى مَا فَاتَ مِنْكَ أنَامِلاً
وَفَجِّرْ مِنَ العَيْنِ الدّمُوعَ الهَوَامِيَا

فَكَمْ مَرَّةٍ وَافَقْتَ نَفساً مَرِيْدَةً
فَقَدْ حَمَّلَتْ شراً عليكَ الرَّوَاسِيَا

وَكَمْ مَرةٍ أحْدَثتَ بِدْعاً لِشَهْوَةٍ
وَغَادَرْتَ هَدْياً مُسْتَقِيْماً تَوَانِيَا

وَكَمْ مَرَّةٍ أمْرَ الإلَه نَبَذْتَهُ
وَطَاوَعْتَ شَيْطَاناً عَدُوّاً مُدَاجِيَا

وَكَمْ مَرَّةٍ قد خُضْتَ بَحْرَ غِوَايَةٍ
وَأسْخَطْتَ رَباً باكْتِسَابِ المَعَاصِيَا

وكَمْ مَرَّةً بِرَّ الإلهِ غَمَصْتَهُ
وقد صِرْتَ في كُفْرانِهِ مُتمَادِيَا

وَلاَ زِلْتَ بالدُّنْيا حَرِيْصَاً وَمُوْلَعاً
وَقَدْ كُنْتَ عن يوم القِيَامَةِ سَاهِيا

فَمَا لَكَ في بَيْتِ البلا إذْ نَزَلْتَهُ
عَنِ الأَهْلِ والأحْبَابِ والمَالِ نَائِيَا

فَتُسْأَلَ عن رَبِّ وَدِيْن مُحَمَّدٍ
فإن قُلْتَ هَاءٍ فادْرِ أَنْ كُنْتَ هَاوِيَا
وَيَأْتِيْكَ مِن نارٍ سَمُومٌ أَلِيْمَةٌ
وَتُبْصِرُ فِيْهَا عَقْرباً وَأَفَاعِيَا
ويالَيْتَ شِعْرِيْ كَيْفَ حَالُكَ إِذْ نُصِبْ
صِرَاطٌ ومِيْزَانٌ يُبِينُ الْمَطَاوِيَا
فَمَنْ نَاقَشَ الرَّحْمَنُ نُوْقِشَ بَتَّةً
وَأُلْقِيَ فِي نَارٍ وإنْ كَانَ وَالِيَا
هُنَالِكَ لا تَجْزِيْهِ نَفْسٌ عنِ الرَّدَى
فَكُلُّ امْرِئٍ في غَمِّهِ كَانَ جَاثِيَا

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ قلوبَنَا على دِيْنِكَ وألهِمْنَا ذكرَكَ وشُكرَكَ واخْتِمْ لَنَا بِخَاتِمَةِ السَّعَادَةِ واغفِرْ لَنَا ولوالِدَيْنَا وَجَمِيعِ المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلَّى اللهُ على محمدٍ وَعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

المثالُ الثَّالثُ لَهَا ولأَهْلِهَا في اشْتِغَالِهِمْ بِنَعِيْمِهَا عَن الآخِرَةِ وما يُعْقِبُهُمْ مِن الحَسَراتِ مَثَلُ أَهْلِ الدُّنْيَا في غَفْلَتِهِمْ مَثَلُ قَوْمٍ رَكِبُوا سَفِيْنَةً فَانْتَهَتْ بِهِمْ إلى جَزِيْرَةٍ فَأَمَرَهُمْ الملاحُ بالخُروجِ لِقَضَاءِ الحَاجَةِ وَحَذَّرَهُمْ الابْطَاءَ ، وَخَوَّفَهمْ مُرُوْرَ السَّفِيْنَةِ .

فَتفرقُوا في نَواحِي الجَزيرةِ ، فَقَضَى بعْضُهم حاجَتَه وَبَادَرَ إلى السفينةِ فَصَادَفَ المكانَ خَالِياً ، فَأَخَذَ أَوْسَعَ الأَمَاكِنِ وأَلْيَنَهَا .

ووقَفَ بَعضُهم في الجَزيرةِ ، يَنْظُرُ إلى أزْهَارِهَا وَأَنْوَارِهَا العَجِيْبَةِ وَيَسْمَعُ نَغَمَاتِ طُيورِهَا ، وَيُعْجِبُهُ حُسْنُ أَحْجَارِهَا ، ثم حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِفواتِ السَّفِيْنَةِ ، وَسُرْعَةِ مُرورِهَا ، وَخَطَرِ ذَهَابِهَا فَلَمْ يُصَادِف إلا مَكاناً ضَيِّقاً فَجَلَسَ فِيْهِ .

وأكبَّ بَعْضُهم على تِلْكَ الحِجَارَةِ المُسْتَحْسَنَةِ ، والأَزْهَارِ الفائِقَةِ فَحَمَلَ مِنْهَا حِمْلَهُ فَلَمَّا جَاءَ لم يَجِدْ في السَّفِيْنَةِ إلا مكاناً ضيقاً ، وزَادَهُ حِمْلُه ضِيْقاً ، فصارَ مَحْمُوْلُه ثِقْلاً عَلَيْهِ ، وَوَبَالاً وَلَمْ يَقْدِر على نَبْذِه بَلْ لم يَجِدْ مِن حَمْلِهِ بُدّاً وَلَمْ يَجِدْ لَهُ في السفينةِ مَوْضِعاً ، فَحَمَلُه على عُنُقِهِ وَنَدِمَ على أَخْذِهِ ، فَلم تَنْفَعْهُ النَّدَامةُ ، ثم ذَبَلَتْ الأَزْهَارُ ، وَتَغَيَّرَتْ أَرَايِيْحِهَا وَآذَاهُ نَتْنُهَا .

وتولَّجَ بَعْضُهم في تِلكَ الغِيَاضِ ، وَنَسِيَ السَّفِينةَ ، وَأَبْعدَ في نُزْهَتِهِ ، حَتَّى إن المَلَّاحَ نادَى بالنَّاسِ ، عِندَ دَفْعِ السَّفِيْنَةِ ، فلم يَبْلُغْهُ صَوْتُه ، لاشْتِغَالِهِ بِمَلاهِيْه ، فَهُوَ تارةً يَتَنَاوَلُ مِنَ الثَّمرِ وتارةً يشُمُّ تِلْكَ الأزهارِ وتارَةً يُعْجَبُ مِن حُسْنِ الأَشْجَارِ .

وَهُوَ على ذَلِكَ خائفُ مِن سَبُعٍ يَخْرُجُ عليهِ ، غيرَ مُنْفَكٍّ مِن شَوْكٍ يَتَشَبَّثُ في ثِيَابِهِ ، وَيَدْخُلُ في قَدَمَيهِ أَوْ غُصْنٍ يَجْرَحُ بَدَنَهُ أَوْ عَوْسَجٍ يُخَرِّقُ ثِيابَهُ ، وَيَهْتِكُ عَوْرَتَهُ ، أَوْ صَوتٍ هائلٍ يُفزِعُهُ .

ثم مَن هؤلاءِ مَن لَحِقَ بالسَّفِيْنَةِ ، ولَمْ يَبْقَ فِيْهَا مَوْضِعٌ ، فَمَاتَ على السَّاحِلِ ، ومِنْهُم مَن شَغَلَهُ لَهْوُهُ ، فافْتَرَسَتْهُ السِبَّاعُ وَنَهَشَتْهُ الحَيَّاتُ ومِنْهُم مَن تَاهَ فَهَامَ على وَجْهِهِ حَتَّى هَلَكَ ، فَهَذا مِثَالُ أَهْلِ الدُّنْيا في

اشْتِغَالِهِمْ بِحُظُوظِهِم العَاجِلَةِ ، وَنِسْيَانِهِمْ مَورِدَهُم وعاقِبَةَ أَمْرِهِمْ ، وما أَقبَحَ بالعاقِلِ أَنْ تَغُرَّهُ أَحْجَارٌ ، وَنَباتٌ يَصِيرُ هَشِيماً .

المثالُ الرابعُ لاغتِرَارِ الناسِ بالدُّنْيَا ، وضَعْف إِيْمَانِهِمْ بالآخِرَةِ أَنَّ رسولَ الله صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ لأصْحابِهِ ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قومٍ سَلَكُوا مَفَازَةً غَبْرَاءَ ، حَتَّى إذا لَمْ يَدْرُوا ما سَلَكُوا مِنْها أَكْثَرَ أَمْ ما بَقِيَ ، أَنْفَدُوا الزَّادَ ، وَحَسَرُوا الظَّهْرَ ، وَبَقُوا بَيْنَ ظَهْرَانَيْ المَفَازَةِ ، لا زَادَ ولا حَمُولَةَ ، فَأَيْقَنُوا بالهَلَكَةِ .

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ ، إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ في حُلَّةٍ يقْطر رأسُهُ ، فَقَالُوا إِنَّ هَذَا قَرِيبُ عَهْدٍ بريْفٍ ، وما جَاءَكُمْ هَذَا إلا مِنْ قَرِيْبٍ ، فلمَّا انتهَى اليهِمْ ، قالَ يا هَؤُلاءِ علامَ أَنْتُمْ ، قالُوا على مَا تَرَى ، قال أَرأَيْتُم إِنْ هَدَيْتُكم على ماءٍ رُوَاءٍ ورِيَاضٍ خُضْرٍ ما تَجْعَلُونَ لِي ؟ .

قَالوا لا نَعْصِيْكَ شَيْئاً ، قالَ عُهُودَكُمْ ، وَمَواثِيْقَكُمْ باللهِ ، قالَ فَأَعْطَوهُ عُهُودَهُمْ ، ومواثِيْقَهُمْ باللهِ لا يعْصُونَهُ شيئاً قَالَ فَأَوْرَدَهُم مَاءً وَرِيَاضاً خُضْراً قالَ فَمَكَثَ ما شَاءَ اللهُ .

ثم قالَ يَا هَؤُلاءِ الرَّحِيْلَ ، قالوا إِلى أَيْنَ، قَالَ إِلى ماءٍ لَيْسَ كَمَائِكُم ورياضٍ لَيْسَتْ كَرِياضِكُمْ ، قالَ فقالَ جُلُّ القومِ ، وهُمْ أَكْثَرُهُمْ واللهِ ما وَجَدْنَا هَذَا حتى ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَجِدَهُ ، وما نَصْنَعُ بِعَيْشٍ هُوَ خَيْرٌ مِنْ هذا ؟ .

قال وقالَتْ طائفةٌ وَهُمْ أَقَلُّهُمْ ، أَلَمْ تُعْطُوا هَذَا الرَّجُلَ عُهُودَكُمْ ، وَمَواثِيْقَكم باللهِ ، لا تَعْصُونَهُ شيئاً ، وَقَدْ صَدَقَكُم في أَوَّلِ حَدِيْثِهِ ، فَوَاللهِ

لَيُصْدُقَنَّكمْ في آخِرِه ، فَراحَ بِمَن اتَّبَعَهُ ، وتخَلَّفَ بَقِيَّتُهُم ، فَبَادَرَهُمْ عَدُوُهُمْ ، فَأَصْبَحُوا بَيْنَ أَسِيْرٍ وَقَتِيْلٍ .

شعرا :

إذَا عَاجَلَ الدُّنْيَا أَلَمَّ بِمَفْرَحٍ
فَمِنْ خَلفهُ فَجْعٌ سَيَتْلُوهُ آجِلُ
وَكَانتْ حَياةُ الحَيِّ سَوْقاً إلى الرَّدى
وَأَيَّامُهُ دُوْنَ المَمَاتِ مَرَاحِلُ
وما لُبْث مَنْ يَغْدُو وفي كُلِّ لَحْظَةٍ
لَهُ أجلٌ في مُدَّةِ العُمْرِ قَاتِلُ
وَلِلْمَرْءِ يومٌ لا مَحَالَةَ مَا لَهُ
غَدٌ وَسْطَ عَامٍ مالَهُ الدَّهْرَ قَابِلُ
كَفَانَا اعْترافاً بِالفَنَاءِ وَرُقْبَةً
لِمَكْروهِهِ أنْ لَيْسَ لِلْخُلْدِ آمِلُ

آخر :

أراني بحَمْدِ الله في المالِ زَاهِداً وفي شَرَفَ الدُّنيا وَفي العِزَ أزْهَدَا
تَخَلَّيْتُ عن دُنْيَايَ إلا ثَلاثَةً دَفَاتِرَ مِنْ عِلْمٍ وبَيْتاً ومَسْجِدَا
غَنَيْتُ بهَا عن كُلِ شيءٍ حَوَيْتهُ وكُنْتُ بِهَا أَغْنَى وأَقْنَى وأسْعَدَا
وكمْ قَدْرَ أيْنا مِن عَزِيزٍ مُشرَفٍ يَبْيتُ مَقَراً بالضَّلالَةِ مُجْهِدَا
أتَتْهُ المَنَايَا وهْوَ في حِينِ غَفْلَةٍ فأضْحَى ذَلِيْلاً في التُرَابِ مُوَسَّدَا

اللهم ثَبِّتْ محبّتك في قُلوبِنا وَثَبِّتْ إيْمَانَنَا وَنَوِّرْ بَصائِرَنَا واهدنا سُبُلَ السَّلاَمِ وَجَنِّبْنَا الفواحِشَ ما ظهرَ مِنْهَا وما بَطَنَ وأَلْهِمْنَا ذِكْرك وشُكْرَكَ واعمُرْ أوقاتَنا بِتِلاوَةِ كِتابِكَ وأرْزُقْنَا التَدَبُر له والعَمَل به في الدقِيْقِ والجليل واغفْر لَنَا وَلِوَالدَيْنَا وجميعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

المثالُ الخامِسُ لِلدُّنْيَا وَأَهْلِهَا ، مَا مَثَّلَها بِهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ كَظِلِ شَجَرَةٍ ، والمَرْءُ مُسَافِرٌ فِيها إلى اللهِ ، فاسْتَظَلَّ في ظِلِ تلكَ الشجرةِ في يومٍ صَائِفٍ ، ثم راحَ وَتَرَكَهَا .

فَتَأَمَّلْ حُسْنَ هذا المِثَال ، ومُطَابَقَتَهُ لِلْوَاقِعِ سَوَاءً ، فإنَّها في خُضْرَتِهَا كَشَجَرَةٍ ، وفي سُرْعَةِ انقضائِهَا وَقَبْضِهَا شيئاً فَشَيْئاً كالظِّلِّ والعَبْدُ مُسَافرٌ إلى رَبِّهِ ، والمُسَافِرُ إذَا رَأَى شَجَرَةً في يومٍ صَائِفٍ لا يَحْسُنُ به أَنْ يَبْنِيَ تَحْتَهَا داراً ، ولا يَتَّخِذَهَا قَراراً ، بَلْ يَسْتَظِلُّ بها بِقَدْرِ الحاجةِ ، وَمَتَى زَادَ على ذَلِكَ انْقَطَعَ عن الرِّفَاقِ .

المثالُ السادِسُ تَمْثِيلُهُ لها صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ بِمُدْخِلِ أَصْبُعِهِ في اليَمّ ، فالذي يَرْجِعُ بِهِ أَصْبُعُه مِن البَحْرِ هُوَ مَثَلُ الدُّنيا بالنِّسْبَةِ إلى الآخِرَةِ .

المِثالُ السابعُ ما مَثَّلَهَا بهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَمَ في الحديثِ المتفَقِ على صِحَّتِهِ من حَدِيثِ أبي سَعِيْدِ الخُدْرِي رَضِيَ اللهُ عنْهُ ، قالَ إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ ، عَلَى المِنْبَرِ وَجلسْنَا حَوْلَهُ ، فقالَ إنَّ مِمَا أَخَافُ عليكُم مِن بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عليكُمْ مِن زَهْرَةِ الدُّنْيَا ، وزِيْنَتِهَا فقالَ رجلٌ يا رسولَ اللهِ : أَوَ يَأْتِي الخَيْر بالشَّرِ ، فَصَمَتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ :

ثُمَّ قالَ كَيْفَ قُلْتَ ؟ قَالَ يا رَسُولَ اللهِ أَوَ يَأْتِي الخيرُ بالشَّرِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إنَّ الخَيْرَ لَا يَأْتِي إلا بِالخَيْرِ ، وإنَّ مِمَا

يُنبِتُ الرَّبِيْعُ مَا يَقْتُلُ حَبطاً أَوْ يُلِمُّ ، إلّا آكِلةَ الخَضِر ، أَكَلتْ حتى اذا امْتلأتْ خَاصِرَتَاهَا ، اسْتَقبلت الشَّمْسَ فَثَلَطتْ وَبَالَتْ ، ثم اجْتَرَّتْ فعادَت فأَكَلَت .

فَمَنْ أخَذَ مالاً بِحَقِّهِ بُورِكَ له فِيْهِ ، ومَنْ أَخَذَ مالاً بغير حَقٍّ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الذي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ ، فَأَخْبَرَ صلى اللهُ عليه وسلم أنَّ مما يَخافُ عليهِمْ الدُّنْيَا ، وَسَمَّاهَا زَهْرَةً ، فَشَبَّهَهَا بالزَّهْرِ ، في طِيْبِ رائِحَتِهِ وَحُسْنِ مَنْظَرِهِ ، وقِلَّةِ بَقَائِهِ .

فهذِهِ الفِقْرَةُ اليَسِيْرةُ ، مِن جَوامِعِ كَلِمة صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ، حَوَتْ على إيْجَازِها بَشارةَ الصَحابَةِ الكرام بِمَا سَيَكونُ عَلى أَيْدِيْهِمْ ، مِن فَتْح البِلادِ ، وإِخْضَاعِ العِبادِ ، وَجَلْبِ الأَمْوالِ الطائِلةِ ، والغَنَائِمِ الكَثيرةِ ، وَتَحْذِيْرِهِم مِنَ الغُرُورِ ، والرُّكُون إلى هذهِ الاشياءِ الفانيَةِ ، والأَغْرَاضِ الزَّائِلَةِ .

وَضَرَب صلَّى اللهُ عليه وسلمَ مَثَلَيْنِ حَكِيْمَينِ أَحَدَهُمَا مَثَلُ المَفْرِط في جَمْعِ الدنيا ، والآخرَ مَثَلُ المَقْتَصِدِ فِيْهَا ، أَمَّا الأوَّلُ ، فَمَثَلُه مَثَلُ الرَّبِيْعِ وذَلِكَ قولُه فإنَّ مِمَا يُنْبِتُ الرَّبِيْعُ ما يَقْتُلُ حَبطاً أو يُلِمُّ ، بأَنْ يُقَارِبَ الهَلاكَ .

فهذا المطرُ ماءٌ ينزلِهُ لإغاثَةِ الخَلْقِ وإرْوَاءِ كلِّ ذي رُوحٍ فَرَغْمَ فَوَائِدِهِ الكثيرةِ وَمَنَافِعِهِ الغزيْرةِ وما يَتَسَبَّبُ عن ذلك مِنْ إنْبَاتِ العُشْبِ والكَلاءِ ، يَأْكُل منهُ الحيوانُ فَيُكْثِرُ فينتفخُ بَطْنُه ، فَيَهْلِكُ أو يقاربُ الهلاكَ ، وكذَلك الذي يُكْثِرُ من جَمْعِ المالِ ، ويكونُ عندَهُ مِن الجَشَعِ والشَّرَهِ ، والحِرْصِ ، ما يتجاوزُ بِهِ الحَدَّ ، ولاسِيَّما اذا جَمَعَ المالَ مِن غَيْرِ حِلّه ، وَمَنع ذا الحَقِ حَقَّهُ ، فإنْ لم يَقْتُلْهُ قارَبَ أَنْ يَقْتُلَه .

وَلِذَلِكَ كَثِيْرٌ مِنْ أَهْلِ الأَمْوالِ قَتَلَتْهُم أَموالُهم فأنَّهم شَرِهُوا في جَمْعِهَا ، واحْتَاجَ إِليهَا غيرُهم ، فلم يَصِلوا إلى ذَلِك إلا بِقَتْلِهم ، أو ما يُقارِبُ ذَلِكَ مِن إذْلاَلِهم وَقَهْرِهم والضَّغْطِ عَليهم .

وأَمَّا المثالُ الثاني : وهُوَ مثالُ المُقْتَصِد في جَمْعِ الدُّنْيَا ، الطَّالِبِ لحِلِّهَا ، فَقَدْ مَثَّلَ له صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ بقولِه « إِلاَّ آكِلَةَ الخُضَرِ » ، فكأنهُ قالَ ألا انظرُوا آكِلَة الخَضْراءِ ، واعتَبِرُوا بشأنها « أَكَلتْ حتى إذَا امْتَدَتْ خاصِرتَاهَا » وَعَظُمَ جَنْبَاهَا ، أَقْلَعَتْ سَرِيعاً « اسْتَقْبَلت عينَ الشَّمْسِ » تَسْتَمْرِىءُ بذلكَ ما أَكَلتْ وَتَجْتَرُّه « فَثَلَطَتْ » أَلَقَتْ ما في بَطْنِها مِن أَذَى سَهْلاً رَقِيْقاً .

وفي قوله « اسْتَقْبَلَتْ عينَ الشَّمسِ فَثَلَطَتْ وبالَتْ » ثلاثُ فوائِدَ أحدُها أَنَّها لَمَّا أَخذَتْ حاجَتَها مِن المَرْعى تَرَكَتْهُ ، وَبَرَكَتْ مُسْتَقْبلةً عينَ الشَّمْسِ ، تَسْتَمْرِيءُ ،الفائدةُ الثانيةُ أَنَّهَا أَعْرَضَتْ عَمَّا يَضُرُّها مِن الشَّرَهِ في المَرْعَى ، وأَقْبَلَتْ على مَا يَنْفَعُهَا ، مِن استقبالِ الشَّمْسِ التي يَحْصُل لها بِحَرارَتِهَا انْضَاجُ ما أَكَلَتْهُ وإخراجُهُ .

الثالثةُ : أَنَّها استَفْرغَتْ بالبَوْلِ والثَّلْطِ ما جَمَعَتْهُ مِن المَرْعَىٰ في بَطْنِهَا ، فاسْتَرَاحَتْ بإخْراجِه ولو بَقِيَ فِيها لَقَتَلَها ، هَكذا جامِعُ المالِ مَصلحتُه أَنْ يَفْعلَ بِهِ كَمَا فَعَلَتْ هَذِهِ الشَّاة فَتَنَبَّهْ لِذَلِكَ أَيُّهَا المُغَفَّلُ الجَمُوْعُ المَنُوْع .

وإيَّـاكَ والـدُّنْـيَـا الـدَّنِيَّـةَ إِنَّـهَـا
هِيَ السِّحْـرُ في تَـخْيِيْلِهِ وافْـتِـرَائِـهِ
مَـتَـاعُ غُـرُوْرٍ لاَ يَـدُوْمُ سُـرورُهـا
وَأَضْغَـاثُ حُلْمٍ خَـادِعٍ بِـهَـبَـائِـهِ

فَمَن أَكْـرَمَتْ يـوماً أَهَـانَتْ لَـهُ غَـداً
وَمَنْ أَضْحَكَتْ قَـدْ آذنَـتْ بِبُكَـائِـهِ
وَمَن تُسْقِـهِ كَـأْساً مِن الشهْـدِ غُـدْوَةً
تُجَـرِّعُـهُ كَـأسَ الـرَّدَى في مَسَـائِـهِ
وَمَن تَكْسُ تَـاجَ المُلْكِ تَنْزِعُـهُ عَاجِـلاً
بـأَيْـدِي المَنَـايَـا أَوْ بِـأَيْـدِي عِـدَائِـهِ
أَلاَ إنَّهـا لِلْمَـرْءِ مِـنْ أَكبَـرِ الـعِـدَا
وَيَحْسَبُهَـا المَغْـرُوْرُ مِن أَصْـدِقَـائِـهِ
فَـلَذَّاتُـهـا مَـسْـمُـومَـةٌ وَوُعُـودُهـا
سَـرَابٌ فَمَا الـظَّامِي رَوَى مِن عَنَـائِـهِ
وَكَمْ في كِتَـابِ اللهِ مِنْ ذِكْـرِ ذَمِّهَـا
وَكَمْ ذَمَّهَـا الأَخْـيَـارُ مِن أَصْفِيَـائِـهِ
فَـدُوْنَـكَ آيـاتِ الكتـابِ تَجِـدْ بِهَـا
مِن العِلْمِ مَـا يَجْلُوا الصَّـدَا بِجَـلاَئِـهِ
وَمَن يَـكُ جَمْـعُ المـالِ مَبْلَغَ عِلْمِـهِ
فَـمَـا قَـلْبُـهُ إلاَّ مَـرِيْـضـاً بِـدَائِـهِ
فَـدَعْهَـا فَـإِنَّ الـزُّهْـدَ فِيْهَـا مُحَتَّـمٌ
وإِنْ لَم يَقُـمْ جُـلُّ الـوَرَى بِـأَدَائِـهِ
وَمَن لَمْ يَـذَرْهَـا زَاهِـداً في حَيَـاتِـهِ
سَتَـزْهَـدُ فيـهِ النـاسُ بَعْـدَ فَنَـائِـهِ
فَتَتْـرُكُـهُ يَـوْمـاً صَـرِيْـعـاً بِقَبْـرِهِ
رهِـيْـنـاً أَسِـيْـراً آيِـسَـاً مِـن وَرَائِـهِ

وَيَنْسَاهُ أَهْلُوهُ المُفَدَّى لَدَيْهِمُ
وَتَكْسُوهُ ثَوبَ الرُّخصِ بَعْدَ غَلائِهِ
وَيَنْتَهِبُ الوُرَّاثُ أَمْوَالَهُ التي
عَلى جَمْعِهَا قاسَى عَظِيمَ شَقَائِهِ
وَتُسْكِنُهُ بَعدَ الشَّواهِقِ حُفْرةً
تَضِيقُ بِهِ بَعْدَ اتِّسَاعِ فَضَائِهِ
يُقِيمُ بهَا طولَ الزمانِ وَمالَهُ
أنيسٌ سوى دُوْدٍ سَعَى في حَشَائِهِ
فَوَاهاً لَهَا مِن غُربَةٍ ثم كُرْبَةٍ
ومِن تُربَةٍ تَحْوِي الفَتى لِبَلائِهِ
وَمِن بَعدِ ذا يَومُ الحِسَابِ وِهَوْلُه
فَيُجزَى بِهِ الانسانُ أَوْ فى جَزائِهِ
وَلَا تَنْسَ ذِكرَ الموتِ فالموتُ غائبٌ
ولا بُدَّ يَوماً لِلْفَتى مِن لِقَائِهِ
قَضَى اللهُ مَوْلانا عَلى الخَلْقِ بِالفَنَا
ولا بدَّ فِيهم مِن نُفُوذِ قَضَائِهِ
فَخُذْ أُهْبَةً لِلْمَوتِ مِن عَمَلِ التُّقَى
لِتَغْنَمَ وَقْتَ العُمْرِ قَبلَ انْقِضَائِهِ
وإِيَّاكَ والآمالَ فالعُمْرُ يَنْقَضِي
وَأَسْبَابُهَا مَمْدُوْدَةٌ مِن وَرَائِهِ
وَحَافِظْ على دِينِ الهُدَى فَلَعلَّهُ
يَكونُ خِتامَ العُمْرِ عندَ انتِهَائِهِ

فَـدَوْنَـك مِنِّي فـاسْتَمعهـا نَصِيْحَـةً
تُضَـارِعُ لَـونَ التِّبْـرِ حَـالَ صَفَـائِـهِ

وصَلّي على طُـوْلِ الـزمـانِ مُسَلِّمَـاً
سَلاماً يَفُـوقُ المِسْـكَ عَـرْفُ شَـذَائِـهِ

عَلى خـاتَمِ الرسْـلِ الكِـرَامِ مُحَمَّـدٍ
وأَصـحـابِـهِ والآلِ أهـلِ كِـسَـائِـهِ

واتْبَـاعِهم في الدينِ مـا اهْتَزَّ بـالـرُّبَـا
رِيـاضٌ سَـقَـاهَـا طَـلُّهَـا بِـنَـدَائِـهِ

اللهمَّ اجْعَل قلوبَنا مَمْلوءَةً بِحُبِّكَ وألْسِنَتَنَا رَطْبَةً بِذِكْرِكَ وَنُفُوسَنا مُطِيْعَةً لِأَمْرِكَ وأَرْزقنَا الزُّهْدَ في الدُّنْيَا والاقبالَ على الآخرةِ واغفرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا ولِجَمِيعِ المسلمينَ برحمتِكَ يا أرحَمَ الراحمينَ وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وسَلم .

(فَصْـلٌ)

اعلمْ وَفَّقَنَا اللهُ وايَّاكَ وجميعَ المسْلِمِينَ لما يُحِبُّه وَيَرْضَاهُ ، أن الأُلْفَةَ ثمرةُ حُسْنِ الخُلُقِ ، والتَّفرُّقَ ثمرةُ سوءِ الخلقِ ، فَحُسْنُ الخُلقِ يوجِبُ التَّحَابَ ، والتآلفَ والتوافُقَ ، وَسُوءُ الخلقِ يثمرُ التبـاغضَ ، والتحَاسُدَ ، والتَدَابُرَ .

ومهمَا كانَ المثمِرُ محموداً،كانَتْ الثمرةُ محمودةً ،وحُسْنُ الخلقِ لا تخفَى في الدِّينِ فَضيلتُه ، وقالَ اللهُ تعالى لِنَبيه ﴿ وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ ﴾ وقال صلى اللهُ عليه وَسَلم (أَكْثَرُ مايُدْخِلُ الجنةَ تَقوى الله، وحُسْنَ الخُلُقِ) ، وقال أُسَامةُ بنُ شَرِيكٍ قلنَا يا رَسُولَ اللهِ ما خَيْرُ ما

أُعْطِيَ الإِنْسَانُ ؟ فقال : حُسْنُ الخلقِ) وقالَ صلى الله عليهِ وسلم (بُعِثْتُ لأُتَمِمَ مكارِمَ الأَخْلاَقِ) .

وقالَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (أثْقَلُ ما يُوضَعُ في المِيْزانِ خُلُقٌ حَسَنٌ) ، وقالَ صلى اللهُ عليهِ وسلم (المُؤْمِنُ اِلفٌ مَألوفٌ ، ولا خَيْرَ فِيْمَنْ لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ) ، ولأبِي عبدِ الرحْمَنَ السُّلَمِي في آدَابِ الصُّحْبَةِ مِنْ حديثِ عَليٍ : مِنْ سَعادَةِ المرْءِ أنْ يكونَ لَه إخْوان صالحين) .

وللإخَاءِ أَربعُ خُصَالٍ : الأوْلَى العَقْلُ الموفُوْرُ الهَادِي إلى مَرَاشِدِ الأمُورِ بإذْنِ اللهِ ، فَإنَّ الحُمْقَ لا تَثْبتُ مَعَهُ مَوَدَةٌ ولا تَدُومُ معه صُحْبَةٌ ، لِعَدَمِ مُراعاتِهِ حُقُوق الإخَاءِ .

والخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ الدِّيْنَ الوَاقِفُ بِصَاحِبِهِ عَلَى الخَيْراتِ ، فإنَّ تارِكَ الدِّيْن عَدوٌ لِنَفْسِهِ يُلقِيْهَا في المَهَالِكِ ، فَكَيْفَ يُرْجَى مِنْه نَفْعٌ وَمَوَدَّةٌ لِغَيْرِهِ .

وقالَ بعضُ الحُكَماءِ اصْطَحبْ مِنَ الاخوانِ صَاحِبَ الدِّيْن ، والحَسَبِ ، والرَّأْيِ والأدب ، فانه عَوْنٌ لَكَ عندَ حاجَتِكَ ، لأنَّ دِيْنَه يُحتِّمُ عليه ذلك ، لأنه مِنْ مُقْتَضَيَاتِهِ وَيَدٌ عندَ نائِبَتِك ، وذلِكَ مِن مُوْجِبَاتِ رَأْيِهِ ، وَحَسَبِهِ ، وأُنسٌ عندَ وَحْشَتِك لأدَبِهِ .

وَمِنْ كلامِ بَعْضِ العارِفين : الأَخُ الصَّالحُ خيرٌ مِن نَفْسِكَ ، لأن النفسَ أمَّارةُ بالسُّوءِ ، والأخُ الصالحُ لا يَأمُرُ إلا بالخيْرِ .

الثالثةُ : أن يكونَ مَحْمُودَ الأخلاقِ ، مَرْضِيَّ الأفعالِ ، مُؤْثِراً

لِلْخَيْرِ ، آمراً به لِخَلِيْلِهِ ، كارهاً لِلشَّرِّ دِيَانَةً ، وَخُلُقاً ، ناهياً عن الشر مُرُوْءَةً وَحَسَباً ، فإنَّ مَوَدَّةَ الشرِّيْرِ تَكْسِبُ الأعداءَ ، وَتُفْسِدُ الأخْلاقَ ، ولا خيرَ في مَوَدَّةٍ تَجْلِبُ عَدَاوةً ، وَتُوْرِثُ مَذَمَّةً وَمَلاَمةً .

وقد ضَرَبَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ مَثَلَين لِلْجَلِيْسِ الصَّالحِ ، والجَلِيْسِ السُّوءِ ، فعنْ أبي مُوسى الاشعَري رَضِيَ اللهُ عنه قَال قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ (مَثَلُ الجَليسِ الصَّالحِ ، والْجَلِيسِ السُّوءِ ، كَحَامِلِ المِسْكِ ، وَنَافِخِ الكِيْـرِ ، فَحَامِـلُ المِسْكِ إمَّـا أَنْ يَحْذِيكَ ، وامَّا أَنْ تَبْتَاعَ منهُ ، وإمَا أنْ تَجِدَ منه ريحاً طيبةً ، ونافخُ الكيرِ إما أنْ يُحْرِقَ ثِيابَكَ ، وإما أن تَجِدَ منه رِيْحَةً خَبِيْثَةً) ، متفقٌ عليه .

هذا الحديثُ يُفِيْدُ انَّ الجَلِيْسَ الصَّالِحَ جميعُ أَحْوالِ صَدِيْقِهِ مَعَهُ خَيرٌ وَبَرَكَةٌ وَنَفعٌ وَمَغْنَمٌ مِثْلُ حَامِلِ المِسْكِ الذي تَنْتَفِعُ بما معه منْه ، إمّا بِهِبَةٍ ، أو بِبَيْعٍ أو أَقَلُّ شَيْءٍ مُدَّةَ الجُلوسِ مَعَهُ ، وأنتَ قريرُ النَفسِ ، مُنْشَرِحِ الصَّدرِ ، بِرَائِحَةِ المِسْكِ .

وهذا تقريبٌ ، وَتَشْبِيْهٌ لَهُ بِذَلِكَ وإلا فَمَا يَحْصُل مِنَ الخيرِ الذي يُصيبُه العبدُ من جَلِيْسِهِ الصَّالِحِ أَبلغُ وَأَفْضَلُ من المِسْكِ الأَذْفَرِ ، فانه إمَّا أنْ يُعلِّمَكَ أموراً تَنْفَعُكَ في دِينكَ ، وإمَّا أَنْ يُعَلِّمَكَ أُمُوْراً تَنْفَعُكَ في دُنياكَ ، أو فِيْهما جَمِيْعاً، أو يُهْدِيْ لَكَ نَصِيْحَةً تنفعُكَ مُدّةَ حياتِكَ ، وَبَعْدَ وَفَاتِكَ أو يَنْهَاكَ عَمَّا فِيْهِ مَضَرةٌ لكَ .

فَأَنْتَ مَعه دائماً في مَنْفَعةٍ ، وَرِبْحُكَ مَضْمُونٌ بإذنِ اللهِ ، فَتجدهُ دائماً يَرى أَنَّكَ مُقَصِّرٌ في طاعةِ اللهِ ، فَتَزْدَادُ هِمَّتُكَ في الطاعة ، وَتَجْتَهِدُ

في الزِّيَادَةِ منها ، وَتَرَاهُ يُبصِّرُكَ بِعيُوبِكَ ، وَيَدْعوكَ إلى مَكَارِمِ الأخلاقِ ، وَمَحَاسِنِها بقولِهِ وَفِعْلِه وَحَالِهِ .

فالإنسانُ مَجْبُولٌ على التقْلِيدِ ، والاقتداءِ بِصَاحِبِه ، وجَليسهِ ، والطباعُ والأرواحُ جُنودٌ مُجَنَّدَةٌ ، يَقُودُ بعضُها إلى الخيرِ ، أَو إلى الشرِ ، وأقلُ نفعٍ يَحْصُلُ مِن الجَلِيسِ الصالحِ انكفافُ الإنسانِ بِسَببهِ عن السيئاتِ ، والمسَاوِي والمَعَاصِي ، رِعايَةً لِلصُّحْبَةِ ، وَمُنَافَسَةً في الخَيرِ وَتَرَفُعاً عن الشرِ .

وَمِنْ ما يُستفادُ مِن الجليسِ الصالح أَنَّه يَحْمِي عِرْضَك في مَغِيْبِكَ ، وفي حَضْرتِكَ ، يُدافِعُ وَيَذُبُ عنكَ ، ومِن ذلكَ أَنَّكَ تَنْتَفِعُ بِدُعَائِهِ لَكَ حَياً أَوْ مَيِّتاً .

وأَمَّا مُصَاحَبَةُ الأَشرارِ فَهيَ السُّمُ الناقِعُ ، والبَلاَءُ الواقعُ ، فَتَجدهُمْ يُشَجِّعُونَ على فِعْلِ المعاصِي ، والمنكراتِ ، وَيَرْغبونَ فيهَا وَيَفْتَحُونَ لِمَنْ خالَطَهُمْ ، وجالَسَهُمْ أَبْوَابَ الشُّرُوْرِ وَيُزَيِّنُونَ لِمُجالِسِيْهِمْ أنواعَ المَعَاصِي .

وَيَحُثُونَهم على أَذِيَّةِ الخَلْقِ ، وَيُذَكِّرُونَهُم بأُمُورِ الفَسَادِ ، الَّتِي لَمْ تَدرْ في خَلَدِهِمْ ، وإن هَمَّ بِتَوْبَةٍ وانْزِجَارٍ عن المَعَاصِي حَسَّنُوا عِنْدَهُ تأجيلَ ذلك ، وطوْلَ الأَمَلِ ، وأَنَّ ما أَنْتَ فيهِ أَهْونُ مِن غيرِهِ ، وفي إمكانِكَ التَّوبةُ ، والإنابةُ إذا كَبُرْتَ في السِّنِ .

وما يُقلِّدُهُم بهِ وَيَكْسَبُه مِن طِباعِهِم أَكْثَرُ مِن مَا ذَكَرْنَا ، وكم قادُوا أصحابَهم إلى المَهَالِكِ واللهُ أعلمُ وصلى الله على محمدٍ وآله وسلم .

(فَصْــلٌ)

وَكَمْ حَثَّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ على أَهْلِ الدِّينِ فعن أَبي هريرةَ رضي اللهُ عنهُ قَالَ قَالَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ (الْمَرْءُ على دِينِ خَلِيلِهِ فلينظرْ المرءُ مَنْ يُخَالِلْ) قالَ العلماءُ معناهُ لا تُخَالِلْ إلا مَنْ رضيتَ دِينَه وأمانَتَه فإنكَ إذا خَالَلْتَه قَادَكَ إلى دِيْنِهِ ، وَمَذْهَبِهِ ، ولا تُغَرِّرْ بدِيْنِك ولا تُخَاطِرْ بِنَفْسِكَ ، فتُخَالِلْ مَن لَيْسَ مَرْضياً في دِينِهِ ومذهَبِهِ .

وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ ، وَوَقد روي في تَفسير هَذَا الحديثِ انْظُرُوا إلى فِرْعَونَ مَعَهُ هامَان وانظُروا إلى الحجاجِ مَعَهُ يزيدُ بنُ أبي مُسْلِم شَرٌّ مِنْه قُلْتُ وانظروا إلى يزيدِ بنِ معاويةَ معه مُسْلِمُ ابنُ عقبةَ المُرّي شرٌ منه انظروا إلى سليمان بنِ عبدِ الملكِ صحبَهُ رجاءُ بنُ حَيْوَةَ الكنْدِيُ أَحَدُ الأعلامِ الأَفَاضِلِ ، فَقَوَّمَهُ وسَدَّدَهُ .

وعن أَبي سعيدٍ الخدري عن النبي صَلَّى الله عليه وسلم قال « لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمناً ولا يَأكلِ طعَامَكَ إلا تَقِيٌّ » قَالَ العلماءُ مَعنى الحديثِ لا تَدْعُو إلى مُواكَلَتِكَ إلاَّ الأتقياءَ ، لأنَّ المُؤَاكلةَ تَـدْعو إلى الأُلْفَةِ ، وتُوجِبُهَا ، وَتَجْمَعُ بينَ القلوبِ ، يقول النبي صلى الله عليهِ وسلمَ فتَوَخَّ أنْ يكونَ خُلَطاؤُكَ وَذَوُو الاختصاصِ بك أَهْلُ التقوى .

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قَالَتْ قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تَلْزَمُوا مَجَالسَ العَشَائِرَ فإنَّها تُميتُ القلبَ ، ولا يُبَالي الرجلُ بما تَكَلم ، ناديهم ، وتَفَرَّقُوا في العَشَائِرِ فَإنهُ أَحْرَى أَنْ تُحْفَظُوا في المَقَالَةِ).

وقال بَعضُهم : يَنْبغي لِلْمؤمن أَنْ يُجَانِب طُلَّابَ الدنيا فإنَّهم يَدُلونَهُ عَلى طِلبها ومَنْعِهَا وذلك يُبْعده عن نجاتِهِ ويَقْصَتِهِ عنها ويَحْرصُ ويَجْتِهدُ في عِشْرَةِ أَهْلِ الخيْر وطُلابِ الآخرة .

وقال آخر : عَلَيْكَ بصُحْبَةِ أهْلِ الخيرِ مِمَّنْ تَسْلَمُ منه في ظاهِرِكَ وتعِينُكَ رُؤيتُهُ على الخير ويُذكرك الله .

قالَ العلماءُ قَدْ حَذَّرَ النبيُّ ﷺ مِن مُجالَسَةِ مَنْ لا يَسْفَيدُ المَرْءُ بهِ فَضِيْلةً ، ولا يَكْتَسِبُ بِصُحْبَتِهِ عِلْماً وَأَدباً .

وعن وَدِيْعَةَ الانُصَاري قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ بن الخطاب رَضِيَ اللّهُ عنه يقولُ وهو يَعِظُ رَجلاً لا تَتَكلمْ فيما لا يَعْنِيك ، واعتزلْ عَدُوَّكَ ، واحذرْ صَدِيْقَكَ ، إلا الأمينَ ولا أَمِيْنَ إلا مَنْ يَخْشَىٰ اللّهَ عَزَّ وجلَ ، ويطيعُه ، ولا تَمْشِ مَع الفَاجِرِ ، فَيُعَلِّمَكَ مِن فُجُورِهِ ، ولا تُطلعْه على سِرِّكَ ولا تُشاوِرْ في أمرِكَ إلا الذينَ يَخْشَونَ اللّهَ سبحانَه .

وَوَعظَ بعضُهم ابنَهُ فقالَ له إيَّاكَ واخوانَ السُوءِ ، فإنَّهُمْ يَخُونونَ مَن رَافَقهمْ ، وَيُفْسِدونَ مَن صَادَقَهم ، وَقُرْبُهم أَعْدَى مِن الجَرَبِ ، وَرَفْضُهم والبُعْدُ عَنْهُمْ مِن استكمالِ الأَدب والدِّين والمرءُ يُعْرَفُ بقرينِه ، قالَ والإخوانُ إثنانِ فَمُحَافِظٌ عليكَ عندَ البَلاءِ ، وَصَدِيْقٌ لكَ في الرَّخاءِ ، فاحفظ صديقَ البَلِيَّة ، وَتَجَنَّبْ صَدِيقَ العَافِيَةِ فانَّهمْ أَعْدَى الاعْدَاءِ وفي هَذا المعنى يقولُ الشاعُر :

« أَرَى الناسَ إخوانَ الرَّخاءِ وإنَّمَا أُخوكَ الذي آخَاكَ عِندَ الشَّدائِد »
« وكل خليل بالهوْينا ملاطِفٌ ولكنَّما الإخوان عند الشدائد »

آخر :

فما إكْثَرَ الإخوانَ حِيْنَ تَعدُّهُمْ ولَكِنَّهُمْ في النَائباتِ قليلُ

آخر :

فريدٌ مِن الخلانِ في كُلِّ بلدة إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المُسَاعِدُ

آخـــر :

دَعْــوَى الإِخَــاءِ مَـعَ الرَّخَــاءِ كَـثِيْرَةٌ
وَمَـعَ الشَّـــدَائِـدِ تُعْــرَفُ الإِخْــوَانُ

وعن شريكِ بن عبدِاللَّهِ كانَ يُقَالُ لا تسافرْ مع جَبَانٍ فانَّهُ يَفِرُّ مِن أبيهِ وأمِه ، ولا تُسَافِرْ معَ أحْمَقَ ، فإنَّهُ يخذلكَ أحْوجَ ما تكونُ إليهِ ولا تُسَافِرْ مَعَ فاسِقٍ فإنَه يَبِيْعُكَ بِأَكْلَهٍ وَشَرْبَةٍ .

وعن أبي مُوسَى الاشْعَري قال قالَ رسولُ الله ﷺ انَّ الله خلقَ أدمَ عليهِ السلامُ مِن قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِن جَمِيْعِ أَجْزَاءِ الأَرض فَجَاءَ بَنُوا آدَامَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ ، مِنْهُمْ الأَحمرُ والأَسَودُ والأَبيضُ والسَّهْلَ والحَزَنُ .

قال العُلَماءُ في هَذَا الحديث بيانُ أَنَّ الناسَ أَصنافٌ ، وطَبقاتٌ ، وأنهمْ مُتَفَاوِتُونَ في الطِّبَاعِ ، والأَخلاقِ ، فمنهُمْ الخَيِّرُ الفاضلُ ، الذي يُنْتَفَعُ بِصُحْبَتِهِ ، وصـداقَتـه ، وَمُجَاوَرَتِه ، ومُشَاوَرَتِهِ وَمُقَارَنتِهِ وَمُشَارَكَتِهِ وَمُصَاهَرَتِهِ ولا يَنْسَى مَا أَسْدَيْتَ إليه من مَعْرُوف عندما كان محتاجا .

وإنَّ أَوْلَـى المَـوالِـى أنْ تُـواليِـهُ ... عِندَ السُرور الذي وَاسَاكَ في الحَزنِ
إنَّ الكرامَ إذَا مَا أيْسَرُوا ذَكَروا ... مَنْ كانَ يَألفُهُم في المَنْزِلِ الخَشِنِ

ومنهُمْ الـرَّدِيءُ النـاقصُ العقـلِ الـذي يُتَضرَّرُ بقُرْبِهِ ، وعِشْرَتِهِ وَصداقَتِهِ وَجَمِيْعُ الاتصالاتِ به ضررٌ وشرٌ ، ونكدٌ ، وأشبهُ ما لِهَذَا الدَّلْبُ المسمَّى الخُنَيْز ، وَبَعضُهم يُسَمِيْه شَبَّابَ النار ، فهذا النَّبْتُ يَمُصَّ الماءَ عن الشَّجرِ والزَّرْعِ وَيُضَيِّقُ عليهِ ، وَيَضُرُّ مَن اتَّصَلَ بهِ ، قال ابنُ القيمُ رحمهُ اللَّهُ في وَصْفِ المنحرفِينَ مُشَبِّهاً لَهُمْ بِهِ وهو شَبَهُ مُطَابِقٌ :

فَهُـمُ لَدَى غَـرْسِ الإِلَـهِ كَمثْـلِ غَـرْ
س الـدَّلْـبِ بِـيْنَ مَغَـارِسِ الـرُّمـانِ

يَمْتَصُّ مَاءَ الزَّرْعِ مَعْ تَضْيِيْقِهِ
أَبَداً عليهِ وليس ذَا قِنْوانِ

آخر :

النَّاسُ مِثْلُ ضُرُوْفٍ حَشْوُهَا صبرٌ وفَوْقَ أَفْوَاهِهَا شيءٌ مِن العَسَلِ
تَغُرُّ ذائِقَهَا حَتى إذا كشفَتْ لَهُ تبيَّنَ مَا تَحْوِيْهِ مِن دَخَلِ

ومنها السِّباخُ الخَبِيْثَةُ التي يَضِيْعُ بُذُورُهَا ، وَيَبِيْدُ زرْعُهَا وما بين ذلكَ على حَسَبِ ما يُشَاهَدُ منها وَيُوْجَدُ حساً .

وعن أبي هريرةَ رضِي اللَّهُ عنهُ قالَ قَالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ الناسُ مَعَادنُ قال الخَطابي عَلى هَذا الحديثِ ، وفي هذا القولِ أيضاً بيانُ أَنَّ اختلاف الناسِ غرائزُ فيهِمْ ، كَمَا أن المعادِنَ ودائعُ مَرْكُوزَةٌ في الأَرضِ فمنهَا الجَوهَرُ النفيسُ ومنها الفِلْزُ الخَسِيْسُ .

وكذلكَ جواهِرُ الناسِ ، وطباعُهُمْ ، منهَا الزكيُّ الرضيُّ ومنها الناقصُ الدَّنِيءُ وإذا كانُوْا كذلكَ ، وكانَ الأَمْرُ على العِيَانِ مِنْهم مُشْكِلاً واسْتِبْراءُ العَيْبِ فيهِمْ مُتعـذِّراً فالحَزْمُ إذاً الامْسَاكُ عنهُمْ ، والتَّوَقُّفُ عَن مُدَاخَلَتِهِمْ إلى أَن تَكْشِفَ المِحْنَةُ عن أَسْرارِهِم وَبَواطِنِ أَمْرِهِمْ فيكونُ عندَ ذلِكَ إقدامٌ على خِبْرةٍ ، أَو إِحْجَامٌ عنْ بَصِيْرَةٍ .

وَلَعَلَّكَ أَسْعَدَكَ اللَّهُ إذَا خَبرْتَهم قَلَيْتَهُم ، وإذا عَرفتَهم أَنكَرْتَهُمْ ، إلا مَن يَخُصُّهُم الثَّنَيَاءُ وَقَلِيْلٌ مَا هُمْ ، وَعَنْ أَبي جُحَيْفَةَ أَنَّ رسولَ الله ﷺ كَانَ جالساً ذاتَ يوم وَقُدَّامُه قومٌ يَصْنَعُونَ شيْئاً كَرِهَهُ مِن كَلَامٍ وَلَغَطٍ ، فقيلَ يا رسولَ اللَّهِ أَلاَ تَنْهَاهُمْ ، فقالَ لو نَهَيْتُهم عن الحجُون ، لأَوشَكَ بَعْضُهُم أَنْ يَأْتِيهُ ، وَلَيْسَتْ لَهُ حَاجَةٌ .

قال الخَطَّابي على هَذا الحديثِ قد أَنْبَأَ النبيُّ ﷺ بهذا القول أَنَّ الشَّرَّ طباعٌ في النَّاس ، وأَنَّ الخِلافَ عادةٌ لَهُم ، قُلْتُ ومِمَّا يَدُلُ على ذلكَ قِصَّةُ

آدَمَ وَحَوَاءَ حِيْنَمَا نَهَاهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عن الأكلِ مِن الشجرةِ أَكَلاَ منها .

فَبَعْضُ الناسِي نَهْيُهُ عن الشيءِ كَأَنَّه إغراءٌ لهُ فيهِ ، فَإِذَا نَهيْتَه عن شِدَةِ الإِقبَالِ على الـدُّنيا والإِقْلالِ مِن محَبَّتِهَا ، ازْدَادَ وَفَطِنَ لأَشْيَاءَ قَدْ نَسِيها قال بعضهم :

وإِذَا زَجَرتَ النَّفْـسَ عـن شَغَـفٍ بها
فكـأَنَّ زَجْـرَ غـويِّهَا إغْـرَاؤُهَـا

قال بَعْضُ الحُكَـمَاءِ الشرُّ في طبـاعِ الناسِ ، وحُبُّ الخِلافِ لهم عادةٌ ، والجَورُ فيهم سُنَّةٌ .

وَلِذَلِكَ تَرَاهُمْ يُؤْذُونَ مَن لا يُؤْذِيهم ، وَيَظْلِمونَ مَنْ لا يَظْلِمُهُمْ ، وَيُخَالِفُونَ مَن يَنْصَحُهُم ولا يمنَعُهُمْ مِن الظُلم إلاَّ خَوفٌ أو رَجَاء .

وَقَدِيمًا قِيْل :

والظُلْـمُ مِن شِيَمِ النُفُـوْسِ فـإِنْ تجِـدْ
ذَا عِفَّـــةٍ فَلِعـلَّةٍ لا يَظْـــلِمُ

قيلَ لِرَجُلٍ أَمَا تَسْتَحِي تُؤْذي جيرانَك ، قَالَ فَمَنْ أُوْذِي ، أَأُوذِي مَنْ لا أَعْرِفُ ، نَعُوذُ باللَّهِ مِن هذهِ الحالِ هذا مَطْبُوعٌ على الشَرِّ والأَذِيَّةِ .

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

فَصْـلٌ : إذا فَهِمْتَ ذَلِـكَ فاعْلَمْ أَنَّ الإِخَاءَ فِيْمَا مَضَى غالباً بينَ الأَخَوَيْنِ كانَ أَحَدُهُمْ يَعْتَمِدُ على اللَّهِ ثُمَّ عَلَى أَخِيْهِ ، وَيَطْمَئِنُ إليهِ ، في مَهَـامِّـهِ كُلَّ الأَطمِئْنَـانِ ، كَانَ أَحـدُهُم يُؤَاخِي أخاهُ على الصَّفَاءِ بَيْنَهُم والحَنَانِ ، كأَنَّ الأخَ نَفْسُ أخيهِ ، وربَّما زادَ عنه ، في القيام بِشُؤُنِهِ مرَّاتٍ ، كان الأخُ لا يُؤَاخِي إلاَّ أذا أَحَبَّ لأخِيهِ ما يحبُ لنفسِهِ .

وكانَ أَحَدُهُمْ يدخلُ بَيْتَ أَخيهِ بحَضْرَتِهِ وَيَأْخُذُ من خِزَانَتِه ما يُرِيْدُ ،

كانَ أحدُهم إذا سأَلَ أخَاهَ ما هُو محتاجٌ إليه أَنبَ نَفْسه إِذْ أهْمَلَهُ حتى أَفْصَحَ هو عَنْ حاجَاتِه ، كانَ بعضُهم يُلاحِظُ بعضاً فإذا رَأى فُرْجَةً سَدَّها وَوَجْهُ أَخِيْهِ غَيْرُ مَبْذُولٍ .

كانَتِ الصُّحْبَةَ أَوَّلاً صَافِيةً وكانَ الحُبُ لِلَّهِ مَا فيهِ شائبةٌ ، أو طَمَعٌ مِن الأطماع ، وَحَيْثُ أنَّ الصاحب هُو العَضُدَ الأَقْوى ، والساعد الأَيْمَن لِلْمَرْءِ في حَيَاتِهِ وما يَنْتَابُهُ في مُلِمَّاتِهِ فَعلَى العَاقِلِ أن يَخْتَارَ أَصحابَهُ وَيَنْتَقِيَ جُلَسَاءَهُ وَيَنْتَخِبَهُمْ مِن ذَوِي السِيْرةِ المَحْمُوْدَةِ والعقلِ الراجحِ ، والرَّأْيِ السَّدِيدِ ، والدِّين المتين ، ولْيَحْذَرْ مِنْ مؤآخاةِ مَن لا يَصْلَحُ للأخوةِ ، ولا يُرَاعِي حقَّ الوِدَادِ وآداب المُجَالَسَةِ والمُحَادَثَةِ .

وأَوْصَى بَعْضُهم ابنَهُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفاةُ فقالَ يا بُنَيَ إذا أَرَدْتَ صِحْبَةَ إنسانٍ فاصْحَبْ مَن إذا خَدَمْتَه صَانَكَ ، وإن صَحِبْتَهُ زَانَكَ ، اصحبْ مَنْ إذا مدَدْتَ يَدَكَ للخيرِ مَدَّهَا ، وان رَأَى منكَ حَسَنَةً عَدَّهَا ، وان رَأَى منك سَيِّةً سَدَّهَا .

اصْحَب مَن إذا حَاوَلْتَ أَمْـراً أعانَك ، وَنَصرَكَ ، وان تَنَازَعْتُما في شيءٍ آثَرَكَ ، فإن يَسَّرَ اللَّهُ لكَ بصاحبٍ مِن هَذَا الطِّرازِ فاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِه ، قال الامامُ الشافعيُ رحمهُ اللَّهُ لولا القيامُ بالأسحارِ ، وَصُحْبَةُ الأخيارِ ، ما أخْـتَرتُ البَقـاءَ في هذهِ الـدارِ ، وقـال بعضُ الأُدَبَاءِ أَفْضَلُ الذَّخَائِرِ أَخٌ صاحبُ وفاءٍ وقال بعضُ الشعراء :

(هُمُـومُ رِجَـالٍ في أُمُوْرٍ كَثيرَةٍ   وَهَمِيْ مِن الدُّنْيا صَدِيْقٌ مُسَاعِدُ)
(نَكُونُ كَرُوْحٍ بَيْنَ جِسْمَيْنِ قُسِّمَتْ   فَجِسْمَهُمَا جِسْمَانِ والرُوْحُ وَاحِدُ)

آخـر :

ثَلاثٌ خِصَـالٍ للصَّدِيقِ جَعَلتُهَا   مُضَارعَـةً للصَّـوْمِ والصَّلواتِ
مُوَاسَـاتُهُ والصَّفحُ عن عَثَراتِهِ   وتَرْكُ ابْتِذَالِ السِّرِ في الخَلَواتِ

آخــر :

وَرُبَّ أخٍ لَم يُدْنِه مِنْكَ والِدُ ... أَبَرُّ مِن ابْنِ الأمِّ عِنْدَ النَّوائِبِ
ورُبَّ بَعِيْدٍ حَاضِرٌ لَكَ نَفْعُهُ ... وربَّ قَرِيْبٍ شاهِدٌ مِثْلَ غائِبِ

ورُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قَالَ عليكمْ باخوانِ الصِدْقِ فإنهم زِينةٌ في الرَّخاءِ وعِصْمةٌ في البَلاءِ .

فإذا عَزَمَ الإنسانُ على اصْطِفَاءِ الاخوانِ سَبَرَ أَحْوالَهم قبلَ إخَائِهمْ وكَشَفَ عن أَخْلاقِهم قَبْلَ اصطفائِهم قال بعضُهُمْ :

أَبْلِ الرِّجَالَ إذا أَرَدْتَ إخاءَهُمْ
وَتَوَسَّمَنْ أُمُورَهم وَتَفَقَّدِ
فإذا ظَفِرْتَ بِذِي الأَمَانَةِ والتّقَى
فَبِهِ اليَدَيْنِ قَرِيْرَ عَيْنٍ فأشْدُدِ

آخــر :

غايِضْ صَدِيْقَكَ تَكْشِفْ عن ضمائرِهِ ... وتَهْتِكِ السِتْرَ عَن مَحْجُوبِ أسْرارِ
فا العُودُ يُنْبِيْكَ عن مَكْنُونِ بَاطِنِهِ ... دُخَّانُهُ حِينَ تُلقِيهِ عَلى النارِ

ولا تَبْعثُهُ الوَحدَةُ على الاقدامِ قبلَ الخِبْرَةِ ، ولا حُسْنُ الظنِ على الاغترارِ بالتَّصَنُّعِ .

فان التَّملقَ الذي هُو القَولُ الحَسَنُ مَعَ خُبْثِ القَلْبِ ، مَصَائِدُ العُقولِ ، والنِّفَاقُ تَدْلِيْسُ الفِطَنِ ، والمَلْقُ والنِّفَاقُ سَجِيتَا المُتَصَنِّعِ ، وليسَ فِيْمَنْ يكونُ النِفَاقُ والمَلْقُ سَجَايَاهُ خَيْرٌ يُرْجَى ، ولا صلاحٌ يؤمَّلُ بَلِ الشَّرُّ والأَذى فيهِ ، فلْيَكُنْ اللَّبِيْبُ فَطِناً حاذِقاً ، صاحبَ فِرَاسَةٍ لا يُحْسِنُ الظَنَّ بكُلِّ أحدٍ .

إنِّي لأَعْرِفُ في الرِّجَالِ مُخَادِعاً ... يُبْدِي الصَّفَاءَ وَوِدُّهُ مَمْذُوْقُ
مثل الغَدِيْرِ يُرِيْكَ قُرْبَ قَرَارِهِ ... لِصَفَائِهِ والقَعْرُ مِنْهُ عَمِيْقُ

آخــر :

رَعَى اللَّهُ إخْوانَ التَّملُقِ إنَّهُمْ ... كَفَونَا مَؤُنَاتِ البَقَاءِ على العَهْدِ

فَلَوْ قَدْ وفَوَ كُنَّا أُسَارَى حُقُوقِهِمْ تَراوَحُ ما بَيْنَ النَّسِيْئَةِ والنَّقْدِ

وقالتِ الحُكَماءُ إعْرفْ الرجُلَ مِن فِعْلِه ، لا مِنْ كَلاَمِه ، وأعْرفْ مَحَبَّتَهُ مِن عَيْنَيْه ، لا مِنْ لِسَانِه ، وَعَلَيكَ بِمَنْ حالاَهُ في العُسْر ، واليُسْرِ واحِدةٌ أيْ يُحبُّكَ كلَّ حِينٍ ، سَواءً كُنتَ غَنياً أو فَقِيْراً أمَّا إخوانُ الرخاءِ فاترُكْهُمْ ، قال بعضهم :

ولا خَيْرَ في ودِّ امْرىءٍ مُتَلَوِّنٍ
إذا الرِّيْحُ مَالَتْ مَالَ حَيْثُ تَمِيْلُ
جَوَادٌ إذا اسْتَغْنَيْتَ عن أَخْذِ مَالِهِ
وعِندَ احْتِمَالِ الفَقْرِ عنْكَ بِخِيْلُ
فَمَا أَكْثَرُ الإخوانِ حِينَ تَعدُّهُمْ
وَلَكِنَّهمْ في النَّائِبَاتِ قَلِيْلُ

على أَنْ الإنسانَ مَوْسُومٌ بِسِماتِ مَن قارَبَ ، وَمَنْسُوبٌ إليه أفاعِيلُ مَن صَاحَبَ ، قال ﷺ (المرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ) . وقَالوا ما مِنْ شيءٍ أَدَلُّ على شيءٍ مِنَ الصاحبِ على صَاحِبِهِ وقديماً قيل :

عَنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِيْنِهِ
فَكُلُّ قَرِيْنٍ بالمُقَارِنِ يَقْتَدِي

آخــر :

إذا كُنْتَ في قَومٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ
ولا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

آخــر :

إذا قَرَّبَ السُّلطانُ أَخْيارَ قَوْمِهِ
واعْرَضَ عن أَشْرارِهِمْ فَهْوَ صَالِحُ

وإنْ قَـرَّبَ الـسُـلطانُ أَشْـرَارَ قَـوْمِـه
واعْـرَضَ عن أَخْيَـارِهِـم فَهُـو طَـالَـحُ
وكُـلُ امْـرِئٍ يُنْـبِـيْـك عنـه قَـرِيْنُـهُ
وَذَلِـكَ أمْـرٌ فـي الـبَرِيَّـةِ واضِـحْ

آخــر :

وإذا أَرَدْتَ تَرى فَضِيْلَةَ صَاحِبٍ فانْظُرْ بِعَيْنِ البَحْـثِ مَنْ نُـدَمَـاؤهُ
فالمـرء مَطْـوِيٌّ على عَـلَّاتِـهِ طَـيَّ الكتـابِ وصَحْـبُهُ عُنْوانُـه

آخــر :

تَحَرَّ إذا صَادَفْتَ مَن وِدُّهُ مَحْضُ يُصَانُ لَدَيْهِ الدِّيْنُ والمالُ والعِرْضُ
فَكُـلُ خَـلِيْلٍ مُنْبِيءٌ عن خـلِيْلِهِ كَمَا عن شُؤوْنِ القَلْبِ قد أنْبَأَ النَّبْضُ
وبالصِدق عَامِلْ مَنْ تُحِبُّ مِن الوَرَى وإلا فَذاكَ الحُبُّ آخِرُهُ البُغْضُ

آخــر :

تَجَنَّبْ صَدِيْقاً مِثْلَ مَا واحْذرَ الذِي يَكُونُ كعَمْرٍو بَيْنَ عُرْبٍ وأَعْجَمِي
فإنّ قَرِيْنَ السُوْءِ يُرْدِي وشَاهِدِي كَمَا شرِقَتْ صَدْرُ القَنَـاةِ مِن الدَّمِ

آخــر :

عَلَيْكَ بأرْبَابِ الصُدُوْرِ فَمَنْ غَدا مُضَـافاً لأَرْبَـابِ الصُدُورِ تَصَدَّرَا
وإيَّـاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةِ نَاقِصٍ فَتَنْحـطَّ قَدْراً مِن عُلاَكَ وتُحْقَـراَ
فَرَفْـعُ أبُو مَنْ ثُمَّ خَفْضُ مُـزَمَّـلِ يُبَــيِّنُ قَـوْلِـيْ مُغْرِيًا ومُحَـذِّرَا

والإشارَةُ في قوله « ثُمَّ خَفْضُ مُزَمَّلِ » إلى قول امرىء القيس :

كَـأَنَّ أَبَـانـاً فـي عَـرَانِيْنِ وَبْلِـهِ كبِـيْرُ أُنَـاسٍ فـي بِجَـادٍ مُزَمَّـلِ

وذلـك أنَّ مُزَمَـلاً صِفَـةُ لِكَبـير ، فكـان حَقُّهُ الرفع ولكن خُفِضَ لِمجاوَرَتِهِ المَخْفُوض .

كان جُنْدُبُ بنُ عبدالله الأنصارى صديقا لعبدالله بن عباس فقال له حينَ ودَّعه أوْصِني يا ابنَ عباس فإني لا أدْرى أنَجْتَمِعُ بَعْدَهَا أمْ لاَ .

فقال أُوْصِيْكَ يا جُنْدُبُ ونَفْسِي بتوحيدِ اللّهِ وإخلاص العمل لله وإقام الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ فإنَّ كلَّ خَيرٍ أتَيْتَ بعدَ هَذه الخصال مَقْبُولٌ وإلى الله مرفوع ومن لم يكمل هذه الأعمال رُدَّ عليه ما سِواها .

وكن في الـدنيا كالغـريب المسافر واذكر الموتَ ولْتَهُن الدنيا عليكَ فكأنَّكَ قَدْ فَارَقْتَهَا وصِرْتَ إلى غيرها واحْتَجْتَ إلى ما قَدَّمْتَ ولم تنتفع بشيءٍ مِمَّا خَلَّفْتَ ثم افْتَرَقَا .

كتَبَ عُمر إلى ابنِهِ عبدالله أُوْصِيْكَ بتَقْوَى الله فإنَّ مَن اتَّقَاه كَفَاهُ ومَن أقْرَضَه جَزَاهُ ومَن شَكَرَهُ زَادَهُ فاجْعَلِ التقوى عِمَادَ بَصرِكَ ونورَ قلْبِكَ .

وأعلم أنه لا عملَ لمن لا نِيَّةَ لَهُ ولا جَدِيْدَ لمن لا خَلَقَ لَهُ ولا إيمانَ لِمَنْ لا أمَانَةَ لَهُ ولا مالَ لِمَنْ لا رِفْقَ لَهُ ولا أجْرَ لِمَنْ لا حَسَنَةَ لَهُ .

اللّهُمَّ اجْعَلْ في قُلوبنَا نُوْر نَهْتَـدي بِهِ إلَيْكَ وَتولَّنا بحُسْنِ رعَايَتِك حَتّى نَتوكلَ عَلَيكَ وارْزُقْنا حَلاَوَةَ التَّذلِل بَينَ يَديكَ فَالعزيزُ مَنْ لاَذَ بعزِّك والسَّعيدُ مَن الْتجَأَ إلى حِمَاكَ وَجُودِكَ والذليلُ مَنْ لَمْ تَؤيّدْهُ بعنايَتِكَ والشَّقِيُّ مَن رَضِيَ بالإعْرَاضِ عنْ طَاعَتِكَ اللهم نَزِّهْ قُلوْبَنَا عنْ التَّعلق بِمَنْ دُونَك واجْعَلْنَـا مِنْ قوم تحبُّهُمْ ويُحِبُـونَـكَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلجَمِيْعِ الْمُسْلمِينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الراحِمِينَ وصلى اللّهُ علَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

والمُؤآخاةُ في النَّاسِ عَلى وَجْهَينِ أحدُهُمَا أُخُوَّةٌ مُكْتَسَبةٌ بالاتفاقِ

الجارِي مَجْرَى الاضْطِرَارِ ، والثانيةُ مُكْتَسَبةٌ بالقَصْدِ والاختِيَارِ ، فأَمَّـا المُكْتَسَبَةُ بالاتّفَاقِ فَهِيَ أَوْكَدُ حَالاً ، لِأَنَّهَا تَنْعَقِدُ عَنْ أَسبابٍ مَوْجُودَةٍ في المُتَاخيينِ ، تَعُودُ المؤآخاةُ إلى تِلكَ الأَسْبابِ ، وهي مَوْجُودَةٌ فِطْرَةً .

فـالمؤآخـاةُ ضَرُوْرِيَّةٌ لا يُمْكِنُ دَفْعُهَا ، كَمَا لا يُمْكِنُ دفعُ الإِيلام ، والمُكْتَسَبَةُ بالقَصْدِ ، تُعقَدُ لها أَسْبابُ اختياريَّةٌ ، تَنْقَادُ إليها ، وَتَعْتَمِدُ عَلِيها بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَضَعْفِهَا ، ورُبَّما تَكُون تكلُّفـاً وَخَدِيْعَـةً ، فَتَصِيرُ المؤآخاةُ معاداة ، وما كان جارياً بالطَّبْعِ فهو أَلْزَمُ ، مِمَّا هُوَ حَادِثٌ بالقَصْدِ .

وانَّمَا كانَ كذلكَ لأَنَّ الائتلافَ بالتشاكُلِ ، والتَّوافُقِ ، والتَّشاكُلُ بالتَّجَانُسِ فإذا عُدِمَ التجانسُ مِن وَجْهٍ ، انْتَفى التشاكُلُ مِن وَجْهٍ وَمَعَ انتفاءِ التشاكلِ يُعْدَمُ الائتلافُ فَثَبَتَ أَنَّ التَّجَانُسَ ، وإِنْ تَنَوَّعَ أَصْلُ الإِخَاءِ وقاعِدَةُ الإئتلافِ .

وقد رُوِيَ عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ « الأَرْواحُ جنودٌ مجندةٌ فَمَا تَعارفَ منها ائْتَلَفَ وما تَناكَرَ مِنهَا اختَلَفَ » رواه البخاري ، فالظواهرُ التي تَبْدُو لَنَا وَنَراها في الاجْتِمَاعاتِ العامَّةِ ، مَيْلُ كُلُّ امرىءٍ إلى مَنْ يُشَاكِلُهُ وَيُنَاسِبُهُ ، رُوْحاً وَخُلُقاً ، أَوْ دِيْناً ، وَأَدباً أَوْ مَبْدأً أو مَذْهَباً أَوْ حِرْفَةً وَعَمَلاً .

قيل إن إياسـاً سافر إلى بلد فلما وصل وصادف بعض أهل البلد وجرى بينهم كلام قال إياس عَرَفنا خيارَكم مِن شراركم في يومين فقيل له كيف قال كان معنا خيارنا وشرارنا فلحق كل بشكله خيارنا لحقوا بخياركم وشرارنا لحقوا بشراركم فألِفَ كُلُّ شَكْلَه أ . هـ .

فترى المُجْتمِعِينَ بَعْدَ مُدَّةٍ وَجِيْزَةٍ مِن بَدْءِ الاجتماع ، قَدْ انْقَسَمُوا جماعـاتٍ ، تتحدَّثُ كل جماعةٍ في شُؤُونها الخَاصَّةِ ، وأُمُورِهَا المُشْتَرَكةِ ، وَتَتَغَيَّرُ نُفُوسُها إذا رأتْ دَخِيْلاً بَيْنَ جَمَاعَاتِهَا لا تَرْبطُهُ بِهِمْ صِلَةٌ ، ولا تَجْمَعُهُم بِهِ جَامِعَةٌ ، وَعِنْدَمَا تَرْكَبُ في قطارٍ ، أو سيارةٍ أو سَفِيْنَةٍ أو في مجلسٍ مِن المجالسِ ، تَرَى نَفْسَك مُنْجَذِبةً إلى بَعْضِ الحاضِرِيْنَ مُشْمَئِزَّةً ونافرةً مِن الآخَرِيْنَ ، وربَّما أنَّهُ لم يَكُنْ قَبْلَ ذلكَ اجْتِماعٌ ولا تَعارُفٌ ، ولا تَعَادٍ وتَخَاصُمٌ .

فالسِّرُّ في هَذَا ما بَيَّنَـهُ المصطفى ﷺ بهذا الحديثِ فهُو يَقُولُ إنَّ أَرْوَاحَ العِبَادِ وَنُفُوسَهمُ جُنُودٌ مُجْتَمِعَةٌ ، وجُيُوشٌ مُجَيَّشَةٌ فالتي بيْنَها تَعارفٌ وتَشَاكُلٌ وتوافُقٌ وَتَنَاسُبٌ ، يَأْلفُ بعضُها بعْضاً ، ويُسَرُّ باجتماعِهِ ، وَيَفْرَحُ لِلِقَائِهِ ، لاتِّفَاقٍ في المَبْدإِ وَتَقَارُبٍ في الرُوْحِ .

رَوَى أبو يعلى في مُسندِهِ عن عَمْرَةَ بنتِ عبدِالرحمن قالَتْ كانَتْ امرأةٌ بمكةَ مَزَّاحَةٌ ، فَنزَلَتْ على امرأةٍ مِثْلِها في المدينةِ ، فَبَلَغَ ذلك عائشةَ رضي اللَّهُ عنها فقالتْ صَدَق حِبِّي سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ الأَرْواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تعارفَ منها ائتلفَ ، وما تناكَرَ منها اختلفَ .

فالأَخْيارُ الأَبـرارُ الأَتْقِيَاءُ الأَمْجَـادُ الأَطهارُ ، إذا وُجِدُوا في مُجْتَمَعٍ جَذَبُـوا أَشبَـاهَـمَ ، أَوْ انْجَذَبُوا إِلَيْهِم ، وَسَرَى بَيْنَهُم تَيارٌ مِن المحبةِ جَمَعَ قُلُوبَهم وَقَوَّى رَوَابطَهَا وَثَبَّتَ صِلَتَهَا .

وكَذَلِكَ الأَشْرَارُ والفُجّارُ والفَسَقَةُ والظَلَمَةُ ، إذا حَضَرُوْا بنادٍ بادَرَ إِلَيهم الفَسَقَـةُ ، والمُجْـرِمُونَ ، والسُّفَّلُ ، واللؤَمَاءُ ، وَجَذَبَهُمْ قُرَنَاؤُهُم ، وَنَفَرُوْا مِمَنْ لَا يَتَخَلَّقُ بأَخلاقِهِمْ ، ولا يَسِيْرُ في رِكابهم .

قالَ ﷺ « لو أَنَّ مؤمنـاً دَخَلَ إِلى مَجْلِسٍ فيهِ مائةُ مُنَافِقٍ ، وَمُؤْمِنٌ وَاحِدٌ ، لَجَاءَ حَتَّى يَجْلِسَ إِليه ، وَلَوْ أَنَّ مُنافقاً دَخَلَ إلى مجلسٍ فيه مَائةُ

مُؤمنٍ ، ومنافقٌ واحدٌ ، لَجَاء حتى يَجْلِسَ إليهِ .

وهذا يدلُّ على أنَّ شِبْهَ الشيءِ مُنْجَذِبٌ إليه بالطبْعِ ، وإن كانَ هُوَ لا يَشْعُرَ بهِ ، وكانَ مالكُ بنُ دينارٍ يقولُ « لا يَتَّفقُ إثنانِ في عِشْرةٍ إلا وفي أَحَدِهِمَا وَصْفٌ عن الآخَرِ ، وانّ أَجناسَ الناسِ كأجناسِ الطيرِ ولا يتفقُ نوعانِ مِن الطيرِ في الطيرانِ إلا وبينهُمَا مُناسَبةٌ » .

قال فَرَأى يوماً غراباً مَعَ حَمامةٍ فَعَجبَ مِنْ ذَلِكَ فقالَ اتَّفَقَا وَلَيْسَا مِن شَكْلٍ واحِدٍ ، ثُمَّ طَارَا فإذا هُمَا أَعْرَجانِ فَقالَ مِنْ هَاهُنا اتَّفَقَا ، وقَالَ بَعضُ الحكماءِ كلُّ انسانٍ إلى شَكْلِهِ كَمَا أَنَّ كُلَّ طَيرٍ يَطِيْرُ مَعَ جِنْسِهِ قال بعضهم :

(لِكــلِّ امــرىءٍ شَــكْلٌ يَقَــرُ بعَينِهِ
وقرةُ عينِ الفَسْلِ أنْ يَصْحَبَ الفَسْلاَ)

ويقول الآخـر :

فَـلاَ تَحْتَقِـر نَفْسِـي وَأَنْـتَ خَـلِيْلُهَـا
فكـلُّ امــرىءٍ يَصْبُـو إلى مَنْ يُشَـاكِـلُ

آخـــر :

ولَيْـس أَخُـوكَ الـدائم العَهـدِ بالـذي
يَـذُمُّـكَ إنْ وَلَّـى ويُرْضِـيْك مُقـبْلاَ
ولـكـنَّـهُ النـائـي إذا كُـنْتَ آمِـنًـا
وصَـاحِبُـكَ الأدنَـى إذَا الأمْـر مُعْضِـلاَ

آخـــر :

ليـس الصـديـقُ الذي يلقـاكَ مُبْتَسِمًا
ولا الـذي بالـتَّهـاني والسـرُورِ يُـرَى
إنَّ الصــديـقُ الـذي يـولـي نصيحته
وإنْ عَـرَتْ شِـدَّةٌ أغْـنَـى بمـا قـدرا

آخر :

وقُـلْتُ أخِـي قَـالُـوا أَخٌ مِـن قَـرَابَـةٍ
فَـقُلْتُ لـهُـمْ إِنَّ الـشُّـكُـولَ أقَـاربُ

نَـسِـيْـبِـيَ فِـي رَأْيٍ وعَـزْمِـي وَهِـمَّـتِـي
وإنْ فَـرقَتْنَـا فِي الأُصُـوْلِ المَـنَـاسِبُ

واذا عَرَفْتَ رِجالاً بالبِرِّ والتُّقى والاسْتقامة ونَفَرتْ منْهُم نَفْسُك ونَبَا عنهم قلبُك ، فاعْلَمْ أنكَ مَرِيضٌ ، إمَّا مَرَضُ شُبْهَةٍ وإلا مَرَضُ شَهْوَةٍ ، وأنَّك نَاقِصٌ مَعِيبٌ ، دُوْنَهُمْ في الطهَارةِ ، فَدَاوِ نفسَك مِن عُيوبِها ، وَطَهِّرْهَا مِن أوْزَارِهَا حَتَّى تَتقَارَبَ الأَرْوَاحُ وَتَتشَاكلَ النُّفوسُ ، فَتَحُلَّ الإلْفَةُ مَحلَّ النُّفْرَةِ .

وإذا رَأيْتَ نَفْسَكَ تَمِيْلُ إلى مَنْ تَعْرِفُهُمْ بالشَّر والفُجُورِ ، والفِسْق والخَلاَعَةِ والعُهْرِ فإتِهِمْ نَفْسَكَ واسْتَدْرِكْ عُمَرَكَ ، قَبْلَ الفَوْتِ ، وابْتَعِدْ عنهم كُلَّ البُعْدِ ، وتُبْ إلى اللهِ واسأَلْهُ أَنْ يُعافِيَكَ ، مِمَّا ابْتَلاهُمْ .

وإذا رَأيْتَ نَفْسَكَ تُحدِّثُكَ بأنَّكَ البَرُّ الأَمِيْنُ التَّقِيُّ المُخْلَصُ أو الإنسانُ المُهَذَّبُ ، فَكَذِّبْ نَفْسَكَ في هذا الإعْجَابِ ، وفي هذا الوَهْم الكاذِبِ ، واعْتَقِدْ أنكَ غِرٌّ مَخْدُوعٌ ، وأَبْلَهُ مَفْتُونٌ ، فَفَتِّشْ في زَوَايَا قَلْبِكَ ، تَجدْ لِلْبَاطِلِ رُكْناً ، وَلِلْشَّيطانِ حَظاً ، وَلِلْفَسَادِ جَوّاً وهذَا مَا جَذَبَ قَلْبَكَ إلى الأشْرَارِ .

واذا رَأَيْتَكَ تَمِيْلُ إلى الأخيارِ ، وَتُحِبُ مَجَالِسَهُمْ ، وَتَنْجَذِبُ نَفْسُكَ إليْهِمْ ، مَعَ عِلْمِكَ بِسُوْءِ سِيْرَتِكَ واعْوجَاجِ طَرِيْقَتِكَ ، فاعْلَمْ أَنَّ فِيْكَ

بَقِيَّةَ خَيْرٍ ، ولا يَزَالُ فِيْكَ أملٌ فَرَبِّ هذهِ البَقيَّةَ وَقَوِّ هَذَا الأَمَلَ ، حتى يَرْحَلَ عنكَ الشَّرُّ ، وَتَدْخُلَ في حِزْبِ الخيرِ .

وكذلكَ إذا رَأَيتَ في نَفْسِكَ بَعْضَ المَيْلِ للمُجـرِمِيْنَ ، وَأَنْتَ طَاهِرٌ تَقِيٌّ نَقِيٌّ ، فاعْرِفْ أَنَّ الشَّيطانَ قَدْ نَفَثَ فِيْكَ نَفْثَةً ، وثَغَرَ في قَلْبِكَ ثُغْرَةً ، فَتَدَارَكْ أَمْرَكَ وتَحصَّنْ منه واسْتَعِذْ باللهِ قال اللهُ تعالى لِنبيهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ﴿ وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فاستعِذْ باللهِ ﴾ الآية ، وقالَ ﴿ قُلْ أَعُوْذُ بِرَبِّ الفَلَقِ ﴾ الى آخرِ السورةِ أهـ من الادبِ النبوي .

وعن أَبِي ذَرٍّ أَنَّهُ قَالَ : الصَّاحِبُ ، الْخَيِّرُ خَيْرٌ مِنَ الوَحدةِ والوَحْدَةُ خيرٌ من جَلِيس السُّوءِ وَمُمْلِي الخَيرَ خيرٌ مِن الساكِتِ والسَّاكِتُ خيرٌ مِن مُمْلِي الشَّرِّ والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(فَصْــلٌ)

قال بعضُ الحُكَمَاءِ عَداوةُ العاقل أَقلُّ ضَرراً مِن مَودَّةِ الأَحْمَقِ لأَنَّ الأَحْمَقِ رُبَّمَا ضَرَّ وهو يَقْدِرُ أَنْ يَنْفَعَ لِعَدَمِ تَمْيِيْزِهِ بَيْنَ النفعِ والضَّرِ فَيَتَجَاوَزُ الحدَّ ، والعَاقِلُ لا يَتَجَاوَزُ الحَدَّ في مَضَرَّتِهِ فَمَضَرَّتُهُ لَها حَدٌّ يَقِفُ عليهِ العَقْلُ إذا انْتَهَى إلى ذلكَ الحدِّ .

وَمَضرةُ الجَاهِلِ لَيْسَتْ بِذَاتِ حَدٍّ والمَحْدُوْدُ أَقلُّ ضَرَراً مِمَّا هُوَ غَيرُ مَحْدُوْدٍ قَالَ بعضهم :

وَلأَ أَنْ يُعَـادِيَ عَـاقِــلاً خَيـرٌ لَــهُ
مِـن أَنْ يـَكُــونَ لَــهُ صَــدِيْـقٌ أَحْـمَــقُ

فـارْغَبْ بِنَفْسِكَ أنْ تُصَادِقَ جَـاهِـلاً
إنَّ الـصَّـدِيْقَ عـلى الصَّـدِيْـقِ مُصَـدَّقُ

وقال بعضُ الأُدَبَاءِ مَن أشارَ عليكَ بِمُصَاحبةِ جَاهِلٍ لَمْ يَخْلُ مِنْ أمْرَيْن إمَّا أَنْ يكونَ صَدِيقاً جاهلاً ، مَا يَعْرفُ ولا يُمَيِّزُ بَيْنَ مَن يَصلحُ لِلصُّحْبَةِ وَمَنْ لا يَصْلُحُ وإمَّا أنْ يكونَ هذا المُشِيرُ عليكَ عدواً لكنَّهُ عاقلٌ لِأنه يُشِيْرُ بما يَضُرّكَ وَيَحْتَالُ عليكَ بالأشياءِ الَّتِي تَضُرّكَ ، وقديماً قيل :

ولا تَصْحَبِ الحَمْقَى فَذُو الجَهْلِ إنْ يَرُمْ
صـلاحـاً لأمْـرٍ يَـا أخَـا الحَـزْمِ يُفْسِـدِ

ويقول الآخر :

فَـعَـدَاوَةٌ مِـنْ عـاقـلٍ مُـتَـجَـمِّـلٍ
أوْلـى وأَسْـلَمُ مِـن صَـدَاقَـةِ أَحْـمَـق

وقال بعضُهمْ الأَصْدِقَاءُ ثلاثةٌ أَحدُهم كالغذَاءِ لا بُدَّ مِنْهُ ، والثاني كالدَّواءِ يُحتاجُ إليهِ في وَقْتٍ دُوْنَ وَقْتٍ . والثالثُ كالدَّاءِ لا يُحْتَاجُ إليهِ قَطّ ، وقد قِيلَ مَثَلُ جُمْلَةِ الناسِ كَمَثَلِ الشَّجرِ والنَّباتِ فمِنْها مالَهُ ظلٌّ وَلَيْسَ له ثَمَرٌ وهو مِثْل الذي يُنْتَفعُ به في الدُّنيا دُوْنَ الآخِرَةِ ، فإنَّ نَفْعَ الدنيا كالظلِ السَّرِيعِ الزَّوَالِ. وَمِنْهَا مَالَهُ ثَمَرٌ ولَيْسَ له ظلٌّ .

وَمِنْهَا ما لَيْسَ له واحدٌ منهُمَا كأُمِّ غَيْلان تُمزِّقُ الثيابَ ولا طَعْمَ فيها ولا شَرَابٍ ومثلهُ مِنَ الحَيَوانِ الحيةُ والْعَقْرَبُ والفَأْرُ ومثلهُ في النَّباتِ الخُنَيْزُ فإنه يُضَيِّقُ على الزَّرْعِ وَيَضُر مَنْ لَمِسَهُ ولا يُؤْكلُ ولا لَهُ ثَمَرٌ يؤكلُ وَيَشْرَبُ ماءَ الزَّرْعِ وَيُعَوِّقُ نُمو الزَّرْعِ .

النَاسُ شَتَّى إذَا مَاأنْتَ ذُقْتَهُمُ ... لاَ يَسْتَوُوْنَ كَمَا لاَ يَسْتَوِي الشَّجَرُ
هَـذَا لَهُ ثَمَـرٌ حُـلْوٌ مَذَاقَتُـهُ ... وذَاكَ لَيْسَ لَـهُ طَعْـمٌ ولا ثَمَرُ

اذا فَهِمْتَ تفاوتَ النَّاسِ في العَقْلِ والدِّيْن فعليكَ قَبْلَ الصَّدَاقَةِ أَنْ تَفْحَصَ عَنْ مَنْ تُرِيْدُ صَدَاقَتَـهُ وإخَاءَه فإذَا حَصَّلْتَ على مَنْ تَرْضَاهُ ديناً وَعَقْلاً وأَدَباً فإلزَمْهُ ، كَمَا قِيل :

أَبْـلِ الرجَـالَ إذا أَرَدْتَ إخَـاءَهُـم ... وتَـوَسَّـمَنَّ أُمُـوْرَهُـم وتَفَقَّـدِ
فاذا ظَفْـرْتَ بـذِي الأمـانَةِ والتُقى ... فَبِـهِ اليَـدَيْـنِ قرِيْـرَ عَـيْنٍ فاشْـدُدِ

آخـر :

لاتَمْدَحَنَّ امْرأً حَتَّى تُجَرِّبَهُ ... ولا تَذُمَنَّهُ مِن غَير تَجْـرِيْبِ
فإنَّ حَمْدَكَ مَن لَمْ تَبْلُهُ سَرَفٌ ... وإنَّ ذَمَّكَ بَعْدَ الحَمْدِ تَكذِيْبُ

آخـر :

جَامِلْ أخـاكَ إذا اسْتَرَبْتَ بـودّهِ ... وانَظُـرْ بـهِ عُقْبىَ الـزَّمـانِ يُعَـاوِدُ
فـإنْ اسْـتَمَرَّ على الفَسَـادَ فَخَـلِهِ ... فالعُضْوُ يُقْطَـعُ لِلْفسَـادِ الـزائِدِ

وقال ابن القيم رحمه الله ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة . ويجعل الناس فيها أربعة أقسام : متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر .

أحداها : من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ، ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام . وهـذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر وهم العلماء بالله وأمره ، ومكايد عدوه ، وأمراض القلب وأدويتها الناصحون لله ولرسوله ولخلقه . فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كل الربح .

القسم الثـاني : من مخالطته كالدواء ، يحتاج إليه عند المرض فما دمت صحيحـاً فلا حاجـة لك في خلطتـه ، وهم من لا يستغنى عن

مخالطتهم في مصلحة المعاش ، وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من . القسم الثالث : وهم من مخالطتهم كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه .

فمنهم من مخالطته كالداء العضال ، والمرض المزمن ، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا ، ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما ، فهذا إذا تمكنت منك مخالطته واتصلت ، فهي مرض الموت المخوف .

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس ، يشتد ضربه عليك ، فإذا فارقك سكن الألم .

ومنهم من مخالطته حمى الروح ، وهو الثقيل البغيض ، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ولا يعرف نفسه فيضعها منزلتها ، بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين ، مع إعجابه بكلامه وفرحه به .

فهو يحدث من فيه كلما تحدث ، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس ، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض ويذكر عن الشافعي رحمه الله أنه قال : ما جلس إلى جانبي ثُقِيل إلا وجدتُ الجانبَ الذي يليه أنزلَ مِن الجانب الآخر .

قال بعضُهُم :

يا مَن تَبَرَّمَتِ الدنيا بطَلْعَتِهِ كَمَا تَبَرَّمَتِ الأَجْفَانُ بالسُّهُدِ
يَمْشِي على الأرضِ مُخْتَالاً فأَحْسِبُه لثِقْلِ طلعتِهِ يَمْشِي على كَبِدِي

وقال ابن القيم :

ورَأَيْتُ يوماً عند شيخنا قدس الله روحه رجلاً مِن هذا الضرب ،

والشيخ يحمله ، وقد ضعفت القوى عن حمله ، فالتفت إليَّ وقال : مجالسة الثقيل حمى الربع ، ثم قال : لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى ، فصارت لها عادة أو كما قال :

قال بعضهم :

ما حِيلَتِي في ثَقِيلٍ قد بُلِيتِ به ... مِن قُبْحِ طَلْعَتِهِ يُسْتَحْسَنُ الرَّمَدُ
قد زاد في الثِقْلِ حَتَّى ما يُقَارِبُه ... في ثِقْلِهِ أَحَدٌ حَتَّى ولا أُحُدُ

ومرض الشعبي فعاده ثقيل فأطال الجلوس ثم قال للشعبي ما أَشدَّ مَا مَرَّ بِكَ في مَرضِكَ قال قُعُوْدُكَ عندي .

ومَرَّ به صَدِيقٌ له وهُوَ بَيْنَ ثقيْلَين فقال له كيفَ الروح فقالَ في النَّزْع يعني في شدة عظيمة .

وبالجملة : فمخالطة كل مخالف حمى للروح ، فعرضية ولازمة .

ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلي بواحد من هذا الضرب ، وليس له بُدٌّ من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف ، حتى يجعل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً .

القسم الرابع : من مخالطته الهلك كله ومخالطته بمنزلة أكل السم ، فإن اتفق لآكله ترياق ، وإلا فأحسن الله فيه العزاء ، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثرهم الله .

وهم أهل البدع والضلالة ، الصادون عن سنة رسول الله ﷺ الداعون إلى خلافها ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، فيجعلون البدعة سنة ، والسنة بدعة ، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً .

إن جردت التوحيد بينهم قالوا : تنقصت جناب الأولياء والصالحين .

وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا : أهدرت الأئمة المتبوعين .

وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا : أنت من المشبهين .

وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر قالوا : أنت من المفتونين .

وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا : أنت من أهل البدع المضلين .

وإن انقطعت إلى الله تعالى ، وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا ، قالوا : أنت من الملبسين .

وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين .

فالحزم كل الحزم : التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم ، وأن لا تشتغل بأعتباهم ، ولا باستعتابهم ، ولا تبالي بذمهم ولا بغضهم فإنه عين كمالك كما قال :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني فاضل

وقال آخر :

وقد زادني حباً لنفسي أنني بغيض إلى كل امريء غير طائل

فمن أيقظ بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التي هي أصل بلاء العالم .

وهي : فضول النظر : والكلام ، والطعام ، والمخالطة واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التي تحرزه من الشيطان فقد أخذ بنصيبه من

التـوفيق . وسـد عن نفسـه أبواب جهنم ، وفتح عليها أبواب الرحمة ، وانغمر ظاهره وباطنه .

ويوشك أن يحمد عند المهات عاقبة هذا الدواء ، فعند المهات يحمد القوم التقي . وفي الصباح يحمد القوم السرى ، والله الموفق لا رب غيره ولا إله سواه . أ هـ .

اللهُم يا عالمَ الخَفياتِ وَيَا سَامعَ الأَصْواتِ ويَا بَاعِثَ الأَمْواتِ وَيَا مُجِيْبَ الدَعَوَاتِ وَيَا قَاضِيَ الحَاجَاتِ يَا خَالقَ الأرضِ والسَّمواتِ أَنْتَ اللَّهُ الاَحدُ الصمدُ الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يولَدْ ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَد الوَهَّابُ الذي لا يَبْخَلُ والحَليمُ الذي لا يَعْجَلُ لا رادَّ لامْركَ ولا مُعَقِّبَ لِحُكَمِكَ نَسْأَلكَ أنْ تغفرَ ذنوبَنَا وَتُنورَ قلوبنَا وَتُثَبِّتَ مَحَبَّتَكَ في قُلوبِنَا وَتُسْكِنَنَا دَارَ كَرَامَتِكَ إنك عَلَى كُلِ شَيْءٍ قَدِير وَصَلَّى على محمدٍ وآلِه وَصَحْبِه أَجْمَعِيْنَ .

مــوعظــة

عِبَادَ اللهِ لا شَيء أَغْلى عَليكُمْ مِن أَعمارِكُمْ وَأَنْتُم تُضَيّعُونَهَا فيما لا فَائِدَةَ فيه . وَلَا عَدُوٌ أعدَى لَكُمْ مِنْ إبْلِيْسَ وَأَنْتُم تُطِيْعُونَهُ ، ولا أَضَرَّ عَليكُمْ مِن مُوافَقَةِ النَّفْسِ الامَّارَةِ بالسُّوءِ وأَنْتُم تُصَادِقُونَهَا ، لَقَدْ مَضَى مِن أعمارِكُمْ الاطَايِبُ ، فما بَقِيَ بعد شَيْبِ الذوائِبِ .

يا حاضِرَ الجسم والقلبُ غائبٌ ، اجتماعُ العَيْبِ مَعَ الشَّيبِ مِن أعظَم المَصَائِب ، يَمْضِي زَمَنُ الصِّبَا في لَعِبٍ وسَهْوٍ وَغَفْلَةٍ ، يا لَهَا مِن مَصَائِب ، كَفَى زاجراً واعظاً تشَيْبُ منه الذَوَائِب ، يا غافلاً فاتَه الأَرْبَاحُ وَأَفْضَلُ المَنَاقِبِ ، أَيْنَ البُكاءُ والحَزَنُ والقلقُ لِخوفِ العظيمِ الطالبِ أَيْنَ الزَّمَانُ الذي فَرَّطْتَ فيهِ ولمْ تخشَ العَواقِبَ ، أَيْنَ البُكَاء دَماً عَلى أَوقَات قُتِلَتْ عندَ التَّلَفِزْيُون والمِذياع والكُرَةِ والسِيْنَماءِ والفيديُو والخَمْرِ والدُّخَانِ والمَلاعِبْ واللعب بالورق والقيل والقال .

كَمْ في يوم الحَسْرةِ والنَّدامَةِ مِن دَمْعٍ سَاكِبْ على ذُنُوبٍ قَد حَوَاها

كِتابُ الكَاتِبْ ، مَنْ لَكَ يَومَ يَنْكَشِفُ عَنْكَ غِطَاؤكَ في مَوقِفِ المُحَاسِبْ ، إذا قيلَ لَكَ مَا صَنَعْتَ في كُلِّ وَاجِبْ ، كَيْفَ تَرْجُو النجاة وأنتَ تَلْهُوْ بِأَسْرِ المَلاَعِبْ ، لقد ضَيَّعتكَ الأَمَاني بالظن الكاذِب ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الموتَ صَعْبٌ شَديْدُ المَشَارِبْ ، يُلْقِي شَرُّهُ بكأسِ صُدُوْرِ الكَتائِبْ ، وأَنَّهُ لا مَفَرَّ مِنْهُ لِهَارِبْ فانظرْ لِنَفْسِكَ واتَّقِ اللهَ أَنْ تَبْقَى سَلِيْماً مِن النَّوائِبِ فقدْ بَنَيْتَ كَنَسجِ العنكبوتِ بَيْتاً أَيْنَ الذينَ عَلَوا فوقَ السُّفنِ والمراكِبِ أينَ الذينَ عَلَوْ على مُتونِ النجائِبِ ، هَجَمت عليهِمْ المنايَا فأصبحوا تَحْتَ النصَائِبْ وأنتَ في أَثَرِهِمْ عن قريبٍ عَاطِب ، فانظرْ وَتَفَكَّرْ واعْتَبِرْ وَتَدَبَّرْ قبلَ هُجُومِ مَن لا يَمنعُ عنه حَرَسٌ ولا بابٌ ولا يَفوتُهُ هَرَبُ هارِب .

شعراً :

وكيفَ قَرَّتْ لِأَهْلِ العِلم أَعْيُنُهُمْ
أَوْ اسْتَلَذّوا لَذيذَ النَومِ أَو هَجَعوا

والموتُ يُنْذِرُهُم جَهْراً علانيةً
لَوْ كانَ لِلقومِ أَسْمَاعٌ لَقد سَمِعُوا

والنارُ ضاحِيَةٌ لا بُدَّ مَوْرِدُهُمْ
وليسَ يَدْرُونَ مَن يَنْجُو وَمَنْ يَقَعُ

قَدْ أَمْسَتْ الطيرُ والأنعامُ آمِنةً
والنّونُ في البَحرِ لا يُخْشَى لهَا فَزَعُ

والآدَمِيُّ بهذَا الكَسْبِ مُرْتَهَنٌ
لهُ رَقيبٌ على الأَسْرارِ يَطَّلِعُ

حَتَّى يُرَى فِيه يومَ الجَمْعِ مُنْفَرِداً
وَخَصْمُهُ الجِلْدُ والأَبْصَارُ والسَّمَعُ

واذْ يَقُومُونَ والأشهادُ قائِمةٌ
والجنُّ والإنسُ والأملاكُ قد خَشعُوا

وطارتْ الصُّحْفُ في الأَيْدِي مُنْشَّرَةً
فيها السَّرائرُ والأخْبَارُ تُطَّلَعُ

فكيفَ بالنّاسِ والأنباءُ واقعَةٌ
عَمَّا قَليلٍ وَمَا تَدْرِي بِمَا تَقَعُ

أَفِي الجِنَانِ وَفَوزٍ لا انقطاعَ لَهُ
أمْ في الجَحِيمِ فلا تُبْقِي ولا تَدَعُ

تَهْوِيْ بُسُكَّانِهَا طَوْراً وَتَرْفَعُهُمْ
إذا رَجَوْا مَخْرَجاً مِنْ غَمِّهَا قُمِعُوا

طَالَ البُكاءُ فَلَم يَنْفَعْ تَضرُّعُهُم
هَيْهَاتَ لا رِقَّةٌ تُغْنِي ولاَ جَزَعُ

اللهم ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا وَنَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُورِ الإيمانِ واجعلنا هُدَاةً مُهْتَدِيْن وآتِنا في الدُّنيا حَسَنةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عذَابَ النارِ واغْفِرْ لَنَا ولوالدينا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

وقالَ ابنُ القَيّم أصْلُ الخَيرِ والشَّرِ مِن قبلِ الفِكْرِ ، فَإِنَّ الفكرَ مَبْدأُ الإرادَةِ والطَّلَبِ في الزُهْدِ ، والتّرْكِ ، والحُبِ والبُغضِ وَأَنْفَعُ الفِكْرِ في مَصَالِحِ المَعَادِ وفي طُرُقِ اجتلابها ، وفي دَفْعِ مَفَاسِدِ المعادِ وفي طُرُقِ اجْتِنَابِهَا ، فَهَذِهِ أربعةُ أفكارٍ ، هِي أَجَلُّ الأفكارِ ، وَيَليها أربعةٌ ، فِكرٌ في مَصَالِحِ الدّنيا وَطُرُقِ تَحصيلِها وفكْرٌ في مَفَاسِدِ الدنيا وطرق الاحْتِرَازِ منها فَعَلى هذِهِ الأقسامِ الثَّمانيةِ دارت أفكارُ العُقلاءِ .

وَرَأْسُ القِسْمِ الأولِ ، الفِكْرُ في آلاءِ اللهِ وَنِعَمِهِ وأَمْرِه وَنَهْيِهِ وَطُرُقِ العِلْمِ بِهِ ، وبأَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ مِن كتَابِهِ وَسُنّةِ نَبيِّهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم وَمَا وَالاهُمَا ، وَهَذَا الفِكْرُ يُثْمِرُ لِصَاحِبِهِ المَحَبَّةَ ، والمَعْرِفَةَ ، فإِذَا فَكَّرَ في الآخرةِ وَشَرَفِهَا ، وَدَوامِهَا وفي الدنيا وَخِسَّتِهاَ وفَنَائِها أثمَرَ لَه ذلكَ الرَّغْبَةَ في الآخرةِ والزهْدَ في الدنيا .

وكلَّمَا فكَّرَ في قِصَرِ الأمَلِ : وضِيْقِ الوَقْتِ ، أَوْرَثَه ذلك الجِدَّ والاجْتِهَادَ ، وَبَذْلَ الوُسْعِ في اغتنَامِ الوَقْتِ .

وهذه الأفكارُ تَعْلِي هِمتَه ، وَتُحْيِيْهَا بَعْدَ مَوتِهَا وَسُفُولِهَا وَتَجْعَلَهُ في وادٍ والناسُ في وادٍ

وبإِزَاءِ هذِه الأَفْكارِ الرَّدِيْئَةِ ، الّتِي تَجُولُ في قُلُوبِ أَكْثَرِ هذا

الخَلْقِ ، كالفِكْرِ فِيما يُكلِّفُ الفِكْرُ فِيه ، ولا أُعْطِيَ الاحاطَةَ بهِ مِن فُضُولِ العِلْمِ الذي لا يَنْفَعُ ، كالفِكْرِ في كَيفيةِ ذاتِ اللهِ وصفاتِهِ مما لا سَبِيْلَ لِلْعُقولِ إلى إِدْرَاكِهِ بِهِ .

ومنها الفِكرُ في الصِّنَاعاتِ الدَّقِيْقَةِ التي لا تَنْفَعُ بل تَضُرُّ ، كالفِكْرِ في الشِّطْرَنْجِ والمُوْسِيْقَىٰ وَأَنواع الأشْكالِ ، والتَّصاوِيْرِ .

ومِنْهَا الفِكْرُ في العُلُومِ التي لَوْ كَانَتْ صَحِيْحَةً لَمْ يُعْطِي الفِكرُ فيهَا النَّفْسَ كَمَالاً ولا شَرَفاً كالفِكْرِ في دَقَائِقِ المَنْطِق ، والعِلْمِ الرِّياضِي ، والطَّبِيْعِي ، وأَكْثرِ علوم الفلاسِفَةِ التي لَو بَلَغَ الانسانُ غايتَهَا لَمْ يَكْمُلْ بِذَلِكَ ، ولم يُزَكِ نَفْسَهُ .

ومنها الفكر في الشَّهَواتِ ، واللّذاتِ وطُرُقِ تَحصيلِهَا ، وهَذَا وإنْ كانَ للنَّفْسِ فيهِ لذةٌ لكِنْ لا عاقِبَة له ومضَرَّتُه في عَاقِبَةِ الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ أَضْعَافُ مَسَرَّتِهِ .

ومنها الفِكْرُ فِيْمَا لَمْ يَكُنْ لو كانَ كَيْفَ كَانَ كالفِكْرِ فِيْمَا إذا صَارَ مَلِكاً أَوْ وَجَدَ كَنْزاً أو مَلَكَ ضَيْعَةً مَاذَا يَصْنَعُ وَكَيْفَ يَتَصَرَّفُ ، وَيَأْخذُ وَيُعْطِي وَيَنْتَقِمُ ونحوَ ذلكَ مِن أَفْكارِ السُّفَلِ .

ومنها الفِكْرُ في جُزْئياتِ أحوالِ الناسِ ، وَمَاجرِيَّاتِهِمْ ، وَمَدَاخِلِهِمْ وَمَخَارِجِهِمْ ، وَتَوَابِعِ ذَلِكَ مِن فكر النُّفُوسِ المُبْطِلَةِ الفَارِغَةِ ، مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ والدَارِ الآخرةِ .

ومنها الفكرُ في دَقَائِقِ الحِيَلِ ، والمَكْرِ ، التّي يَتَوصَّلَ بِهَا إلى أَغْرَاضِهِ وَهَوَاهُ مُبَاحَةً كانَتْ أَو مُحَرَّمَةً .

وَمِنْهَا الفكْرُ في أَنْواعِ الشِّعْرِ ، وصُروفِهِ وَأَفَانِيْنِه في المدْح والهِجَاءِ والغَزَلِ والمَراثِي وَنَحْوِهَا ، فإِنَّه يَشْغَلُ الإِنْسَانَ عن الفِكْرِ فِيْمَا فِيْهِ سَعَادَتُهُ وَحَيَاتهُ الدَّائِمَةُ .

ومنهَا الفكرُ في المُقَدَّرَاتِ الذِّهْنِيَةِ ، الْتي لا وُجُودَ لَهَا في الخارِجِ ولا بالنّاسِ حاجةٌ إِليها البتَةَ ، وذلك موجودٌ في كُلّ علمٍ حَتَّى في عِلْمِ الفِقْهِ والأُصُولِ والطِّبِّ ، فكلُّ هذهِ الأفكارِ مَضَرَّتُها أَرْجَحُ مِن مَنْفَعَتِهَا وَيَكْفِي في مَضَرَّتِهَا شُغْلُها عن الفِكْرِ فيما هُوَ أَوْلَى بِهِ ، وأعودُ عَليهِ بالنفعِ عاجلاً وآجلاً أهـ .

شـعراً :

يَا غافلاً عنْ صُروفِ الدَّهْرِ في سِنَةٍ
والدَهْرُ يُوقِظُ بالآياتِ والعِبَرِ
كَمْ ذا تَنَامُ وَعَيْنُ الدَّهْرِ سَاهِرَةٌ
لَهُ حَوَادِثُ في الغُدْوَاتِ والبُكَرِ
لا تَأْمن الدَّهْرَ واحذَرْ مِن تَقَلُّبِهِ
فَشِيْمَةُ الدَّهْرِ شَوْبُ الصَّفْوِ بالكَدَرِ
وارغَبْ بِنَفْسِكَ عَمَّا سَوفَ تُدْرِكُه
فِعْلَ اللبِيْبِ أخِي التَّحْقِيقِ والنَّظَرِ
ماذَا يَغُرُّكَ مِن دارِ الفَنَاءِ ومِنْ
عُمْرٍ يَمُرُّ كَمِثْلِ اللَّمْحِ بالبَصَرِ
فامْهَدْ لِنَفْسِكَ فالساعاتُ فَانِيَةٌ
والعُمْرُ مُنْتَقِصٌ والمَوْتُ في الأَثَرِ

اللهم أَعِذْنَا مِن الهَمِّ والحَزَنِ والعَجْزِ والكَسَلِ والجُبْنِ والبُخْلِ وضِلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا ، ولِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمين وصَلَّى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

اعلم وفقنَا اللهُ واياكَ وَجميعَ المُسلمينَ أَنَّ الحُبَّ في اللَّهِ والبُغْضَ في الله ، أَصْلٌ عَظِيْمٌ مِن أُصُولِ الإِيْمَانِ يَجِبُ مُرَاعَاتُه ولهذا جَاءَ في الحَدِيثِ (أَوْثَقُ عُرَى الإِيْمَان الحُبُّ في الله والبُغْضُ في الله) ، وأَكْثَرَ اللهُ مِن ذِكْرِهِ في القرآنِ قالَ الله تعالى ﴿ لَا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِ المُؤْمِنِيْنَ ﴾ .

فالمعنَى أَنَّ لَكم أَيُّهَا المؤمِنُونَ في مُوالاتِ المُؤْمِنينَ مَنْدُوْحَةٌ عن مُوالاتِ الكفَّارِ ، فَلا تُؤْثِر وهُمْ عليهِمْ ، وقولُهُ ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ في شَيءٍ ﴾ المعنى وَمَنْ يَتولاَّهُمْ فَهو بَرِيءٌ مِن اللهِ واللهُ بَرِيءٌ منه كَقولِهِ تَعَالى ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وقوله ﴿ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُم تُقَاةً ﴾ أي إلا أَنْ تَخَافُوا عَلَى أَنْفسِكُمْ في إبداءِ العدَاوةِ للكافِرينَ ، فَلَكم في هَذِهِ الحال الرُّخْصةُ في المُسَالَمَةِ والمهَادَنَةِ ، ولا في التَّوَلِّي الذي هُوَ مَحبَّةُ القَلْبِ الذي تَتْبَعُهُ النُّصْرةُ ، بلْ يكونُ القلبُ مُطْمَئِناً بالعَدَاوةِ ، والبَغْضاءِ ، يَنتظِرُ زَوَالَ المَانِعِ .

وقال اللهُ تَعَالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُوْنِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَا لأودّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي

صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ، هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبّونَهُم وَلاَ يُحِبّونَكُمْ وَتُؤْمنونَ بالكتاب كله واذا لَقوكم قالُوا آمنا ، واذا خلَوا عَضُوا عليكم الأنامِلَ مِن الغَيظِ قلْ مُوتوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيْمُ بِذاتِ الصُّدورِ ، إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وان تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌيَفْرَحُوا بِهَا ﴾ الآية .

ففي هذهِ الآياتِ تحذِيرٌ مِنَ اللهِ لِعِبَادِهِ المؤمنينَ عَنْ وِلايَةِ الكفّارِ واتِّخاذِهِم بطانَةَ أَوْ خَصِيْصَةً وأَصدِقاءَ ، يُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ ، وَيُفْضُونَ لهم بِأَسْرارِ المؤمنينَ ، فَوَضَّحَ لِعِبَادِهِ المؤمنينَ الأُمورَ الْمُوْجِبَةَ لِلْبَرَاءَةِ مِنْ اتِّخَاذِهِمْ بطانَةً ، أَوّلاً أَنَّهم لا يُقَصِّرُونَ في مَضَرَّةِ المؤمنين ، وإِفْسادِ الأمرِ على المؤمنِينَ مَا استطاعُوا إِلى ذلك سبيلاً .

ثانياً : مَحَبَّتُهم ما شَقَّ عَلى المؤمنينَ ، وَتَمَنِّيْهِمْ ضرَرَ المؤمنينَ في دُنْيَاهُمْ وَدِيْنِهِمْ .

ثالثاً : أَنَّهم يُبْدونَ العَدَاوةَ والبَغْضَـاءَ في كَلامِهِمْ وفي فَلَتَـاتِ أَلْسِنَتِهِمْ .

رابعاً : أَنَّ ما تُخْفِيْهِ صُدُورُهُمْ مِنَ البَغْضَاءِ والعَدَاوةِ أَكْبَرُ مِمَّا ظَهَرَ لكمُ مِنْ أَقْوالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ، ثُم ذَكَرَ نوعاً آخرَ مِن التَّحْذِيْرِ عن مُخالَطةِ الكافِرِينَ واتِّخَاذِهِمْ بِطَانَةً .

وفيهِ تَنبيهٌ على خَطَئِهِمْ في ذلكَ وقدْ ضَمَّنَهُ أُموراً ثلاثاً كلٌّ منها يَسْتَدْعِي الكَفَّ عن مُخالَطَةِ الكُفّارِ ، أَوّلاً أنكُم تُحِبونَهم ولا يُحِبونَكم ، ثانياً أَنّكُمْ تُؤمنونَ بالكِتَابِ كُلِّهِ مَا نَزَلَ عَلى نَبِيِّكُم ومَا نَزَلَ على نَبِيِّهِمْ ،

ثالثاً أنَّهم يُدَاهِنُونَكم وَيُنَافقوْنَكمْ فإذا لَقوكُمْ قالوا آمَنَا وإذا خلَوْا مَعَ بَني جِنْسِهِمْ عَضّو عليكُم الأنامِلَ مِن الغَيظِ والبُغْضِ .

وانَّما فَعَلُوا ذَلِكَ لِمَا رَأَوْا مِن ائْتِلافِ المُسْلِمِيْنَ ، واجْتماعِ كَلِمتِهم وَصَلاحِ ذاتِ بَيْنِهِمْ ، وَنَصْرِ اللهِ إِيَّاهُم ، حتى عَجِزَ أَعداؤهُم أَنْ يَجِدوا إلى ذَلِكَ التَّشَفِّي سَبيلاً ، فاضطُرّوا إلى مُدارَاتِهم .

وقالَ تَعَالى ﴿ يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنوا لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وَالآياتُ هَذِهِ تُنادِي بالنَّهْي المُطْلَقِ عن الوَلاَءِ لِلْيَهُودِ وَالنَّصارَى وعن الاسْتِنْصَارِ بِهِمْ ، والرُّكُونِ إِلَيْهم والثِّقةِ بِهِمْ ، وَبِمَوَدَّتِهم والاعْتِقَادِ في قُدْرَتِهم على إِيصَالِ خيرٍ لِلْمُسلمينَ ، أَوْ دَفْعِ أَذَى بلْ هُمْ على العَكْسِ لا يَأْلُونَ جُهْداً في دَفْعِ النَّفْعِ عَن المسلمينَ ، وإِيْصَالِ الضَّرَرِ والأذَى لِلْمُسْلِمِينَ فانتبهْ يا أَخِيْ وَاحْذَرْهُمْ وَحَذِّرْ عَنْهُمْ . وإياك ومداراتهم .

يَقُولون لِيْ دَارَ العِدَا تَنْجِ منهم ... فَقُلْتُ مُدارَاتُ العِدَا لَيْسَ تَنْفَعُ
ولوْ أَنَّنِيْ دَارَيْتُ دَهْرِيَ حَيَّةً ... إِذَا مُكِنَتْ يوماً مِنَ اللَّسْعِ تَلْسَعُ

آخــر :

إذا وَتَرْتَ امْرَأً فاحْذَرْ عَدَوَاتَهُ ... مَن يَزْرَعِ الشَّوْكَ لا يَحْصُدْ بِهِ عِنَبَا
إن العَدُوّ وإن أَبدى مُجَامَلَةً ... إِذَا رَأَى مِنْكَ يَوماً فُرْصَةً وَثَبَا

قالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَسْتَدِلّونَ بِهَذِهِ الآياتِ عَلَى تَرْكِ الاسْتِعَانَةِ بِهِمْ في الوِلاَيَاتِ ، فَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدَ بَاسْنَادٍ صَحِيْحٍ عَنْ أَبي مُوسَى الأَشْعَري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ قُلْتُ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، إِنَّ لِي كَاتِباً نصرَانِياً ، قَال مَالَكَ قَاتَلَكَ اللَّهُ ، أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوْا لَا تَتَّخِذُوْا اليَهُوْدَ والنَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ أَلا اتَّخَذْتَ حَنِيْفياً .

قَالَ قُلْتُ يَا أَمِيْرَ الْمُؤمنِيْنَ لِي كِتَابَتُهُ وَلَهُ دِيْنُهُ ، قَالَ لَا أُكْرِمُهُمْ إِذَا أَهَانَهُمْ اللَّهُ ، وَلاَ أُعِزُّهُمْ إِذا أَذَلَّهُمْ اَللَّهُ ، وَلاَ أُدْنِيْهِمْ إِذَا أَقْصَاهُمْ اللَّهُ « بَلِّغْ يَاأَخِيْ مَنْ وَالاَهُمْ وَوَلاَّهُمْ وَوَثِقَ بِهِمْ » وأحمد الله الذي عافاك مما ابتلاهم به .

وَلِمَا دَلَّ عَلَيْهِ مَعْنَى الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِهِ سُنَّةُ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسُنَّةُ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِيْنَ ، التي أَجْمَعَ الْفُقَهَاءُ عَلَيْهَا بِمُخَالَفَتِهِمْ ، وَتَرْكِ التَّشَبُهِ بِهِمْ ، فَفِي الصَحِيْحَيْنِ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَمَ إِنَّ الْيَهُودَ والنَصَارَىٰ لا يَصْبَغُونَ ، فَخَالِفُوهُم أَمْرٌ بِمُخَالَفَتِهِمْ قَال .

وَقَالَ تَعَالىٰ لِنَبِيه عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلاَمُ ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ وذَلِكَ يَقْتَضِي تَبَرّؤُهُ مِنْهُمْ في جَمِيْعِ الْأَشْيَاءِ ، وَإِذَا كَانَ اللهُ قَدْ بَرّأَ رَسُولَهُ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَمِيْعِ أُمُورِهِمْ ، فَمَنْ كَانَ مُتّبِعاً للرّسُولِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَوسلَم حَقِيْقَةً كَانَ مُتَبرِئاً مِنهُمْ ، كَتَبَرّئِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ وَسَلَم مِنْهُم وَمَنْ كَانَ مُوافِقاً لَهُم كَانَ مُخَالِفاً لِرَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم بِقَدْرِ مُوافَقَتِهِ لَهُمْ .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : إِنَ مُشَابَهَتَهُمْ في بَعْضِ أَعْيَادِهِمْ ، تُوجِبُ سُرُورَ قُلوبِهِمْ بِمَا هُمْ عَلَيهِ مِنَ الْبَاطِلِ ، خُصُوصاً إِذَا كَانُوا مَقْهُورِيْنَ ، تَحْتَ ذُلِّ الجِزْيَةِ والصَّغَارِ ، فَإِنَّهُمْ يَـرَوْنَ الْمُسْلِمِيْنَ قَدْ صَارُوا فَرْعـاً لَهم في خَصائِصِ دِيِنِهِم ، فإِنَّ ذَلِك يوجِبُ قَسْوَةَ قُلوبِهِمْ وَانْشِرَاح صُدُورِهِمْ وربَّمَا أَطْمَعَهم ذَلِكَ في انْتِهَازِ الفُرَصِ واسْتِذلالِ الضُّعَفَاءِ وَقَالَ رَحِمَهُ الله .

وَكُلَّمَا كَانَتْ الْمُشَابَهَةُ أَكْثَرَ كان التَّفَاعُلُ فِي الأَخْلاَقِ والصِّفَاتِ أَتَم حَتَّى يَؤُلَ الأَمْرُ إلى أَنْ لا يُمَيِّزَ احَدُهُما عَنِ الآخَرِ إلا بِالعَينَ فَقَطْ .

وَلَمَّا كَانَ بَيْنَ الإِنْسَانِ مُشَارَكَةٌ في الجِنْسِ الخَاصّ ، كَانَ التَّفاعُلُ فِيهِ أَشَدُّ ، ثُمَّ بَيْنَهُ وبينَ سَائِرِ الحَيَوَانِ مُشَارَكَةٌ في الجِنْسِ المُتَوَسِّطِ ، فَلا بُدَّ مِنْ نوعٍ تَفاعُلٍ بِقَدْرِهِ .

ثُمَّ بَيْنَه وَبَيْنَ النَّبَاتِ مُشَارَكَةٌ في الجِنْسِ البَعِيْدِ مَثَلاً ، فَلا بُلّ مِنْ نَوْعٍ مَا مِنَ المُفَاعَلَةِ : قَالَ وَلأَجْلِ هَذَا الأَصْلِ وَقَعَ التَّأثُّرُ وَالتَّأثِيرُ في بَنِي آدَمَ ، وَاكْتِسَابِ بَعْضِهِمْ أَخْلاقَ بَعْضٍ بالمُشَارَكَةِ ، وَالمُعَاشَرَةِ ، وَكَذَلِكَ الآدَمِيُّ إذا عَاشَرَ نَوْعَاً مِنَ الحَيَوَانِ ، اكْتَسَبَ مِنْ بَعْضِ أَخْلاقِهِ .

وَلِهَذَا صَارَتْ الخُيَلاءُ وَالْفَخْر في أَهْلِ الإِبِلِ ، وَصَارت السَّكِيْنَةُ في أَهْلِ الغَنَمِ ، وَصَارَ الجَمّالُونَ والبَغَّالُونَ فِيْهِمْ أَخْلاقٌ مَذْمُومَةٌ ، مِن أَخْلاَقِ الجِمَالِ والبِغَالِ ، وَكَذَا الكَلابُوْن .

قُلْتُ وَهَذا وَاضِحٌ مُشَاهَدٌ عِنْدَ الذِيْنَ يَتَأَمَلّون بِدِقَّةٍ ، فَالمعَاشِرُونَ لِلدَّجَاجِ والحَمَام ، والأَرَانِبِ والحُمُرِ والبَقَرِ يَأْخُذُونَ مِنْ أَخْلاَقِهَا .

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَصَار الحَيَوانُ الإِنْسِي فِيهِ بَعْضُ أَخْلاقِ الإِنْسِ مِنَ المُعَاشَرَةِ والْمُؤَآلَفَةِ وَقِلَّةِ النُّفْرَة ، فالمشَابَهَةُ والمُشَاكَلَةُ في الأُمُورِ الظَّاهِرَةِ تُوجِبُ مُشَابَهَةً وَمُشَاكَلَةً في الأُمُورِ البَاطِنَةِ عَلَى وَجْهِ المَسَارَقَةِ والتَّدرِيْج الخَفِي .

قَالَ : وَقَدْ رَأَيْنَا اليَهودَ الَّذِيْنَ عَاشَرَوا المُسْلِمِيْنَ ، هُمْ أَقَلُّ كُفْراً مِنْ غيرهم ، كَمَا رَأَيْنَا المُسْلِمِيْنَ الّذِيْنَ أَكْثَروا مِن مُعَاشَرَةِ اليَهُودِ والنَّصَارَى هُمْ أَقَلُّ ايماناً من غَيْرِهِمْ ، والمُشَارَكَةُ في الهَدْى الظاهِر ، تُوجِبُ أَيْضاً مُناسبةً وائتلافاً وإِنْ بَعُدَ المَكَانُ ، والزَّمَانُ ، فَهَذَا أَيْضاً أَمْرٌ مَحْسُوسٌ

فَمُشَابَهَتُهُمْ في أَعْيادِهِمْ وَلَوْ بالقَلِيلِ ، هُوَ سَبَبٌ لِنَوْعٍ مَا مِن اكْتِسَابِ أَخْلاَقِهِمْ التي هِيَ مَلْعُونةٌ .

فَنَقُولُ مُشَابَهَتُهُمْ في الظاهِرِ سَبَبٌ وَمَظِنةٌ لمشابَهَتِهِمْ في عينِ الاخْلاق والأفعالِ المَذْمُومَةِ ، بل في نَفْس الاعتقادِ ، وتأثيرُ ذَلِكَ لَا يَظْهَرُ ولا يَنْضَبِطُ وَنَفْسُ الفَسَادِ الحَاصِلِ مِن المشابهةِ قد لا يَظْهَرُ ولا يَنْضَبِطُ وقد يَتَعَسَّرُ ، أو يَتَعَذَّرُ زَوالهُ ، بَعْدَ حُصولِهِ لو تفطِنَ لهُ .

وَكُلُّ ما كان سبباً إلى مِثْلِ هَذا الفَسَادِ فإن الشَّارِعَ يُحَرِمُهُ كمَا دَلتْ عليهِ الأُصُولُ المقررةُ .

وقَالَ إنَّ المُشَابَهَةَ في الظاهِرِ تُورثُ نَوْعَ مَوَدَّةٍ وَمَحَبَّةٍ وموالاةً في الباطن قالَ والمَحَبَّةُ والموالاةُ لَهُمْ تُنَافِي الإِيْمَانَ قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوْا لا تَتخذوْا اليَهُودَ والنَّصارَى أولياء ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فأصبحوا خاسرين ﴾ وقال تعالى فيما ذم به أهل الكتاب ﴿ لعن الذينَ كَفروا مِن بَني اسرائيْل على لِسَان داودَ وَعِيسى بِن مَريم ﴾ الآيات إلى قوله ﴿ ولكِن كثيراً مِنهم فَاسقون ﴾ .

فَبَيَّنَ تعالى أَنَ الإِيْمَانَ باللّهِ والنبي وَمَا أَنْزَلَ مُسْتَلْزِمٌ لِعَدَمِ وِلاَيَتِهِمْ فَثُبُوتُ وِلاَيَتِهِمْ يُوجِبُ عَدَمَ الإِيمانِ ، انتهى كلامه .

إذا فَهِمتَ ذلك ، فاعْلَمْ أَنَ المقصُودَ مِن كُلّ ما ذكَرْنا ، هُوَ أَنَّكَ تَكُونُ مُتَيَقِضاً حافظاً لِمَنْ وَلاَّكَ اللهُ عَلَيْهِمْ حَسَبَ قُدْرَتِكَ وَاسْتِطَاعَتِكَ مُبْعِداً لَهُمْ كُلَّ البُعْدِ عَنْ الإِتّصَالِ بالكُفَّارِ ، والسَّفرِ إلى بِلادِهِمْ ، والإقامةِ عندَهُمْ ، لِمَا وَضَّحْنا لَكَ سَابِقاً فان قَبِلْتَ ذَلِكَ فَهُو المطلوبُ ،

والحَمْد لِلهِ عَلَى ذلك وإنْ أَبَيْتَ قُبُولَ هَذِهِ النَّصِيْحَةِ فَسوفَ تَعْلَمُ إِذَا انْجَلَى الغُبَارُ ، أفَرسٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمَارٌ .

أَلا رُبَّ نُصحٍ يُغْلَقُ البابُ دُونَهُ وغِشٍ إلى جَنبِ السَّرِيْرِ يُقَرَّبُ

واللهُ المُسْتَعانُ واللهُ أَعْلَم وَصَلَّى اللهُ على نَبِيِّنَا مُحَمَّد وَعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْلٌ)

وَقالَ تَعَالَى ﴿ تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الذِيْنَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُم أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ علَيْهِمْ ، وَفي العَذَاب هُمْ خَالدون ﴾ الآيتين وقال ﴿ ولا تركنوا إلى الذينَ ظلموا فتمسكم النَّارُ وَمالكمْ مِن دونِ اللهِ مِن أَوْلياءَ ﴾ الآية .

قال ابْنُ عَبَّاس : لاَ تَمِيْلُوا وقَالَ عِكْرِمَةُ أَنْ تُطِيعُوهُمْ أَوْ تَوَدُّوهُمْ ، أَوْ تَصْطَنِعُوهُمْ ، أَيْ تُوَلُّوهُمْ الأعْمَالَ ، كَمَنْ يُوَلِّي الفُسَّاقَ والفُجَّارَ .

وَقَالَ الثَّورِيُ وَمَنْ لاَقَ لَهُمْ دَوَاةً أَوْ بَرَى لَهُمْ قَلماً أَوْ نَاوَلَهُمْ قِرْطَاساً دَخَلَ في هذا ، قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِيْن في الآيةِ فالنَّهْيُ مُتَنَاولٌ لِلانْحِطَاطِ في هَوَاهُمْ ، والانقِطَاعِ إلَيْهِمْ ، وَمُصَاحَبَتِهِمْ ، وَمُجَالَسَتِهِمْ ، وَزِيَارَتِهِمْ وَمُدَاهَنَتِهِمْ والرِّضَا بِأَعْمَالِهِمْ والتَّشَبُهِ بِهِمْ والتَّزَيي بِزِيِّهِمْ ، وَمَدِّ العَيْنِ إلَى زَهْرَتِهِمْ ، وَذِكْرِهم بِمَا فِيهِ تَعْظِيْماً لَهُمْ قُلتُ مَا أكثر هذا في زَمَننا نسأل اللهَ أنْ يَحْفَظَنا عن ذَلِكَ .

وَقَالَ آخرُ لاَ تَسْتَنِدُوا وَتَطْمَئِنُّوا إلىٰ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا و إلىٰ الجَبَّارِيْنَ الطُّغَاةِ الظالِمِيْنَ ، أَصْحابِ الجَوْرِ والظُّلْم الذِيْنَ يَقْهَرونَ بِقُوتِهِمْ ، وَيَظْلِمُونَ لا تَمِيلوْا إِلَيْهِمْ طَالِبِينَ نُصْرَتَهم أو حِمايَتَهمْ مَهْمَا يَكُنْ في أَيْدِيهم مِنَ القوةِ والسُّلْطانِ والمالِ ، فإنَّ رُكُونَكم إليهمْ عَلَى هَذَا النَّحْوِ

يَقْدَحُ في اعْتِمَادِكُمْ عَلَى اللهِ ، وفي إِخْلاصِكُمْ بالتـوجُهِ إِلَيْـهِ وَحدَهُ والاتكالِ عَلَيْهِ وَحْدَه والاعتزازِ به وَحْدَهُ .

والرُكُونُ إلى الظُّلمةِ المُتَسَلِّطِينَ سَواءٌ كانُوا أَفْراداً أَوْ كانُوا دُوَلاً يَتَمَثَّلُ في صُوَرٍ شَتّى ، وَمِنْهُ التَّعَاوُنُ مَعَ الطُّغَاةِ على الشُّعُوبِ ، الذينَ لا يَحْكُمُونَ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَمِنْهُ مُعَاهَدَاتِ الحماية ، وَمُعاهَدات الدِّفاعِ المُشْتَرك ، وَمُعَاهَدَاتُ الصَّدَاقَةِ ، والتَّحَالُفِ مَعَ الَّذِيْنَ يُؤْذُون المؤمِنينَ في دِيَارِهِمْ ، وَكُلُّ صُورَةٍ يَتَحَقَّقُ فِيهَا اعْتِمَادُ المُسْلِمينَ عَلَى أَهْلِ الظُّلم أَفْراداً وَدُوَلاً والاسْتِنادُ إلى قُوَّتِهم ، وَعَوْنِهم ، وَمُسَاعَدَتِهِمْ .

وَقَالَ تَعالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّيْ وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودَّةِ ﴾ صَدْرُ هَذِهِ السُّورَةِ نَزَلَ في حَاطِبِ بْن أَبِي بَلْتَعَةَ ، لما كَتَبَ إلى المُشْرِكِيْنَ ، يُخْبِرُهُمْ بِمَسِيْرِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُعَوِّلُ عَلَى الْكفرَةِ وَيَعْتمدُ عَلَيْهِمْ وَيَتَّخِذُهُمْ أَوْلِيَاءَ نَسْأَلُ اللَّه العِصْمَةَ إِنَهُ القَادِرُ عَلَى ذَلِكَ .

فَيَجِبُ عَلَيْنَا مَعْشَرَ المُؤْمِنِيْنَ أَنْ نَتَبَاعَدَ عَنْهُمْ وَلاَ نُقَارِبَهُمْ في المَنَازِلِ وَلاَ نَذْهَبَ إِلَيْهِمْ ، وَلاَ نَكُونَ مَعَهُمْ ، وَأَنْ نَنْصَحَ مَنْ كانَ مِنَ المُسْلِمِيْنَ في بلادِهِمْ ، بِأَنْ يُهَاجِرَ عَنْهُمْ ، وَأَنْ نُبين لَهُ ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « لا تَسْتَضِيْئُوْا بِنَارِ المُشْرِكِيْنَ » .

وَقَال « من جَامَعَ المشْرِكَ أَوْ سَكَن مَعَهُ فَهُوَ مِثْلُه » وَحَدَيْثُ « أَنَا بَرِيْءٌ مِنْ مُسْلِمٍ بَيْنَ أَظْهر المُشْرِكِيْنَ لا تَرَائى نَارَاهما » ، وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يَأْخذُ عَلَى أَصْحَابِهِ عِنْدَ البَيْعَةِ يَأْخُذُ عَلَى يَدِ أَحَدِهِمْ « أَنْ لا تَرَى نَارُكَ نَارَ المُشْرِكين إِلاَ أَنْ تَكُوْنَ حَرْباً لَهُمْ » .

وَفِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ مَرْفُوعاً « لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مُسْلِمٍ عَمَلاً أَوْ يُفَارِقَ الْمُشْرِكِيْنَ » ، أَخْرَجَهُ النَّسَائِي وَوَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ أَقْسَمَ لاَ يُظِلُّهُ سَقْفٌ ، هُوَ وَقَاطِعُ رَحِمٍ » .

فانْتَبِهْ يَا مَن زُينَ له سُوء عَملِه فأتى بكفارٍ خدامين أو سواقين أو خياطين أو طباخين وأمِنَهم على محارمه وهم أعداء الله ورسوله والمؤمنين هذا والعياذ بالله إجرام عظيم ومحاربة لله ورسوله والمؤمنين ونشر للفساد في البلاد الإسلامية .

فَكَيْفَ بِمَنْ يَذْهَبُ إلى بِلاَدِ الكُفْرِ وَيَجْلِسُ مَعَهُمْ ، وَيَأْكُلُ ، وَيَشْرَبُ وَيَتَبَادَلُ مَعَهُمْ الْكَلاَمَ بِلِيْنٍ وَبِشْرٍ وَيَنَامُ وَيَصْحُو ، وَيَقُومُ وَيَقْعُدُ وَهُوَ بَيْنَهُمْ في تَقَلُّبَاتِهِ وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ .

وَلَقَدْ وَصَلَ الأَمْرُ في هَذَا الزَّمَن إلى أَنَّ أُناساً يَبْعَثُونَ أَمَانَاتِهم أَفْلاَذَ اكْبَادِهِمْ إلى بِلادِ الكُفْرِ والشِّرْكِ والحُرِّيَةِ والفَسَادِ يَتَعَلَّمُونَ عِنْدَ أُولئكَ الكَفَرَةِ أعداءِ الاسلام وَأَهْلِهِ الَّذِيْنَ تَجِبُ الهِجْرَةُ مِنْ بِلاَدِهِمْ وَرُبَّمَا كَانَ عِنْدَ الأَوْلاَدِ المَبْعُوثِيْنَ لِلتَّعلمِ عِنْدَ الكَفَرَةِ مَبَادِىءُ طَيِّبَةٌ وَأَخْلاقٌ فاضِلَةٌ فإذا ذَهَبُوا إلى بِلاَدِ الكُفْرِ والعِيَاذُ باللهِ ضَيَّعُوا دِيْنَهَمْ وَأَخْلاَقَهُمْ واعْتَاضُوا عَنْ قَصْدٍ وَعَنْ غَيْرِ قَصْدٍ شُرُوراً وَسُمُوماً يَحْمِلُونَهَا ثُمَّ يَأْتُونَ بِهَا فَيَنْفُثُونَهَا بَيْنَ المُسْلِمينَ ثُمّ يُعْدُونَ أَقْرَانَهُمْ وَيُزَيِّنُونَ لَهُمْ طَرِيْقَتَهُمْ فَيَهْلِكُون وَيُهْلِكُونَ وَلاَ أَدْرِيْ مَاذا عِنْدَ مُضَيِّعِ هَذِهِ الأَمَانَةِ مِنَ الجَوَابِ إِذَا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ الجَبَّارِ جَلَّ وَعَلاَ وَسَأَلَهُ عَنْ هَذِهِ الأَمَانَةِ وَمَا أَعْقَبَتْ مِنْ شُرُورٍ وَفَسَادٍ .

هَلْ يَدَّعِي أَنَّهُ لاَ يَعْرفُ أَنَّهَا بِلادُ كُفْرٍ وَإِلْحادٍ فَيَكُونُ كاذِباً أَوْ يَقُولُ إِنَّهُ يَدْرِيْ وَلَكِنّه لا يُبَالِي بِهَذِهِ الأَمَانَةِ قُولُوا لَه أَلَسْتَ تَقْرَأُ قَوْلَ اللهِ تَعَالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمواتِ وَالأَرْضِ والجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ﴾ الآية .

وَقَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ هَذا

إذَا كَانَ البَاعِثُ رَاضِياً بِذَلِكَ أَوْ آمِراً بِهِ .

فَهَلْ الكُفَّارُ أَهْلٌ لِوَضْعِ هَذِهِ الأَمَانَةِ عِنْدَهُمْ أَمَا تَخْشَى اللَّهَ هَذَا وَاللَّهِ جُرْمٌ عَظِيْمٌ قَالَ تَعَالَى ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾، ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ ﴿ إِنَّ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ .

والشَّيءُ الَّذي يُضْحِكُ الإِنْسَانَ مِنْ جِهَةٍ وَيُبْكِيهِ مِنْ جِهَةٍ هُوَ أَنَّهُ رُبَّمَا يَكُوْنُ المُرْسِلُوْنَ مِنَ الَّذِيْنَ يُعَدُّونَ طَاهِرَةً قُلُوبُهُمْ وَلَكِنْ غَفَلُوا عَنْ هَذِهِ المَسْأَلَةِ فَلَمْ يَسْأَلُوا عَنْهَا هَلْ يَجُوزُ لَهُمْ أَمْ لَا ثُمَّ الشَّيءُ الثَّانِي يَأْتِي أُنَاسٌ آخَرُونَ لَا يَعْرِفُونَ الوَلَاءَ والبَرَاءَ أَوْ يَعْرِفُوْنَهُ وَلَكِنْ يَتَسَاهَلُونَ فَيَأْخُذُونَ الذي جَاؤُا مِن بِلَادِ الكُفْرِ يَحْمِلُونَ شَهَادَاتِهِمْ بِالدَّوَائِرِ وَالْوَلَائِم وَهَذا وَالْعِيَاذُ بِاللهِ تَشْجِيْعاً عَلَى المَعَاصِي وَحَثاً عَلَيْهَا وإغراءً بها نسأل اللهَ العافية .

لأنَ الوَاجِبَ هَجْرُهُمْ والابْتِعَادُ عَنْهُمْ وَلَوْ كَانُوْا آباءَهم أَوْ أَبْنَاءَهُم أَوْ إِخوَانَهم كَمَا هُوَ المَعْهُود في الزَّمَنِ البَعِيْدِ وَالْقَرِيْبِ فِيْمَنْ جَاءَ مِن الْبِلَادِ التي مُسْتَعْمَرةٌ لِلْكَفَرةِ يُهْجَرُ لَا يُكَلَّمُ وَلَا يُدْعَى وَلَا تُجَابُ دَعْوَتُهُ عِنْدَ المُتَمَسِّكِيْنَ بالدِيْنِ تَمَاماً الصَّدَّاعِيْنَ بِالحَقِ المُخْلِصِيْنَ لِلهِ النَّاصِحِيْنَ لِلهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِوُلَاةِ المُسْلِمِيْنَ وَلَكِنْ يَا لِلأَسَفِ ذَهَبَ النَّاسُ وَبَقِيَ النَّسْنَاسُ الذيْنَ لَا يَعْرِفُونَ الوَلَاءَ وَالْبَرَاءَ إلا فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِحُطَامِ الدُّنْيَا .

فَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الذينَ عَهِدْتَهُمْ
وَلَا الدَّارُ بالدَّار التِّي كُنْتَ تَعْرِفُ

آخر :

ألا رُبَّ نُصْحٍ يُغْلَقُ البابُ دُوْنَهُ   وغِشٍّ إلى جَنْبِ السَّرِيْرِ يُقَرَّبُ

آخر :

بَذَلْتُ نُصْحِي بِمُنْعَرِجِ اللِّوَى   فلم يَسْتَبِيْنُو الرُّشدَ إلَّا ضُحَى الغَدِ

وَيُذْكَرُ عَنْ عِيسَىٰ عَلَيهِ السَّلامُ أَنَّهُ قَالَ تَحَبَّبُوْا إِلَى اللَّهِ بِبُغْضِ أَهْلِ المَعَاصِي ، وَتَقَرَّبُوا إِلىٰ اللّهِ بِالْبُعْدِ عَنْهُمْ ، واطْلُبُوْا رِضَى اللَّهِ بِسَخْطِهِمْ فَإِذَا كَانَ هَذَا مَعَ أَهْلِ المَعَاصِي ، فَكَيْفَ بِالكَفَرةِ والمُشْرِكِيْنَ والمُنَافِقِيْنَ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَالمُؤمنين .

وَقَدْ أَجَابَ أَبْنَاءُ شَيْخِ الإِسْلام مُحَمدِ بن عبدالوهـاب لَمَّا سُئِلُوا عَن السَّفَـر إلى بلادِ المُشْرِكِيْنَ ، لِلتِّجَارَةِ بِمَا حَاصِلُهُ أَنهُ يَحْرُمُ السَّفَرُ إلى بلَادِ المُشْرِكِيْنَ إِلاّ إذا كانَ المُسْلِم قَوِيّاً لَهُ مَنَعَةٌ يَقْدِرُ عَلَى إِظْهارِ دِيْنِهِ وإِظْهَارُ الدِّيْن تَكْفِيْرُهُم وَعَيْبُ دِيْنِهِمْ والطَّعْنُ عَلَيْهِمْ والبَرَاءَةُ مِنْهُمْ والتَّحَفُّظُ مِنْ مُوَادَّتِهِمْ والرُّكُونُ إِلَيْهِمْ وَاعْتِزَالُهُمْ وَلَيْسَ فِعْلُ الصَّلَوَاتِ فَقَطْ إِظْهَارٌ لِلدِّيْن أهـ .

نَسْأَل الله السَّلَامَةَ والْعَافِيَةَ فَيَا أَيُّهَا المُعَافِي احْمَدْ رَبَّكَ حَمْداً كَثِيْراً طَيّباً مُبارَكاً وأَكْثِرْ مِنْ قَولِ : رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ وَمِنْ قَوْلِ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِيْنِكَ وَيَا مُصَرِّفَ القُلُوب اصْرِفْ قُلُوبَنَا إِلى طَاعَتِكَ وَقَوْلِ اللهُمّ لاَ تَكِلْنِي إلى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنَ وَلاَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ وَأَحْسِنْ خَاتِمَتِي في الأُمُورِ كلِّهَا واغْفِرْ لي وَجَمِيعِ المُسْلِمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

وقال الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله :

أَلاَ قُلْ لِأَهـلِ الجهلِ مِن كُلِ مَن طَغى
على قَلبـِهِ رَيْـنٌ مِـن الـرَّيْـبِ والـعَـمَـا
لَعَمْـرِي لقـد أَخْـطَـأْتُمُـوا إِذْ سَـلَكْتُمُ
طَـريقَـةَ جَهْـلٍ غَيُّهَـا قَـد تَجَهَّـمَـا
أَيَحْسَبُ أَهْلُ الجَهْـلِ لَمَّـا تَعَسَّـفُـوا
وجَـاؤُوا مِـن العُـدوانِ أَمْـراً مُحَرَّمَـا

بِأَنَّ حِمَىَ التَّوْحِيدِ لَيسَ بِرَبْعِهِ
ولا حِصْنِهِ مَنْ يَحْمِهِ أَنْ يُهَدَّمَا
وظَنُّوا سَفَاهاً أَنْ خَلَى فَتَوَاثَبَتْ
ثَعَالِبُ مَا كَانَتْ تَطَا فِي فِنَا الحِمَا
أَيَحْسَبُ أَعْمَى القَلْبِ أَنَّ حُمَاتَهُ
غُفَاةٌ فَمَا كَانُوا غُفَاةً وَنُوَّمَا
فَإِن كَانَ فَدْمٌ جَاهِلٌ ذُو غَبَاوَةٍ
رَأَىَ سَفَهاً مِن رَأْيِهِ أَنْ تَكَلَّمَا
بِقَولٍ مِن الجَهْلِ المُرَكَّبِ خَالَهُ
صَواباً وقَد قَالَ المَقَالَ المُذَمَّمَا
سَنَكْشِفُ بالبُرهَانِ غَيْهَبَ جَهْلِهِ
وَيَعْلَمُ حَقاً أَنَّه قَدْ تَوَهَّمَا
ونُظْهِرُ مِن عَوْرَاتِهِ كُلَّ كَامِنٍ
لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ جَاءَ إِفْكاً ومَأْثَمَا
رُوَيْدًا فأَهْلُ الحَقِ وَيْحَكَ فِي الحِمىَ
وقَدْ فَوَّقُوْا نَحْوَ المُعَادِيْنَ أَسْهُمَا
وتِلْكَ مِن الآياتِ والسُّنَنِ الَّتِي
هِيَ النُوْرُ إِنَ جَنَّ الظَّلَامُ وأَجْهَمَا
فَيا مَنْ رَأَىٰ نَهجَ الضَّلَالَةِ نَيِّرا
ومَهْيَعَ أَهْلِ الحَقَّ والدِيْنِ مُظْلِمَا
لَعَمْرِي لَقَدْ أَخْطَأتَ رُشْدَكَ فاتَّئِدْ
ورَاجِعْ لِما قَدْ كَانَ أَقْوَىٰ وأَقْوَمَا
مِن المَنْهَجِ الأَسْنَى الذِي ضَاءَ نُوْرُهُ
ودَعْ طُرُقاً تُفْضِي إِلى الكُفْرِ والعَمَا

وملةَ إبراهيمَ فاسْلُكْ طَرِيْقَهَا
وعَادِ الذي عَادَاهُ إنْ كُنْتَ مُسْلِمَا
وَوَالِ الذِي وَالَى وإيَّاكَ أَنْ تَكُنْ
سَفِيْهاً فَتُحْظَى بالهَوَانِ وتَنْدَمَا
أَفِي الدينِ يَا هَذَا مُسَاكَنَةُ العِدَا
بِدَارٍ بِهَا الكُفْرُ ادْلَهَمَّ وأَجْهَمَا
وأَنْتَ بِدَارِ الكُفْرِ لَسْتَ بِمُظْهِرٍ
لِدِيْنِكَ بَيْنَ الناسِ جَهْرًا ومُعْلِمَا
بِأَيِّ كِتَابٍ أَمْ بِإِيَّةِ آيَةٍ
أَخَذْتَ عَلَى هَذَا دَلِيلاً مُسَلَّمَا
وإِنَّ الذِي لا يُظْهِرُ الدِينَ جَهْرَةً
أَبَحْتَ لَهُ هَذَا المَقَامَ المُحَرَّمَا
إِذَا صَامَ أَوْ صَلَّى وقَدْ كَانَ مُبْغِضاً
وبالقَلْبِ قَدْ عَادَىٰ ذَوِي الكُفْرِ والعَمَا
ثَكَلَتْكَ هَلْ حَدَّثَتَ نَفْسَكَ مَرَّةً
بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ أَوْ كُنْتَ مُعْدِمَا
فَفِي التِرمِذِي انَّ النبيَ مُحَمَّدًا
بَرِيءٌ مِن المَرْءِ الذِي كَانَ مُسْلِمَا
يُقِيْمُ بِدَارِ أَظْهَرَ الكُفْرَ أَهْلُهَا
فَيَاوَيْحَ مَن قَد كَانَ أَعْمَى وأَبْكَمَا
أَمَا جَاءَ آيَاتٌ تَدُلُّ بِأَنَّهُ
إذا لَمْ يُهَاجِرْ مُسْتَطِيْعٌ فَإِنَّمَا
جَهَنَّمُ مَأْوَاهُ وسَاءَتْ مَصِيْرُهُ
سِوىٰ عَاجِزٍ مُسْتَضْعَفٍ كَانَ مُعْدِمَا

فَهَلْ عِنْدَكُمْ عِلْمٌ وبُرهَانُ حُجَّةٍ
فَحَيّاً هَلاَّ هَاتُوا الجَوابَ المُحَتَّمَا
ولَن تَستَطِيعُوا أَنْ تَجيئُوا بحُجَّةٍ
لِتَدْفَعَ نَصاً ثَابِتاً جَاءَ مُحْكَمَا
وَلكِنَّمَا الأَهواءُ تَهْوي بأَهْلِهَا
فَوَيْلٌ لِمَنْ أَلْوَتْ بِهِ مَا تَأَلَّمَا
أَلاَ فَأَفِيْقُوا وارْجِعُوا وتَنَدَّمُوا
وفِيئُوا فإِن الرُّشْدَ أَوْلَى مِن العَمَا
وظَنِي بأَنَّ الحُبَّ لِلَّهِ وَالْوَلا
عَليهِ تَوَلَّى عَنْكُمُو بَلْ تَصَرَّمَا
وحُبُّكُم الدُّنْيَا وايثَار جَمْعِهَا
على الدين أَضْحَى أَمْرُهُ قَدْ تَحَكَّمَا
لِذَلِكَ دَاهَنْتُم وَوَالَيْتمُوا الذِي
بأَوضَارِ أَهْلِ الكُفْرِ قَدْ صَارَ مُظْلِمَا
وَجَوَّزْتُمُوا مِن جَهْلِكُمْ لِمُسَافِرٍ
إِقَامتَه بَيْنَ الغُواةِ تَحَكُّمَا
بغَيرِ دَليلٍ قَاطِعٍ بَلْ بجَهْلِكُمْ
وتَلْبِيْسِ أَفَّاكٍ أَرَادَ التَّهَكُّمَا
وقد قُلْتُموا في الشَّيخِ مَن شَاعَ فَضْلُهُ
وأَنْجَدَ في كُلِّ الفُنُونِ وَاتْهَمَا
إمامِ الهُدَى عَبْدِ اللطيفِ أَخِي التُّقَى
فَقُلْتُمْ مِن العُدْوانِ قَولاً مُحَرَّمَا
مَقَالَةَ فَدْمٍ جَاهِلٍ مُتَكَلِّفٍ
يَرَىٰ أَنَّهُ كُفْواً فَقَال مِن العَمَا

يُنَفِرُ بَلْ قَدْ قُلْتُمُوْا مِن غَبَائِكُمْ
يُشَدِّدُ أَوْ قُلْتُمْ أَشَدَّ وأَعْظَمَا

ولَيْسَ يَضُرُّ السُحْبَ في الجَو نابحٌ
وهَلْ كَانً إلا بالاغَاثَةِ قَدْ هَمَا

فَيَدعُو لَهُ مَن كَانَ يَحْيَى بِصَوْبِهِ
ويُنَجِّهِ مَن كَانَ أَعْمَى وأَبْكَمَا

أَيُنْسَبُ لَلتنفِيْرِ وَهْوَ الذِي لَهُ
رَسَائِل لم يَعْلَمْ بِهَا مَن تَوَهَّمَا

يُؤَنِّبُ فيها مَن رَأَىٰ منه غَلْطَةً
ويَأْمُرُ أَنْ يَدْعُوا بِلِيْنٍ ويَحْلُمَا

ويُنْسَبُ لِلتَّشْدِيدِ إذ كَانَ قَد حَمَا
حِمَى المِلَّةِ السَّمْحَاءِ أَنْ لا تَهَدَّمَا

وغَارَ عَلَيها مِن أُنَّاس تَرَخَّصُوا
وقَدْ جَهِلُوا الأَمرَ الخَطِيْرَ المُحَرَّمَا

فَلَوْ كُنْتُمُوا أَعْلَى وأَفْضَلَ رُتْبَةً
وأَزْكَى واتَّقَى أَوْ أَجَلَّ وأَعْلَمَا

يُشَارُ إِليكُم بالأَصَابِعِ أَوْ لَكُمْ
مِن العِلم ما فُقْتُمْ بِهِ مَن تَقَدَّمَا

لَكُنَّا عَذَرْنَاكُمْ وقُلْنَا أَئِمَّةً
جَهَابِذَةً أَحْرَى وأَدْرَى وأَفْهَمَا

ولَكِّنكُمْ مِن سَائِر الناس مَالكْم
مِن العِلم مَا فُقْتُم بِه مَنْ تَعَلَّمَا

ومِن أَصْغَرِ الطُلاَبِ لِلْعِلْم بَلْ لَكُمْ
مَزِّيةُ جَهْلٍ غَيُّهَا قَدْ تَجَهَّمَا

لِذَلِـكَ أَقْـدَمْـتُـمْ لِفَتْـحِ وَسَـائِـلٍ
وقَـدْ سَـدَّهَـا مَـن كَـانَ باللَّـهِ أَعْلَمَـا

ثَكِلْتُكُمُـوا هَـلْ حَـدَّثَتْكُـمْ نُفُـوسُـكُمْ
بِخَـرقِ سِيَاجِ الدِيـنِ عُـدْواً وَمَـأثَمَـا

وإنَّ الحُـمَـــاةَ النـاصـرينَ لِـرَبِّهِـمْ
ولِلَـدِيـنِ قَـدْ مَـاتُوا فَمَنْ شَـاءَ أَقْـدَمَا

عـلى مـا يَشَـا مِـن كُـلِّ أَمْـرٍ مُحَـرَّمٍ
ولَـيـسَ لَـهُ مِـن وَازِعٍ أَنْ تَكَـلَّمَـا

وإن حِمَـى التَّـوْحِيْـدِ أَقْفَـرَ رَسْـمُـهُ
فَقُـلْتُـم وَلَم تَخْشَـوا عِتَـابـاً ومَـنْـقَمَـا

فَنَـحْـنُ اذًا والحَـمْـدُ لِلَّـهِ لَـمْ نَـزَلْ
عَـلَى ثُغْـرةِ المَرمَـى قُعُـوداً وجُـثَّمَـا

أَلا فـاقْبَـلُوا مِنَّـا النَّصِيْحَـةَ واحْـذَرُوْا
وفِيْئُـوا إِلـى الأَمـرِ الـذِي كـان أَسْـلَمَا

وإلا فـإنَّـا لا نُـوافِـقُ مَـنْ جَفَـا
وَيَسْـعَى بِأَنْ يُوْطَـى الحِمَـى أَوْ يُهَدَّمَـا

كَمَـا أنَّنَا لا نَـرتَضِـي جَـوْرَ مَـن غَـلاَ
وزَادَ عـلى المشـروعِ إفكـاً ومـأثَمـا

ويا مُـوثِـر الـدُنـيَـا على الـديـنِ إنَّمَـا
عَـلَى قَلبِـكَ الـرَّانُ الـذي قَـدْ تَحَكَّمَـا

وعَـادَيْـتَ بَلْ وَالـيْتَ فِيهـا ولَمْ تَخَـفْ
عَـواقِـبَ مَـا تَجْـنِي ومَـا كَانَ أَعْـظَمَـا

أَغـرَّتْـكَ دُنْيَـاكَ الـدَّنِـيَّـةَ رَاضِيـاً
بزَهْـرَتِهَـا حَتَّى أَبَحْـتَ المُحَـرَّمَـا

تَـروقُ لَـكَ الـدُنْـيَـا ولـذاتُ أَهْـلِهَـا
كـأَن لَمْ تَصِـرْ يَـوْمـاً إلى القَـبْرِ مُعْـدِمَا
خَـلِياً مِـن المـالِ الـذِي قَـدْ جَمَعْـتَهُ
وفـارَقْـتَ أَحْبَـاباً وقَـدْ صِـرتْ أَعْظُمَـا
وَلَمَّـا تُقَـدِّمْ مَـا يُنَـجِيْـكَ فِـي غَـدٍ
مِن الدِيـن ما قَدْ كانَ أَهْـدَىٰ وأَسْلَمَـا
وذلـكَ أَنْ تَـأْتِـي بـدِيـنِ مُحَمَّـدٍ
ومِـلَّةِ إبراهـيمَ إن كُـنْعت مُسْـلِمَـا
تُـوالِـي عـلى هَـذَا وتَـرْجُـوْ بِحُـبِّـهِـمْ
رِضَـى المـلكِ العَـلَّامِ إذ كَـانَ أَعْظَمَـا
وتُبْغِـضُ مَـن عَـادَىٰ وتَرجْـوُ بِبُغْضِهِمْ
مِـن الـلَّـهِ إحسـانـاً وجُـودًا ومَغْنَمَـا
فهـذا الـذِي نَـرضَـى لِكُـلِّ مُـوَحِّـدً
ونَـكْـرَهُ أَسَـبـاباً تُـرِدْهُ جَهَـنَّـمَا
وصـل إلهـي مـا تـألـق بَـارِقٌ
عـلى المُصْطَفىٰ مَـن كَـان باللَّهِ أَعْـلَمَا
وآلٍ وأصـحـابٍ ومَـن كـان تَـابـعـاً
وتـابعهـم مَـا دَامـتِ الأَرضُ والسَّـمَا

مـوعظـة

عِبَادَ اللَّهِ كُلُّنَا يَعْلَمُ أَنَ النَاسَ قِسْمَانِ ، قِسْمٌ انْحَازَ إِلَى اللَّهِ ، وَهَؤُلاءِ حِزْبُ اللَّهِ ، الذِيْنَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الله أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ .

وَقِسْمٌ انْحَازَ إلى عَدُوِّ اللّهِ إبْلِيْسَ لَعَنَهُ اللّهُ وَهَؤُلاَءِ حِزْبُ الشَّيْطَانَ الذِيْنَ قَالَ اللّهُ فِيْهِمْ : ﴿أوْلئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ألا إنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الخَاسِرُون﴾ فَالأَوَّلُوْنَ الذِيْنَ هُمْ حِزْبُ اللهِ لاَ تَرَاهُمْ يُطِيْعُونَ الشَّيْطَانَ أَبَداً وَلِذَلِكَ لا تَجِدُهُمْ يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ ، بَلْ هُمْ بَرَكَةٌ في هَذَا الوُجُودِ .

فَإذَا رَأَيْتَ مَسْجِداً مَعْمُوراً فَهُمْ الذِيْنَ وَفَّقَهُمْ اللّهُ لِبِنَائِهِ ، وَإنْ قِيلَ لَكَ إنَّهُمْ لاَ يَظْلِمُونَ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الظُّلْمِ والجَوْرِ فَصَدِّقْ ، وَإنْ رَأَيْتَ مُحْتَاجاً سُدَّتْ حَاجَتُه ، فَهُمْ الذِيْنَ وَفَّقُهُمْ اللّهُ لإنْعَاشِهِ ، وَسَدِّهَا ، وإنْ رَأَيْتَ عَارِياً فَهُمْ الذِيْنَ وَفَّقَهُمْ اللّهُ لِكِسْوَتِهِ ، وإنْ قِيلَ إنَّ المُنْكَرَ الفُلاَنِي أُزِيْلَ فَهُمْ الذيْنَ وَفَّقَهُمْ اللّهُ لِلتَّسَبُّبِ في إزَالَتِهِ ، وَإنْ قِيْلَ لَكَ إنْ إصْلاحاً في الأَرْض كَانَ صَعْباً فَسُهِّلَ بِإذْنِ اللهِ ، فَهُمْ الذِيْنَ وَفَّقَهُمْ اللّهُ لإزَالَتِهِ أَوْ تَسْهِيْلِهِ .

وَإنْ قِيْلَ إنَّ أُنَاساً يَدُورُونَ عَلَى البُيُوْتِ يَتَفَقَّدُونَ الفُقَرَاءَ الذينَ لَيْسَ لَهُمْ مَوَارِدُ فَهُمْ الذِيْنَ وَفَّقَهُمْ اللّهُ لِذَلِكَ ، وَإنْ قِيْلَ إنَّ أُنَاساً يَتَفَقَدُونَ مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَيَتَسَبَّبُونَ لِوَفَائِهِ ، فَهُمْ الذينَ وَفَّقَهُمْ اللّهُ لِذَلِكَ ، وإنْ قِيلَ إنَهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ عِبَادَةَ مَنْ لاَ يَمَلُّ وَلاَ يَفْتُرُ ، فَصَدِّقْ بِمُجَرَّدِ مَا يُقَالُ لَكَ .

وإنْ قِيلَ إنَّ بَعْضَ البُيُوتِ وَهِيَ القَلِيْلَةُ إنَّكَ تَسْمَعُ فِيها باللَّيْلِ صَوْتَ بُكَاءٍ وَأَنِيْنٍ وَتَهَجُداً واستغفاراً ، فَهُم أُولَئكَ الذينَ وَفقَهُم اللهُ وجَعَلَهُم حِزْبَهُ .

وإنْ قِيْلَ لَكَ إنَّ أُناساً عِنْدَهُم عَطْفٌ عَلَى الفُقَراءِ ، وَرَحْمَةٌ وايثارٌ واحْسانٌ إلى الجارِ ، وَمُوَاسَاتٌ لِلضُّعَفَآءِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، مِمَّا يَكَادُ في زَمَنِنَا

هَذَا أنْ يَكُونَ نَادِراً فَهُم أُولَئِكَ الذينَ وَفقَهُم العَلِيمُ الخَبِيْرُ ، وَهؤلاَءِ هُم المُهَذَّبُونَ المُتَنَوِّرُوْنَ المُتَأَدِّبُون .

أما الفَرِيْق الثاني عَصَمَنَا اللهُ وايَّاكَ عن طريق سُلُوكِهِم ، فَهُم حِزْبُ الشيطان لا يحْصُلُ فَسَادٌ في الأَرْضِ إلاَّ مِنْهُمْ ، لأَنَّهُمْ حِزْبُ الشَّيْطانِ وإنْ قِيْلَ إنَّ مُؤْمِناً قُتِلَ فَهُم الذينَ قَتَلُوهُ ، أو تَسَبَّبُوا لِقَتْلِهِ ، لاَ يَخْتَلِفُ في ذلك اثْنَانِ ، وإنْ قِيْلَ لكَ إنَّ سَيَارَةً سُرِقَتْ فَهُمْ الذّينَ سَرَقُوْهَا .

وإنْ قِيْلَ إنَّ مَنْزِلاً هُوْجِمَ وَسُرِقَ فَقُلْ بِلاَ تَرَدُّدٍ هُم الذينَ هَاجَمُوهُ ، وَسَرَقُوهُ ، وَهَلْ حِزْبُ الرحمن يَعْتَدُوْنَ مِثْلَ هَذَا العُدْوَانِ ، وإن قِيْلَ إنَّ إنْسَاناً خُطِفَ وَغُيِّبَ ولا يُعْلمُ أيْنَ كَانَ ، فَقُلْ هُمُ الذِينَ خَطَفُوهُ وَغَيَّبُوهُ ، وإن قِيْلَ إنَّ مُسْلِماً ذَا ثَرْوَةٍ نُشِلَ وأُخِذَ منه آلافُ ، فَقُلْ وَهَلْ يَنْشُلُ وَيَخْطِفُ وَيَعْبَثُ بِأَمْوالِ الناس إلا أولَئكَ الأَشْرَارُ حِزْبُ الشيطانِ .

حِزْبُ اللهِ المُوفَّقُونَ الكُمَّلُ بَعِيْدُونَ عن المَعَاصِي جِدًا ، فَلاَ تَرَى الوَاحِدَ مِنهم يَتعَمَّدُ الجُلُوسَ في الطُرقِ ، وَيُدَاوِمُ المُرُوْرَ فِيْهَا لِمُطَارَدَةِ النِساء ، وَمُغَازَلَتِهِنَّ ، ولا تَرَاهُ يُرْكِبُ النِسَاءَ بلا مَحْرَمٍ ولا يُدْخِلُهَا لِتَشْتَرِيْ أَوْ يُفَصِّلُ عَلَيهَا وَلَيْس مَعَهَا مَحْرَمٌ ولا تَجِدْهُ يَبِيْعُ صُوَرَ ذواتِ الأَرْوَاحِ ، ولا يُصَوِّرُهَا ، ولا يَبِيْعُ البِدَعَ المُنْكَرَاتِ ، ولا يَجْلِسُ عِنْدَها ، وهِيَ البِدَعُ المُحَرَّمَةُ ، التي حَدَثَتْ في زَمَنِنَا مِثْلَ التَّلْفِزْيُون والسِّيْنَماء والمِذْيَاعِ ، والكُرةِ ، والوَرَقِ ، والبَكَمِ والدُّخَانِ والفِدْيُو ونحو المنكراتِ التي قَضَتْ على الغَيْرَةِ والمُروْءَةِ والشِّيْمةِ والرُجُولَةِ.

ولا يَغُشُّ المُسْلِمِيْنَ ، ولا يَكُونُ ذَا وَجْهَينِ يَتَكَلَّمُ عِنْدَ هَؤلاَءِ بِوَجْهٍ

وعندَ الآخِرِيْنَ بِوَجْهٍ ، ولا يُنَافِقُ ولا يُوْقِعُ بَرِيْئاً في مَأزِقٍ ولا يَشْهَدُ بالزُّوْرِ ، ولا يَحْظُر عِندَ المُنكَراتِ ، بَل تَرَاهُمْ في مَجَالِسِ الذِكْرِ يَدُوْرُوْنَ حَوْلَ مَا يُقَرِبُهُم إلى اللهِ .

وَلاَ تَرَاهُمْ يَرْكَنُونَ إلى أَعْدَاءِ اللهِ ، ولا الفَسَقَةِ ولا يُعَظِّمُونَهُم ولا يَتَمَلَقُونَ لَهُم ، وَيَضْحَكُونَ مَعَهُم ، كَمَا يَفْعَلُهُ السُّذَّجُ، الذِيْنَ لا يَعْرِفُوْنَ الوَلاَءَ والبَرَاءَ ، ولا تَنْشَرِحُ صُدُوْرُهُم ، ولا تَهْتَزُ عَوَاطِفُهُم ولا تَسْتَرِيْحُ قُلُوبُهُمْ ، ولا يَهْدَؤُ بـآلُهم ، ولا يَسْكُنُ قَلَقُهُم ، إلا إذا زَاحَمُـوهُم وجَالَسُوهُمْ ، ومازَحُوهُم وَعَظَّمُوهُم ، مِمَّنَ نَسُوا اللهَ فأنْسَاهُم أنْفُسَهُم والتَهَوا عَمَّا هُم إليه صَائِرُوْنَ ، فَلَمْ يَحْسِبُوا لَهُ حِسَاباً قال تعالى ﴿ ولا تُطِعْ مَن أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وكان أَمْرُهُ فُرطا ﴾ .

وقال تعالى ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الحَيَاةَ الدُنيا ، ذلكَ مَبْلَغُهُم مِن العِلْمِ ﴾ وقال تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَن اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ وأَضَلَهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ ﴾ الآية .

فالذي يَنْبَغِي أَنْ يُتْبَعَ وَيُقْتَدَى بِهِ مَن تَمَسَّكَ بِكِتَابِ اللهِ ، وامْتَلأَ قَلْبُهُ بِمَحَبَّةِ اللهِ ، وَفَاضَ ذَلِكَ عَلى لِسَانِهِ ، فَلَهَجَ بِذِكْرِ اللهِ ، ودَعَا إلى اللهِ واتَّبَعَ مرَاضِيْهِ ، فَقَدَّمَهَا على هَوَاهُ وحَفِظَ وَقْتَهُ في طاعَةِ اللهِ بَعِيْدَاً عن أَذِيَّةِ المُسْلِمينَ لا يُقَابِلُ الإِسَاءَةَ بِمِثْلِهَا بَلْ يَدْفَعُ بالتِي هِيَ أَحْسَنُ وَهَذَا حَقاً هُوَ المَهَذَّبُ المُتَنَوِّرُ :

قال بعضهم :

وأُحِـبُّ كُـلَّ مُـهَـذَّبٍ لَـوْ أَنَّـهُ
خَـصْمِيْ وَأَرْحَـمُ كُـلَّ غَـيْـرِ مُـهَـذَّبِ

يَـأْبَى فُـؤَادِي أَنْ يَـمِـيْـلَ إِلَـى الأَذَى
حُـبُّ الأَذيـةِ مِـن طِـبَـاعِ العَـقْـرَبِ
لِـيْ إِنْ أَرَدْتُ مَـسَـاءَةً بِـمَـسَـاءَةٍ
لَـوْ أَنَّـنِـي أَرْضَـى بِـبَـرْقٍ خُـلَّـبِ
حَـسْـبُ الـمُـسْـيءِ شُـعُـوْرُهُ وَمَـقَـالُـهُ
فِـي سِـرِّهِ يَـا لَـيْـتَـنِـي لَـمْ أُذْنِـبِ

اللهم خَفِّفْ عَنَّا الأَوْزَار وأَرْزُقْنَا عِيْشَةَ الأَبْرَارِ واصْرِفْ عَنَّا شَرَّ الأَشْرَارِ وأَعْتِقْ رِقَابَنا ورِقَابَ آبائِنا وأُمَّهاتِنَا مِن النَّارِ يا عَزِيْزُ يا غَفَّارُ ويا كَرِيْمُ ويَا سَتَّارُ ويا حَلِيْمُ ويا جَبَّارُ واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فَصْــلٌ)

وَجَاءَ في تَفْسِيْر قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لَا تَجِدُ قَوماً يُؤْمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ يُوَادُّوْنَ مَن حَادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كانُوا آباءَهُم أَوْ أَبناءَهُم أو إِخْوانَهُم أو عَشِيْرَتَهُم أولَئِكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِم الايمانَ وأَيَّدَهُم بِرُوْحٍ منه﴾ الآية أَنَّها نَزَلَتْ في أَبِيْ عُبَيْدَةَ .

وإليكَ القِصَّةَ مَسُوْقَةً بِأَكْمَلِهَا ، أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ رضي الله عنه ، كانَ صَحَابِياً جَلِيـلًا وَبَطَلاً عَـظِيْماً مِن أبـطال الإِسـلامِ مِن المُجَاهِدِيْنَ ، حَرِصَ أَبُوهُ عبدُ اللهِ على قَتْلِهِ في أَوَّلِ لِقَاءٍ ، لأَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ رَضِي اللهُ عَنهُ تَرَكَ دِيْنَ أَبِيْهِ ، واعْتَنَقَ الإِسلامَ ، وتَخَلَّفَ عن قَافِلَةِ

قُرَيْشٍ ، والتَحَقَ بقافلةِ مُحَمدٍ بنِ عبدِ اللهِ عليه الصلاةُ والسلامُ مُؤمناً بدِيْنِهِ مُصَدِّقاً بِرِسَالتِهِ .

تَصَدَّى عَبْدُ اللهِ لابْنِهِ مُحَاوِلاً قَتْلَهُ ، في غَزْوَةِ بَدْرٍ ، ولكنْ الابنُ أَبْعَدَ عَنه ، وَحَوَّلَ سَيْفَهُ عن أَبِيْهِ وانْطَلَقَ إلى فِئَةٍ أُخْرَى غَيْرَ التي فِيهَا أَبوهُ ، يُقَاتِلُهَا وَيُجَاهِدُهَا وافْتَرَقَ الرَّجُلانِ وَلَكِنْ الأَبُ بَحَثَ عن ابنِهِ حَتَّى التَّقَى بِهِ مرةً ثانِيَةً ، وَرَفَعَ سَيْفَهُ عَلَيه وَوَجَّهَ إليه ضَرْبَةً قَاضِيَةً اسْتَقْبَلَهَا أَبُو عُبَيْدَةَ بحَرَكَةٍ خَفِيْفَةٍ ، جَعَلَتْهَا تَهْوِيْ في الفَضَاءِ .

ولَكِنْ الأَبُ مُصَمِّمٌ على أَنْ لَا يُفْلِتَ الابنَ مَهْمَا كَلَّفَهُ ذَلِكَ مِن غَالِي الثَّمَنِ فَبَحَث عن ابنِهِ هُنَا وَهُناكَ ، وَنَقَبَ عَنه في كُلِّ مكَانٍ حتى التقَى بِهِ مَرَةً ثَالِثَةً ، وَرَفَعَ الرَّجُلُ سَيْفَهُ لِيُوجِّهْ إلى ابْنِهِ ضَرْبَةً قَاضِيَةً مُمِيْتَةً يَشْفِي كُلُومَ قَلْبِهِ ، وَتَهْدَؤُ بِهَا نَفْسُهُ الثائِرَةُ على ابنِهِ الصَّابِيءِ .

وَهُنَا نظَرَ أَبو عُبَيْدَةَ أَنَّ أَبَاهُ يَعْتَرِضُ وَيَتَصدَّى لَهُ وفي اعْتِرَاضِهِ هَذَا اعْتِرَاضٌ لِلإِسْلامِ ، فَمَا أَبو عُبَيْدَةَ إلا جُنْدِيٌ مِن الجُنُودِ القَائِمِينَ بِنَصْرِ الإِسلامِ ، وأَنَّ في تَصَدِيْهِ لَهُ سَداً بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِقَامَةِ دِيْنِ الرحمنِ ، وانْتِشَارِ كَلِمَةِ اللهِ في الأَرضِ فَهَلْ يَصْمُتُ أَبو عُبَيْدَةَ عَلى هَذَا ، وَهَلْ يَسْكُتُ على مَنْ يَحُولُ بَيْنَ دَعْوَةِ اللهِ ، أَنْ تَقُومَ في الأَرْضِ وأَنْ تُنْشَرُ بَيْنَ الناسِ كَلا لَقَدْ أَدَّى مَا عَلَيهِ نَحْوَ أَبِيْهِ وَأَعْرَضَ عنه مَرَّتَيْن .

وَلَكِنْ مَا دَامَ أَبوهُ يَحْرِصُ على هَذِهِ الصُّورَةِ ، فَلْيَكُنْ هُوَ أَسْبَقُ مِن أَبِيْهِ في حِرْصِهِ عَلَى قَتْلِهِ ، كَذَلِكَ والتقَى السَّيْفَانِ وتَقَابَلَ الرَّجُلانِ وَوَقَفَ الخَصْمَانِ ، وفي لَمْحَةٍ خَاطِفَةٍ رَفَعَ الرجُلانِ سَيْفَيْهِمَا كُلٌّ يَحْرِصُ عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ ، والانْتِصَارِ لِدِيْنِهِ .

وَرَفَعَ أَبو عُبَيْدَة يَدَهُ عَالِيَةً خفَّاقَةً ، وفي سُرْعَةٍ وَمِضَاءٍ أَهْوَى بِسَيْفِهِ البَتَّارِ عَلَى قَلْبِ وَالِدِهِ المُمْتَلِىءِ حِقْداً وَغَضَباً ، على الإسلامِ وَدَعْوَةِ الاسلامِ وَمَزَّقَ السَّيْفُ قَلْبَهُ ، وانْفَجَرَ الدَّمُ منه بكَثْرَةٍ وكانَتْ هَذِه السَّاعَةُ مِن سَاعَاتِ التاريخِ الفَاصِلةِ .

هَذَا مِن آثَارِ الحُبِ في اللهِ ، والبُغْضِ في اللهِ ، وهَذَا الوَاجِبُ على كُلِّ مُسْلمٍ أَن تَكُونَ أَعْمَالُهُ كُلُهَا مُنْطَبِقَةً على مَا تَأْمُرُ به الشرِيْعَةُ المُطَهَّرَةُ فَيُحِبُّ مِن الناسِ مَن نَهجَ الطَرِيْقَ المُسْتَقِيْمَ وَيَبْتَعِدُ عَن مَن حَادَ عَن الطَّرِيْقِ المُسْتَقِيْمِ ، ولو كانَ أَقْرَبَ قَرِيْب.

وَمَن اتَّبعَ هَذِهِ الطَّرِيْقَةَ انْطَبَعَ في قَلْبِهِ حُبُّ الكَمَالِ والإيمانِ فيكُونُ عَدوُ اللهِ في نَظَرِهِ عَدُواً ، وَحَيْنَئِذٍ يَرَى أَنَّ أَعْظَم الناسِ قِيْمَةً أَهْلُ الاخلاصِ والطاعةِ وَأَحطهُم مَنْزِلَةً أَهْلُ المَعَاصِي والشَّنَاعَةِ والفَسَادِ في الأَرضِ .

وكذلكَ كانَ شَأنُ المُصْطَفَى صلَّى اللهُ عليهِ وسلم وشأْنُ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللهُ عنهم يُحِبُونَ في اللهِ ، وَيُبْغِضُوْنَ في اللهِ يُوَادُّوْنَ الطائِعينَ وإِنْ كَانُوا بُعَدَاءَ وَيُعَادُوْنَ العَاصِين وانْ كانُوا أَقْرِبَاءَ فَرَابِطَةُ التَّقْوَى عِنْدَهُم أَشَدُّ وَأَقْوَى مِن رَابِطَةِ النَّسَبِ والقَرَابَةِ .

وعن البَراءِ بنِ عَازِبٍ أَوْثَقُ عُرَى الإيمانِ الحُبُّ في اللهِ والبُغْضُ في اللهِ .

وفي حديث مَرْفُوع اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عِنْدِيْ يَداً وَلَا نِعْمَةً فَيَوَدُّهُ قَلْبِي فإِنِي وَجَدْتُ فِيْمَا أُوْحِيَ إلي ﴿لا تَجِدُ قوماً يُؤْمِنُونَ باللهِ واليومِ

الآخِرِ يُوَادُّوْنَ مَن حادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ رواه بن مردويه وغيره .

المَعْنَى الآيةُ بِلَفْظِ الخَبَرِ والمُرَادُ بِهَا الإِنْشَاء أي لاَ تَجِدُ قَوماً يَجْمَعُونَ بَيْنَ الإِيمانِ باللهِ واليومِ الآخِرِ ، والمحبةِ والمُوَالاَةِ لأَعْدَاءِ اللهِ ورسولِهِ .

فلا يَكُونُ المؤمنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ حَقِيْقَةً إلا كَانَ عَامِلاً عَلى مُقْتَضَى إيمانِهِ ، وَلَوَازِمِهِ مِن مَحَبَّةِ مَن قَامَ بالإِيمانِ وَبُغْضِ مَن لَمْ يَقُمْ بِهِ وَمُعَادَاتِهِ .

وَلَوْ كَان أَقْرَبَ الناسِ إليهِ ، وَهَذَا هُوَ الإيمانُ عَلَى الحَقِيْقَةِ الذي وُجِدَتْ ثَمَرَتُهُ وَمَقْصُوْدُهُ فَمَنْ أَحَبَّ أَحَداً امْتَنَعَ أَنْ يُوَالِيْ عَدُوَّهُ .

وَلَقَد أَصَابَ المُسْلِمُونَ اليومَ مِن المُوالاَةِ لأَعْداءِ اللهِ بَلاَءٌ شَدِيْدٌ فَتَجِد كَثيراً مِن الناسِ الذيْنَ يَدَّعُونَ الإيمانَ يُوَالُونَ أعداءَ الشَّرائِعِ الدِيْنِيَّةِ وَيُعَظِّمُونَهُم وَيُقَدِّرُوْنَهُم وَيَنْصُرُوْنَهُمْ على أَبْنَاءِ جِنْسِهِم وَلَوْ كَانَ في هذَا ذِلٌّ لَهُم ولأُمَّتِهِم ولِدِيْنِهِم فإنا للهِ وإنا إليه رَاجِعُون .

قال في النُّونِيَّةِ :

أَتُحِبُّ أَعْدَاءَ الحَبِيْبِ وَتَدَّعِيْ
حُباً لَهُ مَاذاكَ في إِمْكَانِ
وكَذَا تُعَادِيْ جَاهِداً أَحْبَابَهُ
أَيْنَ المَحَبَّةُ يَا أَخَا الشَّيْطَانِ
لَيْسَ العِبَادَةُ غَيْرَ تَوْحِيْدِ المَحَبْـ
ـبَةِ مَعَ خُضُوْعِ القَلْبِ والأَرْكَانِ

والحُبُ نَفْسُ وِفَاقِهِ فِيْمَا يُحِبْ
بُ وَبُغْضُ مَا لا يَرْتَضِي بِجَنَانِ

اللهم طَهِّرْ قُلُوبَنا مِن النِفاق وعَمَلَنا مِن الرِياء وَأَلْسِنَتَنا مِن الكَذِبِ وَأَعْيُنَنا مِن الخِيانَةِ وآذانَنا عَن الاستماعِ إلى مَا لا يُرْضِيك وَتَوَفَّنا مُسْلِمين وَأَلْحِقْنَا بالصَّالِحِيْنَ واغفر لَنا وَلِوَالِدَيْنا وَجَمِيْعِ المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فَصْلٌ)

وعن أبي ذَرٍ مَرْفُوعاً ، أَفضَلُ الأَعْمالِ الحُبُّ في اللهِ والبُغْضُ في الله رواه أبو داود .

وفي الصحيحين «المَرْءُ مَعَ مَن أَحَبَّ» وعن علي مرفوعاً « لا يُحِبُ رَجُلٌ قوماً إلاّ حُشِرَ مَعَهُم » رواه الطبراني باسناد جيد .

وقد رَوَى الإمامُ أحمدُ مَعْنَاهُ عن عائِشة باسناد جيد أيضاً عنها مرفوعاً « الشِرْكُ أَخفَى مِن دَبِيْبِ الذَّرِ على الصَّفاءِ في اللَّيْلَةِ الظَّلْماءِ ، وأَدْنَاهُ أَنْ تُحِبَّ عَلى شَيءٍ مِن الجَوْرِ ، أَوْ تُبْغِضَ على شيءٍ مِن العَدْلِ وَهَلِ الدِّيْنُ إلا الحُبُّ في اللهِ والبُغْضُ في اللهِ .

يَفْتَخِرْ بَعْضُ المُتَحَذْلِقِيْنَ أَنَّه لاَ يَكْرَه أَيَّ انْسانٍ ، ولا يُبْغِضُ أَحداً ، وأَنهُ يَسْلُكُ مَعَ الفَجَرَةِ والفَسَقَةِ ، وَمَعَ أَهْلِ الدِّيْنِ والصَّلاحِ بَلْ وَمَعَ الكَفَرَةِ والمُنَافِقِيْنَ ، وَيُلَقِبُ نَفْسَهُ وَمَن سَلَكَ مَذْهَبَهُ بأَنَّه دُبْلُمَاسِي ، ويَظُنُّ هَذا فَخراً وَكَرماً في الأَخلاَقِ وَنُبْلاً وَطِيْباً .

وَلَكِنْ مَنْ لاَ يعْرِف البُغْضَ ، فَلَنْ يَعْرِفَ الحُبَّ وَمَن لاَ يَكْرَهُ انساناً عَاصِياً هَيْهَاتَ أن يُحِبَّ عَبْداً مُطِيْعاً إِنْ تُحِبَّ مُؤْمِناً بِسَبَبِ اخْلاَصِهِ وَتقْوَاهُ فَكَيْفَ لاَ تُبْغِضُهُ إِذَا زَالَ عَنهُ سَبَبُ الحُبِّ فانْقَلَبَ فَاجِراً مُتهَتِّكاً ، تعْفُو عمَّنْ ظَلَمَكَ ولَكِنْ مَا رَأْيُكَ فِيْمَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَظَلَمَ عِبَادَ اللهِ ، مَا رَأْيُكَ في الزّنَاةِ هَاتِكِيْ الأعْرَاضِ ، وَمُدْمِنِي الخَمْرَ وَشَارِبي الدُّخَان وحَالِقِي لِحَاهُم ، وأهْلِ الخنَافِسِ والتَّشَبُّهِ بأعْدَاءِ اللهِ أعْدَاءِ الإسلامِ وَمَن يَشْهَدُوْنَ الزُّوْرَ ولا يَشْهَدُوْنَ صَلاةَ الجَمَاعَةِ ، وَيَغْتَصِبُونَ الحُقُوق وَيُؤْذُوْنَ العِبَاد وَيخُوْنُونَ الدِيْنَ والبِلاَدَ هَلْ تحِبُّهُمْ أَوْ تُبْغِضُهُم لِله فتِشْ عَن قَلْبِكَ وَحَاسِبْ نَفْسَكَ هَلْ تُحِبُّهُمْ فَتُعِيْنُهُم على الظُّلْمِ أَمْ تُبْغِضُهُم وَتَحْقِرُهُم وَتُنَابِذُهُم وَتَبْتعِدُ عَنهُم عَسَى أَنْ يَرْجِعُوا عن غيِّهِم وَبَغْيِهِم لا مَفَرَّ مِن أَنْ يَكُونَ لَنَا أَعْدَاءٌ نُبْغِضُهُمْ في اللهِ كَمَا يَكُونُ لنا أَصْدِقَاءُ نُحِبُّهُم في اللهِ .

فَيا عِبَادَ اللهِ تقَرَّبُوا إلى اللهِ بِبُغْضِ أهْلِ المَعَاصِيْ الظَّلَمَةِ والمُنَافِقِينَ كَمَا تَتَقَرَّبُونَ إليهِ بِحُبِّ الصَّالِحِيْنَ ، أَشْعِرُوْهُمْ بِمَقْتِكُم لآثامِهِم ، وسَخطِكُم عَلَى إِجْرَامِهِم ، ولا تَتَسَامَحُوْا فِيْمَا يَمَسُّ الدِّيْنَ وَلاَ تَصْفَحُونَ عَمَّنْ يُحَارِبُ رَبَّ العَالَمِيْنَ ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيْبٍ .

قال اللهُ جَلَّ وعَلاَ لأشْرَفِ الخَلْقِ ﴿ وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِم شَيْئاً قَلِيْلاَ إذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ ﴾ ، أَيْ لَوْ مِلْتَ إِلَيْهِمْ لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ عَذَابِ الحياةِ وَضِعْفَ عَذَابِ المَمَات أَيْ ضَاعَفْنَا عَلَيْكَ العَذَابَ في الدنيا والآخِرةِ ، لِأَنَّ الذَّنْبَ مِن العَظِيْم يَكُونُ عِقَابُهُ أَشَدَّ مِن غيرِهِ .

وَمِن ثَمَّ يكون عِقَابُ العُلَمَاءِ عَلَى زَلاَّتِهم أَشَدَّ مِن عِقَابِ غَيرِهِم

مِن العَامَّةِ ، لأنَّهم يَقْتَدُوْنَ بالعُلَماءِ ، رُوِيَ عَن قَتَادَةَ أنهُ قال لما نَزَلَ قولُه تعالى ﴿ وإنْ كَادُوْا لَيَفْتِنُونَكَ عن الذي أَوْحَيْنَا إليْكَ ﴾ الخ قال صلى اللهُ عليه وسلم « اللَّهُمَّ لا تَكِلْنِي إلى نَفْسِيْ طَرْفَةَ عَيْن » .

فَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِن أنْ يَتَدَبَّرَ هَذِه الآيَةَ وَيَسْتَشْعِرَ الخَشْيَةَ وَيَسْأَلَ الله أنْ يُثَبِّتَهُ ، وَيَسْتَمْسِكْ بِأَهْدَابِ دِيْنِهِ ، وَيُكْثِرَ مِن قَولِ يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي على دِيْنِكَ وَيَقُولَ كَمَا قالَ صَلى اللهُ عليهِ وسلم« اللَّهُمَّ لا تَكِلْنِي إلى نَفْسِيْ طَرْفَةَ عَيْنٍ » فإذا كانَ هَذَا الخِطَابُ لأَشْرَفِ الخَلْقِ فَكَيْفَ بِغَيْرِهِ .

وقال تعالى آمِراً رسولَهُ صلى اللهُ عليه وسلم بالإِعْرَاضِ عَمَّنْ تَوَلَّى وَأَعْرَضَ عن الذِكْرِ الحَكِيْمِ والقُرآنِ العَظِيم ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عن ذِكْرِنَا ولَمْ يُرِدْ إلاَّ الحياةَ الدُنيا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِن العِلم ﴾ وعلى العَكْسِ مَن أَقبلَ على كِتَابِ اللهِ وَوَقَّرَهُ وَقَدَّرَهُ وأَحَبَّهُ واتَّبَعَهُ وَدَعَى إليه نَسْأَلُ اللهَ العظيمَ أنْ يَغْرِسَ مَحَبَّتَهُ في قُلُوبِنَا وَيَرْزُقَنَا تِلاَوَتَهُ والعَمَل بِهِ .

وقال ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا « مَنْ أَحَبَّ في اللهِ وعَادَى في اللهِ وَأَبْغَضَ في اللهِ وَوَالَى في اللهِ فإنَّمَا تُنَال وِلاَيَةُ اللهِ بِذلِكَ » ، رواه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم .

وفي حديث رواه أبو نعيم وغيره عن ابن مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَوْحَى اللهُ إلى نَبِيٍ مِن الأَنْبِيَاءِ أَنْ قُلْ لِفُلاَنٍ العَابِدَ أمَّا زُهْدُكَ في الدُنيا فَتَعَجَّلْتَ رَاحةَ نَفْسِكَ وأما انقِطَاعُكَ إليَّ فَتَعَزَّزْتَ بِهِ ، فَمَا عَمِلْتَ لِيْ عَلَيْكَ ، قَالَ يَا ربُّ وَمَالَكَ عليَّ ، قالَ هَلْ وَالَيْتَ لِي وَلِياً ، أَوْ عَادَيْتَ لِيْ عَدُواً .

وقال تعالى ﴿ والذينَ كَفروا بعضُهم أولياءُ بَعضٍ إلاَّ تَفْعَلُوهُ تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبيـر ﴾ فَعَقَدَ تَعَـالى المُوَالاةَ بيْنَ المُؤْمِنِيْنَ ، وَقَطَعَهُم مِن وِلايَةِ الكَافِرِيْنَ وَأَخْبَرَ أَنَّ الكُفَّارَ بَعْضُهُم أَولياءُ بَعْض ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ وَقَعَ فِتْنَةٌ وَفَسَادٌ كَبِيْر ، وكَذَا يَقَعُ فَهَلْ يَتِمُّ الدِّيْنُ أَوْ يُقَامُ عَلَمُ الجِهَادِ وعَلَمُ الأَمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْي عن المُنْكَرِ إلا بالحُبِ في اللهِ والبُغْضِ في الله والمُعَادَاةِ في الله والمُوَالاَةِ في اللهِ .

ولو كَانَ الناسُ مُتَّفِقِيْنَ على طَرِيْقَةٍ وَاحِدةٍ وَمَحَبَّةٍ مِن غَيْرِ عَداوَةٍ ولا بَغْضَاءَ لَمْ يَكُنْ فَرْقٌ بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ ولا بَيْنَ المُؤْمِنِينَ والكُفَّارِ ولا بَيْنَ أَوْلِيَآءِ الرحمنِ وَأَوْلِيَآءِ الشيطانِ .

وَمِن مُـوَالاةِ الأَعْدَاءِ وَمُصَادَقَتِهم ما يَفْعَلُه كَثِيْرٌ مِن ضُعَفَاءِ الإيمانِ مِن الذهابِ إلى أَعْدَاءِ الله في أَيَّامِ أَعْيَادِهِم فَيَدْخُلُونَ في كَنَائِسِهم وَبُيُوتِهم وَأَنْدِيَتِهم وَيُهَنُّونَهُم بِأَعْيَادِهِم ، والعِيَاذُ باللهِ .

وأعظم مِن ذلك وأَطَم الذين يَدْرُسُون على الكفار ويَجْلِسُونَ بين يَدَيْ الكافِرِ والعِيَاذُ بالله ويأتُون بشهادة مِن أعداء الله ورسوله والمؤمنين قال الله جل وعلا ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ وقال جل وعلا ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ فيا أَيُّها المُعَافَي أكثر من حمد الله وشكره وأسأله الثبات حتى الممات .

وقَد قِيْلَ في تَفْسِيْرِ قولِهِ تعالى : ﴿ والذين لا يَشْهَدُوهَ الزُوْرَ ﴾ أَنَّ المُرَادَ أَعْيَادُ المُشْرَكِيْنَ وقال عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنه إِيَّاكُمْ وَرَطَانَةُ الأَعَاجِمِ وأَنْ تَدْخُلُوا على المُشْرِكِين يَوْمَ عِيْدِهِم في كَنَائِسِهِم .

وقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اجْتَنِبُوا أَعْدَاءَ اللهِ في عِيْدِهِم ، ومِن الأَعْيَادِ

المُحْدَثَةِ التي لا يَجُوزُ لِلْمُسْلِم حُضُورُهَا لأَنَّهَا أَعْيَادٌ بَاطِلَةٌ ما يُسَمَّى بِعِيْدِ الاسْتِقْلَالِ ، وعِيْدِ الجَلاَءِ وَعِيْدِ الجُلُوسِ وَعِيْدِ الثَّوْرَةِ ، وَنَحْوِ ذلكَ مِن أَعْيَادِ الكَفَرَةِ والمُنَافِقِين وَأَتْبَاعِهِم .

وقال الشيخُ حَمَدُ بنُ عَتِيْقٍ رَحِمَهُ اللهُ ، ومِن أَعْظَم الوَاجِبَاتِ على المؤمِنِ مَحَبَّةُ اللهِ وَمَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ مِنْ الأَقْوَالِ والأعمالِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ وكذا مَا يُحِبُّهُ مِن الأَشْخَاصِ كالملائكةِ ، وصَالِحِ بَنِيْ آدَمَ ، ومُوَالاتِهِمْ وَبُغْضِ مَا يُبْغِضُهُ اللهُ ، مِن الأَقْوَالِ والأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ ، وَبُغْضِ مَن فَعَلَ ذَلكَ فاذا رَسَخَ هَذَا الأصلُ في قَلْبِ المُؤْمِنِ لم يَطْمَئِنَّ إلى عدُوِّ اللهِ ، ولم يُجَالِسْهُ وَلَمْ يُسَاكِنْهُ وَسَاءَ نَظَرُهُ إليهِ .

فَلَمَّا ضَعُفَ هَذَا الأَصْلُ في قُلُوبِ كَثِيْرٍ مِن الناسِ واضْمَحَلَ صَارَ كَثِيْرٌ مِنهم مَعَ أَوْلِيَاءِ اللهِ كَحَالِهِ مَعَ أَعْدَاءِ اللهِ ، يَلْقَى كُلًّا مِنْهُم بِوَجْهٍ طَلِقٍ ، وَصَارَت بِلَادُ الحَرْبِ كَبِلَادِ الإسلامِ ، وَلَمْ يُخْشَ غَضَبُ اللهِ الذي لَا تُطِيْقُ غَضَبَهُ السَّمواتُ والأَرْضُ والجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ قُلْتُ فَكَيْفَ لو رَأَى تدفقَ الكفرَة على المسلمين وتدفق الشبابِ على بلادِ الكُفْرِ .

وَلَمَّا عَظُمَتِ الفِتْنَةُ فِتْنَةُ الدُنْيَا ، وَصَارَتْ أَكْبَرَ هَمِّهِمْ ، وَمَبْلَغَ عِلْمِهِم حَمَلَهُم ذَلِكَ عَلى التِمَاسِهَا وَطَلَبِهَا وَلَو بمَا يُسْخِطُ اللهَ ، فَسَافَرُوا إلى أَعْدَاءِ اللهِ في بِلَادِهِم ، وَخَالَطُوهُمْ في أَوْطَانِهِم وَلَبَّسَ عَلَيْهِم الشيطانُ أَمْرَ دِيْنِهِم فَنَسُوا عَهْدَ اللهِ وَمِيْثَاقَهُ الذي أَخَذَ عَلَيهم ، في مِثْلِ قَولِهِ تعالى وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوْهُ ، وما نَهَاكُم عَنه فَانْتَهُوْا .

وقال تَعَالى لَمَّا ذَكَر حَالَ المُنَافِقِيْنَ ﴿ أُولئكَ الذينَ يَعْلَمُ اللهُ ما في

قُلوبِهم ، فَأَعْرِضْ عَنْهُم وعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُم في أَنْفُسِهِم قولاً بَلِيْغاً ﴾ قال بعضُ المُفَسِرِيْنَ ، أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ صلى اللهُ عليهِ وسلم بالإعْرَاضِ عَن المُنَافِقِينَ واغْلاَظِ القولِ عَلَيْهِم وأَنْ لاَ يَلْقَاهُم بوجْهٍ طَلِقٍ ، بَلْ يَكُونُ وَجْهُهُ مُكْفَهِراً عَابِساً مُتَغَيِّراً مِن الغَيْظِ فاذا كَانَ هَذَا مَعَ المنافقين ، الذينَ بَيْنَ أَظْهُرِ المُسْلِمِينَ ، يُصَلُّونَ مَعَهُم وَيُجاهِدُوْنَ مَعَهُم وَيَحُجُّونَ فَكَيْفَ بِمَنْ يُسَافِرُ إلى المُشْرِكينَ وَأَقامَ بَيْنَ أظهُرِهِمْ أَيَّاماً وَلَيَالِياً واسْتَأْذَنَ عَلَيهِم في بُيُوتِهِم وَبَدَأَهُم بالسَّلامِ وَأَكْثَرَ لَهُم التَّحِيَّةَ وَأَلآن لَهُمْ الكَلامَ وَلَيْسَ لَهُ عُذْرٌ إلا طلبُ العَاجِلَةِ ولم يَجْعَلِ اللهُ الدُّنْيا عُذْراً لِمَن اعْتَذَرَ بِهَا قال تعالى ﴿ قل إنْ كَانَ آباؤكُم ﴾ الآية

وقال الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله :

وَاللهُ حَرَّمَ مُكْثَ مَنْ هُوَ مُسْلِمٌ ... في كُلِّ أَرْضٍ حَلَّهَا الكُفَّارُ
ولَهُمْ بِهَا حُكم الوِلايَةِ قاهِرٌ ... فارْبَأْ بِنَفْسِكَ فالْمقَامُ شَنَارُ
وانْظُرْ حَدِيْثاً في البَرَاءَةِ قَدْ أَتَى ... نَقْلُ الثِّقَاةِ رُوَاتُهُ الأَخْيَارُ
فيه البَرَاءَةُ بالصَّرَاحَةِ قَدْ أَتَتْ ... مِن مُسْلم وكَذاكَ الآثَارُ
قَدْ صَرَّحَتْ فِيمَنْ أَقَامَ بِبَلْدَةٍ ... مُسْتَوْطناً وَوُلاتُهَا الكُفَّارُ

وقال في آخِرِ كَلاَمِهِ : فالوَاجِب على العاقل الناصحِ لِنفسهِ النَّظَرُ في أَمْرِهِ والفِكْرُ في ذُنُوبِهِ وَمُجَاهَدَةُ نَفْسِهِ على التَّوبَةِ النَّصُوحِ ، والنَّدَمُ على مَا فَاتَ ، والعَزِيْمَةُ عَلى أَن لا يَعُودَ ، والتَّبديلُ بالعَمَلِ الصَّالِحِ وَتَقْدِيمُ مَحَبَّةِ الله على جَمِيْعِ المَحَابِّ وايثَارُ مَرْضَاتِهِ على حُظُوظِ النَّفْسِ ، فَإنَّ كُلَّ شَيءٍ ضَيَّعَهُ ابْنُ آدَمَ رُبَّمَا يَكُونُ لَهُ مِنه عَوَضٌ ، فإن ضَيَّعَ حَظَّهُ مِن اللهِ لم يَكُنْ لَه عِوَضٌ ، قُلْتُ وقد أَحْسَنَ مَن قَالَ :

« مِنْ كُلِّ شَيءٍ إذا ضَيَّعْتَهُ عَوَضٌ ... وَمَا مِن اللهِ إنْ ضَيَّعْتَه عَوَضُ »

وقَدْ خَابَ مَن كَانَ حَظُّهُ مِن اللهِ دُنْيَا يَحْتَلِبُ دَرَّهَا ، والخَاسِرُ مَن خَسِر دِينَهُ، وانْ أَفَادَ في دُنْيَاهُ نسأل اللهَ بأسْمائِه الحُسْنَى أن يأْخُذَ بِنَواصِيْنَا إليه وأن يُلْزِمَنَا كَلِمَةَ التَّقْوَى وأَنْ يَجْعَلَنَا مِن أَهْلِهَا وصلى الله عَلى محمدٍ

شـعراً :

بَكَيْتَ فَمَـا تَبْكِيْ شَبَـابَ صِبَـاكَـا
كَفَـاكَ نَـذِيْـرُ الشَّيْبِ فِيْكَ كَفَـاكَـا

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ الشَّيْبَ قَـدْ قَـامَ نَـاعِيـاً
مَكَـانَ الشَّبَـابِ الغَضِّ ثُمَّ نَعَـاكَـا

أَلَـمْ تَـرَ يَـوْمـاً مَـرَّ إلا كَـأَنَّـهُ
بـاهـلاكـه لِلْهَـالِكِيْـنَ عَـنَـاكَـا

أَلاَ أَيُّهَـا الفَـانِي وقَـدْ حَـانَ حَيْنُـهُ
أَتَـطْمَـعُ أَنْ تَبْقَى فَلَسْتَ هُنَـاكَـا

سَتَمْضِيْ وَيَبْقَى مَـا تَـرَاهُ كَمَـا تَرَى
فَـيَنْسَـاكَ مَـنْ خَـلَّفْتَـهُ هُـوَ ذَاكَـا

تَمُـوتُ كَمَـا مَـاتَ الَّـذينَ نَسِيْتَهُمْ
وَتُنْسَى وَيَهْـوَى الحَيُّ بَعْدَ هَـوَاكَـا

كَـأَنَّـكَ قَـدْ أُقْصِيْتَ بَعْـدَ تَـقَـرُّبٍ
إِلَيْـكَ وَإِنْ بَـاكٍ عَلَيْـكَ بَكَـاكَـا

كَـأَنَّ الـذيْ يَحْثُوْ عَلَيْكَ مِن الثَّرَى
يُـرِيْدُ بِمَـا يَحْثُو عَلَيْـكَ رِضَـاكَـا

كَـأَنَّ خُطُوْبَ الـدَّهْرِ لَمْ تَجْرِ سَـاعَـةً
عَلَيْـكَ اذا الخَطْبُ الجَلِيْـلُ دَهَـاكَـا

تَـرَى الأَرْضَ كَمْ فِيْهَـا رُهُـونٌ كَثِيْرَةٌ
غَـلِقْنَ فَـلَمْ يَحْصُـلْ لَهُـنَّ فِكَـاكَـا

اللهم انا نسألك التوفيقَ لِلْهدايةِ والبُعدَ عن أسبابِ الجهالةِ والغِوَايَةِ ونسألك الثباتَ على الاسلامِ والسنةِ ، وأن لا تَزِيْغَ قُلُوبَنَا بَعدَ اذ هَدَيْتَنَا ، وَنَعُوذُ بِكَ مِن مُضِلاَتِ الفِتَنِ ، مَا ظَهَرَ منها ومَا بَطَنَ ونسألكَ أَنْ تَنْصُرَ دِيْنَكَ ، وَكِتَابَكَ ورسولكَ وعبادَكَ المؤمنين وأن تُظْهِرَ دِيْنَك على الدين كلِهِ ولو كره الكافِرون والله أعلم وصلى الله على محمد .

(فَصْــلٌ)

وقال ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ الله تعالى :

ومِن تمامِ مَحَبَّةِ اللهِ مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ ، وَكَرَاهَةُ مَا يَكْرَهُهُ ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئاً مِمَّا كَرِهَهُ اللهُ ، أَوْ كَرِهَ شَيْئاً مِمَّا يُحِبُّهُ اللهُ ، لم يَكْمُلْ تَوْحِيْدُهُ وصِدْقُهُ في قَولِهِ لاَ إلهَ إلا اللهُ ، وكانَ فِيه مِن الشِرْكِ الخَفي بحَسَبِ مَا كَرِهَهُ مِمَّا أَحَبَّه اللهُ ، وَمَا أَحَبَّه مِمَّا يَكْرَهُهُ الله .

قال اللهُ تعالى ﴿ ذلكَ بأَنَّهم اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فأَحْبَطَ أَعْمَالَهُم﴾ وقال الحسنُ إعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تُحِبَّ اللهَ حَتَّى تُحِبَّ طَاعَتَهُ وقال بَعْضُهم كُلُّ مَن ادَّعى مَحَبَّةَ اللهِ ولم يُوافِقِ اللهَ في أَمْرِهِ فَدَعْوَاهُ بَاطِلَةٌ .

وقال يَحْيَى بنُ مُعَاذٍ لَيْسَ بِصَادِقٍ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللهِ ولم يَحْفَظْ حُدُوْدَه ، وقال رُوَيْمُ المَحَبَّةُ الموافقةُ في جَمِيْعِ الأحوالِ وانشد يقول :

« وَلَـوْ قُلْتَ لِيْ مُتْ مُتُّ سَمْعاً وَطَـاعَـةً
وَقُلْتُ لِـدَاعِي المَـوْتِ أَهْـلاً وَمَـرْحَبَـا »

وَيَشْهَدُ لِهَذَا المَعْنَى قولُه تعالى ﴿ قُلِ إن كُنْتُم تُحِبُونَ اللهَ فاتَّبِعُونِي يُحِبِبْكُم اللهُ ﴾ وقال الحَسَنُ قالَ أَصْحَابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم : إنَّا نُحِبُّ رَبَّنَا حُباً شَدِيْداً ، فَأَحَبَّ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ لِحُبِّهِ عَلَامَةً فَأَنْزَلَ هَذِهِ الآية .

ومِنْ هُنَا يُعْلَمُ أَنَّه لا تَتِمُّ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ إِلَّا بِشَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللهِ ، فإذا عُلِمَ أَنَّهُ لَا تَتِمُّ مَحَبَّةُ اللهِ إلا بِمَحَبَّةِ ما يُحِبُّهُ وَكَرَاهَةِ مَا يَكْرَهُهُ ، فَلَا طَرِيْقَ إلى مَعْرِفَةِ مَا يُحِبُّهُ وَيَكْرَهه إِلَّا باتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ واجْتِنَابِ ما نَهى عَنْهُ ، فَصَارَتْ مَحَبَّتُهُ مُسْتَلْزِمَةً لِمَحَبَّةِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم وَتَصْدِيْقِهِ وَمُتَابَعَتِهِ .

وَلِهَذَا قَرَنَ اللهُ مَحَبَّتَهُ وَمَحَبَّةَ رَسُولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ قُلِ انْ كَانَ آباؤُكُم وأَبْنَاؤُكُم وإخْوانُكُم ﴾ إلى قَوْلِهِ ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِن اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ كَمَا قَرَنَ طَاعَتَهُ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ في مَوَاضِعَ كَثِيْرَةٍ .

وقال صَلَّى اللهُ عليه وسلم « ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإيمانِ ، أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُه أَحَبَّ إليه مِمَّا سِوَاهُمَا ، وأَنْ يُحِبَّ المرءَ لَا يُحِبُّهُ إلا لِلهِ ، وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَرْجِعَ إلى الكُفْرِ بَعْد إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى في النارِ » ،وَهَذِهِ حَالَةُ السَّحَرَةِ لَمَّا سَكَنَتْ المَحَبَّةُ في قُلُوبِهِم سَمَحُوا بِبَذْلِ نُفُوسِهِم ، وقالُوا لِفِرْعَونَ اقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ .
وَمَتى تَمَكَّنَتِ المَحَبَّةُ مِن القَلْبِ لَمْ تَنْبعِثِ الجَوَارِحُ إلَّا إلى طاعةِ الربِ ، وَهذا مَعْنَى الحَدِيْثِ الإلهي « ولا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ

وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ التي يَمْشِيْ بها » وفي بَعْضِ الرِوَايَاتِ فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ .

والمَعْنَى أَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ إذَا اسْتَغْرَقَ بِهَا القَلْبُ واسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ لَمْ تَنْبَعِثْ الجَوَارِحُ إِلاَّ إلى رِضَا الرَّبِ ، وَصَارَتِ النَّفْسُ مُطْمَئِنَةً حِيْنَئِذٍ بإرادَةِ مَوْلاَهَا عَن مرادِهَا وَهَواهَا ، وفي بعض الكتب السابقة مَن أحَب الله لم يكن شيء عِنْدَهُ آثر من رضاه .

وقال : لا يَنْجُو غداً إِلاَّ مَن أَتَى اللَّهَ بقَلْبٍ سَلِيْم ، لَيْسَ فِيْهِ سِواهُ ، قال تعالى ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ إِلاَّ مَن أَتَى اللهَ بقَلْبٍ سَلِيْم ﴾ وهُوَ الطَّاهِرُ مِن أَدْنَاسِ المُخَالَفَاتِ .

فأمَّا المُتَلَطِّخُ بِشَيءٍ مِن المَكْرُوْهَاتِ ، فَلاَ يَصْلَحُ لِمُجَاوَرَةِ حَضْرةِ القُدُّوسِ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يُطَهَّرَ بِكِيْرِ العَذَابِ فإذَا أَزَالَ عَنْهُ الخَبَثَ صَلَحَ حِيْنَئِذٍ لِلْمُجَاوَرَةِ إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبا ، فأمَّا القُلُوبُ الطَّيبَةُ فَتَصْلُحُ لِلْمُجَاوَرَةِ مِن أَوَلِ الأَمْرِ ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكم بما صَبَرْتُم فَنِعْمَ عُقْبَي الدَّارِ﴾ ﴿سلامٌ عَلَيْكُم فادْخُلُوْهَا خالدِين﴾ ﴿ الذينَ تَتوفَاهُم الملائكةُ طَيِّبيْنَ يقولون سَلام عليكم ادخُلُوا الجنةَ بما كنتم تعملون ﴾ .

مَنْ لَمْ يُحرِّقْ نَفْسَهُ اليومَ بِنَارِ الأَسَفِ عَلى مَا سَلَفَ أَوْ بِنَارِ الشَّوْقِ إلى لِقَاءِ الحَبِيْبِ ، فَنَارُ جَهنَّم أَشَدُّ حَراً مَا يَحْتَاجُ إلى تَطْهِيرِ بِنَارِ جَهَنَّمَ إلا مَنْ لَمْ يُكَمِّلِ التَّوحِيْدَ والقِيَامَ بحُقُوقِهِ .

أَوَّلُ مَن تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ مِن المُوَحِّدِيْنَ المُرَاؤُوْنَ بأَعْمَالِهِم وَأَوَّلُهُم العَالِمُ والمُتَصَدِّقُ والمُجَاهِدُ لِلرِّيَاءِ ، ولأَنَّ الرياءَ شِرْكٌ ما تَظَاهَرَ المُرائي

إلى الخَلْقِ بِعَمَلِهِ إلا لِجَهْلِهِ بِعَظَمةِ الخَالِقِ ، المُرَائِي يُزَوِّرِ التَّوْقِيْعَ على اسْمِ المَلِكِ لِيأخُذَ البَرَاطِيْلَ لِنَفْسِهِ ، وَيُوْهِمُهُمْ أَنَّهُ مِن خَاصَّةِ المَلِكِ ، وَهُوَ مَا يَعْرِفُ المَلِكَ بالكُلِّيَةِ ، نَقَشَ المُرَائِي عَلى الدِّرْهَمِ الزَائِفِ اسْمَ المَلِكِ لِيُرَوِّجَ والبَهْرَجُ لا يَجُوْزُ إلَّا على غَيْرِ النَّاقِدِ .

وقال ابنُ القِيَم رَحِمَهُ اللهُ مَن أَحَبَّ شَيْئاً سِوَى اللهِ ولم تَكُنْ مَحَبَّتُهُ لَهُ لِلهِ ولا لِكَوْنِهِ مُعِيْناً لَهُ على طاعةِ اللهِ ، عُذِّبَ بِهِ في الدنيا قَبْلَ اللِّقَا كما قِيْلَ :

أَنْتَ القَتِيْلُ بِكُلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ
فاخْتَرْ لِنَفْسِكَ في الهَوَى مَن تَصْطَفِي

فإذا كانَ يومُ القِيَامَةِ ، وَلَّى الحَكَمُ العَدل سُبْحَانَهُ كُلَّ مُحِبٍ ما كَانَ يُحِبُّهُ في الدُّنْيَا فَكَانَ مَعَهُ إِمَّا مُنعماً وإِمَّا مُعَذَّباً ، ولِهَذَا يُمَثَّلُ لِمُحِبِ المَالِ مَالُهُ شُجَاعاً أَقْرَع ، يَأْخُذُ بِلِهْزَمَتَيْهِ ، يَقُولُ أَنَا مَالُكَ أنا كَنْزُكَ وَيُصَفَّحُ لَهُ صَفَائِحَ مِن نَارٍ يُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ ، وَجَبِيْنُهُ ، وَظَهْرُهُ .

وكذا عَاشِقُ الصُوَرِ إِذَا اجْتَمَعَ هُوَ وَمَعْشُوْقُهُ عَلى غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ ، جُمِعَ بَيْنَهُمَا في النارِ وَعُذِبَّ كُل مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ ، قال تعالى ﴿ الأخلاّءُ يومَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌ إلا المُتَقِيْنَ ﴾ وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الذينَ تَوادُوْا في الدُنْيَا عَلَى الشِرْكِ يَكْفُرُ بَعْضُهم بِبعْضٍ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُم بَعْضاً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَمَالَهُمْ مِن نَـاصِرِيـن .

فالمُحِبُ مَعَ مَحْبُوْبِهِ دُنْيَاً وأُخْرَى ، وَلِهَذَا يَقُولُ تَعالَى يومَ القِيَامَةِ لِلْخَلْقِ أَلَيْسَ عَدْلاً مِنِّي أَنْ أُوَلِيْ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا كَانَ يَتَوَلّى في دَارِ

الدُّنْيَا قال صلى الله عليه وسلم المَرْءُ مَن أَحَبَّ .

وقال تعالى ﴿ ويومَ يَعَضُ الظَّالِمُ على يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيْلاَ يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لم أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيْلاَ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وكان الشيطانُ لِلإنسانِ خذولا ﴾ .

وقال تعالى ﴿ أُحْشُرُوْا الذينَ ظَلَمُوا وأَزْوَاجَهم وما كَانُوا يَعْبُدونَ مِن دون الله ﴾ إلى قوله ﴿ مالكم لا تناصرون ﴾ قال عُمَرُ بـنُ الخطابِ رضي الله عنه أَزْوَاجَهُم أَشْبَاهَمُ وَنُـظَرَاؤُهُم ، وقال تعـالى ﴿ وإذا النُفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ .

فَقُرِنَ كُلُّ شَكْلٍ إلى شَكْلِهِ ، وَجُعِلَ مَعَه قَرِيْنَا وَزَوْجاً ، البَرُّ مَعَ البَرِ والفَاجِرُ مَعَ الفَاجِرِ .

والمَقْصُودُ أَن مَنْ أَحَبَ شَيْئاً سِوَى اللهِ فالضَّرَرُ حَاصِلٌ لَهُ بِمَحْبُوبِهِ إنْ وُجِدَ وَإن فُقِدَ ، فإِنَّهُ إنْ فَقَدَهُ عُذِبَ بِفَوَاتِهِ ، وَتَأَلَّمَ على قَدْرِ تَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِهِ ، وانْ وَجَدَهُ كَانَ مَا يَحْصُلُ له مِن الألمِ قَبْلَ حُصُولِهِ ، ومِن النَّكَدِ في حَالِ حُصُوْلِهِ ، وَمِن الحَسْرَةِ عليه بَعْدَ فَوَاتِهِ ، أَضْعَافُ مَا فِي حُصُولِهِ لَهُ مِن اللَّذَةِ .

وَهَذَا الأَمْرُ مَعْلُومٌ بالاسْتِقْرَاءِ ، والاعْتِبَارِ ، والتَّجَارُبِ ولِهَذَا قَالَ النَّبيُ صلَّى اللهُ عليه وسلم في الحديثِ الذي رواه الترمذي وَغَيْرُهُ الدنيا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ ما فِيها إلَّا ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَالاهُ .

فَذِكْرُهُ جميْعُ أَنْوَاعِ طَاعَتِهِ فَكُلُ مَن كانَ في طَاعَتِهِ فَهُوَ في ذِكْرِهِ ، وانْ لَمْ يَتَحَرَّكْ لِسَانُهُ بالذِكْرِ ، وَكُلُّ مَن وَالاهُ اللهُ فقد أَحَبَّهُ وَقَرَّبَهُ فاللَّعْنَةُ لا تَنالُ ذلكَ بِوَجْهٍ وَهِيَ نَائِلَةٌ كُلَّ مَا عَدَاه .

اللهم أرزقنَـا العَـافِيَةَ في أَبْدانِنَا والعِصْمَةَ في دِيْنِنَا وأَحْسِنْ مُنْقَلَبِنَا وَوَفِّقْنَا لِلْعَمَلِ بطاعَتِكَ أَبَدَاً ما أَبْقَيْتَنَا واجْمَعْ لَنَا بَينَ خَيْرَيَ الدنيا والآخِرةِ

واغْفِرْ لنا وَلِوالِدِيْنا وَلِجَميعِ المسلمين الأحياءِ منهُمْ والمَيِّتين برحْمتِكَ يا أَرحَمَ الراحمين وصلّى اللّهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين .

(فصـــل)

عِبادَ اللهِ إن كَلِمَةَ التوحيدِ « لا إله إلاَّ اللهُ » ، هِيَ العُروةُ الوُثْقَى وهي التي فَطَرَ اللهُ عليها جميعَ خَلقِهِ .

وَلَهَا أَرْكَان وشُرُوط ، فأركانُها إثنان : نَفْيٌ وإِثْبَات . وحَدُ النَّفْي مِن الإِثبات « لا إلهَ * ، أيْ نَافِياً جَميْعَ ما يُعْبَدُ مِن دُوْنِ الله . والإِثباتُ « إلا اللهُ » أيْ مُثْبتاً العَبادَةَ لِلَّهِ وحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ في عِبادَتِهِ كما أنه لا شَرِيْكَ لَهُ في مُلْكِهِ .

وأمَّا شُرُوْطُهَا فَسَبْعةٌ لا تَصِحُ هَذِه الكَلِمَةُ ولا تَنْفَعُ قائِلَهَا إلا إذَا اسْتَجْمَعَتْ لَه الشُرُوط التي تَلِي :

الأَوَلُ : العِلْمُ ، بِمَعْنَاهَا نَفيـاً وإِثْبَاتاً قال الله تعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إلهَ إلا اللهُ ﴾ وقال : ﴿ إلاَ مَنِ شَهدَ بالحِق وهم يَعلمون ﴾ وقال ﷺ : « مَن مَاتَ وهَو يَعْلَمُ أن لا إلهَ إلا الله دَخَلَ الجنة » .

الثاني : اليَقِيْنُ ، أيْ اسْتِيْقَانُ القَلْبِ بِهَا قال الله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يَرْتَابُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم

لأبي هريرة : « من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة » كلاهما في الصحيح .

الثالث : الإخلاص ، قال الله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ وقال : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ وعن أبي هريرة قال : قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث .

أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه » .

وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » رواه مسلم .

الرابع : الصدق ، قال الله تعالى : ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ عن ابن عباس قال من جاء بلا إله إلا الله ، وقال : ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صِدْقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار » متفق عليه . وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم : « يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه » الحديث رواه مسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي علمه شرائع الإسلام : « أفلح إن صدق » .

الخامس : المحبة ، قال الله تعالى : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرأ لا يحبه إلا لله » الحديث متفق عليه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » متفق عليه .

السادس : الانقياد لها ظاهراً وباطناً ، قال الله تعالى : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

السابع : القبول لها ، وقد جمع بعضهم شروط « لا إله إلا الله » في بيت فقال :

عِلْمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصِدْقُكَ مَعْ ... مَحبةٍ وانقيادٍ والقبولِ لَهَا

فلا يرد شيئاً من لوازمها ومقتضياتها قال تعالى : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾ إلى قوله : ﴿ بل لما يذوقوا عذاب ﴾ .

وقال أيضاً في حق من لم يقبلها : ﴿ أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون ﴾ إلى قوله : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إلٰهَ إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ .

فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » متفق عليه .

وقد شهد الله لنفسه بالوحدانية في قوله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ .

فقد تضمنت هذه الآية الكريمة حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضلال فقد تضمنت أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود به .

وعبارات السلف في « شهد » تدور على الحكم والقضاء والاعلام والبيان والأخبار وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها .

فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه فلها أربع مراتب .

فأول مراتبها : علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته .

وثانيها : تكلمه بذلك وإن لم يعلم به غيره بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها .

وثالثها : أن يعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له .

ورابعها : أن يلزمه بمضمونها ويأمره به . فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع علمه بذلك وتكلمه وإخباره لخلقه وأمرهم وإلزامهم به .

فأما مرتبة العلم ، فإن الشهادة تتضمنها ضرورة وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به قال الله تعالى : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « على مثلها فاشهد » وأشار إلى الشمس ، وأما مرتبة التكلم والخبر فقال تعالى : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ فجعل ذلك منهم شهادة وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ولم يؤدوها عند غيرهم .

وأما مرتبة الإعلام والإخبار فنوعان : إعلام بالقول ، وإعلام بالفعل ، وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر ، تارة يعلمه به بقول وتارة بفعل .

ولهذا كان من جعل داره مسجداً وأبرزها وفتح طريقها وأذن للناس بالدخول والصلاة فيها معلماً أنها وقف وإن لم يتلفظ .

وكذا شهادة الرب عز وجل وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة وبفعله أخرى فالقول ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه .

وأما بيانه وإعلامه بفعله فكما قال ابن كيسان : شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه أن لا إله إلا هو ، وقال الآخر :

وفي كُلِّ شَيءٍ لَـهُ آيَـةٌ　　تَـدُلُّ عَلَى أَنَّـه الوَاحِـدُ

آخـــر :

لَه كُلُّ ذَرَّاةِ الوجُودِ شَوَاهِدٌ　　عَلَى أَنَّهُ الباري الإِلَه المُصَوِّرُ

وقال آخـــر :

تَأَمَّلْ سُطُورَ الكَائِنَـاتِ فإِنَّهَا مِن الملكِ الأعْلَى إليكَ رَسَائِلُ
وقد كَانَ فِيها لَوْ تَأَمَّلْتَ خَطُّهَا أَلَا كُلُّ شيءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ

ومما يدل على أن الشهادة تكو ن بالفعل قوله تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلونه .

وأما مرتبة الأمر بذلك والإلزام به فإن مجرد الشهادة لا يستلزمه لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه .

فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به وقضى وأمر وألزم عباده كما قال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ وقال : ﴿ وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾ والقرآن كله شاهد بذلك .

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو فقد أخبر ونبأ وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله وأن ألوهية ما سواه باطلة .

فلا يستحق العبادة سواه كما لا تصلح الإلهية لغيره ، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهاً والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهاً .

ولا إله إلا الله هي كلمة التوحيد التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلمه عليهم أجمعين .

وما من رسول إلا جعلها مفتتح أمره وقطب رحاه كما قال نبينا ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني

دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » .

وحق هذه الكلمة هو فعل الواجبات وترك المحرمات .

وأما فائدتها وثمرتها فالسعادة في الدنيا والآخرة لمن قالها عارفاً لمعناها عاملاً بمقتضاها وأما مجرد النطق فلا ينفع .

قال شيخ الإسلام : من اعتقد أنه بمجرد تلفظه بالشهادة يدخل الجنة ولا يدخل النار فهو ضال مخالف للكتاب والسنة والاجماع .ا هـ .

اللهم أَلْحِقنا بعبادك الصالحين الأبرار ، وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حَسَنة . وقنا عذاب النار ، واغفر لنا ولوالدينا ، ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

مَـــوعظـــة

عِبَادَ اللهِ إنَّ لِكَلِمَةِ التَّوْحِيْدِ فَضَائِلُ عَظِيْمَةٌ لا يُمْكِنُ اسْتِقْصَاؤُهَا مِنْهَا أَنَّها كَلِمَةُ الإسلامَ وأَنَّها مِفْتَاحُ دَارِ السَّلامِ فَيَا ذَوِيْ العُقُولِ الصِّحَاحِ وَيَا ذَوِيْ البَصَائِرِ والفَلاحِ جَدِّدُوْا إِيْمَانَكُم في المَسَاءِ والصَّبَاحِ بِقولِ لَا إِلهَ إلا اللهُ مِن أَعْمَاقِ قُلُوبِكُم مُتَأَمِلِّيْنَ لِمَعْنَاهَا عَامِلِيْنَ بِمُقْتَضَاهَا .

عِبَادَ اللهِ مَا قَامَتِ السَّمواتُ والأَرْضُ ولا صَحَّتِ السُّنَّةُ والفَرْضُ ولا نَجَا أَحَدُ يَوْمَ العَرْضِ إلَّا بِلَا إِلَه إلا اللهُ ولا جُرِّدَتْ سُيُوفُ الجِهَادِ ، ولا أُرْسِلَتِ الرُسُلُ إلى العِبَادِ ، إلا لِيُعَلِّمُوهم العَمَلَ بِلاإِلهَ إلا اللهُ .

تَاللهِ إِنَّها كَلِمَةُ الحَقِ ، وَدَعْوَةُ الحَقِّ وَأَنَّهَا بَرَاءَةٌ مِن الشِرْكِ وَنَجَاةُ

هَذا الأَمْرِ وَلأَجْلِهَا خَلَق اللهُ الخَلْقَ ، كَمَا قَال تعالى ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إلَّا نُوحي إليْهِ أنَّهُ لَا إِلَهَ إلَّا أنا فَاعْبُدُوْن ﴾ وقال تعالى ﴿ يُنَزِّلُ الملائِكَةَ بالرُّوْحِ مِن أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوْا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إلا أَنَا فاتَّقُوْنِ ﴾ .

قال ابنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللهُ ما أَنْعَمَ اللهُ على عبدٍ مِن العِبَادِ نِعْمَةً أفْضَلَ مِن أنْ عَرَّفَهُ لَا إِلَهَ إلا اللهُ ، وإنَّ لا إلهَ إلَّا اللهُ لأَهْلِ الجَنَّةِ كَالمَاءِ البَارِدِ لأَهْلِ الدُّنْيَا وَلأَجْلِهَا أُعِدَّتْ دَارُ الثَّوَابِ ، وَدَارُ العِقَابِ وَلأَجْلِهَا أمِرَتِ الرُّسُلُ بالجِهَادِ .

فَمَنْ قَالَهَا عَصَمَ مَالَهُ وَدَمَهُ ، وَمَن أَبَاهَا فَمَالُهُ وَدَمُهُ حَلَالٌ ، وَبِهَا كَلَّمَ اللهُ مُوْسَى كِفَاحاً وَهِيَ أَحْسَنُ الحَسَنَاتِ كَمَا في المُسْنَدِ عن شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ ، وَعُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ النَّبِيَ صلَّى اللهُ عليه وسلم قالَ لِأصْحَابه ، ارْفَعُوا أَيْدِيَكُم وَقُولُوا لَا إِلهَ إلا اللهُ ، فَرَفَعْنَا أَيْدِيَنَا سَاعَةً فَوَضَعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم يَدَهُ وَقَالَ الحَمْدُ لِلهِ اللَّهُم بَعَثْتَنِي بِهَذِهِ الكَلِمَةِ ، وَأَمَرْتَنِي بِهَا وَوَعَدْتَنِي الجَنَّةَ وإنَّكَ لا تُخْلِفُ المِيْعَاد .

ثُم قَالَ أَبْشِرُوْا ، فانَّ اللَّهَ قَد غَفَرَ لَكُمْ وَهِيَ أَحْسَنُ الحَسَنَات ، وَهِيَ تَمْحُو الذُنُوبَ والخَطَايَا .

وفي سنن ابنِ مَاجَةَ عَن أُمِّ هَانِيءٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لَا إِلهَ إلا اللهُ لا تَتْرُكُ ذنْباً ولا يَسْبِقُهَا عَمَلٌ ، وَرُوِيَ بَعْضَ السَّلَفِ بَعْدَ مَوْتِهِ في المَنَامِ فقَالَ مَا أَبْقَتْ لَا إِلهَ إلا اللهُ شَيْئاً وَهِيَ تُجَدِّدُ ما دَرَسَ مِن الإِيمانِ في القَلْبِ .

وفي المسندِ أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال لِأَصْحَابِهِ جَدِّدُوْا إِيْمَانَكُم قَالُوا كَيْفَ نُجَدِّدُ إِيْمَانَنَا قَالَ قُوْلُوا لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ ، وهيَ الَّتِي لَا يَعْدِلُهَا شَيءٌ في الوَزْنِ ، فَلَو وُزِنَتْ بالسمواتِ والأَرْضِ لَرَجَحَتْ بِهِنَّ .

كَمَا في المسندِ عن عبدِ اللهِ بنِ عمروٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صلى الله عليه وسلم «أَنَّ نُوحاً عليهِ السلامُ قالَ لِابْنِهِ عندَ مَوْتِهِ آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فانَّ السمواتِ السبعَ والأَرضِينَ السَّبْعَ لَوَ وُضِعْنَ في كفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلهَ إِلا اللهُ بِكَفَّةٍ لَرَجَحَتْ بِهِنَّ وَلَوْ أَنَّ السَّمواتِ السبعَ والأَرضِينَ كُنَّ في حَلَقَةٍ مُبْهَمَةٍ فَصَمَتْهُنَّ لا إِلهَ إِلا اللهُ » .

وإِنَّهَا تَرْجَحُ بالسمواتِ والأَرْضِ كَمَا في حَدِيْثِ عبدِ اللهِ بن عمروٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ أَنَّ مُوْسَى عليه السلامُ قالَ يَا رَبُّ عَلِّمْنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوْكَ بِهِ ، قال يَا مُوْسَى قُلْ لَا إِلـهَ إِلا اللهُ قال مُوسى يا ربُّ كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا .

قال يَا مُوسَى قُلْ لَا إِلهَ إِلا اللهُ قال لا إِلهَ إِلا اللهُ إِنَّما أُرِيْدُ شيئاً تَخُصُّنِيْ بِهِ ، قَالَ يَا مُوْسَى لَوْ أَنَّ السمواتِ السبعَ والأَرضِيْنَ السَّبْعَ وَعامِرَهُنَّ غَيْرِي في كفَّةٍ ولا إِلـهَ إِلَّا اللهُ في كفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلـهَ إِلا اللهُ .

وكذلكَ تَرْجحُ في صَحَائِفِ الذُنُوْبِ ، كَمَا في حَدِيْثِ السِّجِلاتِ ، والبِطَاقَةِ ، وفي حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمـروٍ فِيْمَا أخرجه أحمدُ والنسائِيُّ والترمذيُّ عن النبي صلَّى الله عليه وسلم .

وهِيَ التي تَخْرِقُ الحُجُبَ ، حَتَّى تَصِلَ إِلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وإِنَّهَا

لَيْسَ لَها دُوْنَ اللهِ حِجَابِ ، لِمَا تَقَدَّمَ وَلِمَا في التِرمِذِي عن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو وعن النبي صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ لَا إِلـهَ إِلَّا اللَّهُ لَيْسَ لَها دُوْنَ اللّه حِجَاب .

وَأَنَّهَا تُفْتَحُ لَهَا أَبوابُ السَّمَاءِ كَمَا في حَدِيْثِ أَبِي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه عن النبي صلَّى الله عليه وسلم أنه قَالَ مَا مِن عَبْدٍ قال لَا إِلـهَ إِلَّا اللهُ مُخلصاً إلا فُتِّحَت لهَا أَبْوَابُ السماءِ حتى تُفْضِيْ إلى العَرْشِ .

وَيُرْوَى عن ابن عباس رضِيَ اللهُ عنهما مَرْفُوْعَاً مَا مِنْ شَيْءٍ إلا بَيْنَهُ وبيْنَ اللهِ حِجَابٌ ، إلا قَولُ لَا إِلَهَ إلا اللهُ كَمَا أَنَّ شَفتيْكَ لا تَحْجِبُهَا كذَلِكَ لا يَحْجِبُهَا شَيْءٌ حَتَّى تَنْتَهِيْ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَوَرَدَ عن النبي صلى الله عليه وسلم مَنْ قال لَا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَه ، لَهُ المُلْكُ ولَهُ الحَمْدُ وَهو على كُلِّ شيءٍ قَدِيْر مُخْلِصاً بِهَا قَلْبُهُ يُصَدِّقُ بِهَا لِسَانُهُ إلا فَتَقَ اللهُ لَهُ السَّمَاءَ فَتْقاً حَتَّى يَنْظُرَ إلى قَائِلِهَا مِن أَهْلِ الأَرْضِ ، وَحَقٌّ لِعَبْدٍ نَظَرَ اللهُ إليهِ أَنْ يُعْطِيهُ سُؤآلَهُ ، وهِيَ الكَلِمَةُ التِي يُصَدِّقُ اللهُ قَائِلَهَا .

كَمَا في حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِيْ سَعيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلم قالَ«إذ قَالَ العبدُ لا إلهَ إلَّا اللهُ واللهُ أَكْبَرُ صَدَّقَهُ رَبُّهُ . وَقَال لَا إِلـهَ إلا أَنَا ، وأَنا أَكْبَرُ ، وإِذَا قال لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ قَالَ اللهُ لَا إِلـهَ إِلَّا أَنَا وَحْدِيْ لَا شَرِيْكَ لِيْ ، وَإِذا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريك لَه ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ ، قال اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنا لِيَ

المُلْكُ وَلِيَ الحَمْدُ ، وإذَا قَالَ العَبْدُ لَا إلَـهَ إلاَّ اللهُ ولَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلا باللهِ قَالَ اللهُ لَا إلهَ إلاَّ أنا ولا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلا بِي» وكَانَ يَقُولُ مَن قَالَهَا في مَرَضِهِ ثُمَّ مَاتَ لَم تَطْعَمْهُ النارُ .

وهِيَ أَفْضَلُ مَا قَالَهُ النَّبِيُّونَ كَمَا وَرَدَ ذَلِكَ في دُعَاءِ عَرَفَةَ وهِيَ أَفْضَلُ الذِكْرِ كَمَا في حَدِيْثِ جَابِرِ المَرْفُوعِ أَفْضَلُ الذِكْرِ لَا إلَهَ إلاَّ اللهُ وعن ابن عباس رَضِيَ الله عنهما أَحَبُّ كَلِمَةٍ إلى اللهِ لا إلَهَ إلاَّ اللهُ ، لا يَقْبَلُ اللهُ عَمَلاً إلا بِهَا .

وهِيَ أَفْضَلُ الأَعْمَالِ ، وَأَكْثَرُهَا تَضْعِيْفاً وَتَعْدِلُ عِتْقَ الرِّقَابِ وَتَكُونُ حِرْزاً مِن الشَّيْطَانِ ، كما في الصَّحِيْحَيْنِ عن أبي هريرة رضيَ اللهُ عنه عن النبي صلَّى الله عليه وسلم قالَ مَن قال لَا إلـهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ في يَومٍ مَائَةَ مَرَّةٍ ، كَانَتْ لَهُ عِدْلُ عَشْرُ رِقَابٍ ، وكُتِبَ لَهُ مائَةُ حَسَنَةٍ ، وَمُحِيَ عَنه مائَةُ سَيِّئَةٍ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جاءَ بِهِ ، إلاَّ وَاحِدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنَ ذَلِكَ .

وَوَرَدَ أَنَّ مَن قَالَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ كَانَ كَمَنَ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِن وَلَدِ اسْمَاعِيلَ ، وفِي الترمذي عن عُمَرَ مَرْفُوعاً مَن قَالَهَا إذا دَخَلَ السُوقَ وَزادَ

فِيهَا يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوْتُ بِيَدِهِ الخيرُ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَـدِيْرٌ كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَى عنه أَلْفَ سَيِّئَةٍ وَرَفَعَ لَهُ أَلفَ أَلفِ دَرَجَةٍ وفي روايةٍ يُبْنَي لَهُ بَيْتاً في الجَنَّةِ .

وَمِن فَضَائِلِهَا أَنَّهَا أَمَانٌ مِن وَحْشَةِ القَبْرِ وَهَوْلِ المَحْشَرِ كَمَا في المُسْنَدِ وَغَيرِهِ عن النبي صلَّى الله عليه وسلم لَيس على أَهْلِ لا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْشَةٌ في قُبُوْرِهِم ولا في نُشُوْرِهِم ، وَكَأَنِّي بأهلِ لا إِلَهَ إلا اللهُ يَنْفُضُوْنَ التُرَابَ عن رُؤُوسِهِم وَيَقُوْلُون الحمـدُ لِلهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّـا الحَزَنَ .

وفي حديثٍ مُرْسَلٍ مَنْ قَالَ لَا إِلـهَ إِلَّا اللهُ المَلِكُ الحَقُّ المُبِيْنُ كُلَّ يَوْمٍ مائَةَ مَرَّةٍ كانَتْ أَمَاناً مِن الفَقْرِ ، وَأُنْساً مِن وَحْشَةِ القَبْرِ ، واسْتُجْلِبَ بِهِ الغِنَى ، واسْتُقْرِعَ بِهِ بَابُ الجَنَّةِ وَهِيَ شِعَارُ المُؤْمِنِيْنَ إذا قَامُـوْا مِن قُبُورِهِم .

ومِن فَضَائِلِهَا أَنَّها تَفْتَحُ لِقَائِلِهَا أَبْوَابَ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةَ ، يَدْخُلُ مِن أَيِّهَا شَاءَ وفي الصَّحِيْحَيْنِ عن عُبَادَةَ بنِ الصامِتِ رَضِيَ الله عنه عن النبي صلَّى الله عليه وسلم قالَ مَن شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ ، وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُوَرَسُولُهُ ، وأنَّ عِيْسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا

إلى مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِنْهُ ، وأنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ ، والنارَ حَقٌّ وأنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فيها ، وأنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن في القُبُورِ ، فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوابُ الجَنَّةِ الثَّمانِيَةِ يَدْخُلُ مِن أَيِّهَا شَاءَ .

وفي حديثِ عبدِ الرحمن بن سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه عن النبي ﷺ في قِصَّةِ مَنَامِه الطَّوِيْلِ ، وفيه قال رَأَيْتُ رَجُلًا مِن أُمَّتي انْتَهَى إلى أَبْوَابِ الجَنَّةِ فَأُغْلِقَتْ دُوْنَـهُ ، فَجَـاءَتْـهُ شَهادَةُ أَنْ لَا إِلهَ إلا اللَّهُ فَفَتَحَتْ لَهُ الأَبْوَابَ وأَدْخَلَتْهُ الجَنَّةَ .

وَمِن فَضَائِلِهَا أَنَّ أَهْلَهَا وانْ دَخَلُوا النَّارَ بِتَقْصِيْرِهِم في حُقُوقِهِم ، فانَّهُم لَا بُدَّ أَنْ يَخْرُجُوا مِنها ، وفي الصحيحين عن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه عن النبي ﷺ يَقُولُ اللَّهُ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَن قالَ لَا إله إلَّا اللَّهُ أهـ .

قال ابن القيم رحمه الله أصلُ الأعمال الدينية حُبُّ الله ورسولِه كما أن أَصْلَ الأقوال الدينية تصديقُ الله ورسوله ، وكل إرادة تمنع كمال حب الله ورسوله وتزاحم هذه المحبة فانها تمنع كمال التصديق .

فهي معـارضـة لاصـل الايمان أو مضعفـة له . فان قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفراً أو شركاً أكبر وإنْ لم تعارضه قدحت في كماله وأثرت فيه ضعفاً وفتوراً في العزيمة والطلب ، وهي تحجب الواصل وتقطع الطالب وتنكي الراغب .

فلا تصلح الموالاة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فانهم عدو لي إلا رب العالمين) فلم تصلح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة فان ولاية الله لا تصح إلا بالبراءة من كل معبود سواه .

قال تعالى ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله . كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ .

وقال تعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فانه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبة لعلهم يرجعون ﴾ أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبة يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض .

وهي كلمة : لا إله إلا الله ، وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة .

وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات وفطر الله عليها جميع المخلوقات ، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة ، وجردت سيوف الجهاد .

وهي محض حق الله على جميع العباد .

وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار ، وهي المنشود الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه .

وهي كلمـة الإسلام ومفتاح دار السلام ، وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد ومقبول وطريد .

وبها انفصلت دار الكفر من دار السلام وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان .

وهي العمود الحامل للفرض والسنة « ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » .

وروح هذه الكلمة وسرها إفراد الرب جل ثناؤه وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره بالمحبة والاجلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلك ، من التوكل والانابة والرغبة والرهبة .

فلا يحب سواه ، بل كل ما كان يحب غيره فانما هو تبعاً لمحبته وكونه وسيلة إلى زيادة محبته ولا يخاف سواه ولا يرجو سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يرهب إلا منه .

ولا يحلف إلا باسمه ، ولا ينذر إلا له ، ولا يتاب إلا إليه ، ولا يطاع إلا أمره ، ولا يحتسب إلا به ، ولا يستعان في الشدائد إلا به ، ولا يلتجأ إلا إليه ، ولا يسجد إلا له ، ولا يذبح إلا له وباسمه . يجتمع ذلك في حرف واحد هو : أن لا يعبد بجميع أنواع العبادة إلا هو .

فهذا هو تحقيق شهادة أن لا آله إلا الله ، ولهذا حرم الله على النار أن تأكل من شهد أن لا آله إلا الله حقيقة الشهادة ، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها كما قال تعالى ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ فيكون قائماً بشهادته في باطنه وظاهره وفي قلبه وقالبه .

فان من الناس من تكون شهادته ميتة .

ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت ، ومنهم من تكون مضطجعة ، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب . وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن .

فروح ميتة وروح مريضة إلى الموت أقرب .

وروح إلى الحياة أقرب ، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن .

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ « إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت الا وجدت روحه لها روحاً » .

فحياة هذه الروح بهذه الكلمة فكما ان حياة البدن بوجود الروح فيه وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها .

فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى وعيشها أطيب عيش ، قال تعالى ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى ﴾ .

فالجنة مأواه يوم اللقاء ، وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفرح به والرضى عنه وبه مأوى روحه في هذه الدار .

فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد ، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرماناً .

والأبرار في نعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت بهم الدنيا ، والفجار في جحيم وان اتسعت عليهم الدنيا ، قال تعالى ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ .

وطيب الحياة جنة الدنيا ، قال تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ فأي نعيم أطيب من شرح الصدر ، وأي عذاب أشد من ضيق الصدر .

وقال تعالى ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشاً وأنعمهم بالاً وأشرحهم صدراً وأسرهم قلباً ، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة . قال النبي ﷺ « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » قالوا وما رياض الجنة ؟ قال « حلق الذكر » .

ومن هذا قوله ﷺ « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » ومن هذا قوله ، وقد سألوه عن وصاله في الصوم وقال « أني لست كهيئتكم إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني » .

فأخبر ﷺ أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسي ، وأن ما يحصل له من ذلك أمر مختص به لا يشركه فيه غيره ، فأذا أمسك عن الطعام والشراب فله عوض عنه يقوم مقامه وينوب منابه ويغنى عنه كما قيل :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها ... عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضيء به ... ومن حديثك في أعقابها حادي
إذا اشتكت من كلال السير أوعدها ... روح اللقاء فتحي عند ميعاد

وكلما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تألمه بفقده أشد ، وكلما كان عدمه أنفع كان تألمه بوجوده أشد ، ولا شيء على الاطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله ، واشتغاله بذكره وتنعمه بحبه ، وإيثاره لمرضاته . بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك .

فعدمه آلم شيء له وأشد عذاباً عليه ، وإنما تغيب الروح عن شهود هذا الألم والعذاب لاشتغالها بغيره واستغراقها في ذلك الغير فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم العقوبة بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها .

وهذا بمنزلة السكران المستغرق في سكره الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرته .

حتى إذا صحا وكشف عنه غطاء السكر وانتبه من رقدة الخمر فهو أعلم بحاله حينئذ ، وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والاشراف على مفارقة الدنيا والانتقال منها إلى الله .

بل الالم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف أضعاف ذلك ، فان المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته في الدنيا بالعوض ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له ، فكيف بمن مصيبته بما لا عوض عنه ولا بدل منه ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعها .

فلو قضي الله سبحانه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديراً به وان الموت ليعد أكبر أمنيته وأكبر حسراته ، هذا لو كان الألم على مجرد الفوات ، كيف وهناك من العذاب على الروح والبدن أمور أخرى مما لا يقدر قدره ؟ .

فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي . فاعرض على نفسك الآن أعظم محبوب لك في الدنيا ، بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه فأصبحت وقد أخذ منك وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه ، كيف يكون حالك هذا ومنه كل عوض ؟ فكيف بمن لا عوض عنه ؟ كما قيل :

وما ضَرَّني إتْلافُ عُمريَ كُلِّهِ   إذا المَرَاضِي اللَّهِ أصْبَحْتُ حَائِزَا

وفي الأثر الآلهي « ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب . وتكفلت برزقك فلا تتعب . ابن آدم اطلبني تجدني فان وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب اليك من كل شيء » انتهى كلامه رحمه الله .

اللهم عَلِّمْنَا ما يَنْفَعُنَا وانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا ولا تَجْعَلْ عِلْمَنَا وَبَالاً عَلَيْنَا اللَّهُمَّ قَوي مَعْرِفَتَنَا بِكَ وَبِأَسْمَائِكَ وَصِفَاتِكَ وَنَوِّرْ بَصَائِرَنَا وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّاتِنَا يا رَبَّ العالمين واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وصلَّى الله على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجْمَعِينَ .

قال الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله :

رَسَائِلُ إخوانِ الصَّفَا والتَّوَدُدِ إلى كل ذِيْ قَلْبٍ سَلِيْمٍ مُوَحِّدِ

وَمِن بَعْدِ حَمْدِ اللهِ والشُكْـرِ والثَّنَا
صَـلاةً وَتَسْلِيْمـاً عَلَى خَيْـرِ مُـرْشِـدِ

وآلٍ وَصَحْبٍ والسـلامُ عَلَيْكُمُ
بِعَـدِّ وَمِيْضِ البَـرْقِ أَهْـلَ التَّـوَدُّدِ

وَبَـعْـدُ فَقَـدْ طَمَّ البَـلاءُ وَعَمَّـنَـا
مِن الجَهْلِ بالدِّيْنِ القَوِيْمِ المُحَمَّـدِي

بِمَـا لَيْسَ نَشْكُوْ كَشْفَـهُ وَانْتِقَـادَنَـا
لِغَيْـرِ الإلـهِ الـوَاحِـدِ المُـتَـفَـرِّدِ

ولـم يَبْقَ إلاَّ النَـزْرُ في كُـلِّ بَلْدَةٍ
يُـعَـادِيْهُمُ مِن أَهْـلِهَـا كُـلُّ مُعْـتَـدِ

فَهُبُّـوْا عِبَادَ اللهِ مِن نَـوْمَـةِ الـرَّدَى
إلى الفِقْـهِ في أَصْلِ الهُـدَى والتَّجَرُّدِ

وَقَدْ عَنَّ أَنْ نُهْدِيْ إلى كُـلِّ صَاحِبٍ
نَضِيْـداً مِن الأَصْلِ الأَصِيْـلِ المُؤَطَّدِ

فَـدُوْنَكَ مَـا نُهْـدِي فَهَـلْ أَنْتَ قَـابِـلٌ
لِـذَلِكَ أَمْ قَـدْ غِيْنَ قَلْبُـكَ بـالـدَّدِ

تَـرُوْقُ لَـكَ الـدُّنْيَا وَلَـذَّاتُ أَهْلِهَـا
كَـأَنْ لَمْ تَصِرْ يَـوْمـاً إلى قَبْـرِ مَلْحَـدِ

فان رمت أَنْ تَنْجُـوْ مِن النارِ سَـالِمـاً
وَتُـحْـظَى بِـجَـنَّـاتٍ وَخُـلْدٍ مُـؤَبَّـدِ

وَرَوْحٍ وَرَيْـحَـانٍ وَأَرْفَـهِ حِـبْـرَةٍ
وَحُـوْرٍ حِسَـانٍ كَـالـيَـوَاقِـيْتِ خُـرَّدِ

فَحَقِّقْ لِتَوْحِيدِ العِبَادَةِ مُخْلِصاً
بِأَنْوَاعِهَا لِلَّهِ قصداً وَجَرِّدِ
وَأَفْرِدْهُ بالتَّعْظِيمِ والخَوْفِ والرَّجَا
وبالحُبِّ والرُّغْبَى إلَيْهِ وَجَرِّدِ
وبالنَّذْرِ والذَّبْحِ الذي أَنْتَ نَاسِكٌ
ولا تَسْتَغِثْ إلَّا بِرَبِّكَ تَهْتَدِ
وَلَا تَسْتَعِنْ إلَّا بِهِ وَبِحَوْلِهِ
لَهُ خَاشِياً بَلْ خَاشِعاً في التَّعَبُّدِ
وَلَا تَسْتَعِذْ إلا بِهِ لَا بِغَيْرِهِ
وَكُنْ لَائِذاً باللَّهِ في كُلِّ مَقْصَدِ
إلَيْهِ مُنِيْباً تَائِباً مُتَوَكِلاً
عَلَيْهِ وَثِقْ باللهِ ذِيْ العَرْشِ تَرْشُدِ
وَلَا تَدْعُ إلَّا اللَّهَ لا شَيْءَ غَيْرَهُ
فَدَاعٍ لِغَيْرِ اللهِ غَاوٍ وَمُعْتَدِ
وفي صَرْفِهَا أَوْ بَعْضِهَا الشِّرْكُ قَدْ أَتَى
فَجَانِبْهُ واحْذَرْ أَنْ تَجِيءَ بُموْبِدِ
وَهَذَا الذي فِيْهِ الخصومة قَدْ جَرَتْ
عَلَى عَهْدِ نُوحٍ والنَّبِيِّ مُحَمَّدِ
وَوَحِدْهُ في أَفْعَالِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ
مُقِراً بأَنَّ اللهَ أَكْمَلُ سَيِّدِ
هُوَ الخَالِقُ المُحْيِي المُمِيْتُ مُدَبِرٌ
هُوَ المَالِكُ الرَّزَّاقُ فَاسْأَلْهُ واجْتَدِ

إلى غَيْـرِ ذَا مِن كُـلِّ أَفْعَـالِـهِ التِي
أَقَـرَّ وَلَمْ يَجْحَـدْ بِهَـا كُـلُّ مُلْحِـدِ
وَوَجِّـدْهُ فـي أَسْـمَـائِـهِ وصِفَـاتِـهِ
ولا تَـتَـأوَّلْـهَـا كَـرَأْيِ الـمُـفَـنَّـدِ
فَـلَيْسَ كَمِـثْـلِ الـلهِ شَيْءٌ وَلَا لَـهُ
سَمِيٌّ وَقُـلْ لاَ كُفْـوَ لـلهِ تَـهْتَـدِ
وَذَا كُـلُّهُ مَـعْـنَـى شَـهَـادَةِ أَنَّـهُ
إلـٰهُ الـوَرَى حَـقـاً بِـغَـيْـرِ تَـرَدُّدِ
فَحَقِّقْ لَهَـا لَفْـظاً وَمَعْـنىً فَـإِنَّـهَـا
لَنِعْمَ الـرَّجَا يَـوْمَ اللقَـا لِلْمُـوَحِّـدِ
هِيَ العُـرْوَةُ الـوُثْقَى فَكُنْ مُتَمَسِّكـاً
بِهَـا مُسْتَقِيْماً في الـطَّرِيْقِ المُحَمَّـدِي
فَـكُنْ وَاحِـداً فـي وَاحِـدٍ وَلِـوَاحِـدٍ
تَـعَـالَـى ولا تُـشْـرِكْ بِـهِ أَوْ تُـنَـدِّدِ
وَمَنْ لَمْ يُقَيِّـدْهَـا بِكُـلِّ شُـرُوْطِهَـا
كَمَـا قَـالَـهُ لأَعْـلَامُ مِن كُـلِّ مُهْتَـدِ
فَلَيْسَ عَلَى نَهْـجِ الشَّـرِيْعَـةِ سَالِكـاً
وَلَـكِـنْ عَـلَى آراءِ كُـلِّ ملـدِّدِ
فَـأَوَّلُـهَـا العِـلْمُ المُـنَـافِي لِضِـدِّهِ
مِن الجَهْـلِ إِنَّ الجَهْلَ لَيْسَ بِمُسْعِـدِ
فَلَوْ كَـانَ ذَا عِلْمٍ كَـثِيْـرٍ وَجَـاهِـلٌ
بِمَـدْلُـوْلِهَـا يَـوماً فَبـالجَهْـلِ مُـرْتَـدِ

وَمِن شَـرْطِهَـا وَهُـوَ القَبُـولُ وَضِـدُّهُ
هُـوَ الرَّدُ فـافْهَمْ ذَلِكَ القَيْـدَ تَـرْشُـدِ
كَحَالِ قُرَيْشٍ حِيْنَ لَمْ يَقْبَلُوا الهُـدَى
وَرَدُّوْهُ لَـمَّـا أنْ عَتَـوْا فـي الـتَّـمَـرُّدِ
وَقَـدْ عَلِمُـوْا مِنهَـا المُـرَادَ وَأَنَّـهَـا
تَـدُلُ عَـلَى تَـوحِيْـدِهِ وَالـتَّـفَـرُّدِ
فَقَـالُـوا كَمَـا قَدْ قَـالَـهُ اللَّهُ عَنْهُمُ
بِسُـوْرَةِ (صٓ) فـاعْلَمَنْ ذَاكَ تَهْتَـدِ
فَـصَـارَتْ بِـهِ أَمْـوَالُهُـمْ وَدِمَـاؤُهُـمْ
حَـلالاً وَأَغْنَـامـاً لِكُـلِ مُـوَحِّـدِ
وَثَـالِثُهَـا الإِخْـلَاصُ فـأَعْلَمْ وَضِـدُّهُ
هُـوَالشِّرْكُ بـالمَعْبُودِ مِن كُـلِ مُلْحِـدِ
كَـمَـا أَمَـرَ اللهُ الـكَـرِيْـمُ نَـبِيَّـهُ
بِسُـوْرَةِ تَنْزِيْـلِ الكتَـابِ المُمَجَّـدِ
ورَابِعُهَـا شَـرْطُ المَحَبَّـةِ فَلتَـكُـنْ
مُحِبـاً لِمَـا دَلَّـتْ عَـلَيْـهِ مِـن الـهُـدِ
واخْـلاصُ أَنْـوَاعِ الـعِبَـادَةِ كُـلِّهَـا
كَـذَا النَفْيُ لِلشِّـرْكِ المُفَنَّـدِ والـدَّدِ
وَمَـنْ كَـانَ ذَا حُـبٍ لِمَـوْلَاهُ إِنَّـمَـا
يَـتِـمُّ بِـحُـبِّ الـدِّيْـنِ دِينِ مُحَمَّدِ
فَعَـادِ الـذِيْ عَـادَى لِـدِيْنِ مُحَمَّـدِ
وَوَالِ الـذِي وَالَاهُ مِن كُـلِ مُهْتَـدِ

وَأَحْبَبْ رَسُولَ اللهِ أَكْمَلَ مَن دَعَى
إلى اللهِ والتَّقْوَى وَأكْمَلَ مُرْشِدِ
أَحَبَّ مِن الأَوْلَادِ والنَّفْسِ بَلْ وَمِنْ
جَمِيْعِ الوَرَى والمَالِ مِن كُلِّ أتْلَدِ
وَطَارِفِهِ والوَالِدَيْنِ كِلَيْهِمَا
بِآبَائِنَا والأُمَّهَاتِ فَنَفْتَدِ
وأَحْبِبْ لِحُبِّ اللهِ مَن كَانَ مُؤْمِناً
وَأَبْغِضْ لِبُغْضِ اللهِ أَهْلَ التَّمَرُّدِ
وَما الدِّيْنُ إلَّا الحُبُّ والبُغْضُ والوَلَا
كَذَاكَ البَرَا مِن كُلِّ غَاوٍ وَمُعْتَدِ
وَخَامِسُهَا فالإنْقِيَادُ وضِدُّهُ
هُوَ التَّرْكُ لِلْمَأْمُوْرِ أَوْ فِعْلُ مُفْسِدِ
فَتَنْقَادُ حَقاً بالحُقُوْقِ جَمِيْعِهَا
وَتَعْمَلُ بالمَفْرُوْضِ حَتْماً وَتَقْتَدِ
وَتَتْرُكُ مَا قَدْ حَرَّمَ اللهُ طَائِعاً
وَمُسْتَسْلِماً لِلهِ بِالقَلْبِ تَرْشُدِ
فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لِلهِ بِالقَلْبِ مُسْلِماً
وَلَمْ يَكُ طَوْعاً بِالجَوارِحِ يَنْقَدِ
فَلَيْسَ عَلى نَهْجِ الشَّرِيْعَةِ سَالِكاً
وإنْ خَالَ رُشْداً مَا أَتَى مِن تَعَبُّدِ
وَسَادِسُهَا وَهُوَ اليَقِيْنُ وَضِدُّهُ
هُوَ الشَّكُّ في الدِّيْنِ القَوِيْمِ المُحَمَّدِي

وَمَنْ شَــكَّ فَلْيَبْكِي عَلَى رَفْضِ دِيْنِـهِ
ويَعْلَمَ أَنْ قَــدْ جَاءَ يَــوماً بِمَــوْئِــدِ

وَيَـعْلَمْ أَنَّ الـشَّــكَ يَنْفِيْ يَـقِـيْـنَـهَـا
فَــلا بُــدَّ فِيْهَــا بــالـيَقِـيْنِ المُؤَكَّــدِ

بِـهَــا قَلْبُــهُ مُـسْـتَـيْقِـنــاً جَــاءَ ذِكْــرُهُ
عَنِ السَّـيِدِ المَعْصُـومِ أَكْمَـلَ مُـرْشِـدِ

وَلاَ تَنْفَــعُ المَــرْءَ الشَهــادَةُ فَــاعْلَمَنْ
إِذَا لَــمْ يَكُــنْ مُسْـتَقِـيْنــاً ذَا تَـجَــرُّدِ

وَسَــابِعُهَـا الصِّــدْقُ المُنَــافِي لِضِــدِّهِ
مِنَ الكَـذِبِ الدَّاعِي إِلَى كُـلِّ مُفْسِـدِ

وَعَــارِفُ مَعْنَـاهَــا إذا كَــانَ قَــابِــلاً
لَهَــا عــامِــلاً بـالمُقْتَضَى فَهْــوَ مُهْتَـدِ

وَطَــابَــقَ فِـيْــهَــا قَـلْبُــه لِــلِسَـانِـهِ
وعــن وَاجِبَــاتِ الــدِيْـنِ لَــم يَـتَـبَـلَّدِ

وَمَنْ لَمْ تَقُمْ هَـذِهِ الشُرُوْطُ جَمِيْعُهَـا
بِقَــائِلِها يَــوْمــاً فَلَيْسَ عَلَى الهُــدِي

اذا صَــحَّ هَــذَا واسْـتَـقَــرَّ فَــانَّــمَــا
حَقِيْقَتُــهُ الاسـلامُ فَــاعْلَمْــهُ تَــرْشُــدِ

وإن لَــهُ ـ فَـاحْـذَرْ هُـدِيْتَ ـ نَــوَاقِضاً
فَمَنْ جَــاءَ مِنهــا نَــاقِضــاً فَلْيُـجَــدِّدِ

فَقَــدْ نَقَضَ الإِسـلامَ وارْتَــدَّ واعْتَـدَى
وزَاغَ عَــن الــسَّـمْـحَــاءِ فَـلْيَـتَشَـهَّــدِ

فَمِنْ ذَاكَ شِـرْكٌ في العِبَـادَةِ نَـاقِضٌ
وَذَبْـحٌ لِغَيْـرِ الـوَاحِـدِ الـمُـتَـفَـرِّدِ
كَمَنْ كَـانَ يَغْـدُوْ لِلْقِبَـابِ بِـذَبْحِـهِ
ولِلْجِنِ فِعْـلَ المُشـرِكِ المُتَـمَـرِّدِ
وجَـاعِـلِ بَيْنَ اللهِ - بَغْيـاً - وَبَيْـنَـهُ
وَسَـائِطَ يَـدْعُـوْهُـمْ فَلَيْسَ بِـمُهْـتَـدِ
وَيَـطْلُبُ مِنْهُم بـالخضُـوعِ شَفَـاعَـةً
إلى اللهِ والـزُّلْـفَى لَـدَيْـهِ وَيَـجْتَـدِ
وَثَـالِثُهَـا مَـن لَمْ يُـكَفِّـرْ لِكَـافِـرٍ
وَمَـنْ كَـانَ في تَـكْـفِـيْـرِهِ ذَا تَـرَدُّدِ
وَصَحَّـحَ عَمْداً مَـذْهَبَ الكُفْرِ والـرَّدَى
وذَا كُلُّهُ كُفْـرٌ بـاجْمَـاعِ مَن هُـدِي
وَرابِـعُـهَـا فـالاعْـتِـقَـادُ بِـأَنَّـمَـا
سِوَى المُصْطَفَى الهَادِيْ وَأَكْمَلِ مُرْشِدِ
لأَحْسَنُ حُكْمـاً في الأُمُـورِ جَمِيْعِهَـا
وَأَكْمَـلُ مِنْ هَـدْيِ النبيِ مُحَـمَّـدِ
كَحَـالَـةِ كَعْبٍ وابنِ أَخْـطَبَ والـذِي
عَلَى هَـدْيِهِم مِن كُـلِّ غَـاوٍ وَمُعْتَـدِ
وَخَـامِسُهَا يَـا صَاحِ مَنْ كَانَ مُبْغِضَـاً
لِشَيْءٍ أَتَى مِن هَـدْيِ أَكْـمَـلِ سَيِّـدِ
فَقَـدْ صَـارَ مُـرْتَـداً وانْ كَـانَ عَـامِـلاً
بِـمَـا هُـوَ ذَا بُغْضٍ لَـهُ فَلْيُـجَـدِّدِ

وَذَلِـكَ بـالاجْمَـاعِ مِن كُـلِّ مُهْتَـدٍ
وقـد جَـاءَ نَصٌ ذِكْـرُهُ في (مُحَمَّـدِ)
وَسَادِسُهَـا مَن كَـانَ بـالـدِّيْنِ هـازِئـاً
ولـو بـعِقَـابِ الـوَاحِـدِ الـمُـتَـفَـرِّدِ
وَحُـسْنُ ثَـوَابِ الـلهِ للعبـد فَلْتَـكُنْ
عَلى حَـذِرٍ مِن ذلـكَ القِيْـلِ تَـرْشُـدِ
وَقَـدْ جَـاءَ نَصٌ في (بَـرَاءَةَ) ذِكْـرُهُ
فَـرَاجِعْـهُ فِيهـا عِنـدَ ذِكْـرِ التَّهَـدُّدِ
وَسـابِعُهَـا مَنْ كَـانَ لِلَسِّحْـرِ فـاعِـلاً
كَـذَلِـكَ رَاضٍ فِـعْلَهُ لَـم يُـفَـنِّـدِ
وفي سُـوْرَةِ (الـزَّهْـرَاءِ) نَصٌ مُصَـرِّحٌ
بِتَكْـفِيْـرِهِ فـاطْـلُبْـه مِن ذَاكَ تَـهْتَـدِ
وَمِنه لَعَمْرِي الصَّرْفُ والعَطْفُ فاعْلَمَنْ
أخِيَ حُكْمَ هَـذَا المُعْتَـدِي المُتَمَـرِّدِ
وَثَـامِـنُهَـا وهِـيَ الـمُـظَاهَـرَةُ الَّتِي
يُعَـانُ بِهَـا الكفـارُ مِـن كُـلِّ ملحِدِ
على المُسْلِمِيْنَ الْطائِعِينَ لِـرَبِهِـم
عِيـاذَاً بِكَ اللَّهُمَّ مِن كُـلِّ مُفْسِـدِ
وَمَـن يَـتَـولَّـى كَـافِـراً فَـهْـوَ مِـثْلُهُ
وَمِـنْـهُ بـلا شَـكٍ بِـه أَوْ تَـرَدُّدِ
كَمَـا قَـالَـه الـرَّحْمٰن جَـلَّ جَلاَلُـهُ
وَجَـاءَ عن الهـادِي النبـيِ مُحَـمَّـدِ

وتـاسِـعُهَـا وَهُـوَ اعْـتِقَـادٌ مضَـلِّلٌ
وصَـاحِبُهُ لا شَـكَّ بـالكُفْـرِ مُـرْتَـدِ

كَـمُعْـتَقِـدٍ أَنْ لَـيْسَ حَـقـاً وَوَاجِـبـاً
عَلَيه اتِّبـاعُ المُصْـطَفى خَيـرِ مُـرْشِدِ

فَـمَنْ يَـعْتَـقِـدْ هَـذَا الضَّـلاَلَ وأنَّـهُ
يَسَعْـهُ خُـرُوْجٌ عَن شَـرِيْعَـةِ أَحْمَـدِ

كَمَـا كَانَ هَـذَا في شَـرِيْعَةِ مَن خَـلاَ
كَصَـاحِبِ مُـوْسَى حَيْثُ لَمْ يَـتَقَـيَّـدِ

هُوَ الخَضِرُ المَقْصُوصُ في (الكهفِ) ذِكْرُهُ
وَمُـوْسَى كَلِيْمِ اللهِ فـافْهَمْ لِمَقْصَـدِ

وَهَـذَا اعْـتِقَـادٌ لِـلْمَـلاحِـدَةِ الأُولَى
مَشَـايِـخِ أَهْـلِ الإتِّحَـادِ الـمُفَـنَّـدِ

كَنَحْـوِ ابنِ سِيْنَـا وابنِ سَبْعِيْنَ والـذي
يُسَمَّى ابْنَ رُشْـدٍ والـحَفِـيْـدِ المُـلَدَّدِ

وَشَيْخٍ كَبِيْرٍ في الضَـلاَلةِ صَاحِبُ اْلْـ
ـفُصُـوصِ وَمَن ضَاهَـاهُمُ في التَّمَـرُّدِ

وَعَـاشِـرُهَـا الإعْـرَاضُ عن دِيْنِ رَبِّنَـا
فَـلاَ يَـتَـعَـلَّمْـهُ فَـلَيْسَ بِـمُـهْـتَـدِ

وَمَن لَمْ يَكُنْ يَـوماً مِن الـدَّهْرِ عَـامِلاً
بِـهِ فَهُـوَ في كُـفْـرَانِـهِ ذُوْ تَعَـمُّـدِ

وَلاَ فَـرْقَ في هَـذِي النَّـواقِضِ كُلِّهَـا
إذا رُمْـتَ أَنْ تَـنْـجُـوْ وَلِلْحَقِّ تَهْـتَـدِ

هُنَالِكَ بَيْنَ الهَزْلِ والجِدِّ فاعْلَمَنْ
ولا رَاهب منهم لِخَوْفِ التَّهَدُّدِ

سِوَى المُكْرَهِ المَضْهُودِ إِنْ كَانَ قَدَ أَتَى
هُنَالِكَ بالشَّرْطِ الأَطِيْدِ المُؤَكَّدِ

وَحَاذِرْ ، هَدَاكَ اللهُ ، مِن كُلِّ نَاقِضٍ
سِوَاهَا ، وَجَانِبْهَا جَمِيْعَاً لِتَهْتَدِ

وَكُنْ بَاذِلاً لِلْجِدِّ والجُهْدِ طَالِباً
وَسَلْ رَبَّكَ التَّثْبِيْتَ أَيَّ مُوَحِّدِ

وإِيَّاهُ فارْغَبْ في الهِدَايَةِ لِلْهُدَى
لَعَلَّكَ أَنْ تَنْجُو مِن النارِ في غَدِ

وَصَلِ الهِي مَا تَألَّقَ بَارِقٌ
وما وَخَدَتْ قُودُ بِمَوْرٍ مُعَبَّدِ

تَؤُمُّ إلى البَيْتِ العَتِيْقِ وَمَا سَرَى
نَسِيْمُ الصَّبَا أو شَاقَ صَوْتُ المُغَرِّدِ

وَمَا لَاحَ نَجْمٌ في دُجَى اللَّيْلِ طَافِحُ
وما انْهَلَّ صَوْبٌ في عَوَالٍ وَوُهَّدِ

على السَّيدِ المَعْصُومِ أَفْضَلَ مُرْسَلٍ
وأكَرَمَ خَلْقِ اللهِ طُراً وَأَجْوَدِ

وآلٍ وَأَصْحَابٍ وَمَن كَانَ تَابِعاً
صَلاةً دَوَاماً في الرَّوَاحِ وفي الغَدِ

[نبذة من زهده ﷺ]

كان رسول الله ﷺ أزهد الناس ، ويكفيك في تعريف ذلك أن فقره ﷺ كان فقر اختياري لا فقر اضطراري .

لأنه ﷺ فُتِحَتْ عليه الفتوحُ وجُلِبَتْ إليه الأموالُ ، ومات ودِرْعُهُ مَرهونةٌ عند يهودي في نفقة عياله ، وهو يدعو : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا .

وقالت عائشة رضى الله عنها : ما شبعَ رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تِباعاً مِن خُبزٍ حتى مَضى لِسَبيْلِه ، ولو شاء لأعطاهُ الله ما لا يخطر ببالٍ .

وعنها قالت : ما تركَ رسول الله ﷺ دِيناراً ولا شاة ولا درهماً ولا بعيراً ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذُو كبدٍ إلا شطر شعير في رَفٍّ لي .

وقال لي : إني عَرَضَ عَليَّ ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، فقلتُ لا يارب أجُوعُ يوماً وأشبعُ يوماً ، فأما اليومُ الذي أجُوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذي أشبعُ فيه فأحْمدُكَ وأثْني عليك .

وعنها قالت : إنْ كُنَّا آلُ محمد لنمْكُثُ شهرا ما نَسْتَوقِدُ نارا ، إن هو إلا التمرُ والماء .

وعنها قالت : لم يمتل جَوفُ النبي ﷺ شِبَعاً قط ، ولم يَبُث إلى أحدٍ شكوى .

وكانت الفاقة أحَبَّ إليه من الغِنَى ، وإنْ كان لَيَظَلُّ جائعا يَلْتَوى طُولَ لَيلته مِن الجوع ، فلا يَمْنَعُه مِن صِيام يوم ولو شاء لَسَألَ ربه جميع كُنُوز الأرض وثِمارِهَا ورغد عيشها .

ولقد كنتُ أبكي له رحمةً مما أرى به وأمْسَحُ بيدي على بطنه مما به من

الجوع ، وأقول نفسي لك الفداء ، لو تَبَلَّغْتَ مِن الدنيا بما يَقُوتُكَ .

فيقول يا عائشة مَا لِي ولِلدُّنْيَا إخواني أولو العَزْمِ من الرسل صَبَرُوْا على مَا هُو أشَدُّ من هذا فَمَضَوْا على حالهم فقَدِمُوا على ربهم وأكرمَ مآبَهُم وأجْزَل ثوابَهم .

وأجدني اسْتَحِي إن تَرَفَّهْتُ في مَعِيشَتِي أن يُقَصِّرني غداً دُونَهم .

وما مِن شيءٍ أحب إلي مِن اللحُوقِ بإخواني وأخلائي ، قالت : فما أقام بعد إلا شهرا ثم توفي ﷺ .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما رفع رسول الله ﷺ قطُّ غَدَاءً لِعَشاءٍ ولا عَشاءَ قَطُّ لِغَداء .

ولا اتخذ من شيء زوجين لا قميصين ولا ردائين ولا إزارين ، ومن النعال ولا رئى قط فارغا في بيته إما يخصف نعلا لرجل مسكين أو يخيط ثوبا لأرملة .

وعن أنس بن مالك أن فاطمة عليها السلام جَاءَتْ بكِسرةٍ خُبْزٍ إلى النبي ﷺ ، فقال : ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟

قالت : قرص خَبَزْته فلم تطب نفسي حتى أتيتُك بهذه الكسرة ، فقال : أما إنه أوَّلُ طعامٍ دَخَل فَمَ أبِيْكِ مُنْذُ ثلاثة أيام .

وروى مسلم عن النعمان قال : ذكر عمر ما أصاب الناس من الدنيا ، فقال : لقد رأيتُ رسول يظل يلتوي ما يجد من الدقل ما يَمْلأ بطنَه .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : إن كان ليمر بآل رسول الله ﷺ الأهِلَّة ما يُسْرَجُ في بيت أحد منهم سراج ولا يوقد فيه نار إن وجدوا زيتا إدهنوا به وإن وجدوا ودكاً أكلوه رواه أبو يعلي ورواته ثقاة .

عن عبدالله بن مسعود قال : نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه ، قلنا يارسول الله لو اتخذنا لك وطاء .

فقال : ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب أستظل تحت شجرة ثم راح وتركها ، رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه .

قال عمر بن الخطاب : دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير فجلستُ فإذا عليه إزارُهُ وليس عليه غيره وإذا الحصيرُ قد أثَّرَ في جَنْبِهِ .

وإذا أنا بقَبْضَةٍ مِن شعير نحو الصاع وقرظ في ناحية الغرفة ، وإذا إهاب معلق (الإِهاب : الجلد) فابتدرت عيناي .

فقال : ما يُبْكِيكَ يا ابن الخطاب ؟ فقلتُ : يانبي الله وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وهذه خِزَانَتُكَ لا أرى إلا ما أرى .

وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنتَ نبي الله وصفوتُه وهذه خزانتك .

قال : يابن الخطاب أمَا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ، رواه ابن ماجه بإسناد صحيح والحاكم وقال على شرط مسلم .

روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت توفي رسول الله ﷺ وما في رَفِّي مِن شيْءٍ يَأيكلُهُ إلا شطرُ شعير في رَفٍ لِيْ فَأكلتُ منه حتى طالَ عَليَّ فَكِلْتُهُ فَفَنِي .

عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ كان يبيت الليالي المتتابعة طاوياً ، وأهله لا يجدون عشاءً ، وكان عامّة خبزهم الشعير .

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يشدُّ صُلْبَه بالحجر من الغَرَث أي الجوع .

بينما عائشة ، رضي الله عنها تُحَدِّثُ ذات يومٍ إذ بَكَتْ . قيل لها : ما يبيكيك يا أُمّ المؤمنين ؟ قالت : ما ملأت بطني من طعام ، فشئت أن أبكي إلا بكيت أذكر رسول الله ﷺ وما كان فيه من الجهد .

وعنها أيضاً أن رسول الله ﷺ كانت تأتي عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بُرّ .

وعنهـا أيضـاً : قالت : ما شبـع آل محمد ثلاثاً من خُبْز بُرّ حتى قبِض ، وما رُفِع عن مائدته كسرةٌ فضلاً ، حتى قُبِضَ .

عن الحسن (البصري) قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : « والله ما أَمْسَى في آل محمـد صاعٌ من طعـام » ، وإنها لتسعـة أبيات (بيوت زوجاته) . والله ما قالها استقلالاً لرزق الله ، ولكن أراد أن تتأسّى به أمّته .

عن أبن عباس قال : والله لقد كان يأتي على آل محمد ﷺ الليالي ما يجدون فيها عَشاءً .

عن عائشـة رضي الله عنها قالت : ما شبَع رسولُ الله ﷺ في يوم مرتـين حتى لحق بالله ، ولا رفعنـا له فَضْلَ طعامٍ عن شبَعٍ حتى لحق بالله ، إلاّ أن نَرْفعـه لغائبٍ . فقيل لها : ما كانت معيشتكم ؟ قالت : الأسـودان : المـاء والتمر . وقالتْ : وكان لنا جيرانٌ من الأنصار ، لهم ربائب يسقوننا من لبنها ، جزاهم الله خيراً .

عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ لم يجمع له غداءً ولا عَشاءً من خبز ولحم إلَّا على ضَفَفَ .

عن أنسَ بن مالك قال : شهدت للنبي ﷺ وليمةً ما فيها خبزٌ ولا لحم .

عن أنس بن مالك قال : ما أعلم رسول الله ﷺ رأى رغيفاً مرقّقاً بعينه حتى لحق بربّه ، ولا شاة سميطاً قط .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما اجتمع في بطن النبيّ ﷺ طعامان في يومٍ قطّ ، إن أكل لحماً لم يزد عليه ، وإن كان تمراً لم يزد عليه ، وإن أكل خبزاً لم يزد عليه . وكان رجلاً مِسقاماً ، وكانت العرب تَنْعَتُ له فيتداوى بما تَنْعَتْ له العرب ، وكانت العجم تنعت له فيتداوى .

عن أبي نضر قال : سمعتُ عائشة رضي الله عنها تقول : إنّي لجالسةٌ مع رسول الله ﷺ في البيت . فأهدى لنا أبو بكر رِجْلَ شاةٍ فإني لأقطعها مع رسول الله ﷺ في ظلمة البيت . فقال لها قائل : أما كان لكم سراج ؟ فقالت : لو كان لنا ما يُسْرَج به اكلناه .

عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خُبْزٍ وزيتٍ في يومٍ مرّتين .

عن عائشة قالت : بلغني أن الرجل منكم يأكل من ألوان الطعام حتى يلتمس لذلك دواءً يمرئه . فذكرتُ نبيّكم ﷺ فذاك الذي أبكاني : خرج من الدنيا ولم يملأ بطنه في يومٍ من طعامين : كان إذا شبع من التمر لم يشبع من الخبز . وإذا شبع من الخبز لم يشبع من التمر .

عن أنس بن مالك قال : ما يُرفع بين يدي رسول الله ﷺ شيءٌ قط ، ولا حُمِلت معه طِنْفسة يجلس عليها .

أخبرني الأعرج عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يجوع . قلت لأبي هريرة : وكيف ذلك الجوع ؟ قال : لكثرة مَنْ يغشاه وأضيافه ، وقومٍ يلزمونه لذلك ، فلا يأكل طعاماً أبداً إلّا ومعه أصحابه ، وأهل الحاجة يتبعونه من المسجد . فلما فتح الله خيبر ، اتّسع الناسُ بعض الاتّساع ، وفي الأمرِ بَعْدُ ضيقٌ والمعاش شديد . هي بلادٌ ظَلفٌ لا زرع فيها . إنما

طعامَ أهلها التمر ، وعلى ذلك أقاموا .

ورُوِيَ عن جابر رضى الله عنه قال : حضرنا عرسَ علي وفاطمة فما كان عرساً كانَ أحسنَ منه حَشَونا الفِراش يعني من الليف .

وأوتينا بتمر وزيت فأكلنا وكان فراشها ليلة عرسها إهاب كبش ، رواه البزار . الإهاب : الجِلْد .

عن عامر الشعبي قال : قال علي رضى الله عنه : لقد تزوجتُ فاطمة ، وما لها ولي فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلف عليه الناضح بالنهار ، وما لي ولها خادم غيرها .

وعن علي رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ لما زوَّجَهُ فاطمة بَعَثَ معها بخميلة ووسادة أدم حشوها ليف ورَحَيَيْنِ وسِقَاءٍ وجَرَّتَين .

فقال علي لفاطمة ذَاتَ يومٍ : والله سَنَوْتُ حتى اشْتَكَيْتُ صَدري (المعنى تعبتُ من إخراج الماء مِن البئر) وقد جَاء الله بسَبْي فاذْهَبِي فاسْتَخْدِمِيْهِ (أيْ اطْلُبى منه خادِمًا) .

فقالت : وأنا والله لقد طَحَنْتُ حتى مَجِلَتْ يَدِيَ من العمل فأتَتِ النبي ﷺ فقال : ما جاءَ بكِ ومَا حَاجَتَكِ أيْ بُنَيَّة ، قالت : جئتُ لأسَلِّمَ عَليكَ واسْتَحْيَتْ أن تَسْأَلَهُ فَرَجَعَتْ .

فقال علي : ما فَعَلْتِ ؟ قالت : اسْتَحْيَتُ أن أسأله ، فأتياه جَمِيعًا فقال عليٌّ : يا رسول الله والله لقد سَنَوتُ حتى اشتكيتُ صَدري .

وقالت فاطمة : لقد طَحَنْتُ حتى مَجلَتْ يَدِاي ، وقد جاءكَ الله عز وجل بسبي وسعة فأخْدِمْنَا .

فقال : والله لا أعْطِيْكُما وَأَدَعُ أهل الصُّفَّةِ تَطْوى بُطونهم لا أجدُ مَا أنفق عليهم ، ولكني أبيعهم وأنفق عليهم .

فرجَعَا وأتاهما النبي ﷺ ، وقد دخلا في قطيفتهما إذا غَطَيَا رُؤُسَهُمَا تَكَشَّفَتْ أقدامُهما ، وإذا غَطَيَا أقدامَهما تَكَشَّفَتْ رُؤسُهما فثارا فقال : مَكَانكما .

ثم قال : ألا أخْبِرُكما بخَيرٍ مما سألتماني ، قالا : بَلَىَ . قال : كلمات عَلَّمَنِيْهُنَّ جبْريل تُسبحـانِ في دُبُـرِ كُلِّ صَلاةٍ عَشْرًا ، وتَحْمَدانِ عَشْرًا ، وتُكَبِّرانِ عَشْرًا .

وإذَا أويْتُما إلى فراشِكُما ، فسبحا ثلاثا وثلاثين وأحمدا ثلاثا وثلاثين ، وكبرا أربعا وثلاثين , قال : فوالله ما تَرَكْتُهُنَّ منذ عَلَمِنيْهُنَّ رسول الله ﷺ .

عن بريدة قال : سمع النبي ﷺ رجُلاً يقول : اللهم أني أسألك بأني أشهد أنكَ أنتَ الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

فقـال رسـول الله ﷺ : والـذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى أخرجه أبو داود والترمذي .

وعن أنس رضى الله عنه قال : دعا رجل فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمـد لا إله إلا أنت الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والاكرام يا حي ياقيوم .

فقال النبي ﷺ : أتدرون بما دعا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سئل به أعطى ، أخرجه أصحاب السُّنَنِ .

عن سعد بن أبي وقاص قال قال : قال رسول الله ﷺ : « دعوة ذِى

النون إذْ دَعَى وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سُبْحَانَك إني كنت من الظالمين » .

فإنـه لم يدع بها رجـل مسلم في شيء قط إلا استجاب له ، رواه الترمذي والنسائي والحاكم وقال صحيح الاسناد .

وعن معاوية بن أبي سُفيان قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول مَن دَعَا بهؤلاء الكلمات الخمس لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه (لا إله إلا الله والله أكبر لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله) رواه الطبراني بإسناد حسن .

وعن معاذ بن جبل قال : سمع رسول الله ﷺ رجلا وهو يقول (ياذا الجلال والاكرام) فقال « قد اسْتُجِيْبَ لَكَ فَسَلْ » رواه الترمذي .

قال أحد العلماء : (إن الذكر باعتباره وسِيْلَة القرب من الله هو دَائِماً دُعَاء وإنَّ الدُّعَاءَ وهُو التضرعُ والخضوعُ لِلهِ تعالى هُوَ دَائِماً ذِكر .

وليس بينهما مِنْ فَرْقٍ إلاَّ في اللونِ والشكلِ

وقد وردتْ الآثارُ بما تقولُ : فقد وردَ في الأحاديثِ الشَّريفة أنَّ الله تعالى يقول : « مَن شغلهُ القـرآنَ وذكري عن مسـألتي أُعطيتـه أفضل ما أُعطي السائلين » .

وقد ورد في القرآن الكريم عن سيدنا يونس أنه حينما التقمـه الحوتُ نجَّاه تسبيحهُ : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ في بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ .

وفي سورة « نون » يندمُ أصحاب الجنة ـ الحديقة ـ التي طافَ عَلَيْها طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كالصَّرِيمِ . . . على أنهم لم يكونوا من المسبحين ، وخاطبهم أوسطهم قائلاً : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُون ؟ ﴾ .

والاستغفار ؟ :

إنه ذِكر لا يتضمن دعاء لفظياً ولكن الثمرات المترتبة عليه هائلة نفيسة . يقول تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهارا ﴾ .

إنَّ الاستغفار ثمرته :

(١) المغفرة .

(٢) والغيث (المطر الذي يروي الأرض فينبت الزرع ويروي به الناس والأنعام ظمأهم) .

(٣) وإمداد الله للمستغفر بالأموال .

(٤) وإمداده له بالبنين .

وأكثر من ذلك . . .

يقول الله تعالى :

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ .

(٥) ومن ثماره إذن زيادة القوّة .

ولقد حدث في مصر أن أحد الأثرياء الصالحين لم يجد سبيلاً ـ في فترة من الفترات ـ لري أرضه ، وكاد الزرع يصبح حطاماً ، فجلس الرجل وسط مزرعته الفسيحة . . وقال :

اللهمَّ إنك قلت . . وقولك الحق :

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ﴾ وها أنا ذا يا رب أستغفرك راجياً أن تفيض علينا من رحمتك .

ثم أخذ في الاستغفار . . ومضت ساعات وهو يتابع الاستغفار في همَّة وفي ثقة بموعود الله تعالى ، وإذا بالسماء تتلبد بالغيوم . . وإذا بالمطر ينزل فيَّاضاً مدراراً .

ومن المعروف أنَّ الصالحين حينما يصيبهم ضعف يلجؤون إلى الله بالاستغفار فيتحقق لهم وعده :

﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ .

وليست هذه فحسب ثمار الاستغفار . . وذلك أنه أيضاً يمنع أن يصيب العذاب الإنسان .

(٦) ﴿ وَمَا كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

(٧) ثم . . . يقولُ رسولُ الله ﷺ :

« مَنْ لَزِمَ الاستغفارَ جعلَ الله لَهُ مِنْ كلِّ هَمٍّ فَرَجاً ، ومن كلِّ ضيقٍ مَخْرَجاً ، وَرَزَقَهُ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ » .

وثمار الاستغفار أوسعُ من ذلك في الدنيا والآخرة .

وألم يقل رسول الله ﷺ :

« أفضل الدُّعاءِ : الحمد لله » ؟.

و « الحمد لله » أليست ذِكراً ؟.

وإذا كان من الذكر ما هو دعاء ، أو إذا كان الذكر كله دعاء . . فإنَّ الدعاءَ أيضاً يكون بغير الدعاءِ اللفظي وبغير الذِّكرْ :

فالإكثار من التوبة دعاءٌ وذِكر ، ويترتب على الإكثار منه ما يقوله الله تعالى :

﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابينَ ﴾ .

وإذا أحبَّ الله عبداً من عبادِه بسبب الإكثار من التوبة فإنه يترتَّبُ على هذا الحبِّ آثاره :

« فَإذا أحببْتُهُ كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به ، وبصرَه الذي يبصرُ به ، ويدَهُ التي يبطشُ بها ، ورِجلَهُ التي يمشي بها ، وَإنْ سألني لأُعطينَّهُ ، وَإنِ استعاذني لأعيذَنَّهُ » .

وإذا كانت التوبةُ ذِكراً أو دعاءً فإنَّ التقوى دعاءٌ نفيس . .

ألا ترى ما يقوله الله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ؟ ﴾ .

إنَّ الله سبحانهُ يجعل له مخرجاً من كلِّ همٍّ وضيقٍ وأزمةٍ بسبب تقواه ويرزقه الله مِن حيث يدري ولا يدري .

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ له مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ .

يُيَسِّر سبحانه أُمورَه كلها .

ويقول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾ .

إنْتَهى

قصيدة فيها تَضَرُّعٌ إلى رَبّ العِزةِ والجَلالِ والكِبريَاء والعَظمة :

يا ذَا الجَلالِ ويا ذا الجُودِ والكَرمِ قَدْ جِئْتُكَ خَائِفاً مِن زَلَّةِ القَدَمِ
ذَنْبِي عَظِيمٌ وَأَرْجُوْ مِنْكَ مَغْفِرةً يَا وَاسِعَ العَفْوِ والغُفْرانِ والكَرَمِ
دَعَوْتُ نَفْسِي إلَى الخَيْرَاتِ فامْتَنَعَتْ وأَعْرَضَتْ عن طَرِيْقِ الخَيْر والنِّعَمِ
خَسِرْتُ عُمْرِي وَقَدْ فَرَّطْتُ في زَمَنِي في غَيْرِ طَاعَةِ مَوْلَايَ فَيَا نَدَمِي
حَمَلْتُ ثِقْلاً مِنَ الأوْزَارِ فِي صِغَرِيْ يَا خَجْلَي في غَدٍ مِن زَلَّةِ القَدَمِ
رَاحَ الشَّبَابُ وَوَلَّى العُمْرِ فِي لَعِبٍ وما تَحَصَّلْتُ مِن خَيْرٍ ولَمْ أَقُمِ
زَمَانَ عَزْمِيَ قَدْ ضَيَّعْتُهُ كَسَــلاً والعُمْرُ مِنِّي انْقَضَى فِي غَفْلَةِ الحُلُمِ
قَدْ انْقَضَتْ عِيْشَتِيْ بالذُلِ وَاأَسَفِي إنْ لَمْ تَجدْ خَالِقِيْ بالعَفْوِ والكَرَمِ
ذِيْ حَالَتِي وانْكِسَارِي لا تُخَيِّبْنِي إذَا وَقَعْتُ ذَلِيْلاً حَافِي القَدَمِ
أَتَيْتُ بالذُّلِ والتَّقْصِيْر والنَّــدمِ أَرْجُو الرِّضا مِنْكَ بالغُفْرانِ والْكرمِ
سَارَ المجدُّوْنَ في الخَيْراتِ واجْتَهَدُوْا يا فَوْزَهُم غَنِمُوْا الجَنَاتِ والنِّعَمِ
شِفَاءُ قَلْبِيَ ذِكْرُ اللهِ خَالِقِنَــا يَا فَوْزَ عَبْدٍ إلى الخَيْرَاتِ يَسْتَقِمِ
صَفَتْ لِأَهْلِ التُّقى أوْقَاتُهـم سَعِدُوْا نَالُوا الهَنَـا والمُنَـى بالخَيْـرِ والكَـرَمِ
ضَيَّعْتُ عُمْرِي ولا قَدَّمْتُ لِيْ عَمَــلاً أَنْجُو بِهِ يَوْمَ هَوْلِ الخَوْفِ والزَّحَـمِ
طُوْبَى لِعَبْدٍ أطَاعَ اللهَ خَالِقَهُ وقَامَ جَنْحَ الدُّجَى بالدَّمْعِ مُنْسَجِمِ
ظَهْرِيْ ثَقِيْلٌ بِذَنبي آهِ وااَسَفِيْ يَومَ اللِّقَاءِ إذَ الأَقْدَامُ في زِحَمِ
أَرْجُوكَ يا ذَالعُلاَ كَرْبي تُفَرِّجُهُ واشْفِ بِفَضْلِكَ لِي بَلْوَايَ مَعْ سَقَمِي

غَفَلْتُ عن ذِكْرِ مَعْبُوْدِي وَطَاعَتِهِ وقَدْ مَشَيْتُ إلَى العَصْيَانِ في هَمِمِ
فاغْفِرْ ذُنُوبِي وكُنْ يَا رَبِّ مُنْقِذَنَا مِن الشَّدَائِد والأهْوَالِ والتُّهَمِ
قد أثْقَلَتْنِي ذُنُوبٌ مَا لَهَا أحَدٌ سِوَاكَ يَا غَافِرَ الزَّلاَّتِ واللَّمَمِ
كُنْ مُنْجِدِيْ يَا إلٰهي واعْفُ عن زَلَلِيْ وَتُبْ عَلَيَّ مِن الآثامِ واللَّمَمِ
لَاحَ المَشِيْبُ وَوَلَّى العُمْرُ في لَعِبٍ وصِرْتُ مِن كَثْرَةِ الأوْزَارِ في نَدَمِ
مَضَى زَمَاني ومَا قَدَّمْتُ مِن عَمَلٍ يا خَجْلَتِي مِن إلٰهي بارِيَ النَّسَمِ
نَامَتْ عُيُوني وأهْلُ الخَيرِ قَدْ سَهِرُوْا أجْفَانُهُمْ في ظَلَامِ اللَّيلِ لَمْ تَنَمِ
قامُوا إلى ذِكْرِ مَوْلَاهُم فَقَرَّبَهُمْ وخَصَّهُم بالرِّضَا والفَضْلِ والكَرَمِ
ولَيْسَ لِي غَيْرَ رَبِّ الخَلْقِ مِنْ سَنَدٍ أرْجُوْهُ يُوْلِيْنِي بالغُفْرانَ والكَرَمِ
لَا أرْتَجِي أحَداً يَومَ الزِحَامِ سِوَى رَبِّ البَرِّيةِ مُوْلى الفَضْلِ والكَرِمِ
ثم الصلاةُ على المختارِ مِنْ مُضَرٍ مُحَمَّدٍ المُصْطَفى المَخْصُوصِ بالكَرَمِ

اللَّهُمَّ انْهَجْ بِنَا مَنَاهِجَ المُفْلِحِين وألْبِسْنَا خِلَعَ الإيْمَانِ واليَقَيْن ، وَخُصَّنَا مِنْكَ بالتَّوفِيْقِ المُبين ، وَوَفّقْنَا لِقَوْلِ الحَقِ واتْبَاعِهِ وَخلّصنْا مِنَ البَاطِلِ وابْتِدَعِهِ ، وَكُنْ لَنَا مُؤَيِّدا وَلَا تَجْعَل لِفَاجِرٍ عَلَيْنَا يَدَا وَاجْعَلْ لَنَا عَيْشاً رَغَدا وَلَا تُشْمِتْ بِنَا عَدوّاً وَلَا حَاسِداً ، وارْزُقْنَا عِلْمَاً نَافِعاً وَعَمَلاً مُتَقَبَّلا ، وَفَهْمَاً ذَكِيّاً صَفِيّا وَشِفَاً مِنْ كُلّ دَاء ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الراحمين وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

اللهم اجعلنا مُكْثِرِينَ لِذِكرِكَ مُؤَدِّيْنَ لحَقِّكَ حافظين لأمرك راجين لِوَعْدِكَ راضين في جميع حالاتنا عَنكَ

راغبين في كُلِّ أمُورنا إليكَ مُؤَمِّلِينَ لِفَضْلِكَ شاكرين لِنِعَمِكَ .

يا مَن يحب العفو والإحسان ، ويأمر بهما أعفُ عنا ، وأحْسِنْ إلينا .

فإنكَ بالذي أنت له أهلٌ من عَفوك أحق منا بالذي نحن له أهل مِن عُقُوبتك .

اللهم ثَبِّتْ رَجَاءَكَ في قلوبنا ، واقطعه عَمَّنْ سِوَاك ، حتى لا نَرْجُوا غيرَكَ ولا نستعين إلا إياك ، يا أرحم الراحمين ، ويا أكرم الأكرمين .

اللهم أحْينا في الدنيا مؤمنينَ طائعينِ وتوفَّنا مسلمينَ تائبينَ واغفرْ لنا ولوالِدِيْنا ولجميعِ المسلمين برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

(فَصْــلٌ)

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وإيَّاكَ وجَمِيْعَ المُسلمينَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ أنَّ السَلامَ تَحِيَّةُ المؤمنين ، وشِعارُ المُوَحِّدِيْنَ ، وَدَاعِيَةٌ للإخَاءِ والإلْفَةِ والمَحبَّةِ بَيْنَ إخْوَانِهم المُسلِمِين ، والسلامُ تَحِيَّةٌ مُبارَكَةٌ ، وَصِيْغَةٌ طَيِّبَةٌ كَمَا ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ في كِتَابِهِ الكَرِيْمِ قال اللهُ تَعَالى ﴿ فإذَا دَخَلْتُم بيوتاً فَسَلِمُوا على أنْفسِكم تَحِيَةً مِن عندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ .

وقال تعالى ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُم حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا على أَهْلِهَا ﴾ والسلامُ كما أَخْبَرَ اللهُ تحيةَ أَهْلِ الجنةِ في دارِ النَعيمِ قال تعالى ﴿ تَحِيَّتُهُم فِيْهَا سَلَام ﴾ .

وابْتِدَاءُ السَّلامِ سُنَّةٌ مُسْتَحَبَّةٌ ، وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ ، وَهُوَ سُنَّةُ كِفَايَةٍ فإن كَانَ المُسَلِّمُ جَمَاعَةً كَفَى عَنهم واحدٌ يُسَلِّمُ ولو سَلَّمُوا كُلُّهُم كَانَ أَفْضَلُ وَرَفْعُ الصَّوتِ بابْتِدَاءِ السَّلامِ سُنَّةٌ ، لِيَسْمَعَهُ المُسَلَّمُ عَلَيْهِم كُلُّهُم سَمَاعاً مُحَقَّقَاً لِحَدِيْثِ افْشُوا السَّلامَ بَينكُم .

وإن سَلَّمَ عَلَى أَيْقَاضٍ وَنِيَامٍ أَوْ سَلَّمَ عَلَى مَنْ لاَ يَعْلَمُ هَلْ هُمْ أَيْقَاظٌ أَوْ نِيَامٌ خَفَضَ صَوْتَهُ ، بِحَيْثُ يُسْمِعُ الأَيْقَاضَ ولا يُوْقِضُ النِّيَامَ ، وَلَو سَلَّم عَلى إِنْسَانٍ ثُمَّ لَقِيَهُ عَلى قُرْبٍ سُنَّ أَنْ يُسَلِّمَ عليه ثانِياً وَثَالثاً وأكثر .

وَيُسَنُّ أَنْ يَبْدَأَ بالسلام قَبْلَ الكَلامِ ، لِحَدِيْثِ مِنْ بَدَأَ بالكلامِ قَبْلَ السـلامِ فَلاَ تُجِيْبُوْهُ . فَيَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا الأَخ أن تَنْصَح كُلَّ مَن ابْتَدَأَكَ بغير السلام وَتعْلِمَهُ بالحديث خُصُوصًا المكلمين لكَ بالتلفون بقولهم ألُ ألُ ولا يَتْرُكِ السَّلامَ إذَا كَانَ يَغْلِبُ على ظَنِهِ أَنَّهُ لا يَرُدُّ عَلَيْهِ .

وإنْ دَخَلَ عَلَى جَمَاعَةٍ فِيْهِمِ عُلَمَاءُ سَلَّمَ أَوَّلاً عَلى الجَمِيْعِ ، ثُمَّ سَلَّمَ على العُلَمَاءِ سَلاماً ثَانياً تَمْيِيْزاً لِمَرْتَبَتِهِمْ وَكَذَا لَوْ كَانَ فِيْهِمْ عَالِمٌ وَاحِدٌ . خَصَّه بالسلام ثَانياً .

ولا يُسَلِّمُ عَلَى امْرَأَةٍ أَجْنَبِيَةٍ غَيْرِ زَوْجَةٍ لَهُ ، أَوْ ذَاتِ مَحْرَمٍ ، إلاَّ أَنْ تَكُونَ عَجُوزاً غَيْرَ حَسْنَاء أَوْ تَكُونَ بَرِزَةً ، والمُرَادُ أَنَّهَا لا تُشْتَهَى لأَمْنِ الفِتْنَةِ وَيُكْرَهُ السَّلاَمُ في الحمَامِ وَيُكْرَهُ السَّلامُ عَلى مَنْ يَأْكُلُ وَعلى مَنْ يُقَاتِلُ لاشْتِغَالِهِ .

وَيُكْرَهُ السَّلامُ عَلَى مَنْ يَبْحَثُونَ في العِلْمِ ، وَعَلى مَنْ يُؤَذِّنُ ، وَعَلى مَنْ يُقِيْمُ وَمُحَدِّثٍ بِتَشْدِيْد الدَّالَ وَخَطِيْبٍ وَوَاعِظٍ وَمُسْتَمِعٍ .

وَيُكْرَهُ السلامُ عَلَى مُكَرِّرِ فِقْهٍ ، وَمُدَرِّس في عِلْمٍ مَشْرُوْعٍ ، أَوْ مُبَاحٍ وَيُكْرَهُ السلامُ على مَنْ يَبْحَثُونَ في العِلْمِ .

وَيُكْرَهُ السلامُ على مَنْ يَقْضِيْ حَاجَتَهُ ، وَيُكْرَهُ على مَنْ يَتَمَتَّعُ بِأَهْلِهِ وَعَلَى مُشْتَغِلٍ بالقَضَاءِ ، وَنَحْوِهِمْ مِن كُلِّ مَنْ لَهُ شُغْلٌ عَن رَدِّ السَّلامِ وَيُكْرَهُ أَنْ يَخُصَّ بَعْضَ طَائِفَةٍ لَقِيَهُمْ ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ مِمَّنْ يَجِبُ هَجْرُهُ ، أَوْ يُسْتَحَبُّ .

وَإِنْ بَدَأَ بالسلامِ جَمِيْعاً ، وَجَبَ عَلَى كُلٍ مِنْهُمَا الرَّدُ ، وَلاَ يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِ مَنْ يُصَافِحُه ، حَتَّى يَنْزِعَ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ ، إِلاَّ لِحَاجَةٍ كَحَيَائِهِ مِنْهُ وَنَحْوِهِ وَقَدْ نَظَمَ بَعْضُهُمْ المَوَاضِعَ التي يُكْرَهُ فِيهِ السَّلامُ فَقَالَ :

سَلاَمُك مَكْـرُوْهٌ عَلَى مَنْ سَتَسْمَعُ
وَمِنْ بَعْـدِ مَا أُبْـدِيْ يُسَنُّ وَيُشْـرَعُ
مُـصَـلٍّ وَتَـالٍ ذَاكِـرٍ وَمُـحَـدِّثٌ
خَـطِيْبٌ وَمَن يُصْغِيْ إِلَيْهِم وَيَسْمَـعُ
مُكَـرِّرٌ فِقْـهٍ جَـالِسٌ لِـقَضَـائِـهِ
وَمَنْ بَحَثُوا في الفِقْـهِ دَعْهُمْ لِيَنْفَعُـوا
مُـؤَذِّنٌ أَيْضـاً مَـعْ مُقِيْـمٍ مُـدَرِّسٍ
كَـذَا الأَجْنَبِيَّـاتِ الفَتِيَّـاتِ أَمْنَـعُ
وَلَعَّـابُ شِـطْرَنْـجٍ وَشِبْـهٍ بِخُلْقِهِمْ
وَمَـن هُـوَ مَـعْ أَهْـلٍ لَـهُ يَتَـمَتَـعُ
وَدَعْ كَـافِـراً أَيْضَـاً وَكَـاشِفَ عَـوْرَةٍ
وَمَنْ هُـوَ في حَـالِ التَّغَـوُّطِ أَشْنَـعُ
وَدَعْ آكِـلاً إِلاَّ إِذَا كُـنْـتَ جَـائِـعـاً
وَتَـعْـلَمُ مِـنْـهُ أَنَّـهُ لَـيْسَ يَـمْـنَـعُ

كَـذَلِـكَ أُسْتَـاذُ مُـغَـنٍ مُـطَيِّـرٌ
فَـهَـذَا خِتَـامٌ والـزِّيَـادَةُ تَـنْـفَـعُ
« وَزِدْتُ عَـلَى هَـذَا فَقُلْتُ مُتَمِّمـاً
بِمَـا هُـوَ مِثْـلُ أَوْ أَشَـدُّ فَـيُتْبَـعُ »
« وَمَنْ عِنْـدَ تِلْفِـزْيُـوْنِهِمْ سِيْنَمَـائِهِمْ
وَمَنْ لِمُـذِيْعِ المُنْكَـرَاتِ تَسَمَّعُـوْا »
مصـوِّرٍ ذِي رُوْحٍ وَخَـالِق لِـحْيَـةٍ
وَمَحْـلُوْقِهَـا مَعْ ذِي الخَنَـافِسِ يَتْبَـعُ
« وَشَـارِبُ دُخَّـانٍ وَشَـارِبُ شِيْشَـةٍ
مُتَوَلِّـتُ رَاسٍ وَالُمجَـاهِـرُ أَفْـظَـعُ »
« وَشَـارِبُ ذِي سُـكْـرٍ ولاعِـبُ كُـوْرَةٍ
وَمُـصْـلِحُ الآتٍ لِلْهَـوٍ فَيُمْـنَـعُ »
« وَبَـائِـعُ آلاتٍ لِلَهْـوِ وَمُـطْـرِبِ
وَمَـنْ هُوَ فِي سَـبِّ الـغَـوَافِـلِ يُقْـذِعُ »
« وَبَـائِـعُ مَـا قَـد سِيْقَ فِيْمَـا سَطَرْتُـهُ
مُسَـاعِـدُهُـمْ أَوْ مَـن لِـذَاكَ يُشَـجِّـعُ »

اللَّهُمَّ انَّ نَوَاصِيْنَا بِيَدَيْكَ وَأُمُوْرُنَا تَرْجِعُ الَيْكَ وأَحْوَالُنَا لاَ تَخْفَي عَلَيْكَ ، وأَنْتَ مَلْجَؤُنَا وَمَلاذُنا ، وَالَيْكَ نَرْفَعُ بَثَّنَا وَحُزْنَنا وَشِكَايَتَنَا ، يَا مَنْ يَعْلَمُ سِرَّنَا وَعَلاَنِيَتَنَا نَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَنَا مِمَّنْ تَوكَّلَ عَلَيْكَ فَكَفَيْتَهُ واسْتهْدَاكَ فَهَدَيْتَهُ وَهَبْ لَنَا مِنْ فَضْلِكَ العَظِيْمِ وَجُدْ عَلَيْنَا بِاحْسَانِكَ العَمِيْمِ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلى اللَّهُ عَلَى مُحَمد وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

وَأَمَّا رَدُّ السَّلامِ ، فإنْ كَانَ المُسَلَّمُ عَلَيْهِ وَاحِداً ، تَعَيَّنَ عَلَيْهِ الرَّدُّ لِلسَّلامِ ، وإنْ كَانُوا جَمَاعَةً رَدُّ السَّلامِ فَرْضُ كِفَايَةٍ عَلَيْهِم ، فإنْ رَدَّ وَاحِدٌ منهم سَقَطَ الفَرْضُ عَنِ البَاقِينَ ، وإنْ تَرَكُوهُ كُلُّهُمْ أَثِمُوا كُلُّهُمْ ، وإنْ رَدَّ كُلُّهُم فَهُوَ النِّهَايَةُ في الكَمَالِ ، قَالَ اللهُ تَعَالى ﴿ وإذا حُيِّيْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ .

والسَّلامُ تَحِيَّةُ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مِن الأَنْبِيَاءِ ، وَأَتْبَاعِهِمْ المُؤْمِنِيْنَ وَتَحِيَّةُ أَبِيْنَا إبْرَاهِيْمُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَضَيْفِهِ المُكْرَمِيْنَ ، فِيْمَا قَصَّهُ اللهُ عَلَيْنَا في القُرآنِ الكريم ، بقوله ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيْثُ ضَيْفِ إبْرَاهِيْمَ المُكْرَمِيْنَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوْا سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَومٌ مُنْكَرُوْن ﴾ .

وَمِنْ السُّنَّةِ المَحْبُوْبَةِ ، البَدَاءَةُ بالسلامِ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللّهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، إنَّ أَوْلَى النَّاسِ باللّهِ ، مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلاَمِ رَوَاهُ أَبُوْ دَاوُد وَفي الحَدِيْثِ الآخَرِ وَخَيْرُهُمَا الَّذِيْ يَبْدَأُ بِالسَّلامِ . فاحذر عافانا الله وإياكَ مِن ألُ .

وَيُسْتَحَبُ أَنْ يُسَلِّمَ عِنْدَ الانْصِرَافِ مِنَ المَجْلِسِ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إلى المَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ ، فَإذَا أَرَادَ أَنْ يَقُوْمَ فَلْيُسَلِّمْ فَلَيْسَتِ الأُوْلَى بِأَحَقَّ مِنَ الآخِرَةِ .

وَيُسْتَحَبُ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَىٰ الصِبْيَان ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ كَانَ رَسُوْلُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُهُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

سَابِقِ النَّاسِ بالسلام فَفِي ذَا كَ إِذَا مَا اعْتَبَرْتَ خَمْسُ خِصَالِ
كاشِفُ الرَّيْبِ قاطِعُ العَيْبِ مُحْيِي الـ ـوِدِ سِتْرُ الأَحْقَادِ وبَابُ الوِصَالِ

موعظة : إخواني لَيْسَ الأَسَفُ عَلَى دُنْيَا آخِرُهَا الفَوْتُ والخَرَابُ وَلَا عَلَى أحْوَالٍ نِهَايَتُهَا التَّحَوُّلُ والإِنْقِلَابُ ، وَلَا عَلَى حُطَامٍ حَلَالُهُ حِسَابٌ وَحَرَامُهُ عِقَابٌ ، ولَا عَلَى أعْمَارٍ يَتَمَنَّى المَرْءُ طُوْلَهَا فإذَا طَالَتْ مُلَّتْ ، ولَا عَلَى أمَاكِنَ كُلَّمَا امْتَلأَتْ بِأَهْلِهَا وَازْدَهَرَتْ بِهِمْ أَدْبَرَتْ عَنْهُم وَخَلَتْ مِنْهُمْ .

وإِنَّمَا الأَسَفُ الذِي لَا يُرْجَى لَهُ خَلَفٌ وَقْتٌ قُتِلَ عَلَى فِرَاشِ السَّهْوِ والغَفَـلَاتِ ، وَعَلَى لَيَالٍ وَأَيَّامٍ تَمْضَيْ فِي اتِّبَـاعِ المَلَذَّاتِ الفَـانِيَةِ والشَّهَوَاتِ وَعَلَى صُحُفٍ تُطْوَى عَلَى عَثَرَاتٍ وَهَفَوَاتٍ وَخَطِيئَاتٍ ، وعلى أَنْفَاسٍ لا قِيْمَةَ لَهَا تَذْهَبُ ثُمَّ لَا تَرْجِعُ فَيُسْتَدْرَكُ مَا فَاتَ وَعَلى نُفُوسٍ .
يُنَادِيْهَا لِسَانُ الشَّتَاتِ وَهِيَ لَا تُقْلِعُ عَمَّا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ الهَفَوَاتِ . وَعَلَى ذُنُوبٍ مُحْصَىً صَغِيْرُهَا وَكَبِيْرُهَا لَا تُقَابَلُ بِالحَسَنَاتِ وَعَلى قُلُوبٍ غَافِلَةٍ فِي الغَمَرَاتِ ، وَعَلَى أَعْوَامٍ سَرِيْعٍ مُرُوْرُهَا كَلَمْعِ الجَمَرَاتِ وعلى أَلِسِنَةٍ أَكْثَرُ اشْتِغَالِهَا بالكَذِبِ والغِيْبَةِ والنَّمِيْمَةِ وَسَائِرِ الذُّنُوبِ المُحَرَّمَاتِ وعلى ألسنةٍ لا تَشْتَغِلُ وَتَتَلَذَّذُ بِذِكْرِ فَاطِرِ السمواتِ .
أَلَا تَرَوْنَ شَهْرَكُم كَيْفَ يُسْرِعُ فيه البِدَارُ ثُمَّ يَعْقِبُهُ الامِّحَاقُ فَيَا خَيْبَةَ مَنْ ضَاعَتْ مِنه اللَّيَالِي والأَيَّامُ وَغُبِنَ فِي مَيْدَانِ السِّبَاقِ وَيَا خَيْبَةَ مَن ضَيَّعَ عُمْرَهُ بالقَبَائِحِ العِظَامِ وَيَا خَسَارَةَ مَنْ كَانَتْ تِجَارَتُهُ الذُّنُوبُ والمَعَاصِي والآثام

قال بعض العلماء رحمه الله :

الوَاجِبُ على العاقل أخذُ العُدةِ لِرَحِيلِهِ ، فانه لا يَعْلَمُ متى يَفْجَؤُهُ أمر

ربهِ ، ولا يَدْرِيْ مَتى يُسْتَدْعى ، واني رَأَيتُ خَلْقاً كثيراً غرَّهُم الشبابُ ونَسُوا فَقْـدَ الأقْـرَانِ ، وألْهَـاهُم طُولُ الأمـل . ورُبَّـما قال العالِمُ المُحِضُ لِنفْسِهِ : « أشتغلُ بالعِلم ثم أَعْمَلُ بهِ » فَيَتَساهَلُ في الزُهْدِ بحُجَّةِ الرَّاحَةِ ، ويُؤخِرُ الرَّجَاءَ لِتَحْقِيْقِ التَّوْبَةِ ، ولا يَتَحَاشَى مِن غِيْبَةٍ أَوْ سَمَاعِهَا ، ومِن كَسْبِ شُبْهَةٍ يأملُ أن يَمْحُوهَا بالوَرَعِ ، وينْسَى أَنَّ المَوْتَ قد يَبْغتُهُ .

فالعاقلُ مَن أَعْطى كُلَّ لَحظَةٍ حَقَّها مِن الواجبِ عليه ، فإن بَغتَهُ الموتُ رُئِيَ مُسْتَعِداً ، وان نَالَ الأملَ إزْدادَ خَيْراً .

قال عمر بن عبدالعزيز في خُطْبَةٍ لَهُ « إن الدنيا لَيْسَت بدارِ قَرَار ، دَارٌ كَتَبَ الله على أَهْلها منها الظَّعْنَ فكَمْ عَامِرٍ مُوْثَقٍ عَمّا قليْلٍ يَخْرَبَ ، وكم مُقيمٍ مُغْتَبطٍ عَمَّا قَليلٍ يَظْعَنُ ، فأَحْسِنُوا رَحمَكُم اللَّهُ منها الرِّحلةَ بأحْسَنَ ما يحْظُرُكُمْ مِن النُقْلَة ، وتَزَودُوا فإنَّ خَيْرَ الزادِ التَّقْوىَ ، إنما الدُنيا كفَيْءٍ ظِلَالٍ قَلَّصَ فَذَهَبَ ، بَيْنَ ابن آدَمَ في الدُنْيَا يُنافِسُ وبِها قريْرُ عَيْنٍ إذ دَعَاهُ اللَّهُ بقدرِهِ ورَمَاهُ بيَوم حَتْفِهِ فَسَلَبَهُ آثارَهُ ودُنْيَاهُ وصَيَّرَ لِقَوْمٍ آخرينَ مَصَانِعَهُ ومَغْنَاهُ إنَّ الدُنْيَا لا تسرُّ بقَدْرِ مَا تَضرُّ إنها تَسرُ قلِيْلاً وتَجُر حُزْناً طَوِيْلاً كما قيل : مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَأَتْهُ أزْمانٌ .

شعـرا :

إذا كُنْتَ بالدنيا بَصِيْراً فإنما ... بلاغُكَ منها مِثْلُ زادِ المسافِرِ
إذا أبقَتِ الدنيا على المرء دَيْنَهُ ... فما فَاتَـه منها فَلَيْسَ بِضَـائِرِ

آخـر :

يَرَى راحةً في كَثْرةِ المال رَبُّهُ ... وكَثْرةُ مَالِ المرءِ لِلْمَرْءِ مُتْعِبُ
إذا قَلَّ مَالُ المـرء قَلَّتْ هُمُومُهُ ... وتَشْعَبُـهُ الأموالُ حِيْنَ تَشَـعَّبُ

آخـر :

وما أجْمَعُ الأمْوالَ إلاَّ غَنِيْمَةً ... لِمَنْ عَاشَ بَعدِي واتّهامٌ لِرازِقي

آخــر :

يَقُولُ الفَتَى ثَمَّرْتُ مَالِي وإنما لِوَارِثِهِ مَا ثَمَّرَ المالَ كاسِبُهُ
يُحَاسِبُ فيه نَفْسَهُ بِحَيَاتِهِ ويَتْرُكُهُ نَهْباً لِمَنْ لا يُحَاسِبُهْ

شــعراً :

أَيَــا لِلْمَنَايَــا وَيْحَهَــا مَــا أَجَــدَّهَــا
كَــأَنَّك يَــوْماً قَــدْ تَــوَرَدْتَ وِرْدَهَــا
وَيَــا لِلْمَنَــايَــا مَــالَهَــا من إِقَــالَــةٍ
إِذَا بَلَغَتْ مِن مُــدَّةِ الحَيِ حَــدَّهَــا
أَلَا يَــا أَخَــانَــا إِنَّ لِلْمَــوْتِ طَلْعَــةً
وَإِنَّــكَ مُــذْ صُــوِّرْتَ تَقْصُــدُ قَصْــدَهَا
وَلِلْمَــرْءِ عِنْــدَ المَــوْتِ كَرْبٌ وَغُصَّــةٌ
إذا مَــرَّتِ السَّــاعَــاتُ قَــرَبْنَ بُعْــدَهَــا
سَتُسْلِمُــك السَّاعــاتُ في بَعْضِ مَرِّهَــا
إلى سَــاعَــةٍ لا سَــاعَــةٌ لَــكَ بَعْــدَهَــا
وَتَحْتَ الــثَّــرَى مِنِّيْ وَمِنْــكَ وَدَائِــعٌ
قَــرِيْبَةُ عَهْــدٍ إِنْ تَــذَكَّــرْتَ عَهْــدَهَــا
مَدَدْتَ المُنَى طُوْلاً وَعَــرْضــاً وإِنَّهَــا
لَتَــدْعُــوكَ أَنْ تَهْــدَا وَأَنْ لَا تَمُــدَّهَــا
وَمَــالَتْ بِكَ الــدُّنْيَا إلى اللَّهْــوِ والصِّبَــا
وَمَنْ مَــالَتِ الــدُّنْيَــا بِــهِ كَــانَ عَبْــدَهَــا
إِذَا مَــا صَــدَقْتَ النَّفْسَ أَكْثَــرْتَ ذَمَّهَــا
وَأَكْثَــرْتَ شَكْــوَاهَــا وَأَقْلَلْتَ حَمْــدَهَــا
بِنَفْسِــكَ قَبْلَ النَّــاسِ فَــاعْنَ فَــإِنَّهَــا
تَمُــوتُ إِذَا مَــاتَتْ وَتُبْعَثُ وَحْــدَهَــا

وَمَا كُلُ مَا خُوِّلْتَ إلاَّ وَدِيْعَةٌ
وَلَنْ تَذْهَبِ الأَيَّامُ حَتَّى تَرُدَّهَا
إِذَا أَذْكَرَتْكَ النَّفْسُ دُنْياً دَنِيَّةً
فَلاَ تَنْسَ رَوْضَاتِ الجِنَانِ وَخُلْدَهَا
أَلَسْتَ تَرَى الدُنْيَا وَتَنْغِيْصَ عَيْشِهَا
وَاتْعَابَهَا لِلْمُكْثِرِيْنَ وَكَدَّهَا
وَأَدْنَى بَنِيْ الدُنْيَا إلى الغَيِّ والعَمَى
لَمَنْ يَبْتَغِي مِنْهَا سَنَاهَا وَمَجْدَهَا
هَوَى النَّفسِ في الدُّنْيَا إلى أَنْ تَغُوْلُهَا
كَمَا غَالَتِ الدُنْيَا أَبَاهَا وَجَدَّهَا

اللهم وَفِقْنَا لِلزُوْمِ الطَّرِيْقِ الذِيْ يُقَرِّبُنَا إِلَيْكَ وَهَبْ لَنَا نُوْراً نَهْتَدِي بِهِ إِلَيْكَ وَيَسِّرْ لَنَا مَا يَسَّرْتَهُ لأَهْلِ مَحَبَّتِكَ وَأَيْقِضْنَا مِنْ غَفَلاَتِنَا وَأَلْهِمْنَا رُشْدَنَا واسْتُرْنَا في الدُنْيَا والآخِرَةِ واحْشُرْنَا في زُمْرَةِ عِبَادِكَ المُتَّقِيْنَ والْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ واغفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ والمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

والأَحَقُّ بِالبَدَاءَةِ بِالسَّلامِ أَنْ يُسَلِّمَ الصَّغِيْرُ عَلَى الكَبِيْرِ والقَلِيْلُ عَلَى الكَثِيْرِ والرَّاكِبُ عَلَى المَاشِيْ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « لِيُسَلِمَ الصغيرُ عَلَى الكَبِيْرِ ، والمَارُ علىَ القَاعِدِ ، والقَلِيْلُ عَلَى الكَثِيْرِ ، مُتَّفَقٌ علَيْهِ وفي رِوَايَة لِمُسْلِم والرَّاكِبُ عَلَى المَاشِيْ .

وَقَدْ وَرَدَ في إِفْشَاءِ السَّلامِ وَفَضْلِهِ أَحَادِيْثُ كَثِيْرَةٌ ، مِنْهَا مَا رَوَاهُ البُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُد وابن ماجة عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الإِسلام خَيْرٌ ، قالَ تُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَتَقْرَأُ السَّلامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ .

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاودَ والترمذيُّ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال قالَ رَسُوْلُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ لا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُوا أَلاَ أَدُلُّكُم عَلَى شَيءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُم أَفْشُوْا السَّلامَ بَيْنَكُم .

وَرَوَى ابنُ حِبَانَ في صَحِيْحِهِ عن البَرَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم أَفْشُوْا السَّلامَ تَسْلَمُوا ، وَأَخْرَجَ الترمذيُّ وقالَ حسنٌ صحيحٌ عن أَبِي يُوْسُفَ عَبْدِ اللهِ ابنِ سَلامٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم يَقُول ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعامَ وَصَلُّوا بالليلِ والناسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلامٍ .

وأَخْرَجَ الطبرانيُّ بِإسْنَادِ حسنٍ ، عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ ، فَتُفَرِّقُ بَيْنَنَا شَجَرةٌ فإذا التَقَيْنَا يُسَلِّمُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ وَأَخْرَجَ الطبرانيُّ في الأوسط باسنادٍ جَيِّدٍ ، وقال لا يُرْوَى إلا بِهَذا الإسنادِ عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهْ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم أَعْجَزُ الناسِ ، مَنْ عَجَزَ في الدُّعَاءِ وَأَبْخَلُ الناسِ مَن بَخِلَ بالسلامِ .

وَرُوِيَ أَيْضاً عن عَبْدِ اللهِ بنِ مَعْقِلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في مَعَاجِمِهِ الثَلاَثَةِ باسْنَادٍ جَيْدٍ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَسْرَقُ النَّاسِ الذِيْ يَسْرِقُ صَلاَتَهُ قِيْلَ يَا رَسُوْلَ اللهِ وَكَيْفَ يَسْرِقُ صَلاَتَهُ قَالَ لاَ يَتِمُ رُكُوْعَهَا وَلاَ سُجُودَهَا وَأَبْخَلُ النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بالسَّلامِ » .

وَأَخْرَجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ والبزارُ واسنادُ الإمامِ أحمدَ لاَ بَأْسَ بِهِ عن جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عنه أن رَجُلاً أَتَى النَّبِيَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فقال إنَ لِفُلاَنٍ في حَائِطِي عِذْقاً، وَإِنَّهُ قَدْ آذَانِيْ وَشَقَّ عَلَيَّ مَكَانُ عِذْقِهِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، فَقَالَ بِعْنِيْ عِذْقَكَ الذِي في حَائِطِ فُلاَنٍ ، قَالَ لاَ ، قَالَ فَهَبْهُ لِيْ ، قَالَ لاَ قَالَ فَبِعْنِيْهِ بِعذْقٍ في الجَنَّةِ ، قَالَ لاَ فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ علَيْهِ وسلم ما رَأَيْتَ الذي هُوَ أَبْخَلُ مِنْكَ إلاَّ الذِيْ يَبْخَلُ في السَّلام .

وعن أبي الخَطَّابِ قَتَادَةُ قَالَ قُلْتُ لإنَسٍ أَكَانَتِ المُصَافَحَةُ في أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ نَعَمْ مُتفق عليه وعن البَرَاءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إلاَّ غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَا رواه أبو داود .

وَعَن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال قال رَجُلٌ يا رسولَ اللهِ الرَّجُلُ مِنَّا يَلْقَى أَخَاهُ أَوْ صَدِيْقَهُ أَيَنْحَنِيْ لَهُ قَالَ لاَ قَالَ أَفَيَلْتَزِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ قال لاَ قال فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُصَافِحُهُ قَالَ نَعَمْ رواه الترمذي وقالَ حَدِيْثٌ حَسَن إذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ ، فاعْلَمْ أَنَّ لِلسَّلامِ فَوَائِدُ عَدِيْدَةٌ ، مِنْهَا امْتِثَالُ سُنَّةِ المُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، وَقَدْ قَالَ مَنْ كَانَ مِن أُمَّتِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي .

وَمِنْهَا الخُرُوْجُ مِن الحُرْمَةِ عَلَى القَوْلِ بِوُجُوْبِ ابْتِدَائِهِ وإنْ كَانَ المُعْتَمَدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مُسْتَحَبٌ .

وَمِنْهَا الخُرُوْجُ مِنَ البُخْلِ ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّه لَا يَدْخُلُ جَنَّةَ عَدْنٍ بَخِيْلٌ ، وقال صلى الله عَلَيْهِ وسلم أَيُ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ البُخْلِ ، والبَخِيْلُ بَغِيْضٌ إِلَى اللهِ ، بَغِيْضٌ إلى الناسِ ، بَعِيْدٌ مِن الجَنَّةِ حَبِيْبٌ إلى الشَّيْطَانِ ، قَرِيْبٌ إلى النِّيْرَانِ .

وَمِنها أَنَّ السَّلامَ يَكُونُ مِن الأَسْبَابِ التي تُدْخِلُ صَاحِبَهَا في الجَنَّةِ كَمَا مَرَّ في حَدِيْثِ عَبْدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ وَأَنَّهُ يُوْجِبُ دُخُوْلَهَا ، كَما في حدِيثِ أَبِي سَرْحٍ ، رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّهُ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي بِشَيءٍ يُوْجِبُ الجَنَّةَ ، قَال طِيْبُ الكَلَامِ ، وَبَذْلُ السَّلامِ ، وَاطعامُ الطعامِ ، رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه .

ومنها أن بَذْلَهُ مِن مُوْجِبَاتِ المَغْفِرَةِ فَقَد رَوَى الطبرانيُ عن أَبِي سَرْحٍ باسنادٍ جَيدٍ قالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ دُلَّنِي على عَمَلٍ يدخلني الجَنَّةَ قَالَ إن مِن مُوْجِبَاتِ المَغْفِرَةِ بَذْلَ السَّلامِ وَحُسْنَ الكَلَامِ .

وَكُنْ بَشّاً كَرِيْماً ذَا انبساطٍ وفِيْمَنْ يَرْتَجِيكَ جَمِيلَ رَأْيِ
بَعِيْداً عن سَماعِ الشَّرِّ سَمْحَاً نَقِيَّ الكَفِّ عَنْ عَيْبٍ وَثَأْيِ
مُعِيْناً لِلْأَرامِلِ واليَتَامَى أَمِيْنَ الجَيْبِ عَنْ قُرْبٍ ونَأْيِ
وَصُولاً غيرَ مُحْتَشِمٍ زَكِيّاً حَمِيْدَ السَّعْيِ في إِنْجازِ وَأْيِ
تَلَقَّ مَوَاعِظِي بِقَبُولِ صِدْقٍ تَفُزْ بالأَمْنِ عِندَ حُلُولِ لَأْيِ

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِن المتقينَ الأبْرارِ وأَسْكِنَّا مَعَهمُ في دارِ القرارَ ، اللهم وفقنا بِحُسْنِ الاقبالِ عَليك والإصْغَاءِ إليك ووَفّقنْا لِلتّعاوُنِ في طَاعَتِكَ والمُبَادَرَةِ إلى خِدْمَتكَ وحُسْنِ الآداب فى مُعَامَلَتِكَ والتّسليم لِأمْرك والرِّضا بِقَضَائِكَ والصَّبْرْ عَلى بَلائِكَ والشّكْرِ لِنَعْمَائِكَ ، واغفرَ لَنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين برحمتِكَ يا أرْحَمَ الراحمين وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ أجمعين .

(فَصْــلٌ)

وَمِنْ ذَلِكَ إنَّ افْشَاءَ السَّلامِ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ يُوْجِبُ المَحَبَّةَ والإِلْفَةَ وَالعَطْفَ والمَحَبَّةُ شَأْنُهَا عَظِيْمٌ وَقَدْرُهَا جَسِيْمٌ .

وَمِنْ فَوَائِدِ السَّلامِ أَدَاءُ حَقِ أَخِيْهِ المُسْلِم ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنهُ أَنْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم قال حَقُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ سِتٌ ، قِيْلَ وَمَا هُنَّ يا رسولَ اللهِ ، قال إذا لَقِيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ الحديث .

ومنها أَوْلَوِيَّتُهُ بِاللهِ ، لِمَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ والترمذيُ أَنَّ أَوْلَى الناسِ باللهِ مَنْ بَدَأَهُم بالسَّلامِ .

ومنها حَوْزُ الفَضِيْلَةِ لِمَا أَخْرَجَ البَزَّارُ وَابنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ عن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يُسَلِّمُ الراكبُ على الماشِي ، والماشِي علَى القَاعِدِ ، والماشِيَانِ أَيُّهُمَا بَدَأَ فَهُوَ أَفْضَلُ .

وَأخرجَ الطبرانيُ في الكبيرِ والأَوسطِ وَأَحَدُ إسنادي الكبير مُحْتَجٌّ بِهِم في الصحيح ، عن الأَغَرّ أَغَرِ مُزَيْنَةَ رَضِيَ اللهُ عنه ، قال كان رسولُ

اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم أَمَرَ لِيْ بِجَرِيْبٍ مِن تَمْرٍ عِنْدَ رَجُلٍ مِن الأنصارِ ، فَمَطَلَنِيْ بِهِ ، فَكَلَمْتُ فِيْهِ رَسُوْلَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم .

فقال أُغْدُ يا أَبَا بَكْرٍ فَخُذْ لهُ مِن تَمْرِهِ ، فَوَعَدَنِي أَبُو بَكْرٍ المَسْجِدَ إذا صَلَّيْنَا الصُبْحَ فَوَجَدْتُهُ حَيْثُ وَعَدَنِي ، فانطلَقْنَا فَكُلَّمَا رَأَى أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ مِن بَعِيْدٍ سَلَّمَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ أَبُـو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَمَا تَرَى مَا يُصِيْبُ القومَ عَلَيْكَ مِن الفَضْلِ ، لاَ يَسْبِقُكَ إلى السَّلامِ أَحَدٌ فَكَانَ إذَا طَلَعَ الرَّجُلُ مِن بَعِيْدٍ بَاكَرْنَاهُ بالسلامِ ، قَبْلَ أَنْ يُسَلِمَ عَلَيْنَا .

وَمِنْهَا ادْرَاكُ الفَضِيْلَةِ في إِفْشَاءِ السَّلامِ ، الذي هُوَ اسْم اللهِ ، وَفَضْلُ الدَّرَجَةِ بِنَشْرِهَا ، لِمَا أَخْرَجَ البَزَارُ بِسَنَدٍ جَيدٍ قَوِيٍ والطبراني عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ السلامُ اسْمٌ مِن أَسْمَاءِ الله تعالى ، وَضَعَهُ في الأرضِ فَأَفْشُوْهُ ، بَيْنَكُم ، فإنَّ الرَّجُلَ المُسْلِمَ إذا مَرَّ بِقَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوْا عَلَيْهِ كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلُ دَرَجَةٍ بِتَذْكِيْرِهِ إِيَّاهُم السَّلاَمَ فإنْ لَمْ يَرِدُّوا عَلَيْهِ رَدَّ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُم .

وَمِنْ فَوَائِدِ السلام حُصُولُ الحَسَناتِ التي صَحَّتْ بِهَا الرِّوَايَاتُ. فَأَخْرَجَ أَبُـوْ دَاوُدَ والترمذيُ وَحَسَّنَهُ والنسائيُ والبيهقيُ وَحَسَّنَهُ أيضاً عن عِمرانَ بن حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عنه ، قال جَاءَ رَجُلٌ إلى النبي صلى اللهُ عليه وسلم فقالَ السلامُ عَلَيْكُم فَرَدَّ عَلَيْهِ ، ثُمَّ جَلَسَ ، فَقال النبي صَلَّى الله عليه وسلم عَشْرٌ .

ثم جَاءَ آخرُ فقال السلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ ، فَرَدَّ فَجَلَسَ فقال عِشْرُوْنَ ، ثم جَاءَ آخرُ فقال السلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، فَرَدَّ

فَجَلَسَ، فقال ثَلاثُونَ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ مُعاذٍ مَرْفُوعاً بِنَحْوِهِ، وَزَادَ ثُمَّ أَتَى آخَرُ فَقَالَ السلامُ عليكُم وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ وَمَغْفِرَتُه ، فقال أَرْبَعُونَ هَكَذَا تَكُونُ الفَضَائِلُ .

ومِن فَوَائِدِ السَّلامِ حُصُولُ السَّلامَةِ ، كَما في حَدِيْثِ البَرَاءِ المُتَقَدِّمِ وَيَحْتَمِلُ قَولُه صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم أَفْشُوْا السلامَ تَسْلَمُوا يَعْني في الدُّنْيَا مِن الإثْمِ ، والبُخْلِ ، أَوْ مِن أَعَمَّ مِن ذَلِكَ مِنْ نَكَبَاتِ الدُّنْيَا وَمِن أَهْوَالِ الآخِرَةِ وَفَضْلُ اللهِ وَاسِعٌ .

ومنها تَصْفِيَتُه وِدّ أَخِيْكَ المُسْلِم ، فَقَدْ رَوَى الطبرانيُّ في الأَوْسَطِ عَن شَيْبَةَ الحجَبِي عن عَمِّهِ مَرْفُوْعاً ثَلاثٌ يُصَفِّيْنَ لَكَ وِدَّ أَخِيْكَ ، تُسَلِّمْ عَلَيْهِ إذا لَقِيْتَهُ وَتُوَسِّعْ لَهُ في المَجْلِسِ ، وَتَدْعُوْهُ بِأَحَبِّ الأَسْمَاءِ إليهِ .

ومنها حُصُولُ فَضِيْلَةِ الإسْلَام ، وَخِيْرَتِهِ ، كَمَا في حديث عبدِ اللهِ بنِ عَمْرو بنِ العاصِ المتقدمِ وَأَيضاً مِن فَوائِدِهِ إحْيَاءُ سُنَّةِ أَبِيْنا آدمُ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَدْ رَوَى البُخَارِيُّ وَمُسْلمُ عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ عن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ لَمَّا خَلَقَ اللهِ آدَمَ ، قَالَ اذْهَبْ فَسَلِمْ عَلَى أُولَئِكَ نَفَرٌ مِن المَلائِكَةِ جُلوسٌ فَاسْتَمِعْ مَا يُحيُّوْنَكَ ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ ، وَتَحِيَّةُ ذُرِيَّتِكَ ، فَقالَ السلام عليكُم ، فقالُوا السلامُ عليكَ وَرَحْمَةُ اللهِ فَزَادُوْا وَرَحْمَةُ اللهِ .

وقال مُجَاهِدُ كَانَ عَبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَأْخُذُ بِيَدِي فَيَخْرُجُ إلى السُوقِ يَقُولُ إنّي لأَخْرُجُ وَمَالي حَاجَةٌ إلَّا لِأُسَلِّمَ وَيُسَلَّمَ عَلَيَّ فَأَعْطِي وَاحِدَةً وَاحِدَةً وآخُذُ عَشْراً ، يَا مُجَاهِدُ إن السَّلامَ مِن أَسْمَاءِ اللهِ

تعالى ، فَمَنْ أَكْثَرَ السَّلامَ أَكْثَرَ ذِكْرَ الله ، ومنها مُوَافَقَةُ تَحِيَّةِ أَهْلِ الجَنَّةِ فإنَّ تَحِيَّةَ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيْهَا سلامٌ ، كَمَا قال جَلَّ شَأْنُهُ ﴿ تَحِيَّتُهُم فيها سلام ﴾ .

والسلامُ كما تَقَدَّمَ تَحِيَّةُ المُؤْمِنِيْنَ ، وشِعَارُهُم ، فَلَا نَبْدَأُ أَهْلَ الكِتَابِ أَوِ الذِمَّةِ بِهِ فَفِي حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةِ رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال لا تَبْدَؤُا اليَهُودَ ولا النصارَى بالسلامِ فإذا لَقِيْتُم أَحَدَهُم في طريقٍ فاضْطَرُوْهُ إلى أَضْيَقِهَا رواه أحمد ومسلم .

وَلِمَا رَوَى أَبُو نَضْرَةَ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إِنَا غَادُوْنَ عَلَى يَهُوْدَ فَلَا تَبْدَؤُهُمْ بِالسَّلامِ وانْ سَلَّمُوا عَلَيْكُم فَقُولُوا وَعَلَيْكُمْ وَيَحْرُمُ بَدَاءَتُهُم بِكَيْفَ أَصْبَحْتَ أَوْ كَيْفَ أَمْسَيْتَ أَوْ كَيْفَ أَنْتَ أَوْ كَيْفَ حَالُكَ أَوْ كَمَا يَفْعَلُهُ ضِعَافُ العُقُولِ والدِيْن بِقَولِهِم لَهُم صَبَاحَ النُوْر أَوْ مَسَاء الخَيْرِ مَعَ رَفْعِ أَيْدِيْهِم نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ أَوْ يَقُولُونَ لَهُم والعِيَاذُ باللهِ أَهْلاً وَمَرْحَباً .

وَلَو كَتَبَ إلى كَافِرٍ وَأَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ سَلَاماً كَتَبَ سَلامٌ على مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى لِمَا رَوَى البُخَارِيُّ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عليه وسلم قال ذَلِكَ في كِتَابِهِ إلى هِرقل عَظِيْمِ الرُوْمِ ولأنَّ ذَلِكَ مَعْنىً جَامِعٌ وَإِنْ سَلَّم على مَن ظَنَّه مُسْلِماً ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ ذِمِّيٌّ اسْتُحِبَ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقُوْلَ لِلذِمِي رُدَّ عَلَيَّ سَلَامِي .

لِمَا رُوِيَ عن ابنِ عُمَرَ أَنَّه مَرَّ عَلَى رَجُلٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقِيْلَ إِنَّهُ كَافِرٌ فَقَالَ رُدَّ عَلَيَّ مَا سَلَّمْتُ عَلَيْكَ فَرَدَّ عَلَيْهِ فَقَالَ أَكْثَرَ اللهُ مَالَكَ وَوَلَدَكَ ثُمَّ التَفَتَ إلى أَصْحَابِهِ فَقَالَ أَكْثَرُ لِلْجِزْيَةِ . وَإِنْ سَلَّمَ أَحَدُ أَهْلِ الذِمَّةِ لَزِمَ رَدُّهُ فَيُقَالُ وَعَلَيْكُم أَوْ يُقَالُ عَلَيْكُم بِلَا وَاوٍ .

وفي الصحيحينَ عن عبدِ الله بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم قال إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُم اليَهُوْدُ فَانَّمَا يَقولُ أَحَدُهُم السَّامُ عَلَيْكَ ، فَقُلْ لَهُ وَعَلَيْكَ هَكَذا بالوَاوِ وفي لَفْظٍ عَلَيْكَ بِلَا وَاوٍ وَعن أنسٍ بنِ مالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ إذا سَلَّمَ عَلَيْكُم أَهْلُ الكِتَابِ فَقُولُوا وَعَلَيْكُم رواه أحمد وفي لَفْظٍ لِلإِمَامِ أحمدَ فَقولُوا عَلَيْكُم بلا وَاوٍ .

وعن عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالَتْ دَخَلَ رَهْطٌ مِن اليَهُودِ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقالُوا السَّامُ عَلَيْكُم فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ عَلَيْكُم السامُ واللَّعْنَةُ فقالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَهْلاً يَا عَائِشَةُ فإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأَمْرِ كُلِّهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَوَ لَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكم متفق عليه وفي لفظٍ قَدْ قُلْتُ عَلَيْكُم لَمْ يَذْكُرْ مُسْلِمٌ الوَاوَ وعندَ الشيخِ تَقِي الدِين يَرُدُّ مِثْلَ تَحِيَّتِهِ فَيَقُولُ وَعَلَيْكَ مِثْلَ تَحِيَّتِكَ انتهى .

وَمِمَّا يَحْرُمُ وَيَجِبُ النَّهيُ عنه ما يَفْعَلُه كَثِيْرٌ مِن الناسِ مِن السلامِ عَلَيْهِم باليَدِ بالاشارَةِ وَجَعْلِهَا حِذَاءَ الرأس أَوْ وَضْعِهَا على صَدْرِهِ احْتِرَاماً لأَعْدَاءِ اللهِ وإِشْعَاراً بأَنَّهُ يُحِبُّهُم نَسْأَلُ اللهَ العافيةَ ، قالَ أَبُو دَاوُدَ سَمِعْتُ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ سُئِلَ أَيَبْتَدَأُ الذِمِيُ بالسلامِ إذا كانَتْ لَهُ إِليهِ حَاجَةٌ قالَ لَا يُعْجِبُنِي .

قال صلى اللهُ عليه وسلم لَيْسَ مِنَّا مَن تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا لا تَشَبَّهُوا بِاليَهُودِ وَلَا بِالنَّصَارَى فإِن تَسْلِيْمَ اليَهُودِ الاشارَةُ بالأَصَابعِ وَتَسْلِيْمَ النَّصارَى الاشَارَةُ بِالأَكُفِ رواه الترمذي عن عبد اللهِ بنِ عَمْرو بنِ العاصِ وَرُوِيَ لا

تُسَلِّمُوا تَسْلِيْمَ اليَهُود والنصارَى فإِنَّ تَسْلِيْمَهُمْ إِشَارَةً بالكُفُوْفِ والحواجِب
تأمَّلْ يَا أَخِيْ سَلاَمَ كَثِيْرٍ مِنَ الناسِ تَجِدْهُ بالكفُوْفِ والحوَاجِبِ فَقط

اللَّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُورِ الايْمَانِ وَثَبِّتْهَا عَلى قَوْلِكَ الثَّابتْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَة وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ وَتوفَّنا مُسْلمينْ وَالحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ يَا أَكْرَمَ الأَكْرَمِينْ وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينْ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِه

(فصــل) وَيَجِبُ هَجْرُ مَنْ كَفَرَ أَوْ فَسَقَ بِبِدْعَةٍ ، أَوْ دَعَا إِلى بِدْعَةٍ مُظَلِّلةٍ أَوْ مُفَسِّقَةٍ ، وَهؤلاَءِ هُمْ أَهْلُ الأَهْوَاءِ والبِدَعِ .

وَأَمَّا هِجْرَ ان مَن أَظْهَرَ المَعَاصِي وَأَعْلَنَهَا فقِيْلَ يُسَنُّ وَقِيْلَ يَجِبُ قال الامامُ أحمدُ رَضِيَ اللهُ عنه إذا عَلِمَ أَنَّهُ مُقِيْمٌ على مَعْصِيَةٍ وهو يَعْلَمُ بِذلِكَ لَم يَأْثَمْ إِنْ جَفَاهُ حَتَّى يَرْجَع ، وإلا كَيْفَ يَتَبَيَّنُ لِلنَّاسِ مَا هُوَ عَلَيْهِ إِذَا لَمْ يَرَ مُنْكِراً ولا جَفْوَةً مِن صَدِيْقٍ .

وَقَدْ هَجَر صلى اللهُ عليه وسلم كَعْباً وَصَاحِبَيْهِ وَأَمَـرَ أَصْحَابَـهُ بِهجْرِهِمْ خَمْسِيْنَ يَوْماً وَهجَرَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم زَوْجَاتِهِ شَهْراً .

وَهَجَرَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ابْنَ أُخْتِهَا عَبْدَ اللهِ بنَ الزُبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مُدَّةً وَهَجَرَ جَمَاعَةٌ مِن الصَّحَابَةِ ، وَمَاتُوا مُتَهَاجِرِيْنَ ، رِضْوَانُ اللهِ عليهم أجمعين .

قال أَبُـو دَاوُدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِذَا كَانَتِ الهِجْرَةُ لِلّهِ فَلَيْسَ مِنْ هَذَا يَعْنِي مِن أَحَادِيْثِ الوَعِيْدِ بالهِجْرَانِ بِشَيْءٍ .

فإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم هَجَرَ بَعْضَ نِسَائِهِ أَرْبَعِيْنَ يَوْماً وابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا هَجَرَ ابْناً لَهُ إلى أن مَاتَ .

والامامُ أَحْمَدُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هَجَرَ جَمَاعَةً ، مِمَّنْ أَجَابُوا في المِحْنَةِ ، مِثْلُ يَحْيَ بْنِ مَعِيْنٍ ، وَعَلِيِّ بْنِ المَدِيْنِي ، وَغَيْرِهِمَا ، مَعَ فَخَامَةِ شَأْنِهِمْ .

وَكَمْ إمامٍ هَجَر صَدِيْقاً لَهُ كَانَ عَزِيْزاً عَلَيْهِ لَوْلاَ انْتِهَاكَهُ لِمَحَارِمِ اللهِ ، فَصَارَ بِذَلِكَ كَالجَمَادِ ، بَلْ أَدْنَى وَيَكْفِيْ مِن ذَلِكَ قِصَّةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ كَعْبٍ وَصَاحِبَيْهِ .

موعظة

عِبَادَ اللهِ لَقَدْ تَغَيَّرَ أَكْثَرُ أَهْلِ هَذَا الزَّمَنِ في أَحْوَالِهِم الدِّيْنِيَّـةِ تَغَيُّراً يُدْهِشُ ذَوِيْ العُقُولِ تَغَيُّراً مَنْ أَمْعَنَ النَّظَرَ فِيْهِم ظَنَّ أَنَهُمْ لَيْسُوْا مِن فَرِيْقِ المُؤْمِنِيْنَ .

هَذِهِ الصَّلاةُ وهِيَ عَمُودُ الإِسْلاَم آكَدُ أَرْكَانِهِ بَعْدَ الشَّهَـادَتَيْنِ ، أَعْرَضُوا عَنْهَا ، وَلَمْ يُبَالُوا فِيْهَا جَهِلُوا مَا هِيَ الصَّلاةُ ، وَأَيُ قِيْمَةٍ قِيمتُهَا وَمَا مَنْزِلَتُهَا بَيْنَ سَائِرِ الطَّاعَات .

أَمَا عَلِمُوا أَنَّهَا أَوَّلُ مَا يُنْظَرُ فِيْهِ مِن عَمَلِ العَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَإِنْ وُجِدَتْ تَامَّةً صَالِحَةً قُبِلَتْ مِنْهُ ، وَسَائِرُ عَمَلِهِ ، وانْ وُجِدَتْ نَاقِصَةً رُدَّتْ إِلَيْهِ وَسَائِرُ عَمَلِهِ ، ثُمَّ تَكُونُ كالثَّوبِ الخَلَقِ فَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُ صَاحِبِهَا .

عِبَادَ اللهِ إِنَّ الصَلاَةَ عِبادَةٌ ، وَمُنَاجَاةٌ ، وَقُرْبَى ، نِظَامُهَا الرُكُوعُ والسُجُودُ ، مَعَ التَّذَلُلِ ، والخُضُوعِ ، وَأَقْوَالُهَا القِرَاءَةُ ، والتَّسْبِيْـحُ ، والابْتِهَـالُ ، إلى اللهِ ، وَتَحْرِيْمُهَـا التَّكْبِيْرُ وَتَحْلِيْلُهَـا التَّسْلِيْمُ وَرُوْحُهَا الإِخْلاَصُ لِلهِ ، وَسِرُّهَا اظْهَارُ العُبُوْدِيَّةِ ، والاسْتِكَانَةِ ، لِعَظَمَةِ الرَّبِ جَلَّ وَعَلا .

إِنَّهَا خَمْسُ صَلَواتٍ في اليَومِ واللَّيْلَةِ ، خَمْسُ وَقْفَاتٍ يَقِفُهَا العَبْدُ أَمَامَ سَيِّدِهِ وَمَوْلاَهُ ، خَالِقِهِ ، وَمُدَّبِرِ أَمْرِهِ ، وَلَهَا عِنْدَ اللهِ ثَوابُ خَمْسِيْنَ صَلاة .

شُرِعَتْ لَهَا الجَمَاعَةُ ، وَأُمِرَ بِبِنَاءِ المَسَاجِدِ لِأَجْلِهَا ، وَشُرِعَ لَهَا الاذَانُ ، لِيَنْتَبِهِ الغَافِلُ ، وَيَتَذَكَرَ النَّاسِيْ ، والجَاهِلُ ، إِعْـلاَماً لِـوَقْتِهَا لِيَجْتَمِعَ المُسْلِمُوْنَ إِلَيْهَـا ، وَيُؤَدُّوْهَا في جَـوٍ يَسُوْدُهُ الإِخَـاءُ والمَحَبَّةُ والإِلْفَةُ .

وَهِيَ خَيْرُ العِبَادَاتِ ، وَكَـانَتْ قُرَّةَ عَيْنِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّم ، كَمَا في الحديثِ « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْني في الصلاةِ » ، وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ أَرِحْنَا يَا بِلاَلُ بالصلاةِ .

عِبَادَ اللهِ إِنَّ الصَّلاةَ كَمَا عَلِمْتُم عِمَادُ الدِّيْنِ ، وَنُوْرُ اليَقِيْنِ وَمَصْدَرُ البِرِّ ، وَمَبْعَثُ الخَيْرِ ، العَمِيْمِ ، وَعِصْمَةٌ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ عن الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ ، وَنَجَاةٌ مِن خَزِيِّ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ .

وقَدْ جَاءَ في الحَدِيْثِ الصلاةُ نُوْرٌ والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ والصَّبْرُ ضِيَاءٌ وذَكَرَهَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلام يوماً فَقَالَ مَن حَافظَ عَلَيها كانَتْ لَهُ نُوْرَاً وبُرْهاناً ونجاةً يَومَ القِيَامَةِ .

عِبَادَ اللهِ إِنَّ الصلاةَ مِن أَجَلِّ الشَّعَائِرِ الدِّيْنِيَّةِ وأَعْظَمِ المَظَاهِرِ الاسْلامِيَّةِ ومِن أَشْرَفِ العِبَادَاتِ وهِيَ خَيْرُ ما يَتَقَرَّبُ بِهِ العَبْدُ إِلى اللهِ وقدْ كَانَ صَلى اللهُ عليه وسلم يُصَلِّي حَتَّى تَورَّمَتْ قَدَمَاهُ .

عِبَادَ اللهِ إذا فَهِمْتُم مَا سَبَقَ مِن عِظَمِ شَأْنِ الصَّلاةِ فَمَا بَالُ قَوْمٍ

يُهْمِلُونَهَا ويتَهَاوَنُونَ بِهَا وَيَتَكَاسَلُونَ عَنْهَا عند حُلُولِ وَقْتِهَا وَمَا بَالُ أَقْوَامٍ يؤَدُّونَهَا عَلَى عَجَلٍ وَعَلَى غَيْر وَجْهِهَا وينْقُرُوْنَهَا نَقْرَ الغُرَابِ كـأَنَّهُم مُكْرَهُونَ عَلَيْهَا وَيَنْسَوْنَ أَنَّهَا وَقْفَةٌ أمامَ بَدِيْعِ السمواتِ والأرضِ فَمِنَ الخَيْرِ أنْ تَطُوْلَ هَذِهِ الوَقْفَةِ قال صَلى الله عليه وسلم إنَّ طُوْلَ صَلاةِ الرَّجلُ وقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مَن فِقْهِهِ فأطيْلُوا الصلاةَ واقْصُرُوْا الخُطْبَةَ .

ومِن المُؤْسِفِ أنَّ أكْثَرَ الخُطَبَاءِ اليَوْمَ عَمِلُوْا بِخَلافِ ذَلِكَ فَأَطَالُوا الخُطْبَةِ وَقَصَّرُوْا الصلاةَ فلا حَوْلَ ولا قوةَ إلا باللهِ .

عِبَادَ اللهِ إن بَعْضَ الناسِ يُؤَدِيْ الصلاةَ تَعُوداً لا تَعَبُّداً وهَذَا مَا جَعَلَهَا لا تَنْهَاهُ عَن فَحْشَاءٍ ولا مُنْكَرٍ لِسَانُ حَالِهِمْ يَقُولَ يا إمَامُ ارِحْنَا مِن الصلاةِ .

عِبَادَ اللهِ إن اللهَ جَلَّ وَعَلاَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِنِعَمٍ عَظِيْمَةٍ لا تَعُدُّ ولا تُحْصَى جَعَلَنَا مِن بَنِي آدَمَ وجَعَلَ لَنَا سَمْعَاً وأبْصَاراً وأَفْئِدَةً ومَنَحنَا النَّشاطَ والقُوَّةَ وشَدَّ أسْرَنَا . ووَهَبنَا الصِّحَةَ والعَافِيَةَ والرِّزْقَ وسَهَّلَ عَلَيْنَا الحَرَكَةَ والسَّعْيَ .

هَذَا البَعْضُ اليَسِيرُ مِن نِعَمِهِ كُلُّهُ كَرَماً مِنْهُ وتَفَضُّلاً ولم يَطْلُبْ مِنَّا إلا دَقَائِقَ مِن يَوْمٍ طَوِيْلٍ نَشْكُرُهُ فِيْهَا وَنَحْمَدُهُ ونَسْأَلُهُ أن يَعْفُو عَنَّا ويَرْزُقَنَا ويَرْحَمَنَا وَيَحْفَظَنَا وأوْلاَدَنَا وأَهْلَنَا وَهَذِهِ لا تَخْرُجُ عن كَوْنِهَا لِخَيرِنَا في الدنْيَا والآخِرَةِ .

فَمَالَنَا لا نَقُومُ بِهَذِهَ الدَّقَائِقَ بِجِدٍّ واجْتِهَادٍ واخْلاصٍ ورَغْبَةً ونَشَاطٍ ونَسْعَى إلِىَ مُنَاجَاةِ مَوْلانا وسَيِّدِنا رَاغِبِيْنَ ونُحَافِظُ عَلَى أَوْقَاتِ الصَّلاةِ

ونُقِيْمُهَا على الوَجْهِ الأكْمَلِ لَا شَكَّ أنَّ العَبْدَ عِنْدَمَا يُحَاسِبُ نَفْسَهُ يَخْجَلُ ويَسْتَحِيْ جِدَا وَيَتذَكَّرُ أَنَّ الصلاةَ التي هِيَ صِلَةٌ بَيْنَه وبَيْنَ مَوْلَاهُ لا تَأْخُذُ مِن يوْمِهِ إلا دَقَائِقَ بَيْنَمَا لَهُ بَاقِي اليَومِ كُلِّهِ .

اللَّهُم أرْزُقْنَا المَعْرِفَةَ على بَصِيْرةٍ بِكَ وبِأَسْمَائِكَ وصِفَاتِكَ وَوَفّقْنَا لِما تُحِبُّهُ وتَرْضَاهُ مِن الأَعمَالِ وجَنِّبْنَا مَا تكْرَهُهُ ولا تَرْضَاهُ مِن الأَقْوَالِ والأَعْمَالِ وآتِنَا في الدنيا حَسَنَة وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذَابَ النَّارِ يا عَزِيْزُ ويَا غَفَّارُ واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

« فِيمَا وَرَدَ فِي الأُخُوَّةِ والألفةِ والصَّدَاقَةِ »
« في الله »

عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإيمانِ مَنْ كَانَ اللهُ ورَسُولُه أَحَبَّ إليْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، ومَنْ أَحَبَّ عَبْداً لَا يُحِبُهُ إلا لِلهِ الحديثَ رواه البخاري ومسلم والترمذيُ والنسائي .

وفي روايةٍ ثَلاثٌ مَن كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الايمانِ وَطَعْمَهُ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُه أَحَبَّ إليهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ فِي اللهِ ويُبْغِضَ فِي اللهِ الحديث رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي هريرة رَضيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه

وسلم إنَّ الله تعالى يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، أيْنَ المُتَحَابُونَ بِجَلالِي ، اليَوْمَ أظِلهُم في ظِلِّي يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلِّي رواه مسلم .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظِلُّهُ الإمَامُ العَادِلُ ، وشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ اللهِ ، ورَجُلٌ مُعَلَّقٌ قَلْبُهُ في المَسَاجِدِ ، ورَجُلانِ تَحَابَا في اللهِ اجْتَمَعَا عليهِ وتَفَرَّقَا عَلَيهِ .

وَرَجُلٌ دَعَتْه امْرأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ فَقَالَ إنّي أَخَافُ اللهَ ، ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقةٍ فأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِيْنُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ . رَواهُ البُخَارِي ومُسْلِمٌ وغَيْرُهُمَا .

وعن أبي هريرة رضي اللهُ عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رَجُلاً زَارَ أخاً لَهُ في قَرْيَةٍ أخرَى، فارْصَدَ اللهُ على مَدْرَجته مَلكاً فَلَمَّا أتى عَلَيهِ ، قال أيْنَ تُرِيْدُ قال أخاً لِيْ في هَذِهِ القَرْيَةِ ، قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا قَالَ لَا غَيْرَ أنّي أُحِبُّهُ لِلهِ ، قال فإنّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكَ أنَّ اللّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيْهِ رواه مسلم .

وعن أَبِيْ مُسْلِمٍ قَالَ قُلْتُ لِمُعَاذٍ وَاللهِ إنّيْ لَأحُبُّكَ لِغَيرِ دُنْياً أَرْجُوْ أنْ أصِيْبَهَا مِنْكَ ولا قَرَابَةٍ بَيْنِيْ وبَيْنَكَ قالَ فَلِايِّ شَيْءٍ قُلْتُ لِلهِ قال فَجَذَبَ حَبْوَتِي ثُمَّ قَالَ أَبْشِرْ إنْ كُنْتَ صَادقاً فَإنّيْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ المُتَحَابُوْنَ فِي اللهِ في ظِلِّ العَرْشِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ يَغْبِطُهُمْ بِمَكَانِهِمْ النَّبِيُونْ والشُهَدَاءُ ، قالَ وَلَقِيتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ فَحَدَّثْتُهُ بحَدِيْثِ مُعَاذٍ .

فَقَالَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ يَقُولُ عن رَبِّهِ تبَارَكَ وتعَـالَى ، حَقَّتْ مَحَبَّتِيْ عَلَى المُتحـابِّين فِيَّ ، وحَقَّتْ مَحبَّتِي على المُتَنَاصِحِيْنَ فِيَّ وحَقَّتْ مَحَبَّتِي على المُتَبَاذِلِيْنَ فِيَّ ، هُمْ عَلى مَنَابِرَ مِن نُـوْرٍ ، يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُّـونْ والشُّهَدَاءُ ، والصِّـدِّيْقُوْنَ رواه ابن حبـان في صحيحه .

وعن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنه قال سَمِعْتُ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم يَأثِرُ عن رَبِّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى يَقُولُ ، حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتحَـابِّيْنَ فِيَّ ، وحَقَّتْ مَحَبَّتِيْ لِلْمُتَـوَاصِلِيْنَ فِيَّ ، وحَقَّتْ مَحَبَّتِيْ لِلْمُتَزَاوِرِيْنَ فِيَّ ، وحَقَّتْ مَحَبَّتِيْ لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ ، رواه أحمد باسنـاد صحيح .

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم إن مِن عِبَادِ اللهِ عِبَاداً لَيْسُوَا بأَنْبِيَاءَ يَغْبِطُهُمْ الأَنْبِيَاءُ والشُّهَدَاءُ قِيْلَ مَن هُمْ لَعَلَّنَا نُحِبُّهُمْ ، قَالَ هُمْ قومٌ تَحَابُّوْا بنُوْرِ اللهِ ، مِن غَيرِ أرْحَامٍ ولاَ أنْسَابٍ ، وَجُوْهُهُم نُوْرٌ عَلى مَنَابِرَ مِن نُورٍ ، لا يَخَافُونَ إذا خَافَ النَاسُ ولا يَحْزَنُونَ إذا حَزِنَ الناسُ ، ثم قَرَأَ : ﴿ ألا إنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ رواه النسائي في صحيحه واللفظ له وهو أتم .

وعن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ قال رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إنَّ مِن عِبَادِ اللهِ لأُنَاساً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ ولا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمْ الأَنْبِيَاءُ والشُّهَدَاءُ يَوْمَ القِيَامَةِ بمَكَانِهِم مِن اللهِ ، قالُوا يا رسولَ اللهِ فَخَبِرْنَا مَنْ هُمْ .

قال هُمْ قَومٌ تَحابُّوا بِرَوحِ اللهِ ، عَلَى غَيرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُم ، ولا أَمْوَالٍ يَتَعاطَوْنَهَا ، فَوَاللهِ إنَّ وُجُوْهَهُمِ لَنُورٍ ، وإنَّهُمْ لَعَلى نُوْرٍ ، ولا يَخافُونَ إذا

خَافَ الناسُ ، ولا يَحْزَنُونَ إذا حَزِنَ الناسُ ، وقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ رواه أبو داود .

وعن عَمَّارِ بنِ يَاسِرٍ أَنَّ أَصْحَابَهُ كَانُوا يَنْتَظِرُوْنَهُ ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالُوا مَا أَبْطَأَكَ عَنَّا ، أَيُّهَا الأَمِيْرُ قال أَمَا إِنِّي سَوْفَ أُحَدِّثُكُم أَنّ أخاً لَكُم مِمَّنَ كَانَ قَبْلَكُم وهُوَ مُوْسَى صلَّى اللهُ عليه وسلمَ قال يَا رَبُّ حَدِّثنِي بِأَحَبِّ الناسِ إِلَيْكَ ، قَالَ ولِمَ قَالَ لأُحِبَّهُ بِحُبِّكَ إِيَّاهُ .

قَالَ عَبْدٌ في أَقْصَى الأَرْضِ أَوْ طَرَفِ الأَرْضِ سَمِعَ بِهِ عَبْدٌ آخَرُ في أَقْصَى أَوْ طَرَفِ الأَرْضِ لا يَعْرِفُهُ فإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيْبَةٌ فكَأَنَّمَا أَصَابَتْهُ ، وانْ شَاكَتْهُ شَوْكَةٌ فكَأَنَّمَا شَاكَتْهُ ، لاَ يُحِبُّهُ إلا لِيْ فَذَلِكَ أَحبُّ خَلْقِي إِليَّ .

قال يَا رَبُّ خَلَقْتَ خَلْقاً تُدْخِلُهُم النَّارَ أَوْ تُعَذِبُهُمْ ، فأَوْحَى اللهُ إِليهِ كُلُهُم خلْقِي ، ثُمَّ قَال ازْرَعْ زَرْعاً فَزَرَعَهُ ، فقال اسْقِهِ فَسَقَاهُ ، ثم قالَ قُمْ عَلَيْهِ ، فَقَامَ عَلَيهِ ما شَاءَ اللهُ مِن ذَلِكَ ، فَحَصَدَهُ وَرَفَعَهُ .

فقال : مَا فَعَل زَرْعُكَ يَا مُوْسَى قَالَ فَرَغْتُ مِنْهُ ، ورَفَعْتُهُ ، قال مَا تَركْتَ مِنه شَيْئاً قَالَ مَالاَ خَيْرَ فِيْهِ ، أوْ مَا لاَ حَاجَةَ لِيْ فِيه قالَ فَكَذَلِكَ أَنَا لاَ أُعذِّبُ إِلاَّ مَن لاَ خَيْرَ فِيْهِ .

قَالَ ولَو لَمَ يَكُنْ فِي مَحَبَّةِ اللهِ إلا أَنَّها تُنْجِي مُحِبَّهُ مِن عَذَابِهِ ، لَكَانَ يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ لاَ يَتَعَوَّضَ عَنْهَا بِشَيْءٍ أَبَدا ، وسُئِلَ بَعْضُ العُلَمَاءِ أَيْنَ تَجِدُ في القُرْآنِ أنَّ الحَبِيْبِ لا يُعَذِّبُ حَبِيْبَهُ فقال في قولِهِ تعالى ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ والنصارَى نَحْنُ أَبْنَآءُ اللَّهِ وأَحِبآؤُهُ قُلْ فِلمَ يُعَذِبُكُمْ بِذُنُوبِكُم ﴾ الآية واللَّهُ أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

« مَوْعِظَةٌ »

عِبَادَ اللهِ لَقَدْ غَفَلَتِ الأَلْسِنَةُ اليَوْمَ عَن ذِكْرِ اللهِ ، غَفْلَةً تَسُرُّ ابْلِيْس وَجَنُوْدَهُ ، ولَمَّا غفلَتِ الأَلَسْنَةُ غَفَلَتِ القُلُوب ، عن مُرَاقَبَةِ اللهِ في السِّرِ والعَلَانِيَةِ ، ولَمَّا غَفَلَتِ القُلُوبُ والأَلْسِنَةُ عن ذِكْرِ اللهِ ، انْدَفَعَتِ الجَوارِحُ في مَيْدَانِ المَعَاصي ، انْدِفَاعاً لا يُصَدِقُ بِهِ إلا مَنْ تَأَمَّلَ النَاسَ في تَفَنُّنِهِمْ في الشُرُوْرِ ، وتَسَابُقِهِم إلِيْهَا .

مِنْ تَقْلِيْدٍ للأَجَانِبِ ، وشُرْبٍ لِدُخَانٍ ، ومُعَامَلاتٍ لا تَجُوزُ ، ونِفَاقٍ ، وغِشٍّ ، ونَهْشٍ لِإِعْرَاضِ الغَافِلِيْنَ ، وخِدَاعٍ ، ومَكْرٍ ، ورِيَاءٍ ورِباً وكِبْرٍ وحَسَدٍ وسَمَاعٍ لِلْمَلاهِي ، وحُضَورٍ لَهَا ، وعقوقٍ ، وشَهَادَةِ زُوْرٍ ورُشَاء ، ومُدَاهَنَاتٍ ونَمٍ وكَذِبٍ ونَحوِ ذلك .

ولو تَحَركَتَ الأَلْسِنَةُ بِذِكْرِ اللهِ لا اسْتَيْقَظَتِ القُلُوبُ مِن غَفَلَاتِهَا القَاتِلاتِ ، ولو اسْتَيْقَظَتْ القُلُوبُ والتَفَتَتْ إلى ذِكْرِ عَلامِ الغُيُوبِ ما رَأَيْتَ جَارِحَةً مِن الجَوارِحِ تَلْتَفِتُ لِشَيءٍ مِن المَحْظُورَاتِ ، فَإِنَّ الغَفْلَةَ عن ذِكْرِ اللهِ هِيَ أَصْلُ الشُرورِ واليَقْضَةَ هِيَ أَصْلُ الْخَيرِ والسَّعَادَةِ في الدنيا والآخرةِ بإذنِ اللهِ تعالى .

وإليك نَمَاذِجُ مِن كُنُوزِ ذِكْرِ اللهِ ، تَعَالَى أَوَّلُهَا كَلِمَةُ الاخلاصِ ، لا إله إلَّا اللهُ ، فَإنها تَرْجَحُ بِكُلِّ مَا سِوَاهَا ، حَتَّى على الأَرْضِ والسمواتِ وسُبْحَانَ اللهِ ، والحَمْدُ لِلهِ ، واللهُ أَكْبَرُ ، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأَنْ أَقوْلَ سُبْحَانَ اللهِ ، والحَمْدُ لِلهِ ، ولَا إِلَه إلا اللهُ واللهُ أَكْبَرُ أَحبُّ إليَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَليه الشمسُ رواه مسلم والترمذي .

وعن أُمِّ هَانِيءٍ قَالَتْ مَرَّ بِي رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ذاتَ يوم ، فَقُلْتُ يا رسولَ اللهِ قَدْ كَبُرَتْ سِنِّي ، وضَعُفْتُ أو كما قالَتْ فَمُرْنِي بعَمَلٍ أعْمَلُهُ وأنا جَالِسَةٌ .

قال : سَبِّحِيْ اللهَ مِائَةَ مَرَةٍ ، فانَّها تَعْدِل مِائَةَ رَقَبَةٍ ، تُعْتِقِيْنَهَا مِن وَلَدِ اسْمَاعِيْلَ ، واحْمَدِيْ اللهَ مِائَةَ تَحْمِيْدَةٍ . فإنها تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ فَرَسٍ مُسْرَجَةً مُلْجَمَةً تَحْمِلِيْنَ عَلَيْهَا في سَبْيِلَ اللهِ ، وكَبِّرِي اللهَ مِائَةَ تَكْبِيْرَةٍ فإنها تَعْدلُ لك مِائَةَ بَدَنَةٍ مُقَلَّدَةً مُتَقَبَّلَةً وهَلِلِيْ اللهَ مِائَةَ تَهْلِيْلَةٍ .

قال أبو خَلَفٍ أحْسبُهُ قَالَ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ ولا يُرْفَعُ يَوْمَئِذٍ لإحَدٍ عَمَلٌ أفْضَلَ مِمَّا يُرْفَعُ لَكِ إلا أنْ يَأتِي بِمْثلِ ما أتَيْتِ ، رواه أحمد باسناد حسن واللفظ له والنسائي ولم يَقُلْ ولا يُرْفَعُ إلى آخِره ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ ، دَوَاءٌ مِن تِسْعَةٍ وتِسْعِينَ دَاءٍ ، أيْسَرُهَا الْهَمُّ كَمَا في الحديثِ الذي رواه الطبراني .

ولا حَوْلَ ولا قوةَ الا باللهِ كَنْزٌ مِن كُنُوزِ الجَنَّةِ ، وقَوْلُ أعُوذُ بكلماتِ اللهِ التاماتِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ حِفْظٌ لِقَائِلِهَا مِن العَقْرَبِ ، ونَحْوِهَا ومَن قَالَ رَضِيْتُ باللهِ رَباً وبالاسلامِ دِيْناً وبِمُحَمَّدٍ رَسُوْلاً فَلْيَبْشِرْ بإن النبيَ صلى اللهُ عليه وسلم زَعِيْمٌ لِمَنْ قَالَهَا إذا أصْبَحَ أنْ يَدْخُلَ الجَنَّةِ .

وقُلْ إذا أَصْبَحْتَ اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِن نِعْمَةٍ أَوْ بأحَدٍ مِن خَلْقِكَ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لا شَرِيْكَ لَكَ فَلَكَ الحَمْدُ ولكَ الشُكْرُ ، لِتُؤَدِيْ شُكْرَ يَوْمِكَ وَقُلْ مِثْلَهَا إذا أمْسَيْتَ لِتُؤَدِّيْ شُكْرَ لَيْلتِكَ »

شـعراً :

ولَـوْلاَ ثَـلاثٍ هُنَّ مِنْ لَـذَّةِ الفَتَـى
وَرَبِّكَ لَمْ أَحْفِـلْ مَتى قَـامَ عُـوَّدِي
سِيَـاحَـةُ قَلْبِي في رِيَــاضٍ أَرِيْضَـةً
مِن العِلْمِ مُجْتَـازاً عَلَى كُلِّ مَـوْرِدِ
وتَـسْـبِـيْـحُـنَـا لِلّهِ جَـلَّ جَـلاَلُـهُ
عَشِيـاً وبـالابْكَـارِ في كُـلِّ مَسْجِـدِ
وتَـرْتِيْـلُ آيـاتِ الكِـتَـاب مُنَـوِّراً
بِهَـا جَوْفَ لَيْـلٍ في قِيَـامِ التَّهَجُّـدِ

فَهَذِهِ جُمْلَةٌ مِن كُنُوزِ الذِكْرِ وَفَّقَنَا اللهُ وإيَّاكَ وجميعَ المسلمينَ لِلْعَمَلِ بِهَا وأَلْهَمَنا وإيَّاكَ وجميعَ المسلمين شُكْرَهَا وغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

وعن أَبي مَالِكٍ الأَشْعَرِي رضِي اللهُ عنه عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : يَا أَيُّهَا الناسُ اسْمَعُوا وَاعْقِلُوا ، واعلمُوا أنَّ لِلَّهِ عَزَّ وجَلَّ عِبَاداً لَيْسُوا بأنْبِيَاءَ ، وَلا شُهَـدَاءَ ، يَغْبِطُهُم النَّبِيُّـونَ ، والشُّهَداءُ على مَنَازِلِهِمِ وقُرْبِهم مِن اللهِ .

فَجَثَى رَجُلٌ مِن الأَعْرَابِ ، مِن قَاصِيَةِ الناسِ وأَلْوَى بِيَدِهِ ، إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالَ يَا رَسُولَ الله نَاسٌ مِن الناسِ لَيْسَوا بأَنْبِيَاءَ ولا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُم **الأَنْبِيَاءُ والشُّهَداءُ** ، عَلَى مَجَالِسِهم وقُرْبِهِمْ مِن

اللهِ انْعَتْهُم لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنا ، يَعْنِي صِفْهُمْ لَنَا ، فَسُرَّ وَجْهُ النبيِ صلَّى اللَّهُ عليَه وسلم بسُؤآلِ الأَعْرَابِي .

فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هُمْ نَاسٌ مِن أَفْنَاءِ الناسَ ، ونَوَازِعِ القَبَائِلِ ، لم تَصِلْ بَيْنَهُم أَرْحَامٌ ، مُتَقَارِبَةٌ تَحابُوا في اللهِ ، وتَصَافَوْا ، يَضَعُ اللهُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ مَنابِرَ مِن نُورٍ ، فَيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا فَيَجْعَلْ وُجُوهَهُمْ نُوراً ، وثِيَابَهُم نُوْرَاً ، يَفْزَعُ الناسُ يَوْمَ القِيَامَةِ ولا يَفْزَعُونَ ، وهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ، رواه أحمد وأبو يعلى باسناد حسن والحاكم وقال صحيح الاسناد .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن في الجَنَّةِ لَعُمُدًا مِن يَاقُوْتٍ عَلَيْهَا غُرَفٌ مِن زَبَرْجَدٍ لَهَا أَبْوَابٌ مفَتَّحةٌ تُضِيءُ كَمَا يُضِيءُ الكوكَبُ الدُرِيُ ، قال قُلْنَا يا رسولَ اللهِ مَن يَسْكُنُهَا ، قالَ المُتَحَابُونَ فِي اللهِ ، والمُتَبَاذِلُونَ فِي اللهِ ، والمُتَلاَقُونَ فِي اللهِ ، رواه البزار .

وعن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عنه عن النبي صلى اللهُ عليه وسلم ، قال إنَّ في الجنةِ غُرَفاً تُرَى ظَواهِرُهَا مِن بَوَاطِنِها، وبَوَاطِنُهَا مِن ظَوَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُتَحَابِيْنَ فِيهِ والمُتَزَاوِرِيْنَ فِيه والمُتَبَاذِلِينَ فيه ، رواه الطبراني في الاوسط .

وعن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ رَجُلاً سَأَلَ رسولَ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلم مَتَى السّاعَةُ ، قَالَ ومَا أَعْدَدْتَ لَهَا ، قالَ لا شَيءَ إلَّا أَنِي أُحِبُّ الله ورسولَه ، قالَ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ ، قال أنسُ فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنا

بقَولِ النبي صَلَى اللهُ عليهِ وسلم أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ قال أنسُ فأنا أحِبُّ النبيَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم ، وأَبَا بَكْرٍ ، وعَمُرَ ، وأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُم ، بحُبِّيْ إيَّاهُمْ ، رواه مسلم .

فَفِيْ هَذَا الحَدِيثِ بَشَارَةٌ عَظِيْمَةٌ سَارَّةٌ ، لِمَنْ أَحَبَّ اللهَ وَرَسولهُ ، وأَصحَابَهُ ، ومَن اتَّبَعَهُمْ واقْتَدَى بِهِم ، ولِهَذا فَرِحَ أَصْحَابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بِهَذَا النَبَإِ الحَسَنِ ، واغْتَبَطُوا لَهُ اغْتِبَاطاً ، فَائِقاً وإِنَّمَا سُرُّوْا بِهِ وفَرِحُوا لِأَنَّهُم كانوا يَقِيْسُوْنَ أَنْفُسَهُم على شَخْصِ النبي صلى الله عليه وسلم ، في العِبَادَةِ ، وكانَ صلى اللهُ عليه وسلم يأمُرُ بالقَصْدِ فِيها والرِفْقِ بأَنْفُسِهِم .

فَفِي حديثِ البُخَارِي عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالَتْ كَانَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إذا أَمَرَهُم ، أَمَرَهُم مِن الأعْمَالِ مَا يَطِيْقُونَ ، ويَقُولُونْ إنا لَسْنا مِثْلَكَ يا رسولَ اللهِ انَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لكَ ما تَقَدَم مِن ذَنْبِكَ ومَا تَأَخَّرَ ، فَيَغْضَبَ حَتَّى يُعْرَفُ في وَجْهِهِ .

ثم يقولُ أَمَا وَاللهِ إنّي لأَخْشَاكُمْ لِلهِ ، وأَتْقَاكُمْ لَهُ وكَأَنَّهُم يَقُولُونَ أَنْتَ مَغْفُورٌ لَكَ ، فلا تَحْتَاجُ إلى كَثْرَةِ أعْمَالٍ ، بِخِلَافِنَا فَرَدَّ عَلَيْهِم صلى اللهُ عليه وسلم بقولِهِ أَنَا أَوْلَاكُم بِذلك لأنِيّ أَتْقَاكُمْ وأعلمكم بِاللهِ .

ومَنْ كَانَ كَذَلِكَ يَكْثُرُ أَعْمَالُهُ ، وتَعْظُمُ عِبَادَتُهُ لِشِدَّةِ خَوْفِهِ مِن رَبّهِ وَتَمامِ مَعْرِفَتِهِ بِمَا يَلِيْقُ بِجَلَالِ اللهِ وعَظَمَتِهِ ، ولأنَّ نِعم اللهِ عليهِ أَكْثَرُ مِن غَيْرِهِ ، قال اللهُ تعالى ﴿وكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيْمَا﴾ ولهَـذا سُرَّ الصَّحَابَةُ بِمَا قالَهُ النبيُ صلى الله عليه وسلم لِهذا الرَّجُلِ السَّائِلِ .

وقالوا فَمَا فَرِحْنا بِشَيْءٍ فَرَحَنا بقَوْلِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَم أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ لِمَا وَفَّقَكَ اللهُ لَهُ مِن حُسْنِ النِّيَّةِ والقَصْدِ مِن غيرِ إجْهَادٍ في العَمَلِ ، وزِيَادَةٍ في العِبَادَةِ .

والحَقُ أَنَّهُ لا يَتِمُ ولا يَكْمُلُ إيْمَانُ الانسانِ إلاّ بايْثَارِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم بالمَحَبَّةِ والتَّعْظِيْمِ على سَائِرِ خَلْقِ اللهِ ، ففي الحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ قال والذي نَفْسِي بيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى أكُوْنَ أَحَبَّ إليهِ مِن وَالِدِهِ ، ووَلَدِهِ ، وفي رواية والناسِ أجمعين .

ومِن عَلاَمَاتِ مَحَبَّتِهِ إِيْثَارُ رِضَاهُ والعَمَلُ بِشَرِيْعَتِه ونَصْرُ سُنَّتِهِ ، والتأسِيْ بِهِ في شَمَائِلِهِ وسِيْرَتِهِ الكَرِيْمَةِ ، المُبارَكَةِ أَمَّا مَن ادَّعَى مَحَبَّتَهُ ولَمْ يُؤْثِرْ بالعَمَلِ شَرِيْعَتَهُ ، فتِلْكَ دَعْوَى باطِلَةٌ ، وتَبَجُّحُ كَاذِبٌ ، لأَنَّ صَاحِبَها لَمْ يُقِم حُجَّةً على صِحَّةِ دَعْوَاهُ ، وأَحَقِيَّةِ مَا ادَّعَاهُ .

اللَّهم وَفِّقْنا لِمَحَبَّتِكَ وَمَحَبَّةِ رُسُلِكَ وَأَوْلِيَائِكَ وعِبَادِكَ الصالحين واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

عن الوليدِ بنِ أَبِيْ مُغِيْثٍ عن مُجاهِدٍ ، قَالَ إذا التَقَى المُسْلِمَانِ فَتَصَافَحا غُفِرَ لهُمَا ، قال قُلْتُ لِمُجَاهِدٍ بِمُصَافَحَةٍ لَهُمَا قَالَ مُجَاهِدُ أَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ ﴿لَو أَنْفَقتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيْعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم ، ولكنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ فَقالَ الوَلِيْدَ لِمُجَاهِدٍ أَنْتَ أَعْلَمُ مِنِي .

وعن سلمانَ الفَارِسِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال « إنَّ المُسْلِمَ إذَا لَقِيَ أخَاهُ المُسْلِمَ فَأَخَذ بيَدِهِ تَحَاتَتْ عَنْهُمَا ذُنُوبُهمَا كَما تَحَاتُ الوَرَقُ عن الشَّجَرَةِ اليَابِسَةِ فِي يَوْمِ رِيْحٍ عَاصِفٍ وإلا غُفِرَ لَهُمَا ذُنُوبُهما ولو كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البِحَارِ .

وقال أَبُو عَمْرٍو الأَوْزَاعِي حَدَّثَنِي عَبْدَةُ بنُ لُبَابَةَ عن مجاهدٍ ولَقِيْتُهُ فَأَخَذَ بيَدِي فقال إذا التَقَا المُتَحَابَانِ في اللهِ فأَخَذَ أَحَدُهُمَا بيَدِ صَاحِبِه وضَحِكَ إليه تَحَاتَتْ خَطَايَاهُمَا كَمَا تَحَاتُ وَرَقُ الشَّجَرِ ، قال عَبْدَةُ فَقُلْتُ لَهُ هَذَا يَسِيْرٌ فقال لا تَقُلْ ذَلِكَ فإنَّ اللهَ يقولُ لَو أَنْفَقْتَ ما في الأَرْضِ جَمِيْعاً ما أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم قَال عَبْدَةُ فَعَرَفْتُ أنه أَفْقَهُ مِنِّيْ .

« مَوْعِظَةٌ مِن كلامِ »
« ابنِ الجَوْزِيْ رَحِمَهُ اللهُ »

يا مَن يُرَجِّي الثَّوَابَ بِغَيرِ عَمَلٍ ، ويُرَجِّى التَّوْبَةَ بطُوْلِ الأَمَلِ تَقُولُ في الدُنيا قَولَ الزَّاهِدِيْنَ ، وتَعْملُ فيها عَمَلَ الرَّاغِبِيْنَ ، لا بِقَلِيْلٍ منها تَقْنَعْ ، ولا بِكَثِيْرٍ منها تَشْبَعُ ، تَكْرَهُ الموتَ لِأَجْلِ ذُنُوبِكَ ، وتُقِيْمُ على مَا تَكْرَهُ المَوْتَ لَهُ مِن عُيُوْبِكَ .

تَغْلِبُكَ نَفْسُكَ على مَا تَظُنُّ ، ولا تَغْلِبُهَا على مَا تَسْتَيْقِنْ ، ما تَثِقُ مِن الرِّزْقِ بِمَا ضُمِنَ لكَ ، ولا تَعْمَلُ مِن العَمَل ما فُرِضَ عَلَيْكَ ، وتَسْتَكْثِرُ مِن مَعْصِيَةِ غَيْرِكَ مَا تَحْتَقِرُهُ مِن نَفْسِكَ .

أَمَا تَعْلَم أَنَّ الدُنْيَا كَالحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا والسُّم النَاقِعُ في جَوْفِهَا يَهْوِي إلَيْهَا الصَّبِيُّ الجَاهِلُ ويَحْذَرُهَا اللَّبِيْبُ العاقِلُ كَيْفَ تَقَرُّعَيْنُ من عَرَفَها ومَا

أَبْعَدَ أَنْ يُفْطَمَ عَنْها مَن الفَهَا ، فَتَفكَّرُوْا إِخْوانِي في أَهْلِ الصلاحِ ، والفَسَادِ ، ومَيِّزُوا بَيْنَ أَهْلِ الخُسْرانِ وأهْلِ الأرْبَاحِ ، فيا سَرعانَ عُمْرٍ يُفْنِيْهِ المَسَاءُ والصَّبَاحْ .

« شِعرٌ لِبَعْضِ الصَّالِحِيْنَ في مَدْحِ »
« رَبِّ العِزَّةِ تَبَارَكَ وَتَعالَى »

يـا فَـاطِـرَ الخَلْقِ البَـدِيْـعِ وكَـافِـلاً
رِزْقَ الجَمِيْعِ سَحَابُ جُوْدِكَ هَاطِلُ
يا مُسْبِغَ البِرِّ الجَزِيْـلِ ومُسْبِلَ السِّـ
ـتْرِ الجَمِيْلِ عَمِيْمُ طَـوْلِـكَ طَـائِـلُ
يـا عَـالِمَ السِّــرِ الخَفِيِّ ومُنْجِـزَ الْـ
ـوَعْـدِ الـوَفِيِّ قَضَاءُ حُكْمِـكَ عَـادِلُ
عَظُمَتْ صِفَاتُكَ يَا عَـظِيْمُ فَجَلَّ أَنْ
يُحْصِيْ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ فِيهَـا قَـائِـلُ
الـذَّنْبُ أَنْتَ لَـهُ بِـمَنِّـكَ غَـافِـرٌ
ولِتَـوْبَـةِ العَـاصِيْ بِحِلْمِـكَ قَـابِـلُ
رَبٌّ يُـرَبِـيْ الـعَـالَـمِيـنَ بِـبِـرِّهِ
وَنَــوَالُــهُ أَبَــداً إِلَـيْـهِـمْ وَاصِـلُ
تَعْصِيْهِ وهْـوَ يَسُـوقُ نَحْـوَكَ دَائِمـاً
مَـالا تَـكُـونُ لِبَـعْضِـهِ تَسْتَـاهِـلُ
مُـتَـفَـضِّــلٌ أَبَــداً وأَنْـتَ لِـجُـوْدِهِ
بِقَبَـائِـحِ العِصْيَـانِ مِنْكَ تُقَـابِـلُ

م ٢ – ج ٢

وإِذَا دَجَى لَيْـلُ الخُـطُوبِ وَأَظْلَمَتْ
سُبْلُ الخَلاَصِ وخَـابَ فِيْهَا الآمِـلُ
وأيِسْتَ مِن وَجْــهِ النَّجَـاةِ فَمَــالَهَــا
سَـبَبٌ ولاَ يَـدْنُــولَـهَــا مُتَـنَــاوِلُ
يَـأْتِيْـكَ مِن الْـطَافِـهِ الفَـرَجُ الـذِيْ
لَمَ تَحْتَسِبْـهُ وأَنْتَ عَنْـهُ غَـافِـلُ
يـا مُـوْجِـدُ الأَشْيَـاءِ مَن أَلْقَـى إِلَى
أَبْـوَابِ غَيرِك فَهُـو غِرٌّ جَـاهِـلُ
ومَن اسْتَـرَاحَ بِغَيـرِ ذِكْــرِكَ أَوْ رَجَـا
أَحَــداً سِـوَاكَ فَـذَاكَ ظِــلٌّ زَائِــلُ

عَـمَــلٌ أُرِيْــدَ بِـه سِـوَاكَ فَـإِنَّـهُ
عَمَــلٌ وإِنْ زَعَمَ المُـرَائِيْ بَـاطِـلُ
وإذا رَضِيْـتَ فَـكُــلُ شَـيْءٍ هَـيِـنٌ
وإِذَا حَصَلْتَ فكُلُ شَيْءٍ حَـاصِـلُ
أَنَــا عَبْــدُ سُــوءِ آبِقٌ كُـلٌ عَـلَى
مَــوْلاَهُ أَوْزَارُ الـكَـبَـائِـرِ حَـامِـلُ
قَدْ أَثقَلَتْ ظَهْرِيْ الـذُنُوبُ وَسَـوَّدَتْ
صُحْفِي العُيُوبُ وسِتْرُ عَفْوِكَ شَامِـلُ
هَـا قَـدْ أَتَيْتُ وَحُسْنُ ظَنِّيْ شَـافِعِيْ
وَوَسَـائِـلِيْ نَــدَمٌ ودَمْـعٌ سَـائِـلُ
فَـاغِفِرْ لِعَبْـدِكَ مَا مَضَـى وَارْزُقْـهُ تَـوْ
فِيْقـاً لِمَـا تَـرْضَـى فَفَضْلُكَ كَـامِـلُ

وافعَـلْ بِـهِ مَـا أَنْتَ أَهْـلُ جَمِيْلِهِ
والـظَنُّ كُـلَ الـظَّنِّ أَنَّـكَ فَـاعِـلُ

اللهم إنا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا فاغفر لنا ذُنُوبَنَا وهَبْ لَنَا تَقْوَاكْ واهدِنَا بهُدَاكْ ، ولا تَكِلْنَا إلى أَحَدِ سِوَاكْ ، واجْعَلْ لَنَا مِن كُلِّ هَمٍ فَرَجا ، ومِن كُلِّ ضِيْقٍ مَخْرَجَا .

اللهم أَعِذْنَا بمُعَافَاتِكَ مِن عُقُوبَتِـكْ ، وبرِضَـاكَ مِن سَخَطِكْ ، واحْفَظْ جَـوَارِحَنَا مِن مُخَـالَفَةِ أَمْـرِكْ ، واغفر لنـا ولوالـدينا ولجميـع المسلمين، برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فصل)

قال ابنُ القَيم رَحِمَهُ الله :

لَذَةُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَىٰ حَسَبِ قَدْرِهِ وَهِمَّتِهِ وَشَرَفِ نَفْسِهِ ، فَأشْرَفُ النَاسِ نَفْساً وَأَعْلاَهُمْ هِمَّةً وَأَرْفَعُهُمْ قَدْراً ، مَنْ لَذَّتُهُ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ ، وَمَحَبَّتِهِ وَالشَّوْقِ إلى لِقَائِهِ ، وَالتَّوَدُدِ إليهِ بِمَا يُحِبُهُ وَيَرْضَاهُ ، فَلِذَتُهُ في إقْبَالِهِ عَلَيْهِ وَعُكُوْفِ هِمَّتِهِ عَلَيْهِ .

وَدُوْنَ ذَلِكَ مَرَاتِبُ لاَ يُحْصِيْهَا إلاَّ اللهُ ، حَتَّى تَنْتَهِي إلى مَنْ لَذَّتُهُ في أَخَسِّ الأَشْيَاءِ ، مِن القَاذُوْرَاتِ والفَوَاحِشِ ، فِي كُلِّ شَيْءٍ مِن الكَلاَمِ والأَفْعَالِ والأَشغالِ فَلَوْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَا يَلْتَذُ بِهِ الأَوَّلُ لم تَسْمَحْ نَفْسُهُ بقَبُوْلِهِ وَلاَ الأَلتِفَاتِ إليه ، ورُبَّمَا تَأَلَمَتْ مِن ذَلِكَ كَمَا أَنَّ الأَوَّلَ إذا

عُرِضَ عَلَيْهِ مَا يَلْتَذُ بِهِ هَذَا لَمْ تَسْمَحْ نَفْسُهُ بِهِ ولم تَلْتَفِتْ إِلَيْهِ ، وَنَفَرَتْ نَفْسُهُ منه .

وَأَكْمَلُ الناسِ لَذَّةً مَن جُمِعَ لَهُ بَيْنَ لَذَّةِ القَلْبِ والرُّوحِ ولَذَّةِ البَدَنِ ، فَهُوَ يَتَناوَلُ لَذَّاتِهِ المُبَاحَةِ عَلَى وَجْهٍ لاَ يُنقِصُ حَظَّهُ مِن الدَّارِ الآخِرَةِ ، ولا يَقْطَعُ عَلَيْهِ لَذَّةَ المَعْرِفَةِ والمَحَبَّةِ والأنسِ بِرَبِّهِ ، فَهَذَا مِمَّنْ قَالَ تَعَالَى فِيه : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ والطيباتِ مِن الرزقِ ، قل هِيَ للذينَ آمَنُوا في الحَيَاةِ الدنيا خالِصَةً يومَ القِيَامَةِ » .

وَأَبْخَسَهُم حَظاً مِن اللَّذَةِ ، مَنْ تَنَاوَلَهَا على وَجْهٍ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ لَذاتِ الآخِرَةِ فيكونُ مِمَّنْ يُقَالَ لَهُمْ يَومَ اسْتِيْفَاءِ اللَّذَاتِ « أَذْهَبْتُم طَيبَاتِكُمْ في حَيَاتِكم الدُّنْيَا واسْتَمْتَعْتُمْ بِها » .

فَهَؤلاَءِ تَمَتَعُوا بِالطَيباتِ ، وَأولَئِكَ تَمتَعُوا وافْتَرَقُوا في وَجْهِ التَّمتُعِ فأُلئِكَ تَمَتَعُوا بها على الوَجْهِ الذي أُذِنَ فِيه فَجُمِعَ لَهُمْ بَيْنَ لَذَّةِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ .

وَهَؤلاَءِ تَمَتَّعُوا بِها على الوَجْهِ الذِيْ دَعاهُمْ إليهِ الهَوَى والشَّهْوَةُ وَسَواءٌ أذِنَ لَهُمْ فِيهِ أَمْ لا فانْقطعَت عَنْهُم لَذَّةُ الدُنْيَا وفَاتَهُم لَذَةُ الآخِرَةِ فَلاَ لَذَةَ الدُنْيا دَامَتْ ولا لَذَةُ الآخِرَةِ حَصَلَتْ لَهُمْ .

فَمَنْ أَحبَّ اللَّذَةَ وَدَوَامَها والعَيْشَ الطَّيِّبَ فَلْيَجْعَلْ لَذَّةَ الدُّنْيا مُوْصِلَةً إلى لَذَّةِ الآخِرَةِ بأن يَسْتَعِينَ على فَرَاغِ قَلْبِهِ لِلهِ إرادَتِهِ وعِبادَتِهِ فَيَتَناوَلُهَا بِحُكْمِ الأسْتِعَانَةِ والقوةِ عَلَى طَلَبِهِ لاَ بِحُكْمِ مُجَرَّدِ الشَّهْوَةِ والهَوَى .

وَانْ كَانَ مِمَّنْ زُويَتْ عَنْهُ لَذَّاتُ الدُّنْيَا وطَيِّبَاتُهَا فَلْيَجْعَلْ ما نَقَصَ مِنْهَا

زِيَادَةً في لَذَّةِ الآخِرَةِ . ويُجِمُّ نَفْسَهُ هَهُنَا . بالتَّرْكِ لِيَسْتوْفِيَهَا كَامِلَةً هُنَاكَ .

فَطيِّبَاتُ الدُّنْيَا ولَذَّاتُها نِعْمَ العَوْنُ لِمَنْ صَحَّ طَلَبُهُ للـهِ والدَّارِ الآخِرَةِ وَكَانَتْ هِمَّتُهُ لِمَا هُنَاكَ ، وبِئْسَ القَاطِعُ لِمَنْ كَانَتْ هِيَ مَقْصُوْدَهُ وَهِمَّتُهُ وَحَوْلَهَا يُدَنْدِنُ وَفَوَاتُهَا في الدُّنْيا نِعْمَ العَوْنُ لِطَالِبِ اللهِ والدارِ الآخِرَةِ وبِئْسَ القَاطِعُ النَازِعُ مِن اللهِ والدار الآخِرَةَ فَمَنْ أَخَذَ مَنَافِعَ الدنيا على وَجْهٍ لا يَنْقُصُ حَظُّهُ مِن الآخِرَةِ ظَفِرَ بهِمَا جَمِيْعاً وإلا خَسِرَهُمَا جَمِيْعاً .

وقال رحمه الله :

سبحانَ اللهِ ربِّ العَالَمِين ، لَوْ لَمْ يَكُنْ في تَرْكِ الذُّنُوبِ والمَعَاصِيْ إلا إقَامَةُ المُرُوْءَةِ ، وصَوْنُ العِرْضِ ، وحِفْظُ الجَاهِ ، وصِيَانَةُ المَالِ ، الذِي جَعَلَهُ اللهُ قِواماً لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ ، ومَحَبَّةُ الخَلْقِ وَجَوَازُ القَوْلِ بَيْنَهُم .

وَصَلاَحِ المَعَاشِ وَرَاحَةُ البَدَنِ وَقُوَّةُ القَلْبِ وطِيْبُ النَّفْسِ ونَعِيْمُ القَلْبِ وانْشِرَاحُ الصَّدْرِ والأَمْنُ مِن مَخَاوِفِ الفُسَاقِ والفُجَّارِ ، وَقِلَّةُ الهَمِّ والغَمِّ والحَزَنِ وعِزُّ النَّفْسِ عن احْتِمَالِ الذُلِ ، وصَوْنُ نُوْرِ القَلْبِ أنْ تُطْفِئَهُ ظُلْمَةُ المَعْصِيَةِ ، وحُصُولُ المَخْرَجِ لَهُ مِمَّا ضَاقَ على الفُسَاقِ والفُجَارِ .

وَتَيْسِيْرُ الرزْقِ عَلَيْهِ مِن حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ، وَتَيْسِيْرُ ما عَسُرَ على أربابِ الفُسُوقِ والمعاصِي ، وتَسْهِيْلُ الطاعاتِ عَلَيْـهِ ، وتَيْسِيْرُ العِلْمِ والثَنَاءِ الحَسَنِ في الناسِ ، وَكَثْرَةُ الدُعَاءِ لَهُ ، والحَلاَوَةُ التِي يَكْتَسِبُهَا وَجْهُهُ ، والمَهَابَةُ التي تُلْقَى لَهُ في قُلُوب الناسِ .

وَانْتِصَارُهُم لَهُ وَحَمِيَّتُهُم لَهُ إذَا أُوذِيَ أَوْ ظُلِمَ وَذَبِّهِم عَنْ عِرْضِهِ إِذَا اغْتَابَه مُغْتَابٌ وَسُرْعَةُ إجَابَةِ دُعَائِهِ وَزَوَالُ الوَحْشَةِ التِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ وَقُرْبُ الملائكَةِ مِنه . وبُعْدُ شَيَاطِينِ الإنْسِ والجِنِ منه . وتَنَافُسُ الناسِ على خِدْمَتِهِ .

وَخِطْبَتُهُم لِمَوَدَّتِهِ وَصُحْبَتِهِ ، وَعَدَمُ خَوْفِهِ مِن المَوتِ ، بَلْ يَفْرَحُ بِهِ لِقُدُومِهِ عَلى رَبِّهِ ، وَلِقَائِهِ لَهُ وَمَصِيْرِهِ إليهِ ، وصِغَرُ الدنيا في قَلْبِهِ وكِبَرُ الآخِرَةِ عِنْدَهُ وَحِرْصُه عَلى المُلْكِ الكَبِيْرِ والفَوْزِ العَظِيْمِ فِيْها . وَذَوْقُ حَلَاوَةِ الطَّاعَةِ وَوِجْدُ حَلَاوَةِ الأيمانِ ودُعَاءُ حَمَلَةِ العَرْشِ وَمَن حَوْلَهُ مِن المَلَائِكَةِ لَهُ . وَفَرَحُ الكِرَامُ الكاتِبِيْنَ بِهِ ، وَدُعَاءُهُم لَهُ كُلَّ وَقْتٍ ، وَالزِّيَادَةُ في عَقْلِهِ وَفَهْمِهِ وإيمَانِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وحُصُولُ مَحَبَّةِ اللهِ لَهُ واقْبَالُهُ عَلَيْهِ وَفَرحُهُ بِتَوْبَتِهِ .

فَهَذَا بَعْضُ آثارِ تَرْكِ المَعَاصِيْ في الدُّنْيَا فإذَا مَاتَ تَلَقَتْهُ الملائِكَةُ بالبُشْرَى مِن رِبِّهِ بالجَنَّةِ وبِأَنَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِ ولا حَزَنٌ وَيَنْتَقِلُ مِن سِجْنِ الدنيا وضِيْقِهَا إلى رَوْضَةٍ مِن رِيَاضِ الجنةِ يَنْعَمُ فِيها إلى يومِ القِيَامَةِ .

فَإِذَا كَانَ يَومُ القِيَامَةِ كَانَ الناسُ في الحَرِّ والعَرَقِ وهُوَ في ظِلِّ العَرْشِ فاذا انْصَرَفُوا بَيْنَ يَدَي اللهِ أُخَذَ بِهِ ذَاتَ اليَمِيْنِ مَعَ أَولِيَائِهِ المتقين وحِزْبِهِ المُفْلِحِين وذلك فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيْهِ مَن يَشَاءُ واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيْم » والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فصل : وقال رحمه الله : ومما ينبغي أن يعلم : أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد ، وإن كرهتها نفسه وشقت عليها ، فهذه هي الرحمة الحقيقية . فارحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك ، ودفع المضار عنك .

فمن رحمـة الأب بولده : أن يكرهه على التأديب بالعلم والعمل ، ويشق عليه في ذلـك بالضرب وغيره ، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره ، ومتى أهمـل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به ، وإن ظن أنه يرحمه ويرفهه ويريحه ، فهذه رحمة مقرونة بجهل ، كرحمة الأم .

ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على العبد ، فإنه أعلم بمصلحته ، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من أغراضه وشهواته : من رحمته به ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلاءه ، ولا يعلم احسانه إليه بابتلائه وامتحانه .

وقد جاء في الأثر : إن المبتلي إذا دعي له : اللهم ارحمه ، يَقُول الله سبحانه : كيف أرحمه من شيء به أرحمه : وفي أثر آخر : إن الله تعالى إذ أحب عبده حماه الدنيا وطيباتها وشهواتها كما يحمي أحدكم مريضه .

فهذا من تمام رحمته به ، لا من بخله عليه . كيف وهو الجواد الماجد ، الذي له الجود كله ، وجود الخلائق في جنب جوده أقل من ذرة في جبال الدنيا ورمالها .

فمن رحمته سبحانه بعباده : إبتلاؤهم بالأوامر والنواهي رحمة وحمية ، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به ، فهو الغني الحميد ولا بخلا منه عليهم بما نهاهم عنه ، فهو الجواد الكريم .

ومن رحمته : أن نغص عليهم الدنيا وكدرها لئلا يسكنوا إليها ، ولا يطمئنوا إليها ، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره ، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان ، فمنعهم ليعطيهم وابتلاهم ليعاقبهم ، وأماتهم ليحيهم .

ومن رحمته بهم : أن حذرهم نفسه ، لئلا يغتروا به ، فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به كما قال تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾ قال غير واحد من السلف : من رأفته بالعباد حذرهم من نفسه ، لئلا يغتروا به .

شعرا :

أتـأمَـلُ في الـدُّنْيا تُجِـدُّ وَتَعْمُـرُ
وأنْتَ غـداً فِيْهَـا تَمُـوتُ وتُـقْبَـرُ

تُلَقِّـحُ آمَـالاً وتَـرْجُـوْ نِتَـاجَـهَـا
وَعُمْـرُكَ مِمَّا قَـدْ تُـرَجِّيْـهِ أقْصَـرُ

تَحُـومُ عَلَى إدْرَاكِ مَـا قَـدْ كُفِيْتَـهُ
وتُقْبِـلُ في الآمَـالِ فِيهَـا وتُـدْبِـرُ

وَهَـذَا صَبَاحُ اليَـومِ يَنْعَـاكَ ضَـوْءُهُ
وَلَـيْلَتُـهُ تَـنْعَـاكَ إنْ كُـنْـتَ تَشْعُرُ

ورِزْقُـكَ لا يَعْـدُوْكَ إمَّـا مُعَجَّـلٌ
على حَـالَةٍ يَـومـاً وإمَّـا مُؤَخَّـرُ

فَـلاَ تَـأْمَنَ الـدُّنْيَا وإنْ هِيَ أقْبَلَتْ
عَلَيْـكَ فَمَـا زَالَتْ تَخُـونُ وَتَغْـدِرُ

فَمَـا تَمَّ فِيها الصَّفْوُ يَـوْمَـاً لأهْلِهِ
ولا الـرَّنْـقُ إلاَّ رَيْـثَمَـا يَـتَـغَـيَّـرُ

وَمَـا لاَحَ نَـجْمٌ لاَ وَلاَ ذَرَّ شَـارِقٌ
عَلَى الخَلْقِ إلاَّ حَبْلُ عُمْرِكَ يَقْصُرُ

تَـطَهَّـرْ وأَلْحِقْ ذَنْبَـكَ اليَـوْمَ تَـوْبَـةً
لَعَلَّكَ مِنْهَـا إنْ تَـطَهَّـرْتَ تَـطْهَـرُ

وَشَمِّرْ فَقَدْ أبْدَى لَكَ المَـوْتُ وَجْهَهُ
وَلَيْسَ يَنَـالُ الفَـوْزَ إلاَّ المُـشَمِّـرُ

فَهَـذِيْ اللَّيَـالِي مُؤْذِنَـاتُـكَ بِـالبِلَى
تَـرُوْحُ وأيَّـامٌ كَـذَلِـكَ تُـبْـكِـرُ

وأخْلِصْ لِـدِيْنِ اللهِ صَـدْراً ونِيَّـةً
فـإنَّ الَّـذِيْ تُخْفِيْـهِ يَـوْمَـاً سَيَظْهَـرُ
تَـذَكَّـرْ وَفَكِّـرْ بِالَّذِي أَنْتَ صَـائِـرٌ
إلَيْـهِ غَـدَاً إنْ كُنْتَ مِمَّـنْ يُفَكِّـرُ
فَـلاَ بُـدَّ يَـوماً أنْ تَصِيْـرَ لِحُفْـرَةٍ
بـأثْنَـائِهَـا تُـطْوَى إلى يَـومٍ تُنْشَـرُ

اللهم اسْلُكْ بِنَا سَبِيْلَ عِبَادِكَ الأَبْرَارِ واجْعَلْنَا مِن عِبَادِكَ المُصْطَفِيْنَ الأَخْيَارَ وامْنُنْ عَلَيْنَا بالعَفْوِ والعِتْقِ مِن النارِ واحْفَظْنَا مِن المعَاصِي فِيْمَا بَقِيَ مِن الأَعْمَارِ واغفر لَنَا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله علي محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فصل)

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وإِيَّاكَ وجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ لِمَا يُحِبُّهُ اللهُ ويَرْضَاهُ أَنَّ الصَّبْرَ مِن أَجَلِّ صِفَاتِ النَّفْسِ وأَعْلاَهَا قَدْراً ، وهُوَ لُغَةً حَبْسُ النَّفْسِ عن الجَزَعِ أَيْ مَنْعُهَا مِن الأَسْتِسْلاَمِ لِلْجَزِعِ كَيْ لا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ فِعْلُ مَا لا يَنْبَغِي فِعْلُهُ وبِعِبَارَةٍ أُخْرَى الصَّبْرُ ثَبَاتُ القُوةِ المُضَادَّةِ لِلْشَّهْوَةِ في مُقَاوَمَتِها .

وأَمَّا شَرْعاً فَهُوَ أَعَمُّ مِن ذَلِكَ لأَنَّهُ حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ الجَزَعِ ، وَمَنْعُهَا عَن مَحَارِمِ اللهِ ، والزَامُهَا بأَدَاءِ فَرَائِضِ اللهِ ، يَدُلُّ عَلَيْهِ ما رُوِيَ عن ابنِ عَبَاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهُمَا أنه قَالَ الصَّبْرُ في القُرآنِ عَلَى ثَلاَثَةِ أَوْجُهٍ صَبْرٌ عَلَى أَدَاءِ فَرَائِضِ اللهِ وصَبْرٌ عن مَحَارِمِ اللهِ ، وصَبْرٌ عَلَى المُصِيْبَةِ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُوْلَى .

وقالَ ابنُ القَيِّمِ الصَّبْرُ حَبْسُ النَّفْسِ عن التَّسَخُطِ بالمَقْدُوْرِ وحَبْسُ اللِّسَانِ عَن الشَّكْوَى ، وَحَبْسُ الجَوَارِحِ عن المَعْصِيَةِ ، فَمَدارُ الصَّبْرِ على هذه الأَرْكَانِ الثلاثةِ فإذَا قَامَ بِهَا العَبْدُ كَمَا يَنْبَغِي انْقَلَبَتِ المِحْنَةُ في حَقِّهِ مِنْحَةً ، واسْتِحَالَةِ البَلِيَّةِ عَطِيَّةً ، وصَارَ المَكْرُوْهُ مَحْبُوْباً .

فإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَبْتَلِهِ لِيُهْلِكَهُ ، وإِنَّمَا ابْتَلاَهُ لِيَمْتَحِنَ صَبْرَهُ وَعُبُوْدِيَتَهُ ، فَأَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى العَبْدِ عُبُوْدِيَّةً في الضَّرَاءِ كَمَا لَهُ عَلَيْهِ عُبُوْدِيَّةٌ في السَّرَاءِ ، وَلَهُ عُبُوْدِيَّةٌ عَلَيْهِ فِيْمَا يَكْرَهُ كَمَا لَهُ عَلَيْه عُبُوْدِيَّةٌ فِيْمَا يُحِبُّ أ هـ .

وعَرَّفَ الصَّبْرَ بَعْضُهُمْ بأَنَّهُ بَاعِثُ الدِّيْنِ ، أَمَامَ بَاعِثِ الهَوَى فأَمَّا بَاعِثُ الدِّيْنِ فهُوَ قُدْرَةُ العَقْلِ عَلَى قَهْرِ الشَّهْوَةِ والغَضَبِ ، لأَنَّهُمَا بِطُغْيَانِهِمَا يَقُوْدَانِ المَرْءَ إلى مَا لا يُقِرُّهُ الدِّيْنُ ، ولا يَرْضَاهُ العَقْلُ ، فاذَا ثَبَتَ العَقْلُ أَمَامَ الشَّهْوَةِ والغَضَبِ وقامَ بوَظِيْفَتِهِ عَلَى الوَجْهِ المَطْلُوبِ فلا يَجْعَلُ لهُمَا عَلَيهِ سُلْطَاناً .

ولا يَسْمَحُ لَهُمَا بالطُّغْيَانِ ، فَيَنْقَادُ لَهُمَا صَاغِراً بَلْ يَكُونُ هُوَ الآمِرُ النَّاهِيْ فَيَسْلُكَ بِهِمَا سَبِيْلَ الاعْتِدَالِ ، بلا افْرَاطٍ ولاَ تَفْرِيْطٍ ، فإِنَّهُ بذلِكَ يَسْتَطِيْعُ بإذنِ اللهِ أَنْ يَظْفِرَ بالصَّبْرِ ، عن ما حَرَّمَ اللهُ والصَّبرِ عَلى طَاعَتِهِ ، وأنْ يَحْبِسَ نَفْسَهُ عن الجَزَعِ عِنْدَ المُصِيْبَةِ ، فلا يَسْتَفِزُّهُ الجَزَعُ إلى قَوْلٍ ، أَوْ عَمَلٍ ، مَا لا يَرْضَاهُ اللهُ مَهْمَا كَانَ لِنَفْسِهِ فِيه لَذَّةٌ .

ومِن ذَلِكَ الصَّبْرُ على إِيْذَاءِ النَّاسِ إِيَّاهُ ، فإِنَّهُ إِذَا أَغْضَبَهُ أَحَدٌ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ ، فإِنَّ غَضَبَهُ لا يطغى عليه ، فيحمله على تعدي حدود الله بل

يَكْفِيْكَهمُ غضبه حَتَّى يَجْرِيْ عَلَى سُنَنِ الدِّيْنِ مِن القِصَاصِ العَادِلِ ، أوِ العَفْوِ إنْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةَ .

وقِيْلَ في تَعْرِيْفِهِ هُوَ الثَّبَاتُ على الكِتَابِ والسُنَّةِ ، والتَمشِّيْ مَعَ ارْشَادَاتِهِما ، لِأَنَّ مَنْ ثَبتَ عَلَيْهِمَا فَقَدْ صَبرَ عَلى المَصَائِبِ ، وعَلَى أدَاءِ العِبَادَاتِ ، وعَلَى اجْتِنَابِ المُحَرمَاتِ .

ثُمَّ إنَّ الصَّبْرَ يُسَمَّى بأَسْمَاءَ مُخْتَلِفَةٍ ، فَمَثَلاً الصَّبْرُ عَنِ شَهْوَةِ الفَرْجِ والبَطْنِ أو المَالِ الحَرَامِ يُسَمَّى عِفَّةً وَورعاً ومَنْعُهَا عَن الجَزَعِ والفِرَارِ عِنْدَ لِقَاءِ العَدُوِّ يُسَمَّى شَجَاعَةً ، ويُقَابِلُهُ الجُبْنُ ، ومَنْعُهَا عن التَّعَدِيْ عَلى الغَيْرِ عِنْدَ ثَـوْرَةِ الغَضَبِ يُسَمَّى حِلْماً ، وشَجَـاعَةً ، ويُقَـابِلُهُ التَّذَمُّـرُ والطَّيْشُ .

وعَنِ إفْشَاءِ السِّر يُسَمَّى كِتْمَانَ السِّرَ ، وعَنِ الاسْرَافِ في المآكِلِ وَالمشَارِبِ يُسَمَّى زُهْداً ، وعَنِ الغُـرُوْرِ بالثَـرْوَةِ والمَالِ يُسَمَّى ضَبْطَ النَّفْسِ ، ويُقابِلُهُ البَطَرُ والخُلاَصَةُ أنَّ الصَّبْرَ فَضِيْلَةٌ يَحْتَاجُهَا المُسْلِمُ في دِيْنِهِ ودُنْيَاهُ .

فَيَجِبُ على الإنْسَانِ أنْ يُوَطِنَ نَفْسَهُ على احْتِمَالِ الشَّدَائِدِ والمَكَارِهِ دُوْنَ ضَجَرٍ ،وانْتِظَارُ النَّتَائِجِ مَهْمَا بَعُدَتْ فكُلُ مَا هُوَ آتٍ قَرِيْبٌ ، وعَلَيْهِ أنْ يُوَطِنَهَا عَلَى مُوَاجَهَةِ الأَعْبَاءِ مَهْمَا ثَقُلَتْ بقَلْبٍ لَمْ تَعْلَقْ بِهِ رِيْبَةٌ وعَقْلٍ لا تَطِيْشُ بِهِ كُرْبَةٌ .

وقَدْ أَكَّدَ اللهُ جَلَّ وعَلاَ أنَّ ابْتِلاَءَ النَّاسِ أَمْرٌ لاَ مَحِيْصَ عَنْهُ حَتَّى يَأخُذُوْا الأُهْبَةَ ، والاسْتِعْدَادَ لِلنَوازِلِ ، فلا تُذْهِلُهُمْ المُفَاجَاءَةُ قال اللهُ تَعالى﴿ولنَبْلُونَّكُم حَتَّى نَعْلَمَ المجاهِدِينَ منكم والصابرينَ ونَبْلُو أَخْبَارَكُمَ﴾

وقال﴿ولَنَبْلُونَّكُم بِشَيْءٍ مِن الخَوْفِ والجُوعِ ونَقْصٍ مِن الأَمْوَالِ والأَنْفُسِ والثمراتِ وبَشِّرِ الصابِرِيْن ،﴾وقال﴿ونَبْلُوكمُ بالشَّرِ والخَيْرِ فِتْنَةً وإلِيْنَا تُرْجَعُون﴾

وقال تعالى إخْبَاراً عَمَّا قَالَهُ سُلَيْمانُ عليهِ السَّلاَمُ ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبي لِيَبْلُوني أأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُر ﴾ وقال تعالى ﴿ آلم أحَسِبَ الناسُ أن يُتْرَكُوا أنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون ولقد فَتَنَا الذينَ مِن قبلهم ﴾ الآية :

اصْبِرْ عَلَى مِضَضِ الأَدْلاجِ فِي السَّحَرِ
وفي الرَّوَاحِ إلى الطَّاعَاتِ والبِكَرِ
إنّي رَأَيْتُ وفِي الأَيَّامِ تَجْرِبَةٌ
لِلصَّبْرِ عَاقِبَةٌ مَحْمُوْدَةَ الأَثَرِ
وقَلَّ مَن جَدَّ في أَمْرٍ تَطلُبُهُ
واسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إلا فَازَ بالظَّفَرِ

آخر :

يَقُولُ لَكَ الإِثْبات أَهْلُ التَّجَارُبِ ... تَصَبَّرْ فَعُقْبَى الصَّبْرِ نَيْلُ المآرِبِ
ونَصُّ- كِتَابِ- الله- بالصَبْرِ- آمِرٌ ... وقَدْ وَعَدَ الصُّبَّارَ حُسْنَ العَوَاقِبِ

ويَقُول الآخرُ :

والصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌ مَذَاقَتُهُ
لكنْ عَوَاقِبُه أَحْلَى مِن العَسَلِ

ويقول الآخرُ :

بَنَى اللهُ لِلأَخْيَارِ بَيْتاً سَمَاؤُهُ
هُمُومٌ وأَحْزَانٌ وجُدْرَانُهُ الضُّرُ
وأَدْخَلَهُم فِيهِ وأغْلَقَ بَابَهُ
وقَالَ لَهُمْ مِفْتَاحُ بَابِكُم الصَّبْرُ

آخـــر :

دَبُّـوا إلى المَجْـدِ والسَّـاعُـونَ قَـد بَلَغُـوا
جُهْـدَ الـنُّفُـوسِ وشَـدُّوا نَحْـوَهُ الأُزُرَا
وسَـاوَرُوْا المجْـدَ حَـتَّى مَـلَّ أكْـثَـرُهُمْ
وعـانَـقَ المَـجْـدَ مَـن وَافَـى ومَـنْ صَـبَرا
لا تحْسَـبِ الْمَجـدَ تَمـراً أنْـتَ آكِـلُهُ
لَـنْ تَبـلُـغُ المَجْـدَ حَتى تَلْعَـقَ الصَّـبِرَا

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

آخـر :

هُوَ المَجْدُ مَنْ يَطْلُبْهُ يَسْتَعْذِبُ الصَّبْرَا   ويَسْتَسْهِلُ الأَخْطَارَ والمركَبَ الوَعْرَا
ويُرْخِصُ في إدْرَاكِهِ كُلَّ ما غَلا   ويُنْفِقُ في أدْنَى رَغائِبِه العُمْـرَا

آخـر :

بِقَدْرِ الجِـدِّ تُكْتَسَبُ المَعَـالِي   ومَنْ طَلَبَ العُـلا سَهِرَ اللَّيَالِيْ
تَرُوْمُ العِزَّ ثُمَّ تَنَـام عَنْـهُ   يَغُوْصُ البَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللآلِيْ

آخـر :

إنَّ الأُمورَ إذا انْسَدَّتْ مَسَالِكُهَا   فالصَّبْرُ يَفْتَحُ مِنها كل مَارَتَجَـا
لا تَيْأسَنَّ وإنْ طَالَتْ مَطَالِبُـهُ   إذَا اسْتَعَنْتَ بِصَبْرٍ أنْ تَرى فَرَجَا
أخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أنْ يُحْظَى بِحَاجَتِهِ   ومُدْ مِن القَرعِ للأبْوَابِ أنْ يَلِجَـا

اللهمَّ آنظِمْنا في سِلكِ حِزبِكَ المُفلِحِين ، واجْعلنا مِنْ عبادِكَ المُخْلِصين وآمِنَّا يومَ الفَزَعِ الأكبرِ يومَ الدِين ، واحشُرْنا مَعَ الذين أنعمْتَ عليهم مِن النَبيين والصِّدِّيقينَ والشُهداء والصالحينِ واغفِرْ لنا ولوالدينا ولجميعِ المسلمينَ

الأحياء منهمْ والميتينَ برحمتِكَ يَا أرْحَمَ الراحمينَ ، وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعِين .

فصل : وقَالَ تعالى : ﴿ لَتُبْلَونَّ في أمْوالِكُم وأنْفُسِكُمْ ولَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّـذِيْنَ أوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ومن الذين أشْرَاكُوا أذىً كَثيراً وانْ تَصْبِرُوا وتَتَّقَوُا فإنّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمُورْ ﴾ وقالَ تَعالى ﴿ أمْ حَسِبْتُم أن تَدْخُلوا الجَنَّةَ ولَمَّا يأتِكُم مَثَلُ الذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ والضَرَّاءُ وزُلْزِلوا حَتَّى يقولَ الرَّسُول والذيَن مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ألا نَصْرَ اللَّهِ قريب ﴾ .

فَمَن ابْتَلاَهُ اللّهُ بِنَقْصٍ في مالِهِ أوْ مَنَعَهُ شَيْئاً مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنيا ولَذَّاتِها الْفَانِيةِ وعَجزَ عن تَحْصِيْلِهِ بالْوسَائِل المشْرُوعةِ أوْ قَبَضَ لَهُ نَفْساً أباً أوْ أَخاً أو أُمَّا أوْ وَلَداً أو نَحْوَ ذَلِكَ أو خَافَ مِن عَدُوٍ فإنَّهُ لا دَواءَ لَهُ إلا الصَّبْرُ على مَا أصَابَهُ .

فاذا صَبَرَ المُبْتَلَى وعَمِلَ بقولِ رَبّهِ عزَّ وجلْ ، فَقَدْ هَانَتْ عليهِ البَلْوَى وضاعَ أثرُها فاسْتَرَاحَ مِن عَذَابِها في الدّنْيا وفازَ بالآخِرَةِ بالجَزاءِ الحَسَنْ ، فالْفَقِيرُ الذي لا يَذْهَبُ بِلُبِّهِ مَتَاعُ الحياةِ وزِيْنَتُهَا ولا يُحْزِنُهُ مالا يَسْتَطِيعُ الوُصُولَ إليهِ مِنْ المتاعِ الفَانِي سَائِرٌ على ضَوْءِ ارْشَادَاتِ القرآنِ الكريمْ ، مِثْلُ قَوْلِهِ تعالى ﴿ولاَ تَمُدَنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بهِ أزْواجاً مِنْهُم زَهْرَةَ الحياةِ الدّنْيا لِنَفْتِنَهم فيهِ ورِزْقُ رَبِّكَ خيرٌ وأبْقَى﴾ .

وَقَوْلُهُ ﴿قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ﴾ بَلْ مُطْمَئِنٌّ قَلْبُهُ إلى ما قَدَّرَهُ اللهُ له في هَذِهِ الحياة مِنْ تَعَب ونَصَبٍ ويَرضَى بِمَا قَسَمَ لَهُ فلا يَسْخَطْ ، وَلاَ يَفْعَلُ مُحَرَّمَاً ، فإنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ أمْرِهِ فَرَجاً في

حَيَاتِه الدُّنْيَا كَما قالَ تَعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعلْ له مَخْرَجا ويَرْزُقْهُ مِن حيثُ لا يَحْتَسِبْ ﴾

وإِذَا اشْتَهتْ نَفْسُهُ شَيْئاً وَعَدَها بالخيرِ وصَبَّرَها ومَشَّى أُمُورَهُ على قَدْرِ حَالِهِ ولا يُكَلِّفُ نَفْسَهُ بالدَّيْنِ والقَرْضِ قالَ اللهُ تعالى ﴿إن مَعَ العُسْرِ يُسْراً إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا﴾ وقال بَعْضُهُمْ :

إِذَا رُمْتَ أَنْ تَسْتَقْرِضَ المالَ مُنْفِقاً
على شَهَواتِ النَّفْسِ في زَمَنِ العُسْرِ
فَسَلْ نَفْسَكَ الانْفَاقَ مِن كَنْزِ صَبْرِهَا
عَلَيْكَ وانصَاراً إلى زَمَنِ اليُسْرِ
فَإنْ فَعَلْتَ كُنْتَ الغَنِيَّ وإنْ أَبَتْ
فَكُلُ مَنُوْعٍ بعدَهَا واسعُ العُذْرِ

آخر :

أَفَادَتْنِي القَنَاعَةُ كُلَّ عِزٍ ... وأيُّ غِنيً أعَزُّ مِن القَنَاعَةِ
فَصَيِّرْهَا لِنَفْسِكَ رأسَ مَالٍ ... وصَيِّرْ بَعْدَهَا التَّقْوَى بِضَاعَةْ
تَحُزْرِبْحَيْنِ تَغْنَى عَن بخِيْلٍ ... وتَنْعَمُ بالجنانِ بِصَبْرِ سَاعَةّ

آخر :

عَزِيزُ النفسِ مَنْ رُزِقَ القَنَاعَة ... ولَمْ يَكْشِفْ لِمَخْلُوقٍ قِناعَهْ
وقد علموا بأني حِيْنَ شَدُّوا ... عُرَى الأطماعِ فارقت الجَماعَة
إذَا مَا فاقَةٌ قرنت بِعِزٍ ... وكانت في التبذل لِي ضراعَهْ
نَفَضْتُ يَدَيَّ عِن طمعِي وحِرْصي ... وقُلْتُ لفاقتي سَمْعاً وطاعهْ

أمَّا الفَقِيرُ الَّذِي يُزَيِّنُ لَهُ الشَّيْطَانُ والْهَوى والنَّفْسُ الامَّارَةُ بالسُّوءِ ما في أيْدِي النَّاس ، فيُفْسِدُ عليهِ قَلْبَهُ بالـوَسَاوِسِ الضَّـارَةِ ، والاماني الكَاذِبَةِ ، والاحْلاَمِ الباطِلَةْ ، فَيَحْسُدُ الناسَ على مـا آتَاهُم اللهُ مِن فَضْلِهِ ، مُبْعداً عن الصَّبْرِ على الحالةِ المُرْضِيَةِ لا يُبَالِي بأيِّ وَسيْلَةٍ يَتَمَسَّكُ بِها مِنَ الوَسائِلِ المُحَرمَّةِ ، في الوُصولِ إلى لَذَّةٍ مُحَرَّمَةٍ لا تُغْنِي عَنْهُ شَيْئاً ولا تَسُدّ فَقْرَه فَهُو مِنْ أشْقَى خلقِ اللهِ لأَنَّهُ بِعَمَلِهِ هذَا يَكُونُ قَدْ خَسِرَ دُنْيَاهُ وآخِرَتَهُ ، وذَلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ المبينْ .

وكذلكَ الْغَنِيُّ يَحْتَاجُ إلى الصَّبْرِ على غِنَاهُ لأَنَّهُ مُكَلَّفُ بِحُقوقٍ وَوَاجِبَاتٍ لا يَسْهُل على النَّفْسِ فِعْلُها مِنْ زَكَاةِ مالٍ وإنْفَاقٍ على مَنْ يُمُونُه وإغَاثَةِ مَلْهُوفٍ الخ .

ثُمَّ اعْلَمْ انَّ إظْهَارَ الْبَلْوى سَواءً كَانَتْ مَرَضاً أوْ فَقْراً أوْ غَيْرِهِما إمَّا أنْ يَكُونَ لِلَّهِ تعالى كما قالَ أيّوبُ عليهِ السَّلام﴿أنِّي مَسَّنِي الضُرُّ وأنْتَ أرْحَمُ الرَّاحِمين﴾وكَمَا قالَ يَعْقُوبُ﴿إنَّما أشْكُو بَثِّي وحُزْنِي إلى اللهِ﴾فهذا لا يُنَافِي الصَّبْر .

وَامَّا أنْ يَكُونَ لِغَيْرِ اللَّهْ فإنْ كَانَ لِحَاجَةٍ كَشَرْحِ الْعِلَّةِ لِلطَّبيب أوْ بَيَانِ الْمظْلَمَةِ لِمَنْ يَقْدِرُ على رَفْعِهَا فانَّهُ لا يُنَافِي الصَّبْرِ أيْضاً ما دَامَ رَاضِياً بِقَضَاءِ اللهِ وقَدَرِهْ ، فَلاَ يَضْجَرُ ولاَ يَتَبَرَّمُ مِمَّا يَنْزِلُ بِهِ مِن البَلاَءِ فَإنْ اشْتَكى لِغَير اللّهِ مِنْ دُونِ فَائِدَةٍ تَبَرُّماً وَتَضجُراً لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّابِرِيْنْ ، وَلَمْ يَسْتَفِدْ مِنْ مُصِيْبَتِهِ سِوىَ عَذابِ الدُّنْيا .

فإن كان لِلتسَلِّي أو المواساة فلا بأس شِعْرًا :

وأَبْثَثْتُ عَمْـرا بَعْضَ مَـا فـي جَـوَانحـي
وجَـــرَّعْتُــهُ مِــنْ مُــرِّ مــا أتَجَـــرَّعُ

ولا بُـدَّ مِـن شَـكْوَى إلى ذِيْ حَفِيْظَـة
يُوَاسِـيْكَ أو يُسْـلِيْكَ أو يَتَـوَجَّـعُ

وَسَيُسْأَلُ عَنْ ضَجَرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُصُوصاً إذَا كَانَتْ شَكْوَاهُ مَصْحُوبَةً بِبَعْضِ الْعِبَارَاتِ التي فِيْهَا جَرَاءَةٌ على اللّهِ ، لأنَّهُ يَشْكُو الإِلَهَ القادِرَ على المِسْكِينِ الضَّعِيفِ العاجِزِ ، الَّذِي لَا يُغْنِي عَنْهُ شَيْئاً ، كَمَا قِيْل :

« وإذَا شَـكَوتَ إلى ابْنِ آدمَ إِنَّمَا تَشْكُو الرَّحِيْمَ إلى الذِّي لَا يَرْحَمُ »

فَتَجِـدُ بَعْضَ النَّـاسِ كَثِـيرُ التَّشَكِيِّ إلى النَّاسِ يَسْتَأْنِسُ بالشَّكوى ويَتَلَذّذُ بها كَما قِيل :

تَلَذُّ لَهُ الشَّكْوى وإنْ لَمْ يَجِدْ بِهَا صَلَاحاً كَمَا يَلْتَذُّ بالْحَكِّ أجْـرَبُ

فالْجَاهِلُ يَشْكُو اللّهَ إلى النَاسِ وهَذَا غَايَةُ الجَهَلْ بالْمَشْكُو والْمَشْكُو إليه فإنَّـهُ لَوْ عَرَفَ رَبـهُ لما شَكَاهُ وَلَوْ عَرَفَ النَّاسَ لَمَا شَكَا إليهم لأنهُّم مَسَاكِين عَاجِزُونْ . ورُبَّما كانُوا مِن المُتَشَمِّتِين الذِيْنَ يَفرحُونَ عليه ويَفْرَحُونَ بِمَوتِهِ .

ولا تَشَـكَّ إلى خَـلْقٍ لِتُشْـمِتَهُ شَكْوى الجَرِيْحِ إلى الغِرْبَانِ والرَّخَمِ

آخـر :

كَمْ عائِد رَجُلا وَلَيْسَ يَعُـوْدُهُ إلاَّ لِيَنْظُرَ هَلْ يَـراهُ يَمُـوْتُ

وَرَأَى بَعْضُ السَّلَفِ رَجُلاً يَشْكُو إلى رَجُلٍ فَاقَتَهُ وضَرُورَتَهُ ، فَقَالَ يا هَذَا واللّهِ ما زِدْتَ على أنْ شَكَوْتَ مَن يَرْحَمُكَ إلى مَنْ لَا يَرْحَمُكَ ، والعارِفُ إنَّما يشْكُو إلى اللّه وَحْدَهُ .

وَأَعْرَفُ الْعَارِفِينَ مَنْ جَعَلَ شَكْوَاهُ إلى اللّهِ مِنْ نَفْسِهْ ، لَا مِنَ الناسِ فَهُوَ يَشْكُو مِنْ مُوجِبَاتِ تَسْلِيط الناسِ عليه ، فَهُوَ نَاظِرٌ إلى قَوْلِهِ تَعالى ﴿وما أَصَابَكُم مِن مُصِيْبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيْكُمْ﴾ وقوله ، ﴿وما أَصَابَك من سَيِّئَةٍ فَمنْ نَفْسِكْ﴾ وقوله ﴿أَوَ لَمَّا اصَابَتْكُمْ مُصِيْبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أنَّى هَذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أنْفُسِكُمْ﴾ .

فالْمَرَاتِبُ ثَلاثٌ أَخَسُّهَا أنْ تَشْكُو اللّهَ إلى خَلْقِهِ وأعْلاَهَا أنْ تَشْكُو نَفْسَكَ إليهِ وأوْسَطُها أنْ تَشْكُو خَلْقَهُ إليهِ انْتهى قَالَ بَعْضُهمْ :

وَيَمْنَعُنِي شَكْوَايَ لِلْنَاسِ أَنَّنِي عَلِيلٌ ومَنْ أشْكُو إليهِ عَلِيلُ
وَيَمْنَعُنِي شَكْوايَ لِلَّهِ إنَّهُ عَلِيمٌ بمَا أشْكُوهُ قَبْلَ أقُولُ

آخَر :

لا تَشْكُوَنَّ إلى صَدِيْقٍ حَالَةً فَاتَتْكَ في السَّراءِ والضَّراءِ
فَلِرَحْمَةِ المتَوجِّعِيْنَ مَضَاضَةٌ في القَلْبِ مِثْلُ شَمَاتَةِ الأعدَاءِ

وَقَدْ أمرَ اللّهُ بالصَّبْرِ فَقَالَ جَلَّ وعَلاَ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِيْنُوا بالصَّبْرِ والصَّلاَةِ﴾ وقال ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا اصْبرُوا وصَابِرُوا﴾ وقال ﴿واسْتَعِيْنُوا بالصَّبْرِ والصَّلاَةْ﴾ وأثْنى اللهُ على الصَّابِرينَ فَقَالْ ﴿والصَّابِرينَ في البَأْسَاء والضَّرَّاءِ وَحِينَ البأسْ ، أولئكَ الذين صَدَقُوا وأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقونْ﴾

وأخْبَرَ تَعالى أنَّه مَعَ الصَّابِرِينَ فَقالْ ، ﴿واصْبِرُوا انَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِيْنَ﴾ وهذِهِ مَعِيَّةٌ خاصةٌ تَقْتَضِي الحِفْظَ والنَّصْرَ والتَّأْييدْ ، وأخْبَرَ جَلَّ وعَلاَ أنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ لأصْحَابِهْ ، قَال تَعَالى وانْ تَصْبِرُوا خيرٌ لَكم وقالَ ولَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرينْ﴾ وإيجابُ الجَزَاءِ لَهُم بأحْسنِ أعْمَالِهِمْ ، فقال ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الذينَ صَبَرُوا أجْرهم بأحْسنِ ما كانوا يَعْمَلُون﴾ وأخْبَرَ جَلَّ وعَلا أنَّ جَزَاءُهُم بغيرِ حِسَابْ ، فقالْ ﴿إنَّما يُوَفى الصَّابِرُون أجْرهم بغير حِسابْ﴾ .

وَأخْبَرَ جَلَّ وعَلاَ أنَّهُ ما يُلَقَّى الأعْمَالَ الصَّالِحَة وجَزَاءَهَا والْحُظوظَ عَلَيها إلاّ الصَّابرون ، فقالَ عن ما قالَهُ أهلُ العلم والإيمان ﴿وَيْلَكُم ثوابُ اللهِ خيرٌ لِمَنْ آمنَ وعَمِلَ صالحاً ولا يُلَقَّاهَا إلا الصَّابرونَ﴾ .

وأَخْبَرَ جَلَّ وعلا أَنهُ ما يُلَقَّى الْخَصْلَةَ الطَّيبةَ التي هِيَ دَفْعُ السَّيِّئةِ بالحَسَنة إلاّ الذينَ صَبَروا ، فَقَالَ ﴿وَمَا يُلَقَّاها إلاَّ الذينَ صَبَروا﴾ ، الآية .

والصَّبْرُ أَنْواعٌ صَبْرٌ على طاعـةِ اللهْ ، بالمُحَـافَظَة عَلَيْهَـا دَواماً وبِرِعَايتها إخْلاصاً وَمِن الصَّبْرِ على طاعةِ الله بِرُّ الوالدِينِ مَا دَامَا مَوْجُودَيْنِ وَعَدَمْ التَّضَجُرِ والتَّأَفُفِ مِنْهُمَا واحْتِمَالُ الْأَذى من القَرِيبِ والجارِ والصَدِيْقِ والزمِيْلِ ومِنْهُ صَبْرُ الأساتِذةِ على الطَّلَبةِ واحتمالِ التَّعبِ في ذلك وكذلكَ الأَطِبّاءُ المُسْتَقِيْمِينَ المُخلِصِين في مُعَالَجَة الْمَرْضَى .

وَصَبْرُ الْغَني عَلى اخْرَاجِ زَكَاتِه بِدِقَّةٍ وَصَبْرُ المريضِ والمسافرِ على الصلاةِ والطهارةِ لها وصَبْرُ الْمُجَاهِدِ والمتَعَلِّمَ الصادقِ في طَلبِهِ لِلْعِلِمِ والحاجُّ والسَّاعِي على الأرامِلِ والمساكينْ .

ومِنْ مَشَقَّةِ السَّفرِ وَعَنَاءِ الطَّلَبِ ومُكَافَحَةِ الأعداءِ والصَّبْرُ على الأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكرِ وقولِ الحقِ وإن كانَ مُرًّا ومُسَاعَدةِ الضَّعِيفِ والعَـاجِزِ والعَـدْلِ في الحُكْمِ وحِفْظِ الأمَانَـةِ والانْصَـافِ مِن النفَس والاقارِبِ ومُوَاصلَةِ السَّعي في ما يُرْضِي اللّهَ عَزَّ وَجلَّ وحُسْنِ الْخُلِق وايْنَاسِ المُسْلِمِ الغَرِيبِ والصَّمْتِ عن الكلامِ إلا فِيمَا يعَودُ اليكَ نَفْعه ومُرَاقَبَةِ اللهِ فِيمَا يَقُولُهُ ويَفْعَلُه .

ودَوامِ الشُّكر للّهِ وصَرْفِ نِعَمِهِ في طَاعَتِهْ ، واحْتِرَامِ أهْلِ الدِين وتقدِيرِهِمْ والـذَّبِّ عن أعْرَاضِهِمْ إذا انْتُهِكَتْ ، والصَّبْـرِ على الأولادِ والأهلِ وحَثِّهِمْ عَلى الصَّلاةِ والزكاةِ وسائرِ الطاعاتْ .

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

(فصــل)

النَّوعُ الثَّاني : الصَّبْرُ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ خَوْفاً مِن اللهِ ورَجاءَ ثَوابِه وحَياءً مِن الرَّبِّ جَلَّ وعَلاَ أَن يُسْتَعانَ بِنِعْمِهِ عَلَى مَعَاصِيْهِ فَالْصَّبْرُ عن المَعَاصِي لازمٌ لِسَعَادَةِ الأنسانِ في دنْيَاهُ وآخِرَتِهِ فإنَّ اللهَ نَهى عِبادَهُ عن الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ لِيَعِيْشُوا في هَذِهِ الحياةِ الدُّنْيا مُطْمَئِنين، لا يَنَالُ أحَدُهُمْ مِنْ عِرْضِ أخِيْهِ بِالقَولِ والْفِعْلِ ولا يَعْتَدِي أحَدُهُمْ على غَيْرِهِ ، في مالِهِ وَبَدَنِهِ ، ولا تَغُرُّهُمْ الحياةُ الدُنيا وَزِيْنَتُها ، فَيَسْعَوْنَ في الأرضِ فَسَادًا ، مِن أجْلِ الحُصُولِ على لَذَّاتِهَا المُضْمَحِلَّةِ الفانِيَةْ ، وشَهَواتِها الخدَّاعةِ الفاسِدَة .

فَمَنْ يَصْبِرْ عَلَى ضَبْطِ لِسَانِهِ عَنِ الكَلَامِ المُحَرَّمْ ، فلا يَغْتَابُ ولا يَنِمُّ ولا يُنَافق بالقول ، ولا يكذبّ ، ولا يُساعِدُ بقَوْلِهِ ظَالِمًا ، ولا يُجَادِلُ بالباطِلِ ولا يَسْخَرُ بالمسلمين ، ولا يَحْلِفُ إلا باللهِ صادقاً ، ولا يَقْذِفُ مُسْلِماً ولا يُخَاصِمُ لِيقْطَعَ حَقَّ مُسْلِم ولا يَشْهَدُ بالزُوْرِ ولا يُؤْذِي مُسْلِماً بالفُحْشِ والبَذَاءِ فإنهُ بذلِكَ يَتَّقِي آفاتِ لِسَانِهِ التي تُفْضِي بالمرءِ إلى الهَلاَكْ .

وَمَنْ يَصْبِرْ على حِفْظِ فَرْجِهِ فلا يَسْتَعْمِلُهُ إلاَّ فِيمَا أحَلَّهُ اللهُ عَمَلاً بقولِهِ تعالى ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ إلاَّ على أزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُهُمْ فإنهم غيرُ ملومينَ ﴾ ، فإنهُ بِذَلِكَ يَنْجُو من شَرِّ غوائِلِ الزِّنا واللِّوَاطِ ، وكان أميْناً على سلامَةِ عِرْضِهِ ، وحِفْظِهِ مِنَ الضَّيَاعِ .

وَمَنْ صَبَرَ وَرَبَطَ عَقْلَهُ عِنْدَ غَضَبِهِ فَلاَ يَبْطِشُ بِيَدِهِ وَلاَ يَحْقِدُ بِقَلْبِهِ وَقَدْ ضَبطَ لِسَانَهُ فَقَدْ سَلِمَ مِنْ مَظَالِمِ خَلْقِ اللهِ ، وكَانَ مُسْلِمًا حقاً كما قال ﴿ صلى اللهُ عليه وسلم المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُوْن مِن لِسَانِهِ وَيَدِهِ ﴾

وَمَنْ صَبَرَ عَن مالا يَمْلِكُهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ واللَّذاتِ فَقَدْ نَجا مِن أَلَمِ الحَسَدِ والحِقْدِ وَظَفِرَ بِسُكُونِ النَّفسِ وَطُمَأْنِينَتِهَا وَرَاحَتِها ، وهكذا في كُلِّ ما نَهى اللهُ عنه سواءٌ كانَ مُتَعَلِّقاً بحقوقِ الله أَوْ حُقُوقِ خَلْقِهْ .

شِعْرا :

أَيَا صَاحِبِيْ أنْ رُمْتَ انْ تَكْسِبَ الْعُلا
وَتَـرْقَى إلى العَلْيَاءِ غَيْـرَ مُـزَاحَمِ
عَلَيْكَ بِحُسْنِ الصَّبْرِ في كُـلِّ حَالـةٍ
فَمَـا صَـابِـرٌ فِيمـا يَـرُومُ بِنَـادِمِ

النوعُ الثَّالِثُ الصَّبْرُ على أَقْدَارِ اللهِ المؤلِمَةِ رَجاءِ ثَوابِهْ قَالَ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ الصَّبْرُ على طاعةِ اللهِ والصَّبْرُ عن مَعْصِيَةِ الله ، صَبْرٌ على ما يَتَعَلَّقُ بالْكَسْبِ والصَّبْرُ على امتِحَانِ اللهِ ، صَبْرٌ على ما لا كَسْبَ لِلْعَبْدِ فِيْهِ .

قَال: وَسَمِعْتُ شَيْخَ الأَسْلاَمِ ابنَ تَيمِيَّةَ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ يقول. كَانَ صَبْرُ يوسَفُ عَنْ مُطَاوَعَةِ امْرَأةِ العزيزِ على شَأْنِهَا ، أَكْمَلُ مِنْ صَبْرِهِ على إِلْقَاءِ أخْوَتِهِ لَهُ في الجُبْ، وبَيعِهِ وَتَفْرِيْقِهِمْ بَيْنَهُ وَبينَ أبِيْهِ ، فإنَّ هَذِهِ الأمورَ جَرَتْ عليه بغيرِ اختيارِهِ لا كَسْبَ لَهُ فِيها ، لَيسَ لِلْعَبْدِ فيها حِيْلَةٌ غَيْرُ الصَّبْرِ .

وأمَّا صَبْرُهُ عن المَعْصِيَةْ ، فَصَبْرُ اخْتِيَـارٍ ، وَرِضىً ، ومُحَارَبَـةٍ لِلنَّفْسِ ، وَلاَ سِيَّمَا مَعَ الأَسْبَابِ التي تَقْوَى مَعَها دَواعِي المُوافَقَةْ ، فإنَّهُ كانَ شَاباً وَداعِيَةُ الشَّبَابِ إليها قَوِيَّةٌ وَعَزَباً لَيْسَ لَهُ ما يُعَوِّضُهُ وَيَرُدُّ شَهْوَتَهُ وغَرِيْباً والغَرِيْبُ لا يَسْتَحي في بَلَدِ غُرْبَتِهِ مِمَّا يَسْتَحِي مِنْهُ مَنْ بَيْنَ أَصْحَابِهِ ومَعَارِفِهِ وأهْلِهِ .

ومَمْلوكاً والمَمْلُوكُ أيضاً لَيْسَ وازِعَهُ كَوَازِعِ الحُرِّ والمرأةُ جَميلةٌ ، وذاتُ مُنْصِبٍ وَهْيَ سَيِّدَتُهُ وَقَدْ غابَ الرَّقِيْبُ ، وهي الدَّاعِيَةُ إلى نَفْسِها ، والحَرِيْصَةُ على ذَلِكَ أَشَد الحِرْصِ وَمَعَ ذَلِكَ تَوعَّدَتْهُ بالسِّجْنِ انْ لَمْ يَفْعَلْ ، والصَّغَار وَمَعَ هَذِهِ الدَّوَاعِي كُلِّها صَبَرَ اخْتِيَاراً وإِيْثَاراً لِمَا عِنْدَ اللَّهِ ، وأَيْنَ هَذَا مِن صَبْرِهِ في الجُبِ على ما لَيْسَ مِنْ كَسْبِهْ ، وكان يَقُولُ الصَّبْرُ على أَداءِ الطَّاعَاتِ أكْمَلُ مِن الصَّبْرِ على اجْتِنَابِ المُحَرَّمَاتِ ، وأفْضَلُ فإنَّ مَصْلَحَةَ فِعْلِ الطَّاعَةِ أحَبُّ إلى الشَّارِعِ مِن مَصْلَحَةِ تَرْكِ المَعْصِيَةِ ومَفْسَدَةُ عَدَمِ الطاعَةِ أبْغَضُ إليهِ وأكْرَهُ مِنْ مَفْسَدَةِ وُجُودِ المَعْصِيَةِ انتهى :

قال الإمام أحمد رحمه الله : ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعا : إنتهى . وهي أنواع : منها تعليق الإمامة في الدين به وباليقين قال الله تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ فبالصبر واليقين ، تنال الإمامة في الدين ومنها : ضفرهم بمعية الله سبحانه لهم قال تعالى : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ .

قال أبو علي الدقاق : فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله معيته ، ومنها : أنه جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم وهي الصلاة منه عليهم ، ورحمته لهم ، وهدايته إياهم ، قال تعالى ﴿ وبشر الصابرين الـذين إذا أصـابتهم مصيبية قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولائك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولائك هم المهتدون ﴾ .

وقال بعض السلف وقد عزي على مصيبة نالته فقال : ما لي لا أصبر وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خصال ، كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها ، ومنها أنه سبحانه أباح لهم أن يعاقبوا على ما عوقبوا به ثم أقسم قسما مؤكدا غَايَةَ التأكيد أن صبرهم خير لهم فقال : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل

ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ .

فتأمل هذا التأكيد بالقسم المدلول عليه بالواو ثم باللام بعده ثم باللام التي في الجواب . ومنها أنه سبحانه حكم بالخسران حكما عاما على كل من لم يؤمن ولم يكن من أهل الحق والصبر ، وهذا يدل على أنه لا رابح سواهم فقال تعالى : ﴿ والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ .

ولهذا قال الشافعي : لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لوسعتهم وذلك أن العبد كما له في تكميل قوتيه ، قوة العلم وقوة العمل وهما الإيمان والعمل الصالح وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر وأخِيَّة ذلك وقاعدته وساقه الذين يقوم عليه إنما هو الصبر . .

ومنها أنه سبحانه خص أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصوا بها غيرهم فقال تعالى : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة ﴾ .

وهذا حصر لأصحاب الميمنة فيمن قام به هذان الوصفان والناس بالنسبة إليها أربعة أقسام هؤلاء خير الأقسام ، وشرهم من لا صبر له ولا رحمة فيه ، ويليه من له صبر ولا رحمة عنده ، ويليه القسم الرابع وهو من له رحمة ورقة ولكن لا صبر له .

وقال إن الإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال ، فإنه بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه ، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه ، وقدر يجري عليه اتفاقا ، ونعمة يجب شكر المنعم عليها ، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه ، فالصبر لازم له إلى الممات .

اللَّهُمَّ نُوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُورِ الإيمَانِ وَثَبِّتْهَا عَلى قَوْلِكَ الثَّابِتْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ وَتَوفَّنَا مُسْلِمِينَ وَالْحَقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِينَ يَا أَكْرَمَ الأَكْرَمِينَ وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ أَجْمَعِينَ .

(**فصـــل**) وكُلُّ ما يَلْقَى العَبدُ في هذه الدار لا يَخْلُو مِن نوعين : أحَدُهُمَا : يوافق هَوَاه ومُرَاده ، والآخرُ مُخَالِفُهُ ، وهو مُحْتَاجُ إلى الصبر في كُلٍ منهما ، أما النوع الموافق لِغَرَضِهِ : فكالصحةِ والسلامةِ والجاهِ والمالِ وأنواعِ المَلاذِ المباحةِ ، وهو أَحْوَجُ شيءٍ إِلى الصبرِ فيها مِن وجوه :

أحدهما : أن لا يركن إليها ولا يغتر بها ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله .

الثاني : أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها فإنها تنقلب إلى اضدادها ، فمن بالغ في الأكل والشرب والجماع إنقلب ذلك إلى ضده ، وحرم الأكل والشرب والجماع .

الثالث : أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فيسلبها .

الرابع : أن يصبر عن صرفها في الحرام فلا يمكن نفسه من كل ما تريده منها ، فإنها توقعه في الحرام ، فإن إحترز كل الإحتراز أوقعته في المكروه ، ولا يصبر على السراء إلا الصديقون ، وقال عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه : إبتلينا بالضراء فصبرنا ، وإبتلينا بالسرَّاء فلم نصبر .

ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذرهم ﴾ .

وليس المراد من هذه العدواة ما يفهمه كثير من الناس ، أنها عداوة البغضاء والمحادة بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر .

كما في جامع الترمذي ، من حديث اسرائيل حدثنا سماك عن عكرمة عن بن عباس وسأله رجل عن هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ قال : هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ .

فلما أتوا رسول الله ﷺ ورأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ الآية قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده . وفي الحديث : الولد مبخلة مجبنة . وقال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب قال حدثني زيد بن واقد قال حدثني عبدالله بن بريدة قال سمعت أبي يقول : كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران .

فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال : « صدق الله إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما . وهذا من كمال رحمته ﷺ ولطفه بالصغار وشفقته عليهم ، وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار .

وإنما كان الصبر على السراء شديد لأنه مقرون بالقدرة ، والجائع عند غيبة الطعام ، أقدر منه على الصبر عند حضوره ، وكذلك الشبق عند غيبة المرأة ، أصبر منه عند حضورها .

مشقة الصبر بحسب قوة الداعي إلى الفعل وسهولته على العبد ، فإذا اجتمع في الفعل هذا الأمران كان الصبر عنه أشق شيء على الصابر ، وإن فقدا معا سهل الصبر عنه ، وإن وجد أحدهما وفقد الآخر سهل الصبر من وجه وصعب من وجه ، فمن لا داعي له إلى القتل والسرقة وشرب المسكر وأنواع الفواحش ولا هو مسهل .

فصبره عنه من أيسر شيء وأسهله ، ومن اشتد داعيه إلى ذلك وسهل عليه فعله فصبره عنه أشق شيء عليه ، ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم ، وصبر الشاب عن الفاحشة ، وصبر الغني عن تناول الذات والشهوات عند الله بمكان .

وفي المسند وغيره عن النبي ﷺ : عجب ربك من شاب ليست له صبوة ولذلك استحق السبعة المذكورون في الحديث الذين يظلهم الله في ظل عرشه ، لكمال صبرهم ومشقته ، فإن صبر الإمام المتسلط على العدل في قسمه وحكمه ورضاه وغضبه ، وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه .

وصبر الرجل على ملازمة المسجد ، وصبر المتصدق على اخفاء الصدقة حتى عن بعضه ، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع كمال جمال الداعي ومنصبه ، وصبر المتحابين في الله على ذلك في حال اجتماعهما وافتراقهما ، وصبر الباكي من خشية الله على كتمان ذلك واظهاره للناس من أشق الصبر .

ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزاني والملك الكذاب والفقير المحتال أشد العقوبات لسهولة الصبر عن هذه الأشياء المحرمات عليهم لضعف دواعيها

في حقهم فكان تركهم الصبر عنها مع سهولته عليهم ، دليلاً على تمردهم على الله وعتوهم عليه ، ولهذا كان الصبر عن معاصي اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر لشدة الداعي إليهما وسهولتهما .

فإن معـاصي اللسان ، فاكهة الإنسان ، كالنميمة والغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا ، وحكاية كلام الناس ، والطعن على من يبغضه ، ومدح من يحبه ونحو ذلك .

فتتفق قوة الداعي وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر . ولهذا قال ﷺ لمعاذ : « أمسك عليك لسانك : فقال : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ، فقال : وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد إلسنتهم » .

ولا سيما إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد ، فإنه يعز عليه الصبر عنها ، ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ، ويتورع من استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة ، ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكه في أعراض الخلق .

وربما خص أهل الصلاح والعلم بالله والدين والقول على الله ما لا يعلم ، وكثير ممن تجده يتورع عن الدقائق من الحرام والقطرة من الخمر ومثل رأس الإبرة من النجاسة ، ولا يبالي بارتكاب الفَرْجِ الحرام ، واللهُ أعلم وصَلى اللهُ عَلَى مُحَمد .

(**فصـــلٌ**) وقال رَحِمَهُ الله : يَنْدَفِعُ شَرُ الحاسدِ عن المحسودِ بعشرةِ أسباب :

أَحَدُهُما : التعوذُ باللهِ مِن شرِهِ ، والتحصنُ به واللَّجأُ إليه ، والله تعالى سميعَ لإستعـاذتِـهِ ، عليمٌ بما يَستعِيذُ منه ، والسمعُ هنا المرادُ به ، سمعُ الإجابة ، لا السمعُ العامِ ، فهو مِثلُ قوله : ﴿ سَمِعَ اللهُ لمن حمده ﴾ وقول

الخليل ﷺ : (إن ربي لسمِيعُ الدعاء) ومرة يقرنه بالعلم ، ومرة بالبصر ، لإقتضاء حال المستعيذ ذلك .

فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه ، ويعلم كيده وشره ، فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لإستعاذته ، أي مجيب عليم بكيد عدوه ، يراه ويبصره ، ليبسط أمل المستعيذ ، ويقبل بقلبه على الدعاء .

السبب الثاني : تقوى الله ، وحفظه عند أمره ونهيه ، فمن أتقى الله تولى الله حفظه ، ولم يكله إلى غيره ، قال تعالى : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ﴾ وقال النبي ﷺ لعبدالله بن عباس : « أحفظ الله يحفظك ، واحفظ الله تجده تجاهك » فمن حفظ الله حفظه الله ، ووجده أمامه أينما توجه ، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ومن يحذر .

السبب الثالث : الصبر على عدوه ، وأن لا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بأذاه أصلا . فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه ولا يستطل تأخيره وبغيه . فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جندا وقوة للمبغي عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه . وهو لا يشعر . فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه .

ولو رأى المبغي عليه ذلك لسره بغيه عليه . ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي ، دون آخره ومآله . وقد قال تعالى : ﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ﴾ فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولا .

فكيف بمن لم يستوف شيئا من حقه ، بل بغى عليه وهو صابر ، وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم . وقد سبقت سنة الله : « أنه لو بغي جبل على جبل لجعل الباغي منهما دكا » .

السبب الـرابع : التوكل على الله . فمن يتوكل على الله فهو حسبه والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذي الخلق وظلمهم وعدوانهم . وهو أقوى الأسباب في ذلك فإن الله حسبه ، أي كافيه .

ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه . ولا يضره إلا أذي لا بد منه . كالحر والبرد والجوع والعطش . وإما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدا . وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه واضرار بنفسه . وبين الضرر الذي يتشفى به منه .

قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه ، وجعل جزاء التـوكـل عليه نفس كفايته لعبده فقال : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له ربه مخرجا من ذلك ، وكفاه ونصره .

السبب الخـامس : فراغ القلب من الإشتغال به والفكر فيه ، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له ، فلا يلتفت إليه ، ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه . وهذا من أنفع الأدوية ، وأقوى الأسباب المعينة على إندفاع شره ، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه .

فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو واياه بل إنعزل عنه لم يقدر عليه . فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر ، وهكذا الأرواح سواء . فإذا علق روحه وشبثها به وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومناما ، لا يفتر عنه ، وهو يتمنى أن تماسك الروحان ويتشبثا .

فإذا تعلقت روح كل منهما بالأخرى عدم القرار ، ودام الشر ، حتى يهلك أحدهما ، فإذا جبذ روحه منه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به ، وأن لا يخطره بباله . فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر ، والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به ، بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضا .

فإن الحاسد كالنار ، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضا . وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية ، وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه ، وتعلق روحه به ، ولا يرى شيئا آلم لروحه من ذلك .

ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة ، التي رضيت بوكالة الله لها ، وسكنت إليه ، واطمأنت به ، وعلمت أن ضمانه حق ، ووعده صدق ، وأنه لا أَوْفَى بعهده من الله ، ولا أصدق منه قيلا ، فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم ، وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها ، أو نصر مخلوق مثلها لها ، ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس .

وهو الإقبال على الله ، والإخلاص له ، وجعل محبته ورضاه والإنابة إليه في محل خواطر نفسه ، وأمانيها تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئا فشيئا ، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية .

فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محاب الرب ، والتقرب إليه وتمليقه وترضيه ، واستعطافه وذكره ، كما يذكر المحب التام المحبة محبوبة المحسن إليه الذي قد إمتلأت جوانحه من حبه . فلا يستطيع قلبه إنصرافاً عن ذكره ، ولا روحه إنصرافاً عن محبته .

فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معمورا بالفكر في حاسده والباغي عليه ، والطريق إلى الانتقام منه ، والتدبير عليه . هذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة الله واجلاله وطلب مرضاته .

بل إذا مسه طيف من ذلك واجتاز ببابه من خارجه ، ناداه حرس قلبه : اياك وحمى الملك . إذهب إلى بيوت الخانات التي كل من جاء حل فيها ، ونزل بها . مالك ولبيت السلطان الذي أقام عليه اليزك وأدار عليه الحرس ، وأحاطه بالسور .

قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس : أنه قال ؛ ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ فقال تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ وقال : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ وقال في حق الصديق يوسف ﷺ : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ .

فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن . وصار داخل اليزك ، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به ولا ضيعة على من آوى إليه ، ولا مطمع للعدو في الدنو إليه منه . ﴿ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

السبب السابع : تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه . فإن الله تعالى يقول : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ : ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾ .

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه ، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها . وما ينساه مما عمله أضعاف ما يذكره . وفي الدعاء المشهور : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم . واستغفرك مما لا أعلم .

فما يحتاج العبد إلى الإستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه . فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه ، فقال له : قف حتى أدخل البيت ، ثم أخرج إليك . ودخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه .

ثم خرج إليه فقال له : ما صنعت فقال : تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به علي . فليس للعبد إذا بغى عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح .

وعلامة سعادته : : أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه ، فيشتغل بها وباصلاحها وبالتوبة منها . فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به ، بل يتولى هو التوبة واصلاح عيوبه ، والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد .

فما أسعده من عبد ، وما أبركها من نازلَةٍ نُزلت به ، وما أحسن أثرها عليه ، ولكن التوفيق والرشد بيد الله . لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع . فما كل أحد يوفق لهذا . لا معرفة به ، ولا ارادة له ، ولا قدرة عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله وصَلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبه أجمعين .

(فَصْــلٌ) السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه ، فان لذلك تأثيراً عجيباً في دفع البلاء ، ودفع العين ، وشر الحاسد ، وَلَوْ لم يكن في هذا إلا

بتجارب الأمم قديما وحديثا لكفى به . فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق .

وإذا أصابه شيء من ذلك كان معاملا فيه باللطف والمعونة والتأييد وكانت له فيه العافية الحميدة . فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته ، عليه من الله جنة واقية ، وحصن حصين .

والجملة : فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سببا لزوالها . ومن أقوى الأسباب : حسد الحاسد والعائن ، فإنه لا يفترو ولا يني ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود فحينئذ يبرد أنينه ، وتنطفىء ناره ، لا أطفأها الله .

فما حرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها ، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله ، وهو كفران النعمة . وهو باب إلى كفران المنعم .

فالمحسن المتصدق يستخدم جنداً وعسكراً يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه . فمن لم يكن له جند ولا عسكر ، وله عدو ، فانه يوشك أن يظفر به عدوه ، وإن تأخرت مدة الظفر ، والله المستعان .

السبب التاسع : وهو من أصعب الأسباب على النفس وشقها عليها ، ولا يوفق لها إلا من عظم حظه من الله وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه ، فكلما ازداد أذى وشرا وبغيا وحسدا ، ازددت إليه إحسانا ، وله نصيحة ، وعليه شفقة .

وما أظنك تصدق بأن هذا يكون ، فضلا عن أن تتعاطاه ، فاسمع الآن قوله عز وجل ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما

يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، وإمّا ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ .

وقال : ﴿ أولائك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وتأمل حال النبي ﷺ إذ ضربه قومه حتى أدموه . فجعل يسلت الدم عنه ويقول : ﴿ اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ﴾ كيف جمع في هذه الكلمات اربع مقامات من الإحسان ، قابل بها اساءتهم العظيمة إليه .

أحدها : عفوه عنهم ، الثاني : استغفاره لهم ، والثالث : اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون ، والرابع : استعطافه لهم بإضافتهم إليه ، « اغفر لقومي » كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به ، هذا ولدي ، هذا غلامي ، هذا صاحبي ، فهبه لي . واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس ، ويطيبه إليها وينعمها به .

إعلم أن لك ذنوبا بينك وبين الله ، تخاف عواقبها ، وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك ، ومع هذا لا يَقْتَصِر على مجرد العفو والمسامحة ، حتى ينعم عليك ويكرمك ، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله .

فإذا كنت ترجو هذا من ربك ، وتحب أن يقابل به إساءتك فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه ، وتقابل به إساءتهم ليعاملك الله تلك المعاملة .

فإن الجزاء من حسن العمل فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك يفعل الله معك في ذنوبك واساءتك جزاءً وفاقا ، فانتقم بعد ذلك أو أعف ، وأحسن أو أترك ، فكما تدين تدان وكما تفعل معه يفعل معك .

فمن تصور هذا المعنى ، وشغل به فكره ، هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه ، وهذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة ، كما قال النبي ﷺ للذي شكى إليه قرابته ، وأنه يحسن إليهم ، وهم يسيئون إليه فقال : « لا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك » .

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه ويصيرون كلهم معه على خصمه فإن كل من سمع إنه محسن إلى ذلك الغير ، وهو مسيء إليه وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء وذلك امر فطري ، فطر الله عليه عباده ، فهو بذلك الإحسان قد استخدم عسكراً لا يعرفهم ولا يعرفونه ولا يريدون منه اقطاعا ولا خَيْراً .

هذا مع أنه لا بد له من عدوه وحاسده من احدى حالتين : إما أن يملكه بإحسانه ، فيستعبده وينقاد له ويذل له ويبقى الناس إليه . وإما أن يفتت كبده ويقطع دابره ، إن أقام على إساءته إليه ، فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه .

ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة ، والله الموفق والمعين ، بيده الخير كله ، لا إله غيره ، وهو المسؤول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنه وكرمه وفي الجملة ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد عاجلة وآجلة .

السبب العاشر : وهو الجامع لذلك كله ، وعليه مدار هذه الأسباب وهو تجريد التوحيد ، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم ، والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة حركات الرياح وهي بيد محركها ، وفاطرها وبارئها ، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه .

فهـو الذي يحسن عبده بها ، وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه ، قال تعالى : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴾ .

وقال النبي ﷺ لعبدالله بن عباس رضي الله عنه « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك » .

فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده ، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل والله يتولى حفظه والدفع عنه ، ولا بد وإن مزج مزج له وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة .

كما قال بعض السلف : من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليهِ جُمْلَةً ومَن أعـرضَ عن الله بكليته أعرضَ عنه جُمْلَةً ومَن كان مَرةً ومرةً فالله مرة ومرة . فالتوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين .

قال بعض السلف : من خاف الله خافه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء .

هذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر ، وليس له أنفع من التوجه إلى الله وإقباله عليه ، وتوكله عليه ، وثقته به ، وأن لا يخاف معه غيره ، بل يكون خوفه منه وحده ، ولا يرجو سواه ، بل يرجوه وحده .

فلا يعلق قلبه بغيره ، ولا يستغيث بسواه ، ولا يرجو إلا إياه ، ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه وكل إليه وخذل من جهته ، فمن خاف شيئا غير الله سلط عليه ومن رجا شيئا سوى الله خذل من جهته وحرم غيره ، وهذه سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

شعـــرا :

أَرَى الـصَّـــبْرَ مَحْمُـودَاً وَعَـنْـهُ مُـذَاهِـبُ
فكيف إِذَا مَـا لَـم يكُـنْ عَنْـهُ مَـذْهَـبُ

هُنَـاكَ يَحِـقُّ الصَّـــبْرُ والصَّــبْرُ واجِـــبٌ
ومـا كـانَ مِنْـهُ لِلضَّـــرُورَةِ أَوْجَـــبُ

هُـوَ الْمَهْـرَبُ الْمُنْجِـيْ لِمَـنْ أَحْـدَقَتْ بِـهَ
مَكَـــارِهُ دَهْـــرٍ لَيْـسَ مِنْهُـنَّ مَهْـرَبُ

أَعُـــدُ خِـــلالاً فيـــهِ لَيْـــسَ لِعَـــاقِـــلٍ
مِـن النـاسِ إِنْ أُنْصِفْـنَ عَنْهُـنَّ مَرْغَـب

لَبُـوسُ جَمَـالٍ جُنَّـةٌ مِـن شَمَـاتَـةٍ
شِفَــاءُ أَســىً يُثْـنَـى بِـهِ ويُثَــوَّبُ

فَيَـا عَجَبَـاً لِلشَّــيْءِ هَـذِي خِـلالُـهُ
وَتَــارِكُ مـا فيـهِ مِـن الحَـظِّ أَعْـجَـــبُ

آخر :

اصْبِرْ فَفِي الصَّبْرِ خَيْرٌ لَوْ عَلِمْتَ بِهِ
لَكُنْتَ بَارَكْتَ شُكراً صَاحِبَ النِّعمِ

واعلمْ بأَنَّكَ إنْ لَمْ تَصْطَبِرْ كَرَماً
صَبَرْتَ قَهْراً على ما خُطَّ في الْقَلَمِ

آخر :

صَبَرْتُ على بَعْضِ الأَذَى خَوفَ كُلِّه
والْـزَمْتُ نَفْسِي صَبْـرَهَـا فـاسْتَقَـرَّتِ

وَجَرَّعْتُهَا المَكْرُوهَ حَتَّى تَدَرَّبَتْ
وَلَوْ حُمِّلَتْهُ جُمْلَةً لَاشْمَأَزَّتِ
فَيَا رُبَّ عِزٍ جَرَّ لِلنَّفْسِ ذِلَّةً
وَيَا رُبَّ نَفْسٍ بِالتَّذَلُّلِ عَزَّتِ
ومَا العِزُّ إلَّا خِيْفَةُ اللهِ وَحْدَهُ
وَمَنْ خَافَ مِنْهُ خَافَهُ مَا أَقَلَّتِ
وما صِدْقَ نَفْسِي إنَّ في الصِّدْقِ حَاجَتِيْ
فأَرْضَى بِدُنْيَايَ وَإنْ هِيَ قَلَّتِ
وأَهْجُرُ أَبْوَابَ المُلُوكِ فَإِنَّنِي
أَرَى الحِرْصَ جَلَاباً لِكُلِّ مَذَلَّةِ
إِذَا مَا مَدَدْتُ الكَفَّ التَمِسُ الغِنَى
إلى غَيْرِ مَن قَالَ اسْأَلُونِيْ فَشُلَّتِ
إِذَا طَرَقَتْنِي الحَادِثَاتُ بِنَكْبَةٍ
تَذَكَّرْتُ مَا عُوفِيْتُ مِنْهُ فقَلَّتِ
وَمَا نَكْبَةٌ إلا ولِلهِ مِنَّةٌ
إِذَا قَابَلْتَهَا أَدْبَرَتْ واضْمَحَلَّتِ

اللهم باعِدْ بَيْنَنا وبَيْنَ خَطَايَانَا كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ونَقِّنَا مِن الذُنوبِ والخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِن الدَّنَسِ .

واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فصل)

وَكَمَا وَرَدَ في مَدْحِ الصَّبْرِ والحَثِّ عَلَيْهِ آياتٌ ، ذَكَرْنَا طَرَفاً مِنها فَكَذَلَكَ وَرَدَتْ أحَادِيْثُ نَذْكُرُ إنشَاءَ اللهُ طَرَفاً مِنها مِن ذِلك مَا وَرَدَ عَن صُهَيْبِ بنِ سِنَانٍ رَضِيَ اللهُ عنه قالَ قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَمَ عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إن أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ولَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ الا لِلمُؤْمِن أَنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ ، وانْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ رواه مسلم .

وعن أبِي سعيدٍ الخُدْرِي رضي اللهُ عنه ، قال قال رسول اللهُ صلى اللهُ عليه وسلَمَ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِرْهُ اللهُ ، وما أُعْطِيَ أحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وأَوْسَعَ مِن الصَّبْرِ متفق عليه .

وعن أبي مَالِكٍ الحَارِثِ بنِ عاصمٍ الأَشْعَرِي قال قال رسول اللهُ صلى اللهُ عليه وسلَّم الطَّهُوْرُ شَطْرُ الايمانِ ، والحَمْدُ للهِ تَمْلأ المِيْزَانَ وسُبْحَانَ اللهِ والحمْدُ للهِ تَمْلآن أو تَمْلأ ما بَيْنَ السمواتِ والأَرْضِ ، والصلاةُ نُورٌ ، والصدقةُ بُرْهَانٌ ، والصبرُ ضِيَاءٌ ، والقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ ، كُلُ الناسِ يغدُو فَبَائِعٌ نَفسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا رواه مسلم .

وعن أبي هريرةَ وأبِي سعيدٍ رضيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم ، قالَ مَا يُصِيْبُ المُؤْمِنَ مِن نصبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍ ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غَمٍ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إلا كَفَّر اللهُ بِهَا مِن خَطَايَاهُ متفق عليه .

وعن أنسٍ رضي اللهُ عَنْهُ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيهِ وسلم إذا أرادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ في الدنيا واذا أَرادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أمْسَكَ عنه بذَنْبِهِ حتى يُوافِي بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وقال النبيُ صلى

اللهُ عليهِ وسلم إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ وإن اللهَ اذا أَحَبَّ قَوْماً أَبْتَلَاهُم ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَن سَخِطَ فَله السُّخْطَ ، رواه الترمذي وقال حديث حسن .

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللهُ عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ لَيْسَ الشَّدِيْدُ بالصُّرَعَةِ ، إنَّمَا الشَّدِيْدُ الذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ متفق عليه . وعن أبي هريرةَ رَضِي اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ما يَزَالُ البَلَاءُ بالمؤمِنِ والمؤمنةِ في نَفْسِهِ وَوَلدِهِ وَمالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ ومَا عَلَيه خَطِيْئَةٌ رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

وعن مِصْعَبِ بنِ سَعْدٍ عن أبيهِ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أيُّ الناسِ أَشَدُّ بَلاءً قال الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ يُبْتَلَى الرجلُ على حَسَبِ دِيْنِهِ فإِنْ كَانَ في دِيْنِهِ صَلْباً اشْتَدَّ بَلاؤُهُ ، وإنْ كَانَ في دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتَلَاهُ اللهُ على حَسَبِ دِيْنِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ في العَبْدِ حَتَّى يَمْشِيْ على الأَرْضِ ومَا عَلَيهِ خَطِيْئَةٌ ، رَوَاهُ ابنُ مَاجةَ وابنُ أَبِي الدنيَا والترمذيُّ وقال حديثٌ حسنٌ صَحِيْح

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده وفي ماله وفي ولده حتي يلقى الله ما عليه خطيئة » وقال أبو هريرة دخل أعرابي على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ أخذتك أمُ مُلْدِم قال وما أمُ مُلْدِم قال حَرٌ يكونُ بَيْنَ الجلْدِ واللَّحم قال ما وجدت هذا قط قال فهَلْ أخذكَ الصداع قال وما الصداع قال عِرْقٌ يَضْرِبُ على الإنسان في رَأسِهِ قال ما وجدتُ هَذا قَط فَلَمَّا وَلىَّ قال « مَن أَحَبَّ أن يَنْظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا » رواه أحمد .

وعن جابر قال أَسْتَأْذَنَتِ الحُمى على رسول الله ﷺ فقال مَن هَذِه قالَتْ أُمُ مَلْدَم فأَمَرَ بها إلى أهل قُبَاء فلَقُوا منها ما يعلم الله فأتوه فشكو ذلك إليه قال

ما شِئْتُم إن شِئتُم أن أدعو الله لكم فَيَكْشِفُها عنكم وإنْ شِئْتُم أن تكونَ لكم طَهُوْرَا قالوا يا رَسول الله أو يَفْعَل قال نَعَمْ قالوا فدَعْهَا يا رسول الله .

شعـــرا :

تَطْرُقُ أهْلَ الفَضْلِ دون الوَرَى مَصَائِبُ الدنيا وآفاتُها
كَالطَّيْرِ لَا يُسْجَنُ مِن بَيْنَهَا إلا التِي تُطْرِبُ أصواتُها

ولابن حِبانَ في صَحِيْحِهِ مِن رِوَايةِ العَلاءِ بنِ المُسَيَّبِ عن أَبِيْهِ عن سَعْدٍ قال سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلم أيُّ الناسِ أَشَدُّ بَلاءً قال الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ يُبْتَلَى الناسُ على حَسَبِ دِيْنِهِم ، فَمَنْ ثَخُنَ دِيْنُهُ اشْتَدَّ بَلاؤُهُ ، ومَنْ ضَعُفَ دِيْنُهُ ضَعُفَ بلاؤُهُ ، وانَّ الرَّجُلَ لَيُصِيْبُهُ البَلاءُ حَتَّى يَمْشِيْ في الناسِ وما عَليهِ خَطِيْئَةٌ .

وعن أبي سعيدٍ أنَّه دَخَل عَلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وهُوَ مَوْعُوكٌ عَلَيهِ قَطِيْفَةٌ فَوَضَعَ يَدَهُ فَوْقَ القَطِيْفَةِ ، فَقالَ ما أَشَدَّ حُمَّاكَ يَا رسولَ اللهِ ، قال إنَّا كَذَلِكَ يُشَدَّدُ عَلَيْنا البَلاءُ ويُضاعَفُ لَنَا الأَجْرُ .

ثُم قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَشَدُّ الناسِ بَلاءً قَال الأَنْبِيَاءُ، قَالَ ثُمَّ مَنْ قال العُلَمآءُ ، قال ثُمَّ مَنْ قالَ الصَّالِحُونَ كَانَ أَحَدُهُمْ يُبْتَلَى بالقَمْلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ ويُبْتَلى أحَدُهُمْ بالفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ إلَّا العَبَاءَةَ يَلْبَسُهَا ، ولَا أَحَدُهُمْ كَانَ أَشَدُّ فَرَحاً بالبَلَاءِ مِن أَحَدِكُم بالعَطَاءِ رواه ابن ماجة وابن أبي الدنيا والحاكم واللفظ له وقال صحيح على شرط مسلم .

وعن أبي هريرة رضيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إنَّ الرجلَ ليَكونُ لَهُ عِنْدَ اللهِ المَنْزِلةُ فَمَا يَبْلُغُهَا بعَمَلٍ فَمَا يَزَالُ يَبْتَلِيَهُ بما يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إياها رواه أبو يعلى وابن حبان في صحيحه من طريقة وغيرهما .

وعن مُحَمَّدِ بنِ خالدٍ عن أبيهِ عن جَدِّهِ وكانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ مِن رسولِ

اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ ، إنَّ العَبْدَ اذا سَبَقَتْ له مِن اللهِ مَنْزِلَةٌ فلَمْ يَبْلُغْهَا بعَمَلٍ ابْتَلاَهُ اللهُ في جَسَدِهِ ، أوْ مَالِهِ ، أوْ فِي وَلَدِهِ ، ثمَّ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ حَتّى يُبَلِّغَهُ المَنْزِلَةَ التي سَبَقَتْ لَهُ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، رواه أحمد أبـو داود وأبو يعلى والطبراني في الكبير والاوسط .

ورُوِيَ فيه أيضا عنه قال قال رسولُ اللّهِ صلى اللهُ عليه وسلم إن اللهَ ليُجَرِّبَ أحَدَكُم بالبَلاءِ كَمَا يُجَرِبُ أَحَدُكُم ذَهَبَهُ بالنارِ ، فَمِنْهُ مَا يَخرُجُ كَالذَّهَبِ الإبْرِيز فَذاكَ الذِي حَمَاهُ اللهُ مِن الشُّبُهَاتِ ومنه ما يَخْرُجُ دُوْنَ ذَلك فَذَالِكَ الذِيْ يَشُكُ بَعْضَ الشَّكِ ومنه ما يَخْرُجُ كالذَهَبِ الأَسْوِدِ فَذَالكَ الذي افتُتِنَ وَصَلّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وعلى آله وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

« موعظة »

عِبَادَ اللهِ كُلُّنَا وَلِلهِ الحَمْدُ قَد رَضِي باللهِ رَباً وَبالاسلام دِيْناً ، وبمُحَمَّدٍ نَبياً وَرَسولاً ، وبالقُرآن إمَاماً ، وبالكَعْبَةِ قِبْلةً وبالمؤمنينَ إخواناً وتَبَرأنَا مِن كُلِ دِيْنٍ يُخَالِفُ دِيْنَ الاسلامِ ، وآمَنّا بكُلِ كِتَابٍ أنْزَلَهُ اللهُ ، وبكُلِ رسولٍ أرْسَلَهُ اللهُ ، وبملائكةِ اللهِ ، وبالقدرِ خيرِهِ وشرِهِ وباليومِ الآخِرِ وبكلِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلّى اللهُ عليه وسلم عن اللهِ ، عَلَى ذَلِكَ نَحْيَا ، وعليه نَمُوتُ ، وعليه نُبْعَثُ إنْشَاءَ اللهُ مِن الآمِنِيْنَ الذينَ لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُونَ بفَضْلِهِ وكرمِهِ .

ثم اعْلَمُوا مَعَاشِرَ الاخْوَانِ إنَّه مَن رَضِيَ باللهِ رَباً لَزِمَه أنْ يَرْضَى بتَدْبِيرِهِ ، واخْتِيَارِهِ لَهُ ، وبِمُرْتَضَائِهِ ، وَأنْ يَقْنَعِ بِما قَسَمَ لَهُ مِنَ الرِّزق ، وأنْ يُدَاوِمَ عَلَى طَاعَتِهِ ، ويُحَافِظَ على فَرَائِضِهِ ، ويَجْتَنِبْ مَحَارِمَهُ ، ويَكُونُ صَابِراً عِنْدَ بَلاَئِهِ ، مُوَطِناً نَفْسَهُ على ما يُصِيْبُهُ مِن الشَّدائِدِ ، بَعِيْداً

كُلَّ البُعْدِ عَن نارِ الجَزَعِ ، التي تَتَأَجَّجُ في قَلْبِ كُلِ امْرِىءٍ يَجْهَلُ بَارِئَهُ وَمولاَهُ .

فإنْ رَأَيْتَ نَفْسَكَ أَيُّهَا الأَخُ تُرِيْدُ أَنْ تَجْزَعَ عِندَ مُلِمَّةٍ ، فَقِفْ أَمَامَهَا مَوْقِفَ النَّاصِحِ القَدِيْرَ ، أَفْهِمْهَا أَنَّهَا هِيَ السَّبَبُ فِيْمَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِن بَلاءٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبْير .

وإنْ لَمْ تُصَدِّقْكَ فاقْرَأْ عَلَيْهَا قَولَ اللهِ تعالى ﴿ وما أَصَابَكُم مِن مُصِيْبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أيديْكُمُ وَيعْفُو عن كَثِير﴾ فإنَّهَا إذا سَمِعَتْ ذَلِكَ وَجَّهَتِ اللَّومَ إلى نَفْسِهَا على مَعَاصِيْهَا ، وهَدأَتْ منها الثَّوْرَةُ الثَّقِيْلَةُ .

وأفِهِمْهَا أَنْ لَيْسَ بَيْنَها ولا بَيْنَ رَبِهَا عَدَاوَةٌ ، فإنَّهُ بِعَبادِهِ الرَّءُوفُ الرَّحِيْمُ ، وأفْهِمْهَا أنَّ البَلايَا قَدْ تَلْزَمُ العَبْدَ حتى يُصْبِحَ مَغْفُورَةً ذُنُوْبُه كُلُّها ، صَغِيرُهَا ، والكَبْير ، وأفِهِمْهَا أنْ نَتِيْجَةُ ذلكَ أنَّ صَاحِبَ البَلايَا يَأتِي يَومَ القِيَامَةُ في أَمْنِ مَوْلاهُ الكَرِيْم .

فَعَنْ أَبِي هريرة رضي اللهُ عنه قَالَ قَالَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَن يُرِدِ اللهُ به خَيْراً يُصِبْ مِنه ، رواه البخاري وفي حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنه قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إذا أرَادَ اللهُ بِعَبْدِهَ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ في الدُنْيَا .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم أنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاَ وإنَّ الله إذَا أَحَبَّ قوماً ابْتَلاهَمُ الحديث .

وفي حديث أبي هريرةَ قال قال رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَا يَزَالُ البَلَا بالمؤمِن والمُؤْمِنَةِ في نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ ومَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ تعالى وما عليه خَطِيْئَةٌ رواه الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح ، أفَهِمْ نَفْسَكَ كُلَّ ذَلِكَ فإنَّهُ يُخَفِفُ عَنْهَا آلامَ البَلاَيَا ، وَرُبَّمَا جَعَلَهَا مِن المَحْبُوبَاتِ .

وأفهِمْهَا أنَّ اللهَ وَعَد الصَّابِرِيْنَ أَنْ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَاب وأفْهِمْهَا أنَّ اللهَ حَكِيْمٌ في كُلِ تَصرفَاتِهِ ، وقُلْ لَهَا إنَّ الجزَعَ لا يَرُدُّ مَا نَزَل مِن البَلاءِ أبَدَا ، بَلْ مَا دَبَّرَهُ الحَكِيْمُ العَلِيْمُ لَا بُدَّ مِن وُقوعِهِ فَلا فائِدَة في الجَزَعِ والحُزْنِ ، وقُلْ إنَّ عَاقِبَةَ الجزَعِ والتَّسخُّطَ النَّارُ ، وعاقِبَةُ الصَّبْرِ والرِّضَا بما قَضَاهُ اللهُ الجنة .

وقلْ إن شَمَاتَةَ الأَعْدَاءِ في الجَزعِ ، وغَيْظُهُمْ في الصَّبْرِ ، الذي يَتَأكَدُ لُزُوْمُهُ عَلى الرِّجَالِ والنِّسَاءِ .

وتَأَكَّدْ واطْمَئِنَّ أنَّها إذا سَمِعَتْ مِنْكَ كُلَّ ذلِكَ رَضِيَتْ بإذنِ الله كُلَّ الرِّضَا ، ولَزِمَتِ الآدَابَ ، فَتَعِيْشُ كُلَّ حَيَاتِهَا تَرُوْحُ وتَغْتَدِيْ في جَنَّةِ رِضَاهَا ، مَهْمَا بَرِحَتْ بِهَا البَلايَا والأَوْصَابُ ، وبذلِكَ مَعَ تَوْفِيْقِ اللهِ تعالى تَجْمَعُ بَيْنَ سَعَادَةِ الدنيا والآخِرَةِ وهكذا تكونُ عَوَاقِبُ الصَّابِرِيْنَ الأَبْطال .

شعـــرا :

وأَصْبَحْـتُ فيمـا كنت أبغـي مـن الغنـا
إلى الـزُهْـدِ في الدنيـا الدنيـة أحْـوَجَـا
وحَبَّسْــتُ نفسـي بَيْنَ بَيْتِي ومَسْجِـدِي
وقَدْ صِـرْتُ مِثل النَّسْرِ أَهْـوَى التعَرُّجَـا

آخـر : ما أَحْسَنَ الصَّبْرَ في الدُّنْيَا وأَجْمَلَهُ
عِنْـدَ الإلـٰهِ وأنْـجَــاهُ مِن الجَـزَعِ
مَـنْ شَـدَّ بالـصَّـبْرِ كَفاً عِنْـدَ مُـؤْلِمَـةٍ
أَلْــوَتْ يَــدَاهُ بِحَبْـلٍ غَـيْرِ مُنْقَـطِـعِ

اللهم نَوِّر قُلوبَنَـا واشْرَحْ صُدُوْرَنَا ويَسِّرْ أُمُوْرَنَا وأحْسِنْ مَنْقَلَبَنَا وأيِّدْنَا بِرَوْحٍ مِنْكَ ووفقنا لِمَا تُحِبُهُ وتَرضَاهُ وثَبِّتْنَا بالقولِ الثابت في الحياة الدنيا وفي

الآخرة واغفر لنا ذنوبنا واستر عُيُوبَنَا واكْشِفْ كُرُوْبَنَا وأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وأَلِّفْ في طاعَتِكَ وطاعةِ رَسُولِكَ بَيْنَ قُلُوبِنَا واغفر لَنَا ولِوَالِدِيْنَا ولِجَميعِ المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

ويَكْفِيْ فِي مَدْحِ الصَّبْرِ وشَرَفِهِ وَعُلُوِّ مَكَانَتِهِ وأَنَّهُ لَا يَنَالُهُ إلا مَنْ وَفقهُ اللهُ ، أنَّ الصَّبْرَ طَرِيْقَةُ الرُسُلِ عليهم أَفْضَلُ الصلاةِ والسلام ، فقد قال اللهُ تعالى لِنَبِيِهِ صلى اللهُ عليه وسلم وصفوةِ خَلْقِهِ .

﴿ ولَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوْا على مَا كُذِبُوْا وأُوْذُوا حَتَّى أتاهُم نَصْرُنا ولا مُبَدِلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ وقَالَ ﴿ فاصْبِرْ إنَّ العاقبةَ لِلْمُتَقِين ﴾

فَبَيَّنَ تَعالى أنَّ كُلَّ رسولٍ أَرْسَلَهُ إلى أُمَّةٍ مِن الأُمَمِ لاَقَى أذىً وأَلَماً مِن قَوْمِهِ وتَكْذِيْباً ، وقال لِرسولَهِ صلى اللهُ عليه وسلم آمِراً ومُسَلِّياً ﴿ فاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِن الرسل ﴾ الآيةَ .

أَلَا وإنَّ مِن حِكْمَةِ اللهِ في تَعْرِيْضِ صَفْوَةِ خَلْقِه لِهَذِهِ المَكَارِهِ والأَذايَا ، وفي أمْرِهِمْ بالصَّبْرِ عَلَيْهَا إفهاماً لِخَلْقِهِ أَنَّ الدُنْيَا دارُ بَلاءٍ واخْتِبَارٍ ، لَا دَارُ مَقامٍ ولَذَّةٍ ، واسْتِقْرَارٍ ، وأَنَّهَا مَحْدُوْدَةَ الأَجَلِ ، مَقْصُوْدٌ مِنْهَا صَالِحُ العَمَلِ .

فانْظُر إلى آدَمَ عَليهِ السلامُ وما نَزَلَ بِهِ مِن الآلامِ والأَحْزَانِ أَخْرَجَهِ اللهُ بِفِتنَةِ إبْلِيْسَ مِن جَنَّتِهِ ، وأَهْبَطَهُ إلى الأَرْضِ لِيَعْمُرَهَا هُوَ وأَبْنَاؤُهُ ، وهِيَ دَارُ العَنَاءِ والفَنَاءِ وذَاقَ ثُكْلَ وَلَدِهِ هَابِيْلَ باعْتداءِ أَخِيْهِ عَليهِ قَابِيْلَ .

وانْظُر أَوَّلَ رَسُولٍ أُرْسِلَ إلى أَهْلِ الأَرْضِ نُوحٍ عَلَيْه وعلى نَبِيِّنَا

أَفضَلُ الصلاةِ والسلامِ وَقَدْ مَكَثَ يَدْعُو قومَهُ أَلفَ سَنَةٍ إلا خَمْسِيْنَ عَاماً (٩٥٠) وهم يَهْزَؤُنَ ويَسْخَرُوْنَ مِنْهُ يَدْعُوْهُم لَيْلاً ونهاراً سِراً وجِهَاراً ولم يَتوانَا ولمْ يَضْجَرْ ولَمْ يَمَلَّ بَلْ واصَلَ الجُهُودَ النَبِيْلَةَ الخَالِصَةَ الكَرِيمَةَ بلا مَصْلَحةٍ لَهُ وَلا مَنْفعةً مِنْهُمْ .

ويَحْتَمِلُ في سَبْيل هَذِهِ الدَّعْوَةِ الاسْتكبارَ والإعْرَاضَ ، هذَهِ المُدَّةَ الطَّوِيْلَةِ والمُسْتَجِيْبُونَ لا يَزِيْدُونَ ، والمُعْرِضُونَ في زِيَادَةٍ ، ولَمَّا أَيِسَ مِن إيْمَانِهِم أُمِرَ أَنْ يَصْنَعَ الفُلْكَ فَكَانُوا إذا مَرُّوْا عَليهِ ضَحِكُوا مِنْه وسَخِرُوْا وقَالُوا كانَ بالأَمْسِ نَبِياً واليَوْمَ نَجاراً ولا يَزِيْدُ مِن جَوَابِهِ عَلَى أنْ يَقُولَ ﴿ إنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فإنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمِ كَما تَسْخَرُوْنَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأتِيْهِ عَذابٌ يُخْزِيْهِ ويَحِلُ عَلَيه عَذَابٌ مُقِيْمٌ ﴾ .

وزَادَ بَلاَؤُهُ أنْ أُغْرِقَ ابْنُهُ وهُوَ يَنْظُرُ إليهِ ولا يَسْتَطِيْعُ لَهُ إنْقَاذاً إذْ قَدْ غَلَبَ عَلَى الابنِ الشَّقَاءُ فَنَاجَى رَبَّهُ نوحٌ فقال له رَبُّهُ يا نُوْحُ إنه لَيْسَ مِن أَهْلِكَ إنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِح .

ثم انْظُر إلى شَيْخِ المُرْسَلْين وَجَدِّ المُسْلِمْين خَلِيْلِ الرحمنِ عليه السلامُ ومَا تَجرَّعَ مِن الغُصَص والآلام فقَدْ جَدَّ في دَعْوَةِ أَبِيْهِ إلى التَّوْحِيْدِ حَتَّى هَدَّدَهُ أَبُوْهُ بالرجْمِ والتَّعْذِيْبِ وقَوْمُهُ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ثُمَّ مَا جَرى عَليهِ حينَ أُمِرَ بذَبْحِ ابْنِهِ فأَقْدَمَ عَلَى ذَلِكَ .

ثم انْظُر إلى مُوْسَى ومَا جَرَى عليه وما لاَقَى فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ وآخِرِهِ مَعَ فِرْعَونَ لَعَنَهُ اللهُ وقَوْمِه ثُمَّ انْظُرْ إلى عِيْسَى عليه السلامُ وما لَقِيَهُ مِن قَذْفِ أمِّهِ وَقَذْفِهِ رَضِي اللهُ عنهما واضْطِهَادِ بَنِيْ اسْرَائِيلَ قَوْمَهُ حَتَّى ائتمرُوْا عَلَى صَلْبِهِ .

ثُمَّ انْظُرْ إلى لُوْطٍ عَلَيهِ السَّلامُ وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ قَومِهِ المُنْحَرِفِينَ الشَّاذِيْن المُسْتَهْتِرِيْنَ بالنُّذُرِ قال تعالى﴿فمَا كَانَ جوابَ قومِهِ إلا أنْ قَالُوا ائتِنا بعذَابِ اللهِ﴾الآيَة فَصَبَرَ إلى أن نَصَرَهُ اللهُ وَأَرْسَلَ عَلى قَومِهِ حَاصِباً وجَعَل عَالِيَهَا سَافِلَها واللهُ على كلِ شَيْءٍ قَدِيْر وهو نِعْمَ المَوْلَى ونِعْمَ النَّصِيْر .

شِعْراً :

إنَّ الحَيَاةَ مَنَامٌ والمَآلُ بِنَا
إلى انْتِبَاهٍ وَآتٍ مِثْلُ مُنْعَدِمِ
وَنَحْنُ في سَفَرٍ نَمْضِيْ إلى حُفَرٍ
فَكُلُّ آنٍ لَنَا قُرْبٌ مِنَ العَدَمِ
وَالمَوْتُ يَشْمَلُنَا وَالحَشْرُ يَجْمَعُنَا
وَبالتُّقَى الفَخْرُ لاَ بِالمَالِ وَالحَشَمِ
صُنْ بِالتَّعَفُّفِ عِزَّ النَّفْسِ مُجْتَهِداً
فالنَّفْسُ أَعْلَى مِنَ الدُّنْيَا لِذِي الهِمَمِ
وَاغْضُضْ عُيُونَكَ عَنْ عَيْبِ الانَامِ وَكُنْ
بِعَيْبِ نَفْسِكَ مَشْغُولاً عَنْ الأُمَمِ
فَإِنَّ عَيْبَكَ تَبْدُوْ فِيكَ وَصْمَتُهُ
وَأَنْتَ مِنْ عَيْبِهِمْ خَالٍ مِنْ الوَصَمِ

جَــازِيْ المُسِيءَ بِـإِحْسَــانٍ لِتَمْلِكَــهُ
وكُنْ كَعُودٍ يَفُوحُ الطِّيْبُ في الضَّرَمِ
وَمَنْ تَـطَلَّبَ خِـلاً غَيْــرَ ذِيْ عِـوَجٍ
يَكُنْ كَـطَالِبِ مَاءٍ مِنْ لَـظَى الفَحَمِ
وَقَـدْ سَمِعْنَا حِكَـايَاتِ الصِّـدِيْقِ وَلَمْ
نَخُلْهُ إِلاَّ خَيَــالاً كَــانَ فِيْ الـحُلُمِ
إِنَّ الإِقَـامَةَ فِيْ أَرْضٍ تُـظَامُ بَهِـا ،
وَالأَرْضُ وَاسِـعَــةٌ ذُلٌّ فَــلاَ تُـقِــمِ
وَلاَ كَـمَــالَ بِـدَارٍ لاَ بَـقَــاءَ لَـهَــا
فَيَــالَهَا قِسْمَــةٌ مِنْ أَعْـظَمِ القِسَمِ
دَارٌ حَــلاَوَتُـهَــا لِلْجَـاهِـلْيـنَ بِـهَــا
وَمُــرُّهَــا لِـذَوِيْ الأَلْبَــابِ وَالهِمَمِ
أَبْغِيْ الخَلاَصَ وَمَا أَخْلَصْتُ في عَمَلٍ
أَرْجُو النَّجَاةَ وَمَا نَاجَيْتُ فِيْ الـظُّلَمِ
لَكِنَّ لِيْ أَمَــلاً فِيْ اللَّهِ يُؤْنِـسُنِـيْ
وَحُسْنُ ظَنٍّ بِـهِ ذَا الجُـوْدِ والْكَـرَمِ

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوْبِنَا وَقَوِّهَا ، اللَّهُمَّ الْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَارْزُقْنَا مَحَبَّةَ أَوْلِيَائِكَ وَبُغْضَ أَعْدَائِكَ وَهِجْرَانِهِم وَالابْتِعَادِ عَنْهُمْ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعَ المسْلِمْينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

ثُمَّ انْظُرْ الى خَطِيْبِ الأَنْبِيَاءِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَمَا لَاقَىٰ مِنْ قَوْمِهِ المُتَمَرِّدِيْنَ عَلَى الحَقِّ والعَدْلِ ، المفْسِدِيْنَ فِيْ الأَرْضِ ، قُطَّاعِ الطُّرُقِ ، الظَلَمَةُ الذِينَ يَفْتِنُوْنَ النَّاسَ عَنْ دِيْنِهِمْ ، وَيَصُدُّوْنَهُم ، المقَاتِلِيْنَ لِمَنْ يَدْعُوْهُمْ إِلَى الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ والأَخْلَاقِ الفَاضِلَةِ بِالقَسْوَةِ وَالغِلْظَةِ ، حَيْثُ يَقُولُونَ ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالذِينَ آمَنُوا مَعَكَ ﴾ الآيَة .

ثُمَّ انْظُرْ الَى صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حِيْنَ دَعَا قَوْمَهُ ، وَمَا قَابَلُوْهُ بِهِ حِيْنَ جَاءَ بِالبَيِّنَةِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ ، فَيَعْتَدُوْنَ عَلَيْهَا وَيَتَحَدَّوْنَهُ بِاسْتِعْجَالِ العَذَابِ .

ثُمَّ انْظُرْ الى هُوْدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَاتِّهَامِ قَوْمِهِ لَهُ بِالسَّفَاهَةِ وَالكَذِبِ بِلَا تَرَوٍّ مِنْهُمْ وَلَا تَدَبُّرٍ وَلَا دَلِيْلٍ ، وَأَخيراً يَتَحَدَّونَهُ بِالعَذَابِ .

وَانْظُرْ إِلى يُونُسَ ، وَمَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ ، حَتَّى ضَاقَ صَدْرُهُ بِتَكْذِيْبِ قَوْمِهِ ، فَأَنْذَرَهُمْ بِعَذَابٍ قَرِيْبٍ ، وَغَادَرَهُمْ مُغْضَباً آبِقاً فَقَادَهُ الغَضَبُ إِلى شَاطِىءِ البَحْرِ ، حَيْثُ رَكِبَ سَفِينَةً مَشْحُونَةً وَفِيْ وَسَطِ لُجَّةِ البَحْرِ نَاوَأَتْهَا الرِّيَاحُ وَالأَمواجُ وَأَشْرَفَتْ عَلَى الغَرَقِ ، فَسَاهَمُوا عَلَى أَن مَنْ تَقَعْ القُرْعَةُ عَلَيْهِ يُلْقَى فِي البَحْرِ لِتَخِفَّ السَّفِيْنَةُ فَوَقَعَتْ القُرْعَةُ عَلَى يونُسَ نَبِيِّ اللهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَهُمْ يَبْخَلُوْنَ بِهِ أَنْ يُلْقَى مِنْ بَيْنِهِمْ .

فَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ لِيُلْقِيَ نَفْسَهُ وَهُمْ يَأْبَوْنَ عَلَيْهِ ذَلِكَ ، وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى حُوْتاً مِنْ البَحْرِ الأَخْضَرِ أَنْ يَشُقَّ البِحَارَ وَأَنْ يَلْتَقِمَ يونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَا يَهْشِمَ لَهُ لَحْمَا وَلَا يَكْسِرَ لَهُ عَظْمَا فَجَاءَ ذَلِكَ الحُوْتُ وَأَلْقَى يُونُسُ نَفْسَهُ ، فَالْتَقَمَهُ الحُوْتُ وَذَهَبَ بِهِ .

وَلَمَا اسْتَقَرَّ يُونُسُ في بَطْنِ الحُوْتِ حَسِبَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ ، ثُمَّ حَرَّكَ رَأْسَهُ وَرِجْلَيْهِ ، وَأَطْرَافَهُ ، فَإِذَا هُوَ حَيٌّ فَقَامَ فَصَلَّى في بَطْنِ الحُوْتِ ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ دُعَائِهِ يَا رَبِّ اتَّخَذْتُ لَكَ مَسْجِداً في مَوْضِعٍ لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ ، فَهَذَا مِمَّا لَقِيَهُ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ذَكَرَ ذَلِكَ بَعْضُ العُلَمَاءِ رحمهم الله.

ثُمَّ إلى مَا لَقِيَهُ صَفْوَةُ الخَلْقِ مُحَمَّدٌ صلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْمِهِ ، مِنْ التَّكْذِيْبِ وَالأَسْتِهْزَاءِ ، وَالإِيْذَاءِ في نَفْسِهِ ، وَفِيْمَنْ يَتَّبِعُهُ مِنْ المُسْتَضْعَفِيْنَ ، حَتَّى ائْتَمَرُوا عَلَى قَتْلِهِ ، فَهَاجَرَ إلى المدِينَةِ تَارِكاً وَطَنَهُ وَعشِيْرَتَهُ ، وَانْظُرْ مَا لَقِيَهُ في حُرُوبِهِمْ ، وَقَدْ جَرَحُوْهُ ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ حَتَّى سَالَ دَمُهُ .

إذَا نَظَرْتَ إلى ذَلِكَ وإلى غَيْرِهِ عَلِمْتَ أَنَّ الدُّنْيَا مَشْحُونَةٌ بِالمَصَائِبِ وَالأَنْكَادِ ، وَأَنَّها دَارُ مَمرٍ لَا دَارُ مَقَرٍّ ، وَلَوْ كَانَتْ دَارَ مَقَرٍّ واطْمِئْنَانٍ ، لَكَانَ أَوْلَى بِذَلِكَ رسُلُ اللهِ ، وَأَنْبِيَاؤُهُ ، وَأَصْفِيَاؤُهُ فَالعَاقِلُ مَنْ يَحْرِصُ عَلَى عَقِيْدَتِهِ الدِّينِيَّةِ ، كَمَا يَحْرِصُ عَلَى رُوْحِهِ فَيُحصِّنْهَا مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ ، ويَقُومَ بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ ، وَيَتَجنَّبَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ صَابِراً عَلَى مَا قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْلٌ)

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، أَنَّ لِتَسْهِيْلِ المَصَائِبِ والشَّدَائِدِ البَدَنيةِ وَالمَالِيَةِ أَسْبَابٌ إِذَا قَارَنَتْ حَزماً وَصَادَفَتْ عَزْماً هَانَ وَقْعُهَا ، وَقَلَّ تَأْثِيْرُهَا ، وَضَرَرُهَا على الدِّيْنِ وَالقَلْبِ وَالبَدَنِ ، بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى .

فَأَوَّلاً الآيَاتُ وَالأَحَادِيْثُ المُتَقَدِّمَةُ التِي فِيْهَا مَدْحُ الصَّابِرِيْنَ وَبِشَارَتُهم وَوَعْدُهم بالجَزَاءِ الحَسَنِ وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَ مَرَارَةَ الدُّنْيَا هِيَ بِعَيْنِهَا حَلاَوَةٌ في الآخِرَةِ وَحَلاَوَةَ الدُّنْيَا هِيَ بِعَيْنِهَا مَرَارَةٌ في الآخِرَةِ ، وَلأَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ مَرَارَةٍ مُنْقَطِعَةٍ إلى حَلاَوَةٍ دَائِمَةٍ خَيْرٌ مِنْ عَكْسِ ذَلِكَ .

وَقَالَ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ في الصَّحِيْحِ يُؤْتَى يَوْمَ القِيَامَةَ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيُصْبَغُ في النَّارِ صَبْغَةً ، ثُمَّ يُقَالُ يا ابْنَ آدَمَ هَل رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيْمٌ قَطُّ فَيَقُوْلُ لاَ وَاللهِ يَا رَبُّ .

وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً في الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيُصْبَغُ في الجَنَّةِ صَبْغَةً فَيُقَالُ لَهُ يَا بْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللهِ يَا رَبُّ الحَدِيْثُ .

وَمِنْ ذَلِكَ اسْتِشْعَارُ النَّفْسِ بِمَا تَعْلَمُهُ مِنْ نُزُوْلِ الفَنَاءِ وَتَقَضِّي المَسَارِّ ، وَأَنَّ لها آجَالاً مُنْصَرِمَةً وَمُدَداً مُنْقَضِيَةً ، اذْ لَيْسَ لِلدُّنْيَا حَالٌ تَدُومُ ولا لِمَخْلُوقٍ عَلَيْهَا بَقَاءٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ﴾ وقال ﴿ إنكَ مَيِّتٌ وإنَّهم مَيِّتُون ﴾ .

بَنُوْ الدَّهْرِ مِنْ فَجْعَاتِهِ في تَمَزُّقٍ
فَكُلُّهم يَغْدُوْ بِشِلْوٍ مُقَدَّدِ
وإنِّي رَأَيْتُ الدَّهْرَ جَمّاً خُطُوْبُهُ
وإنْ لم يُرَوِّعْ حَادِثٌ فَكَأَنْ قَدِ

وَرَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبي ﷺ قَالَ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إلَّا كَمَثَلِ رَاكِبٍ مَالَ إلى ظِلِّ شَجَرةٍ في يَوْمٍ صَائِفٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا .

وَمِنْهَا أَنْ يَتَصَوَّرَ انْحِلاَلَ الشَّدَائِدِ وَانْكِشَافَ الهُمُوْمِ وَأَنَّ اللهَ قَدَّرَهَا بِأَوْقَاتٍ لاَ تَنْصَرِمُ قَبْلَهَا وَلاَ تَسْتَدِيْمَ بَعْدَهَا فَلاَ تَقْصُرُ تِلْكَ الأَوْقَاتِ بِجَزَعٍ وَلاَ تَطُوْلُ بِصَبْرٍ ، وَأَنَّ كلَّ يَوْمٍ يَمُرُّ بِهَا يَذْهَبُ مِنْهَا بِشَطْرٍ وَيَأْخُذُ مِنْهَا بِنَصِيْبٍ حَتَّى تَنْجَلي وَتَنْفَرِجَ وَيَزُولَ مَا كَانَ مِنَ المَكَارِهِ وَالخُطُوبِ .

وَقَدْ قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا في كِتَابِهِ قِصَصاً تَتَضَمَّنُ وُقُوْعَ الفَرَجِ بَعْدَ الكَرْبِ والشِّدَّة كَمَا قَصَّ نَجاةَ نُوْحٍ وَمَنْ مَعَهُ في الفلْكِ مِنَ الكَرْبِ العَظِيْمِ مَعَ اغرَاقِ سَائِرِ أَهْلِ الأَرْضِ .

وَكَمَا قصَّ نَجاةَ ابْراهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مِنْ النَّارِ حِيْنَ أَلْقَاهُ المُشْرِكُونَ في النَّارِ ، وَأَنَّهُ جَعَلَهَا عَلَيْهِ بَرْداً وَسَلاماً ، وَكَمَا قَصَّ قِصَّةَ ابْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مَعَ وَلَدِهِ الذِي أُمِرَ بِذَبْحِهِ ، ثُمَّ فَدَاهُ اللهُ بِذِبْحٍ عَظِيْمٍ .

وكَمَا قصَّ قِصَّةَ مُوْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ مَعَ أُمِّهِ لَمَّا أَلْقَتْهُ في اليَمِّ حَتَّى الْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ، وَقِصَّتَهُ مَعَ فِرْعَوْنَ لمَّا نَجَّى اللهُ سُبْحَانَهُ مُوْسَى وَأَغْرَقَ عَدُوَّهُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ .

وَكَمَا قَصَّ قِصَّةَ أَيُوبَ وَيُوْنُسَ وَيَعْقُوْبَ ، وَيُوْسُفَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ وَقِصَّة قَوْمِ يُوْنُسَ لما آمنُوا ، وَكَمَا قَصَّ قِصَصَ مُحمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَصْرِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ بانْجاتِهِ مِنْهُم في عِدَّةِ مَوَاطِنَ ، مِثْلِ قِصَّتِهِ في الغَارِ ، وَقِصَّةِ يوْمِ بَدْرٍ ، وَيَوْمِ أُحُدٍ ، وَيَوْمِ حُنَيْنٍ .

وَكَمَا قَصَّ اللهُ قِصَّةَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا في حَدِيْثِ الافْكِ وَبَرَّأَهَا مِمَّا رُمِيَتْ بِهِ ، وَقِصَّةَ الثَّلاثَةِ الذِيْنَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيهُم الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَاقَتْ عَلَيهِمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ

مِنْ اللهِ إلا الَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .

وَفي السُّنَّةِ مِنْ هَذَا المَعْنَى شَيءٌ كَثِيْرٌ مِثْلُ قِصَّةِ الثَّلاثَةِ الذِيْنَ دَخَلُوا الغَارَ ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ الصَّخْرَةُ ، فَدَعَوا اللهَ بِأَعْمَالِهِمْ الصَّالِحَةِ ، فَفَرَّجَ اللهُ عَنْهُم ، وَمِثْلُ قِصَّةِ ابْرَاهِيْمَ وَسَارة مَعَ الجَبَّارِ الذي طَلَبَهَا مِنْ ابْرَاهِيْمَ وَرَدَّ اللهُ كَيْدَ الفَاجِرِ .

وَإذَا اشْتَدَّ الكَرْبُ وَعَظُمَ الخَطْبُ كَانَ الفَرَجُ قَرِيْباً في الغَالِبِ بِإِذْنِ اللهِ قَالَ تَعَالَى ﴿ حَتَّى إذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ وقَالَ تَعَالَى ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُول وَالذِيْنَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيْبٌ ﴾ .

وَأَخْبَرَ عَنْ يَعْقُوْبَ أَنَّهُ لَمْ يَيْأَسْ مِنْ لِقَاءِ يُوْسُفَ وَقَالَ لإخْوَاتِهِ اذهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيْهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ ، وَقَالَ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِيْ بِهِمْ جَمِيْعاً ، وَمِنْ لَطَائِفِ اقْتِرَانِ الفَرَجِ بِاشْتِدَادِ الكُرَبِ ، أَن الكَرْبَ إذا اشْتَدَّ ، وَعَظُمَ وَتَنَاهَى ، وُجِدَ الإيَاسُ مِنْ كَشْفِهِ مِنْ جِهَةِ المَخْلُوقِ ، وَوَقَعَ التَّعَلُّقَ بِالخَالِقِ .

كَمَا قَالَ الامَامُ أَحْمَدُ وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِ ابْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما عَرَضَ لَهُ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فِي الهَوَاءِ ، وَقَالَ ألكَ حَاجَةٌ ، فَقَالَ أَمَّا إِلَيْكَ فَلاَ وَأَمَّا إلى اللهِ فَبَلَى والتَّوَكُّلُ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ التي تُطْلَبُ بِهَا الحَوائِجَ .

فَإِنَّ اللهَ يَكْفِي مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ يَتوكَّلْ عَلى اللّهِ فَهُوَ حسْبُه ﴾ وَمِنْهَا أَنَّ العَبْدَ إذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الكَرْبُ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ حِيْنَئِذٍ إلى

مُجاهَدَةِ الشيْطَانِ لِإنَّهُ يَأْتِيهِ فيُقْنِطه وَيُسْخِطُهُ وَمِنْهَا أَنَّ المُؤْمِنَ إذَا اسْتَبْطَأَ الفَرَجَ وَأَيِسَ مِنْهُ وَلاَ سِيَّمَا بَعْدَ كَثْرَةِ دُعَائِهِ وَتَضَرُّعِهِ وَلَمْ يَظْهَرْ له أَثَرُ الاجَابَةِ رَجَعَ عَلى نَفْسِهِ باللاَّئِمَةِ وَيَقُوْلُ لَهَا إنَّمَا أُتِيْتُ مِنْ قِبَلِكِ وَلَوْ كَانَ فِيْكِ خَيْراً لأُجِبْتِ وَهَذا اللَّومُ أَحَبُّ إلى اللهِ مِن كَثِيرٍ مِنَ الطَّاعَاتِ أ هـ .

شِعْراً :

اذا اشْتَمَلَتْ عَلى اليَأْسِ القُلُوْبُ
وَضَاقَ بِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيْبُ
وَأَوْطَأَتْ المَكَارِهُ وَاطْمَأَنَّتْ
وَأَرْسَتْ في أَمَاكِنِهَا الخُطُوْبُ
وَلَمْ تَرَ لانْكِشَافِ الضُّرِّ وَجْهاً
وَلاَ أَغْنَى بِحِيْلَتِهِ الأَرِيْبُ
أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ غَوْثٌ
يَمُنُّ بِهِ اللطِيْفُ المُسْتَجِيْبُ
وَكُلُّ الحَادِثَاتِ إذَا تَنَاهَتْ
فَمَوْصُولٌ بِهَا فَرَجٌ قَرِيْبُ

آخَرُ :

وَكَمْ لِلَّهِ مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ
يَدِقُّ خَفَاهُ عَنْ فَهْمِ الذَّكِيِّ
وَكَمْ يُسْرٍ أَتَى مِنْ بَعْدِ عُسْرٍ
وَفَرَّجَ لَوْعَةَ القَلْبِ الشَّجِيِّ

وَكَـمْ هَـمٍّ تُـسَـاءُ بِـهِ صَـبَـاحـاً
فَـتَـعْـقُـبُـهُ الـمَـسَـرَّةُ بِـالـعَـشِـيِّ
إِذَا ضَـاقَـتْ بِـكَ الاسْـبَـابُ يَـوْمـاً
فَـثِـقْ بِـالـوَاحِـدِ الأَحَـدِ الـعَـلِيِّ

وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْـــلٌ)

وَمِنْهَا أَنْ يَتَسَلَّى بِذَوِيْ الغِيَرِ ، وَيَتَسَلَّى بِأُوْلِي العِبَرِ ، وَيَعْلَمَ أَنَّهُمْ الأَكْثَرُونَ عَدَداً وَالأَسْرَعُونَ مَدَدَا فَيَسْتَجِدُّ مِنْ سَلْوَةِ الأَسَى وَحُسْنِ العَزَاءِ إِلى مَا يُخَفِّفُ حُزْنَهُ وَيُقَلِّلُ هَلعَهُ وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الصَقُوْا بِذَوِي الغِيَرِ تَتَّسِعْ قُلُوْبُكُم أَيِ الذِيْنَ تَنْتَقِلُ أَحْوَالُهُمْ إِذْ يَتَسَلَّى مُرَقَّعُ الخُفِّ بِالذِيْ مُخَرَّقٍ خُفُّهُ وَيَتَسَلَّى مُخَرَّقُ الخُفِّ بِالحَاسِرِ الذِيْ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيءٌ وَيَتَسَلَّى الذِيْ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيءٌ بِالأَعْرَجِ ، وَالأَعْرَجُ بِالأَقْطَعِ ، وَهَكَذَا كُلٌّ يَتَسَلَّى بِمَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ فِي المصِيْبَةِ .

وَالدُّنْيَا إِذَا تَأَمَّلَهَا اللَّبِيْبُ وَجَدَهَا كُلَّهَا مَتَاعِبَ وَبَلاَيَا وَمَصَائِبَ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِالنَاسِ مِنْ رُؤُسِهِمْ إِلى أَقْدَامِهِمْ ، فَتَرَى هَذَا مُصَاباً بِالعِلَلِ وَالأَسْقَامِ كُلمَا بَرِىءَ مِنْ عِلةٍ أَصَابَتْهُ عِلَّةٌ أُخْرَى ، وَكُلَّمَا شَفَاهُ اللهُ مِنْ مَرَضٍ جَاءَهُ مَرَضٌ آخَرُ ، وَتَجِدُ هَذَا مُصَاباً بِعُقُوقِ الأَبْنَاءِ لِأَنَّهُمْ خَرَجُوا عَنْ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ وَسَلَكُوا طَرِيْقَ الشَّيْطَانِ ، وَتَجِدُ الآخَرَ مُصَاباً بِسُوْءِ خُلُقِ زَوْجَتِهِ فَهُوَ مَعَهَا دَائِماً فِي شِقَاقٍ وَعَنَاءٍ وَنشُوْزٍ وِلِجَاجٍ .

وَتَجِدُ هَذَا مُصَاباً بِالفَقْرِ المُدْقِعِ وَهَذَا تَجِدُهُ مُصَاباً بالعُقْمِ ، وَهَذَا تَجِدُهُ مُصَاباً بِكَسَادِ تِجَارَتِهِ ، وَهَذَا مُصَاباً فِي بِبَوَارِ زِرَاعَتِهِ ، أَوْ صِنَاعَتِهِ ،

وَهَذَا مُصَاباً بِجِيْرَانِ سُوءٍ يُذِيْعُوْنَ مَا يَسُوءُ وَيَكْتُمُوْنَ الخَيْرَ ، وَتَجِدُهُ مَعَهُم دَائِماً في لِجَاجٍ ، وَهَذَا تَجِدُهُ مَعَ أَقْرِبَائِهِ في شِقَاقٍ وَقَطِيْعَةٍ ، وَشَكَاوَى وَتَرَدُّدٍ بَيْنَ المَحَاكِمِ وَالمَنَاطِقِ . وَهَذَا تَجِدُهُ مَعَ شُرَكَائِهِ أَوْ مَعَ أَرْحَامِهِ كَذَلِكَ فِيْ نَكَدٍ .

وَتَرَى هَذَا لَا حَظَّ لَهُ في الحَيَاةِ يَجِدُّ وَيَجْتَهِدُ وَلَا يَنَالُ مُنَاهُ وَيَشْقَى وَيَتْعَبُ وَلَا يَحْصُلُ عَلى مُبْتَغَاهُ وَهَذَا تَجِدُهُ مُسَلَّطِيْنَ عَلَيْهِ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدُهُمَا وَهَذَا تَجِدُهُ مَظْلُوماً وَهَذا مَسْجُوْناً وَهَكَذَا إلى نِهَايَةِ سِلْسِلَةِ الآلَامِ التي لا تَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ وَلَا يُحْصِيْهَا عَدٌّ وَلَقَدْ صَدَقَ مَن قالَ :

كُلُّ مَنْ لَاقَيْتُ يَشْكُو دَهْرَهُ
لَيْتَ شِعْرِيْ هَذِهِ الدُّنْيَا لِمَنْ

آخـر:
أَلَحَّ عَلَيَّ السُّقْمُ حَتَّى أَلِفْتُهُ
ومَلَّ طِبَيْبِي جَانبي والعَوائدُ

آخـر :
تَعَوَّدْتُ مَسَّ الضُرِّ حتى أَلِفْتُهُ
وأَسْلَمني طُولُ البلاءِ إلى الصَّبْرِ
وَوَسَّعَ صَدْرِي للأذَى كثرةُ الأذى
وكانَ قديما قد يَضيقُ به صَدْرِي
إذا أنا لم أقْبَلْ من الدهرِ كُلَّما
تكرهْتُهُ قد طَالَ عُتْبي على الدهر

وَقَالَ آخَرُ :
رُوِّعْتُ بالبَينِ حتى ما أراعُ لَهُ
وبالمَصَائِبِ في أهْلِي وجِيْرانِ

آخــــر:

وَلَمــا رَأَيْـتُ الـدَّهْــرَ يُـؤْذِنُ صَــرْفُــهُ
بِتَـفْــرِيْـقِ مَـا بَيْـنِي وَبَـيْنَ الحَبَــائِـبِ

رَجَـعْـتُ إلى نَفْسِـيْ فَـوَطَّنْتُهَـا عَـلَى
رُكُــوْبِ جَمِيْــلِ الصَّبْرِ عِنْدَ النَّـوَائِبِ

وَمَنْ صَحِـبَ الـدُّنْيَـا عَلى سُـوءِ فِعْلِهَـا
فَـأَيَّـامُـهُ مَحْفُــوفَـةٌ بِالمَــصَــائِـبِ

فَخُــذْ خِلْسَــةً مِـنْ كُـلِّ يَـوْمٍ تَعِيْشُـهُ
وَكُـنْ حَـذِراً مِـنْ كَامِنَـاتِ العَـوَاقِـبِ

وقال آخــــر :

ومـا خَـيْرُ عَيْـشٍ نِصْفُـهُ سِـنَةُ الكَـرَى
وَنِـصْــفٌ بِـهِ نَعْـتَــلُّ أَوْ نَتَـوَجَّـعُ

مَـعَ الـوَقْـتِ يَمْضِـيْ بُـؤْسُـهُ وَنَعِيْـمُـهُ
كَـأَنْ لَـمْ يَكُـنْ والوَقْـتُ عُمْـرُكَ أَجْمَـعُ

ويقول الآخـــر :

طُبِـعَــتْ عَـلى كِـدَرٍ وَأَنْـتَ تَـرُوْمُـهَـا
صَفْـــواً مِــن الأقْــذَارِ والأَكْــدَارِ

وَمُـكَـلِّـفُ الأَيَّــامِ ضِـدَّ طِبَـاعِهَـا
مُتَـطَّلِــبٌ فـي الـنــارِ جَـذْوَةَ نَــارِ

وإذا رَجَــوْتَ المُسْــتَـحِيْلَ فَـإِنَّمَــا
تَبْـنِي الـرَّجَـاءَ عَــلَى شَـفِـيرٍ هَـارِ

آخـــر :

وما اسْتَغْرَبَتْ عَيْنَي فِرَاقًا رَأَيْتُهُ ولا أَعْـلَمَتْني غَيْرَما القَلْـبُ عَـالِمُـهْ

آخـــر :

وهَبْـنِي مَلَكْـتُ الأرضَ طُـراً ونِلْـتُ مَـا
أُنِـيْــلَ ابْـنُ دَاوُدٍ مِـن المــالِ والمُـلْكِ

أَلَـسْـتُ أخَـلِّيْهِ وأُمْـسِـيْ مُسَـلِّماً
بِـرَغْمِـي إلى الأهْـوال في مَـنْزِلٍ ضَنْكِ

آخـــر :

مَتَى تَسْـتَزِدْ فَضْـلاً مِنَ العُمْـرِ تَغْـتَرِفْ
بِسِجْـلَيْكَ مِـنْ أَرْيِ الخُطُـوْب وصَـابِهَا

يُسَـــرُّ بِعُـمْـــرانِ الـدِّيَـــارِ مُظَـلَّلٌ
وعُمْــرانُهـا يَـدْنُـوهُ بِهَـا مِـن خَـرَابِهَـا

ولـم أَرْتَـضِ الـدُّنْيَـا أَوَانَ مَجِيْئِهَـا
فَكَـيْفَ ارْتِـضَـائِيْهَـا أَوانَ ذَهَـابِهـا

آخـــر :

لم يَبْـقَ في العَيْشِ غَيْرُ البُؤسِ والنَّكَـدِ
فاهْـرَبْ إلى المـوتِ من هَـمٍ ومِـن كَمَـدِ

مَـلأتَ يَـا دَهْـرُ عَيني مِن مَكَـارِهِـهَـا
يَـا دَهْـرُ حَسْـبُكَ قَـدْ أسْـرَفْتَ فاقْتَصِـدِ

قال ابنُ الجَـوْزي وَلَولاَ أَنْ الدُنْيَا دَارُ ابْتِلاَءٍ لَمْ تَعْتَورْ فِيْهَا الأَمْرَاضُ والأَكْدَارُ وَلَمْ يَضِقْ العَيْشُ فِيها على الأَنْبياءِ والأَخْيَارِ فآدَمُ يُعَانِيْ المِحَنَ إلى أَنْ خَرَجَ مِن الـدُّنْيَا ، وَنُـوحٌ بَكَى ثَلاَثَـمائَةِ عامٍ ، وإبْرَاهِيْمُ يُكَابِدُ النَّارَ وَذَبْحَ الوَلَد ، وَيَعْقُوبُ بَكَى حَتَّى ذَهَبَ بَصَرُهُ ، وَمُوْسَى يُقَاسِي فِرْعَونَ وَيَلْقَى مِن قَوْمِهِ المِحَنَ .

وَعِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ لاَ مَأْوَى لَهُ إلا البَرَاري في العَيْشِ الضَّنْكِ وَمُحَمَّدٌ ﷺ يُصَابِرُ الفَقْرَ وَقَتْلَ عَمِّهِ حَمْزَةَ ، وَهُوَ مِن أَحبِ أَقَارِبِهِ إليهِ ، وَنُفُوْرَ قومِهِ

عَنهُ ، وَقد قال ﷺ الدنيا سِجْنُ المُؤمِن وَجَنَّةُ الكَافِرِ ، فإذا بَانَ بِأَنَّها دَارُ ابْتِلاَءٍ وَسِجْنٍ وَمِحَنٍ فلا يَنْبَغِيْ إِنْكَارُ وقُوعِ المَصَائِبِ فيها .

وقال رَأَيْتُ جُمْهُورَ الناسِ إذا طَرَقَهُم المَرَضُ أَوْ غَيْرُهُ مِن المَصَائِب اشْتَغَلُوا تَارَةً بالجَزَعِ والشَّكْوَى ، وَتَارَةً بالتَّدَاوِي ، إلى أَنْ يَشْتَدَّ عَلَيْهِمْ فَيَشْغَلَهُم اشْتِدَادُهُ عن الالتِفَاتِ إلى المَصَالحِ ، مِن وَصِيَّةٍ ، أَوْ فِعْلِ خَيرٍ أَوْ تَأَهُّبٍ لِلْمَوْتِ .

فَكَمْ مِمَّنْ لَهُ ذُنُوبٌ لَا يَتُوبُ مِنْهَا أَوْ عِنْدَهُ وَدَائِعُ لا يَرُدُّهَا ، أَوْ عَلَيْهِ دَيْنٌ أَوْ زَكَاةٌ ، أَوْ في ذِمَّتِهِ ظَلَامَةٌ لا يَخْطُرُ لَهُ تَدارُكُهَا وإنَّما حَزَنُه على فِرَاقِ الدُّنْيَا إذ لَا هَمَّ لَهُ سِوَاهَا وَرُبَّمَا أَفَاقَ وَأَوْصَى بِجَوْرٍ انتهى كلامه .

لَحَى الله دُنيا لا تَكُونُ مَطِيَّةً
إلى دارِكَ الأخرىَ تُزَمّ وتركَبُ
عَجِبْتُ لِمَن يَرْجُو الرِّضا وهُو مُهْمِلٌ
وتَسْوِيفُنَا مَعْ ذلكَ العِلمِ أَعْجَبُ
ومَا هذه الأيامُ إلاّ مَرَاحِلٌ
وأجْدَرْ بها تُقْضَى قَرِيْباً وتَنْضِبُ
إذا كَانَتِ الأنفاسُ لِلعُمْرِ كَالخُطَا
فإنَّ المدَىَ أَدْنَى مَنالاً وأَقْرَبُ

وقال بَعْضُهُم إن المَرْءَ إذا طَرَقَهُ عما يَتَحَيَّفُ صَبْرَهُ وَيُضَيِّقُ صَدْرَهُ يَعُودُ إلى عِلْمِهِ بالدنيَا كَيْفَ نُصِبَتْ عَلَى النُّقْلَةِ وَجُنِّبَتْ طُوْلَ المُهْلَةِ وابْتُدِأَتْ لِلنَّفَاذِ وَشُفِعَ كَوْنُهَا لِلْخَرَابِ ، وأَنَّ الثَّاوِيْ فيها رَاحِلٌ ، والأَيَّامُ فِيهَا مَرَاحِلُ مَوْهُوْبُهَا مَسْلُوبٌ وإن أُرْخِيَ إلى مَهَلٍ ، وَمَمْنُوحُهَا مَحْرُوْبٌ وإِنْ أُرخِيَ إلى أَجَلٍ وَلَوْ خُلِّدَ مَن سَبَقَ لما وَسِعَتِ الأَرْضُ وَلِذَلِكَ جُعِلَتِ الدنيا دَارَ قُلْعَةٍ وَمَحَلَّ نُجْعَةٍ .

شعــرا :

أَطِـل جَفْـوَةَ الـدُّنْيَا وَدَعْ عَنْـكَ شَـأْنَهَا
فَمَـا الـغَـافِـلُ المَـغْـرُورُ فِيها بِعَـاقِـلِ

وَلَـيْسَ الأَمَـانِيْ لِلْبَـقَـــاءِ وإن جَــرَتْ
بِهَـا عَــادَةٌ إلا تَعَـــالِـيْلُ بَـاطِـــلِ

يُسَـــارُ بِنَـا نَحْـوَ المَــنُـــونِ وَإِنَّـنَـــا
لَنُسْـعَفُ فـي الدُّنْيَـا بطَـيِ المَرَاحِـلِ

غَفَـلْنِـا عَـن الأَيَّـام أَطْـوَلَ غَفْـلَةٍ
ومَـا حُـوْ بُهَـا المَجْـنِيُّ مِنْهَـا بِغَـافِـلِ

آخــــر :

بِـرُوْحِـي أُنـاسـاً قَبْـلَنـا قَـد تَقَـدَّمُـوا
ونَـادوا بِنَـا لَـو أَنَّنـا نَسْـمَـعُ النِّـدَا

وَسَــارَتْ بِهِـم سَــيْرَ المطِـيِّ نُعوشُـــهم
وبَعْـضُ أَنِـينِ القَـادِمِـينَ لهُـم حُـدَا

وأَمْسُــوا عَـلى البَيْـدَاءِ يَنْتَـظِـــرونَنَـا
إلـى سَفَــرٍ يَقْـضِـي بـأن نَـتَـزَوَّدَا

فَـرِيـدُونَ فـي أَجْـدَاثِـهـم بِفِـعَـالِهِـم
وكَـمْ مِنْهُـمُ مَـن سَـاقَ جُنْـداً مُجَنَّـدا

تَسـاوَوْا عِـدىً تَحـتَ الـثَّـرَى وأَحِبَـةً
فـلا فَـرقَ مـا بَينَ الأحِـبَّـةِ والـعِـدَى

سَلِ الـدهرَ هَلْ أَعْفَى مِن الموتِ شَائِباً
غَـدَاةَ أَدارَ الكَـــاسَ أمْ رَدَّ أَمْـــرداً

آخــر :

قِفْ بـالمَقَابِـرِ واذْكُـرْ إنْ وَقَفْتَ بِهَـا
لِـلَّهِ دَرُّكَ مَـاذَا تَـسْـتُـرُ الـحُـفَـرُ

فَـفِـيْـهِمُ لَـكَ يَـا مَـغْـرُوْرُ مَـوْعِـظَةٌ
وَفِـيْـهِمُ لَـكَ يَـا مَغْـرُوْرُ مُـعْـتَـبَـرُ

كَـانُـوْا مُلُوْكـاً تُـوَارِيْهِـمْ قُـصُـوْرُهُم
دَهْـراً فَـوَارَتْهُمُ مِـن بَعْـدِهَـا الـحُفَـرُ

اللهم أَيْقِضْنَا مِن سِنَةِ الغَفْلَةِ وَوَفِّقْنَا لاِغْتِنَامِ أَيَّامِ المُهْلَةِ وارْزُقْنَا الاسْتعدادَ لِلنُّقْلَة واغفر لَنَا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فَصْلٌ)

وَمِمَّا يُسَلِيْ وَيُسَهِلُ المَصَائِبَ أَنْ يَعْلَمَ العَبْدُ أَنَّهُ لَوْلاَ مَا قَدَّرَهُ الحَكِيْمُ العَلِيْمُ على عِبَادِهِ مِن مِحَنِ الدُّنْيَا وَمَصَائِبِهَا لأَصَابَ الانسانَ مِن أَدْوَاءِ الكِبْرِ والعُجْبِ والفَرْعَنَةِ وَقَسْوَةِ القَلْبِ مَا هُوَ سَبَبُ هَلاَكِهِ عَاجِلاً وآجِلاً ، فَمِنْ رَحْمَةِ أَرْحَمِ الراحِمين أَنْ يَتَفَقَّدَهُ في الأَحْيَانِ بِأَنْوَاعٍ مِن أَدْوِيَةِ المَصَائِبِ تكونُ حُمْيَةً لَهُ مِن هَذِهِ الأَدْوَاءِ ، وتكونُ حِفْظاً لِصِحَّةِ عُبُوْدِيَتِهِ ، فَسُبْحَانَ مَن يَرْحَمُ بِبلاَئِهِ وَيَبْتَلِي بِنَعْمَائِهِ كما قيل :

(قَـدْ يُنْعِمُ اللهُ بِـالبَلْوَى وإنْ عَـظُمَتْ
وَيَـبْـتَـلِي اللهُ بَعْضَ القَـومِ بِـالـنِّعَـمِ)

آخـــر :

اذا اشْتَــدَّتِ البَلْوَى تُخَـفَّفُ بـالـرِّضَـا
عن اللهِ قَــدْ فَــازَ الـرَّضِيُّ المُـرَاقِـبُ
وَكَـمْ نِـعْـمَـةٍ مَـقْـرُوْنَـةٍ بِـبَـلِيَّـةٍ
على النـاسِ تَخْفَى والبَلَايَـا مَـوَاهِبُ

فَلَوْلَا أَنَّه سُبْحَانَه يُدَاوِي عِبَادَهُ بِأَدْوِيَةِ المِحَنِ والابْتِلَاءِ لَطَغُوْا وَبَغَوْا وَعَتَوْا وَتَجَبَّرُوا في الأرضِ . قال الله تعالى﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوا في الأَرضِ﴾ فإِنَّ مِن شِيَم النُّفُوسِ إذا حَصَلَ لَهَا صِحَّةٌ وَفَرَاغٌ وأَمْرٌ وَنَهْيٌ وَكَلِمَةٌ نافذَةٌ مِنْ غَيْرِ زَاجِرٍ شَرْعِيٍ يَزْجُرُهَا تَمَرَّدَتْ وَظَلَمَتْ وَسَعَتْ في الأَرْضِ فَسَادَاً كَمَا قِيْلَ :

(والـظُّلْمُ مِن شِيَمِ النُّفُـوسِ فـإِنْ تَجِـدْ
ذَا عِـفَّـةٍ فَـلِعِـلَّةٍ لا يَـظْلِمُ)

وَمِمَّا يُسَلِّيْ وَيُسَهِّلُ المَصَائِبَ وَيَكُونُ سَبَباً لِلصَّبْرِ على المُصِيْبَةِ أَنْ يَعْلَم الانسانُ أَنَّ الجَزَعَ لا يَرُدُّ المُصِيْبَةَ ، بَلْ يُضَاعِفُها ، فَتَزِيْدُ المُصِيْبَةُ وأَن الجَزَعَ يُشْمِتُ العَدُوَ وَيَسِؤُ الصَّدِيْقَ ، وَيُنْهِكُ الجِسْمَ ، وَيَسُرُّ شَيْطَانَهُ وَيُضْعِفُ النَّفْسَ ، وَقَدْ يُحْبِطُ العَمَلَ ، وإِذا صَبَرَ واحْتَسَبَ أَخْزَى الشيطانَ وَأَرْضَى الرَّبَّ ، وَسَرَّ الصديقَ ، وَسَاءَ العَدُوَ ، وَهَذا مِن الثَّبَاتِ في الأَمْرِ الدِيْنِي .

وَمِمَّا يُسَلِي وَيُسَهِّلُ المَصَائِبَ أَنْ يُوَطِّنَ الانسانُ نَفْسَهُ أَنَّ كُلَّ مُصِيْبَةٍ تَأْتِيْهِ هِيَ مِن عِندِ اللهِ وَأَنَّها بقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَأَنَّهُ سُبْحَانَه لَم يُقَدِّرْهَا عليه لِيُهْلِكَهُ بِهَا ولا لِيُعَذِّبَهُ وإِنَّما ابْتَلاهُ لِيَمْتَحِنَ صَبْرَهُ ورِضَاهُ وشَكْوَاهُ إِلَيْهِ وابْتِهَالَهُ وَدُعاءَهُ .

وابْتهالَهُ وَدُعَاءَهُ .

فان وُفِّقَ لِلرِّضَاءِ والشُكْرِ فَقَدْ أَفْلَحَ ، وانْ تَسَخَّطَ وَلَمْ يَرْضَ فَقَدْ خَابَ وَخسِرَ ، قالَ أَبو الفَرَجِ بنُ الجَوْزِي عِلاجُ المَصَائِبِ بِسَبْعَةِ أَشْيَاء الأَوْلُ أَنْ يَعْلَمَ بِأَنَّ الدُنْيَا دَارُ ابْتِلاَءٍ وَكَرْبٍ لاَ يُرْجَى مِنْهُ رَاحَةٌ .

في الدُنْيَا مَهْمَا طَالَ العُمُرُ وَمَهمَا اجْتَمَعَ لِلإِنْسَانِ فِيْهَا مِن أَسْبَابِ الغِنَى والثَّرْوَةِ وَسَواءٌ في ذلكَ الصَّعَالِيْكِ والمَمَالِيْكِ والْمُلُوكِ فَلَقَدْ أَوْدَعَ اللهُ في كُلِ نَفْسٍ ما شَغَلَهَا .

وَلَوْ أَنّ الانْسَانَ عَرَفَ قَدْرَ الدُنْيَا وَمَا طُبِعَتْ عَلَيهِ مِن الكَدَرِ والأَنكادِ والمَصَائِبِ والأَحْزَانِ وَعَرَفَ أَنَّ مَا فِيْهَا مَحْضُ خِدَاعٍ وَسَرَابٌ ، بِقِيْعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمآنُ مَاءً حَتَّى إِذا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيئاً واسْتَعَانَ بِمَا وَهَبه اللهُ مِن نُورِ الدِيْنِ وَقَصَّرَ أَمَلَهُ لَمَا آثَّرتْ فِيْهِ المَصَائِبُ بإِذْنِ اللهِ لأَنَّ قُوَّةَ الإِيمانِ باللهِ وَقَضَائِهِ وَقدرِهِ يُثْمِرَانِ الهُدَى والطُمَأْنِيْنَةَ والرِّضَى بِمَا قَسَمَ وَقَدَرَ .

الثانِي أن يَعْلَمَ أَنَّ المُصِيْبَةَ ثَابِتَةٌ .

الثالثُ أَنْ يُقَدِرْ وُجودَ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِن تِلْكَ المُصِيْبَةِ .

الـرابعُ النَّظَرُ في حَالِ من ابْتُلِي بِمِثْلِ هَذا البَلاَءِ فانَّ التَّأَسِي رَاحَةٌ عَظِيْمَةٌ يُخَّفِفُ الحزن أو يزيله بالكُلية .

قَالتِ الخَنْسَاءُ :

وَلَـوْلا كَـثْـرَةُ الـبَـاكِـيْـنَ حَـوْلِـي
عَـلى إِخْـوَانِـهِـم لَـقَـتَـلْتُ نَـفْـسِـيْ

وَمَـا يَـبْـكُـونَ مِـثْـلَ أَخِيْ وَلَـكِـنْ
أُعَـزِيْ الـنَّـفْسَ عَـنْـهُ بـالـتَّـأسِـيْ

آخَــرُ :

خَـاسِبْ زَمَـانَـكَ فِي حَـالِيْ تَصَـرُّفِـهِ
تَجِـدْهُ أَعْـطَاكَ أَضْعَـافَ الـذِي سَلَبَـا
نَـفْسِـيْ الَتِي تَـمْـلِكُ الأَشْـيَـاءَ ذَاهِـبَـةٌ
فَـكَيْـفَ أَبْـكِـيْ عَـلَى شَـيءٍ إِذَا ذَهَـبَـا

آخَــرُ :

لا تَعْتِبِ الـدَّهْـرَ في خَـطْـبٍ رَمَـاكَ بِـهِ
إذا اسْـتَـرَدَّ فَـقِـدْمـاً طَـالَـمَـا وَهَـبَـا
وَرَأْسُ مَـالِـكَ وَهِيَ الـرُّوْحُ إِنْ سَلِمَتْ
لَا تَـأْسَـفَـنَّ لِشَـيءٍ بَـعْـدَهَـا ذَهَـبَـا

آخــرُ :

وَلَوْلَا الأَسَى مَا عِشْتُ فِي الناسِ سَاعَـةً
وَلَـكِنْ مَـتَى نَـادَيْـتُ جَـاوَبَنِـيْ مِـثْـلِيْ

الخَامِسُ مِمَّا يُهَوِّنُ المَصَائِبَ وَيُخَفِّفُهَا وَيَبْعَثُ الإنسانَ على حمدِ اللهِ وشكرِهِ وَيَنْفِيْ هُمُوْمَ الدنيا وَغُمُوْمَهَا النظرُ والتَّفكُرُ والاعْتِبَارُ فِيْمَنْ هُمْ أَعْظَمُ مُصِيْبَةً مِنْكَ وانْظُرْ حَالَتَكَ بَعْدَ زِيَارَتِكَ لِلْمَقْبَرَةِ ، وَنَظَرِكَ فِيْمَنْ قُبِرَ وَمَنْ سَيُقْبَرُ وَحَالَتَكَ بَعْدَ مَا تَمُرُّ بالسِّجْنِ وَتَرَى المُعَذَّبِيْنَ فيه بأنْوَاعِ العَذَابِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُم وَاصِفاً لِلسِّجْنِ بِبَغْدَاد :

مَحَــلٌ بِــهِ تَهْـفُــوْ القُـلُوبُ مِن الأَسَى
فــإِنْ زُرْتَـهُ فــارْبُطْ عَلى القَلْبِ بــاليَــدِ

وانْظُر حَالَتَكَ إِذَا دَخَلْتَ المُسْتَشْفَيَاتَ وَرَأَيْتَ البَاكِيْنَ والذي يَئِنْ والذِيْ تَحْتَ العَمَلِيَّةِ لِقَطْعِ عُضْوٍ أَوْ نَحْوِهِ ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ البَلَايَا تَجِدُكَ إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ وَفَّقَهُ اللهُ مُكْثِراً لِحَمْدِ اللهِ وشكرِهِ حَيْثُ عَافَاكَ مِمَّا تَرَى وَتَسْمَعُ .

وَكَمْ مِن انْسَانٍ أَتَى لِعِلَاجٍ بَسِيْطٍ فَلَمَّا رَأَى مَا في الاسْعَافِ ، وَمَنْ تَحْتَ العَمَلِيَّاتِ وَمَن يَئِنُ وَمَنْ يَجرُّ لِيُغَسَّلَ وَمَنْ قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ يُعْمَلُ لِكُسُوْرِهِ الجُبْصُ ، خَرَجَ يَحْمَدُ اللهَ وَرَأَى أَنَّهُ مَا فِيْهِ شَيءٌ يُوْجِبُ العِلَاجَ .

السادِسُ رَجَاءَ الخَلَفِ إِنْ كَانَ مَن مَضَى يَصِحُّ عَنْهُ الخَلَفُ كالوَلَدِ والزَّوْجَةِ قِيْلَ لِلُقْمَانَ مَاتَتَ زَوْجَتُكَ قَالَ تَجَدَّدَ فِرَاشِيْ وقال الشاعر :

هَــلْ وَصْــلُ عَــزَّةَ إلا وَصْــلُ غَــانِيَــةٍ
فِي وَصْــلِ غَــانِيَــةٍ مِن وَصْلِهَــا خَلَفُ

السَّابِعُ طَلَبُ الأَجْرِ بالصَّبْرِ في فَضَائِلِهِ وَثَوَابِ الصَّابِرِيْنَ وَسُرُوْرُهُم في صَبْرِهِم فَإِن تَرَقَّى إِلى مَقَامِ الرِّضَا فَهُو الغَايَةُ انتهى كلامه بتصرف.

وَمِمَّا يُسَلِّيْ وَيُسَهِّلُ المَصَائِبَ وَيَجْلِبُ الصَّبْرَ بِإِذْنِ اللهِ أَنْ يَعْلَم أَنَّ تَشْدِيْدَ البَلَاءِ يَخُصُّ الأخيارَ ، وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

وسلم ، أيُّ الناسِ أَشَدُّ بَلاَءً قَالَ الأَنْبِيَاءُ ثم الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ يُبْتَلى الناسُ على قدرِ دِيْنِهم فَمَنْ ثَخُنَ دِيْنُهُ اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ .

ومَن ضَعُفَ دِيْنُهُ ضَعَفَ بَلاَؤُهُ ، وإنَّ الرَجُلَ لَيُصِيْبُهُ البَلاَءُ حَتَّى يَمْشِيْ عَلى الأَرْضِ مَا عَلَيهِ خَطِيْئَةٌ ، رواه ابنُ حِبَّانَ ، ومنها أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مَمْلُوكٌ لِلهِ وَلَيْسَ لِلْملوْكِ في نَفْسِهِ شَيْءٌ ، ومنها أَنْ يَعْلَم أنَّ هَذَا الوَاقِعَ وَقَعَ بِرِضَى السَّيِدِ ، فَيَرْضَى بِمَا رَضِيَ بِهِ سَيِّدُهُ وَمَوْلاَهُ وَهُوَ اللهُ جَلَّ وَعَلاَ رَضِيْنَا بِهِ رَباً وبالاسلامِ دِيْناً وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً .

قال بعضُهم :

اصْـــبِرْ لِكُـلِّ مُصِـيْبَـــةٍ وَتَجَـــلَّدِ
واعْـــلَمْ بِـأَنَّ المَـــرْءَ غَـــيْرَ مُخَـــلَّدِ
فــإِذَا ذَكَــرْتَ مُصِيْبَـــةً تَسْـــلُو بِهَـــا
فــاذْكُــرْ مُصَــابَكَ بالنبيِ مُحَمَّـــدِ

آخـر : لا تَيْأَسَنَّ إذا ما الأمـرُ ضِقْتَ به
ذَرْعــاً ونَـمْ مُسْـتَرِيحاً خــالـي البَــالِ
مــا بَـيـنْ رَقْـــدَةِ عَـيـنْ وانتبَــاهَتِهَــا
يُقَــلِّبُ الــدَّهْـرُ مِنْ حَــالٍ إلى حَــالِ

وَمِن فَوائِدِ المَصَائِب والصّبر على مَا أَجْرَاهُ اللَّهُ على الأَنسانِ مِمَّا يَكْرَهُهُ مَا يَعْتَـاضُهُ مِن الارْتِيَاضِ بنوائِب عَصْرِهِ وَيَسْتَفِيْدُهُ من اسْتِحْكَامِ الرَّأْيِ والعَقْل بالتَّجَارُب بِبَلاَءِ دَهْرِهِ فيَقْوَى عَقْلُه وَيَحْصُفُ رَأْيُهُ بإِذْنِ اللَّهِ وَيَكْمُلُ بأَدْنَى شِدَّتِهِ وَرَخَائِهِ وَيَتَّعِظُ بِحَالَتَيْ عَفْوِهِ وَبَلاَئِهِ .

وَأَقَلُ مَا يُؤْتَاهُ المُؤمِنُ فِي المَصَائِبِ الصَّبْرُ الذي يُخَفِّفُ وَقْعَهَا عَلَى النَّفْسِ وَأَكْثَرُهُ رَحْمَةُ اللَّهِ التي بِهَا تَتَحَوَّلُ النِقْمَةُ إِلَى نِعْمَةٍ بِمَا يَستَفِيْدُ مِنه الاختبارَ والتَّمْحِيْصَ وكَمَالَ العِبْرَةِ والتَّهذِيْبِ .

وَقَدْ يَبْتَلِي اللَّهُ المُؤمِنَ وَيَمْتَحِنَ صَبْرَهُ فَتُعْطِيْهِ قُوَّةُ إِيْمَانِهِ مِن الرَّجَاءِ بِهِ مَا تُخَالِطُ حَلاَوَتُهُ مَرَارَةَ المُصِيْبَةِ حَتَّى تَغْلِبَهَا وَقَدْ يَأْنَسُ بالمُصِيْبَةِ لِعِظَمِ رَجَائِهِ وَصَبْرِهِ وَذَا وَإِنْ كَانَ نَادِراً فَهُوَ وَاقِعٌ حَاصِلٌ .

قال بعضهم :

تَعَوَّدْتُ مَسَّ الضُرِ حتى أَلِفْتُهُ ... ومَلَّ طَبِيْبِي جَانِبِي والعَوائِدُ

آخـــر :

وَوَسَّعَ صَدْرِي لِلأَذىَ كثرةُ الأذى ... وكان قدِيْمًا قَدْ يَضِيْقُ بِهِ صَدْرِي

وَمِنْهَا أَنْ يَخْتَبِرَ أُمُوْرَ زَمَانِه وَيَتَنَبَّهَ عَلَى إِصْلاحِ شَأْنِهِ فَلاَ يَغْتَرَّ بِرَخَاءٍ ولا يَطْمَعَ فِي اسْتِوَاءٍ ولا يُؤَمِّلَ بَقَاءَ الدُنْيَا على حالةٍ ، فإِنَّ مَن عَرفَ الدُّنْيَا وَخَبَرَ أَحْوالَهَا هَانَ عَلَيْهِ بُؤْسُهَا وَنَعِيْمُهَا ، ولو لاَ مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ مِن الحَوادِثِ والنَّوائِبِ لم يُعْرَفْ صَبْرُ الكِرامِ ولا جَزَعُ اللِّئَام .

فإِذَا ظَفِرَ المُصَابُ بِأَحَدِ هَذِهِ الأَسْبَابِ تَخَفَّفَتْ بإِذْنِ اللَّهِ عنه أَحْزَانُه ، وَتَسَهَّلَتْ عليه أَشْجَانُه فَصَارَ سَرِيْعَ النِسْيَانِ لِلْمصَائِبِ ، قَلِيْلَ الجَزَعِ حَسَنَ الصَّبْرِ والتَّجمُلِ عندَ المَصَائِبِ .

شعـــرا :

سَـــلامٌ عَــلَى دَارِ الــغُـــرُوْرِ فــإِنَّهَـــا
مُـنَـغَـصَّـــةٌ لَـذَّاتُـهَـــا بـالـفَـجَـــائِـعِ
فـــإنْ جَمَعَـــتْ بَـيـنَ المُحِبِـيْنَ سَـــاعـةً
فَعَـــمَّـــا قَـــلِيْـلٍ أَرْدَفَـــتْ بـالمَـــوَانِـــعِ

آخـر : رَأَيْتُ بَنِي الدنيا كَوَفْدَيْنِ كُلَّمـا
تَـرَحَّـلَ وَفْـدٌ حَـطَّ فـي إِثْـرِهِ وَفْـدُ
وَكُـلٌّ يَحُثُّ السَّـيْرَ عنهـا ونَحـوهـا
فَيَمْضِي بِـذَا نَعْشٌ وَيأتِي بِـذَا مَهْـدُ

ويقولُ الآخرُ :

وَكُـلِّ أَبٍ وابْـنٍ وَإِنْ مُـتِّـعَـا مَـعَـاً
مُـقِـيْـمِيـن مَـفْـقُـوْدٌ لِـوَقْـتٍ وَفَـاقِـدُ

وَيَقُول الآخرُ :

فَـلا تَجْـزَ عَنْ لِلْبَيْـنِ كُـلُّ جَمَـاعَـةٍ
وَرَبِّـكَ مَـكْـتُـوْبٌ عَـلَيْهَـا الـتَّـفَـرُّقُ
وَخُـذْ بـالتَّعَـزِّيْ كُـلَّ مَـا أَنْتَ لَابِسٌ
جَـدِيْـداً عَـلَى الأَيَّـامِ يَـبْلَى وَيَـخْلَقُ
فَصَبْـرُ الـفَتَى عَمَّـا تَـوَلَّى فَـفَـاتَـهُ
مِـنَ الأَمْـرِ أَوْلَـى بـالـسَّـدَادِ وَأَوْفَـقُ
وَإِنَّـكَ بـالاشْفَـاقِ لا تَـدْفَـعُ الـرَّدَى
وَلَا الخَيْـرُ مَـجْلُوبٌ فَـمَـا لَـكَ تُشْفِقُ
كَـأَنْ لَمْ يَـرُعْـكَ الـدَّهْـرُ أَوْ أَنْتَ آمِنٌ
لِأَحْـدَاثِـهِ فِـيْـمَـا يُغَـادِيْ وَيَـطْرُقُ

إِخْوَانِيْ أَيْنَ الأُمَمُ الماضِيَةِ أَيْنَ القُرُوْنُ الخَالِيَةِ أَيْنَ مَنْ نُصِبَتْ على مَفَارِقِهِم التِّيْجَانُ ، أَيْنَ الذين قَهَرُوا الأَبْطَالَ وَالشُّجْعَانِ أَيْنَ الذين دَانَتْ لهم المَشَارِقُ والمَغَارِبُ ، أَيْنَ الـذين تَمَتَّعُوا بـاللذَاتِ مِن المَطَاعِمِ وَالمَشَارِبِ ، أَيْنَ الذِيْنَ اغْتَرُّوا بالأَجْنَادِ والسُّلْطَانِ .

أَيْنَ أَصْحَابُ السَّطْوَةِ والأَعْوَانِ ، أَيْنَ أَصْحَابُ الأَسِرَّةِ وَالوِلَايَاتِ أَيْنَ

الذين خَفَقَتْ عَلى رُؤُوسِهم الألْوِيَةُ وَالرَّايَاتِ ، أَيْنَ الذين قَادُوا العَسَاكِرَ أين الذي عَمَرُوا القُصُوْرِ الشَّامِخَاتِ والفُلَلَ الفَسِيْحَاتِ أَيْنَ الذينَ غَرَسُوْا النخِيْلَ والأشجَارَ المثمِرَات .

أَيْنَ الذين مَلَؤُوا مَا بَيْنَ الخَافِقَيْنِ فَخْراً وَعِزًّا ، أَيْنَ الذين فَرَشُوْا القُصُوْرَ خَزًّا وَقَزّاً ، أَفْنَاهُم واللهِ مُفْنِي الأُمَمِ ، وَأَبَادَهُم مُبِيْدُ الرِّمَم ، وَأَخْرَجَهُم مِن سَعَةِ المَسَاكِنِ ، والقُصُورِ ، وَأَسْكَنَهُم في ضِيْقِ اللُّحُودِ والقُبُورِ تَحْتَ الجَنَادِلِ وَالصُّخُوْرِ .

قَدْ خَلَتْ مِن كَثْرَتِهم أَمَا كِنُهم ولم يَنْفَعْهُم مَا جَمَعُوا مِن الحُطَام ، وَلاَ أَغْنَى عَنْهُم مَا كَسَبُوا مِن حَلاَلٍ أَوْ حَرَامٍ أَسْلَمَهُمْ الأَحِبَّةُ والأَوْلِيَاءُ ، وَهَجَرَهُمْ الإِخْوَانُ وَالأَصْفِيَاءُ وَنَسِيَهُمْ الأَقْرِبَاءُ وَالبُعَدَاءُ .

شعراً :

مَنْ ذَا الذِيْ قَدْ نَالَ رَاحَةَ فِكْرِهِ
في عُسْرِهِ من عُمْرِه أَوْ يُسْرِهِ
يَلْقَى الغَنِيُّ لِحفْظِهِ مَا قَدْ حَوَى
أَضْعَافَ مَا يَلْقَى الفَقِيْرُ لِفَقْرِهِ
فَيَظَلُّ هَذَا سَاخِطاً في قِلِّهِ
وَيَظَلُّ هَذَا تَاعِباً في كُثْرِهِ
عَمَّ البَلاَءُ لِكُلِّ شَمْلٍ فُرْقَةٌ
يُرْمَى بِهَا في يَوْمِهِ أَوْ شَهْرِهِ
وَالجِنُّ مِثْلُ الانسِ يَجْرِيْ فِيهِمُوْا
حُكْمُ القَضَاءِ بِحُلْوِهِ وَبِمُرِّهِ

فَإِذَا المَـرِيْـدُ أَتَى لِيَخْـطِفَ خَـطْفَةً
جَـاءَ الشِّهَـابُ بِحَـرْقِـهِ وَبِـزَجْـرِهِ
وَنَـبِـيُّ صِـدْقٍ لَا يَـزَالُ مُـكَـذَّبـاً
يُـرْمَى بِبَـاطِـلِ قَـوْلِـهِمْ وَبِسِحْـرِهِ
وَمُـحَقِّـقٌ فِي دِيْـنِـهِ لَـمْ يَخْـلُ مِـنْ
ضِـدٍّ يُـوَاجِهُـهُ بِتُـهْـمَـةِ كُـفْـرِهِ
والـعَـالِمُ الـمُفْتِـي يَـظَلُّ مُنَـازِعَـاً
بِـالمُشْكِـلَاتِ لَـدَى مَجَالِسِ ذِكْـرِهِ
وَالـوَيْـلُ إِنْ زَلَّ اللسَـانُ فَلَا يَـرَى
أَحَـداً يُسَاعِـدُ فِي إِقَـامَـةِ عُـذْرِهِ
وَأَخُـو الـدِّيَـانَـةِ دَهْـرُهُ مُتَـنَـغِّصٌ
يَبْغِي التَّـخَلُّصَ مِنْ مَخَـاوِفِ قَبْـرِهِ
أَوَ مَـا تَـرَى المَلِكَ العَـزِيْـزَ بِجُنْـدِهِ
رَهْنَ الهُمُـومِ عَلَى جَـلَالَـةِ قَـدْرِهِ
فَـيَـسُـرُّهُ خَـبَـرٌ وَفِـي أَعْـقَـابِـهِ
هَـمٌّ تَضِـيْـقُ بِـهِ جَـوَانِبُ قَـصْـرِهِ
وَأَخُـو التِّـجَـارَةِ حَـائِـرٌ مُتَـفِـكِّـرٌ
مِـمَّـا يُـلَاقِي مِـنْ خَسَـارَةِ سِعْـرِهِ
وَأَبُو العِيَالِ أَبُـو الهُمُـومِ وَحَسْرَةُ الرَّ
جُـلِ العَقِيْـمِ كَـمِيْـنَـةٌ فِي صَـدْرِهِ
وَتَـرَى الـقَـرِيْـنَ مُـضْمِـراً لِقَـرِيْـنِـهِ
حَسَـداً وَحِقْـداً فِـي غِـنَـاهُ وَفَـقْـرِهِ

وَلَـرُبَّ طَـالِـبُ رَاحَـةٍ فـي نَـوْمِـهِ
جَـاءَتْـهُ أحْـلامٌ فَـهَـامَ بـأَمْـرِهِ
وَالـطِّفْـلُ مِنْ بَـطْنِ أُمِّـهِ يَخْـرُجْ إلى
غُصَصِ الفِـطَامِ تَـرُوعُـهُ في صِغْـرِهِ
وَلَقَـدْ حَسَـدْتُ الـطَّيْـرَ في أوْكَـارِهَـا
فَـوَجَـدْتُ مِنْهَـا مَـا يُصَـادُ بِـوَكْـرِهِ
وَالـوَحْشُ يَـأْتِيْـهِ الـرَّدَى في بَـرِّهِ
وَالحُـوْتُ يَـأْتِيْ حَتْفُـهُ في بَحْـرِهِ
وَلَـرُبَّـمَـا تَـأْتِيْ السِّبَـاعُ لِميِّتٍ
فَـاسْتَخْـرَجَتْـهُ مِنْ قَـرَارَةِ قَبْـرِهِ
كَيْفَ الْتِـذَاذُ أخِيْ الـحَيَـاةِ بِـعَيْشِـهِ
مَـا زَالَ وَهُـوَ مُـرَوَّعٌ فـي أمْـرِهِ
تَـاللّهِ لَـوْ عَـاشَ الفَتَى فـي أهْلِهِ
أَلْفـاً مِـن الأعْـوَامِ مَـالِـكَ أمْـرِهِ
مُـتَـلَذِّذاً مَـعَـهُـم بِـكُـلِّ لَـذِيْـذَةٍ
مُتَنَـعـمّـاً بِـالـعَيْشِ مُـدَّةَ عُـمْـرِهِ
لَا يَـعْتَـرِيْـهِ الـنَّقْصُ فـي أَحْـوَالِـهِ
كَـلَّا وَلا تَجْـرِي الهُـمُـومُ بِفِـكْـرِهِ
مَـا كَـانَ ذَلِـكَ كُـلُّهُ مِـمَّـا يَـفِيْ
بِـنُـزُوْلِ أوَّلِ لَـيْـلَةٍ فـيْ قَـبْـرِهِ
كَيْفَ التَّخَلُّصُ يَـا أَخِيْ مِمَّـا تَـرى
صَبْـراً عـلى حُلْو الـقَـضَـاءِ وَمُـرِّهِ

وَصَلَّى اللّهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فصل في هديه ﷺ في علاج حر المصيبة وحزنها

قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ؛ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا : إِنَّا لله وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ .

وفي المسند عنه ﷺ ، أنه قال : « ما مِن أحدٍ تصيبه مصيبةٌ فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم : أُجُرني في مُصيبتي ، وأخلف لي خيراً منها - إلا آجَرَه الله في مصيبته ، وأخلف له خيراً منها » .

وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب ، وأنفعه له في عاجلته وآجلته . فإنها تتضمن أصلين عظيمين - إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته - (أحدهما) : أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقةً .

وقد جعله عند العبد عاريةً . فإذا أخذه منه ، فهو كالمعير : يأخذ متاعه من المستعير . وأيضاً : فإنه محفوف بعدمينْ : عدمٍ قبله ، وعدمٍ بعده . وملكُ العبد له مُتعة مُعارة في زمن يسير . وأيضاً : فإنه ليس هو الذي أوجده عن عدمه ، حتى يكون ملكه حقيقة ؛ ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده ، ولا يُبقى عليه وجوده .

فليس له فيه تأثير ولا ملكٌ حقيقي . وأيضاً : فإنه متصرِّفَ العبد المأمور المنهيِّ ، لا تصرُّف الملاَّكِ . ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه ، إلا ما وافق أمرَ مالكه الحقيقي .

وقال ابن سيرين : « ما كان ضحكٌ قط ، إلا كانَ منِ بعده بكاءٌ » .

وقـالت هنـد بنت النعـمان : « لقـد رأيتُنا : ونحن من أعزِّ الناس وأشدِّهم مُلكا ، ثم لم تغب الشمسُ حتى رأيتُنا : ونحن أقلُّ الناس . وإنه حقٌّ على الله : أن لا يملأ داراً خَيْرَةً ، إلا ملأها عَبرةً » .

وسألها رجل أن تحدثَه عن أمرها ، فقالت : « أصبحنا ذات صباح : وما في العرب أحدٌ إلا يرجونا ، ثم أمسينا : وما في العرب أحد إلا يرحمُنا » .

وبكت أختُها حُرقَةُ بنت النعمان يوما - وهي في عزها - فقيل لها : ما يبكيك ؟ لعل أحد آذاك ؟ قالت : لا ؛ ولكن رأيت غضارة في أهلي ، وقلَّما امتلأت دار سروراً ، إلا امتلأت حزناً » .

قال إسحق بن طلحة : « دخلت عليهـا يوماً ، فقلت لها : كيف رأيت عبرات الملوك ؟ فقالت : ما نحن فيه اليَوم خيرٌ مما كنا فيه بالأمس ؛ إنا نجد في الكتب : أنه ليس من أهل بيت يعيشون في خيْرة ، إلا سيُعقَبون بعـدهـا عبرةً ؛ وإن الـدهـر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه ، إلا بطن لهم بيوم يكرهونه . ثم قالت :

فَبَيْنَـا نَسُـوسُ النَّاسَ : والأمْـرَ أَمْـرُنَـا
إذَا نَحْـنُ فِيهِـمْ سُـوقَـةٌ نَتَنَصَّـفُ
فـأُفٍّ لِـدُنْـيَـا لاَ يَـدُومُ نَعِيمُـهَـا :
تَقَـلَّبُ تَـارَاتٍ بِنَـا ، وَتَـصَـرَّفُ »

ومن علاجها : أن يعلم أن الجزع لا يردها ، بل يضاعفها . وهو في الحقيقة من تزايُد المرض .

ومن علاجها : أن يعلم أن فوت ثواب الصبر والتسليم - وهو من الصلاة والرحمة والهداية التي ضمِنَها الله على الصبر والاسترجاع - أعظمُ من المصيبة في الحقيقة .

ومن علاجها : أن يعلم أن الجزع يُشمت عدوه ، ويُسيء صديقه ، ويُغضب ربه ، ويَسر شيطانه ، ويُحبط أجره ، ويُضعف نفسه . وإذا صبرَ واحتسب : أقصىَ شيطانه ، ورد خاسئاً ، وأرضى ربه ، وسر صديقه ، وساء عدوه ، وحمل عن إخوانه ، وعزَّاهم هو قبل أن يُعزوه . فهذا هو الثبات والكمال الأعظم ؛ لا لطمُ الخدود ، وشقُّ الجيوب والدعاء بالويل والثُّبور ، والسخَطُ على المقدور .

ومن علاجها : أن يعلم أن ما يعقبه الصبر والاحتساب - من اللذة والمسرة - أضعافُ ما كان يحصل له ببقاء ما أصيب به ، لو بقي عليه . ويكفيه من ذلك بيتُ الحمد الذي يُبنى له في الجنة ، على حمده لربه واسترجاعه . فلينظرْ أيُّ المصيبتين أعظمُ : مصيبةُ العاجلة ؟ أو مصيبةُ فوات بيت الحمد في جنة الخلد ؟ .

وفي الترمذي مرفوعاً : « يودُّ ناس يومَ القيامة أن جلودَهم كانت تُقرضُ بالمقاريض في الدنيا ، لما يرون : من ثواب أهل البلاء » .

وقال بعض السلف : « لولا مصائبُ الدنيا ، لورَدْنا القيامة مفاليس » .

ومن علاجها : أن يُرَوِّح قلبه برَوْح رجاء الخلف من الله . فإنه من كل شيء عوض ، إلا الله فما منه عوضٌ . كما قيل :

مِـنْ كُـلِّ - شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعْتَـهُ - عِـوَضٌ
وَمَـا مِـنَ اللهِ - إِنْ ضَيَّعْتَـهُ - عِـوَضُ

ومن علاجها : أن يعلم أن حظه من المصيبة ما تحدثه له ؛ فمن رضي فله الرضا ، ومن سخِط فله السَّخَط . فحظُّك منها ما أحدثته لك . فاختر إما خيرَ الحظوظ ، أو شرَّها . فإن أحدثت له سخطاً وكفراً : كتب في ديوان الهالكين . وإن أحدثت له جزعاً وتفريطاً في ترك واجب ، أو في فعل محرم : كُتب في ديوان الهالكين . وإن أحدثْت له شكاية وعدم صبرٍ : كُتب في ديوان المغبونين .

وإن أحـدثت له اعتراضاً على الله ، وقدحاً في حِكْمَتِهِ : فقد قرع باب الـزنـدقـة أو ولَجـه . وإن أحـدثـت له صبراً وثبـاتاً لله : كُتب في [ديوان الصابرين] . وإن أحدثت له الرضا : كُتب في [دِيوان الراضين] . وإن أحـدثت له الحمـد والشكر : كتب في ديوان الشاكرين ، وكان تحت لواء الحمد مع الحمَّادين . وإن أحدثت له محبةً واشتياقاً إلى لقاء ربه : كتب في ديوان المحبين المخلصين .

وفي مسنـد الإمـام أحمـد والـترمـذيِّ - من حديث محمـود بن لَبيد يرفعه - : « إن الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم ؛ فمن رضي فله الرضا ، ومن سخِط فله السَّخَطُ » ؛ زاد أحمد « ومن جزِع فله الجزعُ » .

ومن علاجها : أن يعلم أنه وإن بلغ في الجزع غايتَه ، فآخرُ أمره إلى صبر الاضطرار . وهو غير محمود ولا مُثاب .

قال بعض الحكماء : « العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ، ما يفعله الجاهل بعد أيام . ومَن لم يصبرْ صبرْ الكرام ، سلاِ سلُوَّ البهائم » . وفي

الصحيح مرفوعاً : « الصبرُ عند الصَّدْمة الأولى » . وقال الأشعث بن قيس : « إنك إن صبرت إيماناً واحتساباً ؛ وإلا سلوتَ سلُوَّ البهائم » .

ومن علاجها : أن يعلم أن أنفع الأدوية له موافقة ربه وإلٰهه فيما أحبه ورضيه له ، وأن خاصيَّة المحبة وسرَّها موافقة المحبوب . فمن ادعى محبة محبوب ، ثم سخِط ما يُحبه وأحبَّ ما يَسخطه : فقد شهد على نفسه بكذبه ، وتمقَّت إلى محبوبه .

وقال أبو الدرداء : « إن الله إذا قضى قضاء ، أَحَبَّ أن يُرضَى به » . وكان عمران ابن الحصين ، يقول في علَّته : « أحبُّه إليَّ : أحبُّه إليه » . وكذلك قال أبو العالية .

وهذا دواء وعلاج لا يَعمل إلا مع المحبين ، ولا يمكن كل أحد أن يتعالج به .

ومن علاجها : أن يوازِنَ بين أعظم اللذتين والتمتعين وأدْوَمهما : لذةِ تمتعِه بما أصيب به ، ولذة تمتعه بثواب الله له فإن ظهر له الرجحان ، فآثر الراجح : فليحمد الله على توفيقه . وإن آثر المرجوحَ من كل وجه : فليعلم أن مصيبته في عقله وقلبه ودينه ، أعظمُ من مصيبته التي أُصيب بها في دنياه .

ومن علاجها : أن يعلم أن الذي ابتلاه بها : أحكمُ الحاكمين ، وأرحمُ الراحمين ؛ وأنه سبحانه لم يرسل إليه البلاءَ ليهلكه ، ولا ليعذبه به ، ولا ليَجْتَاحَه ، وإنما افتقده به : ليمتحنَ صبرَه ورضاه عنه وإيمانه ، وليسمع تضرعه وابتهالَه ، وليراه طريحاً ببابه ، لائذاً بجنابه ، مكسور القلب بين يديه ، رافعاً قصص الشكوى إليه .

قال الشيخ عبدالقادر : « يا بني : إن المصيبةَ ما جاءت لتهلكَك ،

وإنما جاءت لتمتحنَ صبرك وإيمانك ؛ يا بني : القدرُ سبعٌ ، والسبعُ لا يأكل الميتةَ » .

والمقصود : أن المصيبة كِيرُ العبد الذي يُسبكُ به حاصله ، فإما أن يخرجَ ذهباً أحمرَ ، وإما أن يخرجَ خَبثاً كله . كما قيل :

سَبَكْنَاه : ونَحْسِبُهُ لُجَيْناً ؛
فأَبْدَى الْكِيرُ عَنْ خَبَثِ الْحَدِيدِ

فإن لم ينفعه هذا الكِيرُ في الدنيا : فبينْ يديه الكيرُ الأعظم . فإذا علم العبد أن إدخاله كِيرَ الدنيا ومَسبكَها خيرٌ له من ذلك الكير والمسبك ، وأنه لابد من أحد الكيرَين فليعلم قدرَ نعمة الله عليه في الكير العاجل .

فلولا أنه سبحانه يداوِي عباده بأدوية المحن والابتلاء ، لَطَغوا وبغوا وعَتوا . والله سبحانه إذا أراد بعبداً خيراً : سقاه دواءً - من الإبتلاء والامتحان - على قدر حاله ، يستفرغ به من الأدواء المهلكة ؛ حتى إذا هذَّبه وصفَّاه : أهَّله لأشرفِ مراتب الدنيا - وهي عبوديته - وأرفع ثواب الآخرة ، وهو رؤيته وقربه .

ومن علاجها : أن يعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة ، يَقلِبُها الله سبحانه كذلك ؛ وحلاوةَ الدنيا بعينها مرارةُ الآخرة . ولأنْ ينتقل من مرارة منقطعة ، إلى حلاوة دائمة - خيرٌ له من عكس ذلك .

فإن خفيَ عليك هذا فانظر إلى قول الصادق المصدوق : « حُفَّتِ الجنةُ بالمَكارِه ، وحُفتِ النارُ بالشَّهواتِ » .

وفي هذا المقام تفاوتت عقولُ الخلائق ، وظهرت حقائق الرجال .

فأكثرُهم آثر الحلاوةَ المنقطعة ، على الحلاوة الدائمة التي لا تزول ، ولم يحتملْ مرارةَ ساعةٍ بحلاوة الأبد ، ولا ذُلّ ساعةٍ لعزِّ الأبد ، ولا محنةَ ساعةٍ لعافيةِ الأبـد . فإن الحـاضر عنـده شهادةٌ ، والمنتظر غيبٌ ، والإيمانَ ضعيفٌ ، وسلطان الشهوة حاكم . فتولَّدَ من ذلك إيثارُ العاجلة ، ورفضُ الآخرة .

وهـذا حال النظر الواقع على ظواهر الأمور وأوائلها ومبادئها . وأما النظر الثاقب الذي يَخرِق حُجُب العاجلة ، ويُجاوزه إلى العواقب والغايات : فله شأنٌ آخرُ .

فادع نفسك إلى ما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته : من النعيم المقيم ، والسعادة الأبدية ، والفوز الأكبر ، وما أعدَّ لأهل البَطالة والإضاعة : من الخزي والعقاب ، والحسرات الدائمة : ثم أخترْ أيَّ القسمَيْن أليقُ بك . و (كلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) ، وكل أحد يصبُو إلى ما يناسبه وما هو الأولى به . ولا تستطلْ هذا العلاج : فشدةُ الحاجة إليه - من الطبيب العليل - دعت إلى بسطه . وبالله التوفيق .

شعـــرا :

إصْـبِرْ عـلى حُـلْوِ الـقَـضـاءِ ومُـرِّهِ
واعْـلَـمْ بـأنَّ الله بـالِـغُ أمـرِهِ

فـالصَّـدرُ مَن يَلْقَـى الخُطُـوبَ بصَـدْرِهِ
وبصَـبْرِهِ وبِحَمْـدِهِ وبِشُـكْـرِهِ

الحُـرُّ سَـيْفٌ والـذُّنـوبُ لِصَـفْـوِه
صَـدَأٌ وصَـيْقَـلُـه نَـوائِبُ دَهْـرِهِ

لَيْسَ الحَوادِثُ غَيرَ أَعْمَالِ امْرِىءٍ
يُجْزَى بِهَا مِن خَيرِهِ أَوْ شَرِّهِ
فإذا أُصِبْتَ بما أُصِبْتَ فلا تَقُلْ
أُوذِيتُ مِن زِيدِ الزَّمانِ وعَمْرِهِ
واثْبُتْ فكَمْ أَمْرٍ أَمَضَّكَ عُسْرُهُ
ليلا فبَشَّرَكَ الصَّبَاحُ بيُسْرِهِ
ولَكَمْ علَى نَاسٍ أَتَى فَرَجُ الفَتَى
مِن سِرِّ غَيْبٍ لا يَمُرُّ بِفِكْرِهِ
فاضْرَعْ إلى الله الكريمِ ولا تَسِلْ
بَشَراً فَلَيْسَ سِوَاهُ كَاشِفَ ضَرِّهِ
واعْجَبْ لنَظْمِيَ والهُمُومُ شَواغِلٌ
يُلْهِينَ عَن نَظْمِ الكَلامِ ونَثْرِهِ

غيره :
لا تَخْشَ مِن غَمٍّ كَغَيْمٍ عَارِضٍ
فَلَسَوْفَ يُسْفِرُ عن إضاءَةِ بَدْرِهِ
إن تُمْسِ عن عَبَّاسٍ حَالِكَ رَاوِياً
فَكَأَنَّنِيْ بِكَ رَاوِياً عن بشره
ولقد تَمُرُّ الحادِثَاتُ عَلَى الفَتى
وَتَزُولُ حتَّى ما تَمُرُّ بِفِكْرِهِ
هَوِّنْ عَليكَ فرُبَّ أَمْرٍ هَائِلٍ
دُفِعَتْ قُواهُ بِدافِعٍ لم تَدْرِهِ
ولَرُبَّ لَيلٍ بالهُمومِ كَدُمَّلٍ
صَابَرْتَهُ حتَى ظَفِرْتَ بفَجْرِهِ

ثُـم الـصَّـلاَةُ عَـلى الـنَّـبي وَآلِـهِ
مَـعْ صَـحْـبِـهِ والـتَّـابِـعِـيْـنَ لِأَمْـرِهِ

اللَّهُمَّ امْنُنْ عَلَيْنَا باصْلاَحِ عُيُوبِنَا وَسَتْرِ زَلَّاتِنَا وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ المُهْتَدِيْنَ واغْفِرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُم وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

في الخَــوْفِ

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وايَّاكَ لما يُحِبُّه وَيَرْضَاه أَنَّ الخَوْفَ عِبَارَةٌ عن تَأَلُّم القَلْبِ واحْتِرَاقِهِ بِسَبَبِ تَوَقّعِ مَكْرُوهٍ في المُسْتَقْبَل وَقِيْلَ الخَوْفُ قُوَّةُ العِلْم بِمَجَارِيْ الاحْكَامِ وَقِيْلَ هَرَبُ القَلْبِ من حُلُولِ المَكْرُوهِ عنْدَ اسْتِشْعَارِهِ .

فَالخَوفُ لِعَامَّةِ المؤمنينَ وَالخَشْيَة لِلعُلَمَاءِ العَارِفِيْنَ والهَيْبَةُ لِلمُحِبِّينَ والاجْلالُ لِلْمُقَرَّبِيْنَ ، وَعلى قَدْرِ العِلْمِ باللهِ وَمَعْرِفَةِ العَبْدِ بِنَفْسِه يَكُونُ الخَوْفُ والخَشْيَةُ كَمَا قالَ النَّبيّ صَلى اللهُ عليه وسَلم إِنّي لاعْلَمُكم باللهِ وَأشَدُّكُم له خَشْيَةً وفي رِوَايَةٍ خَوْفاً .

وَإِذَا كَمُلَتْ المَعْرِفَةُ أَثَّرتْ الخَوْفَ فَفَاضَ أَثَرُهُ عَلَى القَلْبِ ، ثُمَّ ظَهَرَ على الجَوَارِحِ ، والصِّفَاتِ بالنُّحُولِ وَالاصْفِرَارِ وَالبُكاءِ وَالغُشِيْ ، وَقَدْ يُفْضِيْ إلى الموتِ .

وَأَمَّا ظُهُورُ أَثَرِه على الجَوَارِح فَبكَفِّها عن المعَاصِي ، والْزَامِهَا الطَّاعَاتِ تَلاَفِياً ، واسْتِدْرَاكاً لِمَا فَرَطَ ، واسْتِعْدَاداً لِلمُسْتَقْبَلِ .

وَمِنْ ثَمراتِ الخَوْفِ أَنَّه يَقْمَعُ الشَّهواتِ ، وَيُكَدِّرُ اللَّذَّاتِ ، فَتَصِيْرُ المَعَاصِيْ المَحْبُوبَةِ عِنْدَهُ مَكْرُوهَةً ، كَمَا يَصِيْرُ العَسَلُ وَاللبَنُ مَكْرُوهاً إِذَا عَلِمَ أَنَّ فِيْهِ سُمّاً ، فَتَحْتَرِقُ الشَّهَوَاتُ بالخَوْفِ ، وتَتَأَدَّبُ الجَوَارِحُ ، وَيَذِلُّ القَلْبُ ، وَيَسْتَكِيْنُ وَيُفَارِقُهُ الكِبْرُ وَالحَسَدُ وَالحِقْدُ ، وَيَصِيْرُ مُسْتَوْعِباً الهَمَّ لِخَوْفِهِ وَالنَّظَرِ في خَطرِ عَاقِبَتِهِ .

فَلَا يَتفَرَّغُ لِغَيْرِهِ ، وَلَا يَكُوْنُ له شُغْلُ إلا المُرَاقَبَةَ ، وَالمُحَاسَبَةَ وَالمُجَاهَدَةَ ، وَالبُخلَ في الأَنْفَاسِ ، وَاللَّحظاتِ ، أَنْ يَصْرِفَهَا فِيْمَا لا فَائِدَةَ فِيْهِ ، وَمُؤَاخَذَةَ النَّفْسِ في الخَطَرَاتِ ، وَالخَطَوَاتِ ، والكَلِمَاتِ ، وَقُوَّةُ الخَوْفِ بِحَسَبِ قوّةِ المَعْرِفَةِ بِجَلَالِ اللّهِ تَعالَى ، وَصِفَاتِهِ وَبِعُيُوبِ النَّفْسِ وَمَا بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ الاخْطَارِ وَالأَهْوَالِ .

وَمُقَدِّمَاتُ الخَوْفِ ، أَرْبَعٌ ، الأُوْلَى ذِكْرُ الذُّنُوبِ الكَثِيْرَةِ العَظِيْمَةِ التي سَلَفَتْ فِيْمَا مَضَى وَكَثْرَةِ ذكـرِ الخُصُومِ الذين مَضَوا وَأَنْتَ مُرْتَهَنٌ لم يَتَبَيَّنْ لكَ الخَلاصُ حَتَّى الآن ، والثَّانِيَة ذِكْرُ شِدَّةِ العُقُوبَةِ ، وَالثَّالِثَةِ ذِكْرُ قُدْرَةِ اللهِ عَلَيْكَ مَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ ، وَالرَّابِعَةُ ذِكْرُ ضَعْفِكَ عَنْ احْتِمَالِ العُقُوْبَةِ .

آخـــر :

حَــقِــيق بالـتـواضـــع مَـنْ يَمُــوتُ
ويكـفــي المــرءِ مِـن دُنْـيــاهُ قــوتُ
فمــا لِلْمــــرءِ يُصْـبِــح ذَا هُمُــــوْمٍ
وحِــرْص ٍ ليــسَ يُـدْرِكُــهُ النُعــوتُ

فيـــاً هـــذا سَـتَرْحَلُ عن قَــرِيْــبٍ
إلـى قَــومٍ كَــلاَمُهُــم السُــــكُـوتُ

آخـــر :

ومَــا مَنْ يَخَــافُ المَـوْتَ وَالنــارَ آمِـنٌ
وَلكِنْ حَـزِيْـنٌ مُـوْجَـعُ القَـلْبِ خَـائِفُ
إذَا عَـنَّ ذِكْـرُ الـمـوتِ أَوْجَـعَ قـلبَـهُ
وَهَــيَّــجَ أَحْــزَانــاً ذُنُــوْبٌ سَــوالِــفُ

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الخَوْفَ يَحُثُّ على العِلْمِ ، والعَمَل ، قَالَ أَبُو حَفْصٍ الخَوْفُ سَوْطُ اللهِ ، يُقَوِّمُ به الشَّارِدِيْنَ عَنْ بَابِهِ ، وَقَال الخَوْفُ سِرَاجٌ في القَلْبِ ، به يُبْصِرُ مَا فِيْهِ من الخَيْرِ والشَّرِ ، وَكُلُّ أَحَدٍ إذا خِفتَهُ هَرَبْتَ مِنْهُ إلا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَإنَّكَ إذا خِفْتَهُ هَرَبْتَ إلَيْهِ فالخَائِفُ هَارِبٌ مِنْ رَبِّهِ إلى رَبِّهِ .

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ : مَا فَارَقَ الخَوْفُ قَلْباً إلا خَرِبَ وَقَالَ ابْرَاهِيْمُ بْنُ سُفْيَانَ إذَا سَكَنَ الخَوْفُ القُلُوبَ أَحْرَقَ مَوَاضِعَ الشَّهَواتِ مِنْهَا وَطَرَدَ الدُّنْيَا عَنْهَا قال في مُخْتَصَر مِنْهَاج القَاصِدِيْنَ وَالخَوْفُ لَهُ إِفْرَاطٌ وَلَهُ اعْتِدَالٌ ، وَلَهُ قصُورٌ والمَحْمُودُ مِن ذَلِكَ الاعْتِدَالِ .

وَهُوَ بمَنْزِلَةِ السَّوْطِ لِلْبَهِيمة ، فَإِنَّ الأَصْلَحَ للبَهِيْمَةِ أَنْ لا تَخْلُو عن سَوْطٍ ، وَلَيْسَ المبَالغَةُ في الضَّرْبِ مَحْمُودَةٌ ، ولا المتَقَاصِرُ عن الخوفِ أَيْضاً مَحْمُودَا ، وَهُوَ كالذي يَخْطُرُ بالبَالِ عِنْدَ سَمَاع آيَةٍ ، أو سَبَبٍ هَائِل فيُورِثِ البُكَاءَ ، فإذا غَابَ ذلك السَّبَبُ عن الحِسِّ رَجَعَ القلبُ إلى الغَفلةِ ، فهو خَوْفٌ قَاصِرٌ قَليلُ الجَدْوَى ضَعيفُ النَّفْعِ ، وهو كالقَضِيْبِ

الضَّعِيْفِ ، الذي يُضْرَبُ به دَابّةٌ قويّةٌ فلا يُؤلِمُهَا أَلَماً مُبرِّحاً ، فلا يَسُوقُهَا إلى المقصَدِ ولا يَصْلُحُ لِرِيَاضَتِهَا .

وَهَذا هُوَ الغَالِبُ على الناسِ كُلُّهم إلَّا العَارِفِيْنَ والعُلَمَاءِ أَعْنِي العُلَمَاءَ باللهِ وَبآيَاتِه وقد عَزَّ وُجُوْدُهُم ، وَأَمَّا المُرتَسِمُوْنَ برُسومِ العِلْمِ فَإِنَّهُم أَبْعَدُ النَّاسِ عن الخَوْفِ، وهل العلماء حَقِيْقَة يأخذون من الدنيا إلا بقدر البلاغ.

وَأَمَّا القِسْمُ الأَوَّلُ وهو الخَوْفُ المُفْرِطُ فهو كَالذِيْ يَقوَى وَيُجَاوِزُ حَدَّ الاعْتِدَال ، حَتَّى يَخْرُجَ إلى اليأسِ والقُنُوطِ ، فَهُوَ أَيْضاً مَذْمُومٌ لأَنَّهُ يَمْنَعُ مِن العَمَلِ ، وقد يَخْرُجُ إلى المرَضِ والوَلَهِ وَالمَوْتِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مَحْمُوداً .

وَكُلّ مَا يُرَادُ لِأَمْرٍ فالمَحْمُودُ مِنْهُ ما يُفْضِي إلى المُرادِ المَقْصُودِ مِنْهُ ، وَمَا يَقْصُرُ عَنه أو يُجَاوِزُهُ فهُوَ مَذمُوم وَفَائِدَةُ الخَوْفِ الحَذَرُ والوَرَعُ والتَّقْوَى وَالمجَاهَدَة وَالفِكْرِ وَالذِّكْرِ وَالتَّعبُدِ وَسَائِرِ الأَسْبَابِ التي تُوصِلُ إلى اللهِ تَعَالَى وَكُلُّ ذلك يَسْتَدْعِيْ الحَيَاة مَعَ صِحَّةِ البَدَنِ وَسَلاَمَةِ العَقْلِ فَإذَا قَدَحَ في ذَلِكَ شَيءٌ كَانَ مَذْمُوماً وصلى اللهِ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبهِ أجمعين

فَصْــلٌ

وَقَالَ ابْنُ رَجبٍ رَحِمَهُ اللهُ : وَالقَدْرُ الوَاجِبُ مِنْ الخَوْفِ مَا حَمَل عَلى أَدَاءِ الفَرَائِضِ واجْتِنَابِ المَحَارِمِ فَإن زَادَ على ذَلِكَ بِحَيْثُ صَارَ بَاعِثاً لِلنّفُوسِ على التَّشْمِيْرِ في نَوَافِلِ الطَّاعَاتِ ، والانْكِفَافِ عَنْ دَقَائِقِ المَكْرُوهَاتِ ، وَالتَّبَسُّطِ في فُضُوْلِ المُبَاحَاتِ ، كَانَ ذَلِكَ فَضْلاً مَحْمُوداً .

فَإنْ تَزَايَدَ عَلى ذَلِكَ بِأَنْ أَوْرَثَ مَرَضاً أَوْ مَوْتاً أَوْ هَمًّا لاَزِماً بِحَيْثُ يَقْطَعُ عن السَّعي في اكْتِسَابِ الفَضَائِلِ المَطْلُوبَةِ المَحْبُوبَةِ لِلّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَحْمُوداً .

وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ يَخَافُوْنَ على عَطَاءِ السُّلَمِيِّ من شِدَّةِ خَوْفِهِ الذِي أَنْسَاهُ القُرْآنَ وَصَارَ صَاحِبَ فِرَاشٍ ، وَهَذَا لأَنَّ خَـوْفَ العِقَابِ لَيْسَ مَقْصُوداً لِذَاتِهِ ، إِنَّمَا هُوَ سَوْطٌ يُسَاقُ بِهِ المُتَوَانِي عَنْ الطَّـاعَـةِ إليها ومن هُنا كانَتْ النَّارُ مِن جُمْلَةِ نِعَمِ اللهِ على عِبَادِهِ الذين خَافُوْهُ واتَّقَوْه .

وَلِهَذَا المَعْنَى عَدَّهَا اللهُ سُبْحَانَهُ مِن جُمْلَةِ آلاَئِهِ عَلى الثَّقَلَيْنِ في سُوْرَةِ الرَّحْمَانِ ، وَقَال سُفْيَانُ بن عُيَيْنَة : خَلَقَ اللهُ النَّارَ رَحْمَةً يُخَوِّفُ بِهَا عِبَادَهُ لِيَنْتَهُوا أَخْرَجَهُ أبو نُعَيْم .

وَالمَقْصُودُ الأَصْلِيُّ هُوَ طَاعَةُ اللهِ عَز وَجل وَفِعْلُ مَرَاضِيْهِ وَمَحْبُوبَاتِهِ وَتَرْكُ مَناهِيْهِ وَمَكْرُوهَاتِهِ ، وَلا نُنْكِرُ أَنَّ خَشْيَةَ اللهِ وَهَيْبَتَهُ وَعَظَمَتَهُ في الصُّدُورِ واجْلاَلَهُ مَقْصُودٌ أَيْضَا ، وَلَكِنْ القَدْرُ النَّافِعُ مِنْ ذَلِك مَا كَانَ عَوْناً عَلى التَّقَرُّبِ إلى اللّهِ ، بِفِعْلِ ما يُحِبُّهُ وَتَرْكِ مَا يَكْرَهُهُ .

وَمَتى صَارَ الخَوْفُ مَانِعاً من ذَلِكَ وَقَاطِعاً عَنْهُ فقد انْعَكَسَ المَقْصُوْدُ منه ، وَلَكن إِذَا حَصَلَ ذَلِكَ عن غَلَبَةٍ كانَ صَاحِبُهُ مَعْذُوْراً ، وَقَدْ كان في السَّلَفِ مَن حَصَلَ لَهُ مِن خوْفِ النَّارِ أَهْوَالٌ شَتَّى لِغَلَبَةِ حَالِ شَهَادَةِ قُلُوْبِهِمْ لِلنَّارِ ، فَمِنْهُمْ مَن كَانَ يُلاَزِمُهُ القَلَقُ وَالبُكَاءُ وَرُبَّمَا اضْطَرَبَ أَوْ غُشِيَ عَلَيْهِ إِذَا سَمِعَ ذِكْرَ النَّارِ . مِثْلُ قولِهِ تعالى : ﴿ وجِيءَ يَوْمَئِذٍ بجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وأَنَّى لَهُ الذكرى ﴾ .

شِــعْراً :

فَبَــادِرْ إلى الـخَيْـرَاتِ قَبْـلَ فَـوَاتِهَـا
وَخَـالِفْ مُـرَادَ النَّفْسِ قَبْـلَ مَمَـاتِهَـا
سَتَبْكِيْ نُفُـوسٌ في القِيَـامَـةِ حَسْـرَةً
عَلى فَـوْتِ أَوْقَـاتِ زَمَـانَ حَيَـاتِهَـا
فَـلاَ تَغْتَـرِرْ بِـالعِزِّ وَالمَـالِ والـمُنَى
فَكَم قَـدْ بُلِيْنَـا بِـانْقِـلاَبِ صِفَـاتِـهَـا

آخـر :

تَـزَوَّدْ مِـن الـدنيـا بِسَـاعَتِكَ الـتي
ظَفِـرتَ بهـا مـا لـم تَعُقْكَ العَـوائِقُ
فـلا يـومُـكَ المـاضِي عليـكَ بعَـائِدٍ
ولا يَـومُـكَ الآتِـي بِـهِ أَنْـتَ وَاثِـقٌ

وَمِمَّا وَرَدَ في الخَوْفِ مِنْ الآيَاتِ والأَحَادِيْثِ مَا يَلِي قَالَ اللّهُ تَعالَى ﴿ إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيْدٌ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخذُ رَبِّكَ إذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إنَّ أَخْذَهُ أَلِيْمٌ شَدِيْدٌ.إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُوْدٌ.وَمَا نُؤَخِّرُهُ إلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُوْدٍ.يَوْمَ يَأْتِي لَا تكلَّمُ نفسٌ إلا بِإذنِهِ فَمِنْهُم شَقِيٌّ وَسَعِيْدٌ.فَأَمَّا الذِيْنَ شَقُوا فَفِيْ النارِ لَهُم زَفِيْرٌ وَشَهِيْقٌ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأَخْسَرِيْنَ أَعْمَالاً الذِيْنَ ضَلَّ سَعْيُهم في الحَيَوْةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُم يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ .

وقال تعالى :

﴿ وَجيءَ يَوْمَئِذٍ بِجهنم يَوْمَئِذٍ يَتذَكَّرُ الإنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ وَقَالَ ﴿ فَإذَا جَـآءَتْ الطَّامَّةُ الكُبْرَى يَوْمَ يَتذَكَّرُ الإنْسَانُ مَا سَعَى.وَبُرِّزَتْ الجَحِيْمُ

لِمَنْ يَرَى ﴾ الآيَاتِ وَقَال ﴿ أَفَحسِبْتُم أَنَّما خَلَقْنَاكُم عَبَثاً وَأَنَّكم إلَيْنا لا تُرْجَعُوْنَ ﴾ .

وَقَالَ ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَى ﴾ وَقَالَ ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيْهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيْهِ وَصَاحِبَتِه وَبَنِيْهِ لِكُلِّ امْرِءٍ مِنْهُم يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيْه ﴾ وَقَالَ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتقُوا رَبَّكُم إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ شَيءٌ عَظِيْمٌ يوم تَرَوْنَها تَذْهَلُ كل مُرْضِعَةٍ عما أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابُ اللّهِ شَدِيْد ﴾ .

وَقَال ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجحِيْماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيْماً يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالجِبَالُ وَكَانَتْ الجِبَالُ كَثِيْباً مَهِيْلاَ ﴾ الآيَاتِ وَقَالَ ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ اذْ قُضيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِيْ غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤمِنُوْنَ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَبَدَالَهُم مِنْ اللّهِ مَا لَمْ يَكُوْنُوا يَحْتَسِبُوْنَ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الذِيْنَ يَخافُوْنَ أَنْ يُحْشَرُوا إلى رَبِهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُوْنِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيْعٌ لَعلَّهُم يَتَّقُوْنَ ﴾ .

وَقَالَ ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُوْا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوْرا ﴾ وَقَالَ ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيّ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ يَعْمَلْ سُوْءً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُوْنِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيْراً ﴾ .

وَقَالَ جَلَّ وَعَلا ﴿ وانِّيْ لَغَفَّارٌ لِمنَ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلّا هَذِهِ الآيةُ لَكَانَتْ كَافِيَةً لِلتَّخْوِيْف ، إِذْ شَرَطَ لِلمُبَالَغةِ في مَغْفِرَتِهِ أَرْبَعَةَ أُمُوْرٍ ، يَعْجَزُ العَبْدُ عَنْ الوَاحِدِ مِنْها ان لَمْ يُعِنْهُ اللّهُ فَأَوَّلاَ التَّوْبَةُ ، والثَّانِيْ الايْمَانُ ، وَالثَّالِثُ العَمَلُ الصَّالِحُ ، وَالرَّابِعُ سُلُوْكُ سَبِيْلِ المهْتَدِيْنَ .

وَقَالَ تَعَالَى﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُوْنَ مِنَ الْمُفْلِحِيْنَ ﴾وَقَالَ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ الا وَارِدُهَا كان عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًا ثُمَّ نُنَجِّيْ الذِيْنَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظالِمِيْنَ فِيْهَا جثيًا ﴾وَقَالَ ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾ الآية ، وَمِنْ الْمُخَوِّفَاتِ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ والعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِيْ خُسْرٍ ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ أَرْبَعَةَ شُرُوْطٍ بِهَا يَقَعُ الخَلَاصُ مِنَ الخُسْرَانِ .

وَهَذِهِ الآيَاتُ وَنَحْوُهَا هِيَ التِيْ أَقَضَّتْ مَضَاجِعَ السَّلَفِ ، فَلَمْ يَهْنَئُوْا بنَوْمٍ وَلَمْ يَسْتَلِذوا طَعَاماً وَأَنْحلَتْ أَجْسَامَهُمْ ، وَأَضَرَّتْ بِعُيُونِهم مِن كَثْرَةِ البُكاءِ عَلى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ تَتَجَافَى جُنُوْبُهُم عَنْ المَضاجِعِ يَدْعُوْنَ رَبَّهُم خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُوْنَ ﴾ . وقَوْله ﴿ والذين يُؤْتُوْنَ ما آتَوْا وَقُلُوْبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلىرَبِهِمْ رَاجِعُوْن ﴾ .

شـعراً :

إِذَا مَــا الــلَّيْـلُ أَظْـلَمَ كَـابَـدُوْهُ
فَـيُـسْـفِـرُ عَـنْـهُـمُـوْا وَهُـمُـوْا رُكُـوْعُ
أَطَـارَ الـخَـوْفُ نَـوْمَهُمُـوْا فَـقَـامُـوْا
وَأَهْـلُ الأَمْـنِ فـي الـدُّنْـيَـا هُـجُـوْعُ
لَـهُـمْ تَـحْـتَ الـظَّلَامِ وَهُـمْ سُـجُـوْدٌ
أَنِـيْـنٌ مِـنْـهُ تَـنْـفَـرِجُ الـضُّـلُوْعُ
وَخُـرْسٌ فـي الـنَّـهَـارِ لِـطُوْلِ صَـمْـتٍ
عَـلَيْـهِـمْ مِـنْ سَـكِـيْـنَـتِـهِـمْ خُـشُـوْعُ

آخـــر :

اجْعَــل شِــعَارَكَ حَيْثُمَـا كُـنْتَ التُقـى
قَــد فَــازَ مَـن جَعَـل التُقَـى إشْعَــارَهُ
واسْــلُكْ طَــريـقَ الحـقِّ مُصْطَحِـباً بِهِ
إخْــلاصَ قـلْبَـكَ حَــارِســاً إسْــرَارَهُ
وإذا أَرَدْتُ القُــرْبَ مِــن خــيرِ الـورَى
يَــوم الــقِـيَــامَــةِ فــاتَّبِــعْ آثَــارَهُ

وَالآيَاتُ في بَابِ الخَوْفِ كَثِيْرَةٌ جِدّاً مِنْهَا مَا وَرَدَ عَنْ ابْنِ مَسْعُوْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ حَدَّثَنا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوْقُ (إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِيْنَ يَوْماً نُطْفَةً ثُمَّ يَكُوْنُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُوْنُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُرْسَلَ اَلَيْهِ اَلمَلَكُ فَيُؤمَرُ بِأَرْبَعٍ كَلِمَاتٍ بكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيْدٍ) .

فَوالذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُه إِنَّ أَحَدَكُم لَيَعْمَلُ بعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَه وَبَيْنَها الا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَليهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَها ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يكونُ بينهُ وَبَيْنَها إلا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنةِ فَيَدْخُلَها) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْهُ قَالَ قَالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ (يُؤْتَى يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُوْنَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْرّونَها) رَوَاهُ

مُسْلِم وَعَن النعْمَانِ بن بشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ (إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ لَرَجُلٌ يُوْضَعُ فِي أَخْمُصِ قَدمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِيْ مِنْهُما دِمَاغُه مَا يَرَىٰ أَنَّ أَحَداً أَشَدَّ مِنْهُ عَذَاباً وَإِنَّهُ لَاهْوَنُهُمْ عَذَاباً) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ

شعرا :

أمَا سَمِعْتَ بأكْبَادٍ لَهُمْ صَعَدَتْ … خَوْفًا مِن النار فانْحَطَّتْ إلى النَّارِ
أمَا سَمِعْتَ بِضِيْقٍ في مَكَانِهِمُوْا … ولا فِرَارَ لَهُمْ مِن صَالِيَ النَّارِ
أمَا سَمِعْتَ بِحيَّاتٍ تَدِبُّ بِهَا … إِلَيْهِمُوْا خُلِقَتْ مِن مَارِجِ النَّارِ
فيا إلهي بأحْكَام وما سَبَقَتْ … بِهِ قَدِيماً مِن الجناتِ والنَّارِ
أَدْعُوك أنْ تَحْمِي العَبْدَ الضَّعِيْفَ فما … لِلْعَبْدِ مِن جَسَدٍ يَقْوَى على النَّارِ
والشمسُ ما لي عَلَيْهَا قَطُّ من جَلَدٍ … فكَيْفَ يَصْبِرُ ذُوْ ضَعْفٍ على النَّارِ

مَـوْعِظَـةٌ

عِبَادَ اللّهِ سَيَجِيْء يَوْمٌ يَتَغَيَّرُ فِيْهِ هَذا العَالَمُ تَنْفَطِرُ فِيْهِ السَّمَاءُ وَتَنْتَثِرُ فِيْهِ الكَوَاكِبُ وَتُطْوَىٰ السَّمَاءُ كَطَيِّ الصَّحِيْفَةِ يُزِيْلُهَا اللهُ وَيَطْوِيْهَا جَلَّ وَعَلَا وَتُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأرْضِ وَيُنْفَخُ فِي الصُّوْرِ فَيَقُوْمُ النَّاسُ مِنْ قُبُوْرِهِمْ أَحْيَاءً كَمَا كَانُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا .

وحِيْنَئِذٍ يُحْشَرُ الكَافِرُ أَعْمَى لَا يَرَىٰ أَصَمَّ لَا يَسْمَعُ أَخْرَسَ لَا يَتَكَلَّمُ يَمْشِيْ عَلى وَجْهِهِ لِيَعْلَمَ مَنْ أَوَّلَ أَنَّهُ أَهْلٌ لِلإهَانَةِ وَيَكُوْنُ أَسْوَدَ الوَجْهِ أَزْرَقَ العَيْنَيْنِ فِي مُنْتَهَى العَطَشِ فِي يَوْمٍ مِقْدَارُهُ خَمْسِيْنَ أَلفَ سَنَةٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّمْسِ إِلَّا مِقْدَارُ مِيْلٍ إِذْ ذَاكَ يَقِفُ ذَاهِلَ العَقْلِ شَاخِصَ البَصَرِ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِ طَرْفُه وَفُؤَادُهُ هَوَاء وَيُعْطَى كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ فَيَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يُعْطَهُ .

ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِ إِلى النَّارِ وَيُسْلَكُ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُوْنَ ذِراعاً وَبَعْدَ دُخُولِهَا لا يَخْرُجُ أَبَداً وَلا يَزِيْدُهُ إِلا عَذاباً إِذَا اسْتَغَاثَ مِنْ العَطَشِ يُغَاثُ بِمَاءٍ كالمُهْلِ يَشْوِيْ الوُجُوْهَ وَيُذِيْبُ الأَمْعَاءَ والجُلُودَ تُحِيْطُ بِهِ جَهَنَّم مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَكُلَّمَا نَضِجَ جِلْدُهُ بُدِّلَ غَيْرَهُ .

وَلَهُ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيْدٍ ، كُلُّ هَذَا العَذَابِ يُعَانِيْهُ وَلَا يَمُوْتُ وَيَأْتِيْهُ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ومِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيْظٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿لايَمُوْتُ فِيْهَا وَلَايَحْيَا﴾ وَسَوَاءٌ صَبَرَ أَوْ لَمْ يَصْبِرْ هُوَ خَالِدٌ في هَذَا العَذَابِ خُلُوْداً لا نِهَايَةَ لَهُ هَذَا أَقْصَى عَذَابٍ يُتَصَوَّرُ لأَنهُ جَزَاءُ أَقْصَى جَرِيْمَةٍ هِيَ الكُفْرُ باللهِ هَذَا عَذَابٌ مُجَرَّدُ تَصَوُّرِهِ يُطِيْشُ العُقُوْلَ وَيُذْهِلُ النُّفُوْسَ وَيُفَتِّتُ الأَكْبَادَ فَاسْتَعِذْ باللهِ مِنهُ أَيُّهَا المُؤْمِنُ وَاسْأَلِ اللهَ التَّثْبِيْتَ عَلى الاسْلَامِ وَحُسْنِ الاعْتِقَادِ .

آخـر :

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْماً فَلا تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيْـبُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفَـلُ سَاعَـةً ... وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْـهِ يَغِيْـبُ
لَهَوْنَا لَعَمْرُ اللهِ حَتَّى تَتَابَعَتْ ... ذُنُوْبٌ عَلَى آثَـارِهِنَّ ذُنُـوْبُ
فَيَالَيْتَ أَنَّ اللهَ يَغْفِـرُ مَا مَضَى ... وَيَـأْذَنَ في تَوْبَاتِنَـا فَنَتُـوْبُ
أَقُوْلُ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيَّ مَـذَاهِبِي ... وَحَلَّ بِقَلْبِي لِلْهُمُومِ نُـدُوْبُ
لِطُوْلِ جِنَايَـاتِيْ وَعُظمِ خَطِيْـئَتِيْ ... هَلكْتُ وَمَالِيْ في المَتَـابِ نَصِيْبُ
وَيُذْكِرُنِيْ عَفْوُ الكَرِيْمِ عَنْ الوَرَى ... فَأَحْيَـا وَأَرْجُـوْ عَفْوَهُ وَأُنِيْـبُ

فَـاخْضَـعُ في قَــوْلِـيْ وَأَرْغَبُ سَـــائِـلاً
عَـسَى كَــاشِـفُ الـبَـلْوَى عَـلَيَّ يَـتُــوْبُ

اللَّهُمَّ اهْدِنَا لِصَالِحِ الأَعْمَالِ وَالأَخلاَقِ لاَ يَهْدِي لأَحْسَنِهَا الاّ أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنَّا سَيِّءَ الأَعْمَالِ وَالاخْلاَقِ لاَ يَصْرِفُ عَنَّا سَيِئَهَا إِلاَّ أَنْتَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُوْلَ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ قالَ (يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ في الارْضِ سَبْعِيْنَ ذِرَاعاً وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذانَهم) مُتَّفَقٌ عليه وَعَنْه قالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ (هَلْ تَدْرُوْنَ مَا هَذَا قُلْنَا اللّهُ ورَسُوْلُهُ أَعْلَمُ قَالَ هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ في النَّارِ مُنْذُ سَبْعِيْنَ خَرِيْفاً فَهُوَ يَهْوِي في النَّارِ الآنَ انْتَهَى إلى قَعْرِهَا فَسَمِعْتُمْ وَجْبَتَهَا) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وسَلم يَقُوْلُ (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً قُلْتُ يَا رَسُوْلَ اللهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَمِيْعاً يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ قَالَ يَا عَائِشَةُ الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَهُمَّهُمْ ذَلِكَ) وَقَدْ مَدَحَ اللهُ الخَائِفِيْنَ مِنْهُ وَاثْنَى عَلَيْهِم في كِتَابِهِ فَقَالَ ﴿إِنَّ الذِيْنَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ الى قولِهِ ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُوْنَ في الخَيْراتِ وهُمْ لَها سَابِقُوْنَ﴾ .

وَفي المُسْنَدِ وَالتِّرمِذِيّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ قُلْتُ يَا

رَسُوْلَ اللهِ قَوْلُ الله ﴿وَالذِيْنَ يُؤْتُوْنَ مَا آتَوْا وقُلُوْبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُوْنَ﴾ أَهُوَ الذِي يَزْنِيْ وَيَشْرَبُ الخَمْرَ وَيَسْرِقُ قَالَ لا يَا بْنَةَ الصِّدِّيْقِ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُوْمُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُ قَالَ الحَسَنُ عَمِلُوْا وَاللهِ بالطَّاعَاتِ وَاجْتَهَدُوْا فِيْهَا وَخَافُوْا أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ إنَّ المُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَاناً وَخَشْيَةً والمنَافِقَ جَمَعَ اسَاءَةً وَأَمْناً .

وَمِمَّا وَرَدَ في فَضَائِلِ الخَوْفِ مَا في الصَّحِيْحَيْنِ عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَة رضي اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُوْلُ ﴿سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللّهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ الا ظِلُّهُ الامَامُ العَادِلُ وشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ورجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالمسَاجِدِ وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا في اللهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفرَّقَا عَلَيْهِ ورجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَال إِنِّيْ أَخَافُ اللَّهَ ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِيْنُه ورَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ﴾

وَمِمَّا وَرَدَ في فَضِيْلَةِ الخَوْفِ مَا في الحَدِيْثِ الآخَرِ عَنْ النَّبِي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ أنهُ قَالَ إِذَا اقْشَعَرَّ جِلْدُ العَبْدِ مِنْ مَخَافَةِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَحَاتُّ ذُنُوْبُهُ كَمَا يَتَحَاتُّ عنْ الشَّجَرَةِ اليَابِسَةِ ورَقُهَا وَقَالَ صَلى اللهُ عليه وسَلم لا يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعُوْدَ اللبَنُ في الضَّرْعِ ولا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ في سَبِيْلِ اللهِ ودُخَانُ جَهَنمَ في مِنْخَرَيْ مُسْلِمٍ رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ .

وَرَوَى ابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ وَالبَيْهَقِيّ في الشُّعَبِ منْ حَدِيْثِ أَبي هُرَيْرَة أن النبي صَلى اللهُ عليهِ وسَلم قال فِيْمَا يَرْوِيْهِ عَنْ رَبِّهِ قَالَ اللهُ سُبْحَانه وَتَعالى وَعِزَّتِيْ وَجَلاَلِيْ لاَ أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِيْ خَوفَيْنِ ، وَلاَ أَجْمَعُ

لَهُ أَمْنَيْنِ انْ أَمِنَنِيْ في الدنْيَا أُخِفْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَانْ خَافَنِيْ في الدُّنْيَا أَمَّنْته يَوْمَ القِيَامَةِ .

وَمَقَامَاتُ الخَوْفِ تَخْتَلِفُ فَمِنْهُمْ مَنْ يَغْلِبُ على قَلْبِهِ خَوْفُ المَوْتِ قَبْلَ التَّوبَةِ وَالخُرُوْجِ مِنْ المظَالِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ خَوفُ الاسْتِدْرَاجِ بالنِّعَمِ أوْ خَوْفُ المَيْلِ عَنْ الاسْتِقَامَةِ على مَا يُرْضِيْ اللّهِ ، وَقِسْمٌ يَغْلُبُ عَلَيْهِ خَوْفُ خَاتِمَةِ السُّوْءِ وَالعِيَاذُ باللّهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَعْلَى مِنْ هَذَا خَوْفُ السَّابِقَةِ لأنَّ الخَاتِمَة فَرْعُ السَّابِقَةِ ، وَقَدْ قَالَ هَؤلاءِ في الجَنَّةِ وَلاَ أُبَالِيْ وَهَؤُلاَءِ في النَّارِ وَلاَ أُبَالِيْ .

وَمِنْ أَقْسَامِ الخَائِفِيْنَ مَنْ يَخَافُ سَكِرَاتِ المَوْتِ ، وشِدَّتِهِ لاَ سِيَّمَا اذَا كَانَ قَدْ عَايَنَ مَنْ يُعَانِيْ سَكَرَاتِ المَوْتِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخَافُ عَذَابَ القَبْرِ ، وسُؤَالَ مُنْكَرٍ وَنَكِيْرٍ ، وَمِنْهُمْ مِنْ يَخُافُ هَيْبَةَ الوُقُوْفِ بَيْنَ يَدَيْ اللهِ عَزَّ وَجلَّ ، وَالخَوْفُ مِنْ مُنَاقَشَةِ الحِسَابِ ، وَالعُبُوْرِ على الصِّرَاطِ وَالخَوْفِ مِنْ النَّارِ وَأَنْكَالِهَا وَأَهْوَالِهَا أَوْ حِرْمَانِ الجَنَّةِ أَوْ الحِجَابِ عَنْ اللهِ تَعَالى وهُوَ خَوْفُ العَارِفِيْنَ .

وما قَبْلَ ذَلِكَ هُوَ خَوْفُ الزَّاهِدِيْنَ والعَابِدِيْنَ ، وخَوْفُ عُمُومِ الخلقِ يَحْصُلُ بِأَصْلِ الايْمَانِ بالجَنَّةِ وَالنَّارِ وَكَوْنِهِمَا دَارَيْ جَزَاءٍ عَلَى الطَّاعَةِ والمعْصِيَةِ وَضَعْفُ هَذَا الخَوْفِ بِسَبَبِ الغَفْلةِ والرُّكُوْنِ إلى الدُّنْيَا ، والانْهِمَاكِ فِيْهَا ، وَضَعْفِ الايْمَانِ ، وَتَزُوْلُ تِلْكَ الغَفْلَةُ بِالتَّذَكُّرِ وَالوَعْظِ وَالارْشَادِ وَمُلازَمَةِ الفِكْرِ في أَهْوَالِ يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَشَدَائِدِهَا ، وَالعَذَابِ في الآخِرَةِ وَبالنَّظَرِ إلى الخَائِفِيْنَ وَمُجَالَسَتِهِمْ وَمُشَاهَدَةِ أَحْوَالِهِمْ فَانْ فَاتَتْ المُشَاهَدَةُ فَالنَّظَرُ في سِيْرَةِ الصَّالِحِيْنَ الذِيْنَ غَلَبَ عَلَيْهِمْ الخَوْفُ قَالَ اللّهُ تَعَالى ﴿ الذِيْنَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجلَتْ قُلُوْبِهِمْ ﴾

وَقَالَ ﴿اللهُ الذِي نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيْثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُوْدُ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهم ثم تَلِيْنُ جُلُوْدُهُم وَقُلُوْبُهم إلى ذِكْرِ اللهِ﴾ وقَالَ ﴿الذِيْنَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ وَأَخْبَرَ عَمَّا يَقُولُوْنَهُ بَعْدَ دُخُوْلِهِمْ الجَنَّةَ ﴿إِنَّا كنَّا قَبْلُ في أَهْلِنَا مُشْفِقِيْنَ﴾

شعـراً :

يـا نَفْـسُ كُفِـي فَطُـولُ العُمـرِ في قِصَـرِ
وما أَرىَ فِيـكِ لِلتَّـوبِيـخِ مِن أَثَـرِ
يا نَفْسُ قَضَيْتُ عُمْري في الذُنُوب وقَدْ
دَنَـا المـمـاتُ ولـم أَقْضِ مِنْ الـوَطَـرِ
يـا نَفْسُ غَـرَّكِ مِن دُنْيَـاكِ زُخْـرُفُهَا
ولـم تَـكُوني بهَـوْلِ المـوتِ تَعْتَبِري
يـا نَفْسُ بـالَغْـتِ بالعِصـيانِ غـاويَـةً
ولَـمْ تُبَالِي بتَـحْـذِيْرٍ ومُـزْدَجَـرِ

آخر:

يَا مَنْ يُجِيْبُ دُعَا المُضْطَرِّ في الظُّلَمِ
يَا كَاشِفَ الضُّرِّ وَالبَلْوَى مَعَ السِّقَمِ
قَدْ نَامَ وَفْـدُكَ حَوْلَ البَيْتِ وَانْتَبَهُـوا
وَأَنْتَ عَيْنُـكَ يَـا قَيُّـوْمُ لَـمْ تَنَـمِ
هَبْ لِيْ بِجُوْدِكَ فَضْلَ العَفْوِ عَنْ جُرَمِيْ
يَـا مَنْ إليـه أشَـارَ الخَلْقُ في الحَـرَمِ
إنْ كَانَ عَفْوُكَ لاَ يُـدْرِكُهُ ذُوْ سَـرَفٍ
فَمَنْ يَجُـوْدُ عَلى العَاصِيْنَ بـالكَـرَمِ

اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا كِتَابَكَ وَارْزُقْنَا العَمَلَ بِمَا أَوْدَعْتَهُ فِيهِ وَاجْعَلْهُ لِقُلُوبِنَا ضِيَاءً وَلأَسْقَامِنَا دَوَاءً وَلأَبْصَارِنَا جَلاءً وَلِذُنُوبِنَا مُمَحِّصاً وَعَنِ النَّارِ مُخَلِّصاً وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللَّهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَعَلى العَاقِلِ النَّاصِحِ لِنَفْسِهِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ مُجَالَسَةِ الظَّلَمَةِ الأَطْغِيَاءِ وَالجَهَلَةِ مِمَّنْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ الأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ حَتَّى كَأَنَّهم حُوسِبُوا وَفُرِغَ مِنْهُم ، فَلَمْ يَخْشَوْا بَطْشَ اللَّهِ ، وَسَطْوَتَهُ وَلا نَارَ العَذَابِ وَلاَ بُعْدَ الحِجَابِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَلاَ تَكُوْنُوا كَالذِيْنَ نَسُو اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمْ الفَاسِقُوْنَ﴾ .

وَقَالَ تَعَالى﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾فَهذارَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم سَيِّدُ الأَوَّلِيْنَ وَالآخِرِيْنَ كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ خَوْفاً فَفِيْ الصَّحِيْحِ أَنَا أَعْلَمُكُم باللهِ وَأَشَدُّكُم لَهُ خَشْيَةً .

وَفي صَحِيْحِ البُخَارِيْ عَنْ أُمِّ العَلاَءِ امْرَأَةٌ مِنَ الانْصَارِ أَنَّهُمْ اقْتَسَمُوا المهَاجِرِيْنَ أَوَّلَ مَا قَدِمُوا عَلَيْهِمْ بِالقُرْعَةِ ، قَالَتْ فَطَارَ لَنَا - أَيْ وَقَعَ - فِي سَهْمِنَا عُثْمَانُ بنُ مَظعُونٍ مِنْ أَفْضَلِ المهَاجِرِيْنَ وَأَكَابِرِهِمْ ، وَمُتَعَبِّدِيْهِمْ وَمِمَّنْ شَهِدَ بَدْراً .

فَاشْتَكَى فَمَرَّضْنَاهُ حَتَّى إِذَا تُوفِّي وَجَعَلْنَاهُ في ثِيَابِهِ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقُلْتُ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللهُ تَعالى ، فَقَالَ لِيْ رَسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وسلم وَمَا يُدْرِيْكِ أَنَّ اللهَ أَكْرَمَهُ فَقُلْتُ لا أَدْرِيْ بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّيْ يَا رَسُوْلَ اللَّهِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَّا عُثْمَانُ فَقَدْ جَاءَهُ اليَقِيْنُ ، وَاللهِ إِنِّي لأَرْجُوْ لَهُ الخَيْرَ ، أَيْ فَالانْكَارُ عَلَيْهَا مِنْ حَيْثُ جَزْمِهَا بِتِلْكَ الشَّهَادَةِ مِنْ غَيْرِ مُسْتَنَدٍ قَطْعِيّ ، فَكَانَ اللائِقُ بها أن تَأتِي بهَا في صِيْغَةِ الرَّجَاءِ لا الجَزْمِ كمَا فَعلَ صَلى الله عليه وسلم .

قُلْتُ وَكَثِيْراً مَا أَسْمَعُ وَأَرَى في الكُتُبِ قَوْلَ بَعْضِ النَّاسِ « المَرْحُوْمَ » أو « المَغْفُوْرُ لَهُ » وَلاَ أَدْرِيْ مَا هُوَ مُسْتَنَدُهُمْ بإيْرَادِهَا بِصِيْغَةِ الجزْمِ وَالأَوْلَى أَنْ يُقَالَ المرْجُو لَهُ الرَّحْمَةُ وَالغُفْرَانُ ا هـ .

ثُمَّ قَالَ صَلى اللهُ علَيه وسَلم مَا أَدْرِي ، وَأَنَا رَسُولُ اللهِ مَا يَفْعَلُ بِيْ قَالَتْ فَوَاللهِ لاَ أُزَكِّيْ أَحَداً بَعْدَهُ ، أَيْ عَلَى جِهَةِ الجَزْمِ وأَمَّا عَلى جِهَةِ الرَّجَاءِ وحُسْنِ الظَّنِّ باللهِ فَجَائِزٌ ، قَالَتْ وَأَحْزَنَنِيْ ذلكَ فَنِمْتُ فَرَأَيْتُ لِعُثْمَانَ عَيْنا تَجرِي فَجِئْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم فَقَالَ ذَلِكَ عَمَلُهُ » .

ولَمَّا تُوُفِيَ عِثْمَانُ هَذَا قَبَّلَ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم خَدَّهُ ، وبَكَى حَتَّى سَالَتْ دُمُوْعُهُ الكَرِيْمَةُ عَلى خَدِّ عُثْمَانَ ، وبَكَى القَوْمُ فَقَال النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم اذهبْ عَنهَا أيْ الدُنْيَا أَبَا السَّائِبِ لقدْ خَرَجْتَ عَنْهَا وَلَمَ تَلَبَّسْ بِشَيءٍ وَسَمَّاهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم السَّلَفَ الصَّالِحَ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ قُبِرَ بالبَقِيْعِ رَضيَ اللهُ عنه .

فَتَأَمَّلْ زَجْرَهُ صلى اللهُ عليه وسلم عَنْ الجَزْمِ بالشَّهَادَةِ على عَثْمَانَ هَذا مَعَ كَوْنِه شَهِدَ بَدْراً وَقولِهِ وَما يُدْرِيْكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ ، وكَوْنِهِ قَبَّلَهُ وَبَكَى وَوَصْفِهِ لَهُ

بأعْظَم الأوْصَافِ وَهُوَ أنَّهُ لَمْ يَتَلَبَّسْ مِنَ الدُّنْيَا بِشَيءٍ وبأَنَّـهُ السَّلِفُ الصَّالحُ ، تَعْلَمْ أنَّهُ يَنْبَغِيْ لِلْعَبْدِ وَإنْ عَمِلَ مِن الطَّاعَاتِ مَا عَمِلَ أنْ يَكُونَ عَلى حَيِّزِ الخَوْفِ والخَشْيَةِ مِن اللهِ تعالى .

شعـــراً :

يـا رَبِّ هَــيِّءْ لَنَـا مِنْ أمْـرنا رَشَــدَا
واجْعَـلْ مَعُـونَتَـكَ العُظْمَـى لَنَـا سَـنَدَا
ولا تَكِـلْنَـا إلـى تَـدْبـيْرِ أنْفُسَـــنِـا
فَالعَبْـدُ يَعْجَزُ عن اصْلاحِ مـا فَسَدَا
أنْـتَ الـعـليمُ وقـد وَجَّـهْـتُ يـا أمَـلي
إلَـى رَجَـائِـكَ وَجْهـاً سَـائِــلا أبَـــداً
ولِـلـرَّجَـاء ثــوابٌ أنْـتَ تَعْـلَمُـــه
فاجْعَـلْ ثَـوابِـي دَوامَ السِّـتْرِ لـيْ أبَـدَا

وَرَوَى شَدَّادُ بنُ أوْسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم الكَيِّسُ مَن دَانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ ، والعَاجِزُ مَنْ أتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وتَمَنَّى عَلى اللهِ الأمَانِي.

وَقَالَ عَلِيُ بنُ أبي طَالِبٍ وقَدْ سَلَّمَ مِن صَلاةِ الفَجْرِ وقَدْ عَلَتْهُ كآبَةٌ وهُوَ يُقَلِبُ يَدَهُ ، لَقَدْ رَأيْتُ أصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلى اللهُ عليه وسَلَّمَ ، فَلَمْ أرَى شَيْئاً يُشْبِهُهُمْ اليَوْمَ ، لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً صُفراً غُبْراً ، بَيْنَ أعْيُنِهِم أمْثال رُكبِ المِعْزَى ، قَدْ بَاتُوا لِلهِ سُجَّداً ، وقِيَاماً يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ يُرَاوِحُوْنَ بَيْنَ جِباهِهِم وأقْدامِهِمْ .

فإذَا أصْبَحُوْا ذَكَرُوْا اللهَ ، فَمَادُوْا كَمَا يَمِيْدُ الشَّجَرُ فِي يَوْمِ الرِّيْح

وهَمَلَتْ أعيُنُهُمْ بالدُمُوْعِ حَتَّى تَبُلَّ ثِيَابهُم ، واللَّهِ كأنيْ بالقَوْمِ غَافِلِيْنَ .

ثم قَامَ فَمَا رُؤْيَ بَعْدَ ذَلِكَ ضَاحِكَا حَتَّى مَاتَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

شعرا :

لِلَّـهِ دَرَّ رِجَـالٍ وَاصَـلُوا السَّـهَرَا
واسْتَعْذَبُوا الـوجْدَ والتَّبرِيحَ والفِكَرَا

فَهُـمْ نُجـومُ الهُدى والليـلُ يَعْرفُهُم
إذا نَظَـرْتَهُـمُوْا هُـمْ سَـادَةُ بُـرَرَا

كُـلُّ غَـدَا وَقْتُـهُ بالـذِكْـرِ مُشْتَغِـلا
عَمَّـا سِـوَاه ولِـلَّـذَاتِ قَـدْ هَجَـرَا

يُمْسِـي ويُصْبَحُ فـي وجْدٍ وفـي قـلَقٍ
مِمَّـا جَنَـاهُ من الـعِصـيانِ مُنْـذَعِـرَا

يَقُـولُ يَـا سَيِّدِيْ قَـدْ جِئْتُ مُعْـتَرِفـاً
بالـذَنْـب فاْغْفِـرْهُ لِيْ يَـا خَيْرَ مَنْ غفَـرا

حَمَلْتُ ذَنْـبـاً عَظِيمـاً لا أطِـيْـقُ لَـهُ
ولَـمْ أطِـعْ سَيِّدِي فـي كُـلِّ مـا أمَـرَا

عَصَـيْتُـهُ وهـو يُـرْخِـيْ سِـتْرَهُ كَـرَمـاً
يـا طَـالَمـا قَـدْ عفَـا عَـنِّي وقَـدْ سَـتَرَا

وطَـالَمـا كـان لِـيْ فـي كُـلِّ نـائِـبَـةٍ
إذا اسْتَغَثْـتُ بـه مِـن كُـرْبَـةٍ نَصَـرَا

وإنِّي تَـائِـبٌ مِمَّـا جَـنَـيْتُ وقَـدْ
وافَـيْـتُ بَـابَـكَ يَـا مَـوْلاَيَ مُعْـتَـذِرا

لَعَـلَّ تَقْبَـلُ عُـذْري ثـم تَجْـبُرنـي
يَـومَ الحِسَـاب إذا قُـدِّمْـتُ مُنْكَسِـرَا

وقَــدْ أَتَـيْــتُ بِــذُلٍ رَاجِيــاً كَــرَمـاً
إِلَيْـكَ يـا سَــيِّدِي قـد جِئْتُ مُفْتَقِـرَا

ثـم الـصــلاة عـلى المـخـتــارِ سَــيِّدِنَـا
عِـدادَ مـا غَـابَ مِـن نَجْـمٍ ومـا ظَهَـرَا

وقَالَ مُعَاوِيَةُ لِضِرَارِ بْنِ حَمْزَةَ الصُّدَائِيّ ، صِفْ عَلِياً ، قَالَ أَلَا تُعْفِيْنِي ، قَالَ بَلْ صِفْهُ ، قَالَ أَلَا تُعْفِيْنِي ، قَالَ لَا أُعْفِيْكَ ، قَالَ أَمَا إنه لَا بُدَّ .

فَإِنَّهُ كَانَ بَعِيْدَ المَدَى ، واسِعَ العُلُومِ والمَعَارِفِ ، لا تُدْرَكُ غَايَتُهُ فِيْهِمَا شَدِيْدُ القُوَى في ذَاتِ اللهِ ، ونَصْرَةِ دِيْنِهِ ، يَقُولُ فَصْلاً ، ويَحْكُمُ عَدْلاً ، يَنْفَجِرُ العِلْمُ مِن جَوَانِبِه ، وتَنْطِقُ الحِكْمَةُ مِنْ نَوَاحِيْهِ ، يَسْتَوْحِشُ مِن الدُّنْيَا ، وزَهْرَتِهَا ، ويَسْتَأنِسُ بِاللَّيْلِ وظُلْمَتِهِ .

كَانَ وَاللهِ غَزِيْرَ الدَّمْعَةِ ، طَوِيْلَ الفِكْرِ ، يُقَلِّبُ كَفَّهُ ، تأَسُفاً وَحَزَناً ، إِذْ هَذا .

فِعْـلُ المُتَاسِفِ الحَـزِيْنِ ، ويُخَـاطِبُ نَفْسَـهُ ، بِـالمُـزْعِجَـاتِ ، والمَقْلِقَاتِ ، يُعْجِبُهُ مِن اللِّبَاسِ مَا خَشُنَ ، ومِن الطَّعَامِ مَا حَضَرَ .

كانَ واللهِ كَأَحَدِنَا ، إِذَا سَأَلْنَاهُ ، ويَأْتِيْنَا إذا دَعَوْنَاهُ ، ونَحْنُ واللهِ مَعَ تَقَرُّبِهِ لَنَا وقُرْبِهِ مِنَّا لَا نُكَلِّمُهُ هَيْبَةً لَهُ ، فإِنْ تَبَسَّمَ فَعَنْ مِثْلِ اللُّؤْلُؤِ المَنْظُومِ ، يُعَظِّمُ أَهْلَ الدِّيْنِ ويُحِبُ المَسَاكِيْنَ ، ولَا يَطْمَعُ القَوِيُ في بَاطِلِهِ ولا يَيْأَسُ الضَّعِيْفُ مِن عَدْلِهِ .

وَاشْهَدُ باللهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُ في بَعْضِ مَواقِفِهِ ، وَقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُتُوْرَهُ ، وغَارَتْ نُجُوْمُهُ ، وقَدْ تَمَثَّلَ في مِحْرَابِهِ ، قَابِضاً على لِحْيَتِهِ ، يَتَمَلْمَلُ

تَمَلْمُلَ اللَّدِيْغِ ، ويَبْكِي بُكَاءَ الحَزِيْنِ ، وكَأَنِّي سَمِعْتُه يَقُولُ يَا رَبَّنَا يا ربّنا يَضْرَعُ إليهِ .

ثم يقُولُ يا دُنْيَا يا دنيا إِلَيَّ تعَرَّضْتِ أَمْ تَشَوَّقْتِي هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي ، وَقَدْ بَتَتُّكِ ثَلاثاً لاَ رَجْعَةَ لِيْ فِيْكِ فعُمْرُكِ قَصِيرٌ ، وَعَيْشُكِ حَقِيْرٌ وَخَطَرُكِ كَبِيْرٌ ، آهٍ مِن قِلَّةِ الزَّادِ ، وبُعْدِ السَّفَرِ ، وَوَحْشَةِ الطَّرِيْقِ ، فَذَرَفَتْ عَيْنُ مُعَاوِيَةَ عَلَى لِحْيَتِهِ ، فَمَا مَلَكَهَا وَهو يُنَشِّفُهَا بِكُمِّهِ ، وَقَدْ اخْتَنَقَ القَوْمُ بِالبُكَاءِ .

قال مُعَاوِيَةُ رَحِمَ اللهُ أَبَا الحَسَنِ كانَ واللهِ كَذَلِكَ ، فَكَيْفَ حَزَنُكَ عَلَيْهِ يا ضِرَارُ قال حُزْنُ مَن وَاجِدُهَا في حَجْرِهَا فلا تَرَقا عَبْرَتُهَا ولا يَسْكُنُ حُزْنُهَا .

وقال أَبُو ذَرٍ وَدِدْتُ لَوْ أَنِّيْ شَجَرَةٌ تُعْضَدُ وَكَذَا قَالَ طَلْحَةُ ابنُ عُبَيْدِ اللهِ أَحَدُ العَشَرَةِ.

وَقَالَ عِمْرانُ بنُ حُصَيْنٍ وَدِدْتُ أَنْ أَكُونَ رَمَاداً تَنسفُهُ الرِّياح .

وكان عليُ بنُ الحُسَيْنِ إِذَا تَوَضأَ اصْفَرَّ لَوْنُهُ ، فَيَقُولُ لَهُ أَهْلُهُ مَا هَذَا الذيْ يَعْتَادُكَ عنْدَ الوُضُوءِ ، فيقولُ أَتَدْرُوْنَ بَيْنَ يَدَيْ مَن أُرِيْدُ أنْ أَقُومَ ، وسُئِلَ ابنُ عَبَاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن الخَائِفِينَ ، فَقَالَ قلُوبُهُم، بِالخَوْفِ قَرِحَةٌ ، وأعيُنُهُم بَاكِيةٌ ، يقولُونَ كَيْفَ نَفْرَحُ والموتُ مِن ورائنا ـ ، والقبرُ أَمامنا والقيامةُ موعدُنا ، وعلى جهنَّمَ طَرِيْقُنَا وَبَيْنَ يَدَي اللهِ مَوْقِفُنَا ، وهَذَا مِنْهُ بَيَانٌ عَنْ الخَائِفِيْنَ بِحَسَبِ حَالِهِ رَحِمَهُ اللهُ .

شعــراً :

وما مَن يَخافُ البَعْثَ والنارَ آمِنٌ ... ولكن حَزِينٌ مُوجَعُ القلب خائِـفُ
إذا مَرَّ ذِكْـرُ المـوتِ أَوجَـعَ قَـلْبَهُ ... وهَيَّجَ أَحْـزَانًا ذُنُـوبٌ سَـوَالِـفُ

وَمَرَّ الحسَنَ البَصْرِيُ رَحِمَهُ اللهُ بِشَابٍ وَهُوَ مُسْتَغْرِقٌ في ضِحْكِهِ جَالِسٌ مَعَ قومٍ ، فَقَالَ لَهُ الحَسَنُ يَا فَتى هَلْ مَرَرتَ بِالصِّرَاطِ ، قَالَ لاَ ، فقالَ فَهَلْ تَدْرِيْ إلى الجنةِ تَصِيْرُ أَمْ إلى النَّارِ ، قال لاَ ، قَالَ فَمَا هَذَا الضَّحِكُ ، قَالَ فَمَا رُؤِيَ ذَلِكَ الفَتَىٰ بَعْدَهَا ضاحكا .

وَرُوِيَ عَن مَيْسَرَةَ ابنِ أَبِيْ مَيْسَرَةَ أَنَّهُ كَانَ إذَا أَوى إلى فِرَاشِهِ يقولُ يا لَيْتَنِيْ لم تَلدنِي أُمِّي ، فقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ حِيْنَ سَمِعَتْهُ يَا مَيْسَرَةُ إن اللهَ قَدْ أَحْسَنَ إلَيْكَ ، هَدَاكَ لِلإِسْلَامِ ، قَالَ أَجَلْ ولكنَّ اللهَ قد بَيَّنَ لَنَا أنا وَارِدُوْنَ على النارِ ، ولَمْ يُبَيِن لَنَا أنا صَادِرُوْنَ عَنْهَا أي لاَ جَزمَ عِنْدَهُ أنه مِن المُتقِينَ النَاجِيْنَ فَلِذَا اشْتَدَّ خَوْفُهُ مِنْهَا .

وكان عَطَاءُ السُلَمِي مِنَ الخَائِفِيْنَ ، وقِيْلَ لَهُ في مَرَضِهِ أَلاَ تَشْتَهِيْ شَيْئاً ، فقَالَ إنْ خَوْفَ جَهَنَّمَ لَمْ يَدَعْ فِي قَلْبِي مَوْضِعاً لِلشَّهْوَةِ .

وقِيْـلَ لِبَعْضِهِمْ لِمَاذَا إذَا وَعَظَ بَعْضُ النـاسِ خَـوَّفَ وأَبْكَى ، وبَعْضُهُم يَتَكَلَّمُ وَيَبْكِيْ وَيُخَوِّفْ ولا يَبْكُوْنَ ، فَقَالَ لَيْسَتِ النائِحَةُ الثُكْلَى كالنائِحَةِ المُسْتَأجَرَةِ .

وَحَكَى أَنَّ قَوْماً وَقَفُوْا بِعَابِدِ وَهُوَ يَبْكِي فَقَالُوا مَا الذِي يُبْكِيْـكَ يَرْحَمُكَ اللهُ قَالَ قَرْحَةٌ يَجِدُهَا الخَائِفون في قُلُوبِهِم قالُوا وَمَا هِيَ ، قالَ رَوْعَةُ النِّدَاءِ بالعَرْضِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجلَّ .

وقال مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عنه ، إنَّ المُؤْمِنَ لا يَسْكُنُ رَوْعُهُ ، حَتَّى يَتْرِكَ جَسْرَ جَهَنَّمَ وَرَاءَهُ ، هَذِهِ نَمَاذِجُ مِن مَخَاوِفِ السَّلَفِ ، ونحنُ أَجْدَرُ بالخَوْفِ مِنْهُم ، لَكِنْ لَيْسَ بكَثْرَةِ الذُنُوبِ بل بِصَفَاءِ القُلُوبِ وَكَمَالِ المَعْرِفَةِ .

وإلَّا فَلَيْسَ أَمْنُنا وَعَدَمُ خُشُوعِنَا لِقِلَّةِ ذُنُوبِنَا ، وَكَثْرَةِ طَاعَاتِنَا ، بَلْ قَادَتْنَا شَهَوَاتُنَا وَغَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وإنهما كُنَا في الدُّنْيَا وزِيْنَتِها وَصَدَّتْنَا عَن مُلاحَظَةِ أَحْوَالِنَا غَفْلَتُنَا وَقَسْوَتُنَا فلا بِقُرْبِ الرَّحِيْلِ نَنْتَبِهُ ، ولا بِكَثْرَةِ الذُنُوبِ نَتَحَرَّكُ، ولا بِمُشَاهَدَةِ أَحْوالِ الخائِفِيْنَ تَخَوَّفْنَا وَلَا بِخَطَرِ الخَاتِمَةِ انْزَعجْنَا ، فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَتَدارَكَنَا بِلُطْفِهِ وإِحْسَانِهِ وأَنْ يَجُودَ عَلَيْنَا بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْر .

أَجَلُ ذُنُوبِي عِنْدَ عَفْوِكَ سَيِّدِيْ
حَقِيْرٌ وإِنْ كَانَتْ ذُنُوبِي عَظَائِمَا
وما زِلْتَ غَفَّاراً وَمَا زِلْتَ رَاحِمَاً
وما زِلْتَ سَتَّاراً عَلَيَّ الجَرَائِمَا
لَئِنْ كُنْتُ قَدْ تَابَعْتُ جَهْلِيَ في الهَوَى
وَقَضَيْتُ أَوْطَارَ البَطَالَةِ هَائِمَا
فَهَا أَنَا قَدْ أَقْرَرْتُ يَا رَبُّ بالذِيْ
جَنَيْتُ وَقَدْ أَصْبَحْتُ حَيْرَانَ نَادِمَا

آخــر :

أَتَذْهَلُ بَعْدَ إِنْذَارِ المَنَايَا ... وقَبْلَ النَّزْعِ أَنْبَضَتِ الحَنَايَا ؟
رُوَيْدَكَ لا يَغُرُّكَ كَيْدُ دُنيا ... هِيَ المِرْنَانُ مُصْمِيَةُ الرَّمَايَا
أَتَرجُو الخُلدَ في دَارِ التَّفَانِي ... وأَمْنَ السِّرْبِ في خُطَطِ البَلايَا ؟
وتُغْلِقُ دُوْنَ رَيْبِ الدَّهرِ بَاباً ... كَأَنَّكَ آمِنٌ قَرْعَ الرَّزَايَا
وأَنَّ المَوتَ لازِمَةٌ قِرَاهُ ... لُزُومَ العَهْدِ أَعْنَاقَ البَرَايَا
لَنَا في كُلِّ يَومٍ مِنْهُ غَازٍ ... لَهُ المِرْبَاعُ مِنَّا والصَّفَايَا

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِصَالحِ الأَعْمَالِ وآتِنا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وفِيْ الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا ولِجَمِيعِ المُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فائدةٌ جليلةٌ مِن كلامِ »

« ابنِ القيم وشيخِ الاسلامِ رحمهما اللهُ »

قولُهُ تَعالَى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوْا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوْا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌ لَكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ وقولُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَانْ كَرِهْتُموْهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوَا شَيْئاً ويَجْعَلَ اللهُ فِيْهِ خَيْراً كَثِيْراً . ﴾

فالآيةُ الأُوْلَى في الجِهَادِ الذيْ هُوَ كَمَالُ القُوَّةِ الغَضَبِيَّةِ ، والثَّانِيَةُ في النِكاحِ الذي هُوَ كَمَالُ القُوَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ فالعَبْدُ يَكْرَهُ مُواجَهَةَ عَدُوِّهِ بِقُوَّتِهِ الغَضَبِيَّةِ خَشْيَةً عَلَى نَفْسِهِ مِنْهُ ، وَهَذَا المَكْرُوْهُ خَيْرٌ لَهُ في مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ ، ويُحِبُّ المُوادَعَةَ والمُتَارَكَةَ وَهَذَا المَحْبُوبُ شَرٌ لَهُ في مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ .

وَكَذَا يَكْرَهُ المَرْأَةَ لِوَصْفٍ مِن أَوْصَافِهَا وَلَهُ في إِمْسَاكِهَا خَيْرٌ كَثِيْرٌ لَا يَعْرِفُهُ وَيُحِبُّ المَرْأَةَ لِوَصْفٍ مِن أَوْصَافِهَا وَلَهُ في إِمْسَاكِهَا شَرٌ كَثِيْرٌ لَا يَعْرِفُهُ فالانسانُ كَمَا وَصَفَهُ بِهِ خَالِقُهُ ظَلُومٌ جَهُولٌ، قُلْتُ وَلَقَدْ أَجَادَ القَائِل:

إِذَا كَانَ غَيْرُ اللَّهِ لِلْمَرْءِ عُدَّةً
أَتَتْهُ الرَّزَايَا مِن وُجُوهِ المكَاسِبِ
وقَدْ جَرَّتِ الحَنْفَاءُ حَتْفَ حُذَيْفَةٍ
وكَانَ يَرَاهَا عُدَّةً لِلشَّدَائِدِ

آخر :

إذا لم يكنْ عَوْنٌ مِن الله لِلْفَتَى
فأَكْثَرُ مَا يَجْنِي عليه إِجْتِهَادُهُ

فلا يَنْبَغِي أنْ يُجْعَلَ المِعْيَارُ عَلَى مَا يَضُرُّهُ وَيَنْفَعُهُ مَيْلُهُ وَحُبُّهُ وَنُفْرَتُهُ وبُغْضُهُ ، بَلِ المِعْيَارُ عَلَى ذَلِكَ مَا اخْتَارَهُ اللهُ لَهُ بأمرِهِ ونَهْيِهِ ، فأنفعُ الأشْيَاءِ لَهُ عَلَى الاطلاقِ طَاعَةُ رَبِّهِ بظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ .

وأضَرُّ الأشْيَاءِ عَلَيْهِ عَلَى الإطْلاَقِ مَعْصِيَتُهُ بِظَاهِرِهِ وبَاطِنِهِ فإذَا قَامَ بِطَاعَتِهِ وَعُبُوْدِيَّتِهِ مُخْلِصاً لَهُ ، فَكُلُّ مَا يَجْرِي عَلَيْهِ مِمَّا يَكْرَهُهُ يَكُونُ خَيْراً لَهُ وإذا تَخَلَّى عَنْ طَاعَتِهِ وعُبُودِيَّتِهِ فَكُلُّ مَا هُوَ فِيْهِ مَحْبُوبٌ هُوَ شَرٌ لَهُ .

فَمَنْ صَحَّتْ لَهُ مَعْرِفَةُ رَبِّهِ والفِقْهِ فِي أسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ عَلِمَ يَقِيْناً أَنَّ المَكْرُوْهَاتِ التِي تُصِيْبُهُ والمِحَنَ التِيْ تَنْزِلُ بِهِ فِيْهَا ضُرُوْبٌ مِن المَصَالِحِ والمَنَافِعِ التِي لا يُحْصِيْهَا عِلْمُهُ ولا فِكْرَتُهُ بَلْ مَصْلَحَةُ العَبْدِ فِيْمَا يَكْرَهُ أعْظَمُ مِنْهَا فِيْمَا يُحِبُّ .

فَعَامَّةُ مَصَالِحِ النُفُوْسِ فِي مَكْرُوْهَاتِهَا ، كَمَا أَنَّ عامَّةَ مَضَارِّهَا وَأَسْبَابَ هَلَكَتِهَا فِي مَحْبُوْبَاتِهَا ، انْظُرْ إلى غَارِسِ جَنَّةٍ مِنَ الجَنَّاتِ خَبِيْرٍ بالفِلاَحَةِ غَرَسَ جَنَّةً وَتَعَاهَدَهَا بِالسَّقْيِ والإصْلاَحِ حَتَّى أثْمَرَتْ أشْجَارُهَا فَأقْبَلَ عَلَيْهَا يُفَصِّلُ أوْصَالَهَا وَيَقْطَعُ أغْصَانَهَا لِعِلْمِهِ أنَّهَا لَوْ خُلِّيَتْ عَلَى حَالِهَا لَمْ تَطِبْ ثَمَرَتُها ، فَيُطْعِمُهُمَا من شَجَرَةٍ طَيِّبَةِ الثَّمَرَةِ .

حَتَّى إذَا التَحَمَتْ بِهَا وَاتَّحَدَتْ وَأعْطَتْ ثَمَرَتَهَا ، أقْبَلَ يُقَلِّمُهَا ويَقْطَعُ أغْصَانَهَا الضَّعِيْفَةَ التِيْ تُذْهِبُ قُوَّتَهَا ويُذِيْقُهَا ألَمَ القَطْعِ والحَدِيْدِ لِمَصْلَحَتِهَا وكَمَالِهَا ، لِتَصْلَحَ ثَمَرَتُهَا أنْ تَكُونَ بِحَضْرَةِ المُلُوكِ ، ثُمَّ لاَ يَدَعُهَا وَدَوَاعِيْ طَبْعِهَا مِن الشُرْبِ كُلَّ وَقْتٍ ، بَلْ يُعَطِّشُهَا وَقْتاً وَيَسْقِيْهَا وَقْتاً ، ولا يَتْرُكُ عَلَيْهَا دَائِماً وإنْ كَانَ ذَلِكَ أنْضَرُ لِوَرَقِهَا وأسْرَعُ لِنَبَاتِهَا .

ثُمَّ يَعُدْ إلى تِلْكَ الزيْنَةِ التِي تَحُوْلُ بَيْنَ ثَمَرَتِهَا وَبَيْنَ كَمَالِ نَضْجِهَا واسْتَوَائِهَا ، كَمَا فِي شَجَرِ العِنَبِ وَنَحْوِهِ ، فَهُوَ يَقْطَعُ أَعْضَاءَهَا ، بالحَدِيْدِ ، ويُلْقِي عَنْهَا كَثِيْراً مِن زِيْنَتِهَا وَذَلِكَ عَيْنُ مَصْلَحَتِهَا فَلَوْ أَنَّهَا ذَاتَ تَمْيِيْزٍ وإدْرَاكٍ كَالحَيَوَانِ لَتَوَهَّمَتْ أَنَّ ذَلِكَ إِفْسَادٌ لَهَا واضْرَارٌ بِهَا ، وإنَّمَا هُوَ عَيْنُ مَصْلَحَتِهَا .

وَكَذَلِك الأَبُ الشَّفِيْقُ عَلَى وَلَدِهِ العَالِمِ بِمَصْلَحَتِهِ ، إذَا رَأَى مَصْلَحَتَهُ في أَنْ يُمْسِكَ عَنْهُ العَطَاءَ لَمْ يُعْطِهِ وَلَمْ يُوسِعْ عَلَيْهِ ، لِعِلْمِهِ أَنَّ ذَلِكَ أَكْبَرُ الأَسْبَابِ إلى فَسَادِهِ وهَلاَكِهِ .

وَكَذَلِكَ يَمْنَعُهُ كَثِيْراً مِن شَهَوَاتِهِ حُمْيَةً لَهُ وَمَصْلِحَةً لا بُخْلاً عَلَيْهِ ، فَأَحْكَمُ الحَاكِمِيْنَ وأَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ ، وأَعْلَمُ العَالَمِينَ الذِيْ هُوَ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْهُم بأَنْفُسِهِم ومِن آبَائِهِم وأُمَّهَاتِهِم ، إذا أَنْزَلَ بِهِمْ ما يَكْرَهُونَ كَانَ خَيْراً لَهُمْ مِن أنْ لاَ يُنْزِلَهُ بِهِم ، نَظَراً منه لَهُم واحْسَاناً إلَيْهِم ولُطْفاً بِهِم .

وَلَوْ مُكِنُوْا مِن الأَخْتِيَارِ لأَنْفُسِهِمْ لَعَجِزُوْا عَنِ القِيَامِ بِمَصَالِحِهِم عِلْماً وارَادَةً وَعَمَلاً ، لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ تَوَلَّى تَدْبِيْرَ أُمُورِهِم بمُوجِبِ عِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ أَحَبُّوْا أَمْ كَرِهُوْا ، فَعَرَفَ ذَلِكَ المُوقِنُونَ بأَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ فَلَمْ يَتَّهِمُوْهُ في شَيْءٍ مِن أَحْكَامِهِ وَخَفِيَ ذَلِكَ عَلَى الجُهَالِ بِهِ وبأَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ ، فَنَازَعُوهُ تَدْبِيْرَهُ وَقَدَ حُوْا في حِكْمَتِهِ ، وَلَمْ يَنْقَادُوْا لِحُكْمِهِ ، وَعَارَضُوْا حُكْمَهُ بعُقُولِهِم الفَاسِدَةِ وآرَائِهِمْ البَاطِلَةِ وسِيَاسَاتِهِم الجَائِرَةِ فَلاَ لِرَبِّهِمْ عَرَفُوْا وَلاَ لِمَصَالِحِهِمْ حَصَّلُوا ، واللهُ الموفق .

وقال الشيخُ تَقِيُ الدِيْنِ مِن تَمَامِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ المُؤْمِنِيْنَ أنْ يُنْزِلَ بِهِم مِن الضُرِ والشِدَّةِ ما يُلْجِئُهُمْ إلى تَوْحِيْدِهِ فَيَدْعُوْنَهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ

الدِّيْنَ وَيرْجُوْنَهُ ولا يَرْجُوْنَ أَحداً سِوَاهُ فَتَتَعَلَّقُ قُلُوبُهُم بِهِ لا بِغَيْرِهِ فَيَحْصُلُ لَهُمْ مِن التَّوَكُلِ عَلَيْهِ والإِنَابَةِ وَحلاَوَةِ الأيمانِ وَذَوْقِ طَعْمِهِ .

والبَرَاءَةِ مِن الشِرْكِ مَا هُوَ أَعْظَمُ نِعْمَةً عَلَيْهِم مِن زَوَالِ المَرَضِ والخَوْفِ أوِ الجُدْبِ والضُرِّ ومَا يَحْصُلُ لِأَهْلِ التَّوْحِيْدِ المُخْلِصِيْنَ لِلهِ فأعْظَمُ مِن أنْ يُعَبِّرَ عَنْهُ مَقَالٌ وَلِكُلِ مُؤْمِنٍ مِن ذَلِكَ نَصِيْبٌ بِقَدرِ إِيْمَانِهِ ولِهَذَا قِيْلَ يَا بْنَ آدَمَ لَقَدْ بُوْرِكَ لَكَ في حَاجَةٍ أَكْثَرْتَ فِيْهَا مَن قَرْعِ بَابِ سَيِّدِكَ .

وطَوْراً تَكُونُ المَصَائِبُ إِنْتِقَاماً مِن اللهِ تَعَالَى لِمُخَالَفَةِ العَبْدِ أَمْرَ رَبِهِ كَمَعْصِيَةِ آدَمَ مِن أَكْلِ الشَّجَرَةِ التِي نَهَاهُ اللهُ عن الأَكْلِ مِنها فأكْلُهُ مِن الشَّجَرَةِ مَعْصِيَةٌ جَزَاءَ عِصْيَانِهِ كَمَا أَنَّهَا تكونُ لِمَحْوِ الذُنُوبِ وتَطْهِيْرِ القُلُوبِ مِن رِجْسِ المَعَاصِي .

وَقَدْ جَاءَ في الصَّحِيْحِ عن أبي هريرة أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم قال ما يُصِيْبُ المؤمن مِن نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أَذىً ولا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إلا كَفَّرَ اللهُ تَعَالَى بِهَا مِن خَطَايَاهُ أ هـ .

والحكمةُ واللهُ أعلَمُ في ذَلِكَ أَنَّهَا مُربِيَـة لِلنُّفُوسِ وَتُمَرِّنُهَا على احْتِمَالِ الشَّدَائِدِ والصَّبْرِ الجَمِيْلُ عَلَى الإِنَاءَاتِ والرَّزَانَةِوالصَّبْـرِ على المَكَارِهِ فَتَبْلُغُ بِصَاحِبِهَا إلى أَعْلَى دَرَجَاتِ الكمالِ وبُلُوغِ الغايَاتِ لِذَلِكَ تَجِدُ الرِّجَالَ الأَمْجَادَ الذينَ هُمْ أَشَدُّ مُعَانَاةً لِلشَّدَائِدِ في حَيَاتِهِم وصَبَرُوا عَلَى المَصَائِبِ والآلامِ التي تَنَالُهُم عندَ قِيَامِهِم بالدَّعْوَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ ذِكْرُهُم باقٍ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ وأَجْرُهُم عِنْدَ اللهِ تَامٌ .

واللهُ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي مَن شَاءَ مِن عِبَادِهِ لِيُبَلِّغُهُ مَا قُدِّرَ لَهُ مِن المَنْزِلَةِ

قال الله تعالى ﴿ أمْ حَسِبْتُم أنْ تَدْخُلُوا الجنةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الذين خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ والضَّرَاءُ وزُلْزِلُوْا حَتى يَقُولَ الرسولُ والذينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ ألاَ إنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيْب ﴾ .

وَقَد وَرَدَتْ أَحَادِيْثُ مُطَمِنَةٌ لِقُلُوبِ المُؤْمِنِيْنَ ، الـذينَ تُصِيْبُهُم المَصَائِبُ في الدُنْيَا مِن ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَن كَعْبِ بنِ مالكٍ قال قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « مَثَلُ المؤمنِ كَمَثَلِ الخَامَةِ مِن الزَّرْعِ تَفيئُهَا الرِّيْحُ مَرَّةً وَتَعْدِلُها أخرَى حَتَّى تَهِيْجَ وَمَثَلُ الكَافِرِ كَمَثَلِ الأَرْزَةِ المُجذِّبَةَ على أصلِهَا لا يَفْيئُهَا شَيْءٌ يَكُونُ انْجعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً » .

وَعَن أبي هريرة رَضي اللهُ عنهُ قَال قَال رسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم مَن يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرَاً يُصِبْ مِنْهُ رَوَاهُ البُخَارِيّ وَعَنْ أنِسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلَّم اذا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ في الدُّنْيا واذَا أرادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أمْسَكَ عنهُ بِذِنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيْهِ به يَوْمَ القِيَامَةِ .

وَقَالَ النَّبِي صَلى اللهُ عليه وسلم انَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاَءِ وانَّ اللهَ تعالى اذَا أَحَبَّ قَوْمَاً ابْتَلاَهُم فَمَنْ رَضْيَ فلهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ رَوَاهُ التِّرْمِذيّ وَقَالَ حديْثٌ حَسَنٌ .

وَعَنْ جَابِرٍ مَرْفُوعَاً يَوَدُّ نَاسٌ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَّ جُلُودَهُمْ كانَتْ تُقْرَضُ بالمَقَارِيْضِ في الدّنْيا لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ البَلاَءِ .

وعَنْ سَعْدِ بنِ أبي وقّاصٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بَلاَءً قَالَ الأنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ ثُمَّ الأمْثَلُ فَالأمْثَلُ مِنَ النَّاسِ يُبْتَلِيَ الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِيْنِهِ فَإنْ كَانَ في دِيْنِهِ صَلاَبَةٌ ، زِيْدَ في بَلاَئِهِ وإِنْ كَانَ في دِيْنِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ وَمَا يَزَالُ البَلاءُ بالعَبْدِ حَتى يَمْشِي عَلَى ظَهْرِ

الأَرْضِ ولَيْسَ عليه خَطِيْئَة .

وعن أبي هُرَيْرَة يُبْتَلى المؤمنُ أو المُؤْمِنَةُ في جَسَدِهِ وفي مالِهِ وفي وَلَدِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ ومَا عَلَيْهِ خَطِيْئَةٌ صَحَّحَهُما التِّرمِذِيّ وَرَوَى الثَّانِي مَالِكٌ وَأحْمَدُ .

وَوَرَدَ مَرْفُوعَاً إنَّ المُؤمِنَ إِذَا أَصَابَهُ سقَمٌ ثُمَّ أَعْفَاهُ اللَّهُ مِنْهُ كَانَ كَفَارَةً لما مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ وَمَوعَظَة لَهُ فِيمَا يَسْتَقْبلُ وَإنَّ المُنَافِقَ إذا مَرِضَ ثُمَّ أُعْفِي كَانَ كَالبَعِيْرِ عَقَلَهُ أَهْلُهُ ثُمَّ أَرْسَلُوهُ فَلَمْ يَدْرِ لِمَ عَقَلُوهُ وَلِمَ أَرْسَلُوهُ رَوَاهُ أبو دَاوُدَ .

ثم أعلم أن إبليسَ لَعَنَهُ اللَّهُ قَدْ يَعْرِضُ لِلْمَرِيضِ والمُحْتَضَرِ فيؤذِيه في دِيْنِهِ ودُنياهُ وقد روي عن النبي ﷺ أنه كان يدعو « اللهم إني أعوذ بك مِن الغَرقِ والحَرَقِ والهَدْمِ وأعُوْذُ بكَ أن يَتَخَبَّطَنِي الشيطانُ عند الموتِ » أخرجه الطبراني .

وفي حديث آخر أن إبليس لا يكون في حالٍ أشدَّ منه على ابنِ آدم عندَ الموتِ يقول لِأعْوَانِهِ دُوْنَكُمُوهُ فإنه إن فَاتكم اليومَ لم تَلْحَقُوه .

وقد يَسْتَولِي على الإنسان حِيْنَئِذٍ فَيُضِلُّهُ في اعْتِقَادِهِ وَرُبَّمَا حَالَ بينه وبينَ التوبة وربما مَنَعَهُ مِن الخروج مِن مَظْلَمَةٍ أو أَيَّسَهُ مِن رحمةِ الله .

ويَقُولُ لَهُ قَد أقْبَلَتْ إليْكَ سَكَراتُ الموت التي لا تطيقها الجبال وَنَزْعُ الموت شديد وربما خَوَّفَه وأقلَقَهُ وأوْقَعَهُ في الوَسَاوِسَ والاعتراضِ على القدرِ والعِياذُ بالله .

فينبغي لِلْمؤمن أن يعلم أن هذا السـاعة ساعةَ خُروجِ الروُح حِيْنْ يحمى الوطِيْس فَيَتَجَلَّد وَيتصَبَّر ويَسْتَعِيْنُ بالله الحي القيوم على هذا العدو المرصد ليرجع هذا العدو خائبا .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إنَّ المؤمِنَ لَيُنْضِي شَيْطَانَهُ كما يُنْضِي أحَدُكم بعيره في السفر » .

ويعلم أن الجزع لا يفيد شيئا وعن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أنه قال ما أحب أن تُهَوَّنَ عَليَّ سَكَراتُ الموت إنه آخر ما يكفر به عن المسلم .

وعن إبراهيم قال كانوا يَسْتَحِبُونَ لِلْمَرِيْض أن يَحْمَدَ اللَّهَ عند الموت وعن ابن عباس أنه قال آخِرُ شِدَّةٍ يَلْقَاهَا المؤمنُ الموت .

وأعلم أَنَّ المرضَ يُذْهِبُ الخَطايا وكُلَّمَا اشتَدَّ المرضُ كان أَذْهَبَ لها عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال دَخَلْتُ على النبي ﷺ فمَسَسْتُهُ فقُلْتُ يا رسول الله إنك تُوعَكُ وعْكاً شَدِيْدًا .

فقال أَجَلْ إني أُوعَكُ كما يُوْعَكُ رَجُلانِ مِنكم قُلْتُ ذلك بأَنَّ لَكَ أجْرَين .

قال أَجَلْ مَا مِن مُسلِمٍ يُصِيْبُه أذىً مِن مَرضٍ فما سِواهُ إلَّا حَطَّ اللَّهُ به سَيئَاتِهِ كما تَحُطُّ الشجَرةُ ورَقَها . رواه البخاري ومسلم .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ « ما مِن مُصِيْبَةٍ تُصِيْبُ المسلم إلا كفر اللَّهُ عز وجل بها عنه حتى الشوكة يشاكها » رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « لا يَزَالُ البَلاءُ بالمؤمنِ والمؤمِنَةِ في جَسَدِه وفي ماله وفي ولده » .

وعن صهيب قال قال رسول الله ﷺ « عَجِبْتُ مِن قَضاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَل للمؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك إلا للمؤمن إن أصابَتْهُ سَرَّاءُ فشكَرَ كان خَيْرًا وإن أصابته ضَرَّاءُ فَصَبَر كان خَيراً له » أخرجه مسلم .

وعن أبي سعيد الخدري قال دَخَلْتُ على النبي ﷺ وهو يُوْعَكُ فَوَضَعْتُ يَدِي عليه فوجَدتُ حَرَّهُ بينَ يَدَيَّ (فوق اللحاف) فقلتُ يا رسول الله ما أشدَّهَا عليكَ قال « إنا كَذَلَكَ يُضَعَّفُ لنا البلاء ويُضَعَّفُ لنا الأَجْر » .

قُلْتُ يا رسول الله أيُّ الناسِ أشَدُّ بَلاَءً قال « الأنبياء » قُلْتُ ثمُ مَن قال « الصَّالِحُونَ إن كانَ لَيُبْتَلَي بالفقرِ حتى ما يَجِدُ إلا العَبَاءَةَ يُحَوِّيهَا وإن كان احَدهم ليَفْرَحُ بالبَلاءُ كما يَفْرَحُ أحَدُكم بالرَّخاء » رواه ابن ماجه .

وعن عبدالله بن أحمد قال حدثنى أبي قال حدثنا وكيع عن أبي حيان عن أبيه قال دَخَلُوا على سُوَيْدِ بنِ شُعْبَةَ اليَربُوعي وقد صَارَ على فراشِهِ كَأَنَّهُ فَرْخٌ وامرأتُه تُنَادِيْهِ ما نُطْعِمُكَ ما نسقِيْكَ .

فأجابها بصَوتٍ خِفَي دَبرَتِ الحَرَقِفُ وطَالَتِ الضَّجْعَةُ ومَا أحِبُّ أن اللَّهَ عَزَّ وجَل نَقَصَني منه قُلاَمَةَ ظُفرُ وقالت عائشةُ رضي الله عنها ما رَأَيْتُ الوجَعَ على أَحَدٍ أشَدَّ منه على رسول الله ﷺ .

وكان جماعة من السلف يجعلون مكان الأنين والتأوه من شدة المرض ذِكْـرَ الله سبحانه والاستغفار والتعبد وذلك لأن الأنين ونحوه نوع شكوى فَمَتَى أمكن التصبر عنه فينبغي أن يصبر .

ومـا هـي إلا سـاعـة ثـم تَنْقَضِي ويذهـبُ هـذا كـله ويـزول

فإن غلب عليه المرض عذر . وقال الامام أحمد لابنه أقرأ عَليَّ حديث طاووس أنه كره الأنين في المرض فقرأ عليه فَما أَنَّ حتى مات رحمه الله .

ولَمَّا احْتُضِرَ صَفوانُ بنُ سُلَيمٍ وحضره أخوه فجعل يَتَقَلَّبُ قالوا كان له حاجة قال نَعَم .

فَقَالت أبْنَتُهُ مَا لَه مِن حَاجَةٍ إلا أنه يُرِيْدُ أنْ تَقُومُوا عنه فَيَقُومُ فَيُصَلِي وما ذَاكَ فيه .

فقامَ القَومُ عنه وقَامَ إلى مَسْجِدِه يُصَلي فصاحت ابنتُه بهم فدخلوا عليه فحملوه فمات .

ودخلوا على أحد السلف وهو يعاني سكرات الموت فجعل يكبر ويُهَلل ويذكر الله عز وجل وجعل الناس يدخلون عليه أرسالا يسلمون عليه فيرد عليهم ويخرجون .

فلما كثروا عليه أقبل على ولده فقال يا بُنَيَّ أعْفِنِي رُدَّ السلامَ على هولاء لا يشغلوني عن ربي عز وجَلَّ .

وقال أبو محمد الحريري حَضَرْتُ عند الجُنَيْدِ قَبْلَ وَفَاتِه بِسَاعَتَين فَلَمْ يَزَلْ تَالِيًا وسَاجِدًا فَقُلْتُ له يا أبا القاسم قد بلَغَ بكَ ما أَرَى مِن الجُهْدِ فقال يا أَبَا محمد أَحْوَجُ ما كُنْتُ إليه هذه الساعة فلم يَزَلْ تالِيًا وسَاجِدًا حتى فَارَقَ الدنيا وخرج منها عاريا كما دخلها عاريا .

وهكذا كلُ بني آدم يدخل الإنسان مُجَرَّدًا مِن اللباس ويَخْرُجُ منها عارِيًا إلا مِن كَفَنِهِ كما قيل :

نَصِيبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدهرَ كُلَّهُ ... رِدَاءآنِ تُلْوَى فِيهِمَا وحَنُوطُ

آخر : فما تَزَوَّدَ مِمَّا كان يَجْمَعُه ... سِوَى حَنُوط غداةَ البَيْنِ في خِرَقِ

وغَيرَ نَفْحَةِ أَعْوادٍ تُشَبُّ لَهُ ... وقَلَّ ذَلِكَ مِن زَادٍ لِمُنْطَلِقِ

أَوْجَدَهُ اللَّهُ جَلَّ وعَلا لِيَتَعَلَّمَ ويَعْمل بطاعة الله ويَتَمَتَّعَ بخَيْرات الدنيا مُسْتَعِينًا فيها على طاعةِ رَبِهِ حتى إذا انقضى أجَلُهُ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لِدَارِ الجَزَاء والمُحَاسَبةِ على عمَلِهِ .

فإنْ أَحْسَنَ التَّصرُّفَ وأطاعَ رَبَّهُ أدْخَلَهُ الجنةَ لِيَسْعَد فيها لِلأَبَد .

وإن أساء التَّصرُّف وعَصَى رَبَّهُ أَدْخلَهُ نارَ جَهَنَّم يَتعَذَّبُ فيها لِلأبَد .

وكل ما في الدنيا من أمْتِعَةٍ ولَذَائِذَ قليلة وضئيلة ومحدودة بالنسبة لِلذَائذ الجنة بل موضع السوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها .

قال الله جل وعلا وتقدس ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قُرة أَعْيُنٍ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ .

والمكث في الدنيا قليل فهو سنوات تمر كالبرق الخاطف لا يشعر الإنسان إلا وقَدِ انْتَهَتْ كأنها سَاعة مِن نهار حَيَاتُه كلها .

قال الله جل وعلا ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يَتعَارَفُونَ بيْنَهُم ﴾ ومِن الناس مَن رَآها دَارَ قَرَار .

وقال لا دَارَ لي سِوَاهَا واعْتَنَى بها وبِزَخَارِفِها وغَرَّهُ إبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ

وزيَّنَهَا لَهُ فانْغَمَسَ فيها .

وعَمِلَ لَهَا لَيْلَهُ ونهارَهُ وتَعِبَ فيها مُسْتَمْتِعًا بخَيراتِها الفَانِيةِ ومُلاَقٍ بَلاَءَهَا وأنكادَها وأكدارَهَا .

وبعـدَ قليل هَجَم عليه هادِمُ اللَّذاتِ وأيْقَـظَهُ مِن غَفْلَتِه بَعد فَواتِ الأَوَان فَنَدِمَ حَيْثُ لا يَنْفَعُ النَّدَم وعَرَفَ بَعْدَ الفَوْت أنَّ الدُنيا دَار مَن لا دار لَهْ ولها يَجْمَعُ مَن لا عَقْلَ لَهْ .

وقِسْمٌ مِن الناس وَفَّقَهُم اللَّهُ وهُوَ أعلم بالمهتدين فأسْعَدهم بالإسلام وَوَفَّقَهُمْ لِلْعَمَلِ بما يُرْضِيه .

قال الله جل وعلا وتقدس ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نَصِيْبَكَ من الدنيا ﴾ وهولاء تَمَشَّوْا مع الكتاب والسنة أصْلَحُوا دُنْيَاهُم وجَدُّوا واجْتَهَدُوا وعَمِلُوا لِلآخِرَةِ .

فالـدُنيا نِعْمَ المـطيةُ لِلْمُؤْمِنِ يَسْتَعْمِلُهَا لِلْخَيرِ ويَنْجُو عليها مِن الشر فاتَّخَذَهَا مَطِيَّةً فَعَمَرَهَا كما أمرهُ خَالِقُهُ وَأَخَذَ منها ما يَلْزَمُهُ باعْتِدَال وتَوَازُنٍ ولم يُعْلق قَلْبَهُ بها .

فأَطَاعَ رَبَّهُ واسْتَعَدَّ لِآخِرتِهِ فلما أتاهِ الموت وَجَدَهُ على أَتَمِّ الإسْتِعْدَادِ .

ومن الناس من رآى الدنيا تافهة وأيامها قليلة وعلم ما في الآخرة مِن نَعِيم مُقِيم وعَيْشٍ سَلِيم وعلم أن الدنيا والآخرة ملك (لله الواحد القهار) (الذي له المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم) .

فأحب ربـه واشتغل بعبادته وبالتقرب إليه بالعلم وفعل الخير وترك الدنيا وزينتها وزهد فيها .

وهـذا القسم نادر كنـدرة الماس والجوهر الثمين فسعدوا بطاعة الله والتقرب إليه وصرف الوقت فيما يرضيه .

ومن الناس من جهل الدنيا والآخرة فعاش فيها عيش البهائم يعمل ليله ونهاره .

ويأكل كما تأكل الأنعام فلم يستفد من الدنيا ولم يستعد للآخرة وهؤلاء هم الأكثرية الساحقة .

وأسوء الناس من شغل عمره في خدمة مخلوق وضيع وقته في القيل والقال والجلوس عند الملاهي والمنكرات .

وروي إن شر الناس منزلة عند الله يوم ا لقيامة عبد أذهب آخرته بدنيا غيره .

وأسوء الناسِ تدبيراً لِعَاقِبةٍ مَن أنفقَ العُمر فيما لَيْسَ يَنْفَعُهُ

أما الاعتدال والتوسط بين الاستمتاع بالدنيا بلا إسراف ولا إضاعَةِ وَقْتٍ ولا يَتَعَلَّقُ قَلْبُه بها ويكونُ مُسْتَعِدًا للآخِرَةِ فَهَذَا سِمَةُ العُقَلاء والسُّعَدَاء الذينَ يُحْسِنُونَ تَصْرِيفَ أَوْقَاتِهِم وأَعْمَارِهِم .

ولِيَعْلَم المؤمِنُ أن اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا وتقدسَ يَحْمِي عَبْدَهُ المُؤمِنَ مِن الدنيا وهو يُحِبُّه كما يَحْمي المريضَ أَهْلُهُ مِن الطعامِ والشرابِ يَخَافُونَ عليه .

وعلى الإنسانِ العاقل أن يَفْهَمَ الدنيا على حَقِيقتها فَيَنْظُرَ أَوَّلاً كَيْفَ وُلِدَ يَجِدُ أنهُ وُلِدَ عارِيًا مِن كُلِ شيء حتى مِن الثياب ثم رَزَقَهُ اللَّهُ الكِسْوَةَ مِن المَلابِس والمتاعِ والسكنِ والمالِ على أنها عَارِيَّةٌ مُرْجَعَةٌ .

فإذا فقدَ منها شَيْئا فلا يَحْزَن لأنَّ مَن أعَارَهُ شَيْئًا اسْتَرَدَّهُ وَسَوْفَ يُؤخَذُ مِنه كل ما أُعْطِي ويَخْرُجُ مِن الدنيا تارِكاً كُلَّ شيء .

وما المالُ والأهلُونَ إلا وَدَائعٌ ولا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الوَدَائِعُ

آخر : تجَرَّدْ مِن الدنيا فإنك إنَّما خَرَجْتَ إلى الدنيا وأَنْتَ مُجَرَّدُ

آخر : فما تَزَوَّدَ مما كان تجْمَعُهُ سِوَى حَنُوطٍ غَدَاةَ البَيْنِ في خِرَقِ

وغَيْرَ نَفْحَةِ أَعْوَادٍ تُشَبُّ لَهُ وقَلَّ ذَلِكَ من زَادٍ لِمُنْطَلِق

« حِكَم ومَوَاعِظُ وآدَاب »

قال بعضُهم يُوْصِي إبنه يا بُنَيَّ لا تدخل في الدنيا دخُوْلاً يَضُر بِآخِرتك ولا تَتْرُكْهَا تَركاً تكونُ به كلاً على الناس .

وقال أُتْرُكْ الدنيا قَبْلَ أَنْ تَتْرُكَكَ ، واسْتَرْضِ رَبَّكَ قبل لِقَائِه ، واعْمُرْ

بَيْتَكَ الذي سَوْفَ تَسْكُنُه قَبْلَ انْتِقَالِكَ إليه .

قالَ أحَدُ الصَّالِحِين لِمَنْ يَأمُروْنَ الناسَ بالبرِ ويَنْسَوْنَ أنفُسَهُم كَيفَ يَتْرُكُ الدُنْيَا مَنْ تَأمُروْنَهُ بتَرْكِ الدِينار والدِرهم وهُم إنْ الْقوهَا أَخَذْتُمُوهَا أنْتم .

وقال آخر الوقت آلة الرزْقِ إن اسْتُعْمِلَ ، وآفَةُ الرزقِ إذا أُهْمِلْ .

لا تَسْتَغْرِبْ وُقُوعَ الأكْدَار ، ما دُمْتَ في هذه الدار ، فإنها ما أبْرَزَتْ إلا ما هُو مُسْتَحَقٌّ وَصْفِها وَوَاجِبُ نَعْتِهَا فاحْذرها .

طُبِعَتْ على كَدَرٍ وأَنْتَ تَرُوْمُهَا صَفْوًا مِن الأقْذَارِ والأكْدَارِ

مَرَّ بَعْضُهم على مَزْبَلَةٍ بِجَانِبِ مَقْبرَةْ ، فقال هذه كَنْزُ الرجال ، وهَذِه كَنْزُ الأموال . خلق الله جل وعلا الدنيا لتكون في خِدْمَتِكَ ، فَتَحَوَّلْتَ إلى خِدْمَتِها ، وأَرَادَكَ مَلِكًا لَهَا وأَرَدْتَ أن تكُونَ مَمْلُوكًا لها .

أَنْتَ الأمِيْرُ على الدُنْيا بزُهْدِكَ في حُطَامِهَا وطَرِيْقُ الحَق مَسْلُوْكُ
وأَنْتَ عبدٌ لها ما دُمْتَ تَعْشِقُهَا إنَّ المُحِبَ لِمَنْ يَهْوَاهُ مَمْلُوْكُ

الدنيا مَحْبُوبَةٌ للإنسان ولكن يَجِبُ عَلينا أن لا نَأْخُذَ منها شيئاً كَرِهَهُ اللَّهُ ولا نَمنَعَ منها شَيئا أحَبَّهُ اللَّهُ وبذا لا يَضُرنا حُبُّنا لَهَا .

الدنيا بَحْرٌ والآخرةُ سَاحِل والمركبُ التَّقْوىَ والناسُ سُفر .

الذنب يضر فاعله وقد يضر غيره إن عَيَّرَهُ ابتُلِي ، وإن اغْتَابَهُ أثِم ، وإن رَضِي به شاركه ، قيل إن المسيح عليه السلام قال يا رَبِّ مَن أشرفُ لناسِ .

فأوحى الله إليه أشرفُ الناس مَن إذا خلا علم أني ثانيه فأَجَلَّ قَدْرِي عن أن يظهرني على معاصيه .

هجران المعاصي أفضل الهجرة والمحافظة على الفرائض أفضل الجهاد ولا يأتي أحد بشيء أَحَبَّ إلى الله مِن ذكره .

قال الله جل وعلا وتقدس ﴿ ولذكر الله أكبر﴾ لا تَسْتَبْطِىء إجَابَةَ الدعُاء وَقَدْ سَدَدَتَ طُرقَهَا بالمعاصي .

التَّمادِي بالمَعَاصِي يُوجِبُ الاصْرَارَ عَلَيْهَا والإِصْرَارُ يُوجِبُ الغَفْلَةَ عن الله ومَن غَفَل عن الله تجرَّأَ عَليه فَهلكَ .

أخْسَرُ الناس صَفْقَةً مَن بَاعَ الجنةَ بما فيها بشَهْوة سَاعة سُئِل بَعضُهم هَل مِن عَلاَمَةٍ لِمَنْ قَبِلَه الله فقال الله أعلم ولكن هنا قرائن ودلائل ومرجحات منهـا إنـك إذا رَأيتَ الله جَلَّ وعَلاَ قد عَصَمَكَ من المعاصي وكَرَّهَهَا إليكَ ووَفَّقَكَ لِما يُحبُه ويَرْضَاهُ مِن الطاعات التي أمرك بها ترَجّح عِندكَ القَبُول لا تتهاون بالذنب الصغير وانظر إلى مَن عَصَيْتَ عَصَيْتَ رَبًا عظيما السموات والأرض جميعًا قبضتُه يوم القيامة .

أفِقْ مِن غَفْلَةِ الآمَالِ تَسْلَمْ وقُـمْ لِلَّهِ أَوَّابـاً مُطِيْعَـا
وخَالِفْ كُلَّ شَيْطَـانٍ مَرِيْدٍ وَنَفْسِـكَ والهَوَى ثُمَّ الرَّقِيعَا
فنِعْمَ العَبْـدُ أنْتَ بِغَيْرِ شَـكٍّ إذَا أصْبَحْـتَ لِلْدَّاعي سَمِيْعَـا
بَصِـيْراً بالعَـوَاقِبِ في أُمُـورٍ بِهَا أحْسَنْتَ مَا عِشْتَ الصَّنِيعَا
تَمَسَّكْ بالشَّـرِيْعَةِ واحْتَـرِمْهَا تَنَلْ مِن فَضْلِهَا الشَّـرَفَ الرَّفِيْعَا

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

(فصـــــــل)

إعلم وفقنا الله وإياك أنَّ آفةُ الكِبْر عَظيمةٌ وفيه يَهْلِكُ الخَوَّاصُ وقلَّما يَنْفَكُ عنه العُبَّاد والزُهَادُ والعلماءُ وكيفَ لا تعظم آفتُهُ وقد أَخْبَرَ النبي ﷺ أنه لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبر وإنما صَارَ حِجَابًا دُونَ الجنة لأنـه يحول بين العبـد وبـين أخلاق المؤمنين لأن صاحبه لا يقدر أنْ يُحِبَّ لِلْمُؤْمنِينَ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ فلا يَقْدِرُ على التواضُع ولا على تَرْكِ الحِقْدِ والحَسَدِ والغَضَبِ ولا على كَظْمِ الغَيْظِ وقبُـول النُصْـح ولا يَسْلَمْ مِن الازْدِرَاءِ والاحْتِقَـارِ للنَّـاسِ واغْتِيَابهم فما مِن خُلُقٍ سَيِءٍ ذَمِيْمٍ إلَّا وهُو مُتَّصِفٌ به ومُضْـطَرٌ إليه وقـد شرح رسول الله ﷺ الكبر فقال الكبر بَطَر الحق وغَمْطُ

النـاس وأعلم أنَّ العُجْبَ يَدْعُـو إلى الكِبر تَتَولَّدُ الآفاتُ الكثيرةُ وهذا مَعَ الخَلْقِ فأمَّا مَعَ الخَالِقِ فإنَّ العُجْبَ بالطَّاعَاتِ نَتِيْجَةِ إِسْتِعْظَامُها فكأَنَّهُ يَمُنُّ على الله تعالى بفِعْلِهَا ويَنْسَى فَضْلَ اللَّهِ ونِعْمَتَه عليه بتَوْفِيْقِهِ لَهَا ويَعْمَى عن آفاتِهَا المُفْسِدةِ لَهَا .

نَظَرَ أَحَدُ العلماء إلى والٍ ظالم استقبلهَ الناسُ بالتَّبْجِيْل والتَّعْظِيم فقال لِمَن حَوْلَهُ انظروا إلى مَن جَمَع اللَّهُ لَهُ بينَ سُرور الدنيا وخِزْي الآخِرَة .

وقال آخر إنما هَلَكَ مَن كان قَبْلَنَا بِحَبْسِهِم الحَقّ حتى يشترى منهم وبِبَسْطِهِم الظُّلْم حَتى يفتدى منهم .

كان عُمر بن عبدالعزيز يجعل كل يوم من ماله دِرْهمًا في طعام المسلمين الفقراء ويأكل معهم .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألا وإني نَزَّلْتُ نَفْسِي مِن مالِ اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ كافلِ اليتيم إِنْ اسْتَغْنَيْتُ اسْتَعْفَفْتُ وإن افتقرت أكلت بالمعروف .

ودخل بعضهم على سلمان الفارسي رضي الله عنه وهو والٍ على المدائن فوجَدَهُ يَعْمَل الخُوصَ بيَدِه يُسَوّي منه قُفَفًا لِيَبِيْعَهَا ويتَقَوَّتُ بها .

فقال له تعمل هذا وأنْتَ أَمِيرٌ على المَدَائِن ويُجْرِيْ عَلَيْكَ الرِّزق .

فقال سلمان رضي الله عنه إني اشتري بدرهم خوصاً (سَعَفُ النخل) فأعمله قُفَفًا فأبيعه بثلاث .

أُنْفِقُ درهما عَلَيَّ وعَلَى عِيالي وأتصَدَّق بِدِرهمٍ وأعِيْدُ دِرْهمًا فِيهِ والله إني أحِبُّ أَنْ آكل مِن عَمَلِ يَدِي .

ورآه بعض النـاس في الطريق وظنه من جملة الحَمامِيل الفُقَرَاء فقال إحْمِلْ لي هَذَا المتاعَ فحَمَل لَهُ أَمْتِعَتَهُ ومَشي مَعَهِ في السُوْق .

وكُلَّما صَادَف إنْسَانًا سلم عليه وقال السلامُ عَليك أَيُّهَا الأَمِيْر والمَقَاضِي على رَأسِهِ فاستَغْرَبَ الرَّجُلَ ذَلِكَ وخَجلَ منه وقال لِسَلْمانَ مَن الأَمِيْر قال أنا فأخَذَ يَعْتَذِرُ ويَطْلُبه السَّماحَ ويَقُول أَعْطِنِي مَتَاعِي جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا .

قال لا بُدَّ مِن حَمْلِهِ أنا خَادِمٌ لِلْمُسْلِمين وَأَبَى إلا أَنْ يُوصِلَ الأَمْتِعَةَ إلى بَيْتِ صَاحِبِهَا .

قِيْلَ لِعُمَرَ بن عبدِالعزيز جَزَاكَ الله عن المسلمين خَيْرًا فقال بَلْ جزى المسلمين عَني خَيْرًا .

وأَتَى إليه مَظْلُومٌ مِن اليَمَن فكَتَبَ لِعَـامِلِهِ باليَمَنِ أَنْ يأخُذَ لَهُ حَقَّهُ ويُنْصِفَه مِمَّنْ ظَلَمَهُ .

ثم قال للمَظْلوم كم نَفَقَتُكَ من اليمن إلى هنا وهَلْ بَلي من أثوابك شيء ثم دفعها إليه .

وأتَى إليه فِقْير وقال يا أمِيْرَ المؤمنين اشْتَدَّتْ بِي الحاجَةُ وبَلَغَتْ بي الفاقَةُ واللَّهُ سَائِلك عن مَقَامِي هذا بين يديك .

فبكَىَ عُمر حتى بَلَّ القَضِيْبَ الذي يَتكِىءُ عليه فقال كَمْ عِيَالُكَ قال خَمْسَة أنا وامرأتي وثَلاَثَةُ أولاد .

فقال عُمَرُ فَرَضْنَا لكم عَشَرَةَ دَنَانِير في الشهر ونأْمُر لكَ بِخَمْسمائة دِرْهَم مِائتين مِن مَالي وثلاثمائة مِن مالِ الله حَتَّى تَتَبَلَّغَ بها حتى يخرجَ عَطَاؤكَ .

وقُدِّمُ لَه هَدِيَّةً وقالُوا لَهُ أَقْبَلْهَا فإن رسول الله ﷺ كان يَقْبَلُ الهَدِيَّةَ فقال كانتْ للنبي ﷺ هَدية وهي الآن لَنَا رِشْوَة وَرَفَضَهَا .

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

فصـــل : بعد الصُلح بينَ أبي عُبَيْدةَ والرُوْم قَدَّمَ قائدٌ رُوْمَاني طعامًا فاخِراً لأبي عُبيدةَ فقال أَبُو عُبَيْدَةَ أتُطْعِمونَ الجندَ مثل هذا قال لا .

فقـال أبُـو عُبَيْدَةَ لا حَاجَة لَنا فيها يَقْتَصِرُ عَلَيَنا بئس أبو عبيدة وقَدْ صَحِبَـهُ جُنْدٌ مِن بلادِهِم ليُهْرِقوا دِمَاءَهم أو لم يُهْرقوا فاستأثر بنفسه عليهم بشيء لا نأكل إلا مِمَّا يأكلون .

ركَب الوزير عَليُّ بنُ عِيسى الظالم في مَوْكِبٍ عظيم فقال الناس مَن

هَذَا مَن هذا فقالت إمرأةٌ لِمَ تَقُولُونَ مَن هذا .

هذا عبد غَرَّهُ الشيْطَانُ فَسقَط مِن عَين اللَّهِ تعالى فابتلاه الله بما تَرَوْنَ فَرجَعَ الوزيْرُ إلى مكة تَائِبًا مُجَاوِرًا .

كَتَبَ وَالٍ لِعُمَر بن عبدالعزيز إن قَوْمًا اخْتَلَسُوا مَالَ الدولةِ فأذنْ لِيْ في عِقَابِهِم فكَتَبَ عُمَرُ إليه لا تَظُنَّ أَنَّ رِضَائِي عليكَ ومَشُورَتِي تنجيْكَ مِن عذاب الله .

لِذا من أقَرَّ منهم فجازه بما يَسْتَحِق ومَن أنكر فاستحلفه وخلِّ سَبِيْلَهُ فلَعَمْرِي لأَنْ يلقَوُا اللَّهَ بخِيَانَتِهِم أَحَبُّ إليَّ مِن أَنْ أَلْقَى اللَّهَ بدِمَائِهِم .

وقال بعضهم إنما أهلكَ مَن كان قبلنا بحَبْسِهِم الحَقَ حتى يشترى منهم وبِبَسْطهم الظلم حتى يُفْتَدَى منهم .

« موعظة »

عِبادَ اللَّهِ سُرُوْرَ المُؤمنين يومَ يَعْبُرُوْن القَنَاطِرَ ويَأمَنُونَ العَواثِرَ فَذَلكَ يومُ عِيدِهم ومَادَامُوا في دَارِ الغُرُوْر فلا غِبطَةَ ولا سُرُوْرَ .

وَأَيُّ سُرُوْرٍ لِمن الموتُ مَعْقُودٌ بناصِيَتِهِ والذُنوبُ رَاسِخَةٌ في آنِيَتِهِ والنَّفْسُ تَقُودُهُ إلى هَوَاهَا والدنيا تَتَزَيَّنُ في عَيْنِهِ بمُشْتَهَاها .

والشَّيْطَانُ مُسْتَبْطِنٌ فَقَارَ ظَهْرِهِ لا يَفْتُر عن الوَسْوَسَةِ في صدره ونفسِهِ ومالِهِ بعَرْضِهِ لِلْحَوادث ولا يَدْرِى في كل نَفَسٍ ما عَلَيه حَادِث .

قال بَعْضُهُم :

إني بُلِيْتُ بأَرْبَعٍ مَا سُلِّطُوْا ... إلَّا لأجل شقَاوَتِي وعَنَائِي

إبْليس والدُنياونَفْسِي والهوى ... كَيْفَ الخَلاصُ وكُلُّهُمْ أَعْدَائِي

ومن وَرَائِهِ المُغِير ومَسْأله مُنْكَرٍ ونكيرٍ ويَتَوسَّدُ التُرابَ إلى يَوم النشور ﴿ يومَ يَقُومُ الناسُ لرب العالمين ﴾ يَومٌ لا يُبْلَغُ وصْفُ أَهْوَالِهِ ولا شَرْحُ أحواله ما لا يَسَعُ المؤمن به أنْ يَسْتَقِرَّ له قَرَارٌ ولا يَخْلُدُ إلى هَذِهِ الدار ولاَ يكُوْنُ لَهُ هَمّ

في هَذه الدنيا إلاّ التَّقرُّبُ بأنْوَاعِ القُرَبِ واجْتِنَابُ الفَواحِشِ والريبَ وإقامة الدين الذي في إقامَتِهِ النجاةُ وفي تَضْيِيْعِهِ العَطَب العظيم .

يَــومُ القِيَامَـةِ لو عَـلِمْتَ بهَـوْلِهِ ... لَفَـرَرْتَ مِـن أَهْـلٍ ومِـنْ أَوْطَـانِ
يَــوْمٌ تَشَــقَّقَتِ السَّـمَاءُ لِهَـوْلِهِ ... وتَشِـيْبُ مِنْـهُ مَفَـارِقُ الـوِلْـدَانِ
يَــوْمٌ عَبُـوسٌ قَمطَـرِيْـرٌ شَــرُّهُ ... فـي الخَـلقِ مُنْتَشِـرٌ عَظِيْمُ الشَّـأنِ
يَــوْمٌ يَجِـيءُ المتَّقُـونَ لِـرَبهِـمْ ... وَفْـدًا على نُجُبٍ مِـنَ العِقْـيَاتِ
ويَجِيءُ فيـه المجـرمُـونَ إلى لَظَـى ... يَتَلَمَّظُـوْنَ تَلَمُّــظَ العَطْشَــانِ
والجَنَّــةُ العُــلْيا ونَــارُ جَهَــنَّم ... دَارَانِ لِلْخَصْـمَيْنِ دَائِمَتَــانِ

« فــوائـــد »

تَعَرَّفْ إلى الله بما تَعَرَّف به إلَيْكَ بِمَا هُوَ أَهْلُه وتَعَرَّفْ ما فَرضَ عليكَ مَعْرِفَتَهُ مِن احكـام شَـرْعِهِ .

ثانياً طاعته في فعل الواجبات وترك المحرمات .

ثالثاً أنْ تَشْتَاقَ إلى ما شوَّقَ إليه وتَخَافَ مَا خَوَّفَ منه لأن العَالِم بأسماء اللَّهِ وصِفاتِه وأحْكَامِهِ من أعْلم العَالِمين .

والعامِلُ بطَاعَتهِ فيما أمرهُ ونهاه مِن أعْمَلِ العَامِلين .

إن لم تقدر على الجدِّ في العَملِ فقِفْ على باب الطَّلب وتَعَرَّضْ لِنَفْحَةٍ مِن نَفَحَاتِ الرب ففِي لَحْظَةٍ أفلَحَ السَّحَرة .

إذا رُزِقْتَ يَقَظَةً فَصُنْهَا في بَيْتِ عُزْلةٍ فإنَّ أيْدِي المُعَاشرة نَهَّابَةٌ واحْذَرْ مُعَاشرة البَطَّالِيْنَ فإنَّ الطَّبْعَ لِصٌ ولا تُصَادِقَنَّ فَاسِقَا ولا تَثِق إليه فإنَّ مَن خانَ أوَّل مُنْعِم عليه لا يَفِي لَكَ أبدَاً .

تَزَيَّنَتِ الجنةُ لِلْخُطَّاب فجدوا واجْتَهِدُوا في تحصيل المهور .

تَعَرَّفَ رَبُّ العِزَّةِ لِلْمُحِبِّين فعلموا لِلقاء وأنْتَ مَشْغُولٌ بالجيَف .

ما يُسَاوِي ربع دينار خجل الفضيحة فكيف بألَمِ القَطْعِ .

لَيْسَ لِلْعابدِين مُسْتراح إلا تحْتَ شَجَرَة طُوْبى .

ولا لِلْمُحِبِّيْنَ قَرَارٌ إلا يَوْمَ المَزِيْد فَمثِّلْ لِقَلْبِكَ الاستراحَةَ تَحْتَ شجرة طُوْبى يَهُنْ عليك النصب والتعب .

واسْتَحْضِر يَومَ المزيد يَهُنْ عَلَيْكَ ما تَتَحَمَّلُ مِن أجْلِهِ .

مَتى رَأَيْتَ العقلَ يُؤثِرُ الفاني على البَاقِي فأعلم أنَّهُ قَدْ مُسِخَ .

ومَتَى رَأَيْتَ القلب قد ترحلَ عنه حب الله والاستعداد لِلقائه وحل فيه حب المخلوق والرضا بالحياة الدنيا والطُمَأنِينةِ بها فاعلم أنه قد خُسِفَ به .

ومَتى أقْحَطَتِ العينُ مِن البكاء مِن خشيةِ اللَّهِ تعالى فاعلم أَنَّ قُحْطَهَا مِن قَسْوَةِ القلب .

ومَتَى رأَيْتَ نفسَكَ تَهْرَبُ مِن الأُنْسِ باللَّهِ إلى الأُنس بالمخلوق ومِن الخَلوة مَعَ اللَّهِ إلى الخلوة مَعَ المخلوق فاعلم أنها لا تصلح لله .

مَن رَكِبَ ظهر التفريط والتواني والكسل نَزَلَ بدارِ العُسْرَةِ والندامة .

ومَن أدْلَجَ في غياهب الليل على نجائب الصبر صَبَّحَ منزل السرور .

ومَن نام على فِرَاشِ الكسَل أَصْبَحَ مُلْقًا بوادِي الأَسَف .

فائدة نفيسة : ينبغي لطالِب العلم أن يتأملها ويأخذ لمستقبله فِكرة قال بَعْضُ العُلماءِ لَمْ أَزَلْ بُرْهَةً مِن عُمْري أَنظُرُ اخْتِلاَفَ الأُمَّة والتِمَسُ المنهاجَ الـواضِـحَ والسَّبيل القاصِدَ وأطلبُ مِن العِلم والعَمَلِ واسْتَدِلُّ على طَرِيْقِ الآخِرَةِ بإرْشَادِ العُلماء .

وعَقَلْتُ كثيراً مِن كلام اللَّهِ عَزَّ وجَل بتأويْلِ الفُقَهاءِ وَتَدَبَّرْتُ أحْوَالَ الأُمَّةِ ونَظَرْتُ في مَذاهِبِهَا وأقَاويْلِهَا فعَقَلْتُ مِن ذلكَ ما قُدِّرَ لي .

ورأيْتُ إخْتِلافَهُم بَحْرًا عَمِيْقًا غَرِقَ فيه ناسٌ كَثِير وسَلِمَ مِنهُ عِصَابَةٌ قليلة .

ورَأَيْتُ كُلَّ صِنْفٍ منهم يَزْعُمُ أن النجَّاة لِمَنْ تبِعَهُم وأن المهالكَ لِمَنْ خَالفَهُمْ .

ثُمَّ رَأيتُ الناسَ أَصْنَافًا فمنهم العالِمُ بأمْرِ الآخرة لِقَاؤُهُ عَسِيرٌ وَوُجُودُهُ عَزِيْز .

وهُو مَن يُعِدُّ نَفْسَهُ في الدنيا لِثَواب الآخرة والقُرْبِ مِن العَزِيْزِ الحَكِيم .

ومنهم الجَاهِلُ فالبُعْد منه غَنِيْمَة .

ومنهم المُتَشَبِّهُ بالعُلماء مَشْغُوفٌ بِدُنْيَاه مُؤْثِرٌ لَهَا .

ومنهم حَامِلُ عِلْمٍ مَنْسُوْبٌ إلى الدِيْنِ مُلْتِمسٌ بِعِلْمِهِ التَّعْظِيْمَ وَالعُلُوَّ . يَنَالُ بالدِّينِ مِن عَرَضِ الدُّنْيَا .

ومنهم حَامِلُ عِلْمٍ لا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَ ما حَمَلَ .

ومنهم المُتَشَبِّهُ بالنُّسَّاكِ مُتَحَرٍّ لِلْخَيْرِ لَا غِنَاءَ عِنْدَهُ ولا نَفَاذَ لِعِلْمِهِ ولا مُعْتَمَدَ على رَأْيِه .

ومنهم المَنْسُوْبُ إلى العَقْلِ والدَّهَاءِ مَفْقُوْدُ الوَرَعِ والتُّقَى .

ومنهم مُتَوادُّونَ على الهَوَى وَافِقُوْنَ ولِلدُّنْيَا يَذِلُّوْن ورِيَاسَتِها يَطْلُبُون .

ومنهم شَيَاطِينُ الإِنس عن الآخرة يَصُدُّونَ وعلى الدنيا يَتَكَالَبُون وإلى جَمْعِها يُهْرِعُون وفي الاسْتِكْثَارِ منها يَرْغَبُون .

فهم في الدنيا أَحْيَاء وفي العُرْفِ مَوْتى .

فَتَفَقَّدْتُ في الأَصْنَافِ نَفْسِي وضِقْتُ بذلك ذَرْعًا فَقَصَدْتُ إلى هُدَى المُهْتَدِين بِطَلَبِ السَّدَادِ والهُدَى واسْتَرْشَدْتُ العِلْمِ وأَعْمَلْتُ الفِكْرَ وأَطَلْتُ النَّظَر .

فَتَبَيَّنَ لي مِن كتاب اللَّهِ عز وجل وسُنَّةِ رسوله ﷺ وإجماع الأُمَّةِ أنَّ اتِّبَاعَ الهَوى يُعْمِي عن الرُّشْدِ ويُضِلُّ عن الحق ويُطِيْلُ المكثَ في العَمَى .

فَبَدَأْتُ أولاً بإِسْقَاطِ الهَوى عن قَلْبي وَوَقَفْتُ عندَ اخْتِلاف الأُمَّةِ مُرْتَادًا لِطَلَبِ الفِرْقَةِ الناجِيَة .

حَذَرًا مِن الأَهْـوَاءِ المُرْدِيَةِ والفِرقةِ الهَالِكَة مُتَحَرِّزًا مِن الاقْتِحام قَبلَ

البَيَانِ والتَمِسُ سَبِيْل النجاةِ لِنَفْسِي .

ثم وَجَدْتُ باجْتِماع الأُمَّةِ في كتابِ اللّهِ المُنَزَّل أَنَّ سَبِيْلِ النجاةِ في التَّمَسُكِ بتقوى اللّهِ وأَدَاءِ فرائضِهِ .

والورع في حَلاَلِهِ وحَرامِهِ وجميع حدوده .

والإخلاص لله تعالى بطَاعَتِه .

والتَّأسِي برَسُولِهِ ﷺ فطَلَبْتُ مَعْرفَةَ الفرائض والسُّنَنِ عِندَ العُلماءِ في الآثـارِ فَرَأيْتُ إجْتِـمَاعًـا واختـلافًـا ووَجَدْتُ جَميعَهُم مُجْتَمِعِيْنَ على أَنَّ عِلْمَ الفَرائِضِ والسُّنَنِ عندَ العُلماءِ باللّهِ وأمرِهَ الفُقَهاءِ عند اللّهِ العَامِلين بِرِضْوانِهِ .

الوَرِعِيْنَ عن مَحَارِمِهِ المُتَأَسِّيْنَ برسوله ﷺ والمُؤْثِرِيْنَ الآخِرَةَ على الدنيا أُولَئكَ المُتَمَسِّكُونَ بأمْرِ اللّهِ وسُنَنِ المُرسَلين .

فالتَمَسْتُ مِن بَيْنِ الأُمَّـةِ هَذا الصِّنْفَ المُجْتَمِع عَليهم والمُـوصُوفينَ بآثارِهم واقْتَبَسْتُ مِن عِلْمِهِم فَرأَيْتُهُم أَقَلَّ مِنَ القَلِيْلِ .

ورأيْتُ عِلْمَهُم مُنْـدَرِسًـا كما قال رسول الله ﷺ بدأ الإسلام غريبًا وسَيَعُوْدُ غريبًا كما بدأ فطُوبَى لِلْغُرَباءِ وهم المُتَفرِدُونَ بِدِيْنِهِم .

فعَظُمَتْ مُصِيْبَتِي لِفَقْدِ الأَوْلِيَاءِ الأَتْقِيَاء الأبرار وخَشِيتُ بَغْتَةَ الموتِ أنْ يَفْجَأنِي عَلَى اضْطِرابٍ مِن عُمُري لاختلافِ الأُمَّةِ .

فانْكَمَشْتُ في طَالِب عِلمٍ لَم أجِدْ لِي مِن مَعْرفَتِهِ بُدًا ولم أقَصِّرْ في الإحْتِيَاطِ .

فَقَيَّضَ لي الـرءُوفُ بِعِبـادِهِ قَوْمًا وجَدْتُ فيهم دَلائِلَ التَّقْوَى وأعلامَ الوَرَع وإِيْثارَ الآخِرَة على الدنيا .

ووَجَدْتُ إرْشَادَهُم ووَصَايَاهُم مُوافِقَةً لأفاعيل أئِمَّةِ الهُدَى .

وَوَجَـدْتُهم مُجْتَمِعِينَ على نُصْحِ الأُمَّةِ لا يُرَجُّونَ أبدًا في مَعْصِيَتِه ولا يُقَنِّطُونَ أبدًا من رَحْمَتِهِ .

يَرْضَونَ أَبدًا بالصبر على البَأْسَآءِ والضَّرَّآءِ والرضا بالقضاء والشكر على النعماء يُحَبِّبُوْنَ اللَّهَ إلى العَبْدِ بِذِكرهم أياديه وإحْسَانِهِ وَيَحُثُّونَ العِبَادَ على الإنابة إلى الله تَعَـالى عُلَمَاءُ بِعَظَمَتِهِ تعالى عُلَمَاءُ بعَظِيم قدرَتِهِ وعُلماءُ بكتابِهِ وسُنَّتِهِ فُقَهاءُ في دِيْنِهِ عُلَمَاءُ بما يُحِبُّ ويكره وَرِعِين عن البِدعِ والأَهْوَاء تارِكِينَ لِلتَّعَمُّقِ والإغلاءِ مُبْغِضِيْنَ لِلْجِدَالِ والمِرَاءِ مُتَوَرِعِيْنَ عن الاغْتِيَابِ والظُّلم مُخَالِفِيْنَ لأَهْـوَائِهِم مُحَاسِبِـيْنَ لأنفُسهم مالكِـين لِجَوارِحِهِم وَرِعِـيْنَ في مَطَاعِمِهِم ومَلابِسِهِم وجَمِيع أَحْوَالِهِم مُجَانِبِيْنَ لِلشُّبُهَاتِ تارِكِينَ لِلشهواتِ مُجْتَزِئِينَ بالبُلْغَةِ مِن الأَقْوَاتِ مُتقلِّلِيْنَ مِن المُبَاح مُشْفِقِين مِن الحِساب وجِلِيْنَ مِن المعادِ عُلماءُ بأمر الآخِرة وأقَاوِيْل القِيَامَةِ رَاجِينَ مِن الكريم المنان جَزِيْل الثواب وخائِفِين مِن أَلِيم العِقاب وذلك أَوْرَثَهم الخَوْفَ الدَّائم والهَمَّ المُقِيم فَشُغِلُوا عن سُرُور الـدنيا ونَعِيمهـا فَتَبَيَّنَ لِيْ فَضْلُهُمْ واتَّضَحَ لي نُصْحُهُم وأَيْقَنْتُ أنهم العَـامِلُونَ بطَرِيْقِ الآخِـرة والمتـأَسُونَ بالمُرْسَلين والمَصَابِيْح لِمَنْ اسْتَضَاءَ بهم والهادُون لِمَن اسْتَرشَد أ . هـ . قُلْتُ فَبِمِثْلِ هَؤلآءِ إنْ وُجِدُوْا فَلْيَقْتَدِ المقتدون . والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

فصـــل : قال ابنُ القيم رحِمَـهُ الله لا يكـون العَبدُ مُتَحقِقًا ﴿ إيَّاكَ نَعبُـد ﴾ إلا بأصلين عظيمـين أحـدهما الاخلاص لِلْمَعْبُودِ والثاني المتابعة للرسول ﷺ .

والناس منقسمون بحَسَب هذين الأصلينْ إلى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ أحَدُها أهلُ الاخلاص للمَعْبُود والمتابَعَةِ للرسول ﷺ وهُمْ أَهْلُ إيَّاكَ نَعْبُد حَقِيْقَةً .

فأعْمَالُهُم كُلُّها لِلَّهِ ، وأقْوالُهم لِلَّهِ ، وحُبُّهم للَّهِ ، وبُغْضُهُمْ لِلَّهِ .

فَمُعَامَلَتُهُم ظاهِرًا وباطِنًا لوجه الله وحده لا يريدون بذلك من الناس جَزَاءً ولا شُكُورًا .

ولا ابتغاءَ الجَاهِ عندهم ولا طلبَ المَحْمَدَة والمنزلة في قُلُوبهم ولا هَرَبًا مِن ذَمِّهم .

بل قد عَدُوا أنفسهم من أصحابِ القبُور لا يملكون لهم ضرًا ولا نَفْعًا ولا يَملكون مَوْتًا ولا حَياةً ولا نُشُورًا .

فالعمل لأجل الناسِ وابتغاءِ الجاه والمنزلة عندهم ورَجَائِهم للضر والنفع منهم لا يكون مِن عَارِف بهم البتة .

بَلْ مِن جاهلٍ بِشَأنهم وجَاهلٍ بربهِ فَمَنْ عَرَف الناس أنزلهم منازلهم .

ومن عَرَف الله أَخْلَصَ لَهُ أَعْمَالَهُ وأقوالَه .

ولا يعامِل أَحَدُ الخَلْقَ دُون اللّهِ إلا لجهلِهِ باللّهِ وجَهْلِهِ بالخلقِ .

وإلا فإذا عَرَفَ اللّهَ وعَرفَ الناسَ آثرَ مُعَامَلةَ اللّهِ على مُعَامَلتَهم .

القسم الثاني مَن لا إخْلاصَ لَهُ وَلاَ مُتَابَعَة فَلَيْسَ عَمَلُه مُوافِقاً لِلشَّرْعِ .

وَلَيْسَ هُو خَالِصًا لِلْمَعْبُود كأعْمَالِ المُتَزَيِّنِيْنَ للناس المُرَائين لَهُم بما لم يَشْرَعْهُ الله ورسوله .

وهولآء شرار الخلق وأَمْقَتُهم إلى الله عَز وجَل .

ولَهُم أَوْفَر نَصِيْب مِن قولِهِ تعالى ﴿ لا تَحْسَبَّنَ الذين يَفْرَحُونَ بما أتوا ويُحبُون أنْ يُحْمَدُوا بما لم يَفْعَلُوا فلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِن العَذاب ولهم عذاب اليم ﴾ .

يَفْرَحُونَ بما أتَوا مِن البِدْعَةِ ، والضلالة ، والشرك ، ويُحِبُونَ أن يُحْمَدُوا باتباع السُنَّةِ والاخلاص .

وهذا القسم يَكْثرُ فيْمَن انحْرَفَ مِن المُنْتَسِبِينَ إلى العِلم والفَقْرِ والعِبَادَةِ عن الصراط المستقيم .

فإنَّهم يَرْتَكِبُونَ البِدعَ والضَّلاَلاَتِ والرِّيَاءَ والسُّمْعَةَ ويُحِبُونَ أن يُحْمَدُوْا

بما لم يَفْعَلُوه مِن الإتِبَّاع والإِخْلاص والعِلم فَهُم أَهْلُ الغَضَب والضلال .

القسمُ الثالثُ مَن هُوَ مُخْلِصٌ في أعْمَالِهِ لَكِنها على غَيرِ مُتَابِعَةٍ الأمْر كجُهَّال العِبَاد والمُتَسِبينَ إلى طَرِيْق الفَقْر والزُهْدِ .

وكلّ مَن عَبدَ اللهَ بِغَيْرِ أمْرِهِ واعْتَقَدَ عِبادَتَه هَذِه قُرْبَةً إلى الله فهذا حَالُه .

كَمَنْ يَظُنُ أنَّ سَمَاعَ المكاءِ والتَّصْدِيَةِ قُرْبَةً وأن الخلوة التي يَتْرُكُ فيها الجمعةَ والجماعةَ قُربة .

وأنَّ مُوَاصَلَة صَومِ النَّهارِ بالليل قُرْبَة وأن صِيَامَ يَومِ فِطْرِ الناسِ كُلِّهم قُرْبَةً وأمثال ذلك .

القِسمُ الرابع مَن أَعْمَالُه على مُتَابَعَةِ الأمرِ لَكنَّهَا لغَير الله كَطَاعَةِ المُرائين وكالرَّجُل يُقَاتِلُ رِيَاءً وحَمِيَّةً وشجاعَةً ويَحُجُّ لِيُقال ، ويَقرَأُ القُرآنَ لِيُقَال .

فهولآء أعمالُهم ظاهِرُهَا أعْمَالٌ صَالحةٌ مأمورٌ بها لَكِنَّهَا غَير صَالِحةٍ فلا تُقْبَل قال الله جل وعلا ﴿ وَمَا أمروا إلا لِيَعْبُدوا اللَّهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدين ﴾ فكُلُ أحَدٍ لم يُؤمَرْ إلا بعِبادة اللَّهِ بِمَا أَمَرَ انتهى كلامه رحمه الله .

اللهُم ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وقَوِّهَا وَأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَيَسِّرْنَا لِلْيُسْرَى وَجَنِّبْنَا العُسْرَى وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(**فصـــل**) : قال بَعْضُهُم أعَزُ الأشْيَاءِ في الدنيا الإخلاص قِيلَ لِما صَارَ أعَز قال لأنه لَيْسَ لِلنَّفْسِ فيه نصيب .

وقال آخر أَعَزُ شَيَ في الدنيا الاخلاص وكم أَجْتَهِدُ في إسقاط الرِياء عن قَلْبي فكأَنَّهُ يَنْبُتُ فيه على لَونٍ آخَرَ .

فالاخلاصُ في غَايَةِ الصُعُوبَةِ فلِذلكَ تجِدُ كثيراً من الناس يَشْرَحُ أعمالَهُ

للناس يَذْكُر صَدَقاتِه وصِيَامَه صِيَام التطوع وكم حَجَّ مِن سَنة وكم عمرة اعتمر وهُوَ ما سُئِل وأنه يُحْيي الليل بالصلاة والتلاوة .

ويذكر الذين يُسَاعِدهم بجَاهِهِ ومالِهِ يُريد بذلك المنزلةَ في قلوب العِباد وأنه مِن المحسنِين وهذا غَلَطٌ وضررٌ عليكَ فما دُمْتَ تعَملُ لِلَّهِ فما الداعي إلى ذكره لِمَنْ لا يملكون لأنفسِهم ضَرًا ولا نَفْعًا ولا يَمْلِكُونَ مَوتا ولا حَيَاةً ولا نُشُورًا .

فالعاقل يَعْمَل العَمَلَ خَالصًا لِلَّه لا لأجل الخلق ولا لأجل النَّفْسِ وإلَّا دخل عليه مُطَالبةُ العِوَض أو تَشَوُّقٌ إلى حَظٍ مِن حظوظ الدنيا .

والمهم أنْ يَحْرِصَ على إخْفـاءِ أَعْمَالِهِ لأن الجَزَاءَ عِند مَن يَعلم السِّرَّ وَأَخْفَى لا إله إلا هو .

إلا إنْ ترجحت مَصْلحَةُ الإظهار على الإخفاء كأن يُقْتَدَ بِهِ في الصَّدقَةِ أو الزكاة لإزَالَةِ التُّهْمَةِ عَنْهُ بعَدَم إخْرَاجِهَا .

قال الله جل وعلا وتقدس ﴿ إن تُبْدُوا الصدقاتِ فَنِعمَّا هِي وإنْ تُخْفُوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرٌ لكم ﴾ .

عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « مَن فَارَقَ الدنيا على الاخلاص لِلَّهِ وحْدَهُ لا شريْكَ له وأقامَ الصلاة وآتى الزكاةَ فارَقَها والله عنه رَاضٍ » رواه ابنُ ماجه والحاكم ، وقال صحيح على شرط البخاري ومسلم .

وعن مُعَاذِ بن جَبَلٍ رضي الله عنه أنه قال حِينَ بُعِثَ إلى اليمن يا رسولَ الله أوْصِني قال « أَخْلِصْ دِيْنَكَ يَكْفِيْكَ العَمَلُ القَلِيْلُ » رواه الحاكم وقال صحيح الاَسناد .

وعن ثوبـانَ رضي الله عنـه قالَ سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول طُوْبَى لِلْمُخْلِصِين أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الهُدى تَنْجَلي عنهم كُلُ فِتْنَةٍ ظَلْمَاء .

وعن زَيْدِ بن ثابتٍ رضي الله عنه قال سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ « نَضَّرَ اللَّهُ امْرأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيْثًا فَبَلَّغَهُ غَيْرَهُ فَرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلى مَن هُوَ أفقهُ منه وَرُبَّ حَامِلِ فقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيْه .

ثلاثٌ لا يَغُلُّ عَليهم قَلْبُ مُسْلِم إخْلاصُ العَملِ لِلَّهِ ومُنَاصَحَةُ وُلاةِ الأمر ولُزُومُ الجَماعَةِ فإنَّ دَعْوَتَهُم تُحِيْطُ مِن وَرَائِهم .

ومَن كانَتِ الدنيا نِيَّتُهُ فَرَّقَ اللَّهُ عليه أَمْرَهُ وجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ولم يَأْتِهِ مِن الدنيا إلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ .

ومَن كانَتِ الآخِرةُ نِيَّتُهُ جَمَعَ اللَّهُ أَمْرَهُ وجَعَلَ غِنَاهُ في قَلْبِهِ وأَتَتْهُ الدُّنيا وهِيَ رَاغِمَة » رواه ابن حبان ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وابنُ مَاجه .

وعن الضحاك بن قيس قال قال رسول الله ﷺ « إنَّ اللَّهَ تبارك وتعالى يقول أنا خَيْرُ شَرِيكٍ فَمَنْ أشْرَكَ مَعِي شَرِيْكاً فهو لِشَرِيْكِي .

يا أيها الناسُ أَخْلِصُوا أَعْمَالَكم فإنَّ الله تباركَ وتعالى لا يَقْبَلُ مِن الأعمالِ إلَّا مَا خَلَصَ لَهُ » أخرجه البزار باسناد لا بأس به .

وورد عنه ﷺ أنه قال « إن الله عز وجل لا يَقْبَلُ مِن العَملِ إلاَّ ما كان خالِصًا وابْتُغِي به وَجْهَهُ » روراه أبو داود والنسائي .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « الدنيا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ ما فيها إلا ما ابْتُغِي به وجْهَهُ » خرجه الطبراني باسنادٍ لا بأس به .

سُئِلَ الفضيلُ بنُ عِيَاض ما أَخْلَصُ العَمَلِ وما أَصْوَبُهُ قال إن العَمَلَ إذا كان خالِصًا ولم يكن صَوابًا لم يُقْبَلْ وإذا كان صَوَابًا ولم يَكُنْ خالِصًا لَمْ يُقْبَلْ حتى يكونَ خالِصاً صَواباً والخَالِصُ أن يكون لِلَّهِ والصَّوابُ أن يكون عَلى السُّنَّةِ .

مَوَاهِبُ ذِي الجَلَالِ عَلَيْكَ تَتْرى ... بِإحْسَانٍ وَأَنْتَ بِهَا كَنُودُ
يَزِيْدُكَ مِنْه فَضْلاً كُلَّ يَوْمٍ ... وأَنْتَ بِضِدِّهِ أَبَداً تَزِيدُ
تَغُرُّكَ أُمُّ دَفْرٍ بالأَمَاني ... عنِ العُقْبَى لِتَغْفُلَ يَا بَعِيدُ
أَلَا فَانْهضْ إلى الوَهَّابِ واشْكُرْ ... لَهُ نِعَماً غِزاراً لا تَبِيدُ

اللهم أَلْحِقْنَا بعبادك الصالحين الأبرار ، وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حَسَنَة . وقنا عذاب النار ، واغفر لنا ولوالدينا ، ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(**فصل**) قال ابن الجوزي تَبَاعَد عن أهل السُوءِ وباعِدْ أَوْلادَكَ عنهم لا يَعَادُوْنَكَ بأَفْعَالِهِم وأَقْوالِهم وطِباعِهم ولا يَزَالُ يَقْسُو قَلْبُكَ حَتَّى يَسْتأنِسُ بهم فهُنَاكَ الهَلاك .

والسُوءُ يَتَفَاوَتُ فَمِنْ أَهْلِهِ أهلُ الفَواحِشِ ومنهم أهلُ اللَّهْوِ ومنهم أهلُ الغِيْبَةِ والنَّمِيْمَةِ ومنهم أهلُ الملاهي وآلات الطرب .

فإنهم يَسْبُوْنَ أَهْلَ العُقول عُقُوْلَهُم حتى يَنْحَلُّوا عن دِيْنِهم ومُرُوءَتِهم فَيَعْسرُ عليهم الخَلاصُ لِمَا يَجِدُوْنَهُ مِن لَذَّةِ النَّغَمات والأَصْوَاتِ .

حَتَّى يَكُون عَادَةً وطَبْعَا فَرُبَّمَا يَجْلِس الرجُلُ إليهم وهُو كَارِهٌ لِسَمَاعِ لَغْوِهِم مُسْتَوْحِشٌ مِن نَفْسِهِ ثم لا يَزَالُ على ذلك حتى يَرَاهُ حَسَنًا .

من كيد الشيطان أن يورد ابن آدم الموارد التي يخيل إليه أن فيها منفعته ثم يصدره المصادر التي فيها عَطَبُه ويَتَخَلَّى عنه ويُسْلِمُه لِلْهَلاكَ ويَقِفُ يَتَشَمَّتُ به ويضحك منه .

فيأمره بالسرقة والقتل واللواط والزنا ويدل عليه ويفضحه قال الله تعالى ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني بَرِيْءٌ مِنكَ ﴾ .

وقال تعالى ﴿ وإِذْ زَيَّنَ لهم الشيطان أعمالَهُم وقال لا غالبَ لكم اليوم من الناس وإني جَارٌ لكم فلما تَراءتِ الفِئتانِ نكصَ على عَقِبَيْهِ وقال إني بَرِيءٌ منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ .

ذكر ابن القيم رحمه الله الأَسْبابَ التي يُعتَصَمُ بها مِن الشيطان الأول إلاسْتِعاذَةُ باللَّهِ مِن الشيطان الرجيم قال تعالى ﴿ وإما ينزغنك مِن الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ .

والمرادُ بالسمعِ هُنَا سَمع الاجابة لا السمع العام .

الثاني قراءة المعوذتين فإنَّ لهما تأثيرًا عَجيْبًا في الاسْتِعَاذَةِ بالله مِن شر الشيطان ودَفْعِهِ .

ولِهَذا قال النبي ﷺ ما تَعَوَّذَ المُتَعَوِذُوْنَ بمثلِهما وكان ﷺ يَتَعَوَّذُ بِهِما كلَّ ليلة عند النوم .

وأَمَرَ عُقْبَةَ بنَ عَامر أن يَتَعَوَّذُ بهما دُبُرَ كُلِ صَلاةٍ وذَكَرَ ﷺ أنَّ مَن قَرَأَهُمَا مَعَ سُوْرَةِ الاخلاصِ ثلاثًا حِيْنَ يُمْسِي وثلاثًا حِيْنَ يُصْبِح كَفتَاهُ مِن كُلِ شر .

الثالثُ قراءةُ آيَةِ الكُرسِي .

الرابع قراءة سورة البقرة ففي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « إن البيتَ الذي تُقْرأ فِيْه سُورَة البَقرة لا يَدخُلُه الشيطان .

الخامسُ خاتِمةُ سُورَةِ البَقرة فقد ثَبَتَ في الصحيح عنه ﷺ أنه قال مَن قَرأ الآيتين مِن آخِرِ سُورة البَقرةِ في ليلَةٍ كَفَتَاهُ .

السادس أول سورة حم المؤمن إلى قوله ﴿ إليه المصير ﴾ ففي الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ مَن قَرأ حَم المؤمن إلى قوله ﴿ إليه المصير ﴾ .

وآيَةَ الكُرسي حين يصبح حُفِظ بهما حتى يُمْسِي ، ومن قرأهما حين يُمْسِي حفظ بهما حتى يصبح .

السابع لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة .

ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال مَن قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة .

كانت عدل عشر رقاب وكتب له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سَيئة وكان حرزًا له من الشيطان .

يَوْمَهُ ذلك حتى يمسي ولم يأْتِ أَحَدٌ بأفضل منه إلا رجلٌ عَمِلَ أكثر من ذلك .

الثـامِنُ وهو أَنفعُ الحِروز مِن الشيطان كَثرةُ ذِكرِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَ وهذا بعَيْنِهِ هو الذي دَلَّتْ عليه سُورَةُ الناس .

فإنَّه وَصَفَ الشيطان فيها بأنه الخَنَّاسَ الذي إذا ذَكَر العبدُ رَبَّهُ انْخَنَسَ فإذا غَفَل عن ذكر الله التَقَمَ القَلْبَ وأَلْقَى إليه الوَسَاوِسَ .

فما أحْرَزَ العبدُ نَفْسَهُ مِن الشيطانِ بمثلِ ذِكرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَل .

الحرز التاسع الوضوء والصلاة وهذا من أعظم ما يحترز العبدُ به ولا سِيَّمَا عندَ الغضب والشهوة فإنها نارٌ تَصْلَى في قَلْبِ ابن آدم .

كما روى الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال ألا وإن الغَضَبَ جَمرةٌ في قَلْبِ ابنِ آدَمَ فما أطْفَأَ العبدُ جَمرةَ الغَضَب والشهوة بِمِثْلِ الوضوءِ والصلاة .

فإن الصلاة إذا وَقَعَتْ بخِشُوُعِها والإِقبالِ على اللَّهِ فيها أذْهَبَتْ أثرَ ذلك جُمْلَةً وهَذا أَمْرٌ تجربَتُهُ تُغْني عن إقامةِ الدليل عليه .

الحرزالعاشِرُ إِمْسَاكُ فُضُولِ الكلام فإنها تَفْتَحُ أَبْوَابًا مِن الشرِ كُلّها مَدَاخِل للشيطان فإمساكُ فُضولِ الكلام يَسُدُ عنكَ تلك الأبواب .

والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فوائد ونصائح ومواعظ وحكم وآداب وَوَصَايا

مِن أَخـلاَق المؤمِن حُسْنُ الحديث ، وحسنُ الاستماع إذا حُدِّث ، وحُسْنُ البشرِ إذا لَقِي ، ووفاء بالوَعْدِ إذا وَعَدَ ومِن حُسْنِ إسلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيْه .

سُوْءُ الخُلُق سَبَبُ النكَـدِ في الحَيَاة والشُرور والآثـام ، فعلى العاقل اللَّبيب أَنْ يَعْرِفَ الأَخلاقَ السَّيِئَة لِيَجْتَنِبَهَا ، وهي كثيرةٌ ولا يَخْلُوا أَحَدٌ منها

فَتَفَقَّدْ نفسَكَ وأَزِلْ ما فيها .

فَمِن ذلك المَكْرُ ، والخَدِيْعَةُ والخِيَانَةُ والغِشُّ ، والكَذِبُ ، والغِيْبَةُ ، والنميمةُ ، والسَّعَايَةُ ، والظُّلْم والرياء والعُقوقُ ، والقَطِيعةُ ، والكِبرُ ، والعُجْبُ ، والزَّهْوُ ، والأَنَفَةُ مِن المَسْكَنةِ .

والنِّفَاقُ ، والخِيانةُ ، والغَدرُ ، والحَسَدُ ، والغِلُ ، والحِقْدُ ، والشَّمَاتَةُ ، والبَغْضَاءُ ، وسُوءُ الظَّنِ ، والتَّجَسُسُ على المسلمين .

وإضمارُ السُوءِ ، والتَّرَبُّصُ بالدَّوائِرِ ومُسَاعَدَةُ الهَوى ، ومُخالَفَةُ الحقِّ والرِضَى بالهَوَى والحبُّ والبُغض بالهَوى ، والجَفَاءُ .

والقَسْوَةُ ، وقِلَّةُ الرحمة ، والحِرصُ ، والشَّرهُ والطَّمعُ والطِيَرة ، والطُغيان بالمال ، والفَرَح بإقبال الدنيا ، واسْتِقلال الرزق .

واحْتقار النِعم ، والاحتقار بمَصَائِب الدِين ، واستعظامُ الدنيا ، والحُزْنُ على ما فات منها .

والاسْتِهَانَةُ بعِلم الله عز وجل عند فِعْلِكَ لِلذَّنْبِ والاسْتِهانَة بسَمَاعِهِ ما يَصْدُرُ منكَ مِن المَعَاصِي قولا وفِعلا .

وقِلَّة الحَيَاءِ مِن إطلاعِ اللَّهِ عَليكَ ومِن اطلاعِ مَن عَن اليَمين وعن الشمالِ قَعِيْد .

وأنْتَ لَو أطَّلَعَ عَليكَ مَخْلُوقٌ ضعِيْفٌ وأنْتَ تعملُ مَعْصِيَةَ اللَّهِ لا نْزَعَجْتَ .

فَتَنَبَّهْ لِذَلِكَ ورَاقِبِ اللَّهَ جَلَّ وَعَلا وتَقَدَّسَ وكُنْ منه عَلى حَذَر .

تَوارَى بِجُدْرَانِ البُيُوتِ عن الوَرَى   وأنْتَ بِعَيْنِ اللَّهِ لا شَكَ تُنْظَرُ

وقال ابنُ القيم رحمه الله :

وهُوَ الحليمُ فلاَ يُعاجِلُ عَبْدَهُ   بَعقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِن عِصْيانِ
لَكِنَّهُ يُلْقِي عَليه سِتْرَهُ   فهو السَّتِيْرُ وصَاحِبُ الغُفْرانِ
وهُوَ العَفُوُ فعَفْوُهُ وسِعَ الوَرَى   لَوْلاَهُ غَارَ الأرضُ بالسُّكانِ

وهُوَ الصَّبُورُ على أَذى أعْدَائِهِ شَتَمُوهُ بَلْ نَسَبُوهُ لِلْبُهْتَانِ
قالُوا لَهُ ولَدٌ ولَيْسَ يُعِيْدُنَا شَتْمًا وتَكْذِيْبًا مِن الإِنسانِ
هَذَا وَذَاكَ بسَمْعِه وبِعِلْمِهِ لَوْ شَاءَ عَاجَلهُم بكُلِّ هَوَانِ
لَكِنْ يُعَافِيهِمْ ويَرْزُقُهُم وهُمْ يُؤْذُوْنَهُ بالشِرْكِ والكُفْرانِ

قال بَعضُ العلماء إخواني إذا تَقَرَّبَ الناسُ إلى الله عَزَّ وجَل بأنواع البِرِّ الظاهِرَةِ مِثْلَ الجِهادِ والحج والصومِ والزكاةِ والصدقةِ وتلاوةِ القرآنِ وغيرِ ذلك .

فَنَافِسُوهُم فيها واجْعَلُوا أعْظَمَ الرَّغْبَةِ في طَاعَةِ القُلُوب التي لا يَطَّلِعُ عليها الانسُ ولا الملائكةُ ولا الجنُ ، ولا يَعْلَمُهَا إلا عَلاَّمُ الغُيُوب .

فإنَّ القَلِيْلَ مِن أعْمالِ البرِ كَثيْرٌ لِسلاَمَتِهِ مِن الرِّيَاءِ وجَمِيْعِ المُكَدِّراتِ .

ألا فَتَقَرَّبُوا إلى الله بطَاعَةِ القُلُوبِ فإن فيها المعرفَةَ بعَظَمَةِ اللَّهِ وكِبْرِيَائِهِ وجَلالِهِ وقُدْرَتِهِ وعَظِيم قَدْرِهِ سُبْحَانَهُ .

وتَقَـرَّبُوا إليه بمَحَابِهِ ، وبُغْضِ مَكارِهِهِ والرِّضَا والغضَبِ لَهُ وفيه ، وتَقَرَّبُوا إليه بشِدَّةِ الحُبِّ لَهُ .

والحُبِّ فيه والبُغْض مِن أَجْلِهِ ، وتَقَرَّبُوا إلى الله بالمعرِفَةِ بأيادِيْهِ الحَسْنَةِ ونعَمِهِ الظاهِرَةِ والبَاطِنَةِ ، وأَفْعَالِهِ الجَمِيْلَةِ .

ومِنَنِـهِ المُتَواتِرَةِ على تَواتُرِ الإِسَاءَةِ مِنَّا ، وهُوَ جَل وعَلا وتَقَدَّسَ يَعُودُ بأَنْوَاعِ النِعَمِ عَلَيْنا .

ألا فَتَقَرَّبُوا إليه بالخَوْفِ مِن زَوَالِ النِّعَم ، وشِدَّةِ الحَيَاءِ من التَّقْصِيرِ في الشكر .

وتَقَرَّبُوا بالوَجَلِ مِن مَكْرِ الله تعالى والاشْفَاقِ على إِيْمَانِكم .

وتَقَرَّبُوا إلى اللَّهِ بشِدَّةِ الخَوفِ منه .

وحَقِيْقَـةِ الرجَاءِ فيهِ ، والسُرُوْرِ بِذِكره ، ومُنَاجَاتِهِ ، والشَّوقِ إليه ، والرَّغْبَةِ في جِوارِهِ .

وتَقَرَّبُوا إلى الله بِصِدْقِ اليَقِينِ والتَّوكُّلِ عليه والثِّقَةِ به والطُّمأنينةِ إليهِ والأُنْسِ به والانقطاع إليه .

وتقرَّبُوا إليه بالوَفَاءِ ولِينِ الجانِبِ والجَنَاحِ والتَّواضُعِ والخُشوع والخُضُوع .

وتَقَرَّبُوا إليه بالحِلم والاحْتِمال وكَظْم الغَيْظِ وتَجَرُّعِ المَرَارَةِ .

وتَقَرَّبُوا إليه بسَلاَمَةِ الصَّدْرِ وإرَادَةِ الخَيْرِ للامَّةِ وكَرَاهَةِ الشَّرِ لَهُم .

وتَقَرَّبُوا إلى اللَّهِ بالرأفَةِ والرحمةِ والشَفَقَةِ والحَوْطَةِ على المسلمين .

وتَقَرَّبُوا إليهِ بالجُودِ والكَرَمِ والتَّفَضُلِ والاحسَانِ وصِدق الوَفاء .

وتَقَرَّبُوا إليه بالقَنَاعَةِ والعَفَافِ والكَفَافِ والرِضَى بالبُلْغَةِ واليأسِ مِنْ نَائِلِ الناس .

وتَقَرَّبُوا إليه بالتَّدبُرِ لِكتابهِ وتفَهُّمِهِ والعَمَلِ به والاخلاص .

وتَقَرَّبُوا إليه بمُجَاهَدةِ إبليس لَعَنَهُ اللَّهُ ومُخَالَفةِ الهَوى والنفس الأَمَّارَةِ بالسُوء والتَّفَقُدِ لأحْوَالِكم والتَّقْوىَ في كل أُمُورِكُمْ وتَقَربُوْا إلى الله بأَدَاءِ الأمانات .

وتَقَربُوا إليه بالاحسان إلى المُسِيء والإيثارِ على أنْفُسِكُم وإن كان بكم خَصَاصَة .

وارْغَبُوا في مَكَارِم الأَخلاق .

وتَقَرَّبُوا إلى الله بالتواضُعِ والابتعَادِ عن التَّرَفُعِ على عباد الله المؤمنين .

وتَقَرَّبُوا إلى الله بالفَرَحِ بِمَصَائِبِ الدنيا ، والرضا بقضاء الله وقدره .

وتَقَـرَّبـوا إلى الله بالاستعـداد للمـوت والبعث والنشـور والحسـاب

دعِ التَّعْليـلَ والتَّسـويفَ واقبِل عَلَى مَوْلاَكَ تَغْنَـمْ نَيْـلَ حَظِّ
أدِمْ بالحَـزْمِ إقْبَـالاً عَلَيْـهِ عَسَى تَحْظَى بِتَوفِيْـقٍ وحِفْـظِ
ونَـقِّ القَـلْبَ مِن شُبُهَـاةِ زَيْغٍ تَـرَاهُ مَعْنَـوِيّـاً ثُمَّ لَفْـظِي

وَرِدْ حَوْضَ الشَّرِيعَةِ مَعْ صَفَاءٍ وَجَانِبْ كُلَّ ذِي حَسَدٍ وَغَيْظِ
وَرَقِّ النفسَ بالعِرْفَانِ تَزْكُو وتَظْفَر بالمُنَى مِنْ كُلِّ وَعْظِ

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

(فصـــــل)

مِن أَنْفَعِ الحَيَاء أن تَسْتَحِي مِن الله أن تَسْأَلَهُ مَا تُحِب وتَأْتي ما يكره .

قال بَعْضهم رُبَّمَا أُصَلِي لله ركعتين فانصرف وأنا مِن الخَجل بِمَنْزِلَةِ مَنَ ينصَرِفُ عن السرقة حَيَاءً مِن الله عز وجل لأني لم أُوَفِّهَا حَقَّهَا .

قال بن مسعود رضي الله عنه « الدنيا كلُّهَا غُموم فما كان منها من سُرُور فهو رِبْحٌ » .

وقال الجُنيد رضي الله عنه لَسْتُ أَسْتَبْشِعُ ما يَرِدُ عَلَيَّ لأَني قَدْ أَصَّلْتُ أَصْلاً وهُوَ أنَّ الدُنْيَا دَارُ همٍ وغمٍ وبلاءٍ وفِتْنَةٍ وإن العَالَمَ كُلَّهُ شر .

ومِن حُكْمِهِ أَنْ يَتَلَقَّانِي بكُلِّ مَا أَكْرَهُ فإنْ تَلَقَانِي بِمَا أُحِبُّ فَهُو فَضْلٌ وإلاَّ فالأَصْلُ هُوَ الأولُ .

وقال بَعْضُهُم يَا أَيُها الناس أَنْتُم تُحِبُون الروحَ والروحُ لِلَّهِ وتُحِبُونَ المالَ والمالُ لِلْوَرَثَة وتَطْلُبُونَ اثْنَيْن ولا تجدُونَهما الراحَةَ والفَرَحِ وهما في الجنة .

فالوَاجِبُ على العَبْدِ أَنْ لا يُوطِن نَفْسَهُ على الرَّاحَةِ في الدنيا ولا يَرْكَن فيها إلى ما يَقْتَضِي فرحًا وأُنْسًا وَأَنْ يَعْمَل عَلى قول النبي ﷺ فيما رَوى عنه أبو هريرة رضي الله عنه « الدنيا سِجْنُ المؤمن » .

فَتَوطِينُ العَبْدِ نَفْسَهُ على المِحَنِ يُهَوِّنُ عليه ما يلقاه وَيجِدُ السُلْوانَ عِنْدَ مَا يَهْوَاهُ .

شِعْرا : يُمَثِّلُ ذُو اللُّبِ فِي لُبِّهِ شَدَائِدَهُ قَبْلَ أن تَنْزِلاَ
فإنْ نَزَلَتْ بَغْتَةً لم تَرُعْهُ لِمَا كان في نَفْسِهِ مَثَّلاَ

رَآى الأمر يُفْضِيْ إلى آخِرٍ فصيَّرَ آخِرَهُ أوَّلاَ
وَذُوْ الجَهْلِ يأمَنُ أيامَهُ ويَنْسَى مَصَارِعِ مَن قَدْ خَلاَ
فإنْ دَهَمَتْهُ صُرُوْفُ الزَّمان ببَعْضِ مَصَائِبِهِ أعْوَلاَ
ولَوْ قَدَّمَ الحَزْمَ في نَفْسِهِ لَعَلَّمَهُ الصَّبْرَ عِنْدَ البَلاَ

فَعَلى الإنسان العاقل أَنْ يتلقى ما يرِدُ عليه مِن المَصَائِبِ والهُمومِ والغُموم والانكادِ بالصَّبْرِ والرضا والاسْتِسْلام عند جَرَيَانِ القَضَاء .

فَعَن قَرِيْبٍ إنْ شاءَ اللَّهُ تعالى يَنْجَلي الأَمْرُ ويَسْتوجِبُ مِن اللَّهِ جَلَّ وعَلاَ جَزِيْلَ الأَجْرِ والثواب واللَّهُ وليُّ التوفيق .

وقال أَحَدُ الزُهَّاد جُوْعٌ قَلِيل ، وعُرْيٌ قَلِيل وذِلٌّ قليل ، وصبر قليل ، وقد انْقَضَتْ عَنْكَ أيَّامُ الدنيا .

وقال آخر الصَّبْرُ جِماعُ كُلِّ فَضِيْلَةٍ ومِلاَكُ كُلِّ فائدةٍ جَزِيْلَةٍ ومَكْرُمةٍ نَبِيْلَة .

قال الله جل وعلا وتقدس ﴿ وتَمَّتْ كلمةُ رَبِكَ الحُسْنَى على بني إسرائيل بمَا صَبَرُوْا ﴾ .

وقال جل وعلا وتقدس ﴿ وجَعَلناهم أَئِمَّةً يَهْدون بأمْرنَا لَمَّا صَبَروْا ﴾ .

وقال جل وعلا وتقدس ﴿ إنما يوفى الصابرون أجْرَهُم بغَيْرِ حِسَاب ﴾

مَن أنْزَل حَوَائِجَهُ بالله تعالى والْتَجأ إليه وتَوَكَّلَ في أمْرِهِ كُلِّهِ عليه كَفَاهُ كُلَّ مُؤْنَةٍ ، وقَرَّبَ عليه كُلَّ بَعِيْد ، ويَسَّرَ عليه كل عَسِيْرَ .

ومَن سَكَنَ إلى عِلمِ نَفْسِهِ وعَقْلِه ، واعْتَمَدَ على قُوَّتِهِ وحَوْلِهِ وكله الله إلى نفسه وخُذِلَ وحُرِمَ التوفيقَ فلم تنجح مَطَالِبُه ولم تَتَيَسَّرْ مَآرِبُه .

شعراً :

أَقَرَّ على حُكْمِ الرَّدَى المُتَخَمِّطُ وقَرَّ كأنْ لم يُصْرَعِ المُتخَبِّطُ
عَلَيْكَ سَبيلُ الخَيْرِ وانْظُرْ إلى الذّي تَأَبَّطَ شرًّا هَلْ نَجَا المُتَأبطُ

وإيَّاكَ والتَّفْريطَ في البرِّ والتُّقىٰ ... فكْم قَرَعَ السِّنَّ الذَّهُولُ المُفَرِّطُ
وحَاوِلْ مِن الدُّنْيَا الدّنيَّةِ مُخْلَصاً ... وأنِّي وأنتَ النّاشِبُ المُتَوَرِّطُ
لَعَمْرُ أَبيكَ الخيرَ ما عَزَّ قَاسِطٌ ... ولو مَلَكَ الدّنيا ولا ذَلَّ مُقْسِطُ
تَبَرَّأ غَالٍ مِن مَسَاعِيهِ مُسْرِفٌ ... وأَحْمَدَ عُقْبَى أَمْرِهِ المُتَوَسِّطُ
سَيَنْخَفِضُ الطَّمَّاحُ إِثْماً وعِزَّةً ... وينْقَبِضُ التّلْعَابَةُ المُتَبَسِّطُ

آخر :

سَهَوْنَا عن مُسَاوَرَةِ المنايا ... فيا للَّهِ من سَهْوِ العِبَادِ
وغَرَّتْنَا مُسَاعَدَةُ الأَماني ... فلم نَحْزَنْ على العُمْرِ المُبَادِ
وكَمْ نَادَتْ فأَسْمعَتِ اللَّيَالِيَ ... ولَكِنْ لا مُصِيْخَ إِلَى مُنَادِ
مُجَاهَرَةً بنُكْرٍ دُوْنَ عُرْفٍ ... وتَنْدِيدٌ يُعَادُ بكُلِّ نَادِ
يطُولُ تعجُّبي منّا حَلَلْنَا ... ولم نَخَفِ السُّيُولَ ببَطْنِ وادِ
ولم أَرَ مِثْلَنَا سَفْراً تَبَارَوْا ... إلىٰ الغايَاتِ سَيْراً دُونَ زادِ

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا توفيقاً يَقِيْنَا عَنْ مَعَاصِيْكَ وَأَرْشِدْنَا إلى السَّعْي فِيْمَا يُرْضِيْكَ وأَجِرْنَا يا مَوْلاَنَا مِنْ خِزْيِكَ وَعَذَابِكَ وَهَبْ لَنَا مَا وَهَبْتَهُ لأَوْلِيَائِكَ وأَحْبَابِكَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فصل) فَائِدة ـ قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ :

لِشَهَادَةِ أَنْ لا الَهَ الا الله عِنْدَ المَوْتِ تَأْثِيْرٌ عَظِيْمٌ في تَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ وَاحْبَاطِهَا لأَنَّهَا شَهَادَةٌ مِن عَبْدٍ مُوقِنٍ بها عَارِفٍ بمَضْمُونِهَا قَدْ مَاتَتْ مِنْهُ الشَّهَوَاتِ ولاَنَتْ نَفْسُهُ المُتَمَرِّدَةِ وَانْقَادَتْ بَعْدَ إِبَائِهَا ، وَأَقْبَلَتْ بعدَ اعْرَاضِهَا .

وَذَلَّتْ بَعْدَ عِزِّهَا وَخَرَجَ منها حِرْصُهَا على الدُّنْيَا وَفُضُولُهَا وَاسْتَخْذَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهَا وَفَاطِرِهَا وَمَوْلاَهَا الحَقِّ أذَلَّ مَا كَانَتْ لَهُ وَأَرْجَى ما كانَتْ

لِعَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَتَجرَّدَ مِنْهَا التَّوْحِيْدُ بانْقِطَاعِ أسْبَابِ الشِّرْكِ وَتَحَقُّقِ بُطْلانِهِ .

فَزَالَتْ منها تِلْكَ المُنَازَعَاتِ التي كَانَتْ مَشْغُولَةً بها ، واجْتَمَعَ هَمُّهَا عَلى مَنْ أيْقَنَتْ بالقُدومِ عَلَيْهِ وَالمَصِيْرِ إلَيْهِ، فَوَجَّهَ العَبْدُ وَجْهَهُ بِكُلِّيته إليه ، وَأقْبَلَ بقَلْبه وَرُوحِهِ وَهَمِّه عَلَيْه ، فَاسْتَسْلَمَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ظَاهِراً وَبَاطِناً واسْتَوى سِرُّهُ وَعَلانِيَتُهُ .

فَقَالَ لا إلَه الاَّ اللهُ مُخْلِصاً مِن قَلْبِهِ ، وقد تَخَلَّصَ مِنَ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِه والالْتِفَاتِ إلى مَا سِوَاه ، قَدْ خَرَجَتْ الدُّنْيَا كُلَّها مِنْ قَلْبِهِ وَشَارَفَ القُدُومَ على رَبِّهِ ، وَخَمَدَتْ نِيرانُ شَهْوَتِهِ ، وَامْتَلأ قَلْبُهُ مِنْ الآخِرَةِ ، فصَارَتْ نُصْبَ عَيْنَيْهِ ، وصَارَتْ الدنيا وَرَاءَ ظَهْرِهِ .

فَكَانَتْ تِلْكَ الشَّهَادَةُ الخَالِصَةُ خَاتِمَةَ عَمَلِهِ فَطَهرَّتْهُ مِنْ ذُنُوبِهِ وَأدْخَلَتْهُ على رَبِّهِ لأنَهُ لَقِيَ رَبَّهُ بِشَهَادَةٍ صَادِقَةٍ خَالِصَةٍ وَافَقَ ظاهِرُهَا بَاطِنَهَا وَسِرُّهَا عَلانِيَتَها فَلو حَصَلَتْ لَهُ الشَّهَادَةُ عَلَى هَذَا الوَجْهِ في أيَّامِ الصِّحَّةِ لاسْتَوْحَشَ مِن الدُّنْيَا ، وَأهْلِهَا وفرَّ إلى اللّهِ مِنْ النَّاسِ وَأنِسَ بِهِ دُوْنَ مَنْ سِوَاهُ .لَكِنَّهُ شَهَدَ بِهَا بِقَلْبٍ مَشْحونٍ بالشَّهَوَاتِ وحُبِّ الحَيَاةِ وَأنسٍ بها وَنَفْسٍ مَمْلُوءَةٍ بَطَلَبِ الحُظُوظِ وَالالْتِفَاتِ الى غَيرِ اللّهِ فَلو تَجَرَّدَتْ كَتَجَرُّدِهَا عِنْدَ المَوْتِ لكانَ لهَا نَبَأٌ آخَرُ وَعَيْشٌ آخَرُ سِوَى عَيْشِهَا البَهِيْمِي وَاللهُ المُسْتَعَانُ .

شِعْراً :

أَلَمْ تَـرَ أنَّ المَـرْأَ يَحْبِسُ مَـالَـهُ
وَوَارِثُـهُ فِـيْـهِ غَـداً يَـتَـمَـتَّـعُ
كَـأنَّ الحُمَـاةَ المُشفِقِينَ عَلَيْـكَ قَـدْ

غَدَوا بكَ أَوْ رَاحُوا رَوَاحاً فَأَسْرَعُـوا

ومـا هُوَ إلَّا النَّعْشُ لَـوْ قَدْ أَتَـوَا بِه

تُـقَـلُّ فتَلَقَى فـوْقَـهُ ثُـم تُـرْفَـعُ

وَمَـا هُـوَ إلا حَـادِثٌ بعْـدَ حَـادِثٍ

عَلَيْـكَ فَمِنْ أيِّ الحَـوَادِثِ تَجْـزِعُ

وَمَـا هُـوَ إلَّا المَوْتُ يَـأْتِي لِـوَقْتِهِ

فَمَـالَـكَ في تَـأْخِيْـرِهِ عَنْـكَ مَـدْفَعُ

ألَا واذا وُدِّعْـتَ تَـوْدِيْـعَ هَـالِـكٍ

فَـآخِـرُ يَـوْمٍ مِنْـكَ يَـوْمٌ تُـوَدَّعُ

ألا وَكَمَـا شَيَّعْتَ يَـوْمـاً جَنَـائِـزاً

فَـأَنْـتَ كَمَـا شَيَّعْتَهُـم سَتُشَيَّـعُ

رَأَيْتُـكَ في الـدُّنْيَـا عَلى ثِقَـةٍ بِهَـا

وَإِنَّـكَ في الـدّنْيَـا لأَنْتَ المُـرَوَّعُ

وَصَفْتَ التُّقَى وَصْفاً كَأَنَّكَ ذُوْ تُقَى

وَرِيْـحُ الخَطَايَـا مِنْ ثِيَـابِكَ تَسْطَعُ

وَلَم تُعْنَ بـالأَمرِ الـذي هُـوَ وَاقِـعُ

وَكُـلُّ امْرىءٍ يُعْنَى بمَـا يَتَـوَقَّـعُ

وَإِنَّـكَ لَلْمَنْقُـوْصِ في كُـلِّ حَـالَـةٍ

وَكُلُّ بَنِيْ الدُّنْيَا عَلى النَّقْصِ يُطْبَعُ

وَمَـا زِلْتُ أَرْمِيْ كُـلَّ يَـوْمٍ بِعِبْـرَةٍ

تَكَـادُ لَهَـا صُمُّ الجِبَـالِ تَصَـدَّعُ

فَمَـا بَـالُ عَيْنِيْ لَا تَجُـوْدُ بِمَـائِهَـا

وَمَـا بَـالُ قَلْبِيْ لَا يَـرِقُّ وَيَخْشَـعُ

تَبَـارَكَ مَنْ لَا يَمْلِكُ المُلْكَ غَيْـرُهُ

مَتَى تَنْقَضي حَاجَاتُ مَنْ لَيْسَ يَقْنَعُ
وَأَيُّ امْـرِءٍ في غَـايَـةٍ لَيْسَ نَفْسُـهُ
إلى غَـايَـةٍ أُخْـرَى سِـوَاهَـا تَـطَلَّعُ
وَبَعْضُ بَنِي الـدُّنْيَا لِبَعْضٍ ذَرِيْعَـةٌ
وَكُـلٌّ بِـكُـلٍ قَـلمَّـا يَـتَـمَـتَّـعُ
يُحِبُّ السَّعِيْدُ العَدْلَ عِنْدَ احْتِجَاجِهِ
وَيَبْغِيْ الشَّقِيُّ البَغْيَ والبَغْيُ يَصْـرَعُ

اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلى نَهْجِ الاسْتِقَامَةِ وَأَعِذْنَا مِنْ مُوجِبَاتِ الحَسْـرةِ وَالنَّدَامَةِ يَوْمَ القِيَامةِ وَخَفِّفْ عَنَّا ثُقْلَ الأَوْزَارِ ، وَارْزُقْنَا عِيْشَةَ الابْرَارِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ بِرَحْمتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِين .

مَوْعِظة

عِبَادَ اللَّهِ كُلُّنَا نَعْلَمُ أَنَّ حَيَاتَنَا مَهْمَـا امْتَدَّتْ وَصَفَتْ لِلزَّوالِ ، وَكَذلِكَ كُلّ وَاحِدٍ منّا يَعْلَمُ أنه أتى للدنْيَا للاختِبَارِ بِمَا كُلِّفْنا به مِنْ العِبَادَاتِ وَالمعَامَلاتِ ، وَسَيُصْبِحُ الوَاحِدُ مِنَّا عَمّا قَرِيْبٍ في حُفْرَةٍ وَحِيداً لَيْسَ مَعَهُ أَوْلَادٌ وَلا أَمْوَالٌ ، وَحِيْنَئِذٍ تَكُوْنُ أَيُّها الأَخُ كأنكَ مَا رأيْتَ الدُّنْيَا وَلا هِيَ رَأَتْكَ لَحظَةً مِنْ اللَّحظَاتِ .

وَيَالَيْتَكَ إِذَا زَالَتْ الحَيَاةُ تَزُوْلُ دُوْنَ أَنْ يَترَتَّبَ عَلَيْهَا آثَارٌ لَوْ كَانَ ذَلِكَ لأحَبَّ بَعْضُنَا المَوْتَ ، لأَنَّهُ يَكُونُ بَشِيْراً بِانْتِهَاءِ الأَمْرَاضِ وَالمَصَائِبِ وِالآلامِ ، لكِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّه يَعْقُبُ ذَلِكَ المَوْتَ أَهْوَالٌ ، وَأُمُورٌ مُزْعِجَاتٌ ، تُلاقِيْ جَزَاءَ مَا كَانَ مِنْكَ قَبْلَ المَوْتِ فِي الاخْتِبَار .

فَانْ كُنْتَ قَدْ أَحْسَنْتَ ، رَأَيْتَ قَبْرَكَ رَوْضَةَ نَعِيمٍ ، وَانْ كُنْتَ مُسِيْئاً رَأَيْتَهُ نِيْرَاناً مُحْرِقَاتٍ .

عَن البَرَاءِ بن عَازِبٍ قَالَ كُنَّا في جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنْ الانْصَارِ وَمَعَنَا رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم فانتَهينا إلى القَبْر ولم يُلْحَدْ ، وَوُضِعَتْ الجَنَازَةُ ، وَجَلَسَ رسولُ اللهِ صلى الله عَليه وسلم ، فَقَالَ إنَّ المؤمِنَ إذا احْتُضِرَ ، أتاه مَلَكُ الموتِ في أَحْسَنِ صُوْرَةٍ ، وأَطْيَبَ رِيْحاً ، فَجَلَسَ عِنْدَه ، لِقَبْضِ رُوْحِهِ ، وَأَتَاه مَلَكَانِ بحَنُوطٍ مِن الجَنَّةِ وَكَانَا منه على بَعِيْدٍ فَاسْتَخْرَجَ مَلَكُ المَوْتِ رُوْحَهُ مِن جَسَدِهِ رَشْحاً .

فَإِذَا صَارَتْ إلى مَلَكِ المَوْتِ ابْتَدَرَهَا الملكَانِ فَأَخَذَاهَا مِنْهُ فَحَنَّطَاهَا بحَنُوْطٍ من الجَنّةِ وكَفَّنَاهَا بكَفَنٍ من الجَنة ثم عَرَجا بهَا إلى الجَنة ، فَتُفْتَحُ له أبْوابُ السَّمَاءِ ، وتَسْتَبْشِرُ الملائِكَةُ بهَا وَيَقُولُوْنَ لمن هَذِه الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ التي فُتِحَتْ لها أبْوَابُ السَّمَاءِ .

وَيُسَمَّى بأَحْسَنِ الأَسْمَاءِ التي كان يُسَمَّى بها في الدنيا ، فَيُقَال هذه رُوْحُ فُلانٍ فإذا صَعَدَا بها إلى السَّمَاءِ شَيَّعَها مُقَرَّبُوا كُلِّ سَمَاءٍ ، حتى تُوْضَعَ بين يَدَيْ اللهِ عندَ العَرْشِ ، فيُخْرَجُ عَمَلُهَا مِن عِلِّيِّيْنَ فيَقُولُ الله عَز وجَلّ للمُقَرَّبين اشْهَدوا أَنّي قد غَفَرْتُ لصَاحِبِ هذا العَمَل ، وَيُخْتَمُ كِتَابُه فيُرَدُّ في عِلِّيِّيْنَ .

فيَقُولَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رُدُّوا رُوْحَ عَبْدِي إلى الارْضِ ، فَإِنِّي وَعَدْتُهُم أَنِّي أَرُدُّهُم فِيْها .

ثُمَّ قَرَأَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم « مِنْهَا خَلَقْنَاكُم وَفيها نُعِيْدُكم ومنها نُخْرِجُكم تَارَةً أُخْرَى » فإذَا وُضِعَ المؤْمِنُ في لَحْدِهِ تَقُولُ له

الأَرْضُ إنْ كُنْتَ لَحبِيْباً إليَّ وَأَنْتَ على ظَهْرِيْ ، فَكَيفَ إذْ صِرْتَ اليَوْمَ في بَطْنِيْ سَأُرِيْكَ مَا أَصْنَعُ بِكَ ، فَيُفْسَحُ لهُ في قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ .

وَقَالَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا وُضِعَ الكَافِرُ في قَبْرِهِ أَتَاهُ مُنْكَرٌ وَنَكِير فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ ، فَيَقُولَ لا أدْرِيْ فَيَقُولاَنِ لَهُ لادَرَيْتَ ، فَيَضْرِبَانِهِ ضَرْبَةً فَيَصِيْرُ رَماداً ، ثُمَّ يُعَادُ فَيَجْلَسُ فَيُقَالُ لَهُ مَا قَوْلُكَ في هَذا الرَّجُلِ ، فَيَقُولُ أيُّ رَجُلٍ فَيَقُولاَنِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُ قَالَ النَّاسُ إنَّهُ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وسَلم فَيَضْرِبَانَه ضَرْبَةً فَيَصِيْرُ رَماداً .

وَيَا لَيْتَ الأَمْرُ يَنْتَهِي ، وَيَقِفُ عند هَذَا الحَدِّ ،فَتَبْقَى في قَبْرِكَ عَلى الدَّوَامِ ، فَإِنَّه أَخفُّ مِمَا بَعْدَهُ ، فَتَكُونُ آلامُكَ فِيْهِ أخفُّ إنْ كُنْتَ مِن أهْلِ الشَّقَاءِ وَالآثامِ ، وَلَكِن تَعْلَمُ أنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ اللَّهُ سَيَقَعُ ، وَهُو القِيَامُ مِن القُبُورِ ، قَالَ اللهُ تَعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِيْنِ ﴾ .

وَحِيْنَئِذٍ تَسُوقُكَ نَتيجَةُ اخْتِيَارِكَ إمَّا إلى الجَنَّةِ وإمَّا إلى السَّعِيْرِ ، مَنْ كَانَ مكذبا بهَذا والعِيَاذُ باللَّهُ فلا كَلامَ لَنَا مَعَهُ ، لإِنَّ مَآلَهُ إلى جَهَنَّمَ وَبئْسَ المِهَادِ لأَنَّهُ مِن الكافِرينَ ، وَإِنْ كَانَ مُؤمِناً بذَلِكَ كمَا أَخْبرَ اللَّهُ وَرسُولَهُ فهُوَ الذِي تُفِيْدُ فِيْهِ المَواعِظُ وَضرْبِ الأمْثَالِ وَيُقَالُ لِمَاذا نَرَاكَ مُتَّصِفاً بمَا يُخَالُف قولك :

شعــراً :

فــأَكْـثرُ مَن تَلْقى يَسُـرُّكَ قَـولُه ولكن قَليلٌ مَـن يَسُـرُّكَ فِعْـلُهُ

آخــر : وَحَتَّـامَ لا تَصْحُو وقَد قَرُبَ المدَى

وحَتَّـامَ لا يَنْجَـابُ عن قَلْبِكَ السُّـكْرُ

بَلَى سَوْفَ تَصْحُو حِيْنَ يَنكَشِفُ الغِطَا
وتـذكُـر قـولـي حِـيْنَ لا ينفَـعِ الذِكْـر

آخــر :
وَمُنْتَـظِـرٍ لِلْمَـوْتِ فـي كُـلِّ سَـاعَـةٍ
يَشِـيْدُ وَيَبْـنِي دَائِـمـاً وَيُحَصِّـنُ
لَـهُ حِـيْنَ تَبْـلُوْهُ حَقِـيْقَـةُ مُـوْقِـنَ
وَأَفْـعَـالُـهُ أَفْعَـالُ مَـنْ لَيْسَ يُـوْقِـنُ
عِيَـانٌ كَـإنْكَـارٍ وَكَـالْجَهْـلِ عِلْمُـهُ
بِمَـذْهَبِـهِ فـي كُـلِّ مَـا يَتَيَـقَّنُ

نَرَاكَ في لَيْلِكَ وَنَهارِكَ في مَا يُغْضِبُ مَوْلَاكَ فَلِسَانُكَ في مَيْدَانِ الفُحْشِ ، وَمُنْكَرِ القَوْلِ جَوَادٌ عَظِيْمٌ وَعَيْنُكَ في أَوْدِيَةِ النَّظَرَاتِ الخَائِنَةِ دَائِما تَجُولُ وَتَهِيْمُ ، وَفَرْجُكَ لا يَتَهَيَّبُ أَنْ يَتَجاوَزَ أَرْضَهُ الطيِّبَةِ الى الأرضِ الوَبِيْئَةِ الخَبِيْثَةِ وأمَّا بَطْنُكَ فَلا يَعِفُّ عَنْ أَخْبَثِ المَأكُولاتِ ، وَأَمَّا أذنُكَ فَمُصَغِيَةٌ وَسَامِعَةٌ الى مَالا يَحِلُّ من الكَلَام .

وَأَمّا رِجْلُكَ فَسَاعِيَةٌ الى المعَاصِيْ وَالآثَامِ ، وَأَمَّا يَدُكَ فَبَاطِشَةٌ بالضَّعِيْفِ دُوْنَ تَوَقُّعٍ ، فَيَا مِسْكِيْنُ انَّ المَعَاصِيْ عَدُوٌ مُبِيْنٌ ، يَعْلَمُ ذَلِكَ كلُّ مُؤْمِنٍ عَاقِلٍ لَبِيْبٍ ، وَانَّ مَآلَ المُصِرِّ عَلَيْها انْ لَمْ يَتَجاوزْ عَنْهُ مَوْلَاهُ النارُ فَهَلْ العَاقِلُ فَضلاً عَنْ المؤمِن يُلْقِي نَفْسَهُ فِيْهَا ، فَاتَّعِظْ وتَنَبَّه أَيُّهَا الأخُ وَبَرْهِنْ على أَنكَ تُميِّزُ بَيْنَ النَّافِعِ وَالضَّارِ .

شِعْرًا :

يَـا طَـالِبـاً رَاحَـةً مِنْ دَهْـرِهِ عَبَثـاً
أقْصِر فَمَا الـدَّهْرُ إلاَّ بـالهُمُوْمِ مُلِيْ
كَمْ مَنْـظَرٍ رَائِـقٍ أفْنَـتْ جَمَـالَتـه
يَـدُ المَنُـوْنِ وَأعْيَتْـهُ عَنْ الحِيَـلِ
وَكَمْ هُمَـامٍ وَكَم قَـرْمٍ وَكَمْ مَلِكٍ
تَحْتَ التُرَابِ وَكَم شَهْمٍ وَكَمْ بَطَلِ
وَكَـمْ إمَـامٍ إلَيْـهِ تَـنْـتَـهِي دُوَلٌ
قَدْ صَارَ بالموتِ مَعْزُولاً عَنْ الدُّوَلِ
وَكَمْ عَـزِيْـزٍ أذَلَّتْـهُ المَنُـونُ وَمَـا
أنْ صَدَّهَا عَنْـهُ مِنْ مَالٍ وَلاَ خَـوَلَ
يَـا عَـارِفـاً دَهْـرَهُ يَكْفِيـكَ مَعْـرِفَـةً
وَإنْ جَهلْتَ تَصَـارِيْفَ الزَّمَـانِ سَـلِ
هَلْ في زَمَانِكَ أوْ مَنْ قَبْلَهُ سَمعتْ
أُذْنَـاكَ أنَّ ابْنَ أُنْثَى غَيْـرُ مُنْتَقِـلِ
وَهَـلْ رَأيْتَ أُنـاسـاً قَـدْ عَلوا وَغَلَوا
في الفَضْلِ زَادُوا بِمَا نَالُوا عَنْ الأجَلِ
أوْ هَلْ نَسِيْتَ «لِدُوْا لِلْمَوْتِ» أوْ عَمِيَتْ
عَيْنَـاكَ عَنْ وَاضِعٍ نَعْشـاً وَمُحْتَمِـلِ
وَهَـلْ رَعَى المَـوْتُ ذَا عِـزٍّ لِعُـزتِـهِ
أوْ هَـلْ خَلا أحَـدٌ دَهْراً بِـلا خَلَلِ
المَـوْتُ بَـابٌ وَكُـلُّ النَّـاسِ دَاخِلُهُ
لَكِنَّ ذا الفَضْلِ مَحْمُولٌ على عَجَلِ

وَلَيْسَ فَقْدُ إِمَامٍ عَالِمٍ عَلَمٍ
كَفقدِ مَنْ لَيْسَ ذا عِلْمٍ وَلا عَمَلِ
وَلَيْسَ مَوْتُ الذِيْ مَاتَتْ لَهُ أُمَمٌ
كَمَوْتُ شَخْصٍ مِنْ الأَوْغَادِ وَالسَّفَلِ

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ وَقَوِّى إِيْمَانَنَا بِكَ وَمَلاَئِكَتِكَ وَكُتُبِكَ وَرُسُلكَ وَاليَوْمِ الآخرْ والقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَوَفِّقْنَا لامتِثَالْ أَمْرِكَ واغفِرْ لَنَا وَلِوالِدَيْنَا وَلجَمْيعِ المُسْلِمِيْنَ بَرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

في الرَّجَــاءِ

الرَّجَاءُ قِيْلَ في تَعْرِيْفِه هُوَ ارْتِيَاحٌ لإِنْتِظَارِ مَا هُوَ مَحْبُوبٌ عِنْدَ الانْسَانِ وَلَكِنَّ ذَلِكَ المتَوَقَّع لا بُدَّ لهُ من سَبَبٍ حَاصِلٍ ، فانْ لَمْ يَكُنْ السَّبَبُ مَعْلُومَ الوُجُوْدِ وَلا مَعْلُوْمَ الانْتِفَاءِ سُمِّيَ تَمنِّياً لأنه انْتِظَارٌ من غَيْرِ سَبَبٍ ولا يُطْلَقُ اسْمُ الرَّجَاءِ وَالخَوْفِ إِلَّا عَلَى مَا يُتَرَدَّدُ فِيْهِ .

فَأمَّا مَا لا يُتَرَدَّدُ فيهِ وَيُقْطَعُ بِهِ فَلا إِذْ لاَ يُقَالُ أَرْجُو طُلُوْعَ الشَّمْسِ ولكن يُقَالُ أَرْجو نُزُوْلَ الْمَطر ، وَأَخَافُ انْقِطَاعَهُ وَضِدُّ الرَّجَاءِ اليَأْسُ وَهُو تَذَكُّرُ فَوْتِ رَحْمَةِ اللّهِ ، وَقَطْعُ القَلْبِ عن ذَلِكَ ، واليَأْسُ مَعْصِيَةٌ قالَ تعَالَى إِخْبَاراً عَمَّا قَالَهُ يَعْقُوبُ ﴿ **وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللّهِ إِلَّا القَوْمُ الكَافِرُوْنَ** ﴾ .

وَمُقَدِّمَاتُ الرَّجَاءِ أَرْبَعٌ ، الأُوْلَى ذِكْرُ سَوَابِقِ فَضْلِ اللَّهِ إِلى العَبْدِ وَالثَّانِيَةِ ذِكْرُ مَا وَعَدَ اللهُ مِن جَزِيْلِ ثَوَابِهِ وَعَظِيْمِ كَرَمِهِ وَجُـوْدِه دُوْنَ اسْتِحْقَاقٍ أَوْ سُؤَالٍ ، الثَّالِثَة : ذِكْرُ كَثْرَةِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكَ في أَمْرِ دِيْنِكَ وَبَدَنِكَ وَدُنْيَاكَ في الحَالِ مِنْ أَنْوَاعِ الأَمْدَادِ والأَلْطَافِ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ أَوْ سُؤَالٍ ، وَالرَّابِعَةُ ذِكْرُ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَبْقِهَا غَضَبَهُ وَأَنَّـهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيْمُ الغَنِيُّ الكَرِيْمُ الرَّؤُفُ بِعِبَادِهِ المُؤْمِنِيْنَ ، وَقُوَّةُ الرَّجَاءِ عَلى حَسَبِ قُوَّةِ المعْرِفَةِ باللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَغَلَبَةِ رَحْمَتِهِ غَضَبِهِ

قَالَ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ فَالرَّجَاءُ ضَرُوْرِيٌّ لِلْمُرِيْدِ السَّالِكِ والعَارِفِ لَوْ فَارَقَهُ لَحْظَةً لَتَلِفَ أَوْ كَادَ فَإِنهُ دَائِرٌ بَيْنَ ذَنْبٍ يَرْجُو غُفْرَانَهُ وَعَيْبٍ يَرْجُو إِصْلاَحَهُ وَعَمَلٍ صَالِحٍ يَرْجُو قَبُوْلَهُ وَاسْتِقَامَةٍ يَرْجُو حُصُوْلَهَا وَدَوَامَهَا .

وَقُرْبٍ مِن اللَّهِ وَمَنْزِلَةٍ عِنْدَهُ يرْجُو وُصُوْلَهُ إِلَيْهَا وَالرَّجَاءُ مِن الأَسْبَابِ التي يَنَالُ بهَا العَبْدُ مَا يَرْجُوهُ مِن رَبِّهِ بل هُوَ مِن أَقْوَى الاسْبَابِ أهـ .

وَقَالَ في مُخْتَصَرِ مِنْهَاجِ القَاصِدِيْنَ : وَقَدْ عَلِمَ أَرْبَابُ القُلُوْبِ أَنَّ الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ وَالقَلْبُ كالأَرْضِ وَالايْمَانُ كالْبَذْرِ فِيْهَا وَالطَّاعَاتُ جَارِيَةٌ مَجْرَى تَنْقِيَةِ الأَرْضِ وَتَطْهِيْرِهَا ، وَمَجْرَى حَفْرِ الأَنْهَارِ وَسِيَاقَةِ المَاءِ اليْهَا .

وأَنَّ القَلْبَ المُسْتَغْرِقَ بالدُّنْيَا كالأَرْضِ السَّبِخَةِ التي لاَ يَنْمُو فِيْهَا البَذْرُ وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُوَ يَوْمُ الحَصَادِ ، وَلا يَحْصُدُ أَحَدُ الاَّ مَا زَرَعَ وَلاَ يَنْمُو زَرْعٌ إِلاَّ مَنْ بَذَرَ الايْمَانَ ، وَقَلَّ أَنْ يَنْفَعَ إِيْمَانٌ مَعَ خُبْثِ القَلْبِ وَسُوْءِ أَخْلاَقِهِ ، كَمَا لا يَنْمُو البَذْرُ في الأَرْضِ السَّبِخَةِ .

فَيَنْبَغِي أنْ يُقَاسَ رَجَاءُ العَبْدِ المغْفِرَةَ بِرَجَاءِ صَاحِبِ الزَّرْعِ ، فَكُلُّ مَنْ طَلَبَ أَرْضاً طَيِّبَةً وَأَلْقَى فِيهَا بُراً جَيِّداً غَيْرَ مُسَوَّسٍ وَ عَفِنٍ ، ثُمَّ سَاقَ إليها الماءَ في أَوْقَاتِ الحَاجَةِ ونَقَّى الأَرْضَ مِنْ الشَّوْكِ والحَشِيْشِ وَمَا يُفْسِدُ الزَّرْعَ .

ثُم جَلَسَ يَنْتَظِرُ مِن فَضْلِ اللهِ تَعَالى دَفْعَ الصَّوَاعِقِ والآفَاتِ المُفْسِدَةِ إلى أنْ يَتِمَّ الزَّرْعُ وَيَبْلُغَ غَايَتَهُ ، فَهذا يُسَمَّى انْتِظَارُه رجاءً فأمَّا إنْ بَذَرَ في أَرْضٍ سَبِخَةٍ صَلْبَةٍ مُرْتَفِعَةٍ لا يَصِلُ إلَيْهَا الماءُ وَلَمْ يَتَعَاهَدْهَا أَصْلاً ثم انْتَظَرَ الحَصَادَ فهذا يُسَمَّى انْتِظَارُه حُمْقاً وَغُرُوْراً لاَ رَجَاءً .

وَإنْ بَثَّ البَذْرَ في أَرْضٍ طَيِّبَةٍ ، وَلَكِنْ لا مَاءَ لَهَا وَأَخَذَ يَنْتَظِرُ مِيَاهَ الامْطَارِ سُمِّيَ انْتِظَارُهُ تَمَنِّياً لا رَجَاءً ، فإنَّ اسْمَ الرَّجَاءِ إنَّمَا يَصْدُقُ عَلى انْتِظَارِ مَحْبُوبٍ ، تَمَهَّدَتْ أَسْبَابُه الدَّاخِلَةُ تَحْتَ اخْتِيَارِ العَبْدِ ، وَلم يَبْقَ إلا مَا لَيْسَ إلى اخْتِيَارِهِ ، وَهُوَ فَضْلُ اللهِ سُبْحَانَهُ بِصَرْفِ المَوانِعِ المُفْسِدَاتِ .

فَالعَبْدُ إذَا بَثَّ بَذْرَ الايْمَانِ وَسَقَاهُ مَاءَالطَّاعات ، وَطَهَّرَ القُلُوْبَ مِن شَوْكِ الأَخْلاقِ الرَّدِيْئَةِ وَانْتَظَرَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعالى ثَبَاتَهُ على ذَلِكَ إلى المَوْتِ ، وَحُسْنَ الخَاتِمَةِ المُفْضِيَةِ إلى المَغْفِرَةِ كَانَ انْتِظَارُهُ لِذَلِكَ رَجَاءً مَحْمُوداً بَاعِثاً عَلى المُوَاظَبَةِ عَلى الطَّاعَاتِ وَالقِيَامِ بِمُقْتَضَى الإيْمَانِ إلى المَوْتِ .

شعـرا :

تَـرَى الـدُّنْيـا وزينَتَهـا ، فَتَصْبُـو ... ومـا يَخْلُـو مِـنَ الشَّـهَواتِ قَـلْبُ
فُضُـولُ العَيشِ أَكْثَرُهـا هُمُـومٌ ... وأَكْـثَرُ مـا يَضُـرُّكَ مـا تُحِـبُّ
فَـلا يَغْـرُرْكَ زُخْـرُفُ مـا تَـراهُ ، ... وعَيـشٌ لَـيِّنُ الأَعْطَـافِ رَطْـبُ

وَإِنْ قَطَعَ بَذْرَ الايمَانِ عَنْ تَعَهُّدِهِ بِمَاءِ الطَّاعَات أَوْ تَرَكَ القَلْبِ مَشْحُوناً بِرَذَائِلِ الأَخْلاقِ وَانْهَمَكَ في طَلَبِ لَذَّاتِ الدُّنْيَا .

ثُمَّ انْتَظَرَ المَغْفِرَةَ كَانَ ذَلِكَ حُمْقاً وَغُرُوْرًا قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُوْنَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ، وَإِنْ يَأْتِهِم عَرَضٌ مِثْلُه يَأْخُذُوْه﴾ وَذَمَّ القَائِلَ ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ .

شِعْـرًا :

أَفِي السَّبَخَـاتِ يَا مَغْبُـونُ تَبْنِي ... وَمَا أَبْقَى السَّبَاخُ عَلَى الأَسَاسِ
ذُنُوبُكَ جَمَّـةٌ تَتْرَى عِظَـاماً ... وَدَمْعُـكَ جَامِدٌ والقَلْبُ قَاسِي
وأَيَّاماً عَصَيْـتَ اللهَ فِيْهَـا ... وقَدْ حُفِظَتْ عَلَيْكَ وأَنْتَ نَاسِي
فَكَيفَ تُطِيْـقُ يَومَ الدِّين حَمْلاً ... لِأَوْزَارِ الكَبَـائِرِ كَالرَّواسِـي
هُوَ اليَوْمُ الذِي لا وُدَّ فِيْهِ ... ولا نَسَـبٌ ولا أَحَـدٌ مُوَاسِي

اللهم يا عالمَ الخفيات ، ويا رفيعَ الدرجات ، يا غافرَ الذنبِ وقابل التوب شديد العقاب ذِي الطول لا إله إنْتَ إليكَ المصير .

نَسْأَلُكَ أنْ تُذِيْقَنا بَرْدَ عفوكَ ، وحلاوةَ رحمتكَ ، يا أرحمَ الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

موعظة : عِبَادَ الله يَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلا وتَقَدَّسَ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمِنُون الذين هُمْ في صَلاتِهِم خَاشِعُوْنَ ﴾ عِبَادَ اللهِ انَّ الصَّلاَةَ عِمَادُ الدِّيْنِ وَأَعْظَمُ أَرْكَانِ الإِسْلَامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَهِيَ قُرَّةُ عَيْنِ المُؤْمِن وَطُمَأْنِيْنَةُ قَلْبِهِ تَبْدُو وَاضِحَةً في وُقُوْفِهِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ ، وَخُشُوْعِه وَانكِسَارِهِ ، عِنْدَمَا يَتَّجِهُ إِلَيْهِ في عِبَادَتِهِ ، وَيَقِفُ خَاضِعاً ذَلِيْلاً بَيْنَ يَدَيْ العَزِيْزِ الحَكِيْمِ .

عِبَادَ اللهِ مَنْ حَافَظَ عَلى الصَّلاَةِ فَهُوَ السَّعِيْدُ الرَّابِحُ ، وَمَنْ أَضَاعَهَا فَهُوَ الشَّقِيُّ الخَاسِرُ ، وَإِنَّ اللبِيْبَ العَاقِلَ مَنْ إذا حَضَرَ لِلصَّلاَةِ أَقْبَلَ بِقَلْبِهِ وَقالبهِ ، طَرَحَ الدُّنْيَا وَشؤُنَها وَمُتَعَلِّقَاتِهَا جَانِباً وَتَدَبَّرَ مَا يَتْلُوهُ إنْ كانَ وَحْدَهُ أَوْ إمَاماً . وَأَنْصَتَ وَأَحْضَر قَلْبَهُ إنْ كَانَ مَأْمُوماً وَتَفهَّم مَا يَسْمَعُ وَابْتَهَل وَتضَرَّعَ إلى مَوْلاَهُ .

مَوْعِظَةْ:عِبَادَ اللّهِ إنَّ الخُشُوْعَ في الصَّلاَةِ هُوَ رُوْحُهَا ، وَالمِحْوَرَ الذِيْ تَدُوْرُ عَلَيْهِ سَائِرُ أَفْعَالِهَا ، وَالخُشُوْعُ فِيْهَا مَعَ الإخْلاَصِ للهِ آيَةُ الإِيْمَانِ وَسَبَبُ الفَلاَحِ وَأَمَانٌ مِن وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ . أَلاَ وَإِنَّ الصَّلاَة بلا خُشُوْعٍ كَجَسَدٍ بلا رُوْحٍ ، قالَ ابْنُ عَباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا « لَيْسَ لَكَ مِنْ صَلاَتِكَ إلاَّ مَا عَقَلْتَ مِنْهَا » .

وَفي المُسْنَدِ مَرْفُوعاً إنَّ العَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلاَةَ وَلَمْ يُكْتَبْ لَهُ إلاَّ نِصْفَهَا أَوْ ثُلُثَهَا أَوْ رُبْعَهَا ، حَتَّى بَلَغَ عُشْرَهَا ، وَقَدْ عَلَّقَ اللهُ فَلاَحَ المصَلِّيْنَ بالخُشُوْعِ في صَلاَتِهِم ، فَدَلَّ عَلى أَنَّ مَنْ لم يَخْشَعْ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الفَلاَحِ وَلَوْ اعْتُدَّ لَهُ بِهَا ثَوَاباً لَكَانَ مِنْ المفْلِحِيْنَ هَكَذا قالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ .

قالُوا وامَّا الاعْتِدَادُ بِهَا في أَحْكَامِ الدُّنْيَا وَسُقُوْطِ القَضَاءِ فَإِنْ غَلَبَ الخُشُوْعُ وَتَعَقُّلُها اعْتُدَّ بِهَا اجْمَاعاً ، وَكَانَتْ السُّنَنُ والاذْكَارُ عَقِبَهَا جَوَابِرَ وَمُكَمِّلاتٍ لِنَقْصِهَا ، وَانْ غَلَبَ عَلَيْهِ عَدَمُ الخُشوعِ فِيْهَا وَعُدِمَ تَعَقّلُها .

فقد اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ في وُجُوْبِ اعَادَتِهَا وَاحْتَجُّوا بِأَنَّهَا صَلاَةٌ لاَ يُثَابُ عليها ، ولم يُضْمَنْ له فيها الفَلاَحُ فلم تَبْرَأْ ذِمَّتَهُ منها ، وَيَسْقُطُ القَضَاءُ

عنهُ كصَلاةِ المرَائِي قَالُوا وَلأَنَّ الخُشُوْعَ وَالعَقْلَ رُوْحُ الصَّلاَةِ ، وَمَقْصُوْدُهَا وَلُبُّهَا ، فَكَيْفَ يُعْتَدُّ بصَلاةٍ فُقِدَتْ رُوْحَهَا ، وَلُبُّهَا وَبَقِيَتْ صُوْرَتُهَا وَظَاهِرُهَا .

قَالُوا وَلَوْ تَرَكَ العَبْدُ وَاجباً من وَاجِبَاتِهَا عَمْداً لأَبْطَلَهَا تَرْكُهُ وَغَايَتُه أنْ يَكُوْنَ بَعْضاً مِنْ أَبْعَاضِهَا بِمَنْزِلَةِ فَواتِ عُضْوٍ من أَعْضَاءِ العَبْدِ المُعْتَقِ في الكَفَّارَةِ ، فَكَيْفَ إِذَا عُدِمَتْ رُوْحُهَا وَمَقْصُوْدُهَا ، وَصَارَتْ بمَنزلَةِ العَبْدِ الميِّتِ فإِذَا لَم يُعْتَدّ بالعَبْدِ المقْطُوْعِ اليَدِ يُعْتِقُه تَقَرُّباً إلى اللهِ تَعَالَى في كَفَّارَةٍ وَاجِبَةٍ فَكَيْفَ يُعْتَدُّ بالعَبْدِ الميِّتِ .

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ الصَّلاَةُ كَجَارِيَةٍ تُهْدَى إلى مَلِكٍ مِن المُلُوْكِ فَمَا الظَّنُّ بمَنْ يُهْدِي إِلَيْهِ جارِيَةً شَلاَّءَ أَوْ عَوْرَاءَ أَوْ عَمْيَاءَ أَوْ مَقْطُوْعَةَ اليَدِ أَوْ الرِّجْلِ أَوْ مَرِيْضَةً أَوْ دَمِيْمَةً أَوْ قَبِيْحَةً حَتَّى يُهْدِي إليهِ جارِيَةً مَيِّتَةً بلاَ رُوْحٍ وَجَارِيَةً قَبِيْحَةً فَكَيْفَ بالصَّلاةِ التي يُهْدِيْهَا العَبْدُ وَيَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى رَبِّهِ تَعَالَى وَاللَّهُ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّباً وَلَيْسَ مِن العَمَلِ الطَّيِّبِ صَلاَةٌ لا رُوْحَ فِيْهَا كمَا أنه لَيْسَ مِن العِتْقِ الطَّيِّبِ عِتْقُ عَبْدٍ بلا رُوْحٍ .

قَالُوا وَتَعطِيْلُ القَلْبِ عن عُبُوْدِيَّةِ الحُضُوْرِ وَالخُشُوْعِ تَعْطِيْلٌ لِمَلِكِ الأَعْضَاءِ عن عُبُودِيَّتِهِ وَعَزْلٌ له عَنْهَا فمَاذَا تُغْنِيْ طَاعَةُ الرَّعِيَّةِ وَعُبُودِيَّتُهَا وَقَدْ عُزِلَ مَلِكُهَا وَتَعَطَّلَ .

قَالُوا وَالأَعْضَاءُ تَابِعَةٌ لِلْقَلْبِ تَصْلُحُ بِصَلاَحِهِ وَتَفْسُدُ بِفَسَادِهِ فإذا لم يكن قائماً بِعُبُودِيَّتِهِ فَالأَعْضَاءُ أَوْلَى أَنْ لا يُعْتَدَّ بِعُبُودِيَّتِهَا وَإِذَا فَسَدَتْ عُبُودِيَّتُه بالغَفْلَةِ وَالوَسْوَاسِ فَأَنَّى تَصِحُّ عُبُودِيَّةُ رَعِيَّتِهِ وَجُنْدِهِ وَمَادَّتُهم مِنْهُ

وَعَنْ أَمْرِهِ يَصْدُرُوْنَ وَبِهِ يَأْتَمِرُوْنَ .

قَالُوا وَلأَنَّ عُبُودِيَّةَ مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الغَفْلَةُ وَالسَّهْوُ في الغَالِب لاَ تَكُوْنُ مُصَاحِبَةً للإِخْلاَص فَإِنَّ الإِخْلاَصَ قَصْدُ المَعْبُودِ وَحْدَهُ بِالتَّعَبُّدِ وَالغَافِلُ لاَ قَصْدَ لَهُ فَلاَ عُبُوْدِيَّةَ لَهُ .

قَالُوا وَقَدْ قَالَ اللّهُ تَعَالَى ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّيْنَ الذِيْنَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُوْنَ ﴾ وَلَيْسَ السَّهْوُ عَنْهَا تَرْكُهَا وَإِلاَّ لَمْ يَكُونُوا مُصَلِّيْنَ وإِنَّمَا السَّهْوُ عَنْ وَاجِبَها إِمَّا عَن الحُضُوْرِ أَوِ الخُشُوْعِ .

وَالصَّوَابُ أَنَّه يَعُمُّ النَّوْعَيْنِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَثْبَتَ لَهُم صَلاَةً وَوَصَفَهَا بالسَّهْوِ عَنْهَا ، فَهُوَ السَّهْوُ عن وَقْتِهَا الوَاجِبِ أو عَنْ اخْلاَصِهَا وَحُضُوْرِهَا الوَاجِبَ ، وَلِذَلِكَ وَصَفَهُم بالرِّيَاءِ ، ولو كَانَ السَّهْوُ سَهْوَ تَرْكٍ لما كَانَ هُنَاكَ رِيَاءٌ أهـ .

وَبالتَّالِي فَانَّ العَبْدَ إِذَا مَـرَّنَ نَفْسَهُ وَقَلْبَـهُ عَلى التَّفَهُّمِ وَالتَّدَبُّرِ وَالخُشُوْعِ وَالخُضُوْعِ في الصَّلاَةِ انْغَرَسَتْ في قَلْبِهِ خَشْيَةُ اللّهِ وَمَحَبَّتِه وَالرَّغْبَةِ فِيْمَا لَدَيْهِ ، وَحَضَرَتْهُ هَيْبَةُ خَالِقِهِ في جَمِيْعِ أَحْوَالِهِ وفي جَمِيْعِ أَعْمَالِهِ .

فَإِذَا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أَمْراً أَوْ زَيَّنَ الشَّيْطَانُ سُوْءاً تَبَرَّأَ مِنْهُمَا قَائِلاً إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالمين فَكُنْ في صَلاتِكَ خَاشِعاً خَاضِعاً مُخْبِتا .

فَإِذَا قُلْتَ اللهُ أَكْبَرُ فَاسْتَحْضِرْ عَظَمَةَ اللّهِ وَأَنَّه لا شَيْءَ أَكْبَرَ مِنْهُ وَلاَ شَيْءَ أَعْظَـمَ مِنه وَأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لأَنْ يُعَظَّمَ وَيُجَلَّ وَيُقَدَّرَ وَأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُسَاوِيْهِ أَوْ يُدَانِيْهِ في عَظَمَتِهِ .

وَإِذَا قُلْتَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالمينَ فاسْتَحْضِرْ أَنَّهُ المُسْتَحِقُّ لِلثَّنَاءِ وَأنَّهُ المربِّي لِجَمِيعِ الخَلْقِ التَّرْبِيَةَ العَامَّةَ والمُرَبِّي لِخَواصِّ خَلْقِهِ التَّرْبِيَةَ الخَاصَّةَ ، وَهِيَ تَرْبِيَةُ القُلُوبِ على العَقَائِدِ النَّافِعَةِ ، وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَالأَخْلَاقِ الفَاضِلَة .

وَإِذَا قُلْتَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيْم اسْتَحْضَرْتَ لِرَحْمتِهِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ رَاجِياً مِنْهُ أَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ كَتَبَهَا لَهُمْ فَإِذَا قُلْتُ مَلِكِ يَوْمِ الْدِّيْنِ مَجَّدْتَهُ وَاسْتَحْضَرْتَ لِوُقُوفِكَ بَيْنَ يَدَيْه وَهُوَ أَحْكَمُ الحَاكِمِيْنَ .

فَإِذَا قُلْتَ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين اسْتَحْضَرْتَ أَنَّكَ تَخُصُّهُ وَحْدَهُ بالعِبَادَةِ والاسْتِعَانَةِ ، المَعْنَى نَعْبُدكَ وَلا نَعْبُدُ غَيْرَكَ وَنَسْتَعِيْنُ بِكَ وَلَا نَسْتَعِيْنُ بِغَيْرِكَ .

فَإِذَا قُلْتَ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيْمَ اسْتَحْضَرْتَ أَنَّكَ تَتَضَرَّعُ إليه وَتَسْأَله أن يَدُلَّكَ وَيُرْشِدَكَ وَيُوَفِّقَكَ إِلى سُلُوْكِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ وَأَنْ يُثَبِّتَكَ عليه فَهَذا الدُّعَاءُ مِن أَجْمَعِ الأَدْعِيَةِ وَأَنْفَعِهَا لِلْعَبْدِ وَلِهَذَا وَجَبَ عَلى العَبْدِ أَنْ يَدْعُوَ به فِي كُلِّ رَكْعَةٍ من صَلَاتِهِ لِضَرُوْرَتِهِ إِلى ذَلِكَ وَهَذا الصِّرَاطُ هُوَ صِراطُ المُنْعَمِ عَلَيْهِمْ مِن النَّبِيِّيْنَ .

وَالصِّدِّيْقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيْقًا ، وَافْعَل في بَاقِي صَلَاتِكَ كَمَا فَعَلْتَ في أَوَّلِهَا مِنْ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَهُّمِ مُحْضِراً قَلْبَكَ لِمَعَانِيْ مَا تَقُولُهُ وَمَا تَسْمَعُهُ حَتَّى تُكْتَبْ لَكَ كَامِلَةً .

عِبَادَ اللّهِ إِنَّ مَنْ حَافَظَ عَلى الصَّلَوَاتِ في أَوْقَاتِهَا وَوَاظَبَ عَلى الجُمُعَةِ وَالجَمَاعَاتِ وَأَدَّاهَا تَأْدِيَةً تَامَّةً بِخُشُوْعٍ وَخُضُوْعٍ ، اسْتَنَارَ قَلْبُهُ

وَقوِيَتْ الصِّلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ ، وتهذَّبَتْ نَفْسُهُ وَحَسُنَتْ مَعَ اللّهِ والنَّاسِ مُعَامَلَتُه ، وَحِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المُحَرَّمَاتِ وَكَانَ على البُؤَسَاءِ عَطُوْفاً وَبالضُّعَفَاءِ رَحِيْماً ، وَأَفْلَحَ في دِيْنِهِ وَدُنْيَاهُ وَكَانَ مِنْ المحْبُوبِيْنَ عِنْدَ اللّهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ .

عِبَادَ اللّهِ النَّفْسُ آمِرَةٌ بالسُّوْءِ ، وَالشَّيْطَانُ يَأْمُرُ بالفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالسَّيْفُ القَاطِعُ والدَّوَاءُ النَّافِعُ الذِي جَعَلَهُ اللهُ وِقَايَةً لِلإِنْسَانِ مِن شَرِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ ، إِنَّمَا هُوَ الصَّلاَةُ قالَ اللّهُ تَعالَى ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَلَذِكرُ اللّهِ أَكْبَرُ ﴾ .

عِبَادَ اللّهِ احْذَرُوا أن تَسْتَهِيْنُوا بالصَّلاةِ وأن لا تَهْتَمُّوْا لَهَا ، فَإِنَّ هَذِهِ صِفَةُ الذِيْنَ خَلَتْ صَلاَتُهُم مِن التَّذَللِ وَالخُشُوْعِ كَمَا تَرَوْنَهُم يُسْرِعُوْنَ في أَدَائِهَا وَهُمْ عَنْهَا غَافِلُوْنَ لا يَعْرِفُوْنَ لَهَا مَعْنَى وَلا يَعْقِلُونَ لهَا سِراً وَلَمْ تَشْعُرْ قُلُوبهُم بحَلاوَتِهَا وَلاَ بِلَذَّةِ المناجَاتِ قَدْ مَلَكَتْهُم الوَسَاوِسُ، وامْتَلأَتْ قُلُوبُهم بشَوَاغِلِ الدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا ، وَاسْتَحْوَذ عَلَيْهِم الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللّهِ .

قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِيْنٌ ﴾ وَمِنْ النَّاسِ مَن عَمِيَتْ بَصَائِرُهم ، وَتَحَجَّرَتْ ضَمَائِرُهُمْ ، فَأَضَاعُوا الصَّلاةَ واتَّبَعُوا الشَّهواتِ ، وَأَهْمَلُوا أَوَامِرَ بَدِيْعِ السَّمَوَاتِ وَغَفَلُوا عَنْ وَاجِبِ شُكْرِهِ وَلَمْ يَخافُوا سَطْوَةَ جَبَرُوتِهِ وَبَطْشِهِ ، وَلاَ سُوْءَ الحِسَابِ ، وَلاَ نَارَ العَذَابِ ﴿ نَسُوا اللّهَ فَأَنْسَاهُم أَنْفُسَهُمْ ﴾ ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الخَاسِرُوْنَ ﴾ .

فَيَا أَيُّها المُسْلِمُونَ اتَّقُوا اللّهَ رَبَّكُم وَحَافِظُوا على صَلاتِكُم وَقُومُوا لِلّهِ خَاضِعِيْن خَاشِعِيْن لِتَفُوزوا بِرِضْوَانِهِ وتكونُوا مِن المفلِحين .

لِلَّـهِ دَرُّ السَّـادَةِ العُبَّـادِ ... في كُلِّ كَهْفٍ قَدْ ثَـوَوْا أَوْ وَادِيْ
أَلْـوَانُهُـم تُنْبِيْك عَـنْ أَحْـوَالِهِـمْ ... ودُمُـوعُـهُمْ عَـن حُرْقَـةِ الأَكْبَـادِ
كَتَمُـوْا الضَّـنَى حِفْظًا لَهُمْ وتَحَمَّلُوْا ... سُـقْمَ الهَـوَى وَمَشَـقَّةَ الأَجْسَـادِ
هَجَـروْا المَرَاقِـدَ في الظَّـلامَ لِرَبِّهِمْ ... واسْـتَبْدَلوا سَـهَراً بِطِيْب رُقَـادِ
لا يَفْـتُرْونَ إذا الدُّجى وَافَاهُمُـوا ... مِـن كَـثْرةِ الأَذْكَـارِ والأَوْرَادِ
ورَأَوْا عَـلاَمَاتِ الرَّحِيْـلِ فَبَادَرُوْا ... تَحْصِيْل مـا الْتَمَسُوْا مِـن الأَزْوَادِ
فـإذا اسْتَمَالَ قُلُوْبَهُم دَاعِي الهَوَى ... ذَكَـرُوا البِلَى فـي ظُـلْمَةِ الأَلْحَـادِ
نَظَـرُوا إلـى الدُّنْيَـا تَغُـرُّ بأَهْلِهَـا ... بوصَـالِهَـا وتَكِـرُّ بالإِبْعَـادِ
فَتَجَنَّبُـوْهَـا عِفَّـةً وتَـزَهُّـدًا ... وتَـزوَّدُوْا مِـن صَـالِحِ الأَزْوَادِ
ومَضَـوْا عَلى مِنْهَاجِ صَحْبِ نَبِيِّهِمْ ... فَنَجَـوْا غَـدًا مِنْ هَوْلِ يَوْمِ مَعَـادِ

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

(**فَصْلٌ**): رَوَى شَدَّادُ بنُ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلم الكَيِّسُ مَن دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعدَ المَوْتِ وَالعَاجِزُ مَن أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلى اللهِ الأماني .

وَمِمَّا وَرَدَ في الحَثّ على الرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيْ الذِيْنَ أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُنُوْبَ جَمِيْعاً انَّهُ هُوَ الغفورُ الرَّحِيْمُ ﴾ ، وَقَالَ تَعالَى ﴿ والمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُوْنَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُوْنَ لِمَنْ في الأَرْضِ ﴾ وَقَالَ تَعالَى ﴿ الذِيْنَ يَحْمِلُوْنَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُوْنَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُوْنَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُوْنَ للذِيْنَ آمَنُوْا ﴾ الآية .

وَقَالَ ﴿ ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوْبَ إلاّ الله ﴾ وقالَ ﴿ وهُوَ الذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عن عِبَادِهِ ، وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ ﴾ وَقَالَ ﴿ كَتَبَ رَبّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ ﴾ .

شِعْـرا :

وَإِنِّي لآتِي الذَّنْبَ أعْرِفُ قدْرَهُ   وأعْلَمُ أنَّ اللهَ يَعْفُو ويَغْفِـرُ
لَئِنْ عَظَّم الناسُ الذُنُوبَ فإنَّهَا   وإنْ عَظُمَتْ في رَحْمَةِ اللهِ تَصْغُرُ

وَقَال ﴿ انَّ اللهَ بالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيْمٌ ﴾ وَقَالَ ﴿ والذينَ لاَ يَدْعُوْنَ مَعَ اللهِ إلَهاً آخرَ ﴾ إلى قَوْلِهِ ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَرَحْمَتِيْ وَسِعَتْ كلَّ شَيءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلْذِيْنَ يَتَّقُوْنَ ﴾ .

وَقَال ﴿ وَكَانَ بالمُؤْمِنِيْنَ رَحِيْما ﴾ وَقَالَ ﴿ ولا يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولي القُرْبَى وَالمَسَاكِيْنَ وَالمُهَاجِرِيْنَ في سَبِيْلِ اللّهِ وَلْيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا ألا تُحِبُّوْنَ أنْ يَغفر الله لكم واللّهُ غَفُورٌ رَحِيْمٌ ﴾ وَوَجْهُ الدَّلالَةِ مِنْهَا حَيْثُ أَوْصَى اللهُ بالاحْسَانِ إلى القَاذِفِ .

وَمِنْ جَانِبِ الرَّجَاءِ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ السَّحَرَةِ المُبَارِزِيْنَ لِمُوْسَى عَلَيْهِ السَّلاَم فَمَا كَانَ إلاَّ أَنْ رَأَوْا آيَةَ مُوْسَى فَعرفُوْا الحَقَّ وَوَقَعُوا سُجَّداً ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِيْنَ رَبِّ مُوْسَى وَهَارُونَ ﴾ أَصْبَحُوا سَحَرةً وَأَمْسَوا شُهَدَاءَ بَرَرَةً ، فَهَذَا حَالُ مَنْ عَرَفَ اللهَ وَوَحَّدَهُ بَعْدَ كُلِّ ذَلِكَ السِّحْر وَالكُفْرِ وَالضَّلالِ وَالفَسَادِ فَكَيْفَ حَالُ مَنْ أَفْنَى عُمْرَهُ في تَوْحِيْدِ اللهِ .

وَكَذَا قِصَّةُ أَصْحَـابِ الكَهْفِ إذْ آمَنُوْا بـاللهِ كَيْفَ لَطُفَ بِهِمْ ، وَأَكْرَمَهُم وَأَلْبَسَهُمْ المَهَابَةَ حَتَّى إنَّ بَرَكَتَهُم شَمَلَتْ كَلْبَهُم فَأَصَابَـهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ النَّوْمِ عَلى تِلْكَ الحَالَةِ وَصَارَ لَهُ ذِكْرٌ وَشَأْنٌ وَخَبَرٌ يُتْلَى وَهَذِهِ فَائِدَةُ صُحْبَةِ الاخْيَارِ فَمَا ظَنُّكَ بِالمُؤمِنِ الذي عَبَدَ اللهَ وَوَحَّدَهُ وَلَهَجَ بِذِكْرِه آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ ، وَعَادى فِيْهِ وَوَالَى فيه سِنِيْنَ عَدِيْدَةَ وَبِوُدِّهِ لَوْ عُمِّرَ زِيَادَةً تَابَعَ فِيْهَا خِدْمَةَ سَيِّدِهِ وَمَوْلاَهُ جَلَّ وَعَلاَ .

وَمِنْ جَانِبِ الرَّجَاءِ قَوْلُه تَعَالَى ﴿ إِنَّ الذِيْنَ فَتَنُوا المُؤْمِنِيْنَ والمُؤْمِنَاتِ ثم لَمْ يَتُوبُوْا فلهُمْ عذابُ جهَنَّمَ ولَهُم عَذَابُ الحَرِيْقِ ﴾ .

شِــعْراً :

تَفِيْضُ عُيُـوْنِيْ بـالـدُّمُـوعِ السَّــوَاكِبِ
وَمَــالِيَ لا أبكِـي عَلى خَـيْـرِ ذَاهِـبِ

عَلى العُمْـرِ إذْ وَلَّى وَحَـانَ انْقِضَـاؤُهُ
بـآمَــالِ مَـغْـرُوْرٍ وَأعْـمَــالِ نَــاكِـبِ

عَـلى غُـرَرِ الأَيَّــامِ لَمَّــا تَـصَـرَّمَتْ
وَأَصْبَحْتُ مِنْهَـا رَهْنَ شُؤْمِ المَكَاسِبِ

عَلى زَهَـرَاتِ العَيْشِ لَمَّـا تَسَـاقَـطَتْ
بِـرِيْـحِ الأَمـانِيْ وَالـظُّنُـوْنِ الكَـوَاذِبِ

عَلى أَشْــرَفِ الأَوْقاتِ لَمَّـا غُبِنْتُهَــا
بِــأَسْـوَاقِ غَـبْـنٍ بَـيْـنَ لاَهٍ وَلاَعِــبِ

عَلى أَنْفَسِ السَّـاعَـاتِ لَمَّــا أَضَعْتُهَــا
وَقَـضَّـيْـتُـهَــا فـي غَـفْـلَةٍ وَمَـعَــاطِـبِ

عَلى صَـرْفِيَ الأَيَّـامَ في غَيْـرِ طَـائِـلٍ
وَلاَ نَـافِـعٍ مِنْ فِعْـلِ فَضْـلٍ وَوَاجِبِ

عَلى مَـا تَـوَلَّى مِنْ زَمَـانٍ قَضَيْتُـهُ
وَرَجَّـيْتُـهُ فـي غَيْـرِ حَـقٍّ وَصَـائِـبِ

عَلى فُـرَصٍ كَانَتْ لَـوْ أَنِّيْ انْتَهَـزْتُهَا
لَقَـدْ نِلْتُ فِيْهَا مِنْ شَـرِيْفِ المَـطَالِبِ

وَأَحْيَـانَ آنَـاءٍ مِنْ الـدَّهْـرِ قَـدْ مَضَتْ
ضِيَــاعــاً وَكَــانَـتْ مَـوْسِمـاً لِلرَّغَــائِـبِ

عَلى صُحُفٍ مَشْحُونَةٍ بِمَآثِمٍ
وَجُرْمٍ وَأَوْزَارٍ وَكَمْ مِنْ مَثَالِبِ
عَلى كَمْ ذُنُوبٍ كَمْ عُيُوبٍ وَزَلَّةٍ
وَسَيِّئَةٍ مَخْشِيَّةٍ فِيْ العَوَاقِبِ
عَلى شَهَواتٍ كَانَتْ النَّفْسُ أَقْدَمَتْ
عَلَيْهَا بِطَبْعٍ مُسْتَحَثٍّ وَغَالِبِ
عَلى أَنَّنِيْ آثَرْتُ دُنْيَا دَنِيَّةً
مُنَغَّصَةً مَشْحُوْنَةً بِالمَعائِبِ
عَلى عَمَلٍ لِلْعِلْمِ غَيْرِ مُوَافِقٍ
وَمَا فَضْلُ عِلْمٍ دُوْنَ فِعْلٍ مُنَاسِبِ
عَلى فِعْلِ طَاعَاتٍ بِسَهْوٍ وَغَفْلَةٍ
وَمِنْ غَيْرِ إِحْضَارٍ وَقَلْبٍ مُرَاقِبِ
أُصَلِّي الصَّلاَةَ الخَمْسَ وَالقَلْبُ جَائِلٌ
بِأَوْدِيَةِ الأَفْكَارِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
عَلى أَنَّنِيْ أَتْلُوْ القُرْآنَ كِتَابَهُ
تَعَالَى بِقَلْبٍ ذَاهِلٍ غَيْرِ رَاهِبِ
عَلى طُوْلِ آمَالٍ كَثِيْرٍ غُرُورُهَا
وَنِسْيَانِ مَوْتٍ وَهُوَ أَقْرَبُ غَائِبِ
عَلى أَنَّنِيْ قَدْ أَذْكُرُ اللَّهَ خَالِقِيْ
بِغَيْرِ حُضُورٍ لاَزِمٍ وَمُصَاحِبِ
عَلى أَنَّنِيْ لاَ أَذْكُرُ القَبْرَ وَالبِلَى
كَثِيْراً وَسَفْراً ذَاهِباً غَيْرَ آيِبِ

عَلَى أَنَّنِيْ عَنْ يَـوْمِ بَعْثِيْ وَمَحْشَرِيْ
وَعَـرْضِيْ وَمِيْـزَانِيْ وَتِلْكَ المَصَـاعِبِ

مَـوَاقِـفُ مِنْ أَهْـوَالِـهَـا وَخُـطُوْبِهَـا
يَشِيْبُ مِنْ الـوِلْـدَانِ شَعْـرُ الـذَّوَائِبِ

تَغَـافَلْتُ حَتَّى صِرْتُ مِنْ فَـرْطِ غَفلَتِيْ
كَـأَنِيَ لا أَدْرِيْ بِـتِلْكَ الْـمَـرَاهِـبِ

عَلى النَّـارِ أَنِّي مَـا هَجَـرْتُ سَبِيْلَهَـا
وَلَا خِفْتُ مِنْ حَيَّـاتِـهَـا وَالعَـقَـارِبِ

عَلى السَّعْيِ لِلْجَنَّاتِ دَارِ النَّعِيْمِ وَالْـ
كَـرَامَـةِ والـزُّلفَى وَنَيْـلِ المَـآرِبِ

مِنْ العِـزِّ وَالـمُلْكِ الـمُخَـلَّدِ وَالبَـقَـا
وَمَـا تَشْتَهِيْـهُ النَّفْسُ مِنْ كُـلِّ طَالِبِ

وَأَكْبَـرُ مِنْ هَـذا رِضَـا الـرَّبِّ عَنْهُم
وَرُؤْيَـتُهُـمْ إِيَّـاهُ مِنْ غَـيْـرِ حَـاجِبِ

فَـآهـاً على عَيْشِ الأَحِبَّـةِ نَـاعِمـاً
هَنِيْئـاً مُصَفًّى مِنْ جَمِيْـعِ الشَّـوَائِبِ

وَآهَـاً عَـلَيْـنَـا فِـيْ غُـرُوْرٍ وَغَـفْـلَةٍ
عَنْ المَـلَاءِ الأَعْلَى وَقُـرْبِ الحَبَـائِبِ

وَآهـاً على مَـا فَـاتَ مِنْ هَـدْيِ سَـادَةٍ
وَمِـنْ سِـيْـرَةٍ مَـحْـمُـوْدَةٍ وَمَـذَاهِـب

عَـلَى مَـالَـهُـمْ مِنْ هِـمَّـةٍ وَعَـزِيْـمَـةٍ
وَجِـدٍّ وَتَـشْمِـيْـرٍ لِـنَـيْـلِ الـمَـرَاتِـبِ

عَلى مَـالَـهُـمْ مِنْ عِـفَّـةٍ وَفُـتُـوَّةٍ
وَزُهْـدٍ وَتَجْـرِيْـدٍ وَقَـطْعِ الجَـوَاذِبِ
عَلى مَالَهُمْ مِنْ صَـوْمٍ كُـلِّ هَجِيْرَةٍ
وَمِـنْ خَلْوةٍ بِـالـلهِ تَحْـتَ الغَـيَـاهِبِ
عَلى الصَّبْـرِ وَالشُّكْـرِ اللذَيْنَ تَحَقَّقَـا
وَصِـدْقٍ وَاخْـلاَصٍ وَكَمْ مِنْ مَنَـاقِبِ
عَلى مَـاصَفَـا مِنْ قُـرْبِهِمْ وَشُهُـوْدِهِمْ
وَمَـا طَـابَ مِنْ أَذْوَاقِهِمْ وَالمَشَـارِبِ
وَأَسْتَغْـفِـرُ اللّهَ العَـظِيْـمَ جَـلاَلُـهُ
وَقُـدْرَتُـهُ فـي شَـرْقِهَـا وَالـمَغَـارِبِ
إِلَيْـهِ مَـآبِيْ وَهُـوَ حَـسْبِـيْ وَمَلْجَئِيْ
وَلِيْ أَمَـلٌ فِي عَـطفِـهِ غَيْرُ خَـائِبِ
وَأَسْـأَلُـهُ التَّـوْفِيْقَ فِيْمَـا بَقِيْ لِمَـا
يُحِبُّ وَيَـرْضَى فَهُـوَ أَسْنَى المَـطَالِبِ
وَأَنْ يَـتَـغَـشَّـانَـا بِـعَـفْـوٍ وَرَحْـمَـةٍ
وَفَضْـلٍ وَاحْسَـانٍ وَسَتْـرِ المَـعَـائِبِ
وَأَنْ يَـتَـوَلاَّنَـا بِـلُطْفٍ وَرَأْفَـةٍ
وَحِفْظٍ يَقِيْنَـا شَـرَّ كُـلِّ الـمَعَـاطِبِ
وَأَنْ يَـتَـوَفَّـانَـا عَـلى خَـيْـرِ مِـلَّةٍ
عَلى مِلَّةِ الاسْـلاَمِ خَيْـرِ المَـوَاهِبِ
مُـقِيْـمِيْـنَ لِـلْقُـرْآنِ وَالـسُّنَّـةِ الـتِي
أَتَـانَـا بِهَـا عَـالِي الـذُّرَى وَالمَـرَاتِبِ

مُحَمَّدُ الهَادِي البشِيْرُ نَبِيُّنَا
وَسَيِّدُنَا بَحْرُ الهُدَى وَالمَنَاقِبِ
عَلَيْهِ صَلاَةُ اللّهِ ثُمَّ سَلاَمُهُ
وَآلٍ وَأَصْحَابٍ لَهُ كَالكَوَاكِبِ

مَوْعِظَةٌ: عِبَادَ اللهِ لاَ شَيْءَ أَفْسَدَ لِلقَلْبِ مِنْ التَّعَلُّقِ بالدُّنْيَا وَالرُّكُوْنِ إليها فإِنَّ مَتاعَهَا قَلِيْلٌ وَلاَ تَطْمَعُوا بالاقامَةِ فيها فَإِنَّ البَقَاءَ فِيْهَا مُسْتَحِيْلٌ كَيْفَ لاَ وَالمُنَادِيْ يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ يَا عِبَادَ اللهِ الرَّحِيْلَ ، هُوَ الموتُ ما مِنْهُ فَوْتٌ وَلا تَعْجِيْلٌ وَلا يَقْبَلُ الفِدَاءَ فَاسْتَعِدُّوا لهُ فانهُ سَيَأتِيْكُمْ عَنْ قَرِيْبٍ .

عِبَادَ اللهِ لا شَيْءَ أَفسَدَ لِلْقَلْبِ مِن التَعَلُّقِ بالدُّنْيَا والرُّكُوْنِ إليها وَايْثَارِها عَلى الآخِرَةِ فإِنَّ هَذا الفَسَادُ يَقْعُدُ بالمُسْلِمِ عَن التَّطلُّعِ إِلى الآخِرَةِ وَالعَمَلِ لها واتْعَابِ الجَسَدِ في سَبِيْلِ اللّهِ والدَّعْوَةِ اليهِ وَهَيْهَاتَ لِقَلْبٍ فَاسِدٍ مَرِيْضٍ أَنْ يَقْوَى على مَهَامِّ الدَّعْوَةِ إلى الله ، إِنَّ الدُّنْيَا فِيْهَا قَابِلِيَّةُ الاغْرَاءِ لِلتَّعَلّقِ بِهَا وَحُبِّهَا .

وَلِهذَا وَصَفَهَا النبي صلى الله عليه وسلم بقَوْلِهِ « إِن الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِن اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيْهَا فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ »وَقَدْ حَذَّرَنا ربُّنا مِن الوُقُوعِ في شِبَاكِهَا والتَّعَلُّقِ بِهَا فقالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمْ الحَيَاةُ الدنيا ولا يَغُرنَّكم بِاللّهِ الغَرُوْرُ ﴾ .

وَوَجْهُ الاغْتِرَارِ بالدُّنْيَا أَنَّ فِيْهَا مَبَاهِجَ وَمَنَاظِرُ وَمَلَذَّاتٌ لِلأَنْفُسِ وَالأَعْيُنِ وَالاسْمَاعِ تَهْوَاهَا نَفْسُه بَطبِيْعَتِهَا وَتُؤْثِرُهَا عَلى مَا سِوَاهَا قَالَ اللهُ

تَعالى ﴿ بَلْ تُؤْثِرُوْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّوْنَ العَاجِلَةَ وَتَذَرُوْنَ الآخِرَةَ ﴾ .

فَاذَا تُرِكَتْ النَّفْسُ وَشَأْنَهَا زَادَ تَعَلُّقُهَا بالدُّنْيَا وَزَادَ التِصَاقُهَا بها حَتى تُصْبحَ هِيَ كُلُّ غَايَتِهَا وَمُنْتَهَى أَمَلِها وَمَبْلَغ عِلْمِهَا ، قَال اللهُ جَل وَعلا ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلىَّ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ الا الحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِنْ العِلْمِ ﴾ .

وَاذَا مَا وَصَلَتْ النَّفْسُ إلى هَذَا الحَدِّ فَقَدَتْ حَاسَّةَ القَبُوْلِ وَالاعْتِبَارِ وَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يُجْدِيْ مَعَهَا وَعْظٌ وَلا تَذْكِيْرٌ مَهْمًا بَالَغْتَ فِيْهِ .

فمَا هُوَ العِلاَجُ لِمَنْ وَصَلَ الى هذهِ الدَّرَجَةُ العِلاَجُ باذْنِ اللّهِ هُوَ تَخْلِيْصُ القلْبِ مِنْ أَسْرَارِهَا وَتَعَلُّقِهِ بِهَا وَذَلِك بأَنْ يَجْعَلَ زَوَالَ الدُّنْيَا نُصْبَ عَيْنَيْهِ وَيتيقَّنَ لِقَاءَ الآخِرَةِ وَبَقاءَهَا ومَا فِيْهَا مِنْ النَّعِيْمِ المُقِيْمِ .

وَيَتَـدَبَّـرَ الآيَـاتِ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيْدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيْهَا مَا نَشَاءُ لمنْ نُرِيْدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوْماً مَدْحُوْرَا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَاوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَشْكُوْرَا ﴾ .

وَقَوْلِهِ تَعَالى ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيْلٌ والآخِرَةُ خَيْرٌ لمن اتَّقَى﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا في الآخِرَةِ إلا قَلِيْلٌ ﴾ وَقَوْلهُ تَعَالى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيْدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيْدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَه في الآخِرَةِ مِنْ نَصِيْبٍ ﴾ .

وَقَوْلِهِ ﴿ إنَّ الذِيْنَ لا يَرْجُوْنَ لِقَاءَنَا وَرَضُوْا بالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنّوا بِهَا وَالذينَ هُمْ عَن آيَاتِنَا غَافِلُونَ أولئـك مَأْوَاهُمْ النَّـارُ ﴾ الآيَةُ ، وَيَتَـدَبَّرُ

الاحَاديْثَ مِثْل قَوْلِهِ ﷺ لابْن عُمَر كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْل الحَدِيْثُ ، وَقَوْلُهُ مَا لي وَلِلدُّنْيا وَنَحو ذَلِكَ مِنْ الآيَاتِ وَالأَحَادِيْثِ التِيْ مَرَّتْ سَابِقا حَوْلَ أَمْثِلَةِ الدُّنْيَا .

وَيُقَارِنُ بَيْنَ الأَمْرَيْن فإن كان ذَا عَقْلٍ رَاجِحٍ آثَرَ الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا وَأيْضَا لاَ بُدَّ مِنْ قَطْعِ التَّسْوِيْفِ وَطُوْلِ الأَمَلِ حَتَّى يُحِسَّ أَنَّهُ في غُرْبَةٍ وَأَنَّهُ مُسَافِرٌ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ وَأَنَّهُ سَيَرْحَلُ عَنْهَا فِيْ أَيَّةِ سَاعَةٍ رَغْمَ أَنْفِهِ شَاءَ أَمْ أَبى .

وكُلُّ حَيٍّ وإن طَالتَ سَلاَمَتُهُ يومًا على آلةٍ حَدْبَاء مَحْمُوْل

آخــــر :

وكــــلُ حَــي وانْ طَـالَتْ سَـــلاَمَتُهُ
يَـومـاً لَـهُ مِـن دَوَاعِـي الـموتِ تَثْـويْبُ

وَإِنْ وَسْوَسَ لَهُ الشَّيْطَانُ وَأَلْقَىَ في رَوْعِهِ أَنَّكَ شَابٌّ قَوِيٌّ مَوْفُوْرَ الصِّحَّةِ مَشْدُوْدٌ أَسْرُكَ وَفي إِمْكَانِكَ الرُّجُوعُ إِلى الطَّاعَةِ وَالاقْبَالِ لَى الأخِرَةِ فَلْيَطْرُدْ وَسَاوِسَهُ باسْتِحْضَارِ الذِيْنَ رَحَلُوا شُبَّاناً وَكُهُوْلاً وَهُمْ الآنَ تَحْتَ الثَّرَى .

يُعَمَّـــرِ وَاحِـدٌ فَيَغُـرُ ألفـاً ويُنْسَـى مَـن يَمـوتُ مِن الشَّـبَابِ

آخـــر :

لا تَغْـتَـرِرْ بِشَــبـابٍ نَـاعِـمٍ خَضِـلٍ
فكـم تَقَــدَّم قَبلَ الشَّــيْبِ شُـبَّانُ

وَيَخْرُجُ إِلى المَقَابرَ وَيَتَفكَّرُ فِيمَنْ جَمَعُوا الأَمْوَالَ وَقَتَلُوا أَوْقَاتَهُمْ في طَلَبِهَا وَاتَعْبُوا أَبْدَانَهُم وَأَنَّهم سَيُحَاسَبُون عَلَيْهَا ، وَيُفَكِّرُ فِيْمَنْ تَعُودُ عَلَيهِم بَعْدَهُ رُبَّما أَنَّهم لاَ يَذْكُرُوْنَهُ بِخَيْرٍ وَيَتَمَنَّونَ مَوْتَهُ فلِمَاذَا يُحْرِقُ نَفْسَه في جَمْعِهَا هم .

وَقَــدْ يُـوْرِثُ المـالَ البَعِـيدَ مُظَـلَّلٌ
مِـن النـاسِ يأَبَـى وَضْعَـه في القَـرائِب

آخــــر :

شَقيتُ بما جَمَعْتُ فَلَيْتَ شِعْرِي ... وَرَائِي مَن يَكُونُ بِهِ سَعِيدَا ؟!
أُعَاينُ حَسْرَةً ؛ أَهْلِي ومَالِي ... إذا ما النَّفْسُ جَاوَزَتِ الوَرِيدَا
أُعِدُّ الزَّادَ مِنْ تقوى فَإِنِّي ... رأيتُ مَنِيَّتي السَّفَرَ البَعِيدَا
تَبَدَّل صَاحِبي في اللَّحدِ مِني ... وهالَ علىَ مَناكِبي الصَّعِيدا
فَلَو أَبْصرتَني مِن بَعْدِ عشْرٍ ... رَأَيْتَ مَحَاسِني قَدْ صِرْنَ دُودَا
وحِيداً مُفْرداً يا رَبِّ [لُطفاً] ... بعَبْدِكَ حِينَ تتركُه وحِيدَا

فَاذَا قَصَّرَ أَمَلَهُ في الحَيَاةِ انْبَعَثَ إِلى التَّجَهُّزِ للآخِرَةِ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ اذْ لاَ يَدْرِي مَتى يُنَادَى عَليه بالرَّحِيْلُ فَاذَا تَخَلَّصَ مِنْ التَّعلُّقِ بالدنيا وَأفرَغ ما في قَلبِهِ مِن سُمُومِهَا وَأَقْبَلَ عَلى الآخِرَةِ أَحسَّ بغُرْبَةٍ شَدِيْدَةٍ في الدنيَا ولكنْ مَعَ خِفَّةٍ في رُوحِهِ واقبَالٍ شَدِيْدٍ عَلى مَرَاضِي اللهِ وَعَلى رَأسْهاَ الدَّعوَةُ إليهِ وهِدَايَةِ الحَيَارَى مِنْ عِبَاد اللّهِ .

لاَ يَعُوقُه عَنْ ذَلِكَ عَائِقٌ مِنْ تَعَبٍ وَلاَ نَصَبٍ وَلا سَفَرٍ وَلاَ سَهَرٍ وَلا بَذْلٍ وَلا تَضْحِيَةٍ لِأنَّ ذلكَ كُلَّهُ مِنْ الزَّادِ المُؤَكَّدِ نَفعُهُ وَفَائِدتهُ في سَفرِهِ الطَّوِيلِ البَعِيْدِ إلى الآخِرَةِ بَلْ إِنَّهُ سَيَعْقُبُ تَعَبَهُ رَاحَةٌ وَأَلَمَهُ لَذَّة وفي بَذْلِهِ رِبْحاً وفي تَضْحِيَتِهِ عِوَضاً مَضْمُوْنا .

وَفي وَصِيَّةِ الامَامِ عَليّ بن أبي طَالِب لابْنِهِ الحَسَنِ أَحْيِ قَلْبَكَ بالمَوْعِظةِ وَأَمِتْهُ بالزّهَادَة وَقوّة باليَقِينِ وَنوِّرهُ بالحِكمَة وَذَلِلْهُ بذِكْرِ المَوْتِ وَقرِّرْهُ بالفَناءِ وَبَصِّرْهُ بفَجَائِعِ الدّنيا وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدّهرِ وَفُحْشَ تَقلُّبِ الليالي وَالْأيّامِ وَاعْرِضْ عَليهِ أَخْبَارَ الماضِيْنَ وَذَكِّرْهُ بما أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِن الأوليْنَ وَسِرْ في دِيَارِهِمْ وَآثارِهِم وَانْظُرْ فِيما فَعَلُوا وعمَّا انْتَقلُوا وَأينَ حَلّوا وَنزلُوا فانَّكَ تَجِدْهُمْ قَدْ انتقِلُوا عَنْ الأَحِبَّةِ وَحَلّوا في دَارِ

غُرْبَةٍ وَكَأنَّكَ عَنْ قَلِيْلٍ قَدْ صِرْتَ كَأحَدِهِمْ فَأصْلِحْ مَثْوَاكَ ولا تَبعْ آخِرَتِكَ بدُنْياكَ إلى أنْ قالَ ـ يَا بُنَيَّ، أكْثِرْ مِن ذِكْرِ المَوْتِ وَذِكْرِ مَا تَهْجِمُ عَليه وَتُفْضِي بَعْدَ الموتِ إليهِ حَتَّى يَأتِيَكَ وقَدْ أخَذْتَ حِذْرَكَ وشَدَدْتَ لَهُ أزْرَكَ وَلا يَأتِيْكَ بَغْتَة فَيَبْهَرَكَ وَإيَّاكَ أنْ تَغْتَرَّ بمَا ترى مِن إخْلَادِ أهْلِ الدُّنْيَا إليَها وتَكالُبِهُم عَليهَا فقَدْ نَبَّأكَ اللهُ عَنَها وَنَعَتَتْ لكَ نَفْسَها وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيْهَا فَإنَّ أهْلَها كِلَابٌ عَاوِيَةٌ وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ يُهِرُّ بَعْضُهَا بَعْضَا أيْ يَنْبَحُ بَعْضُهَا عَلى بَعْضٍ وَيَأكُلُ عَزِيْزُهَا ذَلِيْلَها وَيَقْهَرُ كَبِيْرُهَا صَغِيْرَهَا نَعَمٌ مُعَقَّلة وَأخْرَى مُهْمَلَةٌ قَد أضَلَّت عُقُوْلَهَا وَرَكِبَتْ مَجْهُوْلَهَا سُرُوْحُ عَاهَةٍ لَيْسَ رَاعٍ يُقِيْمُهَا وَلا مُقِيْمٌ يَسِيْسُهَا سَلَكَتْ بِهِم الدُّنْيَا طَرِيْقَ العَمَى وَأخَذَتْ بأبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَادِ الهُدَى فَتَاهُوا في حَيْراتِهَا وَغَرِقُوا في نِعْمَتِهَا وَاتَّخَذُوهَا رَبًّا فلَعِبَتْ بهم وَلَعِبُوا بهَا وَنَسُوا مَا وَرَاءَها، وَاعْلَمْ أنَّ مَنْ كَانَ مَطِيَّتُهُ الليلُ والنَّهارُ فَإنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإنْ كَانَ وَاقِفا وَيَقْطَعُ المَسَافَةَ وَإنْ كَانَ مُقِيْمًا .

شعــرا :

يــا جــامعَ المــالِ إن العُمَــرَ مُنْصَـرِمٌ
فابخـلْ بمــالكَ مَهْمَــا شِئْتَ أو فَجُـدِ
ويـا عـزيـزاً يَخِيـطُ العُجْـبُ نـاظـرَهُ
أذْكُـرْ هَـوَانَـكَ تَحْـتَ الـتُربِ واتَّئِـدِ
قـالـوا تَـرَقَّـى فُـلانُ اليـومَ مَـنْـزلـةً
فَقُـلْتُ يُـنـزِلُـهُ عنهـا لِقَـاءُ غَـدِ
كَـمْ وَاثِـقٍ بالـليـالي مَـدَّ رَاحَتَـهُ
إلـى المَـرَامِ فَنَـادَاهُ الحِـمَـامُ قَـدِ

وباسطٍ يَدَهُ حُكْماً ومَقْدِرَةً
وَوارِدُ الموتِ أدْنَى مِن فمٍ لِيَدَ

كم غَيَّرَ الدهرُ مِن دارٍ وسَاكِنِها
لا عن عَمِيْدٍ ثنى بَطْشاً ولا عُمَدِ

زَالَ الذِي كَانَ لِلْعَلْيَا بِهِ سَنَدُ
وزَالَتِ الدَّارُ بالعَلْيَاءِ فالسَّنَدِ

تبارَكَ الله كَمْ تَلْقَى مَصَائِدَها
هَذِي النُجومُ على الدَانِينَ والبُعَدِ

تَجرِي النُجُومُ بِتَقْرِيبِ الحِمامَ لَنَا
وهُنَّ مِن قُرْبِهِ منها على أمَدِ

لا بُدَّ أَنْ يَغْمِسَ المِقْدَارُ مُدْيَتَهُ
في لَبَّةِ الجَدْيِ منها أَوْ حَشَى الأسَدِ

عَجِبْتُ مِن آمِلٍ طُولَ البقاءِ وقَدْ
أخْنَى عليه الذي أخْنَى على لُبَدِ

يَجُرّ خَيطُ الدُجَى والفَجْرِ أَنْفُسَنَا
لِلتِّرْبِ ما لا يَجُرُّ الحَبْلُ مِن مَسَدِ

هذِي عَجَائِبُ تَثْنِي النفسَ حَائِرةً
وَتُقْعِدُ العقلَ مِن عِيٍّ على ضَمَدِ

مالي أسَرُ بِيَومٍ نِلْتُ لَذَتَهُ
وقد ذَوَى مَعَهُ جُزْءٌ مِن الجَسَدِ

لأُتْرَكَنَّ فريداً في التُراب غداً
ولو تَكَثَّرَ ما بَينَ الوَرى عَدَدي

مـا نافِـعــي سَعَـةٌ فـي الـعيشِ أو حَـرَجُ
إن لم تَسـعْني رُحْـمى الـواحِـدِ الصَّـمدِ

اللّهمُ قَنِّعْنَا مِنْ الدُّنْيَا باليَسِيْر وَسَهِّلْ عَلَيْنَا كُلَّ أَمْرٍ عَسِيْرٍ وَوَفِّقْنَا لِمَا تُحِبُّهُ وَتَرْضَاهُ إنَّكَ عَلى كلِّ شَيءٍ قَدِيْر وَأَسْكِنَّا دَار كَرَامَتِكَ يَا مَنْ هُوَ مَلْجَؤُنَا وَمَلاَذُنَا وإلَيْهِ المصِيْرُ وَاجْعَلْ لَنَا مِن كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا وَمِن كُلِّ ضِيْقٍ مَخْرَجًا وَاغْفِرْ لنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلجَمِيْعِ اخْوَانِنَا المُسْلِمْيَن بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلى اللهُ على محمدٍ وعَلى آلِهِ وَصَحْبِه أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَمِمَّا وَرَدَ فِيْ فَضِيْلَةِ الرَّجَاءِ مِنْ الاحَادِيثِ مَا في الصَّحِيْحَيْنِ عَن أَبي سَعِيْدٍ رَضِىَ اللهُ عنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّ رجُلا قَتَل تِسْعَةً وَتِسْعِيْنَ نَفْساً ، ثُمَّ نَدِمَ وَسَأَلَ عَابِداً مِن عُبّادِ بني إسرائيلَ هَلْ لهُ مِن تَوْبَةٍ فقالَ لا فقتلَهُ وأكْمَلَ بِهِ مِائَةً ، ثمَّ سَأَلَ عَالماً مِن عُلَمائِهم هَلْ لَهُ مِنْ تَوبَةٍ فَقَالَ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وبَيْنَ التَّوْبَةِ .

ثُمَّ أَمرَهُ بالذَّهابِ إلى قَرْيَةٍ يَعْبُدُ اللهَ فِيهَا فَقَصَدَهَا فَأتَاهُ الموتُ في أثْنَاءِ الطَّرِيْقِ فاخْتَصَمَتْ فيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ، وَمَلائِكَةُ العَذَابِ ، فأمرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أنْ يَقِيْسُوا مَا بَيْنَ الأرضَيْنِ ، فَإِلى أَيِّهِمَا كانَ أَقْرَبَ فَهُوَ مِنْهَا فَوَجَدُوهُ أَقْرَبَ إلى الأرضِ التي هَاجَرَ إليها بِشِبْرٍ فَقَبضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ،

وَذُكِرَ أنه نأىَ بصَدْرِهِ عِنْدَ الموتِ ، وأنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالى أمَرَ البَلدةَ الخَيِّرةَ أنْ تَقْتَرِبَ وَأمَر تلكَ البَلَدَ أنْ تَتباعَدَ ، هَذَا مَعْنَى الحَدِيْثِ .

وَعَنْ عُبادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضْى اللهُ عَنْهُ قَال: قالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ مَنْ شَهِدَ أنْ لا الهَ الا الله وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ له ، وأنَّ محمداً عبدُه ورسُولُه ، وأنَّ عِيْسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه وكَلِمَتُه ألقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِنْهُ ، وأنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ ، والنَّارَ حَقٌّ ، أدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلى مَا كَانَ مِنْ العَمَلِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ، وَفي رِوَايةٍ لمسْلمٍ مَنْ شَهِدَ أنْ لا الهَ الا اللهَ ، وأن محَمَّداً رَسُوْلُ اللهِ حَرَّمَ اللهُ عليهِ النَّارَ .

وَعَنْ أبِيْ ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ « مَنْ جَاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أمْثالِهَا ، أوْ أزِيْدُ وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ فَجَزاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا أوْ أغْفِرُ ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِني شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّى ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً ، وَمَنْ أتَانِيْ يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً ، وَمَن لَقِيَنِيْ بِقُرَابِ الأرْضِ خَطِيْئَةً لا يُشْرِكُ بي شَيْئاً لَقِيْتُه بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً رَوَاهُ مُسْلِم .

وَعَنْ جابرٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ جَاءَ أعْرَابِيّ الى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقالَ يَا رسولَ اللهِ مَا المُوجِبَتَانِ قَالَ مَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ باللهِ شَيْئاً دَخلَ الجَنَةَ ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ به شَيْئاً دَخَلَ النَّارَ ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ

وَفي حَدِيْثِ مُعَاذٍ مَا من عَبْدٍ يَشْهَدُ أنْ لا الهَ الّا اللّهِ وأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ صِدْقاً مِن قَلْبِهِ إلّا حَرَّمَهُ اللهُ على النَّارِ .

وَفي حَدِيْثِ أبي هُرَيْرَة وأَبي سَعْيدٍ أَنَّ النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال أشْهَدُ أنْ لا إلَه إلا الله وأنِّي رَسُوْلُ اللهِ لا يَلْقى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَير شَاكٍ فَيُحْجَبُ عَنْ الجَنَّةِ رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَفي حَدِيْثِ عتْبَانَ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ ، فَانَّ اللهَ قد حَرَّمَ على النَّارِ مَنْ قَالَ لا الهَ الا الله يَبْتَغِيْ بذَلِكَ وَجْهَ اللهِ مُتَّـفقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قالَ قَدِمَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بسَبْيٍ فاذا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ تَسْعَى اذْ وَجَدتْ صَبِيًّا في السَّبْي أخذتْه فَالْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا فَأَرْضَعْتُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم أَتَرَوْنَ هَذِهِ المْرَأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا في النَّارِ قُلْنَا لا وَاللهِ فَقَالَ لَلّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ أَبي هُرَيْرَة رَضْيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم أنهُ قالَ : قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِيْ بِيْ وَأنا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي واللهِ لَلّهُ أَفْرَحُ بتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُم يَجِدُ ضَـالَّتَهُ بـالفَلاةِ وَالحَدِيْثِ مُتَّفَقٌ عَليهِ .

وَعَنْ أَنسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللّهُ عَليهِ وَسَلَّمَ يَقولُ ، قَالَ اللّهُ يَا ابْنَ آدَمَ انَّكَ مَا دَعَوْتَنِيْ وَرَجَوْتَنِي ، غَفَرْتُ لَكَ عَلى مَا كَانَ مِنْكَ وَلا أُبَالِيْ ، يا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغْتَ ذُنُوبَكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرتَنِي غَفَرْتُ لكَ .

يَا ابْنَ آدَمَ انَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقِيْتَنِيْ لاَ

تُشْرِكُ بي شَيْئاً ، لاتَيْتُكَ بقُرابِهَا مَغْفِرَةٍ ، رَواهُ التِّرمِذي .

وَعَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلى الله عليه وسلم ، قَال انَّ الكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بَهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا ، وَأمّا المْؤُمِنُ فَانَّ اللهَ تَعَالَى يَدَّخِرُ لهُ حَسَنَاتِهِ في الآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقاً في الدُّنْيا عَلَى طَاعَتِهِ .

وَفي رِوَايَةٍ انَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مُؤْمِناً حَسَنَةً يُعْطى بهَا في الدُّنْيَا وَيُجْزَى بهَا في الآخِرَةِ وَأَمَّا الكافِرُ فيُطْعَمُ بحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ لِلّهِ تَعالى في الدُّنْيَا ، حَتَّى إذَا أفْضَى إلى الآخِرَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَىٰ بهَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَفي حَدِيْثِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أنْتُم في أهْلِ الشِّرْكِ إلا كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ في جِلْدِ الثَّوْرِ الاسْوَدِ أوْ كالشَعْرَةِ السَّوْدَاءِ في جِلْدَ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ مُتفقٌ عَلَيْهِ .

وَفي حَدِيْثِ ابن عَبَّاسٍ قَالَ سَمِعْتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ ما مِنْ رجلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فيَقُومُ على جِنَازَتِهِ أرْبَعُوْنَ رَجُلاً لا يُشْرِكونَ باللهِ شَيْئاً الاّ شَفَّعَهُم اللهُ فيهِ رَوَاهُ مُسْلِم .

وَفي حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم اذْهَبْ فَمنْ لقِيتَ وَرَاءَ هَذَا الحائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهَ مُسْتَيْقِناً بِهَا قَلبُهُ فَبَشِّرْهُ بالجَنّةِ رَوَاهُ مُسْلِم .

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِى اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيّ صَلى اللهُ عليه وسلم قالَ انَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللّيلِ لِيَتُوْبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهارِ لِيَتُوْبَ مُسيءُ الليلِ حَتَّى تَطْلَعُ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا رَوَاهُ مُسْلِم .

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ سَمِعْتُ رَسُوْلَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُوْلُ يُدْنَى المؤْمِنُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ فيقُوْلُ أَتعرفُ ذَنْبَ كَذَا أتعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ رَبِّي أعْرِفُ قَالَ فَانِّيْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ في الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لكَ اليَوْمَ فَيُعْطَى صَحِيْفَةَ حَسَنَاتِهِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَيَنْبَغِيْ لِمَنْ قَرُبَتْ مُفَارَقَتُهُ الدُّنْيَا أَنْ يَكُوْنَ عَلَى بَالِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ آيَاتِ الرَّجَاءِ وَأَحادِيْثِ الرَّجَاءِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

شعــرا :

نَــادَتْ بِوَشْــكَ رَحْــيْلِكَ الأَيَّــامُ
أَفَلَسْــتَ تَسْــمَعُ أَمْ بِكَ اسْــتِصْمَامُ
ومَضَــى أَمَامَكَ مَنْ رَأَيْــتَ وأَنْــتَ لِلْـ
بَاقِيْنَ حَــتَّى يَلْحَــقُوكَ إِمَــامُ
مَـالِيْ أَرَاكَ كَــأَنَّ عَيْنَــكَ لاَ تَــرَى
عِـبَراً تَمُــرُّ كَـأَنَّهُــنَّ سِهَــامُ
تَـأْتِي الخُطُـوبُ وأَنْـتَ مُنْتَبِهُ لَهَا
فَـإِذَا مَضَـتْ فكَـأَنَّهَـا أَحْــلاَم
قَـدْ وَدَّعَـتْـكَ مِـن الـصِّبَـا نَـزَوَاتُـهُ
فَـاجْهَـدْ فمَـالَـكَ بَعـدَهُـنَّ مَقَـامُ
وأَرْضَ المشِـيْبَ مِـن الشَّـبابَ خَـلِيْفَةً
فكِـلاَهُمَا لَـكَ خِـلْفَـةٌ ونِـظَـامُ

وكِلاهُما حُجَجٌ عَلَيْكَ قَوِيَّةٌ
وكِلاهُما نِعَمٌ عَلَيْكَ جِسَامُ
ولَقَدْ غَنَتَ مِن الشَّبابِ بِغِبْطَةٍ
ولَقَدْ كَسَاكَ وَقَارُهُ الإِسْلامُ
أَهْلاً وسَهْلاً بالمَشِيْبِ مُؤدِبا
وعلَى الشَّبابِ تَحِيَّةٌ وسَلاَم
ما زُخْرُفُ الدُّنْيا وزُبْرُجُ أَهْلِهَا
إلا غُرُوْرٌ كُلُّهُ وحُطَامُ
ولَرُبَّ ذِي فُرُشٍ مُمَهَّدَةٍ لَهُ
أمْسَى عليهِ مِن التُّرابِ رُكَامُ
وَلَكَمْ رَأيْتُ مَحَلَّةً أَقْوتْ وَكَمْ
جَدَثٌ رأَيْتُ تَلُوحُ فِيه عِظَامُ
والموتُ يَعْمَلُ والعُيونُ قَرِيْرَةٌ
تَلْهُو وتَعْبَثُ بالمُنَى وتَنَامُ
فالحمدُ للّهِ الذِي هُوَ دَائِمٌ
أَبَداً وليسَ لِمَا سِوَاهُ دَوَامُ
والحمدُ للّه الذِي لجِلالِهِ
وَلِحِلْمِهِ تَتَصَاغَرُ الأحْلاَمُ
والحمدُ للّهِ الذي هو لَمْ يَزَلْ
لا تَسْتَقِلُ بِعِلْمِهِ الأَوْهَامُ
سُبحانَهُ مَلِكٌ تَعالَى جَدُّهُ
ولِوَجْهِهِ الإِجْلَالُ والإِكْرَامُ

(فَصْـــلٌ)

إذَا فهِمْتَ مَا تَقَدَّمَ ، فَاعْلَمْ أَنَّ العَبْدَ المُؤمِنَ لاَ بُدَّ انْ يَجْمَعَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالخَوْفِ ، وَهَذَا الطَّرِيْقُ هُوَ طَرِيْقُ الاعْتِدَالِ ، لانَّهُ إنْ غَلَبَ عَلَيْكَ الرَّجَاءُ حَتَّى فَقَدْتَ الخَوْفَ البَتَّةَ وَقَعتَ في طَرِيْقِ الأمْنِ مِنْ مَكْرَ اللَّهِ ، وَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إلاَّ القَوْمُ الخَاسِرُوْنَ .

وَانْ غَلَبَ عَلَيْكَ الخَوْفُ حَتَّى فَقَدْتَ رَجَاءَ اللَّهِ وَقَعْتَ في طَرِيْقِ اليَأْس ، وَلا يَيْأَسُ مِن رَوْح اللَّهِ إلاَّ القَوْمُ الكَافِرُوْنَ ، وَلا يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ ربِّه أَلاَّ الضَّالّون ، وَإِنْ جَمَعْتَ بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَهُوَ طَرِيْقُ أَوْلِيَآءِ الله وَأَصْفِيَآئِه .

قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ : وَجُمْلَةُ الامْـر أَنَّكَ إذَا تَذَكَّرْتَ سَعَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَـالى التي سَبَقَتْ غَضَبَـهُ وَوَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ ثمّ أَنْ كُنْتَ مِنْ هَذِه الأمةِ المَرْحُوْمَةِ الكَرِيْمَةِ على اللَّهِ تَعَالَى ثَمَّ غَايَةَ فَضْلِهِ العَظِيْمِ وَكَمَالَ جُوْدِهِ الكَرِيْمِ وَجَعْـلَ عُنْوَانِ كِتَابِهِ إلَيْكَ بسْم اللَّهِ الرَّحمن الرحيم ثمّ كثْرَةَ أيَادِيْه إلَيْكَ وَنِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً مِن غَيْرِ شَفِيْعٍ أَوْ قِدَمٍ سَابِقَةٍ لَكَ .

شعــرا :

يا ربِّ إنَّ ذُنُـوبي قَـد أَحَطْتَ بهـا ... علِمــاً وبي وبإعـلاني وإسْــرَارِي

أنـا الموحِّـــدُ لكِـنِّي المُقِــرُّ بهـا ... فَهَبْ ذُنُـوبي لِتَوحِيدِي وإقْـرَارِي

آخـر : أَيا رَبِّ قَدْ أَحْسَنْتَ عَوْداً وبَدْأَةً

إلـيَّ فـلم يَنْهَـضْ بإحْسَـانِـكَ الشُـكْـرُ

فَمَـنْ كَـانَ ذَا عُـذْرٍ لَـدَيْـكَ وحُـجَّـةٍ

فَعُـذْرِي إقْـرَارِي بـأنْ لَيْسَ لـي عُـذْرُ

وَتذَكَّرْتَ مِن جَانِبٍ آخَرَ كَمَالَ جَلاَلِهِ وَعَظَمَتِه وَعِظَمَ سُلْطَانِهِ وَهَيْبَتِهِ ثم شِدَّةَ غَضَبِهِ الذي لاَ تَقُوْمُ له السَّمواتُ والارْضُ ، ثم غَايَةَ غفلَتِكَ وَكَثْرَةَ ذُنُوْبِكَ وَجَفْوتِكَ مَعَ دِقَّةِ أَمْرِهِ ، وَخَطَرِ مُعَامَلَتِه في إِحَاطَةِ عِلْمِهِ وَبَصَرِهِ بالعُيُوْبِ وَالغُيُوْبِ ، ثم حُسْنَ وَعْدِه وَثوَابِهِ الذي لا يَبْلُغُ كُنْهَهُ الاوْهَامُ وَشِدَّةَ وَعِيْدِه وَأَلِيْمَ عِقَابِهِ الذي لا يَحْتَمِلُ ذِكْرَهُ القُلُوْبُ .

تَارَةً تَنْظُرُ إِلى عَذَابِهِ وَتَارَةً تَنْظُرُ إِلى رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وَتَارَةً تَنْظُرُ إِلى نَفْسِكَ في جَفَوَاتِهَا وَجِنَايَاتِها فَاذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ أَدَّى بِكَ جَمِيْعُ ذلكَ إِلى الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَكُنْتَ قَدْ سَلَكْتَ سَبِيْلَ الشَّارِعِ القَصْدَ وَعَدَلْتَ مِنْ الجَانِبَيْنِ المُهْلِكَيْنِ ، الأَمْنِ وَاليَأسِ وَلا تَتِيْهُ فِيْهِما مَعَ التَّائِهِيْنَ ، وَلَا تَهْلَكْ مَعَ الهَالِكِيْنَ وَشَرِبْتَ الشَّرَابَ المَمْزُوْجَ العَدْلَ فلاَ تَهْلَكْ بِبُرُوْدَةِ الرَّجَاءِ الصِّرْفِ ، وَلا بحَرَارَةِ الخَوْفِ الصِّرْفِ .

وَكَأَنِّي بِكَ قَدْ وَصَلْتَ إِلى المَقْصُوْدِ غانِماً وَشُفِيْتَ مِن العِلَّتَيْنِ سَالِماً وَوَجَدْتَ النَّفْسَ قَدْ انْبَعَثَتْ لِلطَّاعَةِ وَدَانَتْ في الخِدْمَةِ لَيْلاً وَنَهاراً مِنْ غَيْرِ فَتْرَةٍ وَلا غَفْلَةٍ ، وَاجْتَنَبْتَ المَعَاصِيْ وَالمَخَازِيْ وَهَجَرْتَهَا وَصِرْتَ حِيْنَئِذٍ مِنَ الأَصْفِيَاءِ الخَوَاصِّ العَابِدِيْنَ ، الذِيْنَ وَصَفَهُمْ اللّٰهُ تَعَالَى بقَوْلِه ﴿ إِنَّهُم كَانُوا يُسَارِعُوْنَ في الخَيْرَاتِ وَيَدْعُوْنَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِيْنَ﴾.

وَاللّٰهُ سُبْحَانَهُ المَسْئُولُ أَنْ يُمِدَّكَ وَإِيَّانَا بحُسْنِ تَوْفِيْقِهِ وَتَسْدِيْدِه إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ وَأَجْوَدُ الأَجْوَدِيْنَ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ الا بِاللّٰهِ العَلِيِّ العَظِيْمِ وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(فَصْلٌ)

قَال ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ القَلْبُ في سَيْرِهِ الى اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ بمَنْزِلَةِ الطَّائِرِ فـالمحَبَّةُ رَأْسُـهُ وَالخَوفُ والـرَّجَاءُ جَنَـاحَاهُ فَمَتى سَلِمَ الـرَّأسُ وَالجَنَاحَانِ فَالطَّائِرُ جَيِّدُ الطَّيَران وَمَتى قُطِعَ الرَّأْسُ مَاتَ الطَّائِرُ وَمَتىَ فَقَدَ الجَنَاحَانِ فَهُوَ عُرْضَةٌ لِكُلِّ صَائِدٍ وَكَاسِرٍ .

وَقِيْلَ أَكْمَلُ الاحْوَالِ الاعْتِدَالُ أ هـ قَالَ اللّهُ تَعَالَى مُخْبِراً عَنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ ﴿ إنْهُمْ كَانُوا يُسَارِعُوْنَ في الخَيْراتِ وَيَدْعُوْنَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنا خَاشِعِيْنَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ يَدْعُوْنَ رَبَّهُم خَوْفاً وَطَمَعـاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُوْنَ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُوْنَ ﴾ .

وَقِيْلَ إنْ كَانَ الغَالِبُ عَلى القَلْبِ الأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللّهِ فَالخَوْفُ أفضَلُ وَكَذَا انْ كَانَ الغَالِبُ على العَبْدِ المعْصِيَةِ ، وَإنْ كَانَ الغَالِبُ عَلَيْهِ اليَأْسُ وَالقُنُوْطُ فَالرَّجَاءُ أَفْضَلُ .

وَالذِيْ تَطْمَئِنُّ الَيْهِ النَّفْسُ سُلُوكُ الاعْتِدَالِ إلاَّ عِنْدَ فِرَاقِ الدُّنْيَا فَيغَلَّبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ .

لِما وَرَدَ عَنْ جَابِرٍ رَضْىَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهَ سَمِعَ النَّبيَّ صَلى اللهُ عَليه وسَلم قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ لا يَمُوْتَنَّ أَحَدُكُم إلاَّ وَهُوَ يُحَسِّنُ الظَّنَّ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ رواهُ مُسْلِم .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِيْ بِيْ

وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ ذَكَرَنِيْ الحَدِيْثُ رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيْثِ أبي هُرَيْرَة وَقَدْ رُئِيَ بَعْضُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِ فَسُئِلَ عَنْ حَالِهِ فانشَدَ :

نُقِلْتُ إلى رِمْسِ القُبُـوْرِ وَضِيْقِهَـا
وَخَـوفِي ذُنُـوبِيْ أَنَّهَـا بِيْ تَـعْثُـرُ
فَصَـادَفْتُ رَحْمَانـاً رَؤُفـاً وَأَنْعُمـاً
حَبَانِي بهَـا سَقْياً لِمَـا كُنْتُ أَحْـذَرُ
وَمَن كَانَ حُسْنُ الظَّنِّ في حَالِ مَوْتِهِ
جَمِيْـلاً بعِفْـوِ اللّهِ فَـالعَفْـوُ أَجْـدَرُ

آخَرُ

يَـا مَنْ إِلَيْـهِ جَمِيْـعُ الخَلْقِ يَبْتَهِلُوا
وَكُـلُّ حَـيّ عَلى رُحْـمَـاهُ يَتَّـكِـلُ
يَا مَنْ نَأَى فَرَأَى مَا في القلوبُ ومَا
تَحْتَ الثَّرَى وَحِجَابُ اللَّيْلِ مُنْسَدِلُ
يَا مَنْ دَنَا فَنَـأَى عَنْ أَنْ يُحِيْطَ بِهِ الْ
أفْـكَـارُ طُـرّاً أَوْ الأَوْهَـامُ وَالعِـلَلُ
أَنْتَ المَـلاَذُ إِذَا مَـا أَزْمَتُ شَمِلَتْ
وَأَنْتَ مَلْجأُ مَنْ ضَاقَتْ بـهِ الحِيَـلُ
أَنْتَ المُنَـادَى بـهِ في كُـلِّ حَـادِثَـةٍ
أنْتَ الإِلٰهَ وَأنْتَ الـذُّخْـرُ وَالأَمَـلُ
أَنْتَ الغِيَـاثُ لِمَنْ سُـدَّتْ مَـذَاهِبُـهُ
أنْتَ الـدَّلِيْلُ لِمَنْ ضَلَّتْ بِـهِ السُّبُلُ

إنَّـا قَـصَـدْنَـاكَ وَالآمَـالُ وَاقِـعَـةٌ
عَلَيْـكَ والكُـلُّ مَلْهُـوْفٌ وَمُبْتَـهِـلُ
فَـإنْ غَفَرْتَ فَعَنْ طَـوْلٍ وَعَنْ كَرَم
وَانْ سَـطَوْتَ فَأَنْتَ الحَـاكِمُ الْعَـدِلُ

وَأَخْرَجَ الامَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ وَالبَيْهَقِيّ عَنْ حَيَّانِ أبيْ النَّضرْ قالَ خَرَجْتُ عَائِداً لِيَزيْدَ بنِ الاسْوَدِ ، فلقِيْتُ وَاثِلَة بْنَ الاسْقَعِ وَهُوَ يُرِيْدُ عِيَادَتَهُ ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ فَلَمَّا رَأى وَاثِلَةَ بسَطَ يَدَهُ وَجَعَلَ يُشِيْرُ الَيْهِ ، فَأَقْبَلَ وَاثِلَةُ حَتَّى جَلَسَ فَأَخَذَ يَزِيْدُ بِكَفَّيْ وَاثِلَةَ فَجَعَلَهُما عَلى وَجْهِهِ ، فقَالَ لهُ وَاثِلَةُ كَيْفَ ظَنُّكَ باللهِ قَالَ ظَنِّي بِاللّهِ حَسَنٌ قالَ فَأَبْشِرْ فَانِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى الله عَليه وسلم يَقُوْلُ قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَ أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِيْ بي ، إنْ ظَنَّ خَيْراً فَلَهُ ، وَانْ ظَنَّ شَرّاً فَلَهُ .

وَرَوَى الطَّبَرانِي عَنْ ابْنِ مَسْعُوْدٍ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ وَالذِيْ لَا إله غَيْرُهُ لا يُحَسِّنُ عَبْدٌ باللهِ الظَّنَّ إلا أعْطَاهُ ظَنَّهُ ، وَذَلِكَ بِأَنَّ الخَيْرَ في يَدِهِ .

وَرَوَى البَيْهَقِيّ عَنْ أبي هُرَيْرَة رَضِى اللهُ عَنْهُ مَرْفُوْعَاً أَمَرَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعبْدٍ الى النّارِ فَلَمّا وَقَفَ على شَفَتِهَا الْتَفَتَ فَقَالَ أَما وَاللّهِ يَا رَبِّ انْ كَانَ ظَنِّيْ بكَ لَحَسَنٌ فقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رُدُّوْهُ أنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِيْ بِيْ .

وَلَمَّا حَضَرَتْ الامَامَ أَحْمَدَ الوَفَاةُ قَالَ لِوَلَدِهِ عَبْدِ اللّهِ أُذْكُرْ لِيْ أَحَادِيْثَ الرَّجَاءِ ، وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ يُوَبِّخُ نَفْسَهُ :

أَرَانِيْ إِذَا حَدَّثْتُ نَفْسِيْ بِتَوْبَةٍ
تَعَرَّضَ لِيْ مِنْ دُوْنِ ذَلِكَ عَائِقُ
تَقَضَّتْ حَيَاتِيْ فِي اشْتِغَالٍ وَغَفْلَةٍ
وَأَعْمَالِ سُوْءٍ كُلُّهَا لَا تُوَافِقُ
طُرِدْتُ وَغَيْرِيْ بِالصَّلاحِ مُقَرَّبُ
وَدُوْنَ بُلُوْغِيْ مَسْلَكٌ مُتَضَايِقُ
وَكَيْفَ وَزَلَّاتُ الْمُسِيْءِ كَثِيْرَةٌ
أَيَقْرُبُ عَبْدٌ عَنْ مَوَالِيْهِ آبِقُ
إِلى اللّهِ أَشْكُو قَلْبَ سُوْءٍ قَدْ احْتَوى
عَلَيْهِ الهَوَى وَاسْتَأْصَلَتْهُ العَلائِقُ
وَلِيْ حَزَنٌ يَزْدَادُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ
وَدَمْعُ جُفُونِيْ لِلْبُكَاءِ يُسَابِقُ
فَإِنْ يَغْفِرِ المَوْلَى الذي قَدْ أَتَيْتُه
فَذَاكَ الرَّجَا وَالظَّنُّ حِيْناً يُوَافِقُ
« عَلَامَةُ ما يُولِيْ مِن الفَضْلِ إِنْ أَنَا
هَجَرْتُ الدُنْـا أَوْ قُلْتُ إِنَّكِ طَالِقُ »
« وَأَقْبَلْتُ فِي تَصْلِيْحِ أُخْرَايَ مُدْلِجاً
أُحَاسِبُ نَفْسِيْ كُلَّ مَا ذَرَّ شَارِقُ »

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

(فَصْلٌ)

قَال ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ وَلا رَيْبَ أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ باللّهِ إِنَّمَا يَكُوْنُ مَعَ الاحْسَانِ فَانَّ المُحْسِنَ حَسَنُ الظَّنِّ برَبِّه أَنه يُجَازِيْهِ على إِحْسَانِه ولا يُخْلِفُ وَعْدَه وَيَقْبَلُ تَوْبَتَه وَأَمَّا المُسِيءُ المُصِرُّ على الكَبَائِرِ وَالظُّلْم

وَالمُخَالَفَاتِ فَانَّ وَحْشَةَ المعَاصِي وَالظُّلْمِ وَالحَرَامِ تَمْنَعُه مِن حُسْنِ الظَّنِّ بربِّهِ وَهَذا مَوْجُودٌ في الشَّاهِدِ فَانَّ العَبْدَ الآبِقَ المُسِيءَ الخَارِجَ عن طَاعَةِ سَيِّدِه لا يُحَسِّنُ الظنَّ بهِ ، وَلا يُجَامِعُ وَحْشَةَ الاسَاءَةِ إحْسَانُ الظَّنِّ أبَداً ، فَإنَّ المُسِيءَ مُسْتَوْحِشٌ بَقَدْرِ إسَاءَتِه ، وَأَحْسَنُ النَّاسِ ظَنّاً بربِّه أَطْوَعُهم لَهُ . كَمَا قالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ : إنَّ المؤمِنَ أحْسَنَ الظنَّ بربِّهِ فأحْسَنَ العَمَلَ ، وَانَّ الفَاجِرَ أسَاءَ الظَّنَّ بَرَبِّهِ فَأَسَاءَ العَمَلَ .

وَكَيْفَ يَكُوْنُ مُحْسِنُ الظَّنِّ بربِّهِ مَنْ هُوَ شَارِدٌ عَنْهُ ، حَالٌ مُرْتَحِلٌ في مَسَاخِطِه وَمَا يُغْضِبُه ، مُتَعَرِّضٌ لِلَعْنَتِهِ ، قَدْ هَانَ حَقُّهُ وَأَمْرُهُ عَلَيْهِ فَأَضَاعَهُ، وَهَـانَ نَهْيُـهُ عَلَيْهِ فَارْتَكَبَه وَأصرَّ عَلَيْهِ وَكَيْفَ يُحَسِّنُ الظَّنَّ بربِّهِ مَنْ بَارَزَهُ بالمُحَارَبَةِ ، وَعَادَى أوْلِيَاءَهُ ، وَوَالَى أعْدَاءَهُ ، وَجَحَدَ صِفَاتٍ لهُ وَأسَاءَ الظَّنَّ بمَا وَصَفَ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ به رَسُولُه صَلى الله عليه وسَلم وَظنَّ بِجَهْلِهِ أنَّ ظَاهِرَ ذَلِكَ ضَلالٌ وَكُفْرٌ .

وَكَيْفَ يُحَسِّنُ الظَّنَّ بمَنْ يَظُنُّ أنَّهُ لا يَتَكَلَّمُ وَلا يَأْمُرُ وَلا يَنْهَى وَلا يَرْضَى وَلا يَغْضَبُ وَقد قالَ اللّهُ تَعَالَى في حَقِّ مَنْ شَكَّ في تَعَلُّقِ سَمْعِهِ بِبَعْضِ الجُزْئِيَّاتِ، وَهُوَ السِّرُّ مِنْ القَوْلِ ﴿ ٤١ : ٢٣ وَذلِكُم ظَنُّكُمُ الذِيْ ظَننتُم برَبِّكُم أَرْدَاكُم فَأَصْبَحْتُم مِنْ الخَاسِرِيْنَ ﴾ .

فهْؤُلاءِ لما ظَنُّوْا أنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ لا يَعْلَمُ كَثِيْراً مِمَّا يَعْمَلُوْنَ كَانَ هَذا إسَاءَةً لِظَنِّهِمْ بِرَبِّهم ، فَأَرْدَاهُم ذلكَ الظنُّ . وَهَذا شَأْنُ كُلِّ مَنْ جَحَدَ صِفاتِ كمَالِه وَنُعُوتَ جَلالِه ، وَوَصَفَهُ بمَا لا يَلِيْقُ بهِ ، فَاذا ظَنَّ هَذَا أنَّهُ يُدْخِلُهُ الجَنَّةَ كَانَ هَذَا غُرُوراً وَخِدَاعاً مِنْ نِفْسِه ، وَتَسْوِيْلاً مِنْ الشَّيْطَانِ ، لا إحْسَانُ ظَنٍّ بِرَبِّهِ .

فَتَأَمَّلْ هَذَا المَوْضِعَ ، وَتَأَمَّلْ شِدَّةَ الحَاجَةِ الَيْهِ ، وَكَيْفَ يَجْتَمِعُ في قَلْبِ العَبْدِ تَيَقُّنُهُ بِأَنهُ مُلاقِ اللّهِ ، وَأَنَّ اللّهَ يَسْمَعُ كلامَهُ وَيرى مَكانَهُ ، وَيَعْلَمُ سِرَّهُ وَعَلانِيَتَهُ ، وَلا يَخْفى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ أمْرِهِ ، وَأَنَّهُ مَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدِيْهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ كُلِّ مَا عَمِلَ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلى مَسَاخِطِهِ مُضَيِّعٌ لِأوَامِرِهِ ، مُعَطِّلٌ لِحُقُوقِهِ ، وَهُوَ مَعَ هَذا يُحَسِّنُ الظَّنَّ بِهِ .

وَهَلْ هَذَا إِلاّ مِنْ خُدَعِ النُّفُوسِ وَغُرُوْرِ الأَمَانِيْ . وَقَدْ قَالَ أَبُو سَهْلُ ابْنُ حُنَيْفٍ « دَخلْتُ أنَا وَعُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ عَلى عَائِشَةُ رَضَى اللّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ : لَوْ رَأَيْتُمَا رَسُولَ اللّه صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مَرَضٍ لَهُ ، وَكَانَتْ عِنْدَهُ سِتَّةُ دَنانِيْرَ ، أَوْ سَبْعَةُ دَنَانِيْرَ .

فَأَمَرنِيْ رَسُوَلُ اللّهِ صَلى الله عليه وسلم أَنْ أُفَرِّقَهَا ، فَشَغَلَنِي وَجَعُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم حَتَّى عَافاهُ اللهُ ، ثُمَّ سَألنِيْ عَنْهَا فَقَالَ مَا فَعَلْتِ أكُنْتِ فَرَّقْتِ السِّتَّةَ الدَّنَانِيْرَ ، فَقُلْتُ : لا وَاللّهِ ، لَقَدْ كَانَ شَغَلَنِيْ وَجَعُكَ ، قَالَتْ : فَدَعَا بِهَا فَوَضَعَهَا في كَفِّهِ ، فقَالَ: مَا ظَنّ نَبِيّ اللهِ لَوْ لَقِيَ اللّهَ وَهَذِه عِنْدَهُ ، وفي لَفْظٍ « مَا ظَنُّ مَحَمّدٍ بِرَبِّهِ لَو لَقِيَ اللهَ وهَذِه عِنْدَه » .

فيَاللّهِ مَا ظَنُّ أَصْحَابِ الكَبَائِرِ وَالظَّلَمَةِ باللهِ إذَا لَقُوهُ وَمَظَالِمُ العِبَادِ عِنْدَهُم ، فانْ كَانَ يَنْفَعُهم قَوْلُهم : حَسَّنَّا ظُنُونَنَا بكَ إنَّكَ لَمْ تُعَذبْ ظَالماً وَلا فَاسِقاً ، فَلْيَصْنَعِ العَبْدُ مَا شَاءَ ، وَلْيَرْتَكِبْ كُلَّ مَا نَهاهُ اللهُ عنه ، وَلْيُحَسِّنْ ظَنَّهُ باللهِ ، فانَّ النَّارَ لا تَمَسُّهُ ، فَسُبْحَانَ اللهِ ، مَا يَبْلُغُ الغُرورُ بالعَبْدِ ، وَقَدْ قَالَ إبْرَاهِيْمُ لِقَومِه ﴿ ٣٧ : ٨٦ أإفْكاً آلِهَةً دُوْنَ اللّهِ تُرِيْدُوْنَ

فَمَا ظَنكُم برَبِّ العَالمين ﴾ أَيْ مَا ظَنكُم بهِ أنْ يَفْعَلَ بكم إذَا لَقِيْتُمُوهُ وَقَدْ عَبَدْتُم غَيْرَهُ .

وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا المَوْضِعَ حَقَّ التَّأَمُّلِ عَلِمَ أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ باللّهِ هُوَ حُسْنُ العَمَلِ نَفْسُهُ ، فإنَّ العَبْدَ إنَمَا يَحْمِلُه عَلى حُسْنِ العَمَلِ حُسْنُ ظَنِّهِ برَبِّهِ أَنْ يُجازِيْهِ عَلى أعْمَالِهِ وَيُثِيْبَهُ عَلَيْهَا وَيَتَقَبَّلَهَا مِنْهُ ، فالذِي حَمَلهُ على حُسْنِ العَمَلِ حُسْنُ الظَّنِّ ، فَكُلَّمَا حَسُنَ ظَنُّهُ برَبِّهِ حَسُن عَمَلُه .

وَإلا فَحُسْنُ الظَّنِّ مَعَ اتِّبَاعِ الهَوَى عَجْزٌ ، كَمَا في التِّرْمِذِيّ وَالمُسْنَدِ من حَدِيْثِ شَدَّادِ ابنِ أَوْسٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الكَيِّسُ من دَانَ نَفسَه وعَمِلَ لما بَعْدَ المَوْتِ ، والعَاجِزُ مَنِ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وتَمَّنى عَلى اللهِ الأَمَانِيْ».

وَبالجُمْلَةِ فَحُسْنُ الظَّنِّ إنَّمَا يَكُونُ مَعَ انْعِقَادِ أَسْبَابِ النَّجَاةِ وَأَمَّا مَعَ إنْعِقَادِ أَسْبَابِ الهَلاكِ فَلا يَتَأَتّى إحْسَانُ الظَّنِّ .

فإنْ قِيْلَ : بَلْ يَتَأَتّى ذَلِكَ ، وَيَكُونُ مُسْتَنَدُ حُسْنِ الظَّنِّ عَلى سَعَةِ مَغْفِرَةِ اللّهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَعَفْوِهِ ، وَجُوْدِهِ ، وَأنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ ، وَأنهُ لا تَنْفَعُه العُقُوبَة ، وَلا يَضُرُّه العَفْوُ .

قِيْلَ : الأَمْرُ هَكَذَا ، وَاللّهُ فَوْقَ ذَلِكَ وَأَجَلُّ وَأَكْرَمُ وَأَجْوَدُ وَأَرْحَمُ ، وَلَكِنْ إنَّما يَضَعُ ذَلِكَ في مَحَلِّهِ اللائِقِ بهِ ، فَانَّهُ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بالحِكْمَةِ وَالعِزَّةِ وَالانْتِقَامِ وَشِدَّةِ البَطْشِ ، وَعُقُوْبَةُ مَنْ يَسْتَحِقُّ العُقُوبَةَ ، فلو كانَ مُعَوّلُ حُسْنِ الظنِّ عَلى مُجَرَّدِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ لاشْتَرَكَ في ذَلِكَ البَرُّ وَالفاجِرُ ، وَالمُؤْمِنُ وَالكافِرُ ، وَوَلِيُّهُ وَعَدُوُّهُ .

فَمَا يَنْفَعُ المُجْرِمَ أَسْمَاؤُه وَصِفَاتُه وَقَدْ بَاءَ بِسَخَطِهِ وَغَضَبِهِ وَتعَرَّضَ لِلَعْنَتِه ، .ووَقَعَ في مَحَارِمِهِ وَانْتَهَكَ حُرُمَاتِه ، بَلْ حُسْنُ الظَّنِّ يَنْفَعُ مَنْ تَابَ وَنَدِمَ وَأَقْلَعَ ، وَبدَّلَ السَّيِّئَةَ بِالحَسَنَةِ ، وَاسْتَقْبَلَ بَقِيَّةَ عُمْرِه بالخَيْرِ وَالطَّاعَةِ . ثُمَّ أَحْسَنَ الظَّنَّ بَعْدَها فَهٰذا هُوَ حُسْنُ ظَنٍّ ، وَالأَوَّلُ غُرُوْرٍ وَاللهُ المسْتَعَانُ .

يُفَرِّقُ بَيْنَ حُسْنِ الظَّنِّ باللّهِ وَبَيْنَ الغُرُوْرِ بهِ قَالَ اللّهُ تَعَالَى ﴿ ٢ : ٢١٨ انَّ الذِيْنَ آمَنُوا والذين هَاجَرُوا وجَاهَدُوا في سَبِيْلِ اللّهِ أولئكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ﴾ فَجعَلَ هٰؤلآءِ أهْلَ الرَّجَاءِ ، لا البَطَّالِيْنَ وَالفَاسِقِيْنَ ، وَقَالَ تَعَالَى ﴿ ١٦ : ١١٩ ثم انَّ رَبَّكَ للذين هَاجَرُوا من بعد مَا فُتِنُوا ثم جَاهَدُوا وصَبَرُوا ، إنَّ رَبَّكَ من بَعْدِهَا لغَفُورٌ رَحِيْم ﴾ فَأخْبَر سُبْحَانَهُ أنه بَعْدَ هَذِه الاشْيَاءِ غَفُورٌ رَحِيْمٌ لِمَنْ فَعَلها ، فالعَالِمُ يَضَعُ الرَّجَاءَ مَوَاضِعَهُ ، وَالجاهِلُ المغْتَرُّ يَضَعُهُ في غَيْرِ مَوَاضِعِهْ .

اللهم أحْيِنا في الدنيا مؤمنينَ طائعينَ وتوفَّنا مسلمينَ تائبينَ واغفر لنا ولوالِدَيْنا ولجميعِ المسلمينَ برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

(فَصْلٌ)

في نَمَاذِجَ مِنْ أَخْلاقِ السَّلَفِ رَحِمَهُم اللهُ

مِنْ ذَلِكَ تَوْصِيَةُ بَعْضِهِم بَعْضاً وَقبُولهم لَهَا وشُكْرُهُمْ للْواعِظِ لَهُم ، وَمِنْ وَصِيَّةِ الامَامِ عَليّ بن أَبِيْ طَالِبٍ لابْنِهِ الحَسَن قَالَ فِيْهَا :

أَيْ بُنَيَّ . . إِنِّي لَمَّا رأَيْتَنِيْ قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً ، وَرَأَيْتَنِيْ أَزْدَادُ وهْناً ، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِيْ إليكَ ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا قبلَ أَنْ يُعجل بي أَجَلِيْ دُوْنَ أَنْ أَفْضِيْ إلَيْكَ بِمَا في نَفْسِي ، وَأَنْ أَنْقُصَ في رَأْيِي كما نقصْتُ في

جِسْمِي ، أَوْ يَسْبِقَنِيْ إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا ، فَتكُونُ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ.

وَإِنَّمَا قَلْبُ الحَدَثِ كَالأَرْضِ الخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيْهَا مِنْ شَيءٍ قَبِلَتْهُ ، فَبَادَرْتُكَ بالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدٍّ رَأْيَكَ مِنْ الأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارُبَ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ ، فَتكُونُ قَدْ كُفِيْتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ ، وَعُوفِيْتَ مِنْ عِلاَجِ التَّجْرُبَةِ ، فأَتَاكَ مِن ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيْهِ ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ .

أَيْ بُنَيَّ . . . إِنِّيْ وَانْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمْرَ مَنْ كَانَ قَبْلِيْ ، فَقَدْ نَظْرْتُ في أَعْمَالِهِم ، وَفَكَّرْتُ في أَخْبَارِهِم ، وَسِرْتُ في آثَارِهِم حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهم ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهي إِلَيَّ مِن أُمُورِهِم قَدْ عُمِّرتُ مَعَ أَوَّلِهْم إلى آخِرِهِمْ ، فعَرَفْتُ صَفْوَ ذلِكَ مِنْ كَدرِهِ ، وَنَفْعَه مِن ضَرَرِه .

فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيْلَهُ وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيْلَهُ ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِن أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الوَالِدُ الشَّفِيْقُ ، وَأجْمَعْتُ عَليه مِنْ أَدبكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقبِلُ العُمْرِ وَمُقْتَبِلِ الدَّهْرِ ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيْمَةٍ وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ .

وَأَنْ أَبْتَـدِئَكَ بتَعْلِيْمِ كِتَـابِ اللّهِ وَتَأْوِيْله ، وَشَـرَائِـعِ الاسْـلاَمِ وَأَحْكَامِه ، وَحَلاَلِه وَحَرَامِه ، لا أُجَاوِزُ ذلكَ بِكَ إلى غَيْرِهِ ، ثم أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فيهِ مِن أَهْوَائِهم وَآرَائِهم مِثْلُ الذي التَبَسَ عَلَيْهِمْ ، فَكَانَ احْكَامُ ذَلكَ عَلى مَا كَرِهْتَ مِن تَنْبِيْهِكَ به الهَلكَةَ ، وَرَجَوْتُ أَنْ يَوَفِّقَكَ اللهُ فِيْهِ لِرُشْدِكَ ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ ، فَعهِدْت إِلَيْكَ

وَصِيَّتِيْ هَذِهِ .

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ ، إِنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ به إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِيْ تَقْوى اللّهِ والاقْتِصارِ عَلى ما فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، وَالأَخْذِ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الأَوَّلُونَ مِنْ آبائِكَ ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ، فَإِنَّهُم لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظُروا لِأَنْفُسِهِم كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ .

وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ ، ثُمَّ رَدَّهُم آخِرُ ذَلِكَ إِلى الأَخْذِ بمَا عَرَفُوا ، وَالامْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا ، فَانْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونْ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا ، فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعلُّمٍ ، لا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ وَعُلُوِّ الخُصُوْمَاتِ .

وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ في ذَلِكَ بالاسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ في تَوْفِيْقِكِ ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ في شُبْهَةٍ ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلى ضَلالَةٍ ، فَاذَا أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ ، وتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعْ ، وَكَانَ هَمُّكَ في ذَلِكَ هَمّاً وَاحِداً ، فَانْظُرْ فِيْمَا فَسَّرْتُ لَكَ .

وَانْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ ، وَفَراغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ العَشْوَاءَ وَتَتَورَّطُ الظَّلْمَاءَ ، وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّيْنِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ ، وَالإِمْسَاكُ عَن ذَلِكَ أَمْثَلُ .

فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِيْ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الحَيَاةِ ، وَأَنَّ الخَالِقَ هُوَ المُمِيْتُ ، وَأَنَّ المُفْنِي هُوَ المُعِيْدُ ، وَأَنَّ المُبتَلِيْ هُوَ المعَافِي ، وَأَنَّ الدنيا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إلا عَلى مَا جَعَلَهَا اللهُ عَليهِ مِنْ النَّعْمَاءِ والابْتِلاءِ ، والجَزَاءُ في المعَادِ أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لا نَعْلَمُ .

فَانْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيءُ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلى جَهَالَتِكَ بِهِ ، فَانَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ جَاهِلا ثُمَّ عَلِمْتَ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ من الأَمْرِ ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأيُكَ ، وَيَضِلُّ فِيْه بَصَرُكَ ، ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذلكَ ، فَاعْتَصِمْ بالذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ .

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يَنْبِّىءْ عَنْ اللهِ كَما أَنْبأَ عَنْهُ الرَّسُولُ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَارْضَ به رَائِداً ، وَالى النَّجَاةِ قَائِداً ، فانِّي لَمْ آلُكَ نَصِيْحَةً وانَّكَ لَنْ تَبْلُغَ في النَّظَرِ لِنَفْسِكَ ـ وَانْ اجْتَهَدْتَ ـ مَبْلَغَ نَظَرِيْ لَكْ .

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أنه لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُهِ ، وَلَرَأَيْتَ آثارَ مُلكِه وَسُلْطَانِه ، وَلَعَرَفْتَ أفعَالَهُ وصِفَاتَهُ ، وَلكنَّه الهٌ وَاحِدٌ كما وَصَفَ نَفْسَهُ ، لا يُضَادّه في مُلْكِه أحَدٌ ، وَلا يَزُولُ أَبداً ، وَلَمْ يَزَلْ أَوَّلُ قَبْلَ الأَشْيَاءِ بلا أوَّلِيَّة ، وَآخِرٌ بَعْدَ الأشْيَاءِ بلا نِهَايَةِ ، عَظُمَ عنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتَهُ باحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصرٍ ، فَاذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ في صِغَرَ خَطَرِهِ ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ ، وَعَظِيْمِ حَاجَتِهِ إلى رَبِّهِ ، في طَلَبَ طَاعَتِه ، وَالرَّهْبَةِ من عُقُوبَتِه ، والشَّفَقَةِ من سَخَطِهِ ، فانَّهُ لَمْ يَأْمُركَ إلا بِحُسَنٍ ، وَلَمْ يَنْهَكَ إلاّ عَنْ قَبِيحٍ .

يَا بُنَيّ ... انّي قَدْ أَنْبأْتُكَ عَنْ الدُّنْيَا وحَالِهَا وَزَوالِهَا وَانْتِقَالِها ، وَأَنْبأْتُكَ عِن الآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لاهْلِهَا فِيْهَا ، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيْهِما الأمْثَالَ لِتَعْتَبِرَ بهَا وَتَحْذَو عَلَيْها .

إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفرٍ نَبَا بهم مَنْزِلٌ جَدِيْبٌ فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيْباً وَجَناباً مُرِيْعاً فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الـطَّرِيْقِ وَفِرَاقَ الصَّـدِيْقِ ، وَخُشُـونَةِ السَّفَـرِ ، وَجُشوبَـةَ المَطْعَمِ ، لِيَـأْتُوا سَعَـةَ دَارِهِم ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِم ، فَلَيْس يَجِدُوْنَ لِشَيءٍ مِن ذَلِكَ أَلَمَاً ، وَلا يَرَوْنَ في نَفَقةٍ مَغْرَمَا ، ولا شَيءَ أَحَبُّ إِليهم مِمَّا قَرَّبَهُم مِنْ مَنْزِلِهم ، وَأَدْنَاهُم مِن مَحَلِّهِمْ .

وَمَثَلُ مَنْ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيْبٍ ، فَنَبَا بهم إِلى مَنْزِلٍ جَدِيْبٍ ، فَلَيْسَ شَيء أَكْرَهَ إِلَيْهِم ولا أَفْظَعَ عِنْدَهُم مِن مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيْهِ إِلى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ وَيَصِيْرونَ إِلَيْهِ .

يَا بُنَيَّ . . اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيْزَاناً فِيْمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، وَاكْرَه لَهُ مَا تَكْرَهُ لهَا ، وَلا تَظْلِمْ كَما لا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ ، وَأَحْسِنْ كما تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ ، وَاسْتَقْبِحْ مِن نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لهُم مِنْ نَفْسِكَ ، وَلا تَقُلْ مَالا تَعْلَمُ وَانْ قَلَّ مَا تَعْلم ، وَلا تَقُلْ مَا لا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكْ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الاعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ وَآفَةُ الأَلْبَابِ ، فَاسْعَ في كَدْحِكَ وَلا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ ، وَاذا أَنتْ هُدِيْتَ لِقَصْدِكَ ، فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمامَكَ طَرِيْقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيْدَةٍ وَمَشَقَّةٍ شَدِيْدةٍ ، وَأَنَّهُ لا غِنَى لكَ فِيْهِ عَن حُسْنِ الارْتِيَادِ ، قَدْرَ بَلاغِكَ مِنْ الزَّادِ مَعَ خِفَّةِ الظَّهرِ ، فَلا تَحْمِلَنَّ عَلى ظَهرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ فَيَكونُ ثِقَلُ ذَلِكَ وَبَالاً عَلَيْكَ .

وَاذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ ،

فَيُوافِيْكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ الَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وحَمِّلْهُ ايَّاهُ ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيْدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُه فَلاَ تَجِدُهْ ، وَاغتَنِم مَنْ اسْتَقْرَضَك في حَالِ غِنَاكَ ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ في يَوْمِ عُسْرَتِكَ .

وَاعْلَمْ أنَّ أمَامَكَ عَقَبَةً كَؤُوداً ، المُخِفُّ فِيْهَا أَحْسَنُ حَالاً مِن المُثْقِلِ ، وَالمُبْطِيْ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِن المُسْرِعِ ، وَأنَّ مَهْبَطَكَ بهَا لاَ مَحَالَةَ على جَنَّةٍ أوْ عَلى نَارٍ ، فَارْتَدْ لِنفْسِكَ قَبْلَ نَزُولِكَ ، وَوَطِّىءْ المَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَليس بَعْدَ الموتِ مُسْتَعْتَبٌ ، وَلا إلى الدنيا مُنْصَرَفٌ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الذِيّ بيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ، قَدْ أَذِنَ لَكَ في الدُّعَاءِ ، وَتَكفَّلَ لكَ بالاجَابَةِ ، وَأمَرَكَ أنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ ، وَلَمْ يَجْعَلَ بيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَن يَحْجُبُهُ عَنْكَ ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إلى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إلَيْهِ ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إنْ أَسَأْتَ مِنْ التَّوْبَةِ ، وَلَمْ يَعَاجِلْكَ بالنقْمَةِ ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بالانابَةِ وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الفَضِيْحَةُ بَكَ أَوْلَى ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ في قَبُولِ الانَابَةِ ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالجَرِيْمَةِ ، وَلَمْ يُؤَيِّسْكَ مِنْ الرَّحْمَةِ .

بَلْ جعَلَ نُزُوْعَكَ عَنْ الذَّنْبِ حَسَنَةً ، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً ، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرًا ، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ المتَابِ ، فَإذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاءَك ، وَإذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ ، فَأفْضَيْتَ إلَيْهِ بحَاجَتِكَ ، وَأبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ ، وَشَكَوْتَ إلَيْهِ هُمُومَكَ ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلى أُمُورِكَ ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِه مَالا يَقْدِرُ عَلى إعْطائِهِ غَيْرُهُ من زِيَادَةِ الأعْمَارِ ، وَصِحَّةِ الأبْدَانِ ، وَسَعَةِ الأرْزَاقِ .

ثُمَّ جعَلَ في يَدَيْكَ مَفَاتِيْحَ خَزَائِنِهِ بمَا أَذِنَ لَكَ مِنْ مَسْأَلَتِهِ ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بالدّعَاءِ أبْوابَ نِعْمَتِه ، وَاسْتَمْطَرْتَ شآبِيْبَ رَحْمَتِه فلا يُقَنِّطَنَّكَ إبْطَاءُ اجَابَتِه ، فإنَّ العَطِيَّةَ على قَدْرِ النِّيةِ ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الاجَابَةُ لِيَكُوْنَ ذَلِكَ أعْظَمُ لأجْرِ السَّائِلْ ، وَأَجْزَلُ لِعَطاءِ الآمِلْ .

وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيءَ فَلا تُؤْتَاهُ وَأُوتِيْتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجلاً أو آجلاً ، أوْ صُرِفَ عَنْكَ لِما هُوَ خَيْرٌ لَكَ ، فلرُبَّ أَمْرٍ قدْ طلَبْتَهُ فِيْهِ هَلاكُ دِيْنِكَ لَوْ أُوْتِيْتَهُ ، فلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيْمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ . فَالمَالُ لا يَبْقَى لَكَ وَلا تَبْقَى له .

وَاعْلَم أنَّكَ انَّما خُلِقْتَ للآخِرَةِ لاَ للدُّنيا ، وَلِلْفَنَاءِ لا لِلبَقَاءِ ، وَلِلْمَوتِ لا للحَيَاةِ ، وَأنكَ في مَنْزِلِ قَلْعَةٍ وَدَارِ بُلْغَةٍ ، وَطَـرِيْقٍ إلى الآخِرةِ .

وَأنَّكَ طَرِيْدُ المَوْتِ الذيْ لا يَنْجوُ مِنْهُ هَارِبُه ، وَلاَ بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُه ، فَكُنْ مِنْهُ عَلى حَذرٍ أنْ يُدْرِكَكَ وَأنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ قد كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بالتَّوْبَةِ ، فَيَحُولُ بَيْنَك وَبَيْنَ ذَلِكَ ، فاذَا أنْتَ قَدْ أهْلَكْتَ نَفْسَكَ .

يَا بُنَيَّ ، أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ ، وَتُفْضِيْ بَعْدَ المَوْتِ الَيْهِ ، حَتَّى يَأْتِيْكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ ، وَلاَ يَأتِيْكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ ، وَإيَّاكَ أنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ اخْلاَدِ أهْلِ الدّنْيَا إلَيْهَا ، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا .

فَقَـدْ نَبَّأَكَ اللّهُ عَنْهـا ونَعَتَتْ لَكَ نَفْسَهـا ، وَتَكَشَّفَتْ لَـكَ عَنْ

مَسَاوِيَها ، فَانَّ أَهْلَهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ ، يَهِرُّ بَعْضُهَا بَعْضَا ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيْلَها ، وَيَقْهَرُ كَبِيرها صَغِيْرَهَا .

نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا ، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَها ، سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوادٍ وَعْثٍ . لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيْمُهَا ، ولا مُقِيْمٌ يَسِيْمُهَا ، سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيْقَ العَمَى ، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الهُدَى ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا ، وغَرِقُوا فِي نَعْمَتِهَا ، وَاتَّخَذُوهَا رَبّاً ، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا ، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا .

رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلَامُ ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتْ الأَظْعَانُ ، يُوْشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ ، فَانَّهُ يُسَارُ به وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً ، وَيَقْطَعُ المَسَافَة وَانْ كَانَ مُقِيْماً وَادِعا .

وَاعْلَمْ يَقِيْنَاً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيْلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ ، فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ ، وَأَجْمِلْ فِي المُكْتَسَبِ فَانَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إلى حَرْبٍ ، فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوْقٍ ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ ، وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ ، وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلى الرَّغَائِبْ ، فَانَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلْ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً ، ولا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللّهْ حُرّاً ، وَمَا خَيْرٌ ، لا يُنَالُ إلا بِشَرٍّ ، وَيُسْرٍ لا يُنَالُ إلا بِعُسْرٍ .

وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفْ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ ، فتُورِدُكَ مَنَاهِلَ الهَلَكَةِ ، وَإِن اسْتَطَعْتَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ذو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ ، فَانَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ ، وَانَّ اليَسِيْرَ مِنْ اللّهِ سُبْحَانَهُ أعظمُ وأكْرَمُ مِنَ الكَثِيرِ مِنْ خَلقِهِ وَانْ كَانَ كُلٌّ منه .

كأنّكَ لم تَسْمعْ بأخْبَار مَن مَضَى ولمْ تَرَ في البَاقِينَ مَا يَصْنَعُ الدهرُ
فإنْ كُنتَ لا تَدري فَتِلْكَ دِيَارُهُم عليها مَجَالُ الرِّيحِ بَعْدكَ والقَطْرُ
وهَلْ أبْصَرَتْ عينَاكَ حيّاً بِمْنزلٍ على الارضِ إلا بالفَنَاءِ لَـهُ قَـبْرُ
وأهْـلُ الـثَّرَى نَحْـوَ المَقَابرِ شُـرَّعٌ وليسَ لـهم إلا إلى ربِّـهمْ نَشْـرُ
على ذَاكَ مَـرُّوا أجْمَعُـونَ وهكـذا يَمُـرُّونَ حـتّى يَسْـتَرِدُّهُم الحَشْـرُ
فـلا تَحْسَـبنَّ الـوَفْـرَ مَـالاً جَمْعَـتَهُ ولكـنّ مَـا قَـدَّمْـتَ مِن صَالحٍ وَفْـرُ
وليسَ الذي يَبْقَى الذي أنتَ جامعٌ ولكنَّ ما أوْلَيْتَ مِنْهُ هَوَ الـذُّخْـرُ
قَضَـى جَـامِعُوا الأموالِ لم يَـتَزَوَّدُوا سوى الفَقْرِ يا بُؤساً لمنْ زَادُهُ الفقْرُ
بَلى سَوفَ تَصْحُو حِينَ يَنْكَشِفُ الغَطَا وتَذْكرُ قَوْلي حِينَ لا يَنْفَعُ الذِّكْرُ
ومـا بـينَ مِيُـلادِ الفَـتى وَوَفَـاتِهِ إذا نَصَـحَ الأقـوامُ أنفسَـهم عُمْـرُ
لأنَّ الذي يَأتي كَمِثْلِ الذِي مَضَى ومـا هُـو إلا وَقْتُـكَ الضَّـيِّقُ الـنَّزْرُ
فصَبْراً على الأوقـاتِ حـتى تَحُـوْزَهَا فعمَّـا قليلٍ بعـدَها يَنْفَعُ الصَّـبْرُ

اللَّهُم اَلَيْكَ بِدُعَائِنَا تَوَجُّهْنَا وَبِفِنائِكَ أَنَخْنَا وَإِيَّاكَ أَمَّلْنَا وَلِمَا عِنْدَكَ مِن الكَرَمِ وَالجُودِ وَالاحْسَانِ طَلَبْنَا وَمِنْ عَذابِكَ أَشْفَقْنَا وَلِغُفرانِكَ تَعَرَّضْنَا فاغْفِرْ لَنَا وِلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمْينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللّهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

وَصِيَّةُ أبِيْ حَازِمٍ الأَعْرَجِ لِلزُّهْرِيّ

عَافَانَا اللّهُ وَإِيَّاكَ أَبَا بَكْرٍ مِنْ الفِتَنِ ، وَرَحِمَكَ مِنْ النَّارِ ، فَقَدْ أَصْبَحْتَ بحَالٍ يَنْبَغِيْ لِمَنْ عَرَفَكَ بِهَا أَنْ يَرْحَمَكَ مِنْهَا ، أَصْبَحْتَ شَيْخاً كَبيراً قَدْ أثْقَلَتْكَ نِعَمُ اللهِ عليك ، بمَا أَصَحَّ مِن بَدَنِكَ ، وَأَطَالَ مَن عُمرِكَ ، وَعَلِمْتَ حُجَجَ اللهِ **تَعالى مِمَّا حَمَّلَكَ** مِن كِتَابِه ، وَفَقَّهَكَ فِيْهِ مِن

دِيْنِهِ ، وَفَهَّمَكَ مِن سُنَّةَ نَبِيِّكَ ـ صَلى اللهُ عليهِ وسلَم ـ فرَمَى بِكَ في كُلِّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا عَلَيْكَ وَكُلِّ حُجَّةٍ يَحْتَجُّ بهَا عَليك . وَقد قَالَ تَعَالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُم لأزِيْدَنَّكَم ، وَلئِنْ كَفَرْتُم إنَّ عَذابِيْ لَشَدِيْدٌ ﴾ .

انْظُرْ . . أيَّ رَجُلٍ تَكُوْنُ إذَا وَقَفْتَ بَيْنَ يَدَيْ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَسَألَكَ عَنْ نِعَمِهِ عَلَيْكَ كَيْفَ رَعَيْتَها ، وَعَنْ حُجَجِهِ عَلَيْكَ كَيْفَ قَضَيْتَهَا ، وَلا تَحْسَبَنَّ اللّهِ رَاضِياً مِنْكَ بالتَّغْرِيْرِ ، وَلا قَابِلاً مِنْكَ التَّقْصِيْرَ ، هَيْهَاتَ لَيْسَ كذلِكَ .

أَخذَ عَلى العُلَمَاءِ في كِتَابِهِ إذْ قال: ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُوْنَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ . . الآية .

إنَّكَ تَقولُ إنَّكَ جَدَلٌ ، مَاهِرٌ عَالِمٌ ، قَدْ جَادَلْتَ النَّاسَ فَجَدَلْتَهم ، وَخَاصَمْتَهُم فَخَصَمْتَهُم ، إدْلاَلاً مِنْكَ بِفَهْمِكَ ، وَاقْتِدَاراً مِنْكَ برَأْيِكَ ، فَأيْنَ تَذْهَبُ مِنْ قَوْلِ اللّهِ عَزَّ وَجلَّ : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلآءِ جَادَلْتُم عَنْهُم في الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللّه عَنْهُم يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ . . الآيَة .

إعْلَمْ أنَّ أَدْنَى مَا ارْتَكَبْتَ ، وَأَعْظَمَ مَا احْتَقَبْتَ ، أنْ آنَسْتَ الظَّالِمَ ، وَسَهَّلْتَ لهُ طَرِيْقَ الغَيِّ بِدُنُوِّكَ حِيْنَ أُدْنِيْتَ ، وَأَجَابَتِكَ حِيْنَ دُعِيْتَ ، فمَا أَخلَقَكَ أنْ تَبوءَ باثْمِكَ غَداً مَعَ الجَمْعَةِ ، وأنْ تُسْأَلَ عَمَّا أرَدْتَ باغْضَائِكَ عَنْ ظُلْمِ الظَّلَمَةِ .

إنَّكَ أَخذْتَ مَا لَيْسَ لِمَنْ أَعْطَاكَ ، وَدَنَوْتَ مِمَّنْ لا يَرُدُّ عَلى أحَدٍ حَقًّا ، وَلا تَرَكَ بَاطِلا حِيْنَ أدْنَاكَ ، وَأجَبْتَ مَنْ أرَادَ التَّدْلِيْسَ بدُعَائِهِ إيَّاكَ حِيْنَ دَعَاكَ .

جعَلُوكَ قُطْباً تَدُورُ رَحَى بَاطِلِهم عَلَيْكَ ، وَجَسْراً يَعْبرُونَ بكَ إلى بَلاَئِهم ، وَسُلَّماً إلى ضَلاَلَتِهم ، وَدَاعِياً إلى غَيِّهم ، سَالِكاً سَبِيْلَهُم ، يُدْخِلُونَ بكَ الشَّكَّ على العُلَمَاءِ ، وَيَقْتَادُونَ بكَ قُلُوْبَ الجُهَّالِ إلَيْهِم ، فَلَمْ تَبْلُغْ أَخصُّ وُزَرَائِهِمْ ، وَلا أَقْوَى أَعْوَانِهِمْ لَهُمْ إلاَّ دُوْنَ مَا بَلَغْتَ مِنْ

إصْلَاح فَسَادِهِمْ ، وَاخْتِلَافِ الخَاصَّةِ والعَامَّةِ إلَيْهِم ، فَمَا أَيْسَر مَا عَمَّرُوا لَكَ في جَنْبِ مَا خَرَّبُوا عَلَيْكَ وَمَا أَقَلَّ مَا أَعْطَوْكَ في كَثِيْرِ مَا أَخَذُوا مِنْكَ ، فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْظُرُ لَهَا غَيْرُكَ ، وَحَاسِبْهَا حِسَابَ رَجُلٍ مَسْؤُولٍ .

وَانْظُرْ كَيْفَ شُكْرُكَ لِمَنْ غَذَاكَ بِنِعمِهِ صَغِيْراً وَكَبِيْراً ، وَانْظُرْ كَيْفَ إعْظَامُكَ أمْرَ مَنْ جَعَلَكَ بِدِيْنِهِ فِي النَّاسِ بَخِيْلا ، وَكَيْفَ صِيَانَتُكَ لِكِسْوَةِ مَنْ جَعَلَكَ لِكِسْوَتِهِ سَتِيْرًا ، وَكَيْفَ قُرْبُكَ وَبُعْدُكَ مِمَّنْ أَمَرَكَ أنْ تَكُونَ مِنْهُ قرِيْبًا .

مَا لَكَ لَا تَنْتَبِهُ مِنْ نَفْسِكَ ، وَتَسْتَقِيْلَ مِنْ عَثْرَتِكَ ، فَتَقُولُ : وَاللّهِ مَا قُمْتُ لِلّهِ مَقاماً وَاحِداً أُحْيِيْ لهُ فيه دِيْناً ، وَلا أُمِيْتُ له فِيْهِ بَاطِلاً ، إنَّمَا شُكْرُكَ لِمَنْ اسْتَحْمَلَكَ كِتَابَهُ ، وَاسْتَوْدَعَكَ عِلْمَهُ .

مَا يُؤَمِّنُكَ أنْ تَكُونَ مِنْ الذِيْنَ قَالَ اللّهُ تَعَالَى فِيْهِم :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى . . ﴾ الآية .

انَّكَ لَسْتَ في دَارِ مُقَامٍ ، قَدْ آذَنَتْ بِالرَّحِيْلِ ، مَا بَقَاءُ المَرْءِ بَعْدَ أَقْرَانِه ، طُوْبَى لِمَنْ كَانَ مَعَ الدُّنْيَا على وَجَلٍ ، وَيَا بُؤْسِ مَنْ يَمُوْتُ وَتَبْقَى ذُنُوبُهُ مِنْ بَعْدِهِ .

إنَّكَ لَمْ تُؤْمَرْ بالنَّظَرِ لِوَارِثِكَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَهْلاً أنْ تُرْدِفَهُ عَلى ظَهْرِكَ . ذَهَبَتْ اللذَّةُ وَبَقِيتْ التَّبِعَةُ ، مَا أشْقَى مَنْ سَعُدَ بِكَسْبِهِ غَيْرُهُ ، إحْذَرْ فَقَدْ أُتِيْتَ ، وَتَخَلَّصْ فَقَدْ أُدْهِيْتَ انَّكَ تُعَامِلُ مَنْ لا يَجْهَلُ ، وَالذِيْ يَحْفَظُ عَلَيْكَ لا يَغْفَلُ .

تَجَهَّزْ ، فَقَدْ دَنَا مِنْكَ سَفَرٌ ، وَدَاوِ دِيْنَكَ فَقَدْ دَخَلَهُ سَقَمٌ شَدِيْدٌ ، وَلا تَحْسَبَنَّ أنِّي أَرَدْتُ تَوْبِيْخَكَ أو تَعْيِيْرَكَ وَتَعْنِيْفَكَ ، وَلكِنّي أَرَدْتُ أنْ تَنْبُشَ مَا فَاتَ مِن رَأْيِكَ ، وَتَرُدَّ عَلَيْكَ مَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ حِلْمِكَ ، وَذَكَرْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى :

﴿ وَذَكِّرْ فَانَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ المُؤْمِنِيْنَ ﴾ .

أَغفَلْتَ ذِكْرَ مَنْ مَضَى مِنْ أَسْلافِكَ وَأَقْرانِكَ ، وَبَقِيْتَ بَعْدَهُم كَقَرْنٍ أَعْضَبٍ ، فَانْظُرْ هَلْ ابْتلوْا بِمِثْلِ مَا ابْتُلِيْتَ به ، أو دَخلُوا في مِثلِ مَا دَخْلَت فِيْهِ ، وَهَل تَرَاهُ إدخَرَ لَكَ خَيْراً مَنِعُوْهُ أَوْ عَلَّمَكَ عِلْماً جَهِلُوْه ، بَلْ جَهِلْتَ مَا ابْتُلِيْتَ بهِ مِنْ حَالِكَ في صُدُوْرِ العَامَّةِ ، وَكَلَّفهُم بِكَ أنْ صَارُوا يَقْتَدُوْنَ برأَيِكَ وَيعْمَلُوْنَ بِأَمْرِكَ ، إنْ أَحْلَلْتَ أحَلُّوا ، وَانْ حَرَّمْتَ حَرَّمُوا ، وَلَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَكَ ، وَلكِنْ إكْبَابُهم عَلَيْكَ ، وَرَغْبَتُهم فِيْمَا في يَدَيْكَ ، ذَهَابُ عَمَلِهم ، وَغلبَةُ الجَهْلِ عَلَيْكَ وَعَلَيهِم، وَطَلَبُ حُبِّ الرِّيَاسَةِ وَطَلَبُ الدّنْيَا مِنْكَ وَمِنْهُم .

أَمَا تَرَى مَا أَنْتَ فِيْهِ من الجَهْلِ والغِرَّةِ ، ومَا النَّاسُ فيه من البَلاءِ والفِتْنَةِ ، وَابْتَلَيْتَهُم بالشُّغْلِ عن مَكَاسِبِهم وَفَتَنْتَهُم ، بما رَأَوْا مِنْ أَثَرِ العِلْمَ عَلَيْكَ ، وتَاقَتْ أَنْفُسُهُم إلى أَن يُدْرِكُوا بالعِلْمِ مَا أَدْرَكْتَ ، وَيَبْلغُوا مِنْهُ مِثْلَ الذي بَلَغْتَ ، فوَقَعُوا بكَ في بَحْرٍ لا يُدْرَكُ قَعْرُه، وفي بَلاءٍ لا يُقْدَرُ قَدْرُه ، فَاللّهُ لنا وَلَك وَلهُم المسْتَعَانُ .

وَاعْلَم أنَّ الجَاهَ جَاهَان : جَاهٌ يُجريْهِ اللهُ تَعَالى عَلى يَدَيْ أَوْلَيائِه لأَوْلِيَائِه ، الخَامِلِ ذِكْرُهم ، الخافِيَةِ شُخُوْصُهم ، ولقد جَاءَ نَعْتُهم على لِسَان رَسُولِ اللهِ صَلى الله عليه وسلم :

« انَّ اللّهَ يُحِبُّ الأخْفِيَاءِ الأَتْقِيَاءِ الأَبْرِيَاءِ الذين إذا غَابُوا لم يُنْتَقَدوا ، وَإذا شَهِدُوا لم يُعْرَفوا ، قُلوبهُم مَصَابِيْحُ الهُدَى ، يَخْرُجونُ مِن كُلِّ فِتْنَةٍ سَوْدَاءَ مُظْلمَة » .

فَهؤُلاءِ أوْلِيَاءِ اللّهِ الذين قَالَ تَعالى فيهم : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ ،

ألا إن حزبَ اللَّهِ هُمُ المُفْلِحُوْنَ ﴾ .

وَجَاهٌ يُجْرِيْهِ اللَّهُ تعالى على يَدَيْ اعْدَائه لأَوْلِيَائِه ، وَمِقَةٌ يَقْذِفُهَا اللَّهُ في قُلُوبِهِمْ لَهُم ، فَيُعَظِّمُهُم النَّاسُ بتَعْظِيْم أُوْلَئِكَ لَهُم وَيَرْغَبُ النَّاسُ فِيْمَا في أَيْدِيهِم لِرَغْبَةِ أولئك فيه إليهم ﴿ أولَئكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ألا إنّ حِزْبَ الشيطَانِ هُم الخَاسِرُونَ ﴾ .

وَمَا أَخْوَفَنِيْ أَنْ تَكُوْنَ مِمَّن يَنْظُرُ لِمَنْ عَاشَ مَسْتُوراً عَلَيْهِ في دِيْنِه ، مَقْتُوراً عَلَيْهِ في رِزْقِهِ ، مَعْزُولة عَنْهُ البَلايَا ، مَصْرُوفَةٌ عَنه الفِتَنُ في عُنْفُوانِ شَبابِهِ وظُهُورِ جَلَدِه ، وَكَمالِ شَهْوَتِهِ .

فَعُنِيَ بذلِكَ دَهْرَهُ ، حَتَّى إذا كَبِرَ سِنُّهُ ، وَرَقَّ عَظْمُهُ ، وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ ، وَانْقَطَعَتْ شَهْوَتُه وَلَذَّتُهُ ، فُتِحَتْ عَليه الدّنيا شرَّ فُتُوحٍ فَلزِمَتْهُ تَبِعَتُهَا وعَلِقَتْهُ فِتْنَتُها ، وَأعْشَتْ عَيْنَيْه زَهْرَتُها ، وَصَفَتْ لِغَيْرِهِ مَنْفَعَتُها .

فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَبْيَنَ هَذَا الغَبْنَ ، وَأخسَرَ هَذا الأَمْرَ ، فَهَلّا إذَا عَرَضَتْ لَكَ فِتْنَتُها ذَكَرْتَ أَمِيْرَ المؤمِنيْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعالى عنهُ في كِتَابه إلى سَعْدٍ . . حِيْنَ خَافَ عَلَيْهِ مِثْلَ الذي وَقَعْتَ فِيْهِ عِنْدَمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلى سَعْدٍ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَأعْرِضْ عَنْ زَهْرَةِ مَا أَنْتَ فِيْهِ حَتَّى تَلْقَى المَاضِيْنَ الذِيْنَ دُفِنُوا في أَسْمَالِهِمْ ، لاَصِقَةً بُطونُهُمْ بِظُهُوْرِهِمْ ، لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ ، لَمْ تَفْتِنهُم الدُّنْيَا وَلَمْ يُفْتَنُوا بِهَا ، رَغِبُوا فَطَلَبُوا فَمَا لَبِثُوا أَنْ لَحِقُوا .

فَإذَا كَانَتْ الدُّنْيَا تَبلُغُ مِنْ مِثْلِكَ هَذا في كِبَرِ سِنِّكَ ، وَرُسُوخِ عِلْمِكَ ، وَحُضُورِ أَجَلِكَ ، فَمَنْ يَلُوْمُ الحَدَثَ في سِنِّهِ ، وَالجَاهِلَ في عِلْمِهِ ، وَالمَأْفُونَ في رَأْيِهِ المَدْخُولَ في عَقْلِهِ « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » ، عَلَى مَنْ المُعَوَّلُ ، وَعِنْدَ مَنْ المُسْتَعْتَبُ .

نَحْتَسِبُ عِنْدَ اللَّهِ مُصِيبَتَنَا . . وَمَا نَرَى مِنْكَ ، وَنَحْمَدُ اللَّهُ الذِيْ عَافَانا مِمَّا ابْتَلاكَ بِهِ . والسَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ . . .

شِعْـــراً :

يَمْشُــونَ نَحْــوَ بُيُوتِ اللَّهِ إِذْ سَمِعُوا
أَلــلَّـهُ أكْــبَرُ في شَــوْقٍ وفـي جَــذَلِ

أرْوَاحُــهُــم خَشَــعَـتْ لِلَّـهِ فـي أَدَبٍ
قُـلُوبُهُـم مِـن جَـلاَلِ اللَّـهِ فـي وَجَـلِ

نَجْـوَاهُـمُ رَبَّـنَـا جِئْـنَـاكَ طَـائِـعَـةً
نُفُـوسُـنَـا وعَصَـيْنَـا خـادعَ الأمَـلِ

إذا سَـجَـى الـلَّيْـلَ قَـامُـوُهُ وأعْـيُنُهُـمْ
مِـن خَشْـيَةِ اللَّـهِ مِـثْلَ الجَـائِـدِ الهَطِـلَ

هُـمُ الـرِجَـال فـلا يُلْهِـيْهِـمُ لَعِـبُ
عَـن الصـلاةِ ولا أُكْـذُوبَـةُ الكَسَــلِ

آخــر :

لا فـي الـنهـارِ ولا فـي الـليـلِ لِـي فـرحٌ
فَمـا أبـاليْ أطَـالَ الـليـلُ أم قَصُـرَا

لأنَّـنِي طُـولَ لَيْلِـي هَـائِـمٌ دَنِـفٌ
وبـالنهـارِ أقـاسِـي الهَـمَّ والفِكَـرَا

آخــر :

لَعَمْـرِيْ لَقَـد نُودِيْتَ لَـوْ كُنْتَ تَسْـمَعُ
أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ المَـوتَ مَا لَيْسَ يُدْفَـعُ

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـنَّـاسَ في غَفَـلاَتِهِـمْ
وَأَنَّ المَـنَــايَا بَيْنَهُــمْ تَتَـقَـعْـقَــعُ

أَلَـمْ تـرَ لَـذَّاتِ الجَـدِيْـدِ إلى الـبِلَى
أَلَـمْ تـرَ أَسْـبَـابَ الأُمُـوْرِ تَقَـطَّـعُ
إِلَـمْ تَـرَ أنَّ المَـوْتَ يَهْـتَـزُّ سَـيْفُـهُ
وَأَنَّ رِمَـاحَ المَـوْتِ نَحْـوَكَ شُـرَّعَ
أَلَـمْ تـرَ أَنَّ الـدَّهْـرَ في كُـلِّ سَاعَـةٍ
لَـهُ عَـارِضٌ فِيْـهِ المَـنِـيَّةُ تَلْمَـعُ
أَيَـا بَـانِيَ الـدُّنْـيَـا لِغَـيْرِكَ تَبْـتَـنِيْ
وَيَـا جَـامِـعَ الـدُّنـيـا لِعَـيْرِكَ تَجْمَـعُ

وَاللّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللّهُ على نَبِيِّنَا مُحَمَّدٌ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

قَالَ رَجُلٌ لِعَبْدِ اللّهِ بن المُبَارَكِ رَحِمَهُ اللّهُ أَوْصِيني فَقَالَ اتْرُكْ فضُولَ النَّظَرِ تُوفقْ لِلخُشُوعِ ، وَاتْرُكْ فُضُولَ الكلامَ تُوَفَّقْ لِلْحِكْمَةِ ، وَاتْرُكْ فُضُولَ الطَّعَامِ تَوَفَّقْ للعِبَادَةِ ، وَاتْرُكْ التَّجَسُّسَ على عُيُوبِ النَّاسِ تُوَفَّقْ لِلاطِّلاَعِ عَلى عُيُوبِ نَفْسِكَ .

وَقَالَ رَجُلٌ لِمحَمَّدِ بن سِيْرِيْنَ أَوْصِنِيْ فَقَالَ لا تَحْسُدْ أَحَداً ، فَإِنَّهُ انْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَكَيْفَ تَحْسُدُهُ على دُنْيَا فَانِيَةٍ مَصِيْرُهُ بَعْدَهَا إلى النَّارِ وَأَنْ كَانَ مِن أَهْلِ الجَنَّةِ فَاتَّبِعْهُ في أَعْمَالِهَا وَاغْبِطْهُ عَلَيْهَا فإِنَّ ذَلِكَ أَوْلَى مِنْ حَسَدِكَ لَهُ عَلى الدُّنْيَا .

وَقَالَ رَجُلٌ لِلْحَسَنِ البَصْرِيّ أَوْصِنيْ فَقَالَ لَا تُذْنِبْ فَتُلْقِيْ نَفْسَكَ في النّارِ مَعَ أَنَّكَ لو رَأَيْتَ أَحَداً يُلْقِي بُرْغُوثاً فَي النَّارِ لأَنْكَرْتَ عليهِ ، وَأَنْتَ تُلْقِيْ نَفْسَكَ فِي النَّارِ كلَّ يَوْمٍ مَرَّاتٍ ، وَلا تُنْكِرُ عَلَيْهَا ، وَمِنْ ذَلِكَ حُسْنُ أَدَبِهِمْ مَعَ الصَّغِيْرِ وَالكَبِيْرِ وَمَعَ البَعِيْدِ فَضْلاً عَن القَرِيْبِ .

وَالأَصْلُ في الأَدَب شُهُودُ النَّقص في النَّفْس وَالكَمال في الغَيْر عَكْسُ مَنْ كانَ قَلِيْلَ أَدَب مُتَكَبِّر ، وَكَانَ مَيْمُونُ بنُ مِهْرَانَ إِذا دُعِي إِلى وَلِيْمَةٍ جلَسَ مَعَ الصِّبْيَانِ وَالمَسَاكِيْنِ مِنْ الرِّجَالِ وَتَرَكَ الإِغْنيَاءِ ، وَكَانَ بَكْرُ ابن عَبْدِاللَّهِ المُزَنيّ يَقُولُ إِذا رَأَيْتَ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْك فعظِّمْهُ وَقُلْ انَّهُ سَبقَنِيْ إِلى الإِسْلَامِ وَالعَمَلِ الصَّالِح وَإِذا رَأَيْتَ مَنْ هُوَ أَصْغَرُ مِنْكَ فَعَظِمْهُ وَقُلْ في نَفْسِك إِنِّيْ سَبَقْتُهُ إِلى الذُّنُوب ، وَإِذَا أَكْرَمَكَ النَّاسُ فَقُلْ هَذا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيَّ لا أَسْتَحِقّهُ وإِذَا أَهَانُوْكَ فَقُلْ هَذَا بِذَنْبٍ أَحْدَثْتُهُ .

وَمِنْ أَخْلَاقِهِم إِنْخِلَاعُ قُلُوبِهِمْ مِنْ خَوْفِ اللّهِ مِنْ ذَلِكَ مَا ذُكِرَ أَنَّهُ لمّا حَضَرَتْ الوَفَاةُ سَلْمَانَ الفَارِسِيَّ بَكى ، وَقَالَ انَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلم قَدْ عَهِدَ إِلَيْنَا وقالَ لِيَكُنْ بُلْغَةُ أَحدِكُمْ مِنْ الدّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ ، وَهَا أَنَا قَدْ جَمَعْتُ هَذِهِ الأَمْتِعَةَ وَأَشَارَ إِلَيْهَا وَهِيَ إِجَانَة وَجَفْنَة وَمِطْهَرَةٌ فَلَمَّا مَاتَ قَوَّمُوهَا بِخَمْسَةَ عَشَرَ دِرْهَمَا .

شِعْــراً : مَـا ضَـرَّ مَـنْ كَـانَـنْ الفِـرْدَوْسُ مَسْكَنَهُ
مَـاذا تَحَمَّـلَ مِـن بُـؤسٍ وَإِقْـتَـارِ
تَـرَاهُ يَمْشِـيْ كَئِيْباً خَـائِفـاً وَجِـلاً
إِلَـى المَسَـاجِدِ يَسْـعَى بَـيْنَ أَطْمَـارِ

وَمِمَّا يُنْسَبُ إِلى الشَّافِعِيّ :
يَـا لَهْفَ قَـلْبِـيْ عَلى شَيْئَـيْنِ لَـوْ جُمِعَـا
عِنْـدِيْ لَكُنْتَ إِذاً مِـنْ أَسْعَدِ البَشَــرِ
كَفَـافِ عَيْـشٍ يَقِيْنِيْ شَــرَّ مَسْـأَلَـةٍ
وَخِـدْمَـةِ الـعِـلْمِ حَـتَّى يَنْتَهِيْ عُمُـرِيْ

آخـــر :

نَهَــارٌ مُشْــرِقٌ وظَــلَامُ لَيْــلٍ
أَلَحَّــا بِالــبَيَــاضِ وبــالــسَّـــوادِ

هُمَــا هَــدَمَــا دَعَــائِمَ عُمْــرِ نُــوحٍ
ولُــقْــمَــانٍ وشَــــدَّادٍ وعَـــادِ

فيَــا بَكْــرَ بــن حَمَّـــادٍ تَعــجَّــبْ
لِقَـــوم سَـــافَــرُوْا مِـنْ غَــيْرِ زَادِ

تَبِيْــتُ عــلــى فِــرَاشِــكَ مُطْمَئِــنــاً
كــأَنَّــكَ قَــدْ أَمِــنْــتَ مِــنَ الْمَــعَــادِ

فَيَــا سُــبْحَانَ مَــنْ أرْسَــى الــرَّوَاسِــيْ
وَأوْفَـــدَهَــا عَــلى الــسَّــبّــعُ الشِــدَادِ

آخـــر :

إذا أمْــسَــيْتَ فــابْــتَــدِرِ الــصَّــبَــاحَــا
ولا تُمْهِــلْهُ تَنْــتَــظِــرِ الــصَّــيَاحَــا

وتُـــبْ ممــا جَــنَــيْتَ فَكَــمْ أُنــاس
قَضَــوْا نحْــبــاً وقَــدْ نَــامُــوا صِحَــاحَــا

آخـــر :

ولا تُـــرْجِ فِعْــلَ الــصالحاتِ إلى غــدٍ
لَعَــلَّ غــداً يــأتِــي وأنْــتَ فقِــيْــدُ

احتضر بَعضُ العباد فقال ما تأسفي على دار الهموم والأحزان والأنكاد والخطايا والذنوب ، وإنها تأسفي على ليلة نِمتُهَا ويوم أفطرته وساعة غفلتُ فيها عن ذكر الله ، وقال إبراهيم بن أدهم فَرِّغْ قلبك من ذكر الدنيا يُفرغْ

عليك الرضاء إفراغا ، خطب الحجاج فقال إن الله أمرنا نطلب الآخرة وكفانا مؤنةَ الدنيا فليتَه كفانا مؤونة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا فقال الحسن البَصْرِي ضالة المؤمن عند فاسق فليأخذها .

وقال أنس رضي الله عنه إن الله جعل الدنيا دار بلوى والآخرة دار عُقْبَى فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سبباً وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي .

وقال بعضهم إن إمْرَأً ذَهَبَتْ سَاعة مِن عمره في غير ما خلق له لَحَرِيٌّ أن يطول عليها حُزْنُهُ .

وقال آخر : ما ابتلى أحد بشيء أشد من الغفلة والقسوة إنما كره المؤمن الموت لانقطاع الأعمال الصالحة وخوف الذنوب ، من شغله طلب الدنيا عن الآخرة ذل إما في الدنيا وإما في الآخرة وإما بهما جميعا .

من نظر في سيرة السلف عرف تقصيره وتخلفه عن دَرجات الكمال ، تعرف نفسَك في ثلاثة مواضع ، إذا عملتَ فانظر نظر الله إليك وإذا تكلمتَ فاذكر سمع الله إليك وإذا سكت فاذْكر علم الله فيك ، تهاون بالدنيا حتى لا يعظم بعينك أهلها ومن يملكها .

قال بَعْضُ العلماء كان الرجل في أهل العلم يزداد بعلمه بُغْضاً للدنيا وتركا لها واليوم يزداد الرجل بعلمه حبا للدنيا وطلباً لها وكان الرجل ينفق ماله على علمه واليوم يكسب الرجل بعلمه مالا وكان يرى على طالب العلم زيادة في باطنه وظاهره واليوم يرى على كثير من أهل العلم فساد في الظاهر والباطن .

شعـــر :

يـا عـــامـــر الـدنيـــا عـلى شـــيبَتِـهْ
فيــــكَ أعـاجِـيْبُ لِمَـنْ يَعْـجَـــبُ

ما عُــذْرُ مَــنْ يَعْــمُـــر بُنْيَــانَــهُ
وعُـمْـــرُهُ مُسْــتَهْــدَمٌ يَخْـــرَبُ

آخــر :
عَجِبْتُ لِتَغْرِيْسِي نَوى النَّخْـلِ بَعـدَمَا
طَلَعْتُ على السِتِـينَ أَوْ كِدْتُ أَفْعَـلُ
وأَدْرَكْـتُ مِـلأَ الأرضِ نَاسـاً فأَصْبَحُوا
كـأهـلِ دِيَـارٍ أَدْلَجُـوا فَتَحَمَّـلُوا
ومـا الـنـاسُ إلا رُفْقَـةٌ قَـد تَحَمَّـلَت
وأُخْـرَى تُقَـضِّي حَـاجَهَـا ثـم تَـرْحَـلُ

وَلَمَّا حَضَرَتْ ابْرَاهِيْمَ النَّخَعِي الوَفَاةُ بَكَى فَقِيْلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : إِنِّيْ أَنْتَـظِرُ رَسُولاً يَأْتِيْنِي مِنْ رَبِّي لَا أَدْرِيْ هَلْ يُبَشِّرُنِيْ بِالجَنَّةِ أَوْ بالنَّارِ ، وَلَمَّا حَضَرَتْ عُمَرَ بنَ عبدِالعزيزِ الوَفَاةُ ، قالَ اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَذْنَبْتُ فَإِنْ غَفَرْتَ لِيْ فَقَدْ مَنَنْتَ وَإِنْ عَذَّبْتَنِيْ فَقَدْ عَدَلْتَ ، وَمَا ظَلَمْتَ لكِنْ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ثُمَّ قَضَى نَحْبَهُ .

وَكَانَ يَتَمَثَّلُ بِهَذِهِ الأَبْيَاتِ :
تَـرَاهُ مَـكِـيْنـاً وَهُـوَ لِلَّهْـوِ مَـاقِـتٌ
بِـهِ عَنْ حَـدِيثِ القَـومِ مَـا هُـوَ شَـاغِلُهْ
وأَزْعَــجَــهُ عِـلْمٌ عَـنْ الجَـهْـلِ كُـلِّهِ
وَمَـا عَـالِـمٌ شَيْئاً كَمَـنْ هُـوَ جَـاهِلُهْ
عَبُـوسٌ عَـنْ الجُـهَّـالِ حِـيْنَ يَرَاهُمُـوْا
فَلَيْـسَ لَـهُ مِنْهُـم خَـدِيْـنٌ يُهَـازِلُـهُ
تَـذَكَّـرَ مَـا يَلْقَـى مِـنْ العَيْـشِ آجِـلاً
فاشْـغَلَهُ عَـنْ عَـاجِـلِ العَيْـشِ آجِـلُهْ

وَلَمَّا حَضَرَتْ عَامِرَ بْنَ قَيْسٍ الوَفَاةُ بَكَى وَقَالَ إِنِّي لَمْ أَبْكِ جَزَعاً مِنْ المَوْتِ وَلاَ حِرْصاً عَلى الدُّنْيَا .

وَلَكِنْ عَلى عَدَمِ قَضَاءِ وَطَرِيْ مِنْ طَاعَةِ رَبِّي وَقِيَام اللَّيْلِ في أَيَّامِ الشِّتَاءِ .

وكانوا يبكون إذا فاتتهم تكبيرة الاحرام مع الجماعة ، وكان المحدث الثقة بشر بن الحسن يُقَالُ له الصِّفِّي لأنه كان يَلْزَمُ الصَّفَ الأولَ في مَسْجِدَ البصرة خمسينَ سَنَة .

مثلُه إبراهيمُ بن مَيمون المروزي أحدُ الدعاة المُحَدِّثين الثِقَاة من أصحاب عَطَاءِ بن أبي رَبَاح وكانت مِهْنَتُه الصِّيَاغَةُ وطَرْقُ الذهب والفِضةِ قالُوا كان فقيهاً فاضِلاً مِن الأمَّارِيْنَ بالمعروف وقال ابنُ مَعِيْن كان إذا رَفَعَ المِطْرَقَةَ فَسَمِعَ النِدَاءَ لم يَرُدَّهَا .

وقيل لِكَثير بن عُبَيْدٍ الحِمْصِي عن سَبَب عَدَمِ سَهْوِهِ في الصلاة وقَدْ أَمَّ أهْلَ حِمْصٍ سِتِّينَ سَنَة كامِلة فقال مَا دَخَلْتُ مِن بَابِ المَسْجِدَ قَطُّ وفي نَفْسِي غَيْرِ اللَّهَ .

وقال سُليمانُ بنُ حَمْزَةَ المقدسِي وهو من ذرية بن قدامة صاحب كتاب المغني « لم أُصَلِّ الفَرِيْضَةَ قط مُنْفَرِداً إلا مَرَّتَيْنْ ، وكأني لم أصَلِّهِمَا قَطُّ مَعَ أنَّهُ قارَبَ التِسْعِين » .

وذكر عن الأعمش أنه قال لم تفتني صلاة الجماعة ما يقرب من أربعين سنة إلا مرة واحدة حين ماتت والدته اشتغل بتجهيزها .

وذكر عن بعضهم أنه لم تفته تكبيرة الاحرام أربعين سنة وكان بَعْضُهُم يُصِيْبُهُ مَرَضٌ إذا فاتَتْهُ صَلاةُ الجَمَاعة .

ونَحنُ بالعكس رُبَّما يُصِيْبُنَا مَرضٌ أو جُنُون إذا فَاتَنَا شيءٌ مِنْ حُطَامِ الدُنيا والسببُ الوحيد أن الدنيا ما تَهُمُّهُم وأما الآخرةُ فهي نَصْبَ أعينِهم في كل ساعة يَسْتَعِدُونَ لَهَا والدُنيا جَعَلُوهَا مَطِيَّةً إلى الآخرة .

نسأل الله الحي القيوم العلي العظيم القوي العزيز أن يُوقِضَ قُلُوبَنَا مِن هَذِهِ الرَّقْدَةِ اللهم صلى على محمد .

شِعْـرًا :

أَفَلَسْتَ تَدْرِيْ أَنَّ يَومَكَ قَدْ دَنَا ... أولَسْتَ تدْرِيْ أَنَّ عُمْرَكَ يَنْفَدُ
فَعَلامَ تضحَكُ والمنيةُ قَدْ دَنَتْ ... وعَلامَ تَرْقُـدُ والـثَّرى لَكَ مَرْقَدُ

شِعْـراً :

وَمَـا فـرْشُـهُـمْ إلا أَيَـامِـنُ أُزْرِهِـمْ
وَمَـا وُسْـدُهـم إلاَّ مِـلاَءٌ وَأَذْرُعُ
وَمَـا لَيْـلُهـم فِيْهِـنَّ إلا تَخَـوُّفٌ
وَمَـا نَـوْمُـهُـم إلا عِشَـاشٌ مُـرَوَّعُ
وَأَلْـوَانُـهـم صُفْـرٌ كَـأَنَّ وُجُـوْهَـهُـمْ
عَلَيْـهَا جِسَـاماً مَـا بِهِ الـوَرْسُ مُشْـبَعُ
نَـوَاحِـلُ قَـدْ أَزْرَى بِهَـا الجُهْـدُ والسُّـرَى
إلى اللَّهِ فِـي الظَّلْمَـاءِ والنَّـاسُ هُجَّـعُ
وَيَبْـكُـونَ أَحْـيَـانـاً كَـأَنَّ عَجِـيْجَـهُـمْ
إِذَا نَـوَّمَ الـنَّـاسُ الحَـنِـيْنُ الُمـرَجَّـعُ
وَمَجْلِـسِ ذِكْـرٍ فِيْـهم قَـدْ شَـهِـدْتُـهُ
وَأَعْـيُنُـهُـمْ مِـنْ رَهْـبَـةِ الـلَّـهِ تَـدْمَـعُ

آخَـرُ :

وَمَـا الـنَّـاسُ إِلَّا رَاحِـلُوْنَ وَبَـيْنَـهُـمْ
رِجَـالٌ ثَـوَتْ آثَـارُهُـمْ كَالْمَعَـالِـمِ

بِعِـزَّةِ بَأْسٍ وَاطِّـلاعِ بَصِـيْرَةٍ
وَهَـزَّةِ نَفْـسٍ واتِّسَـاعِ مَرَاحِـمِ

حُظُـوْظُ كَمَالٍ أَظْهَرَتْ مِنْ عَجَائِبٍ
بِمِرْآةِ شَخْصٍ مَا اخْتَفَى فِي العَوَالِمِ

وَمَا يَسْتَطِيْعُ الْمَرْءُ يَخْتَصُّ نَفْسَهُ
أَلَا إِنَّمَا التَّخْصِيْصُ قِسْمَةُ رَاحِمِ

وَقَدْ يُفْسِدُ الحُرَّ الكَرِيْمَ جَلِيْسُهُ
وَتَضْعُفُ بِالإِيْهَامِ قُوَّةُ حَازِمِ

وَلَيْسَ بِحَيٍّ سَالِكٌ فِي خَسَائِسٍ
وَلَيْسَ بِمَيْتٍ هَالِكٌ فِيْ مَكَارِمٍ

إِذَا لَجَّ لُؤْمٌ مِنْ سَفِيْهٍ لِرَاشِدٍ
تَوَهَّمَ رَشْداً فِي سَفَاهَةِ لَائِمِ

عَجِبْتُ مِنَ الإِنْسَانِ يَعْجَبُ وَهُوَ فِيْ
نَقَائِصَ أَحْوَالٍ قَسِيْمَ السَّوَائِمِ

يَرَى جَوْهَرَ النَّفْسِ الطَّلِيْقَ فَيَزْدَهِيْ
وَيَذْهَلُ عَنْ أَعْرَاضِ جِسْمٍ لَوَازِمِ

دُيُونُ اضْطِرَارٍ تُقْتَضَى كُلَّ سَاعَةٍ
فَتُقْتَرَضُ الأَعْمَارُ بَيْنَ المَغَارِمِ

وَكُلٌّ فَمَغْرُوْرٌ بِحُبِّ حَيَاتِهِ
وَيُغْرِيْهِ بِالأَدْنَى خَفَاءُ الخَوَاتِمِ

وَجَمَّــاعُ مَــالٍ لَا انْــتِفَــاعَ لَهُ بِهِ
كَمَا مَصَّ مَشْرُوْطاً زُجَاج الْمَحَاجِمِ
وَمَنْ عَــرَفَ الدُّنْـيَـا تَيَـقَّــنَ أَنَّهَـا
مَطِيَّــةُ يَقْـظَــانٍ وطَيْفَــةُ حَــالِـمِ
فَلِلّـهِ سَـاعٍ فـي مَنَـاهِـجِ طَـاعَـةٍ
لِإِيْــلَافِ عَــدْلٍ أَوْ لِإِتْـلَافِ ظَـالِـمِ

وَلَمَّا حَضرَتْ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ المُبَارَكِ الوَفَـاةُ قَالَ لِغُـلامِهِ اجْعَـلْ رَأْسِـيْ عَلَى الأَرْض فَبَكَـى غُـلَامُـهُ قَـالَ مَـا يُبْكِيْكَ قَال ذَكَرْتُ مَا كُنْتَ فِيْهِ مِن النَّعِيْمِ وَأَنْتَ هُوَ ذَا تَمُوْتُ عَلى هَذِهِ الحَالِ فَقَالَ إِنِّيْ سَأَلْتُ رَبِّيْ أَنْ أَمُوْتَ عَلى هَذِهِ الحَالِ .

ثُمَّ قَالَ لَقِنِّيْ يَا أَخِيْ لَا إِلهَ إِلَّا اللّهْ إِذَا الحَالُ تَغَيَّر ، وَلَا تُعِدْ عَلَيَّ إلا إِنْ تَكَلمْتُ بَعْدُ بِكَلَامٍ ، وَدَخَلَ الحَسَنُ البَصْرِيْ عَلى رَجُلٍ وَهُوَ فِيْ سِيَاقِ المَوْتِ يَجُوْدُ بِنَفْسِهِ فَقَالَ إِنَّ أَمراً هَذَا آخِرُهُ لَحَقِيْقٌ أَنْ يُزْهَدَ فِي أَوَّلِهِ وَلَمَّا حَضَرَتْ أَبَا ذَرٍّ الوَفَاةُ قَالَ : يَا مَوْتُ اخْنُقْ وَعَجِّلْ فَإِنِّي أُحِبُّ لِقَاءَ اللَّهِ .

وَدَخَلَ أَبو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلى رَجُلٍ مُحْتَضَرٍ يَجُوْدُ بِنَفْسِهِ فَوَجَدَهُ يَقُوْلُ : الحَمْدُ لِلّهِ فَقَالَ لَهُ أَصَبْتَ يَا أَخِيْ إِنَّ اللّهَ إِذَا قَضَى أَمْراً أَحَبَّ مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَحْمَدَهُ عَلَيْهِ وَدَخَلَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيْ عَلى وَلَدٍ يَجُوْدُ بِنَفْسِهِ وَأَبَوَاهُ يَبْكِيَانِ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُمَا لَا تَبْكِيَـا فَإِنِّي قَادِمٌ عَلى مَنْ هُوَ أَرْحَمُ بِي مِنْكُمَا .

وَلَمَّا حَضَرَتْ أَبَا هُرَيْرَةَ الوَفَاةُ بَكَى قَالُوا مَا يُبْكِيْكَ قَالَ بُعدُ السَّفَرِ وَقِلَّةُ الزَّادِ وَضَعْفُ اليَقِيْنِ وَخَوفُ الوُقُوْعِ مِنْ الصِّرَاطِ في النَّارِ ، وَرُوِيَ أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ قَالَ أَعُوْذُ بِاللّهِ مِنْ لَيْلَةٍ صَبَاحُهَا إِلَى النَّارِ .

ثُمَّ قَالَ مَرْحَباً بِالمَوْتِ زَائِرٌ مُغِيْبٌ وَحَبِيْبٌ جَاءَ عَلى فَاقَةٍ اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ أَخَافُكَ وَأَنَا اليَوْمَ أَرْجُوْكَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ الدُّنْيَا وَطُوْلَ البَقَاءِ فِيْهَا لِكَرْيِ الأَنْهَارِ وَلاَ لِغَرْسِ الأَشْجَارِ وَلَكِنْ لِطُوْلِ ظَمَأِ الهَوَاجِرِ وَقِيَامِ لَيْلِ الشِّتَاءِ وَمُكَابَدَةِ السَّاعَاتِ وَمُزَاحَمَةِ العُلَمَاءِ بِالرُّكَبِ عِنْدَ حِلَقِ الذِّكْرِ .

وَلَمَّا حَضَرَتْ أَبَا الدَّرْدَاءِ الوَفَاةُ وَجَعَلَ يَجُوْدُ بِنَفْسِهِ وَيَقُولُ أَلاَ رَجُلٌ يَعْمَلُ لِمِثْلِ مَصْرَعِيْ هَذَا أَلاَ رَجُلٌ يَعْمَلُ لِمِثْلِ يَوْمِيْ هَذَا أَلاَ رَجُلٌ يَعْمَلُ لِمِثْلِ سَاعَتِيْ هَذِهِ ثُمَّ قُبِضَ رَحِمَهُ اللهُ .

فَيَا أَيُّهَا الغَافِلُ المُهْمِلُ وَكُلُّنَا كَذَلِكَ انْتَبِهْ وَاغْتَنِمْ أَوْقَاتَ الصِّحَّةِ وَالسَّلاَمَةِ وَامْلأْ أَوْقَاتَكَ بِالبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ قَبْلَ أَنْ يُفَاجِئَكَ هَاذِمُ اللَّذَّاتِ وَيُحَالُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ وَتَنْدَمَ وَلاَتَ سَاعَةَ مَنْدَمِ .

شِعْراً :

تَغَنَّمْ سُكُوْنَ الحَادِثَاتِ فَإِنَّهَا
وَإِنْ سَكَنَتْ عَمَّا قَلِيْلٌ تَحَرَّكُ

وَبَادِرْ بِأَيَّامِ السَّلاَمَةِ إِنَّهَا
رِهَانٌ وَهَلْ لِلرَّهْنِ عِنْدَكَ مَتْرَكُ

شِعْراً :

نَهَارُكَ بَطَّالٌ وَلَيْلُكَ نَائِمٌ
وَعَيْشُكَ يَا مِسْكِينُ عَيْشُ البَهَائِمِ

آخر :

وَعَظَتْكَ أَجْدَاثٌ وَهُنَّ صُمُوْتُ
وَسُكَّانُهَا تَحْتَ التُّرَابِ خُفُوْتُ

أَيَا جَامِعَ الدُّنْيَا لِغَيْرِ بَلاَغِهِ
لِمَنْ تَجْمَعِ الدُّنْيَا وَأَنْتَ تَمُوْتُ

وَرَوَى المُزَنِي قَالَ دَخَلْتُ عَلى الشَّافِعِيِّ في مَرَضِهِ الذِيْ مَاتَ فِيْهِ فَقُلتُ لَهُ كيفَ أَصْبَحْتَ فَقَالَ أَصْبَحتُ مِنْ الدُّنيا رَاحِلاً وللإِخْوانِ مُفارِقاً وَلِسُوْءِ عَمَلِيْ مُلاَقِياً وَلِكَأْسِ المِنيَّةِ شَارِباً وَعَلى اللهِ وَارِداً فَلاَ أَدْرِيْ أَرُوْحِيْ تَصِيْرُ إلى الجَنَّةِ فَأُهَنِّؤُها أَوْ إلى النَّارِ فَأُعَزِّيْها ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُوْلُ :

وَلَمَّا قَسَى قَلْبِيْ وَضَاقَتْ مَذَاهِبِيْ
جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّيْ لِعَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِيْ ذَنْبِيْ فَلَمَّا قَرَنْتُهُ
بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا
وَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ
تَجُوْدُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا

آخَرُ :

أَجَاعَتْهُمْ الدُّنْيَا فَخَافُوا وَلَمْ يَزَلْ
كَذَلِكَ ذُو التَّقْوَى عَنْ العَيْشِ مُلْجَمَا
أَخُو طَيءٍ دَاوُدُ مِنْهُمْ وَمِسْعَرٌ
وَمِنْهُم وهَيْبٌ وَالعَرِيْبُ بْنُ أَدْهَمَا
وَفي ابْنِ سَعِيْدٍ قُدْوَةُ البِرِّ وَالنُّهَى
وفي الوَارِثِ الفَارُوْقِ صِدْقاً مُقَدَّمَا
وَحَسْبُكَ مِنْهُمْ بِالفُضَيْلِ مَعَ ابْنِهِ
وَيُوسُفَ إنْ لَمْ يَأْلُ أَنْ يَتَسَلَّمَا
أُوْلَئِكَ أَصْحَابِي وَأَهْلُ مَوَدَّتِيْ
فَصَلَّى عَلَيْهِم ذُو الجَلاَلِ وَسَلَّمَا
فَمَا ضَرَّ ذَا التَّقْوَى نِصَالُ أَسِنَّةٍ
وَمَا زَالَ ذُو التَّقْوَى أَعَزَّ وَأَكْرَمَا

وَمَا زَالَتْ التَّقْوَى تُرِيْكَ عَلى الفَتَى
إِذَا مَحَّضَ التَّقْوَى مِنْ العِزِّ مِيْسَمَا

آخــر :

امْنَعْ جُفُونَكِ طُوْلَ الَّيْلِ رَقْدَتَهَا
وامْنَعْ حَشَاكِ لَذِيْذَ الرِّي والشِّبَعَا
واسْتَشْعِرِ البِرَّ والتَّقْوَى ودُمْ بِهِمَا
حَتَّى تَنَالَ بِهِنَّ الفَوْزَ والرِّفَعَا

آخَرُ :

وَرَبِّكَ لَوْ أَبْصَرْتَ يَوْمَاً تَتَابَعَتْ
عَزَائِمُهُمْ حَتَّى لقَدْ بَلَغُوا الجَهْدَا
لأَبْصَرْتَ قَوْماً جَانَبُوا النَّوْمَ وَارْتَدَوْا
بِإِرْدِيَةِ التَّسْهَادِ واسْتَقْرَبُوا البُعْدَا
وَصَامُوا نَهَاراً دَائِماً ثُمَّ أَفْطَرُوا
عَلى بُلَغِ الأَقْوَاتِ وَاسْتَعْمَلُوا الكَدَّا
أُوْلَئِكَ قَوْمٌ حَسَّنَ اللَّهُ فِعْلَهُمْ
وَأَوْرَثَهُم مِنْ حُسْنِ فِعْلِهِمْ الْخُلْدَا

اللهم إنا نسألك الخير كله عاجله وآجله ما علمنا منه وما لا نعلم ونعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ماعلمنا منه وما لم نعلم ونسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ونعوذ لك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل ونسألك أن تغفر لنا ولوالذينا وجميع المسلمين وترحمنا وإياهم برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمدٍ وآله وصحبه أجمعين .

شعرا :

اعتــزلْ ذكــر الغــواني والغَــزَلْ   وقُــل ِ الفصــلَ وجــانبْ من هَــزَلْ
وَدَع الــذِّكــرى لأيــام ِ الـصِّبــا   فَــلأيــام ِ الـصِّبــا نــجمٌ أَفَــلْ
إنّ أهْــنــا عِــيشَــةٍ قَضَّــيْتَــهــا   ذهَبتْ لــذَّاتُــهــا والإثْــمُ حَــلّ
واتْــرُكِ الـغــادَةَ لا تحفــل بِهــا   تُمس فى عِــزّ رفيــع وتُــجــلّ
وافْتكــرْ في مُنتهىٰ حُسْــنِ الّــذِي   أنْــتَ تــهــواهُ تَــجِــدْ أَمْــراً جَــلَلْ
وَاهجُــرِ الخمــرةَ إنْ كنْتَ فتىً   كيفَ يسعَىٰ في جُنــونٍ من عَقَــلْ
واتَّــقِ الله فــتــقــوىٰ اللهِ مَــا   بــاشَرَتْ قلْبَ امــرِىءٍ إلّا وَصَــلْ
لَيْسَ مَنْ يَقْــطَعُ طُــرْقــاً بَــطَلاً   إنَّــمَــا مَــن يــتَّــقِــي اللهَ بَــطلْ
صَــدِّقِ الـشّــرْعَ ولا تَــركَنْ إلــى   رَجُــل ٍ يَرْصُــدُ في الليــلِ زُحَــلْ
حــارَتِ الأفــكــارُ في قُــدرة مَــن   قــد هــدانــا سُبْلَنــا عــزّ وجــلّ
أيْــنَ نُــمــرودُ وكَــنــعــانُ ومَــن   مَــلَكَ الأرضَ وولّــى وعَــزَلْ
أيْــنَ عــادٌ أيــنَ فِــرعــوْنُ وَمَــنْ   رَفَــعَ الأهــرامَ مَن يَسمــعْ يَخَــلْ
أيــنَ مَن ســادُوا وشــادُوا وبــنــوْا   هَــلَكَ الكــلُّ فلمْ تُــغْنِ الْقُــلَلْ
أينَ أربــابُ الحِجَىٰ أهْــلُ النُّهَــىٰ   أيــنَ أهْــلُ العــلم ِ والقــومُ الأُوَلْ
ســيُــعــيــدُ الله كــلّاً مــنــهــمُ   وسَيَجْــزِي فــاعِــلًا مــا قَــد فَعَلْ
يــا بُنيّ اسمَــعْ وصــايــا جَمَعتْ   حِكَمــاً خُصّتْ بهــا خيــرُ المِلَلْ
اطْلبِ العــلمَ ولا تكسَــلْ فَمَــا   أبْعــدَ الخَيْرَ عَلَىٰ أهْــلِ الكَسَــلْ
واحتَفِــلْ لِلْفِقْــه فــي الــدِّينِ وَلاَ   تَشتَغِــلْ عَنْــه بمــال ٍ وخِــوَلْ
واهْجُــرِ الــنَّومَ وَحصِّلْه فَمَنْ   يَعرفِ المطلوبَ يحقِرْ مــا بَــذَلْ
لا تــقــلْ قَــد ذهَبَــت أربــابُــه   كــلُّ منْ ســارَ على الــدَّربِ وَصَــلْ
في ازديــادِ العلم ِ إرغــامُ العِــدَىٰ   وجَمــالُ العلم إصــلاحُ العــمــلْ

جَمِّلِ المنطِقَ بالنَّحوِ فَمَن حُرِمَ الإعرابَ بالنُّطق اخْتَبَلْ
أُنظمِ الشِّعرَ ولازمْ مَذهَبِي في اطِّراح الرِّفد لا تَبغِ النِّحَلْ
فَهْوَ عُنوانٌ علىٰ الفَضْلِ وَمَا أحْسنَ الشِّعْرَ إِذَا لَمْ يُبْتَذَلْ
ماتَ أهلُ الجود لم يبْقَ سوىٰ مُقْرِفٌ أو مَن على الأصل اتَّكلْ
أنا لا أختارُ تقبيلَ يدٍ قَطعُها أجْملُ من تلك القُبَلْ
إنْ جَزَتْني عنْ مَديحي صِرْتُ في رقِّها أو لا ، فيكفيني الخَجَلْ
مُلْكُ كسرىٰ عنه تُغْني كِسْرةٌ وعنِ البحرِ اكْتفاءٌ بالوَشَلْ
أعذبُ الألفاظِ قَوْلي لَكَ : خُذْ وأمرُّ اللّفظِ نُطقي بِلَعَلّ
ليس ما يَحْوي الفتىٰ من عزْمِهِ لا ولا ما فات يوماً بالكَسَل
اطْرحِ الدنيا فَمِنْ عاداتِها تخفِضُ العالي وتُعلِي من سَفُلْ
عيشةُ الرّاغب في تحصيلها عِيشَةُ الزّاهد فيها أو أقلّ
كمْ جهولٍ وهْوَ مُثْرٍ مُكثِرٌ وعليمٍ ماتَ منها بالعِلَل
كم شجاعٍ لم ينلْ منها الْمُنىٰ وجَبانٍ نالَ غاياتِ الأملْ
فاتْركِ الحِيلَة فيها واتَّئِدْ إنّما الحيلةُ فِي تْركِ الحِيَلْ
أيُّ كفٍّ لم تنلْ مما تُفِدْ فَرَماها الله مِنْهُ بالشَّلَلْ
لا تُقلْ أصْلي وفصْلي أبَداً إنَّما أصلُ الفتىٰ ما قَدْ حَصَلْ
قد يَسودُ المرءُ مِن غيرِ أبٍ وبِحُسْنِ السَّبكِ قد يُنْفىٰ الزَّغَلْ
وكَذا الوَردُ مِنَ الشوْكِ ومَا يَطلَعُ النَّرجسُ إلا مِنْ بَصَلْ
مَعَ أنِّي أحْمدُ الله علىٰ نَسبِي إذْ بِأبي بَكْرِ اتَّصلْ
قيمةُ الإنسانِ ما يُحْسِنُهُ أكْثَرَ الإنسانُ منه أو أقَلّ
أُكْتُمِ الأمْريْن فَقراً وغِنىً واكْسَبِ الفِلْسَ وَحاسِبْ مَنْ مَطَلْ

وادَّرِعْ جِدّاً وكَدّاً واجْتَنِبْ ... صُحبةَ الحَمْقىٰ وأربابَ الدُّوَلْ
بَيْنَ تبذيرٍ وبُخلٍ رتْبةٌ ... وكِلَا هٰذَيْنِ إنْ زادَ قَتَلْ
لا تخُضْ في حقِّ ساداتٍ مضوْا ... إنَّهم ليسوا بأهلٍ للزَّلَلْ
وتغافَلْ عن أُمورٍ إنه ... لم يَفُزْ بالحَمْدِ إلَّا مَنْ غفلْ
ليس يَخلُو المرءُ مِن ضِدٍّ وَلَوْ ... حاوَلَ العُزْلةَ في رأْسِ جَبَلْ
مِلْ عنِ النَّمَّامِ وَازْجُرْه فَمَا ... بَلَّغَ المكروهَ إلَّا مَنْ نَقَلْ
دارِ جارَ السوْءِ بالصَّبرِ فإن ... لم تَجدْ صبْراً فما أحلىٰ النُّقَلْ
جانِبِ السُّلْطانَ واحْذَرْ بَطْشَهُ ... لا تُعانِدْ مَنْ إذا قالَ فَعلْ
لا تَلِي الحُكْمَ وإن هُمْ سَأَلُوا ... رغبةً فيكَ وَخالِفْ مَن عَذَلْ
إنَّ نصفَ الناسِ أَعداءٌ لِمَنْ ... ولِيَ الأَحْكامَ هٰذا إنْ عَدَلْ
فهْو كالمحبوسِ عنْ لَذَّاتِهِ ... وكِلَا كَفَّيْهِ فِي الحَشْرِ تُغَلّ
إن للنَّقصِ والاسْتِثْقالِ فِي ... لَفْظَةِ القاضِي لَوَعظاً ومَثَلْ
لا توازىٰ لذةُ الحكمِ بِما ... ذاقَه الشخصُ إذا الشخصُ انْعزلْ
فالوِلاياتُ وإن طابَتْ لِمَن ... ذاقَها فالسُّمّ في ذاكَ العَسَلْ
نَصَبُ المنْصِبِ أوْهىٰ جَلَدِي ... وَعَنائي مِنْ مُداراةِ السّفلْ
قصِّرِ الآمالَ في الدُّنْيا تَفُزْ ... فَدليلُ العَقْلِ تَقْصيرُ الأملْ
إنَّ مَنْ يَطْلبُهُ الموْتُ علىٰ ... غِرَّةٍ مِنهُ جَديرٌ بالوَجَلْ
غِبْ وَزُرْ غِبّاً تَزِدْ حُبّاً فمَن ... أكثَرَ التّردادَ أقصاهُ المَلَلْ
خُذْ بنصلِ السيفِ واتْرك غِمْدَهُ ... واعتبِر فضْلَ الفَتىٰ دونَ الحُلَلْ
لا يضُرُّ الفضلَ إقلالٌ كَما ... لا يضُرُّ الشمسَ إطباقُ الطَّفَلْ
حبُّكَ الأوطانَ عجزٌ ظاهِرٌ ... فاغْتَرِبْ تَلْقَ عَنِ الأَهْلِ بَدَلْ
فَبِمُكثِ الماءِ يبقىٰ آسناً ... وسُرَىٰ البدْرِ بِهِ البدرُ اكْتَملْ

أيُّهـا العَـائِبُ قَـوْلي عَبَثـاً ... إنَّ طِيبَ الـوردِ مُؤْذٍ لِلْجُعَـلْ
عَـدِّ عنْ أسهُـمِ قَـوْلِي واسْتَتِـرْ ... لا يُصِيبَنَّـكَ سَهْمٌ من ثُعَـلْ
لا يـغُـرَّنَّـكَ لِيـنٌ من فـتـىً ... إنَّ لـلحيَّـاتِ لـينـاً يُـعْـتـزلْ
أنـا مِثْلُ المـاءِ سهـلٌ سـائِـغٌ ... وَمـتـىٰ سُـخِّـنَ آذىٰ وَقَـتـلْ
أنـا كـالْخَيْـزورِ صَـعبٌ كَسْرُهُ ... وَهْـو لَدْنٌ كيف مـا شئْتَ انْفَتلْ
غـيـرَ أنيّ فـي زَمـانٍ مَـنْ يَكُـنْ ... فيـه ذَا مـالٍ هُـو المـوْلىٰ الأجـلّ
واجِبٌ عـنـدَ الـورىٰ إكـرامُـهُ ... وقـليـلُ المـالِ فِيهـم يُسْتَقَـلّ
كـلُّ أهـلِ العصْـرِ غمْـرٌ وأنـا ... منهمُ فـاتـركْ تَفـاصِيل الجُمَـلْ
وَصـلاةً وسـلامـاً أبـداً ... للنبيِّ المصـطفىٰ خيـرِ الـدُّول
وَعـلىٰ الآل الـكِـرامِ الـسُّعَـدا ... وعَلىٰ الأَصحـابِ والقـومِ الأُوَلْ
مَـا ثَـوَىٰ الـرَّكْبُ بِعُشّـاقٍ إلىٰ ... أيـمنِ الْـحيِّ وَمـا غَـنَّىٰ رَمَـلْ

فصل ختام

إعلم يَا أخِي أنَّه يَنْبَغِي للإنسان أنْ يُكْثِرَ مِن سُؤال الله ويَتَحَرَّى أوْقَاتَ الإجابة لَعَلَّ الله جَلَّ وَعَلا أن يَسْتَجِيْبَ لَهُ قال الله تبارك وتعَالى وهو أصْدَقُ القائِلين : ﴿ وإذا سَألَكَ عِبَادي عَنِي فإني قريب أُجِيْبُ دَعْوةَ الدَّاعي إذِا دعان ﴾ وقال تَبَارَكَ وتعالى وهو أوفى الواعدين : ﴿ وقال رَبُّكم أدْعُوني أسْتجب لكم ﴾ وقال تعالى : ﴿ أُدْعُوا رَبَّكُم تَضَرعاً وخُفْيةً ﴾ وقال تعالى : ﴿ ويَدْعُونَنَا رَغَباً ورهَباً ﴾ وقال تعالى : ﴿ فلولا أنه كان من المُسَبِّحِين لَلَبث في بَطْنِهِ إلَى يَوم يُبْعَثُون ﴾ وأن يَفْتِحَ الدُعَاءَ بالثناءِ على الله والصلاة عَلَى رسوله صلى الله عليه وسلم .

وَقالَ النَّبيُّ ﷺ : « لَنْ يَنْفَعَ حذْرٌ مِنْ قَدَرٍ ؛ وَلكِنَّ الدُّعاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لمْ يَنْزِلْ ، فَعَلَيْكُم بالدُّعاءِ عِبَادَ اللهِ » . رَواهُ أحمدُ وَالطَّبراني عنْ مُعاذٍ رَضيَ اللهُ عنه .

قالَ النَّبيُّ ﷺ : « إنَّ اللهَ تَعالى حَيِيٌّ كَريمٌ يَسْتَحي إذا رَفَعَ الرَّجُلُ إليْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُما صُفْراً خائِبتَينِ » . رَواهُ أَحمَدُ وَأَبو داود والتِّرمذي وابن ماجَه والحاكمُ عن سَلمَانَ رضي اللهُ عنه .

وَقالَ النَّبيُّ ﷺ : « ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنونَ بالإجابَةِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لا يَسْتَجيبُ مِنْ قَلْبٍ غافِلٍ لاهٍ » . رَواهُ التّرمذي وَالْحَاكم عن أبي هريرة رَضي اللهُ عنه .

وَقالَ النَّبيُّ ﷺ : « مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو بِدُعاءٍ إلاَّ اسْتُجيبَ لَهُ ؛ فإمَّا أَنْ يُعَجَّلَ لَهُ في الدنيا ، وإمَّا أَنْ يُؤَخَّرَ لَهُ في الآخِرَةِ ، وإمَّا أَنْ يُكَفَّرَ عَنهُ مِنْ ذُنوبِهِ بِقَدْرِ مَادَعا ، مَا لَمْ يَدْعُ بإثمٍ أَوْ قَطيعَةِ رَحِمٍ ، أَوْ يَسْتَعْجِلُ يقولُ : دَعَوْتُ رَبِّي فَمَا اسْتَجابَ لي » . رَواهُ التِّرمذي عن أَبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عَنْه .

وَقالَ النَّبيُّ ﷺ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجيبَ اللهُ لَـهُ عِنْدَ الشَّـدائِـدِ وَالْكُرَبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعاءَ في الرَّخاءِ » . رَواهُ التّرمذي وَالحاكمُ عن أبي هريرةَ رَضيَ اللهُ عنهُ .

وَلَقَدْ عَلَّمَ النَّبيُّ ﷺ أُمَّتَهُ كَيفَ تَدْعو فقَالَ ﷺ : « إذا صَلَّى أَحَدُكُم فلْيَبْدَأْ بِتَحْميدِ اللهِ تَعالى وَالثَّناءِ عَليهِ ثُمَّ لْيُصَلِّ على النَّبيِّ ﷺ ثُمَّ لْيَدْعُ بمَا شـاءَ » . رَواهُ أبو داود والتِّـرمذي وابنُ حبَّـانَ والحـاكمُ والْبيهقيُّ عنْ فُضالَةَ بنِ عُبَيدٍ رضيَ اللهُ عنه .

وَقالَ النَّبيُّ ﷺ : « إذا دَعا أَحَدُكُم فَلْيُؤمِّنْ عَلَى دُعاءِ نَفْسِهِ » . رَواهُ ابنُ عَدِيٍ عنْ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه .

وَقالَ النَّبيُّ ﷺ : « لاَ يَجْتَمِعُ مَلأٌ فَيَدْعُوا بَعْضُهُمْ وَيُؤمِّنُ بَعْضُهُمْ إلاّ أجابَهُمُ الله » . رَواهُ الطَّبرانيُّ والحْاكمُ وَالْبَيهقيُّ عن حَبيبِ بنِ سَلَمَةَ الْفِهْريِّ رَضيَ اللهُ عنه .

وقالَ النَّبيُّ ﷺ : « سَلُوا اللهَ ببطُونِ أكُفِّكم وَلاَ تَسْألوهُ بظُهورِها فَإذا فَرَغْتُمْ فَامْسَحوا بَها وَجُوهَكم » . رَواهُ أبو داودَ والبَيهقيُّ عنِ ابنِ عباسٍ رَضيَ اللهُ عنهُما .

وَقالَ النَّبيُّ ﷺ : « لاَ تَدْعوا على أنفُسِكُم إلاّ بخَيرٍ ، فَإنَّ المَلائكَةَ يُؤمِّنونَ على ما تَقولونَ » . رَواهُ أحمَدُ وَمُسلم وأَبو داودَ عنْ أُمِّ سَلَمَـةَ رَضيَ اللهُ عنهَا .

وَقالَ النَّبيُّ ﷺ : « لا تَدعُوا على أنفُسِكم وَلاَ تَدْعوا على أَوْلادكُم وَلاَ تَدْعوا على خَدَمِكُم وَلاَ تَدْعوا على أَمْوالِكُم لا تُوَافِقُ مِنَ اللهِ سَاعَةً نيلَ فيها عَطاءٌ فَيُسْتَجابُ لَكُم » . رَواهُ أبو داودَ عنْ جابرٍ رَضيَ اللهُ عنه .

وقالَ النَّبيُّ ﷺ : « تُفْتَحُ أَبوابُ السَّماءِ وَيُسْتَجابُ الدُّعاءُ في أَرْبَعَةِ مَواطِنَ : عنْدَ الْتقاءِ الصُّفوفِ في سَبِيلِ اللهِ ، وَعنْدَ نُـزولِ الْغَيْثِ ، وَعنْدَ إقامَةِ الصلاةِ ، وَعِنْدَ رُؤْيَةِ الْكَعبَةِ » . رَواهُ الطَّبراني عن أَبي أُمامَةَ رَضيَ اللهُ عنهُ .

وَقالَ النَّبيُّ ﷺ : « مَنْ كانَتْ لَهُ إلى اللهِ حاجَةٌ فَلْيَدْعُ بِها دُبُرَ كلِّ صَلاةٍ مَفْروضَةٍ » . رَواهُ ابن عساكِر عن أبي موسى رَضيَ اللهُ عنهُ .

وَقالَ النَّبي ﷺ : « ثَلاثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعوَتُهُمْ : الإمامُ الْعادلُ ، وَالصَّائمُ

حَتّى يُفْطِرَ ، وَدَعْوةُ الْمَظْلومِ يَرْفَعُها الله فَوْقَ الْغَمَامِ ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَيقولُ الرَّب تَبارَكَ وَتَعالى : وَعِزَّتي لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حينٍ » . رَواهُ أَحمَدُ وَالتِّرمذي وابن ماجَه عن أبي هُرَيرةَ رَضيَ الله عنه

وقالَ النَّبيُّ ﷺ : « دُعاءُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ مُسْتَجابٌ لِأَخيهِ بظَهْرِ الْغَيْبِ ، عِنْدَ رَأْسه مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِهِ ، كلَّما دَعا لِأَخيه بخَيرٍ قالَ المَلكُ : آمينَ وَلَكَ مِثْلُ ذلكَ » . رَواهُ أَحمَدُ ومُسلم وابنُ ماجَه عن أَبي الدَّرداءِ رضيَ الله عَنه .

وَقالَ النَّبيُّ ﷺ : «سَلُوا الله حَوائجَكُم حَتّى المِلْحَ » . رَواهُ البَيهقيُّ عن بَكْر بن عبد الله الْمُزني رَضيَ الله عنه مُرسَلاً .

وَقالَ النَّبيُّ ﷺ : « يَنْزِلُ رَبُّنا تَبارَكَ وَتَعالى كلَّ لَيْلَة إلى السَّماءِ الدُّنيا حينَ يَبْقى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخرِ فَيقولُ : مَنْ يَدْعوني فأَسْتَجيبُ لَهُ ، وَمَنْ يَسْأَلني فَأُعْطيه ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُني فَأَغْفِرُ لَهُ » . رَواهُ أَحمدُ والبُخاريُّ ومُسلم وَأَبو داودَ وَالترمذيُّ وابنُ مَاجه عن أَبي هُرَيرةَ رَضيَ الله عنه .

وَقالَ النَّبيُّ ﷺ : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ في جَوْفِ اللَّيلِ الآخرِ ، فإنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ في تِلْكَ السَّاعةِ فَكُنْ » . رَواهُ التِّرمذيُّ والنَّسائيُّ والحاكمُ عن عَمْرو بن عَنبَسَةَ رَضيَ الله عنهُ .

وَقالَ النَّبيُّ ﷺ : « يدْعو الله بالمُؤمِنِ يَوْمَ الْقيَامَةِ حَتّى يُوقِفَه بَينَ يَدَيْهِ ، فيقولُ : عَبْدي ، إنّي أَمَرْتُكَ أَنْ تَدْعُوَني وَوَعَدْتُكَ أَنْ أَسْتَجيبَ لَكَ ؛ فَهَل كُنتَ تَدْعوني ؟ فَيقولُ : نَعَمْ يَارَبِّ . فَيَقولُ : أَمَا إنَّكَ لَمْ تَدْعُني بدَعْوَةٍ إلاّ اسْتَجيبَ لَكَ ؛ أَلَيْسَ دَعَوْتَني يَوْمَ كَذا وَكَذا لِغَمٍّ نَزَلَ

بِكَ أَنْ أُفَرِّجَ عنْكَ فَفَرَّجْتُ عنْكَ ؟ فيقولُ : نعَمْ يَارَبِّ . فَيقولُ : إني عَجَّلْتُها لَكَ في الدُّنيا . وَدَعَوْتَني يَوْمَ كَذا وَكَذا لِغَمٍّ نَزَلَ بِكَ أَنْ أُفَرِّجَ عَنكَ فلَمْ تَرَ فَرَجاً ؟ قالَ : نعَمْ يَارَبِّ . فَيقولُ : إني ادَّخَرْتُ لَكَ بها في الْجَنَّةِ كَذا وَكَذا . وَدَعَوْتَني في حاجَةٍ أَقْضيها لَكَ في يَوْمِ كَذا وَكَـذا فَقضَيْتُها ؟ . فَيقول : نعَمْ يَارَبِّ . فَيقولُ : إني عَجَّلْتُها لَكَ في الدُّنيا . وَدَعَوْتَني يَوْمَ كَذا وَكَذا في حاجَةٍ أَقْضِيهَا لَكَ فَلَمْ تَرَ قَضاءهَا . فَيقولُ : نعَمْ يَارَبِّ . فَيقولُ : ادَّخَرْتُهَا لَكَ في الجَنَّةِ كَذا وَكَذا » .

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « فَلا يَدَعُ اللهُ دَعْوَةً دَعا بها عَبدُهُ الْمُؤمِنُ إلاّ بَيَّنَ لَهُ ؛ إمّا أَنْ يَكُونَ عَجَّلَ لَهُ في الدُّنيا ؛ وَإمّا أَنْ يَكُونَ ادَّخَرَ لَهُ في الآخِرَةِ . قالَ : فَيقولُ المُؤمنُ في ذلِكَ المَقامِ : يَا لَيتَهُ لَمْ يَكُنْ عَجَّلَ لَهُ شَيْئاً مِنْ دُعائِهِ » . رَواهُ الحاكمُ عن جابر رضيَ اللهُ عنه .

وَقالَ النَّبيُّ ﷺ : « أَيُّها النَّاسُ ، إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقبَلُ إلاّ طَيِّباً . وَإنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤمِنينَ بمَا أَمَرَ به المُرْسَلينَ فَقالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صَالحاً إنِّي بما تَعْمَلونَ عَليمٌ ﴾ . وَقالَ اللهُ تَعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْناكُم ﴾ . ثُمَّ ذَكَرَ : الرَّجلُ يُطيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْه إلى السَّماءِ : يَارَبِّ يَارَبِّ وَمَطعَمُهُ حَرامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرامِ فَأَنّى يُسْتَجابُ لِذلِكَ » . رَواهُ أَحمدُ وَمُسْلم والترمذيُّ عن أبي هِريرةَ رَضيَ اللهُ عَنهُ . فَمَنْ أرادَ أَنْ تُجابَ دَعْوَتُهُ فَلْيُطِبْ مَطْعَمَهُ .

إنْتَهى

(خاتِمَةٌ ، وَصِيَّةٌ ، نَصِيْحَةٌ)

إعْلَم وَفقَنا اللَّهُ وإِيَّاكَ وجَمِيْعِ المسلمين لما يُحِبُّهُ اللَّهُ ويَرْضَاهُ أَنَّ مِمَّا يَجِبُ الاعْتِنَاءُ بِه حِفْظًا وعَمَلاً كلام اللَّه جَلَّ وعَلا وكلام رسوله ﷺ .

وأنه يَنْبَغِي لِمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تعالى أَنْ يَحُثَّ أَوْلاَدَه على حِفْظ القُرآن وما تَيسَّرَ مِن أَحَاديث النبي ﷺ المتفق على صِحَّتِهَا عنه كالبُخَارِي ومُسْلم .

ومِن الفقه مُختصَر المقْنع لِيَتَيسَّرَ لَهُ اسْتِخْرَاجُ المسائل ويَجْعَلُ لأَوْلادِهِ مَا يَحُثُّهُم على ذَلِكَ .

فَمَثَلاً يَجْعَلُ لِمَنْ يَحْفَظُ القُرآنَ على صَدْرِه حِفْظًا صَحِيْحًا عشَرَةَ آلافِ أَوْ أَزْيَد أَوْ أَقل حَسَبَ حالِهِ في الغِنَى .

ومِن الأَحَادِيث عُقودَ اللُؤلؤ والمرْجَان فيما اتفق عَلَيْهِ الإمَامَانِ البُخَارِي ومسلم ، يَجْعَلُ لِمَنْ يَحْفَظُ ذَلِكَ سِتَّةَ آلاف .

فإِنْ عَجزوا عن حِفْظِهَا فالعُمدة في الحديث يَجْعَلُ لِمَنْ حَفِظها ثلاثة آلاف أَوْ الأربعين النَّواوِيَّة ويَجْعَل لمن يَحْفَضها أَلْفاً .

ويَجْعَلُ لِمَنْ يَحْفَظُ مُخْتَصَرَ المقنع في الفقه أَلْفَيْنِ مِن الريالاتِ فالغَيبُ سَبَبٌ لحفظ المسائل وسَبَبٌ بِسُرعَةِ اسْتِخْرَاج ما أُرِيْدَ مِن ذَلِك وما أَشْكَلَ مَعْنَاه أَوْ يُدَخِّلُهُم في مَدَارِسِ تَحْفِيْظِ القُرآن فَمَدَارِسُ تَعْلِيْمِ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ هِيَ مَدَارِسُ التَّعْلِيْمِ العَالِيْ الممْتَازِ البَاقِي النافِعِ في الدُنْيَا والآخرَةِ .

فَمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ لِذَلِكَ وعَمِلَ اولادُهُ بِذَلِكَ كان سَبَبًا لحُصُولِ الأَجرِ مِن اللَّهِ وسبَبًا لِبِرِّهِم بِه ودُعَائِهِم لَهُ إِذَا ذَكَروا ذَلِكَ منه ولَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا مُبارَكًا يَعْمَلُ بِهِ أَوْلاَدُهُ مَعَ أَولادِهم فَيزَيْدُ الأَجْرُ لَهُ ولَهُم نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوفِّقَ الجَمِيعَ لِحُسْنِ النِّيَةِ إِنَّهُ القادِرُ عَلَى ذَلِكَ .

تمَّ هذَا الجُزْءُ الثاني بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيْقِهِ وَنسْأَلُ الله الحَي القَيُّوْمُ العَلِيُّ العَظِيْمَ ذا الجَلَالِ والإِكْرَامِ الوَاحِدَ الأَحَدَ الفَرْدَ الصَّمَدَ الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ ولَمْ يَكُنْ لَهُ كفواً أَحَد أَنْ يُعِزَّ الإِسْلَامَ والمُسْلِمِيْنَ وأَنْ يَخْذُلَ الكَفَرَةَ والمُشرِكِيْنَ وَأَعْوَانَهُمْ وأَنْ يُصْلِحَ من في صلاحه صَلاحٌ للإِسْلامِ والمُسْلِمِيْنَ وَيُهْلِكَ مَنْ في هلَاكِهِ عز وصلاح للإِسْلامِ والمُسْلِمِيْنَ وَأَنْ يَلُمَّ شَعَثَ المُسْلِمِيْنَ وَيَجْمَعَ شَمْلَهُمْ وَيُوَحِّدَ كَلِمَتَهُمْ وَأَنْ يَحْفَظَ بِلَادَهُمْ ويُصْلِحَ أولادَهُمْ وَيَشْفِ مَرْضَاهُمْ وَيُعَافِي مُبْتَلَاهُمْ وَيَرْحَمَ مَوْتَاهُمْ وَيَأْخُذَ بِأَيْدِيْنَا إلى كُلِّ خَيْرٍ وَيَعْصِمَنَا وإِيَّاهم مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَيَحْفَظنا وإِيَّاهم مِن كُلِّ ضُرٍ وأَنْ يَغْفِرَ لنا ولوالدينا وجميع المسلمين بِرَحْمَتِهِ إِنَّه أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلى الله على محمد وعلى آله وَصَحْبِهِ أجمعين .

والله المسئول أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به نفعاً عاماً إنه سميع قريب مجيب على كل شيء قدير .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين . ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً .

عبد العزيز المحمد السلمان

المدرس في معهد إمام الدعوة بالرياض

سـابقـاً

فهرس الجزء الثاني من موارد الظمآن

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

مطابع الخالد للأوفست
EL-KHALED OFFSET PRINTING PRESS
ص ب ٣٠١٨ الرياض ١١٤٧١ تلفون ٤٧٩٣٥٦٩/٤٧٩١٠٩٦
P O Box3018 Riyadh11471 Tel 4793569/4791096

